

رَفَعُ
 عبد الرحيم الخفاري
 (أسكنه الفردوس)
العجّاج
 حياته ورجله

تأليف
الدكتور عبد الحفيظ اسطلي
مدرس الأدب الإسلامي وفقرة اللغة
في جامعة ملب

توزيع
مكتبة اطلال
دمشق

مقدمة

عبد الرحيم الخوري

المعلم (المدرس)

إن لرجز العجاج أهمية بالغة في دراسة الاتجاهات الأدبية خلال القرن الهجري الأول ، ففي رجزه تضح الحقائق البارزة لتلك المدرسة التي بدأها الأغلب ووجدتها العجاج ، ومن خلال هذه الحقائق يمكن للباحث أن يجد سبيلاً إلى دراسة عدد من أوجه النشاط الأدبي واللغوي والاجتماعي لتلك الفترة من تاريخنا ، أضف إلى ذلك أن هذا الرجز أشبه بمعجم لغوي تطوي على كثير من مشكلات اللغة بنجرها وأبنيها ومعاني ألفاظها .

ومع ذلك كله ليس من دراسة للعجاج باعتباره رأس مدرسة الرجز في العصر الإسلامي ، أو الرجز بوجه عام كشفاً عن اتجاهاته وما جد فيه من تيارات أدبية مختلفة بين عصر تطوره لعهد بني أمية ، والعصور الأدبية التالية ، بل إن ديوان العجاج لم يحظ بعناية علمية ، هو أهل لها ، وجدير بها ، ولذا نشره المنشرق الواردت ضمن مجموعة « أشعار العرب » ، ولا شك أننا نحمد لألواردت أنه أخرج ديوان العجاج في هذه المجموعة ، وعانى في سبيله جزوة الرجز ومسالكه الصعبة العسرة ، إلا أن عمله بوجه عام لا ينصف بالمنهجية العلمية تماماً ، فالأراجيز ناقصة ، والشروح متعددة ، والتفريغ قاصر جداً ، والمصادر تعدّ على الأصابع ، ومثل هذه الأراجيز لا ينشر دون دأب طويل على تحقيقها وشرحها وتوجيهها وإعداد المصادر الكثيرة لمشكلاتها اللغوية والنحوية ، ولا سيما أن هذا الديوان لا يستغني عنه باحث في العربية ، لأنه

هذه الدراسة جزء من رسالة الدكتوراه
قدّمت إلى جامعة القاهرة ، ونوقشت بين يدي
الجمهور في ١٩٦٩/٩/٢٧ ، ونال بها المؤلف لقب
دكتور في الآداب .

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مصدر رئيسي لكثير من شواهد اللغويين والنحاة والمفسرين ومن إليهم ، وكم تكون خيبة الأمل مريرة لدى الباحث ، حين يعود يشاهد إلى ديوان العجاج ، فلا يجد ضبطاً دقيقاً ، أو شرحاً موثقاً ، أو تخریجاً كافياً ، أو مصادر تعين على تتبع ما في البيت من إشكال في النحو أو اللغة .

ولذلك كله اتخذت ديوان العجاج موضوعاً لرسالة الدكتوراه ، راجياً أن أوفق إلى دراسته دراسة علمية تكشف عما فيه من خصائص واتجاهات ، وتحقيقه تحقيقاً علمياً دقيقاً يفي بما يحتاج الباحث حين العودة إليه ، أو التنبع لبعض مشكلاته . ومن ثم كان عملي ينقسم إلى مرحلتين : الأولى دراسة للعجاج وخصائص رجزه ، والثانية تحقيق لديوانه بشرح الأصمعي .

وهذا الكتاب يُقدِّمُ القسم الخاص بدراسة العجاج : حياته ورجزه ، ويتألف من قسمين وستة فصول ، إذ بدأت الحديث بتمهيد حول الإطار السياسي والاجتماعي والفكري لعصر العجاج ، وذلك تيسيراً لفهم بعض الاتجاهات التي أثرت في العجاج وفي أدبه معاً .

ثم كان الفصل الأول لتعرف حياة العجاج ، فتحدثت فيه عن نسبه وعشيرته ، ونشأته ورحلاته ، ثم عقيدته ، وما يتصل بذلك من جزئيات تكمل تلك الصورة لراجز بني سعد .

ولمّا انحلت معالم هذه الصورة إلى حدٍّ ما ، لم يكن من المنطق أن تتحدث عن خصائص رجزه ، قبل الوقوف على مصادر هذا الرجز أولاً ، ثم على توثيقه ثانياً ، ولهذا كُتِبَ الفصل الثاني يتحدث عن مصادر رجز العجاج ، فوفقت على ديوانه ، باحثاً عن الطرق التي وصل بها إلينا ، موثقاً رواية الأصمعي ، مؤكداً نسبة الشرح إليه ، بأسطاً خصائص هذا الشرح ، مُعَرِّفاً بمصادر رجز العجاج في غير الديوان .

ثم كان الفصل الثالث خاصاً بتوثيق رجز العجاج ، وهنا جعلت التوثيق يذهب في اتجاهين اثنين : الأول دراسة ما داخل رجز العجاج من رجز منحول عليه ، والثاني ما اضطربت نسبته بين العجاج وغيره من الرجاز والشعراء ، ولئن كانت ظاهرة الانتحال لا تكاد تستبين في رجزه ، فظاهرة الاضطراب ذات سلطان قَوسِعَ العديد من أراجيزه ، ومع هذا الانساع فقد وفقت منها جميعاً أُنس من الأدلة ما يميل بكل أرجوزة أو مقطوعة إلى العجاج أو إلى غيره ، وبذلك أمكن تشذيب أراجيزه ، وأصبح من الهين أن تُدرس موضوعاتها وخصائصها بعد أن زالها كل دخيل أو غريب .

ومن ثم كان الفصل الرابع يتناول موضوعات رجز العجاج ، وقد بدأت به بإلقاء نظرة سريعة على موضوعات الرجز قبل العجاج ، لئرى ما كُتِبَ للأغلب العجلي من دور في تطورها ، وما كان للعجاج من دور واسع في هذا التطوير ، ومن ثم انتقلت إلى الموضوعات التي تناولها العجاج في رجزه ، من نسيب ومدح ، وفخر وهجاء ، ووعظ وحكمة ، ووصف وتصور ، فكانت ألق عند كل من هذه الموضوعات ، مبيّناً لخصائصه ، شارحاً لاتجاهاته ، واحداً لصلاته بالقديم أو بالجديد لعهد بني أمية .

ثم كان الفصل الخامس لدراسة الخصائص الفنية في رجزه ، وهنا تناولت الخصائص المعنوية أولاً ، ثم الخصائص اللفظية ، وأفردت للخصائص اللغوية والنحوية والصرفية الفصل السادس ، وبهذا تمّت لنا دراسة الخصائص التي أرادها العجاج لرجزه ، وبني عليها مدرسته التي امتدت إلى أواسط القرن الهجري الثاني .

وبعد أن تكاملت مراحل الدراسة ، كان لا بد من خاتمة تلخص ماورد في تلك المراحل من آراء ، وتوجز ما تثار فيها من اتجاهات ، فوضعت خاتمة

تلخص ذلك كله .

وبما أنني أقدم هذه الدراسة في كتاب مستقل ، فقد عرضت لي فكرة جعلت تقريري بإخراج بعض الأبحاث من الدراسة إلى مقدمة الديوان لاتصالها الوثيق به ، ولكنني وقفت حائلاً دون ذلك ، لأن الفصل بين الدراسة والديوان لا يبدو أن يكون شكلياً فحسب ، ولا بد من التكامل بينها باعتبار أنهما عمل واحد في الأصل ، وهذا ما حملني أيضاً على عدم إثبات المصادر والمراجع في نهاية هذا الكتاب ، لأن من الصعب أن يُفصل بين مصادر الدراسة ومصادر التحقيق ، وسوف نثبتها جميعاً في نهاية الديوان إن شاء الله .

* * *

وأما أساتذتي الدكتور شوقي ضيف المشرف على هذا البحث ، والدكتور حسين نصار ، والدكتور كامل جمعة ، أعضاء لجنة المناقشة ، فلم يخالص شكري لما بذلوه من جهد ووقت في قراءة هذا البحث ، وما أبدوه من ملاحظات قيمة ، وما أسبقوه عليه من ثناء وتقدير ، وما جوبوني به من رعاية وتشجيع .

* * *

وكل ما أرجوه أن أكون قد وفقت إلى ما أردته من دراسة العجاج ورجزه ، وحسي أنني أخلصت النية ، وبذلك غاية ما أستطيع ، ومن الله العون ، وبه التوفيق مر

دمشق في ١٧ نيسان ١٩٧١

عبد الحفيظ السطلي

رَفَعُ
عبد الرحمن النخري
أسكنه الله الفردوس

العجاج
حياته ورجزه

نقف
عبد الرحمن (الرحمن) الفخري
المكي (الرحمن) الفخري
الطراز السياسي والادبي والفكري
لمصر البحار

لا نجد سبيلاً إلى دراسة حياة العجّاج وشخصيّته رجزه ، قبل أن نقف رويداً على أحوال عصره ، ذلك لأن الاتجاهات الأدبية المختلفة في هذا العصر ، كانت تتأثر باختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية . فالعجّاج ولد في الجاهلية وقال فيها ألياً وتوفي أيام الوليد بن عبد الملك^(١) . ولذا فهو معاصر أحداث الجزيرة العربية منذ فجر الإسلام حتى أوج العصر الأموي ، وكان لهذه الأحداث أثر في اتجاهاته النفسية والشعرية معاً ، فكان يلتقي مع شعراء عصره في بعض الاتجاهات الجديدة في اللغة والمعاني والموضوعات ، وكان يختلف عن سائر الشعراء في بعض الاتجاهات التي رسمها لنفسه في لغة القصيدة وشكلها وبعض موضوعاتها ، وهذه الاتجاهات جميعها لا تقم بدقة في رجزه إلا من خلال ما رافقها من أحداث سياسية واجتماعية وثقافية .

على أننا لن نطيل البحث في هذه الموضوعات ، وليس من شأننا أن توسعها بحثاً أو تفصيلاً ، وليس لنا في هذا التمهيد إلا أن نبين أهم الأحداث السياسية ، والظواهر الاجتماعية والاتجاهات العقلية التي لها تأثير

(١) تاريخ ابن عسّكر ٣٩٤/٧ ، وشرح شواهد المتن ١٨ . وتوفي الوليد سنة (٩٦ هـ) .

في دراسة العجاج ، ولها أن تفسر أحياناً بعض ما مجده في جزئه من خصائص .

- ١ -

كان الاسلام أكبر ثورة سيلية واجتماعية في جزيرة العرب ، اذ وُجد القبائل ، وحاول القضاء على العصبية ، وبنى دولة الاسلام بناء اجتماعياً متيناً وشرع لهذه الدولة كل ما تحتاج اليه من أسس وقوانين^(١) ، ولكن هذا كله لم يأت الا بعد أحداث وحروب متتالية ، هزت قبائل الجزيرة هزاً ، ولا سيما بعد فتح مكة (٥٨) ، ولم تكن تلك الأحداث والحروب ميداناً للسيرف وحده ، وانما كانت أيضاً ميداناً للشعر والشعراء ، اذ كان لكل فريق شعراؤه ، وكانت كل غزوة تدعو الى أشعار تقال فيها رثاء أو تهديد أو افتخار^(٢) ، حتى ظهرت في هذه الفترة نساء شاعرات ، كان معظم أشعارهن تحريضاً على القتال ، أو بكاء على القتلى^(٣) ، وبعد عام الفتح كانت وفود القبائل تتروى على النبي صلى الله عليه وسلم من كل صوب وحذب ، وربما رافقها بعض شعراء القبائل ، فكانوا يشدون الرسول أشعاراً أو رجزاً ، فينض شعراء المسلمين ليردوا عليهم بالشعر نفسه^(٤) .

وبذلك كانت الأحداث الاسلامية الأولى تدعو الى الشعر ، وتستثيره في صدور أصحابه ، ولا يعقل أن يكون العجاج في غيب عن هذه الأحداث ، فقد

استمع الى أخبارها وأشعارها وهو في بالجملة ، ولا يبعد أن تكون بعض الأبيات قد خرجت عن لسانه ، والا فلا مَرَّة أن هذه الأحداث قد أثرت في نفسه وفي شاعريته ، ولا سيما حين اقتربت من ديار قومه في حروب الردة وما تلاها من أحداث جسام .

فحين قضى النبي صلى الله عليه وسلم بوزن مشكلتان ، الأولى مشكلة الخلافة من بعده ، والثانية اتساع أمر المرتدين ، أما الخلافة فلم تكن واضحة ولا محدمة المعالم في الاسلام ، ومن ثم كان اجتماع الأنصار وبعض المهاجرين في سقيفة بني ساعدة^(٥) ، وظهرت ثلاثة آراء حول الخلافة ، ولكن أصحابها لم يؤلفوا أحزاباً واضحة ، وان كان بعضها بداية لأحزاب سياسية فيما بعد^(٦) .

كان الأنصار يرون أن الخلافة فيهم ، لما كان لهم من سابقة في نصره الرسول والمسلمين ، وهموا ببيعته سعد بن عباد ، وكان المهاجرون يرون أن الخلافة في قريش ، واحتجوا بعدد من الأحداث التي تؤيد ذلك^(٧) ، وكان الهاشميون يرون الخلافة فيهم لقربهم من الرسول ، ويجيدون في علي رضي الله عنه خير من يسابع للخلافة ، وأما الأمويون فما كانوا مجرؤون على المطالبة بها يومئذ ، ولذلك حرصوا علناً على المطالبة بالخلافة ، وحضوا آل هاشم على منازعة أبا بكر إماماً^(٨) .

- (١) البداية والنهاية ٥/٤٥ ، وتاريخ البقوي ١٠٢/٢ ، وتاريخ ابن خلدون ص ٦٤ من بقية الجزء الثاني .
(٢) قابل بما قاله بدوي عبد اللطيف في كتابه الاحزاب السياسية في فجر الاسلام ٥٥ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ٥٢٣/٢ .
(٤) تاريخ الطبري ٤٤٩/٢ ، وتاريخ ابن الاثير ١٣٥/٢ .

- ٥ -

- (١) انظر تاريخ الاسلام السياسي ٢١٧/١ - ٢٤٥ .
(٢) ارجع الى سيرة ابن هشام ، وانظر عقب كل غزوة من الغزوات لترى ما قيل فيها من اشعار .
(٣) تاريخ ابن الاثير ٢٥/٣ ، والبدية والنهاية ٥٩٢٧/٤ - ٦٠ ، وعيون الاثر ٢٩١/١ و ١٨/٢ و ٣٥ .
(٤) تاريخ ابن الاثير ١٢٠/٢ . والبدية والنهاية ٤٢/٥ و ٤٣ و ٧١ و ٧٢ و ٧٤ ، وعيون الاثر ٢٤٦/٢ .

- ٤ -

وهذه الآراء كان يمكن أن تتحول إلى أحزاب متصارعة في ذلك الحين ، ولكن حجة قريش علت على حجة الأنصار ، ثم قضى على الفتنة بمبايعة عمر لأبي بكر ، والناس يعلمون منزلة أبي بكر وصحبه للرسول في الإسلام وقبل الإسلام^(١) ، فهو أول من أسلم من الرجال^(٢) ، وقد بعثه النبي على الحج بالناس حين عاد من تبوك في السنة التاسعة^(٣) .. ولكن هذا كله لم يمنع وجود معارضة لمبايعة أبي بكر ، فالأنصار أو بعض الأنصار ، قالت لعمر حين بايعه : « لا نباع إلا علياً^(٤) » . وامتنع عن مبايعته أيضاً جماعة من بني هاشم ، وبني أمية ، بينهم الزبير بن العوام ، وأبو سفيان بن حرب ، وعمار بن ياسر ، وأبو ذر الغفاري ، ومالوا مع علي رضي الله عنهم^(٥) .

وكان يمكن للفتنة أن تستمر لولا أن علياً رضي الله عنه نهر أبا سفيان ورفض القيام في وجه أبي بكر^(٦) ، والروايات متناقضة حول مبايعة علي له ، بعضها يقول أنه تلكأ عن مبايعته ، وبعضها يرى أنه سارع إلى المبايعة دون تلكؤ^(٧) ، وبعضها ينقل أن علياً عاتب أبا بكر يوم بايعه الناس فقال :

- (١) تاريخ الخميس ٢٦٠/١ - ٢٦١ .
- (٢) تاريخ ابن الأثير ٢٢/٢ ، وتاريخ الخميس ٢٨٦/١ ، وتاريخ أبي الفداء ١١٨/١ ، وتاريخ ابن الوردي ١٠٣/١ ، وجوامع السيرة لابن حزم ٤٥ ، أما علي فهو أول من أسلم من الصبيان ، وقيل إن أسلامه كان قبل أسلام أبي بكر .
- (٣) البداية والنهاية ٣٦/٥ ، وتاريخ الخميس ١٤١/٢ ، وجوامع السيرة ٢٥٨ ، وفتح أهل الأثر لابن الجوزي ٣٦ .
- (٤) تاريخ ابن الأثير ١٣٥/٢ .
- (٥) تاريخ ابن الوردي ١٤١/١ .
- (٦) تاريخ الطبري ٤٤٩/٢ . وتاريخ ابن الأثير ١٣٥/٢ .
- (٧) تاريخ الطبري ٤٤٦/٢ - ٤٤٨ ، وتاريخ ابن الأثير ١٣٥/٢ ، وسراج الذهب ٤١٥/١ .

« أفسدت علينا أمورنا ، ولم تستشر ولم ترع لنا حقاً ، فقال : بلى ، ولكن خشيت الفتنة^(١) » . ودراسة هذه الروايات تحتاج إلى حذر وأي حذر من المؤرخين أنفسهم ، إذ لا يبعد أن تكون الأهواء والتعلل قد أثرت فيما نقله بعض المؤرخين ، ولكن مجموع ما بلغنا من أخبار يشير بوضوح إلى وجود طائفة تتشيع لحق علي في الخلافة منذ يوم السقيفة ، وربما جاز لنا أن نستنتج من وجود هذه الطائفة ، وما بلغنا من روايات وأخبار أن علياً لم يبايع أبا بكر وهو راض كل الرضى ، وإنما كان يشعر بشيء من الضيق ، ولكنه أراد وحدة الأمة ، ولا سيما أن الزدة كانت تهدد أركان الدولة الإسلامية من أساسها .

والزدة كانت قد ظهرت في أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فظهر أمر الأسود العنسي باليمن في بني مدحج ، وكان مشعوذاً يثرى الناس الأعاجيب^(٢) . وظهر أمر مسيلة الكذاب باليمامة في بني حنيفة ، فادعى الشراكة في النبوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم مالبت أن وضع الصلاة عن أتباعه وأحل لهم الخمر والزنا ونحو ذلك ، فتبعه معظم بني حنيفة^(٣) . وظهر أمر سجاح في بني تميم ، فادعت الوحي واتخذت مؤذناً وحاجباً ومنبراً وجيشاً جيشاً تريد حرب مسيلة ، ثم انتهى الأمر بالزواج بينها ، فالتحدث جيوش بني حنيفة وبني تميم من المرتدين^(٤) . وظهر أمر

- (١) مروج الذهب ٤١٤/١ .
- (٢) تاريخ الطبري ٤٦٣/٢ ، وتاريخ ابن الأثير ١٣٩/٢ ، والبدية والنهاية ٣٠٥/٦ ، وتاريخ الخميس ١٥٥/٢ .
- (٣) تاريخ الطبري ٥٠٤/٢ ، وتاريخ ابن الأثير ١٥٠/٢ ، وتاريخ الخميس ١٥٧/٢ ، وفتوح البلدان ١١٩ .
- (٤) تاريخ الطبري ٤٩٥/٢ ، وتاريخ ابن الأثير ١٤٧/٢ ، وتاريخ الخميس ١٥٩/٢ .

طلحة بن خويلد ، وكان رئيس بني أسد فادعى النبوة ، وكان آخر المرتدين في حياة الرسول (١) . ثم ارتد عيينة بن حصن الفزاري مع قومه فيما بعد ومنعوا الزكاة وتبعوا طلحة ولحقوا به (٢) .

وإذا كان الأسود العنسي قد قتل قبل وفاة الرسول بيوم واحد ، فإن سائر المرتدين قد استغل أمرهم بعد وفاته عليه السلام ، بل جعلوا من ذلك سبباً يؤيدون به ردتهم ، وقالوا فرقة : لو كان نبياً ما مات ، وقال بعضهم : انتقضت النبوة بمرته فلا تطع أحداً بعده ، وقال بعضهم : نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله ونصلي ولكن لا نعطيكم أموالنا (٣) .

ومما تعددت هذه الأسباب أو الذرائع ، فهي تترد إلى عودة العصبية بين القبائل ، وضعف الاسلام في نفوس أكثر الأعراب ، ومطامع فردية حملت أصحابها على ادعاء النبوة ، وصادفت هوى عند الأعراب لما في ذلك من عودة إلى فوضى الجاهلية ومفاسدها بما حرمه الاسلام أشد تحريم .

ولهذا كان البلاد على المسلمين شديداً ، ولولا حزم أبي بكر (٤) ،

وبلاء المسلمين في قتال الردة ، لتفرقت كلمة العرب بعد أن وحدها الاسلام ،

ولكن الله أراد لدينه أن يتصر ، وأراد لكلمة الحق أن تكون هي العليا .

(١) تاريخ الخميس ١٦١/٢ ،

(٢) تاريخ الطبري ٤٨٣/٢ ، وتاريخ ابن الأثير ١٤٣/٢ .

(٣) تاريخ الخميس ٢٠١/٢ ، وانظر الفخري في الادب السلطانية ٦٤ ، وتاريخ الطبري ٤٦٣/٢ - ٥٤١ ، وتاريخ ابن الأثير ١٤٢/٢ - ١٦٠ . وتاريخ ابن خلدون ص ٦١ و ٦٦ - ٦٨ من بقية الجزء الثاني ، والبداية والنهاية ٣١١/٦ وما بعدها .

(٤) انظر جوامع السيرة ٣٣٩ ، وفتوح البلدان ١٣١ ، وتاريخ الخميس ٢٠١/٢ .

والمهم في حروب الردة أن أشدها وأخطرها قد حدث حول اليمامة ، وكان أهل اليمامة والبحرين كلهم من المرتدين (١) ، وفهم قبائل تميم قوم العجاج ، وكان العجاج في هذه الفترة قتي نافعاً ، يقيم في حاضرة اليمامة ، ويشهد هذه الأحداث الخطيرة ويعيش هذه الحروب الدموية الطاحنة ، وكذلك فالردة قد أشعلت من حولها حرباً بين الشعراء أيضاً (٢) ، وإذا كانت أراجيز العجاج خيلوا من القول في أحداث الردة ، فهذا لا يمنع أن يكون الرجل قد تأثر بها ، بل السبق أن يقال ان حروب الردة قد خلفت فعلاً بعض الآثار في نفسه وفي أدبه معا ، وسوف تبرز هذه الآثار في دراسة حياته وخصائص رجزه ، وقد يكون له رجز في هذه الأحداث ، ولكنه فقد وصار إلى ماذهب ولم يحفظ من أشعار العرب في تلك الأحداث المتلاحقة من الحروب الأهلية ، أو حروب الفتح خارج حدود الجزيرة .

والتي كانت الردة قد انتهت أمرها في حياة الصديق ، فبان مشكلة الخلافة لم تنته ، وإنما خبت نارها تحت الرماد ، فلما عهد أبو بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطاب ، لم تظهر هذه المشكلة وذلك لهية عمر ، وحزمه في القضاء على العصبية ، وانشغال الناس بالفتوح ، والذي يبدو أن علياً لم يانع أباً بكر في تولية عمر حين استشاره في ذلك (٣) ، ولكن عمر حين عهد بأمر الخلافة من بعده إلى ستة نفر (٤) ، وجعلها شورى بينهم ، كان

(١) تاريخ الخميس ٢٠٢/٢ .

(٢) انظر تاريخ الطبري ٤٧٧/٢ - ٤٧٨ ، و ٤٩٣/٢ - ٤٩٧ .

و ٥٢١/٢ - ٥٢٧ .

(٣) انظر تاريخ ابن الأثير ١٧٩/٢ ، والبداية والنهاية ١٨/٧ ، وتاريخ

الخميس ٢٠٤/٢ .

(٤) وهم : عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص .

لا بد أن يستيقظ لهيب تلك النار التي خبت الى حين ، ذلك لأن أقوى أولئك النفوس كان علياً وعثمان ، وكلاهما من كتاب الرحي^(١) ، ولكل منهما سابقة في الاسلام ، الا ان قرابة علي من الرسول ، وما عرف من بلائه في الاسلام قبل الهجرة ، كان يجعل جهود الصحابة في صف علي ، ولا سيما أولئك الذين كانوا يجشون بني أمية ان فاز بها عثمان ، لما عُرف عنه من لبث لا يقوى على دفع مطامع أسرته من الأمويين ، وحين عُهد بالأمور الى عبد الرحمن بن عوف كانت الأموية تدفع به الى مبايعة صهره عثمان ، وكانت الهاشمية والأنصار يطالبون بمبايعة علي^(٢) ، والذي يبدو أن عبد الرحمن وهو أموي ، قد مال مع الأموية في مبايعة عثمان ، وكان هذا ما توقعه علي رضي الله عنه في بعض الروايات^(٣) .

ومبايعة عثمان على هذا النحو تعني أن الأموية والهاشمية ، قد بدأت كل منهما تشكل ما يشبه الحزب السياسي على الأقل ، ولا سيما أن أكثر الروايات تشير الى أن علياً قد بايع عثمان على كره منه ، وفي رواية أخرى تنقل ما دار من ملائمة حادة بين الأموية والهاشمية ، وتصور مدى تعلق كبار الصحابة بآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤) .

- (١) الكتاب والوزراء ١٢ ، والابتداء والنهاية ٣٣٩/٥ ، وتلقيح أهل الأثر ٣٧ .
(٢) تاريخ الطبري ٢٩٧/٣ ، وتاريخ ابن الأثير ٢٩٠/٣ ، وتاريخ ابن خلدون ص ١٢٦ من بقية الجزء الثاني .
(٣) انظر تاريخ ابن الأثير ٢٨٠/٣ ، وتاريخ الطبري ٢٩٧/٣ ، وتاريخ البغوي ١٣٩/٢ ، وقابل بالابتداء والنهاية ١٤٧/٧ فابن كثير ود أن يكون علي قد تلتك في مبايعة عثمان أو شك في اختيار عبد الرحمن بن عوف لعثمان ، ولكن رد ابن كثير لا يعتمد على دليل بين .
(٤) مروج الذهب ٤٤٠/١ ، وتاريخ الطبري ٢٩٦/٣ ، وتاريخ ابن الأثير ٢٨٠/٣ .

- ١٠ -

ويبدو أن خلافة عثمان قد حققت شيئاً من رغبة الأموية في السيادة والنزاهة ، لانه ما لبث أن عزل عدداً من الصحابة عن أمصار الدولة ، وولى مكانهم عدداً من أقاربه^(١) ، فأثار بذلك سخط المهاجرين والأنصار ، وكان الفارق واسعاً بين عماله من أصحاب الدنيا ، وعمال عمر بن الخطاب من أصحاب الزهد والتقوى^(٢) ، بل ان من ولادة عثمان من انهم برقة الدين وشرب الخمر كالوليد بن عتبة^(٣) ، ومنهم من رمي بظلم الرعية وكانت له سابقة في الاسلام لامتدح كعبد الله بن أبي سرح^(٤) ، أضف الى ذلك ما نجيع لدى الأمويين من وراء واسع كان دائماً يثير على عثمان نقمة الصحابة كأبي ذر رضي الله عنه^(٥) ، وخاصة ان عثمان قد فرط في أموال المسلمين وتفاضى عن أموال ذهب الى بعض خاصته لا الى بيت المال^(٦) . ولم يبق عثمان عند هذا الحد من تحقيق رغائب الأموية ، بل تجرأ على رد طريد رسول الله الى المدينة^(٧) ، ونفى عنها أبا ذر بعد ان حبس عطاه

- (١) انظر تاريخ ابن الأثير ٣٦٠/٢ و ٤٠ ، وتاريخ الخميس ٢٥٥/٢ .
(٢) انظر مروج الذهب ٤٣٥/١ و ٤١٧/١ .
(٣) وهو اخو عثمان لأمه ، وقيل ولاء على العراق ، بعد ان عزل سعد بن أبي وقاص . انظر تاريخ الخميس ٢٥٥/٢ .
(٤) وهو اخو عثمان من الرضاع ، وقيل ولاء على مصر ، وكان عبد الله يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ولحق بقرش فقال : أن محمداً ليكتب بما شئت . . . ويوم الفتح جساء به عثمان الى الرسول مبايعاً ، فلم يبايعه عليه السلام الا بعد ساعة ، كان يود خلالها أن يقتله بعض الصحابة بما أسلفه من إساءة الى النبي والمسلمين . انظر الكتاب والوزراء ١٣ - ١٤ ، وتاريخ البغوي ٤٥/٢ ، وأنسان العيون ٣٦٤/٣ . وجوامع السيرة ٢٣٢ ، والروض الأنف ٢٧٤/٢ .
(٥) مروج الذهب ٤٣٨/١ ، وتاريخ الخميس ٢٥٨/٢ .
(٦) تاريخ أبي الفداء ١٧٦/١ .
(٧) وهو الحكم بن مروان ، والد مروان بن الحكم مؤسس الفرع المرواني في دولة بني أمية ، وكان الرسول قد لعنه وطرده من المدينة الى الطائف أو بطن دج ، انظر تاريخ الخميس ٣٠٦/٢ - ٣٠٧ .

وعطاء عبد الله بن مسعود ، وكلاهما من خاصة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) ، وكانت هذه الامور من الاسباب التي تقم الناس بها على عثمان ، وما زال الامر يتسع حتى كان حصاره ومقتله على ايدي الوفود من اهل مصر والكوفة والبصرة^(٢) .

وكان مقتل عثمان نقطة تحول في التاريخ الاسلامي ، اذ بدأت الفتنة والحروب الاهلية ، وانشقت الامة فرقاً وأحزاباً ، وصار للسيف منذئذ القول الفصل في امر الخلافة^(٣) ، اذ ان جهود اهل المدينة اتجه الى على بالمبايعة ، وكان اول من بايعه طلحة والزبير^(٤) ، وامتنع عن مبايعته جماعة من الانصار ومن قريش وكأثرا عثانية^(٥) ، وبامتناع هؤلاء كانت اوائل بذور الفتنة . وقبل مقتل عثمان كانت عائشة قد غادرت المدينة الى مكة ، وكانها رغبت في اعتزال مايجد من احداث ، وكانت تعرض للناس على عثمان ، فلما بلغها انه قتل وان الامر صار لعلي ، تحولت الى نذب عثمان والقول انه قتل مظلوماً ، وكانها كانت ترغب ان تكون الخلافة لواحد غير علي امثال طلحة او الزبير ، وذلك لعداء قديم كانت تكنه لعلي منذ

حادثة الاك^(٦) . ولعل موقف عائشة ، كان حافزاً لطلحة والزبير حين انتفضا على علي وخرجوا الى مكة ، ليجعلا من عائشة رضي الله عنها ستاراً لها في الثورة على خلافة علي ، ومن ثم ومجّدت بعض الروايات التي تنقل ان طلحة والزبير كثا قد بايعا علياً على كره منها^(٧) . وبينما كان هؤلاء في مكة يعنون ثورة على خليفة المدينة ، كان قميص عثمان قد وصل الى منابر الشام ، واخذت الاموية تعمد للثورة ايضاً ، او قل للحرب في سبيل سيادتها متدوعة بدم عثمان^(٨) .

والمهم ان طلحة والزبير لم يجاربا علياً من مكة ، لان المدينة كانت اكثر عدداً ، بل توجهوا مع عائشة الى البصرة وكان لاهلها هوى في طلحة^(٩) ، فسار اليهم علي ، واتخذ من الكوفة قاعدة له ، وكان النصر له في واقعة الجمل^(١٠) ، فعادت عائشة الى المدينة ، وقتل طلحة والزبير ، وقيل ان طلحة قتله مروان بن الحكم اثناء القتال^(١١) ، لان الاموية كانت تحشى نفوذها في مستقبل الاحداث .

وبعد واقعة الجمل سار علي في اهل العراق الى معاوية ، والتقى

- (١) تاريخ الطبري ٣/٣٥٤ و ٣٥٤ ، وتاريخ ابن الاثير ٢/٤٦ ، تاريخ الخميس ٢/٢٦٦ .
(٢) انظر اسباب النقمة عليه وخبر مقتله في تاريخ الطبري ٣/٣٧٨ - ٤٢٥ ، وتاريخ ابن الاثير ٢/٦٢ - ٧٥ ، وتاريخ الخميس ٢/٢٦٦ - ٢٧٤ ، وتاريخ ابن خلدون ص ١٣٩ - ١٤٢ من بقية الجزء الثاني ، واخبار الدول ٩٩ ، ومروج الذهب ١/٤٧٣ .
(٣) انظر تاريخ الدولة العربية لولهوون ٥٠ - ٥١ .
(٤) تاريخ ابن الاثير ٣/٨٠ ، وتاريخ الطبري ٣/٤٥٠ .
(٥) تاريخ ابن الاثير ٣/٨١ ، وتاريخ الطبري ٣/٤٥١ - ٤٥٣ ، ومقدمة ابن خلدون ٢/٥٥٧ - ٥٥٨ .

- (١) انظر تاريخ الطبري ٢/٢٦٨ ، وتاريخ ابن الاثير ٢/٨١ ، والبداية والنهاية ٤/١٦٢ ، وتاريخ الخميس ١/٤٧٦ ، وعيون الاثر ٢/٩٨ .
(٢) تاريخ الطبري ٣/٥٣ ، وتاريخ ابن الاثير ٣/٨١ .
(٣) وكانوا بين منهم لعلي بتأييد الناس على عثمان مما جرحهم على قتله ، او منهم له بالسكوت عن نصره عثمان لا بالمعالة عليه انظر مقدمة ابن خلدون ٢/٥٥٧ - ٥٦٠ ، والفخري في الاداب السلطانية ٧٤ .
(٤) ولهوون - تاريخ الدولة العربية ٥٢ .
(٥) انظر تاريخ الطبري ٣/٤٧٦ ، وتاريخ ابن الاثير ٣/٨٦ - ١١٣ ، وتاريخ الخميس ٢/٢٧٦ - ٢٧٧ ، والبداية والنهاية ٧/٢٢٩ ، ومروج الذهب ٢/٦٧ .
(٦) تاريخ الخميس ٢/٢٧٩ و ٣٠٧/٢ - ١٣ -

الجمعان في «صفين» على حدود الفرات . ومال النصر الى صف علي لولا خدعة معاوية وعمرو بن العاص رفع المصاحف والدعوة الى التحكيم ، وكان اصحاب التقى والورع في جيش علي اول من خدع فالتقى السلاح، ثم حملوا علياً على قبول ذلك حملًا ، فأقر بالتحكيم مكرها ، وعاهد معاوية على ذلك ، ثم عاد بجنده الى الكوفة ، واذا بأولئك الانتقاء انفسهم قد عادوا عن رأيهم وتبهموا الى ما وقعوا فيه من شرك ، واعتبروا ذلك منهم ككفرًا واي كفر ، لانهم قبلوا تحكيم الرجال في امر عدل كانوا يجادون في سبيله ، وطلبوا الى علي ان يرفض التحكيم من جديد ، وان يقر بكفره كما افروا ، وان يتوب من كفره كما تابوا ، ولكنه ابي عليهم ذلك ، فخرجوا عنه وتزلوا قرية «حروراء» فسيروا اليها ، واطلق عليهم اسم الخوارج^(١) . ونتيجة للتحكيم اصبح معاوية خليفة شرعياً في نظر اهل الشام ، وغدا في الدولة خليفتان كل منهما يرى ان الشرعية في جانبه ، وكان لابد من الحرب لتوحيد الدولة من جديد ، ولكن دهاء معاوية وسياسة القائمه على شراء الدين بالدنيا ، جعله اقوى في اهل الشام ، من علي في اهل العراق اذ كانت سياسة علي تقوم على الورع دون ان يحشى في الله لومة لائم^(٢) ، وكان اصحاب معاوية اكثر طاعة ونظاماً من اصحاب علي^(٣) ، فلما قتل علي رضي الله عنه ، بايع اهل العراق لابنه الحسن ، ولكن الحسن ما كاد يلتقي بجيش معاوية في مسكن بناحية الأنبار ، حتى عدل عن الحرب ، واسلم

(١) انظر تاريخ ابن الأثير ١١٨/٣ - ١٤١ ، وتاريخ الخميس ٢٧٧/٢ ، والبداية والنهاية ٢٥٢/٧ ، ومروج الذهب ١٧/٢ ، والجزء الرابع من تاريخ الطبري .
(٢) انظر الفخري في الآداب السلطانية ٧٣ - ٧٤ .
(٣) انظر خطبه في نهج البلاغة ، وانظر الكامل للمبرد ١٥٢/٢ وقارن بالتكامل ايضا ١٠٧/٢ .

الامر لمعاوية على ان يكون ولياً للعهد ، ولم يكن ذلك مجرد بيع لحقه في الخلافة^(١) ، ولكنه ادرك ما في جيشه من فوضى ، وما يحيط به من اشياخ مردوا على عدم النظام او الطاعة^(٢) ، وان كان بعضهم لا يخلو من حماس وتحفز لقتال الامويين^(٣) .

وبذلك تم الامر لمعاوية ، فدخل الكوفة وبايع له اهل العراق ، ولكن هذا الصلح لم يكن يرضي اشياخ علي ، ولا سبياً أولئك الذين كانوا يلتهبون حماساً لقتال معاوية ، بل كان ذلك الصلح خيبة امل مريرة لهم ، حتى كانوا يسمون الحسن بمذل المؤمنين بعد ان كان امير المؤمنين ، ولما نزل بأهله الى المدينة واقام بها ، كانوا يقولون له : « يا عاقل المؤمنين سودت وجوه المؤمنين » ، فيقول : « العار ولا النار »^(٤) . ولهذا لم يكن تفرد معاوية بالخلافة نهاية طبيعية للحرب الاهلية او تسوية مقنعة لمشكلة الخلافة ، وانما نتج عنه زيادة في تلاحم اشياخ كل حزب من الاحزاب الثلاثة التي نهضت بعد صفين ، حزب الشيعة ، وحزب الخوارج ، وحزب الامويين .

ثم توالى الاحداث بعد ذلك فزادت كلا من هذه الاحزاب قوة وتلاحماً ، وخرجت مجزأ رابع هو حزب الزبيريين ، واهم هذه الاحداث مقتل الحسين بن علي مسموماً^(٥) ، ثم مبايعة معاوية لابنه يزيد بولاية

(١) كما يرى ولوزن في تاريخ الدولة العربية ٥٧ .
(٢) تاريخ الطبري ١٢٢/٤ ، وتاريخ ابن الأثير ١٧٥/٣ ، والبداية والنهاية ١٧/٨ .
(٣) تاريخ الخميس ٢٩٠/٢ .
(٤) تاريخ الخميس ٢٩٠/٢ .
(٥) في بعض الروايات ان معاوية هو الذي دبر ذلك مع زوجة الحسن ، انظر مروج الذهب ٥٠/٢ .

العبد ، واخذته البيعة له في الحجاز بالعنف والمكر والكذب ، بعد ان وقف في وجهه سادة الهاشمية والقرشية من غير الامويين^(١) ، ثم ما تلى ذلك ايلم يزيد من مقتل الحسين في كربلاء (٥٦١ هـ) ، وخلع اهل المدينة لي يزيد ، والباحة مدينتهم من قبل جيشه بعد وقعة الحرة (٥٦٣ هـ) ، ثم خروج عبد الله بن الزبير في مكة ، ومبايعة اهل الحجاز له بالخلافة ، مما جعل جيش يزيد بعد موقعة الحرة ، ينتقل الى محاربة ابن الزبير وحصاره وضرب الكعبة بالحجارة ، وكاد يجده لولاموت يزيد ، وعودة الجيش الى الشام .

ولما مات يزيد ، تفرق امر بني امية ، وبايعت امصار الدولة لابن الزبير ، وانقسم الشام على نفسه ، فمات القيسية بزعامة الضحاك بن قيس الفهري الى ابن الزبير ، ومالت الكلبية الى الامويين ، ولم يكن للاموية زعامة اقوى من مروان بن الحكم ، وكاد مروان يتجه الى ابن الزبير ليبايعه بالخلافة ، لولا ان الاموية عقدت مؤتمراً بالجالية قرب دمشق ، وبايعت ابن الحكم بالخلافة (٥٦٤ هـ) ، فسار مروان بانصاره من الكلبية وبالجيش القادم من حصار ابن الزبير ، ولقي الضحاك في وقعة مرج راهط ، فهزمت القيسية وقتل الضحاك ، وبذلك قام امر الاموية من جديد في الشام وفلسطين ، ثم لم تلبث السياسة الاموية ان ضمت مصر الى خلافة مروان ، وعاد في الدولة الاسلامية خليفتان ، عبد الله بن الزبير في الحجاز والعراق ، ومروان بن الحكم في الشام ومصر ، وما زال الامر على هذا النحو حتى كانت خلافة عبد الملك بن مروان ، فسار بنفسه الى لقاء مصعب بن الزبير في العراق ، وظفر به وقتله سنة (٥٧١ هـ) ، ثم سبر الحجاج بن يوسف الثقفي بجيش الى عبد الله بن الزبير بمكة فحاصره وقتله سنة (٥٧٣ هـ) ، وخلا الامر لعبد الملك والامويين من بعده .

(١) تاريخ ابن الاثير ٢١٧/٣ - ٢١٨ .

ولكن الأمر لم يتم لعبد الملك وخلفائه الا ظاهرياً ، ذلك لأن سلطة الخلافة بقيت تستمد وجودها من البطش والقوة ، واستمرت تنقلب على ثورات ومعارك دامية مع المناوئين ، اذ أن الاحزاب المعارضة ماكان لها أن تتبدد أمام الأحداث ، الا ماكان من امر الزبيريين ، ولما كانت تلك الاحزاب تقوى وتشتد ، ويتخذ كل منها مظهرأ خاصاً من مظاهر المتواصية ، وكان لكل منها عدد من الشعراء ، يناضلون عنها ، ويقارعون الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، ومن هنا كان لهذه الاحزاب أثر بارز في اتجاه الشعراء ، وفي معاني الشعر لهذا العصر ، وهي على اختلافها قد تركت بعض الآثار في رجز العجاج ، ولذا لا بأس أن نطل عليها بسرعة لتكون خلفه لهذا الاطوار السياسي الموجز لعصر العجاج .

لقد رأينا أن معركة صفين قد أوزت في الناس ثلاثة أحزاب متميزة ، هي حزب الشيعة ، وحزب الخوارج ، وحزب الأموية ، ثم أضافت الأحداث حزباً رابعاً هو حزب الزبيرية ، وهذا الحزب الاخير قام مع ابن الزبير وانتهى بقتله ، وبذلك لم يعيش اكثر من تسع سنوات ، وكان ابن الزبير يرى أن تكون الخلافة في قريش دون أن تحصر في الاموية او الهاشمية ، ولذلك كان يمتهم جميعاً طرحتهم أن تكون الخلافة فيهم ، وهو بالتالي راغب فيها خريص عليها ، وأغلب الظن أن الزبيرية لم تكن دعوة ذات نظرية خاصة في الحكم ، ولم تكن سوى طموح لزعامة ابن الزبير في وقت لم يكن في الحجاز شخصية اخرى لها من الصفات ماكان لابن الزبير بعد مقتل الحسين بن علي ، ولذلك امتنع الهاشميون عن مبايعته ورأوا فيه محباً للدنيا والسultan فحسب^(١) ، وهذا ماحمله على سجن محمد بن الحنفية وغيره من

(١) انظر التطوير والتجديد للدكتور شوقي ضيف ٦٠ ، وتاريخ الشعر السياسي للشايب ١٧٤ .

سادات الهاشمين^(١) .

وقيام هذا الحزب على أساس الطموح الفردي ، دون الاعتدال على نظرية واضحة حول الخلافة ، جعل الشعر من حوله لا يختلف عن الشعر الاسلامي قبل ذلك ، ففي معانيه نجد الجدة في تناول المعاني والألفاظ الدينية ، ولكنه لا يبرز رأياً ولا يجادل عن دعوة ، ولا يحض على نظرية خاصة ، وهذا واضح في ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، وهو أم شاعر اتصل بحزب الزبيريين . ومثل ذلك نجده في ديوان العجاج ، فقد مدح مصعب بن الزبير بالارجوزة (٧) ، فذكر إبقاعه بالختار بن أبي عبيد الثقفي ، ولم يشر إلى رأي خاص كان يراه الزبيريون في أمر الحكم أو الخلافة . وهذه الأرجوزة تعني أن العجاج قد اتصل بهذا الحزب ، وهلل فيها لمصعب حين قضى على ثورة المختار الثقفي ومن معه من الغلاة ، ولكنه ما لبث أن انقلب على مصعب بعد مقتله ، فعرض بال الزبير ومدح الأمويين بالأرجوزة (٩) .

ولئن كان حزب الزبيريين قد انتهى بسرعة ، ولم يؤلف دعوة إلى نظرية خاصة ، فالأمر قد اختلف مع الأحزاب الأخرى ، إذ كان لكل منها نظريته الخاصة في أمر الخلافة ، وقد استمرت جميعاً تقارع بعضها حرباً بالسيف وحرباً باللسان ، ولا سيما حزب الخوارج .

وجامعة الخوارج كان أول أمرهم حين خرجوا على عليّ بسبب التحكيم ، فقالوا : « لا حكم إلا لله »^(٢) ، ثم نظروا إلى التحكيم على أنه كفر ، فمن تاب منه فهو المسلم ، ومن لم يتب فهو الكافر الذي لا بدّ من حربه ، وكلوا يتولون أباً بكر وعمر ، ثم يتولون عثمان ست سنين من خلافته ثم

(١) الكامل للمبرد ١٦٥/٢ - ١٦٦ .
(٢) قيل إن أول من قالها عروة بن أدية من بني ربيعة بن حنظلة .
وقيل غير ذلك . انظر الكامل ١١٦/٢ و ١٢١/٢ .

يشهدون عليه بالكفر للأسباب التي أوردناها في موضع سابق ، ويتولون كذلك علي بن أبي طالب حتى قبيل التحكيم ، ثم يكفرونه ومن معه لأنه أقام عليه غير نائب ولا نادم ، ويكفرون كذلك طلحة والزبير لأنها باعاً علياً وهو امام عادل مرضي لم يظهر منه كفر ، ثم نكثا بعرض من اعراض الدنيا ، وأخرجوا عائشة تقتل وقد أمرها الله وصاحبها أن يقرن في بيوتهم ، وأما معاوية فقد حارب الامام العادل علياً ، وحارب المسلمين ، وبذلك أصبح وجاعته كفاراً أيضاً^(٣) ، وبهذه النظرة أصبحت جماعة المسلمين كفاراً جميعاً في رأي الخوارج .

وهم لا يشترطون في الامام أن يكون من قريش كالزبيرية ، ولا من أحيائها كالحاشمية والأمية ، بل لا يشترطون أن يكون عربياً ، وإنما يرون أن يكون مسلماً عدلاً مريضاً ، دون نظر إلى قبيلة أو عائلته ، وبذلك فهم يمثلون ما يشبه الدعوة الجمهورية في الاسلام ، ولهذا انضم الى صفوفهم جماعات من الموالي ، أما عامة الخوارج فكانوا من الأزد البائية ، وتيمم الضرية ، ذلك لأن مبادئ السيلامي لا مكان فيه للعصية القبلية .

وما زال الأمر بالخوارج على هذا النحو ، حتى كانت خلافة عبد الله بن الزبير ، فظهر أصحاب نافع بن الأزرق ، وغالى هؤلاء في عقائدهم ، فكان ذلك سبباً لتفوق الخوارج إلى أربعة فرق متميزة^(٤) ، هي الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق ، والنجدات أصحاب نجدة بن عامر ثم أبي مسديك ، والصفورية أصحاب زياد بن الأصفر ، الاباضية أصحاب عبد الله بن اباض التيمي ، ولا يمينا دراسة أمر هذه الفرق وما بينها من خلاف ، وحسبنا أن

(١) انظر الكامل ١١٦/٢ و ١٧٢/٢ .
(٢) الكامل ١٧٠/٢ .

نشير الى أن هذا الخلاف قد تركّز حول آراء الغلو التي آمن بها تافع بن الأزرق ، اذ رأى أن من خالف الخوارج من المسلمين مشرك لا يقبل منهم الا الاسلام او السيف ، ولا تحيل "أكل ذبايحهم ولا تنكحهم ولا تورثهم ، والقعد بنزلتهم ، والتقية لاخل^(١) ، ومن ثم رأى أن أطفال المشركين في النار ودماء هؤلاء الأطفال حلال للخوارج ، ورأى الا "تؤدى الأمانة الى من خالفهم ، لأن الله قد أحل أموالهم للخوارج كما أحل دماءهم^(٢) ، ومن هنا ندرك مدى البلاء العظيم الذي أصاب الناس من الخوارج ، ولا سيما فرقة الأزارقة منهم .

ومما ظهر من تألق في دعوتهم الى المساواة ، فان معتقداتهم الدينية وتكفيرهم كل المسلمين من غير الخوارج ، جعلهم يعيشون في الأرض فساداً^(٣) ، ويسعون الى أمر من العير أن يتحقق لهم^(٤) ، ولذلك وطّوا أنفسهم على الموت ، وجعلوا غاية ما يرجون هو الشهادة والجنة^(٥) ، ولذلك كانوا أصحاب جرأة واقدام منذ أن حاوروا علياً قبل التحكيم وبعده^(٦) ، وكانوا أصحاب حجة وجدل^(٧) ، ولكن هذا الجدل هو الذي فرق أمرهم^(٨) ، وعصف بهم في بعض الحروب^(٩) .

(١) الكامل ١٧٦/٢ .

(٢) الكامل ١٧٨/٢ .

(٣) انظر الكامل ١١٩/٢ ، ١٥٤/٢ ، ١٧٥/٢ وما بعدها .

(٤) قابل بما قاله وهونون في تاريخ الدولة العربية ص ٦١ - ٦٢ .

(٥) انظر الكامل ١٢٠/٢ ، و ١٣٩ و ١٥٠ ، و ٢٢٣ .

(٦) تاريخ الطبري ٥٣/٤ ، وتاريخ ابن الأثير ١٤٤/٣ ، والكامل ١٥٨/٢ .

(٧) تاريخ الطبري ٤٧/٤ ، وتاريخ ابن الأثير ١٤٣/٣ ، والكامل ١٢٤/٢ و ١٤٩ و ١٧٦ - ١٨٠ .

(٨) انظر الكامل ١٧٦/٢ - ١٧٨ .

(٩) الكامل ٢٣٧/٢ .

وكان هذا كله يظهر جلياً في أشعارهم ، حتى كان شعر الخوارج أصدق شعر سياسي قيل في معركة الأحزاب لعصر بني أمية ، فهو يجمع بين الحجة والبرهان ، والجدّة في المعاني والموضوع ، والغسابة والأسلوب ، والاعتدال على آيات القرآن الكريم ، وكان مصوراً حقيقياً لحياة أصابه وتقاتلهم في عقائدهم ، وجرأتهم على أعدائهم ، وحجهم للشهادة في سبيل الله^(١) ، وهذا ما يظن بوضوح في أشعار عمران بن حطان^(٢) ، وقطري بن الفجاءة^(٣) ، والطرماس بن حكيم^(٤) ، وغيرهم من كبار شعراء الخوارج^(٥) .

وكان في الوجه المقابل شعراء الزبيريين والأمويين يردون على الخوارج مزاعمهم ، ويرونهم كفاراً مارقين^(٦) ، ويصورون ما يعيشون في الأرض من فساد ، وهذا الجانب يبرز في شعر العجاج وغيره من شعراء بني أمية ، فالعجاج في الأرجوزة (١) يصف ماعنا الخوارج في البامة من فساد ، وما أصاب الناس بهم من بلاء ، ويصور جماعة الخوارج فيهم قد خالفوا الناس أجمع بما اتفقوا من خلال ، وقد لفتوا أخلاطاً من العبد ونحوهم ، ثم يرى أن الأفاعي بهم اتا يجلو عن الدين فقرأ قد لحن به . وبذلك كان العجاج لا يرى رأي الخوارج ، وإنما أصلاهم بشعره ، وعرض بهم أشدّ تعريضاً .

ولئن كان الخوارج هم أصحاب الشوكة بين أحزاب المعارضة ، فقد كان حزب الشيعة أقل ضراوة ، ولكنه مازال يناصب الأمويين العداء ،

(١) انظر الكامل ١١١/٢ ، و ١١٥ ، و ١٦٥ .

(٢) الكامل ٣٦٢/١ و ١٠٨/٢ - ١١١ ، والأغاني ٣/٣ و ١١٤/١٢ .

و ١٥٢/٦ - ١٥٧ .

(٣) انظر قصيدته يوم دولا في الكامل ١٨٢/٢ .

(٤) الأغاني ١٥٦/١٠ - ١٦٠ .

(٥) اشعارهم وأخبارهم متفرقة في الجزء الثاني من الكامل ، وفي المواضع التي أشرنا إليها من تاريخ الطبري وابن الأثير ، وفي كتاب الأغاني .

(٦) انظر أبياننا لعبد الله بن فيس الرقيات في الكامل ١٢٠/٢ .

حتى كانت له اليد الطولى في القضاء عليهم . وبطانة علي قد بدأت منذ حياة النبي صلى الله عليه وسلم^(١) ، ثم اتضحت أيام خلافة عثمان ، وأصبحت جلية بعد مبايعة علي ، ثم غدت حزباً سياسياً بعد الجمل وصفين ، فلما قتل علي ، وخيَّب الحسن آمال أصحاب الجمل من شعة أبيه ، ثم آل الأمر إلى ذبح الحسين وتزيق آل البيت في كربلاء ، جعل هذا الحزب غايته إسقاط الأموية الغتصبة ، واعادة الحق الشرعي إلى أصحابه من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم .

كان أصحاب علي من أهل المدينة أنصاراً ومهاجرين ، ولكن انتقاله مجاورة الخلافة إلى الكوفة ، جعل عامة أهل العراق من شيعته ، مقابل أهل الشام شيعة معاوية ، وذلك للتنازع القديم الذي كان بين العراق والشام منذ أيام الفرس والروم ، وبسبب الصراع القبلي بين العدنانية والقططانية ، إذ كانت معظم قبائل العراق من العدنانية ، بينما كانت معظم قبائل الشام من القططانية^(٢) ، وبما أن السياسة الأموية كانت ظروفها تدفع إلى انتهاج السياسة العربية الخالصة ، فقد رأينا طائفة من الموالي في العراق تنضم إلى الحوارج ، أما أكثرهم فأنمازمت إلى صفوف الشيعة ، إما كرهاً بالأمويين وسياستهم ، أو رغبة في عدالة علي وخلفائه ، أو إيماناً بما داخل التشيع من غلو قد يناسب تفكير بعض الموالي ولا سيما الفرس منهم ، ذلك لأن العراق بما فيه من تأثيرات فكرية وحضارية وفلسفية قديمة من فارسية وهندية ويونانية^(٣) ،

(١) انظر النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح ٩٥ - ٩٦ .
(٢) انظر التطور والتجديد للدكتور شوقي صيف ٦٥ ، وتاريخ الدولة العربية لولموزن ٦٣ .
(٣) انظر التطور والتجديد ١٣ - ١٦ و ٦٧ ، والنظم الإسلامية ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١١٤ .

قد أثر في التشيع ، ففض لذلك بعض الفرق من الغلاة ، وأفسدوا حب آل البيت ، واتخذوه قناعاً فلما ذهبوا إليه من آراء^(١) .

والشيعة ترى أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تقوض إلى نظر الأمة ، وإنما هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لبي أن يُغفل أمر تعيين الامام من بعده ، ومن ثم يرون أن النبي قد عين علياً بنصوص « بنقلنا ويؤولونا على مقتضى منهجهم ، لا يعرفها جهاذة السنة ولا ثقلة الشريعة »^(٢) ، والامام عندهم معصوم عن الكبائر والصغائر ، وغالوا في أمره حتى جعلوه علام الغيوب ، بل زعموا أن الأئمة فوق الأنبياء والملائكة^(٣) .

وكما أن الحوارج كان بينهم لتجيج وانقسام ، فكذلك الشيعة كان بينهم جدل ومعاودة ، جعلت أمرهم يؤول إلى فرق متعددة ، تنفق من حيث التشيع لآل البيت ، والقول بحق علي في الخلافة بالنص والوصية ، ثم تفتقر في تعيين الامام من أبناء علي ، أو في بعض الآراء الغالبية التي تسربت إلى معظم هذه الفرق . وليس من شأننا أن نتحدث بالتفصيل عن فرق الشيعة ، إلا أن من الخير أن نسوق فكرة عامة عن أهم هذه الفرق ، وهي السنية والكيسانية والزيدية والامامية ، لنقف على بعض هذه الفرق التي وردت في رجز العجاج ، وعلى أبرز عقائد الغلاة ، التي عرّض بها العجاج في بعض أراجيزه ، وانصب عليها انصباباً بارداً والتفريد .

أما السنية فهي تنسب إلى عبد الله بن سبأ ، وكان يهودياً من اليمن ، واشترك في الثورة على عثمان ، وكان ينتقل في الأمصار الاسلامية ويؤلب

(١) ارجع إلى النظم الإسلامية ١١٤ ما بعدها .
(٢) مقدمة ابن خلدون ٢/٥٢٧، انظر النظم الإسلامية ٩٨ - ٩٩ .
(٣) انظر آراء الغلاة في النظم الإسلامية ١٠٢ - ١١٤ .

الناس عليه^(١) . والأئمة عند السبئية قد انصفوا بصفات الألوهية ، أو أن الاله قد حل في ذاتهم البشرية ، وهو قول بالحلول يوافق منذهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه . وقد بنوا منذهبهم على مايشبه القول بالتناسخ ، إذ قالوا ان كمال الامام لا يكون لغيره ، فإذا مات انتقلت روحه الى امام آخر ليكون فيه ذلك الكمال^(٢) ، وبذلك فشخص النبي لم يمت بوقت محمد عليه السلام ، وإنما انتقل الى سلالته واحداً بعد واحد بادئاً بعلي رضي الله عنه ، وبهذا لم يكن علي في نظرم مجرد الخليفة الشرعي للنبي ، وإنما هو الروح الالهي المتجسد ، ووارث النبوة غير منازع^(٣) ، ومن هنا زعمت السبئية أن علياً لم يمت ، وإنما هو غائب عن أعين الناس ، ومثله عندهم في غيابه كمثل الحضر الذي ورد ذكره في القرآن^(٤) ، ولذلك لابد أن يرجع الى الأرض لأقامة العدل والحق ، أما الآن فهو في السحاب والرعد صوته والبرق سوطه^(٥) . وبعض هذه الآراء في تأليه علي ، أو القول بأنه مبعوث قبل القيامة ، قد ظهرت في حياة علي رضي الله عنه ، وقد أحرق بالنار من ذهب فيه الى التآليه^(٦) .

وأكثر السبئية من الفرس الذين اعتنقوا الاسلام ، وبذلك كان أكثر انتشارها بين قوم من غير العرب^(٧) ، ولكن هذه الفرقة مألّيت أن اتحدت

- (١) التطور والتجديد ٦٧ .
- (٢) مقدمة ابن خلدون ٥٢٠/٢ .
- (٣) تاريخ الدولة العربية لولهوزن ٦٤ ، والتطور والتجديد ٦٧ .
- (٤) سورة الكهف ٦٦/١٨ ، وأرجع الى البداية والنهاية ٢٩٥/١ ، واخبار الدول للقرماني ٤٤ .
- (٥) مقدمة ابن خلدون ٥٣٠/٢ - ٥٣١ ، والنظم الاسلامية ٩٣ - ٩٤ .
- (٦) مقدمة ابن خلدون ٥٣٠/٢ ، وتاريخ ابن الأثير ١٧٠/٣ .
- (٧) ولهوزن ، تاريخ الدولة العربية ٦٤ .

- ٢٤ -

بحركة أخرى عرفت بالكيانية نسبة الى نيسان موى عيسى ، ومن سبب قد ألفت هذه الحركة بعد استشهاد الحسين رضي الله عنه ، فدعا أنصار آل البيت الى امامة محمد بن علي المعروف بابن الحنفية^(١) ، وآمن بأراء عبد الله ابن سبأ ، حتى اختلط الأمر على بعض الباحثين فأطلق اسم السبئية على الكيانية نفسها^(٢) ، وقد غالى كيسان في صفات ابن الحنفية ، فجعله محيطاً بالعلوم كلها ، ولديه الأسرار يجملتها من علم التأويل والباطن ، وعلم الآفاق والأنفس ، وآمن برجعته الى الدنيا قبل يوم القيامة^(٣) ، وزعم أنه حي لم يمت ، وأنه مقبض في جبل رخصوى من أرض الحجاز^(٤) ، وهذه الفكرة التي بدأت بها السبئية ، هي التي لعبت دورها في عقيدة المهدي المنتظر ، الذي سوف يظهر في زمن لا يعلمه الا الله ، ليملأ الدنيا عدلاً كما ملئت ظلماً ، وهي من الأفكار الشيعة التي ما تزال لها بعض الأصداء لدى عامة المسلمين .

وبما كان المختار بن أبي عبيد الثقفي أول من أطلق اسم « المهدي » على محمد بن الحنفية ، بعد أن أطلق اسم « الوصي » على علي في بعض خطبه^(٥) ، وكان المختار على منذهب الحوارج ، ثم صار زيورياً ، وتولى الكوفة لابن الزبير ، ثم آمن بأراء الكيانية ، وغالى في ذلك حتى نسبت اليه^(٦) ، الا أن محمد بن الحنفية لعنه وبرىء منه حين بلغه أن المختار ينسب اليه صفات الألوهية والتقدس^(٧) ، وكان المختار أكثر نشاطاً من كيسان حتى جعله بعض

- (١) نسبة الى زوجة علي الثانية خولة ، التي كانت من بني حنيفة .
- (٢) ولهوزن تحدث عن المسيحية وهو يريد الكيسانية ، لأن الكيسانية هي التي اتصلت بابن الأشعث ، انظر تاريخ الدولة العربية ٦٤ .
- (٣) الملل والنحل ٢٣٥/١ - ٢٣٦ ، والنظم الاسلامية ١١٦ - ١١٧ .
- (٤) مقدمة ابن خلدون ٥٣١/٢ .
- (٥) النظم الاسلامية ١١٧ ، والكمال للميرد ١٦٥/٢ .
- (٦) الكمال ١٦٤/٢ - ١٦٥ .
- (٧) مقدمة ابن خلدون ٥٣٠/٢ .

- ٢٥ -

الباحثين زعم الكيسانية ، وأطلق عليها اسم « المختارة »^(١) ، وكاد يؤسس دولة لهذه الفرقة ، بعد أن جمع من حوله الموالى والعبيد ، وهم غالبية من آمن بالنسبة والكيسانية ، ولكنه هُزم وقتل على يد مصعب بن الزبير . ولعل الكيسانية لم تتخذ طابع الاستمرار بعد المختار الثقفي ، وإنما تلاشى أصحابها بين الفرقتين اللتين استقطبتا أنصار آل البيت ، وهما الزيدية والامامية .

والزيدية تنسب الى زيد بن علي بن الحسين ، الذي خرج على هشام بن عبد الملك في الكوفة فقتل وصليبه^(٢) ، وهي أكثر الفرق اعتدالاً ، اذ كانت ترى أن وصية النبي لعلي بالامامة كانت بالوصف لا بالشخص ، والناس مقصرون اذ لم يضعوا الوصف موضع ، وبذلك لا يبرأ زيد بن علي من الشيعين أبي بكر وعمر ، بل يميز امامة المفضل مع وجود الأفضل^(٣) .

وأصحاب هذه الفرقة ساقوا الامامة في ولد فاطمة ، ولكنها في منفيهم لا تقوم على النص والتعيين ، وإنما على اختيار أهل الحل والعقد^(٤) ، وهم لا يقدسون الامام ، ولا يذهبون الى شيء من التأليه فيه ، وإنما يرون فيه العدل والزهد والسخاء والشجاعة .

وأما الامامية فقد سميت بذلك نسبة الى مقاتلهم بأشراط معرفة الامام وتعيينه في الايمان ، وهي أصل عندهم ، وقد ساقوا الامامة بعد علي في ولد فاطمة ايضاً ، ولكن بالنص عليهم واحداً بعد واحد^(٥) ، وهم يرون أن وصية النبي لعلي كانت بنصوص تدل على تعيين علي وتشيخه ، وكذلك تنقل منه

- (١) النظم الاسلامية ١١٧ .
- (٢) ولسم يخرج دعوة لنفسه ، وإنما خرج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، انظر النظم الاسلامية ١٢١ .
- (٣) مقدمة ابن خلدون ٥٢٩/٢ .
- (٤) مقدمة ابن خلدون ٥٢٤/٢ .
- (٥) مقدمة ابن خلدون ٥٢٩/٢ .

- ٢٦ -

الى من بعده ، وبذلك يتهربون من الشيعين أبي بكر وعمر ، لأنها لم يقدموا علياً بمقتضى هذه النصوص^(٦) ، وإنما فاضوا زيد بن علي في امامة الشيعين ورأوه لا يبرأ منها رفضه ولم يجعلوه من الأئمة ، وبذلك ستموا رافضة^(٧) . ومن الامامية هذه الفرقة فيما بعد الاسماعيلية والاثنا عشرية^(٨) .

والشعر السياسي عند الشيعة يعتمد على عرض المبادئ والدعوة اليها ، والاعتقاد على المعاني الدينية ، والاعتباس من القرآن الكريم على نحو ما تراه فرق الشيعة من تأويل ، ولكنه أقل حيوية وحماساً من شعر الخوارج ، وشعرأوه لم يختصوا بملهمهم اختصاص شعراء الخوارج ، ولم يخلصوا لمنهمم اخلاص الخوارج له ، ذلك لايمان الشيعة بالثقة ، ولهذا وجدنا كثيراً والكثير من مدحان الأمويين مع ثمتها من كبار شعراء الشيعة^(٩) .

واذا سألنا العجاج رأيهم في هذا الحزب ، وجدناه في الاجموزة (٧) مدح مصعب بن الزبير حين أوقع بالمختار الثقفي ، وفيها ينص على أن جماعة المختار كانوا من الاعاجم والموالي ، ونبعت المختار بالكذب والرشوة والكبانة ، ويصفه بالسبي ، ثم يجعل قتله عقاباً من الرحمن له . وبذلك كان العجاج لا يرى رأي الشيعة ، وإنما نال منهم ، وتهكم بهم ، ثم شايح الامويين في مدائحهم بعد القضاء على ابن الزبير .

والامويون كان لهم حزبهم السياسي ، تجاه تلك الاحزاب المعارضة ،

- (١) مقدمة ابن خلدون ٥٢٨/٢ .
- (٢) مقدمة ابن خلدون ٥٢٩/٢ ، والرافضة هذه فرقة من فرق الشيعة ، وقد أطلق أهل السنة والجماعة اسم « الرافضة » ايضاً عن كل من اعتزل طريقهم رافضاً إن يكون الشيعان ائمة شرعيين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انظر النظم الاسلامية ١٢٢ .
- (٣) مقدمة ابن خلدون ٥٣٥/٢ .
- (٤) انظر التطوير والتجديد ٦٨ - ٦٩ و ص ٢٣٢ - ٢٥٥ ، وتاريخ الشعر السياسي ١٦١ - ١٧٢ .

- ٢٧ -

وكان هذا الحزب لا بد أن يقارع الأحزاب الأخرى مجادلاً عتجاً لحقه في الخلافة، فكان يثير وراثته خلافة عثمان، ويجادل في حقه الشرعي بالخلافة بناء على «التحكيم» الذي وضع الخلافة في صف معاوية، إلا أن هذه الذرائع ما كان لها أن تبلغ من المعارضة اقناعاً، ولا أن ترد عن الأمويين انباماً، إذ أن الخلافة لا تورث وراثته، وقتل عثمان كان في نظر الخوارج جزءاً وفقاً بكفره بعد أن كان عادلاً، والتحكيم في نظر الشيعة كان مهزلة، وفي نظر الخوارج كان كفراً، ومن جرى إليه من صفوفهم أو صفوف علي وجبت عليه التوبة.

ثم إن المعارضة ما كانت لتنسئ للأمويين أنهم أصحاب سابقة في إيزاء الاسلام والمسلمين^(١)، وأنهم مداخلوا الاسلام إلا شبه مكرهين بعد أن فتحت عليهم أبواب مكة، وأنهم وطأوا لأنفسهم أيام خلافة عثمان، ثم تاجروا بدمه، واغتصبوا حق الخلافة، وحوّلوا أمرها إلى ملك يشبه ما عند القياصرة والأكسرة، بل إن الخليفة الأموي منذ معاوية لم يكن يتبع سياسة خلقية دينية، وإنما يتجه إلى سياسة دنيوية تسعى إلى توطيد الحكم بأية وسيلة، ولهذا معروف الغدر عن خلفاء بني أمية منذ معاوية بن أبي سفيان^(٢)، وكان عمالهم يسرون بالريّة سيرة الظلم ولا سباً في العراق، حتى بلغ الأمر

(١) فمعاوية بن أبي سفيان مؤسس الفرع السفياني أمه هند، وهي التي مثلت بحمزة عم النبي يوم أحد، فأعذر النبي دمه يوم الفتح، انظر البداية والنهاية ١١/٤، ١٦، ٣٧، وعيون الأثر ١٨/٢، وتاريخ الخميس ٩٤/٢، ومروان بن الحكم مؤسس الفرع المرواني هو ابن طربد رسول الله، انظر تاريخ الخميس ٣٠٦/٢ وهو الذي زوّر كتاب عثمان إلى أهل مصر وكانت الفتنة بسببه، انظر تاريخ الخميس ٣٥٩/٣ والوفاء والكتاب ٢٢، ويقال إن مروان هو الذي قتل طلحة بن الزبير يوم الجمل، انظر تاريخ الخميس ٢٧٩/٢، ٣٠٧.

(٢) انظر تاريخ ابن الأثير ١٩٥/٣، ومروج الذهب ٥٠/٢.

غايته بولاية الحجاج الثقفي، إذ عدت ضحاياه بالآلاف^(٣)، ونسجت من حوله الأساطير^(٤)، وأقررت له أخبار طوال^(٥).

وهذا كان يجعل الأمويين في موقف المقتصب حتى الخلافة. ولم تكن القوة وحدها لتكفي في ترسيخ دعائم الحزب الأموي، ولا سيما أن الأحزاب الأخرى كانت تعتمد على أسس دينية في بناء الاتجاه السياسي لكل منها، قال الزبير كانت ثورتهم انتفاذاً للدين والخلافة أن تُحوّل إلى نظام الأكسرة أو القياصرة، والخوارج كانت دعوتهم تنبّه إلى إقامة الدين الصحيح والمساواة بين الناس، والشيعة كانت دعوتهم تعتمد على حق علي في الخلافة، ثم وصاية النبي له فيما زعموا، أما الأمويون فكانوا يقتفرون في واقع الأمر إلى ترسيخ أقدامهم بثل هذه الدعوة الدينية، ولذلك عاندوا بالدعوة إلى أنهم يحكمون الناس بقدر من الله تعالى^(٦)، وما دام حكمهم بقدر من الله تعالى وإرادة منه، فليس على الناس إلا طاعة خليفته وأمراته، وبذلك جعل الأمويون أنفسهم خلفاء الله على الأرض، أو قل أصحاب الحق الإلهي في الخلافة وحكم الناس، ومن هذه الزاوية جعل الحزب الأموي يرفع من شأن خلفاء بني أمية، ويعلي من أمر ولائهم وقادتهم، ويعطي لهم من الأوصاف ما يقارب التقديس على نحو ما كانت عليه دعوة الحزب الشيعي للأئمة من آل البيت. ولهذا كان الشعر الأموي يرفل بالمعاني الدينية على نحو ما كان عليه الشعر في الأحزاب الأخرى، وتظهر فيه ذرائع الأموية في الدعوة إلى حقها في الخلافة،

(١) حياة الحيوان ١٤١/١ - ١٤٤.

(٢) انظر أخبار الدول ١٣٥.

(٣) انظر مروج الذهب ١٣١/٢.

(٤) التطوير والتجديد ٥١ - ٥٢.

وتبرز فيه اتجاهات الاموية الدينية من الاقرار بالقضاء والقدر والإرجاء ونحو ذلك . وبما أن هذا الحزب يمتلك المال والسلطة ، فذلك كان شعراؤه أكثر من أن يحاط بهم عدداً^(١) . أما العجاج فقد شايع بني أمية ، فمدحهم قبل ابن الزبير وبعده ، واتصل بعدد من خلفائهم وأمرائهم وقادتهم وولايتهم ، وكان في بعض مدائحه ملتزماً بآراء الحزب الأموي ، منادياً بدعوتهم ، قائلاً برأهم في الأقرار بالقضاء والقدر .

وبذلك لم يكن العجاج يعزل عن الأحداث السياسية ، والصراع بين الأحزاب ، وإنما تأثر بما عاصره من أحداث ، واتصل ببعض الأحزاب ، ونال من الأحزاب الأخرى ، وهذا لا نجد مسوغاً لقول الجاحظ عن العجاج : انه « أعراي ليس بندي نخلة أو خصومة »^(٢) ، فالعجاج قد تأثر بالجانب السياسي في عصره ، وتأثر كذلك بالجانب الاجتماعي ، لأن الحياة الاجتماعية قد تأثرت بكل مظاهر لذلك العصر من مشكلات سياسية أو حزبية .

- ٢ -

وكان المجتمع لعصر العجاج يتأثر بعدد من الظواهر الاجتماعية البارزة ، أولها ماكانت تختلف الأحداث السياسية من فوضى في حياة الناس ، والثانية قيام المجتمع على أساس عصبي قبلي ، والثالثة وجود طبقات اجتماعية متميزة ، والرابعة اختلاف البيئات الاجتماعية باختلاف الأقاليم . وكان العجاج في رجزه يتأثر بهذه الظواهر الاجتماعية كلها ، شأن سائر المعاصرين له من شعراء ورجساز .

(١) انظر التطور والتجديد ٧١ - ٧٤ .
(٢) كتاب العثمانية للجاحظ ١٢٥ .
- ٣٠ -

فالأحداث السياسية كانت تختلف شيئاً من الفوضى في حياة الناس الاجتماعية ، وكان العراق أكثر الأقاليم تأثراً بتلك الأحداث ، لأنه كان موطناً لأشد أحزاب المعارضة ، وهم الخوارج والشيعية ، ومن ثم كان العراق وما جاوره من بلاد نجد مسرحاً هاماً للثورات المتعاقبة ، وما كان لهذه الثورات أن تنتهي الا بالفوضى واختلال أمر الناس ، ومن أمثلة ذلك أن الخوارج حين غلبوا على نجد والبحرين وعليهم أمير مُدَيِّنكَ الأُسدي^(١) ، كان الناس قد أصابهم من البلاد والعنت ماينظر بجلاله في أرجوزة العجاج (١) التي مدح بها عمر بن عبيد الله بن معمر بعد تغلبه على الحواريّة وقتله أبا مُدَيِّنكَ بالبصرة . وحين مات يزيد بن معاوية كان ذلك سبباً لاختلال أمر البصرة حيث كان العجاج ، فحدثت الفوضى وخلت المدينة من أمير شرعي ، وقسم الأزد يؤمرون عليهم من أرادوا ، وقامت تيم يرفعون الى الامارة من شاموا ، وكان من ذلك حرب بين الفريقين آلت الى مقتل أمير الأزد مسعود بن عمرو العسكي^(٢) ، وفي أرجوزة العجاج (٣٥) ما يصور هذه الفوضى التي ابتليت بها البصرة في ذلك الحين ، اذ اصاب الناس من البلاد مايشبه غمة قد أطبقت عليهم وكانها قدر من الله تعالى !

وتقلب الأحوال السياسية وعدم الاستقرار ، كان يدعو الى شيء من التفات الاجتماعي ، ومن أمثلة ذلك ان كَثُرَ الكميّة وهما من كبار شعراء الشيعة ، قد مدحا خلفاء بني أمية ، وسبوا ذلك تقيّة ، ونحن نسميه نفاقاً لم يكن يقتصر عليها ، وإنما كان ظاهرة واضحة المعالم في هذا العصر ،

(١) انظر تاريخ الطبري ٢٠/٥ وتاريخ ابن الأثير ٨٥/٤ .
(٢) انظر تاريخ الطبري ٤٠٢/٤ - ٤٠٨ ، وتاريخ ابن الأثير ٥٥/٤ - ٥٧ .
- ٣١ -

ويُنبأ مديح العجاج لكل الزبير ، فلما أقلّ نجهم ثال منهم ثم مدح الامويين ، وهذه الظاهرة كانت واضحة أيضاً في موقف الشعراء من الولاة ، فالفرزدق كان يسعى الى مدح الولاة قبله تيمم المضربة ، ولا يجد ضيراً في النفاق السياسي ، فهو يمدح والي اليمن على العراق مادام والياً ، فسان عزل هبائه وعرض باليمن^(١) ، وذلك لأن طبيعة العصر تختلف عن طبيعة الجاهلية ؛ في عصر ما قبل الاسلام كانت القبيلة لا تخضع الا لسيدتها ، أما اليوم فالقبيلة تخضع لسلطان واليها ، واذن لا بد من التقرب اليه ان كان من قبيلة لها عصية أخرى ، وهذا ما يفسر موقف العجاج من والي اليمامة في الأبرجوزة (١٧) ، فالوالي قد عزل ، ويبدو أن العجاج لم يكتفِ الأمر ، فلما عاد واليها من جديد ، كان لابد من الاعتذار اليه ، والتفاني في مدحه ، مراعاة لمصالح العجاج في اليمامة ، أو مراعاة لمصالح قومه بني سعد .

وهذه الفوضى كان لها بعض الأصداء في أحوال الناس المعاشية ، اذ كان على الولاة أن يجبو للخلفاء ليعمروا بيت المال ، والا فرضت عليهم المخازم ، وهذا ما حل الولاة والعامل على العنت والظلم في جمع المال دون أن يراعوا فقراً أو خصاصة ، ولا سباً أن معظم الجباة كانوا لازمة ولا دين ، فهم يسرقون من حرمات الله ، ويفرضون على ضعيف الناس جُعلاً ورشوة ، فان دفع والي ضريبه وضاعفوا عليه ما فرضوه ، حتى ولو كان القحط قد حل به ، وأصابته السنون بالفقر والبلاء ، وهذا كله قد تأثر به العجاج ، وصوره أدق تصوير في الأبرجوزة (١٧) .

وظاهرة أخرى كانت تبرز في مجتمع العجاج ، هي العvisية القبليّة ،

(١) انظر التطور والتجديد ١١٦ وما بعدها .

فالاسلام قد حاول القضاء عليها ، ولكنها لم تلبث أن عادت سيرتها الأولى منذ اختلاف الأنصار والمهاجرين على الخلافة ، ثم تبدت في ردة الأعراب ، واستعرت بين اليمنية والقيسية بعد مرج رهاط ، والحق أن العvisية القبليّة كانت تعيش في دماء القوم وأنفسهم ، ذلك لأن العvisية كان ما يزال لها سلطان على نفوس القوم رغم دعوة الاسلام الى نبذها ، اذ أنها بحال قد أودعت فيه مفاسد القوم وأيامهم وأنسابهم وماضيهم منذ أجيال بعيدة .

والذي أسهم في استعمار هذه العvisية بعد الفتوحات ، أن القبائل المهاجرة التي سارت في ركاب الفتح ، بقيت محافظة على كيائها القبلي داخل جيش المسلمين ، فكل قبيلة بقيت تؤلف وحدة حربية متميزة ، يرأسها ساداتها في الحرب ، ولكل منها لراؤها المعروف ، فاذا حطت رحالها في بعض المناطق نزلت كل قبيلة في موضع خاص بها ، ومثال ذلك أن اليمنية نزلت مدينة حمص في الشام دون القيسية^(١) ، وكان أهلها يتعاطفون على هذا الأساس القبلي ، حتى انهم تبيعوا لأعشى همدان حين مر بهم لأنه يمني^(٢) ، واذا أقامت مجموعة من القبائل المختلفة في حاضرة مثل الكوفة أو البصرة ، كان لكل منها خطتها أو موقعها الخاص بها ، « ففي البصرة مثلاً لكل من قيم والأزد وبكرو وعبد القيس خططهم ، وكانت الكوفة مقسمة الى خطط مختلفة بين القحطانيين والعدنانيين^(٣) » .

وزاد من أمر العvisية خطورة واستمراراً ، أن اليمنية والقيسية ، كانت تؤلف كل منها اطاراً قبلياً عاماً يضم القبائل المتفرعة عنها ، فكانت فروع

(١) انظر الاغصاني ٤٩/٦ - ٥٠ (دار الكتب) ، وكانت حمص كلها لليمن حتى قيل : « اذل من قيسى ب حمص » انظر مجمع الامثال ٢٨٣/١ .
(٢) الاغصاني ١١٧/١٤ و ١٦٢/١٧ (سامي) .
(٣) التطور والتجديد ١٨ ، وانظر الكامل للبرد ٢١٩/٢ .

اليمينية كلها ضمن إطار عصبي واحد ، وكانت فروع القيسية كلها ضمن إطار عصبي مقابل ، وكانت المناقشة على أشدها بين الفريقين ، وهي مناقشة تعود في أصولها إلى عصر ما قبل الإسلام ، وهذا التكتل العصبي لعب أدواراً خطيرة في ترويج الأحزاب السياسية ، لأن من الطبيعي أن تسعى كل عصبية إلى السيادة والملك^(١) ، ولهذا كانت القيسية ، وهي عدائية من مضر ، تدفع إلى نصرة حزب أو طائفة من هذا الحزب ، بينما تندفع اليمينية إلى نصرة حزب آخر أو طائفة أخرى ، ففي الشام كانت قيس في صف ابن الزبير بزعماء الضحاك ، وكانت كلب اليمينية في صف الأمويين ، ولم ينته الصراع بينهما في « مرج راهط » ، وإنما نقل إلى العراق وخرسان ، فلعبت القيسية أدواراً سياسية خطيرة ولا سيما في خراسان ، فكانت من أهم الأسباب في القضاء على دولة بني أمية ، مع أنها شغلت مناصب كثيرة بفضل من ينتمي إليها من ثقيف ، وكانت قيم كالفيسية تنتمي إلى مضر ، ولكنها لم تكن على وتام مع القيسية بادية الأمر ، إلا أن الرغبة في التكتل العصبي جعلت تمجداً تنضم إلى القيسية تحت لواء المضرة ، وكان مجاورها في البصرة وخراسان أزد عمان ، وهم من أشد أعداء قيس وتميم على السواء^(٢) .

وسياسة الأمويين كانت عاملاً هاماً في تنشيط الصراع بين العصبيات ، إذ كان هذا الخليفة يقرب القيسية فتتال معانم الحكم والسلطان ، ثم يأتي خلفه فيقرب اليمينية وتتنال بذلك مزاي الجاه والسلطة ، بينما تخلع القيسية السابقة عما كان لها من جاه وسلطان ، وهكذا كان تغير الخليفة يعني تغيراً في الطبقة العصبية المتنفذة ، وبذلك كان يزداد اتساع الصراع بين العصبيات على المعانم

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ٤٢٩/٢ - ٤٤٠ و ٤٦١/٢ .
(٢) تاريخ الدولة العربية ٦٥ - ٦٦ .

السياسية ، وهذه الظاهرة بدأت بتولي الفرع المرواني للخلافة ، وازداد خطرها بعد خلافة عمر بن عبد العزيز^(١) ، وكان هذا الأمر يتم نفسه في الأمصار ، إذ كان الروالي يضرب القبائل بعضها ببعض ليكون هو الأعلى ، وتبعاً لعصبية كان يعتمد على القيسية مثلاً ، ثم يعتمد خلفه على أعدائها ، ومن ثم كانت الصراع العصبي لا تهدأ له نائمة ولا سجا في العراق^(٢) .

وهذه الظاهرة هي التي تفسر مانجده في رجز العجاج من صراع عصبي واسع ، فقد خلقت فخراً واسعاً بتميم ، وصورت ذلك الصراع الدامي بين الأزدي وقيلته تميم ، ولكنه لا يضع القيلتين وجهاً لوجه ، وإنما يجمع من حوله الحزب المضري كله ، فهو يعدد قبائل المضرة من تميم وخندف وخزيمة وقيس عيلان ، ويرى أنه بهذه القبائل ، أو قل بالحزب المضري كله ، يضرب جموع الأزدي البائدة .

وبما زاد هذا الصراع الاجتماعي خطورة دخول الموالى في تنابح الأحزاب السياسية ، أو التجمعات القبلية ، وكان الموالى يؤلفون طبقة متميزة في المجتمع الإسلامي لعصر العجاج ، إذ أن تكوين المجتمع في ذلك الحين كان يتألف من طبقتين الأولى طبقة العرب الفاتحين ، والثانية طبقة الموالى من الأمم المغلوبة وأبرزها موالى الفرس في العراق ، ومن الممكن للباحث أن يميز بين العرب طبقتين أيضاً ، الأولى طبقة الخاصة في الحجاز والشام ، وقد أثرت من الفتح ثراء عظيماً ، وطبقة العامة الذين عاشوا في نجد والعراق والأمصار الأخرى^(٣) ، ولكن العرب على اختلاف أحوالهم المعاشية كانوا يؤلفون طبقة اجتماعية متميزة تقابلها طبقة الموالى من غير العرب .

(١) انظر تاريخ الإسلام السياسي ٥٢٥/١ - ٥٣٣ .
(٢) تاريخ الدولة العربية لونهورن ٦٤ - ٦٥ .
(٣) قارن بالتطور والتجديد ٧٤ .

ومبادئ الدين الاسلامي كان يمكن أن تمنح هؤلاء الموالي كل ما للعرب من حقوق مدنية ، ولكن سياسة الأمويين كانت سياسة عرقية خالصة ، وما كان واقع الدولة يسمح بسياسة أفضل ، إذ لا يمكن للدولة أن تتأقن على مناصبها الكبرى كالولاء والقادة والعمال ، أن تكون الا " بأيدي العرب الذين كانوا هم المؤسسين لهذه الدولة ، كما أن البنية الاجتماعية كانت لا تسمح بالنسوي بين العرب والموالي ، ذلك لأن النظام القبلي كان هو السائد في المجتمع ، وكل فرد لابد أن يرتبط بطار قبلي معين ، ولذا كان المسلمون من غير العرب لا يمكن لهم في البناء الاجتماعي الا " إذا التحقوا بالولاء بهذه القبيلة أو بتلك ، وهذا يعني أنهم بطبيعة الحال في منزلة اجتماعية أقل من منزلة أفراد القبيلة من العرب ، ومما يمكن لهم من شأن أو نسب قبل اسلامهم فان ذلك لا يخدم في المجتمع الجديد بأي شرف أو امتياز ، لأن شرف الموالي انما هو بن دخلوا في ولائه لا بانسابهم الأساسية ^(١) .

وهذا مادفع تلقائياً الى نظرة لا تخلو من استخفاف ، كان ينظر العرب بها الى الموالي ^(٢) ، ولعل من دوافع ذلك أيضاً شعور العرب أنهم أصحاب الفتح والانتصار ، وربما كان لتوالي الأحداث السياسية وتدخل الموالي في تيارات الأحزاب السياسية ماحل على زيادة الاستخفاف بهم ، ومن ثم قرّ في أنفسهم شيء من الحقد والضغينة ، ففعلوا بفتوق سبلا ، منهم من سار في ركاب الخوارج لا في مذهبهم من مساواة بين المسلمين ، ومنهم من أيد فرق الشيعة وغبّة في دعوتها الغالية أو انتقاماً من الدولة الأموية ، وعلى العموم كان الموالي آذناً لكل ثاقب بثورة ، وسروفاً لكل من يخرج على السلطان .

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٢٨/٢ .

(٢) انظر لمحة عن ذلك في التطور والتجديد ٨٥ - ٨٦ .

وقد تأثر رجز العجاج بهذا الجانب ، فلم يغفل دور الموالي في ثورات الخوارج والشيعة ، ففي الأبرجوزة (١) ذكر أن الخوارج قد تلقوا أخلاقاً من الناس ، فهم الموالي من سوقة وعبيد ، وفي الأبرجوزة (٧) نصّ على أن أصحاب المختار التقى كانوا من الأعاجم والموالي أيضاً .

وأخر ملاحظة في مجتمع العجاج ، أن البيئة الاجتماعية كانت تختلف باختلاف الأقاليم ، وكل إقليم كان له طابع أدبي خاص تبعاً للبيئة الاجتماعية فيه ومدى ما تأثرت به من الأحداث السياسية ، وأهم هذه البيئات أربع هي الحجاز ونجد والعراق والشام .

أما الحجاز فالحياة الاجتماعية فيه تحولت عما كانت عليه في الجاهلية ، إذ أن الفتح قد أغنت عليه نراه واسعاً ، فاجتمع لحصة الناس فيه من الثروة ما يقدر بأرقام تدنو من الخيال أحياناً ^(١) ، وابتنوا القصور في مكة والمدينة ، واقتنوا في بناها بالجلس والآجر والساج ^(٢) ، وملئوا جنباتها بالعبيد والاماء ^(٣) ، ثم أصبح الحجاز في عزلة سياسية تامة بعد أن وطّد المروانيون لأنفسهم في الشام ، ولا سيما أن سياسة الأمويين كانت تهدف الى عزلة الحجاز واغراقه بالأموال والأعطيات ^(٤) ، حتى ينصرف عن التفكير في أمر السياسة .

(١) انظر تاريخ الخميس ١٧٢/١ - ١٧٣ ، و ٢٥٧/٢ - ٢٥٩ ، وتاريخ أبي الفداء ١٧٦/١ ، ومقدمة ابن خلدون ٥٤٢/٢ ، ومروج الذهب ٤٣٣/١ - ٤٣٤ ، و ٤٣٨/١ ، و ٦٧/٢ .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ٥٤٣/٢ ، ومروج الذهب ٤٣٤/١ .
(٣) وكانت أعداد العبيد كثيرة لأنه لم يكن آثماً ما يعرف بالفداء ، وكان أول من فكر فيه عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) ، ولكن الفداء لم يتم إلا أيام الرشيد (١٨٩ هـ) ، انظر فتوح البلدان للبلاذري ١٨١ ، والتنبيه والاشراف للمسمودي ١٨٩ .

(٤) انظر تاريخ الطبري ٣٦٦/٤ ، وتاريخ ابن الأثير ٤٥/٤ ، والمستجدات من فترات الاجواد ٢٢٠ - ٢٢١ .

فلما جاء أبناء الرعل الثاني وجدوا أنفسهم فيا يشبه الفراغ ، وبين أيديهم أموال كثيرة ، ومن حولهم ذلك الرقيق من عبيد واماء ، فاتجه بعضهم الى التفقه في الدين ، وبالمعظم الى حياة اللهو والمتعة^(١) ، وكان دور السيد والاماء هو الترفيه عن هذا الشباب بفن الغناء ، وهو فن كان في جاهلية الحجاز^(٢) ، ولكنه كان محدوداً وساذجاً ، أما اليوم فقد اتسع حتى فتحت له النوادي في مكة والمدينة واشتهر فيه أعلام من مشاهير المغنين والغنيات^(٣).

وشعر هذه البيئة الجديدة كان لابد أن تظهر فيه سمات تميزه من شعر ما قبل الاسلام ، اذ ضم فيه موضوع المديح والهجاء ، واتجه بوجه خاص الى الغزل لما فيه من تلاؤم مع ترف هذه البيئة ورقة مشاعرها وما ظهر فيها من فن الغناء الجديد ، ومن هنا كان أكثر الشعراء في الحجاز لهذا العصر شعراء حب وغزل على نحو ما نعرف عند عمر بن أبي ربيعة والعرجي وابن قيس الرقيات في مكة ، والأحوص في المدينة ، فقد ذهب شعروهم جميعاً في التغني بقصة الحب وأحداثه ووقائعهم ، وعبروا في ذلك عن رقة حس شديدة ، وكان شعروهم يتحول في كثير من جوانبه الى أنفاس خالصة^(٤).

وكان هؤلاء الشعراء أساليبهم المعروفة في مدرسة الغزل الحسي المادي ، وكان لهم دورهم في تطوير شكل القصيدة ومضمونها . وما كان العجّاج ليتأثر

(١) ذكر أن الوليد بن عثمان بن عفان كان صاحب متعة وشراب ، وقتل أبوه وهو مخلق سكران ، مما يدل على أن اللهو بدأ منذ زمن مبكر ، انظر مروج الذهب ٤٣٣/١ .

(٢) انظر أخبار جابر بن عبد الله ، وقد أهدر النبي دمه يوم الغنم لانهما كانتا تغنيان في الجاهلية بهجاء المسلمين ، تاريخ الخميس ٩٤/٢ ، وجوامع السيرة ٢٢٣ .

(٣) انظر التطور والتجديد ٦ .

(٤) التطور والتجديد ٧ .

بهذه النزعة الاجتماعية التي وجدت في بيئة الحجاز ، فهو أعراي من نم عاش بين نجد والعراق ، وتأثر بما فيها من بيئات اجتماعية ، ثم تأثر بعض الشيء بما كان في الشام من حاضرة الخلافة .

أما نجد فهي صحراء واسعة بين الحجاز والعراق ، والحياة فيها تعتمد على المراعي ، ان جادت السه بالغيث والمطر ، والا كان لابد من تأمين الحياة بالغزو والاغارة ، وربما كانت مواقع الغيث سبباً للتنازع بين الأحياء والقبائل ، وهذا ما جعل بين قبائل نجد أناماً ووقائع كثيرة ، وخلصت أختنا وترات منذ الجاهلية ، ولا سيما أن هذه القبائل منها العدناني ومنها القططاني ، وهذا ما ساعد على إيقاظ روح العصبية بين القبائل المهاجرة الى العراق والشام وخراسان . وقد لمسنا آثار هذه العصبية مجلدة في أراجيز العجّاج .

ولم تظهر بلاد نجد بما ظفر به أهل الحجاز ، لأن سكان نجد لم يكونوا من السباقين الى الاسلام حتى يكون لهم نصيب من ذلك الثراء الواسع ، وإنما كان نصيبهم تلك الحروب الأهلية الطاحنة التي بدأت بحروب الردة ، وانتهت الى تسلط الحواريّة وخاصة في البحرين واليمامة ، وبذلك تحولت بلاد نجد الى مسرح للصراع الدامي بين الحواريّ وأصحاب السلطان في العراق . ولهذا لم تكن بيئة نجد قد ظفرت بغير الفقر الذي عرفته في جاهليتها ، ولذلك لم نجد أي تحول في أشعار هذه البيئة النجدية ، الا ما كان من بروز ظاهرة الغزل العدناني على يد قيس بن ذريح وجبل بنية وغيرها^(١) ، وهو غزل لم يكن مألوفاً على هذا النحو من التخصص في العصر الجاهلي ، وإذا لم نجد هذا التخصص بشكل واسع في غزل العجّاج فإن آثار اللغة العدنانية واضحة

(١) انظر التطور والتجديد ١٢ - ١٣ .

في غزله ، وفي نفسيته وأخلاقه ، كما أن البيئة النجدية قد أثرت تأثيراً واسعاً جداً في أوصافه وأحاديثه عن الصحراء بحيوانها ونباتها وأحوالها المختلفة ، بل أن نشأته في البصرة على شواطئ الخليج العربي ، قد خلفت صوراً عديدة للسفينة وتشبيه الجبل أو الناقة بها ، ولعل بيئة نجد الطبيعية والاجتماعية كان لها أثر جوهري في طابع العجاج ، وفي بنية رجزه ، إذ أن هذه الصحراء كانت هي المصدر الأساسي لا أوردته من غريب ، وربما كانت أحداثها السياسية ، وما نتج عنها من بؤس اجتماعي ، هي التي أثرت في نفسية العجاج ، ففداه زاهداً في الهجاء ، مضرباً عن ستم أعراض الناس .

فالعجاج قد تأثر بالبيئة الطبيعية والاجتماعية في نجد وأما العراق فقد رحل إليه وأقام في البصرة ، وكانت حياة الناس الاجتماعية في العراق تشبه من بعض الجوانب ما كان من بؤس نجد ، ولكنها تختلف عن ذلك في التشكوين الاجتماعي والثقافي والحزبي ، فالعراق كانت تتضح فيه طبقات المجتمع أكثر من أي إقليم آخر لكثرة الموالي من الفرس ، وفي العراق حاضرة الحزب الشيعي ومنطلق حزب الحوارج ، وفيه بلبغ صراع العصبية غايته ، وفي البصرة كان صراع عقلي واسع حول بعض الآراء الدينية من قدر أو جبر أو إرجاء ، وكانت الثورات والحروب لا تنقطع ، فإذا أراد الناس متعة أو ترفهاً ، وجدوا خائلهم في المريد أو الكناسة ، إذ كانت جرير والفردق وأصحابها قد هيؤوا فناً جديداً لامتاع الناس ، هو فن النقائص ، وصحيح أن النقائص قد عرفت لها بعض النماذج في الجاهلية وصدر الإسلام^(١) ، إلا

(١) انظر أمثلة ذلك في تاريخ الطبري ١٧٦/٢ و ٢٠٣/٢ - ٢٠٤ ، وتاريخ الخميس ٢٧٩/١ و ٢٨٠ و ٢٨٧ - ٢٨٨ ، والبداية والنهاية ٢١/٤ و ٥٦ - ٥٧ و ١٣٢ - ١٣٣ و ٢٧٩ - ٢٨٠ و ٤١/٥ - ٤٢ و ٢٢١ ، والمغازي ١٨٥ - ١٨٦ ، وحيون الآخر ٢٨٨/١ - ٢٩٠ و ٦٦/٢ و ٢٠٤ .

أنها تحولت في العراق الى فن دائم يلقى كل يوم ، ولا يبعث عليه الصراع العصبي فقط ، وإنما يدفع اليه أيضاً صراع أدبي وفني بين الشعراء ، يحاول كل منهم أن يكون أكثر إعجاباً لدى الناس المتفرجين في البصرة أو الكوفة^(٢) .

وقد تأثر العجاج بهذه البيئة الاجتماعية في العراق ؛ تسأثر بالعصيات الثائرة ، واشترك من بعض الجوانب في الصراع بين الأحزاب ، والتزم ولاء العراق ، فمدح مصعب بن الزبير ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، واتخذ لنفسه آراء الجبرية بما يتناسب مع مدحه لبني أمية ، ولكنه لم يسهم في الصراع الفني بين شعراء النقائص لأنه صدف عن الافحاش في الهجاء ولم يكن كذلك من الشعراء الذين وقفوا في صف الموالي^(٣) ، وإنما وجدناه يحيط من شأن الحزبية لأنهم سوقة وعبيد ، ويعرض بأصحاب المختار الثقفي لأنهم من الأعاجم .

وكانت بيئة الشام تختلف كل الاختلاف عن بيئة العراق ، إذ أن وجود ذلك الصراع القوي بين العصبية القليلة والطبقات الاجتماعية والسياسية الحزبية في العراق ، جعل منه المركز الأول من حيث كثرة الشعر والشعراء ، أما الشام فكان خلافاً لذلك ، لأن الحزب الأموي هو الذي يؤلف السواد الأعظم من الناس ، ولولا الصراع بين القيسية واليمينية في مرج واهط لما عرف الشام خلافاً من هذا النوع ، ولذلك كانت البيئة الاجتماعية في الشام أقرب ما تكون الى التجانس والاستقرار أكثر من الأقاليم السابقة ، وهذا ما جعل نبوغ الشعراء في الشام قليلاً جداً حتى لم يبرز فيها غير عدي بن الرقاع العاملي . وقد لاحظ الدكتور شوقي ضيف أن مرد هذه الظاهرة يعود الى أن معظم قبائل الشام

(١) انظر النظم والتجديد ١٠٢ - ١٨٥ .
(٢) انظر قصيدة لجبرير يفخر على قحطان بالفرس والسرور ، فسي مروج الذهب ١٤٨/١ .

كان من اليمنية ، وهؤلاء اصطنعوا العروبة الشاهلية اصطناعاً ، فلم تؤهلهم لقول الشعر ونظمه^(١) ، وهذه الملاحظة يمكن أن تصدق الى حد ما ، ولكن رقابة البيئة الاجتماعية نسبياً كان له الأثر الهام في تخلف النبوغ الشعري ، وقد سبق ابن سلام الى القول بأن الشعر انما يكثر بالطروب التي تكون بين الأحياء ، وبهذا علل ابن سلام ، قلة شعر قريش في الجاهلية ، اذ لم يكن بينهم فائز ولم يحاربوا^(٢) ، وهذا نفسه يمكن أن نلاحظه في تقيظ الشعر في الشام عقب الحرب بين اليمنية والقيسية في مرج راهط ، فقد استنارت بعض الشعراء من من القريشين ، الا أن انتصار أحدهما ونقل الأخرى نشاطها السياسي الى العراق وخراسان فترة من الزمن ، جعل النضال الشعري بينها يغيب من جديد في الشام . واذن فالبيئة الاجتماعية المتجانسة نسبياً ، والمؤلفة من قبائل اليمنية غالباً ، قد حملت على الحد من النبوغ الشعري في بيئة الشام ، فكان الشعر لذلك يحد إليها من الأقاليم الأخرى ، باعتبارها قاعدة الخلافة والسلطة ، وكانت دمشق ملتقى الشعراء من العراق والحجاز ونجد ، ومن هؤلاء الشعراء طبقة الرجاز من أمثال العجاج ورؤبة وأبي النجم ، ومن هنا كان أثر الشام في العجاج أنها استنارت همته للبديع ، ولونت معانيه بأراء الأمور السياسية ، ودعته الى الرحلة بعد الرحلة الى خلفاء بني أمية .

- ٣ -

وبرز عصر العجاج عدد من الاتجاهات الفكرية والعقلية ، منها ما كان يهدف الى توضيح أمور الدين الاسلامي من تفسير لكتاب الله أو رواية لحديث

(١) التطور والتجديد ٢٤ .

(٢) طبقات ابن سلام ٢١٧ .

- ٤٢ -

رسول الله ، أو تبين لأركان الفقه الاسلامي ، ومنها ما كان صراعاً حول مسائل القدر والايمان وما تفرع عن ذلك من أمور .

فعل التفسير قام على يد جماعة من الصحابة الذين تفقروا في كتاب الله ، أمثال عبد الله بن عباس ، وأبي كعب ، وأبي موسى الاشعري ، وأنس ابن مالك ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، والسيدة عائشة أم المؤمنين ، ثم تلقى أقوال الصحابة نفر من كرام التابعين في الأمصار الاسلامية المختلفة ، فنشأت في مكة طبقة من المفسرين ، وفي المدينة طبقة ثانية ، وفي الكوفة طبقة ثالثة^(١) . وبعد أن مر الحديث والفقه بطور التعميد والتحضير ، اتسع البحث فيها وتنوع ، ودارت حولها المدارس الفكرية تنتصر للمأثور ثلثة ، وللرأي ثلثة أخرى^(٢) ، وسبب ذلك أن أصول التشريع الاسلامي كانت تستمد من القرآن والحديث والاجماع والقياس^(٣) ، ولهذا قامت في المدينة مدرسة فقهية تمتاز بالاعتدال على الحديث ، لأنها مدينة الرسول ودار السنة وموطن الرعيل الأول من علماء الصحابة ، وقامت في الكوفة مدرسة تمتاز بالاعتدال على الرأي والقياس ، لأنها كانت بعيدة عن موطن الحديث ، ولم يبلغ أهلها من سنن النبي وأقواله الا ما حمله اليهم أولئك الصحابة ، الذين ساكنوهم ونزلوا بين أظهرهم أمثال علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأنس بن مالك ، وسعد بن أبي وقاص^(٤) .

وكان التميز واضحاً بين مدرسة أهل الحجاز في المدينة ، ومدرسة أهل العراق في الكوفة ، الأولى متعنتة بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء

(١) مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) علوم الحديث للدكتور صبحي الصالح ٣١٦ .

(٣) النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ٢٢٧ .

(٤) النظم الاسلامية ٢٠٩ ، وانظر المسئل والنحل للشهرستاني ٤٦/٢ .

- ٤٣ -

الأحكام على النصوص ، ولا يرجع أصحابها الى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خيراً أو أثراً^(١) ، وهذه المدرسة هي التي خرجت الامام الشافعي فيما بعد (٢٠٤ هـ) ، والثانية تمتعت بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها ، وربما قدّم أصحابها القياس الجلي على آحاد الأخبار^(٢) ، وهذه المدرسة هي التي خرجت الامام أبا حنيفة فيما بعد (١٥٠ هـ) .

وكان بين المدرستين اختلافات كثيرة في الفروع ، ولم فيها تصانيف ، وعليها مناظرات ، ولذلك أصبحت مصادر الفقه الاسلامي ، وبصورة خاصة الرأي أو القياس نقطة الجدل والمناظرة بين الفقهاء ، فالشعبي كان أصحابه يناظرونه في الفقه^(٣) ، والزهري وقادة يناظران عند سليمان بن عبد الملك^(٤) ، وكان لكل اقليم من الدولة فقهائه ومحدثوه^(٥) ، وكل مجلس من مجالس هؤلاء الفقهاء ، لا بد أن يثار فيه ذلك الجدل الفقهي ، لأن لكل رأيه في أسباب الخلاف والموازنة بين الآراء .

ولم يكن شعراء هذا العصر على بعد من هذا الجدل الذي يجري في حلقات الفقهاء ، فغيره كان يلتزم حلقة ابن سيرين ، والفرزدق كان يلتزم حلقة الحسن البصري^(٦) ، وربما وجدنا في أشعارهم ما يشبه الفتاوى للناس^(٧) ، وقد تأثرت أشعارهم بالمعاني الدينية ، حتى أصبحت معظم المروضات الشعرية لا تخلو من هذه المعاني ، وهي ظاهرة بدأت منذ صدر الاسلام ولكنها اتسعت

(١) الملل والنحل ٤٥/٢ ، وانظر فجر الاسلام ٢٧٦/١ .

(٢) الملل والنحل ٤٦/٢ .

(٣) البيان والتبيين ٣٢٢/٢ .

(٤) البيان والتبيين ٢٤٣/١ .

(٥) انظر التطور والتجديد ٤٦-٤٧ ، وفجر الاسلام ٢٠٩/١-٢٣٩ .

(٦) المقدم ١٦٩/٣ قيمة القاهرة ١٢٠٢ .

(٧) الاغانى ١٤/١٩ .

في هذا العصر ، ولا سيما أن موجة من الزهد كانت تراقص حركة العلوم الاسلامية من تفسير أوقفه أو حديث ، لأن معظم هؤلاء العلماء من الصحابة أو التابعين كانوا من الزهاد أو المبالغين في الزهد^(١) .

وقد تأثر العجاج بهذه الجوانب ، فظهرت جليلة في ملامح رجزه بوجه عام ، وقد التقى بأبي هريرة ونقل عنه بعض الأحاديث^(٢) ، وأشدّه الأرجوزة (٢٢) وهي في الوعظ فقال أبو هريرة : « أشهد أنك تؤمن بيوم الحساب »^(٣) ، وأشدّه شيئاً من غزله في الأرجوزة (٢١) يسأله هل يرى فيه حرجاً ، فقال : قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنشد مثل هذا فلا يرى بأساً^(٤) . وبذلك كان للعجاج اتصال بالصحابة في الجواز ، ولنا أن نتوقع منه الاتصال بزاهد البصرة وعالمها الحسن البصري ، ومن ثم كان لاتصاله بالصحابة والعلماء الزهاد ، أن ظهرت في أرجوزته بعض الانجهايات الزهدية ، وأفرد لذلك بعض الأراجيز الخاصة .

وكان فئة مناظرات حول أمور أخرى غير الفقه والتشريع ، كانت هنالك أسئلة تثار حول الايمان وهل العمل جزء منه ، فان زاد العمل زاد الايمان ، وارت نقص العمل نقص ذلك الايمان ، أم أن الايمان واحد لا يزيد ولا ينقص ؟ وأسئلة أخرى تثار حول القضاء والقدر ، وهل الانسان يختار في أعماله ، أم أنه مجبر عليها وإذا كان مجبراً فكيف يجازى على أمر قد أجبر عليه اجباراً ، وهل في ذلك

(١) انظر التطور والتجديد ٣٢ - ٤٨ .

(٢) الشعر والشعراء ٥٧٢ ، والاغانى ٥٨/٢١ ، وتاريخ ابن عساکر ١٩٤/٧ ، وسقط اللالي ٥٦ ، وشرح شواهد المعنى ١٨ ، والمقاصد النحوية ٢٧/١ .

(٣) الاغانى ٥٨/٢١ ، وخزانة بولاق ٥٠٩/٣ .

(٤) شرح الأصمعي : الأرجوزة ١٥/٢١ - ١٦ وأشار الى ذلك صاحب اللسان في مادة (بخند) و (درم) .

عدل من الله ؟ وهل كان الصواب في صف علي أم في صف معاوية ، وأي الفريقين كان على حق ، وأين قتلى كل منهما ، أي الجنة أم في النار ؟ ومن هنا دخلت السياسة من طرف خفي إلى التفكير العقلي ، وكان التناقضات الأجنبية ، والعناصر الأعمجية التي داخلت مجتمع المسلمين ، أن أثرت تأثيراً بالغاً في تسرب بعض الآراء المتكررة إلى أذهان بعض الناس في ذلك الحين .

وفى أخبار تشير إلى تفكير بعض الأفراد في الجبر أو الاختيار منذ خلافة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب^(١) ، ولكن الفرق الفاتحة بذلك ، لم تظهر إلا أوائل عصر بني أمية ، فكانت طائفة ترى الإنسان مجبراً في أعماله ، وهي الجبرية ، وأخرى تراه مختاراً في أعماله ، وهي الاختيارية أو القدورية ، وثالثة كانت وسطاً بين الجبر والاختيار ، وهي المرجئة .

والجبرية كانت ترى أن الإنسان أشبه بريشة في مهب الريح ، وليس له حرية أو اختيار فيما ينسب إليه من أفعال ، وقد خص ابن حزم حيثهم فقال : « فاما من قال بالاختيار فانهم احتجوا فقالوا : لما كان الله تعالى قهراً ، وكان لا يشبه شيء من خلقه ، وجب أن لا يكون أحد فعلاً غيره ، وقالوا أيضاً : معنى إضافة العقل إلى الإنسان ، انما هو كما تقول : مات زيد ، وانما أماته الله ، وقام البناء ، وانما أقامه الله تعالى^(٢) . »

فهم يرون أن الأفعال حين تُنسب إلى الإنسان ، انما تنسب على سبيل المجاز لا الحقيقة^(٣) ، وبما أن الأفعال جبر لا اختيار فيه ، فذلك وأما أن الثواب والعقاب جبر أيضاً لا تخكم الإنسان في أمره^(٤) . وكان أول القائلين

(١) النظم الإسلامية ١٣٤ - ١٣٦ ، وانظر بعض الاحاديث النبوية حول ذلك في شفاء العليل لابن القيم ٢٧٢ و ٢٧٤ .
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢٢/٢ - ٢٣ .
(٣) الملل والنحل للشهرستاني ١١٠/١ .
(٤) الملل والنحل ١١١/١ .

بهذه البدعة هو الجعدي بن درهم وتلميذه الجهم بن صفوان ، وكلاهما من الموالي ، وبهذا نستدل على تأثير الاعاجم في افساد عقائد المسلمين^(١) ، وكان الجعدي قد تعرض لأمر آخر لا يقل خطراً عن الجبر ، وهو قوله بتعطيل الله عن الانصاف بصفات غير ذاته ، اذ رأى أن ما ورد في القرآن مثل سميع وبصير ليس على ظاهره وانما هو مؤول ، لأن ظاهره يدل على التشبيه بالخلق وهو مستحيل على الله .

ونقل الجعدي تعاليمه إلى تلميذه الجهم بن صفوان ، وهو من أهل خراسان من الموالي ، وأقام بالكوفة خطيباً يدعو الناس فيجذبهم إلى قوله ، حتى شُيبت^(٢) إليه هذه الطائفة فسميت بالجهمية ، وظهر منهجه في ترمذ ، وقتل بمرور آخر أيام بني أمية^(٣) ، ولم تبق الجبرية فرقة واحدة ، بل انقسمت إلى فرق متعددة^(٤) ، وقد نشط علماء المسلمين في الرد عليها لما خرجت به عن حدود الدين الحنيف^(٥) .

وكان يقابل هذه الفرقة من قال بجمرية الارادة ، ونفى أن يكون الإنسان مجبراً في أعماله ، أو أن يكون القدر هو المتحكم في أعمال الإنسان من خير أو شر ، وهؤلاء هم « القدورية » ، وهم نفاة القدر لا المبتنون له كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن من تسميتهم ، وكان أول الداعين إلى ذلك هو معبد بن خالد الجهمي وتلميذه غيلان الدمشقي ، أما معبد فقد قد الحجاج طروجه مع ابن الأشعث وقيل لزيدته ، وكان يجالس الحسن البصري

(١) انظر النظم الإسلامية ١٢٨ . وكان الجعدي في الشام وادب آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد .
(٢) الملل والنحل ١٠٩/١ ، وفجر الاسلام ٣٥١/١ ، والنظم الإسلامية ١٢٧ - ١٢٩ .
(٣) انظر اعتقادات فرق المسلمين والمشرئين للإمام الرازي ٦٨ - ٦٩ .
(٤) انظر رد ابن حزم في كتابه الفصل في الملل ٢٣/٣ - ٢٦ .

أولاً ، ثم استقل عنه في دعوته . وأما غيلان فكان يسكن دمشق ، وكان أبوه مولى لعثمان بن عفان ، وقد أوقع الناس بينه وبين هشام بن عبد الملك وما زالوا حتى أمر به فقتل^(١) .

وبجمل آراء غيلان تبعاً لمعبد هي قوله بالاختيار ، وقوله بنفي الصفات النبوتية ، وقوله بجلق القرآن ، وقوله ان الايمان قول ومعرفة ولكن العمل لايعد شرطاً داخلياً فيه ، وقوله في الامامة بما قالت الخوارج : من أنها تصح لغير القرشي ولكل من آمن بالكتاب والسنة اذا أجمع المسلمون على امامته^(٢) .

ويرى بعض الباحثين أن معبداً شيخ غيلان لم يأت بهذه الآراء من نفسه ولم يستفها من آيات القرآن ولا بما عرف عند السلف جازئاً في حق الله أو غير جازئ ، وإنما استفها من رجل نصراني من أهل العراق يدعى أبا يونس الأسولري ، ومن الباحثين من يظن أن معبداً الجهنّي أخذ آراءه هذه عن أبيان بن سمعان اليهودي ، وأن أبيان أخذ آراءه عن طلوت بن أعصم اليهودي أيضاً^(٣) .

ثم وجدت فرقة فالتة كانت وسطاً بين الجبرية والقدرية ، وهي فرقة المرجئة ، وكان أساس مذهبهم الايمان والعمل^(٤) ، وتكلموا في الايمان والكفر

(١) فجر الاسلام ١/٣٤٩ .

(٢) ومن القائلين بهذا الرأي في الامامة ابو بكر الباقلائي ، ومعظم العلماء على شرط القرشية ، انظر مقدمة ابن خلدون ٢/٥٢٤ ، وأورد السيوطي بعض الاحاديث التي تنص على شرط القرشية ، انظر كتابه تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ٤ .
(٣) انظر النظام الاسلامي ١٤٢ ، وانظر فجر الاسلام ٣٤٨ و ٣٥٠ - ٣٥١ ، وتاريخ العرب السياسي ١/٥١٢ - ٥١٣ .
(٤) الملل والنحل ١/١١٢ .

ما هما ومتى يجوز التسمية بها^(١) . ونشأة هذه الفرقة تعود الى الوسط السياسي الذي وجدت فيه ، فالخوارج يكفرون عامة المسلمين ، ومن الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان ، وأعداء الأمويين جميعاً يكفرون بني أمية ، وكل فرقة ترى أنها على الحق ، وأن الفرق الأخرى على كفر وضلالة ، ولهذا قامت جماعة المرجئة لتكون وسطاً بين هذه الأحزاب المتنازعة فذهبت الى أن أصحاب هذه الأحزاب جميعاً قد اعتنقوا الاسلام ، ونطقوا بالشهادتين ، ولا يندري ان كانوا قد كفروا حقاً أو آمنوا حقاً ، وإنما أمر ذلك الى الله تعالى ، فهو الذي يعلم الكافر من المؤمن ، وله وحده أن يعاقب ان شاء أو يعفو ان أراد ، ولهذا أرجأت أمر علي ومعاوية ومن سبق من الخلفاء الى الله تعالى دون أن تقطع برأي في ذلك^(٢) .

ولكن الموقف السياسي الحاد حملهم على التفكير في شأن الايمان ، وبذلك ارتبطت عندهم الظواهر السياسية بأصول العقيدة في الاسلام ، فأروا أن الايمان هو التصديق بالقلب فقط ، أو قل هو معرفة الله بالقلب ولا عبرة بالمظهر ، فإن آمن الانسان بقلبه كان مسلماً حقاً ، وان أظهر اليهودية أو النصرانية ، وان لم ينطق لسانه بالشهادتين ، اذ ليس من شرط الايمان أن يقر الانسان باللسان ، أو أن يقوم بالأعمال المفروضة على المؤمنين من صلاة وزكاة وصوم وحج ، فهذه الأعمال الواجبة في الاسلام ليست من شروط الايمان في نظرم ولا هي جزء منه . ولذلك امتنعوا عن الحكم على غير المسلمين ، لأن أمر الحكم عليهم هو لله تعالى في رأيهم ، وبذلك كله خرجوا

(١) الفصل في الملل ٢/١١٢ .

(٢) انظر النظم الاسلامية ١٤٣ ، وفجر الاسلام ١/٣٤٣ ، وتاريخ الاسلام السياسي ١/٥٠٥ .

عن الاسلام خروجاً تلاماً^(١) .

وأراء المرجئة من الصعب أن يُحدّد لها مصدر معين ، إذ تشعبت فرقها ، واختلطت كثير من آرائها بأراء الخوارج^(٢) وغيرهم من الفرق حتى قال الشهرستاني : « والمرجئة أحناف أربعة : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة »^(٣) . ومن هنا نتبين السبب الذي أوقع في الشبهة بعض الباحثين في الخلط بين هذه الفرق ، أو باعتبار الجهم بن صفوان مثلاً أحد رؤوس المرجئة ، مع أنه صاحب الجهمية وهي أبرز فرقة من الفرق الجبرية . وكذلك يمكن أن ندرك من قول الشهرستاني ، لماذا أقصر بعض المصنفين من القدماء على اعتبار فرق المسلمين أربع فرق هي : الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة^(٤) ، أو خمس فرق بإضافة أهل السنة إليها^(٥) ، ولا سيما أن القدرية كانت تمهد لظهور المعتزلة وتتفق معها في بعض الأصول ، حتى لقب أصحاب المعتزلة بالقدرية أيضاً^(٦) ، ولهذا لم يميز بينها بعض الباحثين تمييزاً دقيقاً^(٧) .

وأول ظهور المعتزلة كان قد بدأ باعتزال واصل بن عطاء حلقة أستاذه الحسن البصري بسبب مارآه واصل من أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا

- (١) النظم الإسلامية ١٤٣ ، وضحي الاسلام ٣/٣١٦ ، وانظر مناقشة الدكتور صبحي الصالح لهذه البدع من آراء المرجئة في النظم الإسلامية ١٤٦ ، وانظر بسطاً لأراء المرجئة ورد ابن حزم عليها في كتابه الفصل في الملل ١٨٨/٢ - ٢١٢ .
- (٢) الملل والنحل ١٥٤/١ .
- (٣) الملل والنحل ١٨٦/١ .
- (٤) المقالات والفرق للأشعري ١٥ .
- (٥) الفصل في الملل ١١١/٢ .
- (٦) الملل والنحل ١/٥٤ و ٥٨ ، وانظر النظم الإسلامية ١٤٠ - ١٤١ .
- (٧) أمثال أحمد أمين في فجر الاسلام ١/٢٤٧ .

- ٥٠ -

مؤمن ، وانما له منزلة بين المنزلتين^(١) ، والمشهور أن هذه الحادثة هي السبب في تسمية هذه الفرقة بالمعتزلة ، وإن قيل غير ذلك^(٢) ، وقد مهد لظهورها ما رأيناه من فرقة القدرية ، وما كان من آراء الحسن البصري أمام أهل البصرة ، وهي تركيز حول نظرتهم الى الايمان ، والى مرتكب الكبيرة والى الجبر والاختيار .

فقد ربط الحسن البصري بين الايمان والعمل ، ورأى أن الايمان لا يكمل الا اذا عمل صاحبه بقتضاه ، فإن نقص من عمله شيئاً ، نقص من ايمانه قدر ذلك ، ومن هنا نظر الى مرتكب الكبيرة ، فرأى أنه لا يوصف بالمؤمن الكامل لأنه لم يعمل بقتضى الايمان ، وليس ما يثبت انه قد كفر ، ولذا كان منافقاً في رأي الحسن البصري ، في حين وآه واصل بن عطاء فاسقاً ، والفسق أشد من النفاق ، ونظرة الحسن الى مرتكب الكبيرة على هذا النحو جعلته يتساءل أيضاً عن الجبر والاختيار ؛ فمرتكب الكبيرة يفعل ذلك باختياره وادارته أم أن ذلك مفروض ومقدر عليه ؟ وهنا يظهر الحسن البصري وسطاً بين القدرية والجبرية حين يرى أن الخير من الله والشر من العبد ، ويلتزم بقوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك »^(٣) .

وأراء الحسن البصري هذه قد أثرت في تلميذه واصل بن عطاء ، الذي أسس أول فرقة من فرق المعتزلة^(٤) ، ولا يعنينا تفصيل أمر هذه الفرق ،

- (١) الملل والنحل ٦٠/١ .
- (٢) انظر فجر الاسلام ١/٢٥٣ ، والنظم الإسلامية ١٥٠ .
- (٣) سورة النساء ٧٨/٤ ، وانظر آراء الحسن البصري بالتفصيل في النظم الإسلامية ١٥٣ - ١٥٤ ، وانظر أيضاً التطور والتجديد ٥٢ وقابله بالملل والنحل ١/٥٩ .
- (٤) وأطلق عليها اسم الواصلية ، انظر الملل والنحل ١/٥٧ - ٦٢ .

- ٥١ -

وحسبنا أن نطل على آراء المعتزلة بوجه عام ، وهي تركز على خمسة أسس عرفت عندهم بالتوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمثالة بين المذلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فالمعتزلة اتفقوا على نفي الصفات عن الله تعالى ، ونفي التشبيه عنه من كل وجه : جهة ومكانا وصورة وجسماً وتخيلاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً ، وأوجبوا تأويل الآيات التي فيها شيء من التشبيه ، وسما هذا المنطوحيداً . واتفقوا على أن العبد خالق لأفعاله من خير وشر ، ويستحق على مايفعله ثواباً أو عقاباً في الدار الآخرة وإن الله مثزه أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كثر ومعضة ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لو خلق العدل كان عادلاً ، وسما هذا المنط عدلاً . واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق ماوعده الله به من ثواب ، وإن خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها ، استحق ما أوعده به الله من عقاب ، وأن الله صادق في وعده ووعيده ليس مبداً لكلماته ، وسما هذا المنط وعداً ووعيداً . واتفقوا على أن مرتكب الكبيرة فاسق منزله بين المؤمن والكافر ، وهذا ما عرف عندهم بالمثالة بين المذلتين . واتفقوا على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا من أنفسهم دعاء لذلك تحقيقاً للآية الكريمة : « ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، وأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر »^(١) . والمعتزلة عامة كانت نشأتهم دينية خالصة ، ولكن طبيعة أبحاثهم جعلتهم ينظرون إلى الإمامة وشرط الإمام ، فأروا بتفكيرهم العقلي أن الإمامة ينبغي أن تكون اختياراً من الأمة ، وذلك لأن الله عز وجل لم ينص على رجل

(١) سورة آل عمران ١٠٤/٣ ، وانظر آراء المعتزلة في المسأل والنحل ٥٥/١ - ٥٦ ، والنظم الإسلامية ١٥٥ - ١٦٩ ، وتاريخ الإسلام السياسي ٥١٣-٥١٤ ، وفجر الإسلام ٣٥٩/١-٣٦٣ ، وضحي الإسلام ٢١/٣-٦٧ .

بعينه ، وأن اختيار ذلك مفروض إلى الأمة تختار منها من ينقد أحكامه سواء كان قرشياً أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والايان^(٢) . ورأهم هذا متفق مع الحوارج ، وقد يكون فيه شيء من الخطر على الأمويين ، ولكن قولهم بالعدل ، وفيه نفي القدر واعتبار الانسان مسؤولاً عن أعماله ، فيه تأييد لحصوم الأمويين عامة ، لأنه يفند مزاعم الأموية في أنهم يحكمون الناس بقدر من الله تعالى ، ومع ذلك فالأمويون لم يتعرضوا للمعتزلة ، لأنها لم تنهض لأهداف سياسية كالحوارج والشيعة ، وسياسة الأمويين كانت لاتعرض إلا للخصوم السياسيين ، ولا تتدخل في الأمور الدينية بين الفرق ، خلافاً لسياسة العباسيين فيما بعد .

وكانت المعتزلة تتأثر بأراء أجنبية^(٣) ، جعلتها تخرج إلى مساجد ابن حزم « شئع المعتزلة »^(٤) ، وهي في ذلك لا تختلف عن غيرها من فرق الغلاة عند الشيعة والحوارج والمرجئة^(٥) .

وهذه الفرق على اختلافها من جبرية أو قدرية أو مرجئة أو معتزلة ، كان للجدل بينها ميدان واسع جداً ، وكان أهل السنة يناظرون أصحاب هذه الفرق تارة ، وأصحاب تلك الفرق تارة أخرى^(٦) ، ويمكن القول ان الجدل كان لا يهدأ أيام الأمويين ، وقد اتسع وتشعب أيام العباسيين ، ولم يكن شعراء العصر الأموي يعزل عن تأثير هذه الحياة العقلية على ما فيها من صراع وجدل ، ولا سيما أن أكثر جوانب هذا الصراع الفكري كان ذا صلة وثيقة

(١) مروج الذهب ١٩١/٢ ، وانظر تاريخ الإسلام السياسي ٥١٥/١ .
(٢) انظر في ذلك النظم الإسلامية ١٥٥ ، وتاريخ الإسلام السياسي ٥١١/١ - ٥١٢ .
(٣) الفصل في الملل ١٩٣/٤ .
(٤) الفصل في الملل ١٧٩/٤ ، ١٨٨ ، ٢٠٤ .
(٥) انظر شفاء الغليل لابن القيم ١٣٩ ، وفجر الإسلام ٣٧٠/١ .

الفصل الأول حياة العجاج

١ - نسبه وعشيرته

إن العجاج هو عبد الله بن رؤبة بن بني سعد بن زيد مناة بن تميم^(١) ، ولا خلاف في ذلك ، ولكن الخلاف نجده في نسب العجاج الذي يصل بينه وبين « سعد بن زيد مناة بن تميم » . فالأصمعي أورد نسه في بداية الديوان على هذا النحو : « عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كنيث بن عميرة ابن مَحْشِي بن ربيعة بن سعد بن مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم » ، ومثل هذا أوردته ابن حزم في جبهة أنساب العرب^(٢) ، والعيني في المقاصد^(٣) ، والسيوطي في شرح شواهد المغني^(٤) ، مع اختلاف يسير ، إذ ورد عند ابن حزم : « صخر بن كنيث » بالنون ، وورد عند العيني « صخر بن كنيث ابن عميرة بن حي » ، وعند السيوطي : « صخر بن كنيث بن عمرو بن

(١) سمعت اللالي ٥٦ ، والاشتقاق لابن دريد ٢٥٩ ، والصحاح ٣٢٧/١ ، والشعر والشعراء ٥٧٢ ، وطبقات ابن سلام ٥١٧ ، والمؤلف ١٢١ ، والخزانة ٩١/١ - ٩٢ ، ولم يذكر ابن عساکر من نسبه الا قوله « عبد الله ابن رؤبة بن لبيد بن صخر » ثم ذكر كنيثه وكنبه فقط ، انظر تاريخه ٣٩٤/٧ .
(٢) جبهة أنساب العرب ٢١٥ .
(٣) المقاصد النحوية ٢٦/١ .
(٤) شرح شواهد المغني ١٨ .

بالصراع السياسي والاجتماعي في ذلك الحين ، فكان لكل فرقة شاعرها أو شعراؤها ، وكان لكل رأي من يؤيده من الشعراء املاً عن مبدأ وعقيدة ، واما عن تكسب وطلب للرزق .

فثبت قطنة كان من شعراء المرجة ، وله قصيدة تعتبر وثيقة تاريخية لما أورد فيها من عقائد المرجة وآرائهم^(١) . وذو الرمة كان قدسياً ، ورؤبة بن العجاج كان جبورياً ، وقد اختصم ذو الرمة مع رؤبة في الجسبر والاختيار واحتج كل منهما لمنهجه^(٢) ، وكان العجاج جبورياً أيضاً ، وشعره سجل حافل بآراء الجبورية التي كان يذهب اليها بنو أمية في تأييد ملكهم ، وهو في ذلك لا يختلف عن غيره من شعراء الأموية أمثال الأخطلس وجبرير والفوزدق ومن الهم .

ومن هذا التمهيد تبين لنا أن رجز العجاج قد تأثر الى أبعد الحدود بالجوانب السياسية والاجتماعية والعقلية التي برزت في عصره وبيئته ، وقد أثرت هذه الجوانب أيضاً في طباعه وحياته بوجه عام .

(١) القصيدة في الاغانى ٥٢/١٣ ، وانظر ايضاً منها في التطوير والتجديد ٥١ ، وفجر الاسلام ٣٤٥/١ ، وتاريخ الاسلام السياسي ٥٠٧/١ .
(٢) امالي المرتضى ١٥/١ .

حي ، وقيل عميرة بن حي ، وهذه الاختلافات بسيرة ربما كانت بسبب التحريف أو التصحيف من قبل الرواة أو النسخ ، ولكن الخلاف الواسع لما يطالعنا فيما أورده صاحب الأغاني ، إذ قال : « واسم العجاج عبد الله بن ربيعة بن حنيفة وهو أبو جذيم بن مالك بن قدامة بن أسامة بن الحارث بن عوف بن مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم »^(١) .

وهذا النسب غريب تفرد به الأصفهاني ، ولم نقف على أثر له في غير الأغاني . والمهم أن العجاج هو عبد الله بن ربيعة من بني سعد من تميم ، وأما لقبه « العجاج » فلا خلاف في أنه قد لُقب به لبيت قاله من الشعر^(٢) ، وهو :

حَتَّى يَجِيءَ نَحْنًا مَنُ عَجَجَا^(٣)

وقد أورد السيوطي أسماء عدد من الشعراء الذين لُقّبوا بأبيات قالوها من الشعر^(٤) ، ولاحظ الأوردت أن مثل هذه الألقاب لم يكن شيئاً غريباً ، وما كانت تسيء إلى الشرف أو السمعة^(٥) ، وما يؤيد ذلك أن العجاج نفسه قد أورد هذا اللقب في قوله^(٦) :

فَقَدْ أَكُونُ لِلْعَوَانِي مَصِيدَا
فَقُلْنَ قَدْ أَقْصَرَ أَوْ قَدْ عَوَّدَا
مَلَاوَةٌ كَانَ قَوْفِي جَلْدَا
عَنْ وَصَلْنَا الْعَجَّاجُ أَوْ تَجَلَّدَا

(١) الأغاني ٥٧/٢١ .

(٢) الشعر الشعراء ٥٧٢ ، والمزهر ٤٤١/٢ ، وجمهرة اللغة ٥٣/١ ، ١٣٤ ، وشرح شواهد المغني ١٨ ، والمقاصد ٢٦/١ ، واللسان (عجج) ، وتاريخ ابن مسافر ٣٩٤/٧ .

(٣) الأرجوزة ١٤٦/٣٣ .

(٤) المزهر ٤٣٤/٢ - ٤٤٤ .

(٥) مقدمة الواوردات ١٤ (بالألمانية) .

(٦) الأرجوزة ٩/٢٧ - ١٢ .

ويبدو أن العجاج كان طويل القامة ، ولذلك كان يُعرَف أيضاً بعيد الله الطويل ، يدل على ذلك خبر طريف أورده صاحب الأغاني ، وفيه يُعرَف العجاج نفسه بقوله : « أنا عبد الله الطويل » ، قال الأصفهاني : « وكان يكنى بذلك »^(١) ، وكانت للعجاج كنية أخرى ، إذ كان يعرف أيضاً « بأبي الشعاء » والشعناء ابنته^(٢) ، وقد أورد العجاج هذه الكنية الأخيرة في قوله^(٣) :

فَالْيَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ أَنْعَمَا
بِدَلَّتْهَا الْإِلَّاحُ رَاحِشَانِ كَمَا
عَلَى أَبِي الشَّعْنَاءِ نَعْمَى ثُمَّ مَا
أَتَمَّ نَعْمَاهُ عَلَى مَنَ أَسْلَمَا

ولئن وجدنا من الأخبار ما يفيد شيئاً عن لقب العجاج أو كنيته ، فإن الأخبار عن أسرته جدّ نادرة في مصادرنا المختلفة ، وليس في رجزه إلاّ اشارات إلى بعض أولاده ، ومن العسير أن نجد صورة واضحة لأفراد أسرته ، فمن لا تعلم شيئاً عن والد العجاج وهل كان راجزاً أيضاً ؟ فلدننا من الأخبار ما يدل على أنه كان يحسن الرجز ، ولدننا من الأخبار أيضاً ما يدل على أنه لم يكن يحسن نظم الشعر ، فالسيرافي يقول : « حدثنا أبو بكر بن السراج قال حدثنا أبو العباس محمد بن يزيد قال حدثنا الريثاني أحسبه عن الأصمعي قال : قال ربيعة : خرجت مع أبي أريد سليمان بن عبد الملك فلما صرنا ببعض الطريق قال لي أبي : أبوك راجز وجدك كان راجزاً وأنت

(١) الأغاني ١٢٤/١٨ - ١٢٥ و ٦٠/٢١ ، وانظر الخزائن ١٦٠/١ ، وتاريخ ابن عسافر ٣٩٤/٧ .

(٢) الشعر والشعراء ٥٧٢ ، والبيان ٣٥٦/١ ، وشرح شواهد المغني ١٨ ، والمقاصد ٢٦/١ ، وكنى الشعراء لمحمد بن جبيب : نوادر المخطوطات المجموعة (٧) ص ٢٩١ .

(٣) الأرجوزة ١٧/٢١ - ٢٠ .

مفهم ..^(١) ، وقال ابن رشيق في باب التجنيس : « ولم تكن القدماء تعرف هذا اللقب ، أعني التجنيس ، بذلك على ذلك ماحكي عن رؤبة بن العجاج وأبيه ، وذلك أنه قال له يوماً : أنا أشعر منك . قال : وكيف تكون أشعر مني وأنا علمتك عطفَ الرجز ؟ قال : وما عطف الرجز ؟ قال :

عاجمٌ باعاصمٌ لو اعتصم^(٢)

فقال : يا أبت أنا شاعر ابن شاعر ، وأنت شاعر ابن معجم^(٣) . وفي كلام السيرافي ما يشير إلى أن والد العجاج كان راجزاً ، وفي كلام ابن رشيق ما ينقض ذلك ، ولهذا لاندري أن كان والد العجاج شاعراً حقاً أم لا ، ولا نعلم علم اليقين إذا كان العجاج قد ورث نظم الرجز عن أبيه رؤبة ابن لبيد ، إلا أن هذا لا يمنع أن يكون العجاج قد تأثر بأحد من أسرفه أو قبلته بوجه عام ، ذلك لأن بني سعد عامة قد اشتهروا بالرجز ، وأورد الجاحظ بعض الأخبار التي تؤيد ذلك^(٤) ، ونقل الجرجاني أن أبا نَحْلَةَ^(٥) ، قال : « وفدت على مسلمة بن عبد الملك وقد مدحته فأكرومني وأثروني ثم قال

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ٩١ ، ومثله في شرح شواهد المغني ٣٢٣ .
(٢) الأرسوزة ٣٩/٢٢ ، ورواية الديوان : « وعاصم ما عاصم لو اعتصم » .

(٣) العمدة ٢٢٧/١ .
(٤) البيان والتبيين ٣٤/٤ - ٣٥ .
(٥) ورد في الوساطة « بجيلة » ، وكذلك في الإساسة عن سرققات المنشي ٥٧ ، وأما أبو نخلة من بني سعد ، وهو الذي مدح مسلمة بن عبد الملك ، انظر الشعر والشعراء ٥٨٣ ، والموازنة ٨٣ ، والبيان والتبيين ٢٢٥/٣ ، وتحرف اسمه في العمدة ١٨٧/٢ فجاء « أبو جيلة » وهو تحريف قارنه بالمقد الفريد ٢٠٦/٦ .

لي : مالك والقصيد وأنت من بني سعد ، عليك بالرجز ... »^(٦) . ولعل هذه الشهرة بالرجز قد ثبتها رجز العجاج ورؤية فيما بعد .
فالعجاج من بني سعد ، وهذه القبيلة قد اشتهرت بهذا اللون من الشعر ، ولا يبعد أن يكون في أسرة العجاج من كان يتخذ من الرجز وسيلة للتعبير الفني ، دون أن يكون في هذا الرجز من الإطالة والحفاص ما يجده في مدرسة العجاج نفسه .

ولئن كنا لا نعرف شيئاً عن والد العجاج ، فكذلك الأمر عن والدته ، وقد علمنا أن جده من قبيل أمه يدعى كَسْبِيّاً ، وذلك من رجز أنشده جرير في هجاء العجاج ، فقال :^(٧)

يأبى كَسْبِيٍّ ما عَلَيْنَا مَبْدَحُ قَدِّ غَلَبَتِكَ كَأَيْبِ تَضْمَحُ
ثُمَّ أَتَتْ بَابَ الْأَمِيرِ تَصْرُحُ^(٨)

ولكننا لانعلم شيئاً عن كَسْبٍ هذا إلا ما ورد من تسميته في رجز جرير . وإذا أردنا التعرف أخوة العجاج ، لم نظفر إلا بأخ له يدعى العباس ، قال الجاحظ : « ومن ولد مالك بن سعد : عبد الله والعباس ابنا رؤبة ، وكان العباس ، علامة عالماً ، ناسباً راوية ، وكان عبد الله أرحم الناس وأفضحهم ، وكان يكنى أبا الشعثاء ، وهو العجاج »^(٩) .

ولا ندري أن كان للعجاج أخوة آخرون غير العباس ، أما الأخوات فلا ندري عنهن شيئاً ، وليس في أديتنا من الدلائل ما يشير إلى وجود أخوات له أم لا .

- (١) الوساطة ١٥٢ .
(٢) جهمرة اللغة ٢٨٧/١ - ٢٨٨ .
(٣) بشير جرير إلى خير العجاج مع زوجته الدهناء .
(٤) البيان والتبيين ٣٥٦/١ .

فاذا دخلنا بيت العجاج نفسه أمكن لنا أن نتعرف اثنتين من أزواجه، الأولى هي عقرب ، والثانية هي الدهناء ، وقد خلط الوردت بينها ، وجاء بكلام مضطرب لا يستند على أدلة ، إذ جعل الدهناء زوجة العجاج الأولى وأم أولاده رؤبة وحزمنة ، ثم ذهب إلى أن العجاج قد طلقها ونخل عن الزواج ، ثم أحب عقرب فتزوجها فبجاءته مع أطفالها الأربعة ، ومن ثم أورد الوردت الخبر المشهور عن طلاق الدهناء فجعله خاصاً بعقرب ، وهذا يخالف لكل ماورد في مصادرنا العربية على اختلافها^(١) .

والذي نلاحظه أن الدهناء كانت آخر زوجة للعجاج ، وأن عقرب أسبق منها ولكنها ليست أم ولديه رؤبة وحزمنة ، وإنما كان العجاج متزوجاً قبلها بامرأة أخرى هي أم أولاده ، يدل على ذلك ماكان من علاقة غير ودية بين العجاج وزوجه عقرب من جانب وبين رؤبة وأخته حزمنة من جانب آخر ، فقد نقل السيوطي شيئاً من هذا فقال : « وروى صاحب كتاب مناقب الشبان وتقدمهم على ذوي الأسمان من طريق محمد بن سلام عن أبي يحيى الضبي قال : كان رؤبة يرعى ابل أبيه وهو لا يقرض الشعر فتزوج أبوه امرأة يقال لها عقرب ، فعادت رؤبة ، وكانت تقسم ابله على أولادها الصغار ، فقال رؤبة : ما هم أحقّ مني ، اني لأقاتل عنها السنين وأنتجع الغيث ، فقالت عقرب للعجاج : اسمع ، هذا وأنت حي ، فكيف بنا من بعدك ؟ ! فخرج فزبه وصاح به وقال اتبع ابلك ! »^(٢) .

وهذه الحادثة كانت عند بعضهم هي السبب لما كان من عتاب ومراجلة بين العجاج وابنه رؤبة ، وهي تشير إلى صلة غير ودية نهضت بين الأب وابنه

(١) انظر تمهيد الوردت ١٧ - ١٩ (باللمانية) .
(٢) شرح شواهد المتن ٣٢٣ - ٣٢٤ ، ونقله البغدادي في الخزائن ٤٠/٢ .

في فترة متأخرة من حياة العجاج^(٣) .

ولم تكن صلة العجاج بابنته حزمنة أفضل من ذلك ، بل كانت غير ودية أيضاً ، إذ أورد ابن منظور أن العجاج كان قد اقترض منها سبعين دهنماً للمصدق ، ثم تقاضته فقضاها بكراً ، وقال في ذلك^(٤) :

قَدْ أَقْرَضْتُ حَزْمَةَ قَرْنًا عَشْرًا مَا أَنْشَأْنَا مَدًّا أَعَارَتْ سَبْعِينَ
حَتَّى أَعْدَدْتُ بِأَذِلَّةٍ دَعْنًا أَفْضَلَ مِنْ سَبْعِينَ كَأَنَّ حُضْرًا
ولهذا نرجح أن تكون حزمنة وأخوها رؤبة من زوجة للعجاج لانعرف عنها شيئاً ، وأما عقرب فهي الزوجة الثانية على الأقل ، ولم تكن الدهناء إلا آخر زوجة له ، لأن المصادر العربية كلها تجمع على أن العجاج قد تزوجها وهو شيخ طاعن في السن ، ثم طلقها في خير مشهور ، ولم تبق عنده طويلاً^(٥) .

وفي مجالس نعلب اشادة الى « ابن خال رؤبة » تدل على أنه كان شاعراً أيضاً ، فقد أنشد نعلب هذين البيتين :

اذا قُتِلَتْ بَيْنَ التَّرَافِي وَحُشِرَتْ وَخَاقَ بِهَا بَعْدَ السَّكَابَةِ الصَّدْرُ
وَقِيلَ اعْتَرَفَ مَا كُنْتُ قَدَّمْتُ آتِيفًا فَذَاكَ الْغَيْثُ عِنْدَ الْحَسَابِ أَوْ الْفَقْرِ

(١) انظر الأرجوزة (٨) من ديوان العجاج .

(٢) اللسان ، مادة (دعر) .

(٣) تفصيل خبرها مع العجاج في المحاسن والأضداد ٣٧٤ ، وكنز الحفاظ ٣٤٧ ، وشرح المقامات الحبرية ٢٩١/٢ ، وثمة إشارة إليه في تهذيب اصلاح النطق ٥٧/١ ، والف با ١٨٥/٢ ، وجمهرة اللغة ٤٧٩/١ ، والصحاح ٢١٦/٥ ، وقد قالت الدهناء أيتها رائية في ذلك ، ارجع اليها في الصحاح ٦٠١/٢ ، وجمهرة اللغة ٣٣٨/١ و ٢٣١/٢ ، وكنز الحفاظ ٣٤٨ ، وأيضاً ميمية ، ارجع اليها في محاضرات الادباء ١١٩/٢ ، والبيان والتبيين ٢٠٧/٣ ، والحيوان ٥٦/٣ ، بالإضافة الى المصادر التي فصلت هذا الخبر .

وذكر قبلها أنه يقال : « هي لابن خال رؤبة »^(١) ، وكنا نودّ لو حدد لنا شيئاً عن اسمه أو نسبه ، لأن في ذلك عوناً لتعرف بعض ما تمحض من أسرة العجاج ، ولو تحقق ذلك لكان من المسالك المؤدية بنا إلى تجاوز شيء من ذلك العموض .

وأما أبناء العجاج وبناته فقد عرفنا منهم رؤبة وهو الذي حمل لواء أبيه في الرجز ، وعرفنا حزمة ، وليس من دليل يشير إلى أنها هي التي لقبّت بالشعثة ، أو أن الشعثة ابنة أخرى للعجاج كان قد كني بها ، وإذا لم يكن في أيدينا من الأخبار ما يشير إلى وجود أبناء آخرين للعجاج ، فهو نفسه قد حدثنا عن وجود أبناء وأحفاد له في قوله^(٢) :

أصبح قومي يحفرون حفرتي يدعون باسمي وتاسوا كني
بنو بنيّ وبنات لا بنّي

ولكننا لانعرف له من الأبناء غير رؤبة ، ولا نعرف من الأحفاد إلا ولدين لرؤبة : الأول عبد الله بن رؤبة ، والثاني عقبة بن رؤبة ، وأما عبد الله فكان يروي بعض الأخبار والأشعار عن والده رؤبة وجدّه العجاج ، ومن ذلك ما نقله الجاحظ فقال : « وقال عبد الله بن رؤبة : سألت رجلاً رؤبة عن أخطب بني تميم ، فقال : خدش بن ليد بن ببة . يعني البعيت »^(٣) ، ومن ذلك أيضاً ما نقله البغدادي فقال : « قال أبو القاسم الزجاجي في أماليه الوسطى والصغرى أخبرنا أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي قال أخبرنا أبو

(١) مجالس تملب ١٢٩ .

(٢) الأرجوزة ٤٦/٢٢ - ٤٨ .

(٣) البيان والتبيين ٣٧٣/١ - ٣٧٤ و ١٠/٣ - ١١ ، والبعيت هو البعيت المجاشعي الذي كان يهاجي جريراً . ونسبه في المؤلف : خدش ابن بشر بن خالد بن ببة .

الفضل الرياشي عن الأصمعي عن عبد الله بن رؤبة بن العجاج عن أبيه عن جده قال : أنشئت أبا هريرة .. »^(١) .

وأما عقبة بن رؤبة فكان راجزاً إلا أن الرواة لم تحمل من رجزه شيئاً ، ولم يُذكر إلا في خبر واحد فقط هو التقاؤه مع بشار بن برد عند عقبة ابن سلم ، وهو خبر مشهور جداً في كتب اللغة والأدب^(٢) ، ولم يُعرف لعقبة بن رؤبة غير هذا الخبر ، ولم ينقل له بيت واحد من الشعر ، وإنما ذهب شعره كله ، فضاع بذلك آخر ما يمكن أن نجده من خصائص في مدرسة العجاج .

وبهذا نجد في أسرة العجاج أكثر من راجز واحد ، وإذا كنا لا نعلم علم اليقين أن كان العجاج قد أخذ الشعر أو الرجز عن أبيه ، فإن هذا الرجز انتقل منه إلى بعض أبنائه وأحفاده ، فكان لأسرته فضل واسع في بناء هذه المدرسة التي جاءت مع الأغلب العجلي ، وتركزت عند العجاج .

٢ - نشأته وعمره ورحلاته :

ليس من اليسير أن نقف على نشأة العجاج ومراحل حياته ، ذلك لأن ما بين أيدينا من أخباره جد قليل ، فكتب اللغة والأدب والتراجم وغيرها قد شغلت بأخباره المتصلة بالرجز والغريب واللغة ، وأغفلت ما يتصل منها بنشأته وأدوار حياته ، والذي يبدو أن أخبار العجاج كانت من الوفرة بمكان ، يدل على ذلك ما نقله ابن النديم (٣٨٥ هـ) في الفهرست ، من وجود كتاب

(١) خزائن بولاق ٥٠٩/٣ ، وانظر مجالس تملب ٤٨١ إذ أورد له

سنداً يتصل بشيبي بن شيبة .

(٢) انظر الأصفهاني ١٧٤/٣ (دار الكتب) ، والموشح ٣٦٦ ، والشعر والشعراء ٧٣٤ ، وזהר الآداب ١٢١/٢ وطبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ٣ - ٤ ، والمختار من شعر بشار ٢٢١ ، والبيان والتبيين ٤٩/١ .

في « أخبار العجاج » ، صنفه أبو أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلودي ، وهو من أهل البصرة أخباري صاحب سير وزيادات وتوفي بعد الثلاثين والثلاثمائة^(١) ، وقد أشار ابن النديم إلى أن هذا الكتاب قد ضم أيضاً أخبار رؤبة ابن العجاج .

وكتاب الجلودي لم يشر إليه حاجي خليفة (١٠٦٧ هـ) صاحب كشف الظنون ، ولا يبدو أن يكون قد فقد وضاع قبل القرن الحادي عشر الهجري ، وبضايحه نُقِدَ من أيدنا أهم وثيقة كان في وسعها أن تطلعنا على جوانب من حياة العجاج ، وليس في مصادرها المختلفة ما يعرض كلياً عن كتاب الجلودي ، ومع ذلك فلا بد لنا أن نلتبس شيئاً عن نشأة العجاج ، ومنى عاش ، وأين أقام ، وكيف كانت حياته ، وذلك من خلال ما لدينا من أخبار بسيرة ، وما نجده في أراجيز العجاج نفسه .

إن الأوراد قد حاول أن يحدد الزمن الذي عاش فيه العجاج ، وخرج من مناقشة هذا الأمر إلى أن حياة العجاج كانت في الفترة الواقعة بين (٦٤٦/٢٥) و (٧١٥/٩٧) وذلك لأن الأوراد قد زعم أنه ليس من مصدر يحدد بدقة الزمن الذي عاش فيه العجاج ، أو يحدد العمر الذي بلغه ، أو السنوات التي كانت فيها حياته^(٢) .

الآن أن رأى الأوراد ومناقشته لحياة العجاج لا تتفق مع المصادر العربية ، فإن عساكر في تاريخه نقل عن المزياني قوله : أن العجاج « وُلِدَ في الجاهلية ، وقال فيها أبياتاً من رجزه ، ومات أيام الوليد بن عبد الملك بعد أن كبر وأُتْعِدَ »^(٣) ، وهذا القول أورده عن المزياني أيضاً السيوطي في

(١) الفهرست ١١٥ .
(٢) انظر تمهيد الأوراد ١٤ - ١٦ (باللاتينية) .
(٣) تاريخ ابن عساكر ٣٩٤/٧ .

شرح شواهد المغني^(١) ، وإذا كنا لانجده في كتاب الموشع أو معجم الشعراء للمزياني ، فهذا لا يشكك في قول المزياني الذي أورده السيوطي وابن عساكر لأنه سقط من أصول أحد كتبه الموجودة حالياً ، أو أنه ورد في كتاب آخر للمزياني لم يحفظ لنا ، أو أنه جاء في رواية نُقِلَت مجرد نقل عن المزياني فحسب .

وقول المزياني هذا يجعل العجاج من المعمرين ، وإذا عدنا إلى كتاب المعمرين من العرب لأبي حاتم السجستاني نسأله عن العجاج ، وجدناه لا يذكر عنه شيئاً ، مع أنه ذكر الأغلب العجلي وقال انه عاش محرراً طويلاً^(٢) ، والذي يبدو أن أبا حاتم السجستاني قد أغفل العجاج لأن من عادتهم ألا يسلكوا بين المعمرين إلا من بلغ العشرين بعد المائة أو جاوزها ، وبذلك فالعجاج لم يبلغ من العمر ما يسمح له أن يسلك في هذه الطبقة من المعمرين ، ولكنه ربما قارب المائة على كل حال ، فقد ولد في الجاهلية ، وقال أبياتاً فيها ، وقوله أبياتاً من الشعر يعني أنه ربما كان في حوالي العاشرة من عمره على الأقل . وإذا كان قد توفي أيام الوليد بن عبد الملك ، فالوليد كانت فترة خلافته بين (٨٦ - ٩٦ هـ) ، وقد مدحه العجاج ورجل إليه ، ونفرض أنه توفي في السنوات الأولى من خلافة الوليد ، فهذا يعني أنه توفي ما بين (٨٦ - ٩٠) سنة ، وبذلك نجد أنه قد عمّر طويلاً ، وهو ينظم أراجيزه المطولة .

وفي رجز العجاج دليل واضح على أنه كان من المعمرين ، ولم يكن في اطار السبعين أو الثمانين حين واقته المنية ، ذلك لأننا لا نكاد نجد له رجزاً

(١) شرح شواهد المغني ١٨ . وذكر الجاحظ أن العجاج ولد في الجاهلية ، انظر كتاب العثمانية ١٢٥ .
(٢) كتاب المعمرين ٧٩ .

قاله أيام شبابه ، فديوانه فيه من الأراجيز ما يمكن أن يحدّد له تاريخ لارتباطه بأحداث معينة ، وفيه من الأراجيز ما يختص بالحديث عن مفاهيم قيم ، أو مفاهيم العجّاج نفسه ، أو الحديث عن أوصاف الصبراء وما فيها من مشاهد وآلوان ، وهذا الرجز لا نجد وسيلة إلى تحديد زمنه ، ولكنه إن كانت من نظم الشباب ، كان لابد أن يظهر فيه بعض معالم الشباب نفسه ، في حين لا يبدو من خلاله إلا وجه العجّاج المسن ، وهو يتسرع على أيام شبابه ، ويندب ما يلاقيه من هرم وضعف وتقدم في السن مفطر ، وفي هذا ما يشير إلى أن الأراجيز لم تنظم في مرحلة الشباب أو الكهولة ، وإنما نظمت في فترة متأخرة من حياته .

وأقدم ما نجده له من شعر سياسي يرجع إلى ولاية مروان بن الحكم على المدينة والجملة لمعاوية بن أبي سفيان ، وخلافة معاوية بدأت سنة (٤١هـ) وانتهت سنة (٥٦٠هـ) ، أي أن هذا الشعر الذي نظمته في هذه الفترة كان شعراً فاضحاً من حيث اللغة والأساليب ، وإذا كان العجّاج في البداية قد ترمى أسلوب الأغلب العجّلي في تقصيد الرجز ، أو أنه طور هذا الفن تطوراً خاصاً به ، فإن ذلك على الرّجح لا يتم له إلا بعد فترة من النظم والتطوير ، إذ لا شك أنه قد أنفق زمناً قبل أن يبلغ بالأرجوزة هذا المستوى الفني الذي جعل منها صنواً لتقصيدة الشعراء . وبذلك لا نجد حرجاً إذا ما قلنا إن رجز العجّاج قد فُقدت فيه طائفة مهمة كان نظمها أيام شبابه ، ومن ثم لا نجد بداً من القول إن العجّاج كان من المعمرين ، وأنه ربما قارب المائة من السنين .

وقد رأينا أن العجّاج من قبائل تميم ، وكانت منازل تميم بأرض نجد وأمتدت إلى اليمامة والبصرة وجانب من أرض الكوفة^(١) ، وأما موطن العجّاج

(١) نهاية الأرب في معرفة انساب العرب ١٦٦ .

بالذات ، فالذي يبدو أنه كان في حِجر حاضرة اليمامة ، إذ نجد الأصفهاني يقول : « أخبرني محمد بن الحسن بن دريد قال حدثنا أبو حاتم عن أبي عبيدة عن رؤية قال : لا ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة ، بعث في الججاج مع أبي للقاه ، فاستقبلنا الشمال حتى صرنا بباب الفراديس ، قال : وكان خروجنا في عام غصب ، وكنت أصلي الغداة وأجثني من الكفاة ما شئت ، ثم لا أجاوز إلا قليلاً حتى أرى خيراً منها فأرمني وأخذ الآخر ، حتى نزلنا بعض المياه ، فأهدي لنا حملاً منقحاً^(١) ووطب^(٢) ، ولين غليظ وزبدة كأنها رأس نعجة حوشية ، فقطعنا الحمّل آراباً وكدرنا^(٣) عليه اللبن والزبدة حتى إذا بلغ إناه انتشلنا اللحم بغير خبز ، ثم شربنا من مرقه شربة لم نزل ذفرواي ترشجان حتى رجعنا إلى حجر .. »^(٤) .

فالعجّاج ورؤية قد وفدا على الوليد بن عبد الملك حين ولي الخلافة سنة (٨٦هـ) ، ثم رجعا إلى « حِجر » ، فهي أذن المكان الذي كانا فيه يقيان ، ومنه قلما واليه قد رجعا ، وحجر هي قاعدة اليمامة وأم قراها ، وبها ينزل الوالي ، وهي بمنزلة البصرة والكوفة ، لكل قوم منها خطة ، إلا أن العبد فيها لبني حنيفة^(٥) .

وما يؤكد إقامة العجّاج باليمامة ما أورده التبريزي في اختصار العجّاج مع زوجه الدهناء بنت مسحل ، إذ نقل عن أبي عبيدة أن الدهناء قد خاصته إلى « ولي اليمامة ، فكان أبوها يعينها على ذلك ، فقال له أهل اليمامة :

(١) المخرفج : السمين . والخرفجة : سعة العيش ، وحسن الغذاء .

(٢) الوطب : سقاء اللبن .

(٣) كدر الماء : صفيه .

(٤) الأغاني ٥٩/٢١ ، وورد أيضاً في الأغاني ١٢٣/١٨ ، وتاريخ

ابن عسّكر ٣٩٥/٧ .

(٥) مجمع البلدان ٢٢١/٢ (بيروت) ، وانظر ٤٤٢/٥ .

أما تستحي أن تطلب العيب لابنتك»^(١).

ولعل ما كان يوتق صلة العجاج بالهامة أن عبد الملك بن مروان كانت قد أقطعه قرية القصيبة ، قال ياقوت : « وقصيبة العجاج أظنها من نواحي الهامة أقطعه إليها عبد الملك »^(٢) ، وقال البكري : « والقصبة قرية بها منازل بني امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم »^(٣) ، وقال الحمدا في حديثه عن ديار بني تميم : « والقصبة ومروءة قرىتان لبني امرئ القيس من تميم »^(٤).

الا أن العجاج ربما أقام فترة من حياته في البصرة ، أو قل ربما كان يتردد على البصرة فيقيم فيها فترة بعد أخرى ، ثم يعود إلى قريته القصيبة ، أو إلى حجير قاعدة الهامة ، ولذلك كان يوصف بأنه من أعراب البصرة^(٥) ، ونقل الأصفهاني بسنده عن المدائني قال : « قدم البصرة راجز من أهل المدينة فجلس إلى حلقة فيها الشعراء فقال : أنا أرجز العرب ، وأنا الذي أقول :

مروان يعطي وسعيد ينزع مروان نسع وسعيد يخرج
وددت أني راميت من أحب في الرجز يدأ يد ، والله لأنا أرجز من العجاج ، فليت البصرة جمعت بيني وبينه ، قال : والعجاج وابنه رؤبة معه حاضران . فأقبل رؤبة على أبيه فقال : قد أنصفك الرجل . فأقبل عليه العجاج ، فقال : ها أبدا العجاج فليم ، وزحف إليه ، فقال : وأي العجاجين أنت ؟ قال : ما خللتك تعني غيري ، أنا عبد الله الطويل ، وكان يكنى بذلك ، فقال له

- (١) كثر الحفاظ ٣٤٧ ، وهذا النص أورده الصريفي في شرح المقامات ٢٩١/٢ .
(٢) معجم البلدان ١٢٦/٤ .
(٣) معجم ما استمعتم ١٠٧٨/٣ .
(٤) صفة جزيرة العرب ١٨١ .
(٥) المقاصد النحوية ٢٧/١ ، وقرائد القلائد ه .
— ٦٨ —

المدني : ما عيتك ولا أردتك ! فقال : وكيف وقد هتفت بي ؟ قال : أو ما في الدنيا عجاج سواك . قال : ما علمت ! قال : أعلم وإياه علمت . قال : فهذا ابني رؤبة ! فقال : اللهم غفرا ما بيني وبينكم عمل ، وإنما موادي غيركما . فضحك أهل الحلقة وكفاه عنه ،^(٦).

فالعجاج إذن كان يقيم في البصرة بعض الأحيان ، حتى إن ابن قتيبة نقل عن العجاج أنه قال : « قال لي أبو هريرة : من أنت ؟ فقلت : من أهل العراق »^(٧) . الا أن العجاج ما كان يقيم بالبصرة أو بالهامة دوت رحلة أو أسفار ، إذ أن حب الأسفار قد تأصل في نفسه ، يدل على ذلك ما نجده في أراجيزه من حب للرحيل وصباية تنعكس في أحاديثه عن جليله « مسحول » وما يلاقه من حزن وألم في انتظاره للرحيل والسفر^(٨) :

أُبَيْخَ مَسْحُولٌ مَعَ الصَّبَاكِ مَلَالَةَ الْمَسْجُورِ لِلْإِسَارِ
يُفْنِي تَجَمُّعَ اللَّيْلِ بِالتَّزْفَارِ وَعَبْرَاتِ الشَّقَوِيِّ بِالْأُدْوَارِ
نَظَارِ أَنْ أُرَكَّبَهُ نَظَارِ وَلَوْ يَغْرَهُ كَلْتُ ذَا قَتَارِ
صَابِيَةً فِي أَنْتَرِ السُّفَارِ

فالعجاج قد تعاطف مع بعيده ، وجعل الشوق إلى الأسفار ، لا يبيح في قلبه وحده ، وإنما يبيح أيضاً في قلب بعيده ، حتى غدا يفتي ليله بالزفارات والعبرات . وفي أراجوزه أخرى يحدثنا عن بعيده بوضوح ، فنراه قد ملّ دمشق مع صاحبه ، وغدا يطالعه البشير حين تحول من غمق دمشق وما فيه من خمة وذباب ، إلى طريق نجد وما يلوح فيه من برق سهل^(٩) :

- (١) الاغاني ٦٠/٢١ ، و ١٢٤/١٨ - ١٢٥ .
(٢) الشعر والشعراء ٥٧٢ .
(٣) الأراجوزة ١/٤ - ٧ .
(٤) الأراجوزة ١/٣ - ٦ .

أَصْبَحَ مَسْجُودٌ يُؤَازِي شَيْئًا مَلَالَةً يَمْلِكُهَا وَأَزَقَا
وَبَادِلَاتٍ مِنْ ذِيَابِ زُرْقَا يَنْتَقِي رَحْلِي وَالشَّيْلُ نَسْتَقَا
بِتَفَضُّ عَنْهُ عَنَتُوا وَبَقَا أَقُولُ إِذْ أُنْجِدُ مِنْ دَمَشَقَا
حِينَ رَمَى بِجَاجِيَّتِهِ الشَّرْقَا وَاشْتَفَّ مِنْ نَحْوِ سَهْلٍ بَرَقَا
بِأَيْشُرَتَا أَنْ كَانَ هَذَا حَقًّا

واذن كان العجاج يرغل الى العراق والشام ، ولكننا لانقوى على تحديد رحلاته بدقة ، اذ لانجد من أخبار هذه الرحلات الا ذلك الخبر الذي أوردنا منه قسماً منذ قليل ، وهو يشير الى رحلة العجاج مع ولده رؤبة الى الوليد ابن عبد الملك حين ولي الخلافة ، وبعض المصادر تزعم أن هذه الرحلة كانت الى سليمان بن عبد الملك^(١) ، وهذا باطل لأن العجاج لم يبق الى خلافة سليمان (٩٦هـ) ، وانما توفي أيام الوليد بن عبد الملك .

وفي خبر آخر يشير الى رحلة للعجاج ورؤبة الى سليمان بن عبد الملك أيضاً ورد في تاريخ ابن عساكر ، وفيه أن رؤبة قال : « خرجت مع أبي أريد سليمان بن عبد الملك ، فلما صرنا ببعض الطريق ، قال لي : أبوك راجز ، وجيك راجز ، وأنت مقحم . قلت : أفأقول ؟ قال : نعم . قلت :

كَمْ قَدْ حَسَرْنَا مِنْ عِلَاقِ عَنَسٍ

ثم أنشدته إياها فقال : اسكت فض الله فاك . فلما انتبنا الى سليمان ، قال له : ماقلت ؟ فأنشده أرجوزتي..^(٢)

ويمكن أن يصدق هذا الخبر أن كان رؤبة وأبوه قد قعدا سليمان قبل

(١) صيون الاخبار لابن قتيبة ١١٦/٢ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ٣٩٥/٧ . وشرح شواهد الغني ٣٢٣ .

خلافته ، الا أن أبيات الأرجوزة تشير الى أن المدح هو الخليفة بالذات ، اذ يقول فيها^(١) :

حَتَّى احْتَضَرْنَا بَعْدَ سَيَرٍ حَدَسٍ إِمَامَ رَعْسٍ فِي نَصَابٍ رَعْسٍ
مَلَكْنَهُ اللَّهُ بِبَغْتَرٍ نَحْسٍ خَلِيفَةً سَاسَ بِبَغْتَرٍ فَجَسَ

فالأرجوزة قيلت في مدح الامام أو الخليفة ، وهذا الامام هو الوليد ابن عبد الملك خلافاً لما أوردته ابن عساكر والسيوطي ، يدل على ذلك ما نقله الرزباني في ترجمة العجاج اذ قال : « حدثني علي بن يحيى قال حدثنا محمد ابن العباس عن التوزي عن أبي عبيدة عن الهفتي ، وأخبرني عبد الله بن يحيى العسكري قال حدثني أحمد بن بشر المرتدي عن أبي سعيد النحوي عن التوزي عن الأصمعي أن العجاج دخل على الوليد بن عبد الملك فأنشد :

كَمْ قَدْ حَسَرْنَا عَنْ عِلَاقِ عَنَسٍ

فصار الى قوله :

بَيْنَ ابْنِ مِرْوَانَ قَرِيعِ الْإِنْسِ وَابْنَةِ عَبَّاسٍ قَرِيعِ عَبَسٍ

فقال له الوليد ما صنعت شيئاً ، أنشدني غير هذا ..^(٢) .

وهذا يؤيد أن تكون الأرجوزة في مدح الوليد بن عبد الملك ، لا أخيه سليمان ، ولا سيما أن العجاج لم يبق الى خلافة سليمان وانما توفي أيام خلافة الوليد .

ومن هنا لانجد من أخبار رحلات العجاج الا رحلة أو أكثر الى الوليد بن عبد الملك ، غير أن لنا أن نتوقع له رحلات أخرى لانعرف لها

(١) الأرجوزة ٢٥/٤٣ — ٢٨ .

(٢) اللوشح ٢١٥ . والوليد وسليمان ولدا عبد الملك بن مروان من زوجه ولادة العيسية .

أخباراً ، إذ لا يمكن للعجاج أن يرسل رجزه مكتوباً الى المدح وهو الذي يقنع الخلقاء على الشعراء ، ويأذنون له بالدخول عليهم قبل جريه ومن اليه^(١) ، وقد رأيتاه يمدح مروان بن الحكم أيام كان والياً لمعاوية على المدينة واليامة ، ثم يمدح مصعب بن الزبير أيام كان والياً على العراق لأخيه عبدالله ، ثم يمدح الحجاج بن يوسف الثقفي أيام كان والياً على العراق لعبد الملك بن مروان ، ثم يمدح عبد الملك وبنال منه قربة القصبة ، ثم يمدح عدداً آخر من أمراء الأمويين ، ولا نفلن العجاج قد وجه هذه المداخل كلها الى مدحيه وهو مقم باليامة أو بالبصرة ، وانما لنا أن نتوقع أنه كان يرسل الى مدحيه في البصرة وواسط ودمشق يمدحهم وبنال عظامهم ثم يعود الى اليامة ، ولهذا نجد بعض الأخبار التي تشير الى عودة العجاج الى اليامة بعد أن كان في العراق أو في الشام ، ومن ذلك ما نقله ابن منظور فقال : « خرج الحجاج يريد اليامة ، فاستقبله جويش بن الحلفي فقال : أين تريد ؟ قال : أريد اليامة . قال : نجد بها نيداً خضراً . أي كثيراً^(٢) » .

ويبدو أن رحلات العجاج لم تقتصر على العراق والشام وانما كانت تنجبه أحياناً الى الحجاز ، ففي حديث العجاج ورويته أبا هريرة قوله : « وردت المدينة فأثبت أبا هريرة »^(٣) . وفي رجزه ما يفيد أنه كان في مكة حين جاءه شيال نكنى وشيال نكنتم^(٤) :

طَافَ الْغَيَّالَانِ فَهَاجَا سَقَمًا خِيَالُ نَكْنَى وَخِيَالُ نَكْنَمًا
بَاتَا يَجُوسَانِ وَقَدْ تَجَرَّعَا لَيْلُ الثَّمَامِ غَيْرَ عَيْنِكَ أَدَهَمَا

- (١) انظر الاغانى ١٢٣/١٨ و ٥٩/٢١ ، وتاريخ ابن عسكرو ٣٩٥/٧ .
(٢) اللسان ، مادة (خضرم) .
(٣) انظر شرح الأرجوزة ١٦/٢١ ، والمقصد الفريد ١٣٩/٦ ، وسوف نعرض لهذا الحديث في بحثنا القادم عن عقيدة العجاج .
(٤) الأرجوزة ١/٢١ - ٨ .

بالخيف من مكة فاسا نؤمنا فارقتا عينا وشعثنا سُهْمَا
أَمَرُوا وَأَمَرَيْنَ هَزِيْعًا ثَمَّ عَرَسْنَ الْإِثْمَ مَا يَجِلُّ الْقَسَمَا
ولا نندي اذا كانت رحلته الى الحجاز طلباً لمدح بعض الأمراء هناك ، أم أنها كانت نسكا وتعبداً ، ولكن راجز بني سعد لا يبعد أن يقصد الأمرين معاً ، ولعله في بعض رحلاته الى الحجاز كان يمدح والي المدينة وذلك لامتداد سلطانه على ولاية اليامة أيضاً ، ولا يبعد أن يكون في هذه الرحلات قد اتصل ببعض أمراء الأمويين ومنحهم .

فالعجاج قد رحل الى العراق والشام والحجاز ، وليس في أيدينا أي دليل على رحلته الى غير هذه الامصار ، الا أننا لا نتوقع أن يرتحل الى غيرها ، ذلك لأنها هي البيئات المناسبة للشعر في القرن الهجري الأول . وأما البيئات الأخرى فلم تكن قد أصبحت بعد من البيئات التي تجتذب اليها الشعراء . وبهذا أمكن لنا أن نقف الى حد ما على أمرين من نشأة العجاج ، الأول متى نشأ ، والثاني أين نشأ ، وفيه أمر ثالث لا يقل أهمية عما سبق ، وهو القول في نشأة العجاج كيف كانت ، وكيف تدرجت حتى استقام له الشباب ثم الرجولة ، ولكن هذا الجانب غامض كل الغموض في حياة العجاج شأن أكثر شعراء أدبنا القديم ، ذلك لأن الأخبار التي متتلت عن هؤلاء الشعراء ، غالباً ما تغفل هذا الجانب المهم من حياتهم ، وإذا أردنا معرفة شيء عن طفولة العجاج لم نجد وسيلة لذلك ، ولكننا يمكن أن نقدر أن هذا الطفل الأعراي قد نشأ في أحضان بادية نجد ، على مقربة من اليامة أو في اليامة نفسها ، وكانت نشأته في بيت ربما كان أهلاً للفصاحة ، حتى أمكن له أن يُخرج عبد الله بن رؤبة العجاج أفصح أعراي في عصره ، والعباس بن رؤبة وهو علامة نسابة^(١) ، ثم كان شبابه لا يختلف عن شباب غيره

- (١) البيان والتبيين ٣٥٦/١ .

من اعراب نجد كما سبى في حديثنا عن الخلافة وصفاته .

والذي يبدو أن العجاج كان على صلة بأكثر الأحداث في عصره ، وبأكثر الأمراء والخلفاء الذين عاصروهم بعد انتقال الحكم الى بني أمية ، وإذا كان قد وُلد لنفسه مدرسة في الرجز عرفت به وبابنه رؤبة ، فقد كان على صلة وثيقة بشعراء عصره وخاصة طبقة الرجاز .

فإن قتيبة نقل خبراً طريفاً عن الأصمعي عن رؤبة بن العجاج ، فيه أن الكذاب الحرمازي الراجز^(١) أتى العجاج يطلب حاجة فقص عليه طائفة من كذبه ، ثم قال له العجاج : ما حاجتك ؟ قال : كذا وكذا ، ففضاها له^(٢) .

ونقل ابن قتيبة أيضاً في ترجمة أبي غنيمه الراجز الأسدي^(٣) ، قوله : « وكان يهاجي العجاج ، فلما تنافروا في شعرهما حضرهما الصبيان ، فذهب انسان يطردهم ، فقال العجاج : دعم فانهم يغلبون ويبلغون »^(٤) . وكان للعجاج لقاء مع أبي النجم العجلي ، ومن أخبار هذا اللقاء ما نقله صاحب الاغانى فقال : « خرج العجاج مُتَعَلِّلاً^(٥) عليه مُبِيتٌ خَزْ وعامة خَزْ على فاقة له قد اجاد رحلها حتى وقف بالمريد والناس مجتمعون فأنشدهم قوله :

قَدْ جَبَّرَ الدِّينَ الْإِلَهَ فَيَجْبِرُ

فذكر فيها ربيعة وهجاء ، فجاء رجل من بكر بن وائل الى أبي النجم

(١) هو عبد الله بن الأورد ، وقيل له الكذاب لكذبه . انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٦٦٥ - ٦٦٦ والمؤلف ١٧٠ .

(٢) الشعر والشعراء ٦٦٥ .

(٣) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٥٨٣ - ٥٨٤ ، والمؤلف ٦٩٣ - ٦٩٤ .

(٤) الشعر والشعراء ٥٨٣ .

(٥) متحفظاً : متزيناً .

وهو في بيته فقال له : انت جالس ، وهذا العجاج جرجنا بالمريد ، قد اجتمع عليه الناس !! قال : صف لي حاله وزينه الذي هو فيه ، فوصف له . فقال : أبغني جلاً طليئاً قد أكثر عليه الهناء ، فبهاء بالجميل اليه . فأخذ مراويل له فيجعل إحدى رجله فيها واتر بالآخرى وركب الجمل ودفع خطامه الى من يقوده ، فانطلق حتى أتى المريد . فلما دنا من العجاج ، قال : اخلع خطامه ، فخلعه ، وأنشد :

قَدْ كَثُرَ الْقَلْبُ وَجَبَّهْلًا مَا دَكَّرُ

فجعل الجمل يدنو من الناقة يتشممها ويتباعد عنه العجاج لئلا يفسد ثيابه ورحله بالقطران ، حتى اذا بلغ الى قوله :

سَيِّطَانَهُ أَنْتَى وَسَيِّطَانِي دَكَّرُ

تعلق الناس هذا البيت وعرب العجاج عنه^(١) .

وبذلك كان العجاج بمن يسهم في حياة المريد الأدبية ، فينشد بعض رجزه ، أو يستمع الى ما يجري فيه من نقاض ومهاجاة بين فحول القريض ، ومن ذلك ما نقله صاحب الاغانى عن النابغة الجعدي ، فقال : « وهاجي أوس بن مَعْرَاة بحضرة الأخطل والعجاج وكعب بن جُعَيْل ، فقلبه أوس ، وكان مُتَعَلِّباً^(٢) » ، وقال أيضاً عن النابغة الجعدي وأوس بن مَعْرَاة : « قال أبو زيد : فحدثني المدائني أنها اجتمعا في المريد فقتلوا وتهاجيا ، وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جُعَيْل ، فقال أوس :

لِمَارَاتٍ جَعْدَةٌ مِنْهَا وَرْدٌ^(٣) وَلَوْ أَنْتَعَامًا فِي الْبِلَادِ رُبْدًا^(٤)

(١) الاغانى ١٥٣/١٠ (دار الكتب) ، ونقله ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٥٨٤ - ٥٨٥ مع اختلاف يسير في الرواية .

(٢) الاغانى ٨/٥ (دار الكتب) ، وشاعر متعذب : كثيراً ما يتعذب .

(٣) الورد : الجيش ، والورد : أيضاً : الاشراف على الماء .

(٤) التمتع المريد : ما كان لونه سواداً مختلطاً .

إِنْ لَمَّا عَلَيْكُمْ مَعَدَّةٌ^(١) كَالِهَلَا وَرَكْنَتِهَا الْأَشَدُّ^(٢)
فقال العجاج :

كُلُّهُ أَمْرِي يَعْذُو بِمَا اسْتَعَدَّ^(٣)

فالعجاج اذن شارك في حياة المربد ، وكان من شعرائه منشداً أو مستمعاً ، ولكنه لم يشارك جدياً في لعبة التفاضل التي كانت تشتد يوماً بعد يوم على أيدي الفرزدق وجبر ، لأن طبع العجاج قد تصدّف عن هجاء الناس والتبيل منهم سواء كان ذلك عن جد أو عن هزل .

وبذلك نجد العجاج قد نشأ أعرابياً في البلمة ، وامتدت به الحياة الى الشطر الأكبر من القرن الهجري الاول ، ولكننا نجمل ظروف حياته وأطوارها شأن أكثر شعراء أدبنا القديم ، اذ لا نكاد نلم بأخبار بيعة عن حياته الأدبية في مربد البصرة ، أو مديح بعض الخلفاء والولاة والأمراء والقادة ، وكذلك الأمر في عقيدة العجاج وأخلاقه وشخصيته ، فاذا ما أردنا بحث هذه الجوانب من حياته لم نجد الا أخباراً جدّ بيعة ، ولكننا هنا يمكن أن نلوذ بأراجيزه ، ذلك لأنه لم يضح شيء من وصف أخلاقه وعقيدته ، بل ان أراجيزه لا تخلو من الإشارة أحياناً الى ثقافة العجاج وبعض اتجاهاته العقلية والنفسية .

٣ - عقيدته

لا شك أن الأب لويس شيخو قد غالى في كتابه « شعراء النصرانية » و « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » ، وكذلك في أكثر مقالاته

(١) أراد ممد بن عدنان واليه ينتسب أوس بن مفرأ ، وبه يفخر على النسيطة .

(٢) أغاني دار الكتب ١٣/٥ .

التي نشرها في مجلة « المشرق » ، وذلك لأنه كاد يسلك في النصرانية كل شعراء الجاهلية دون تمييز بين النصراني منهم أو اليهودي أو المثلث أو الخنثي ، وكثيراً ما كانت نخدعه بعض الألفاظ في أشعارهم دون أن يدقق فيها ورأها من المعاني ، فيتخذ منها لنفسه حججاً وأكثرها عليه حجة ، وقد تحدثنا عن هذا الجانب في دراستنا لأمية بن أبي الصلت .

الا أن ما يستغرب حقاً من الأب لويس شيخو أن يسلك في النصرانية شاعراً إسلامياً كالعجاج ، لالشيء اللهم الا لوجود رواية لأحد أبنائه يمكن أن تفسر بمعنى « الانجيل أو القربان » . فقد قال الأب شيخو : « ما كنا لنجسر أن ننظم العجاج في سلك شعراء النصرانية لولا كلمة وردت في شعره تدل على أنه دان بالنصرانية ، وان يكن بعد ذلك عدل الى الاسلام . وهذه الكلمة هي مطلع قصيدته الرائية الشهيرة حيث قال :

السمدُ يذ الذي أعطى الشبرُ

فشرح البعض لفظة (الشبر) بمعنى الخير والعطية ، أي الحمد لله موضع الجبروت والعطايا . الا أن لفظة معنى آخر قديماً ورد في شعر عدي بن زيد الشاعر النصراني الشير حيث يصف أمانته نحو النعمان (شعراء النصرانية ص ٤٥٢) :

لم أخنه والذي أعطى الشبر

فورد هناك شرح الكلمة « بالانجيل والقربان » وكذلك قال ابن السكيت في اصلاح المطلق (في الطبعة المصرية ص ١٦٩) : وقيل في الشبر هاهنا انه القربان . فعدي اذ أقسم بالشبر أراد أجمل مالمدى النصارى في دينهم وهو القربان . وقد زاد العجاج على قول عدي اذ خص الحمد له في مقدمة قصيدته وبراعة استهلاله بمنحة الله للشبر ، فلا يري أي عطية كانت بل أكبر هبات

الله التي هي عند النصارى الانجيل والقرآن»^(١).

وهذا المعنى الأخير لكلمة الشبر كان عند الأب شيخو يكفي لتفسير العجاج ، ولهذا قال بعد ذلك : « قترى من هذه الترويح أن العجاج وعدي ابن زيد ضرباً على وتر واحد وأن كليهما يدين بالنصرانية »^(٢). إلا أنه مالم يأت أدرك أن هذه الكلمة بالذات ليس في اختلاف في شرحها فحسب ، وإنما تختلف روايتها أيضاً في بيت العجاج ، فقال : « هذا ولا تجهل أن الرواة رووا كلمة العجاج « بالخبير أو بالخبير » وكلاهما بعيد أو تصحيف ، فالخبير الأثر أو السرور ، أما الخبير على فعّل أو الخبير على فعمل بلفظ الجمع فلا ذكر لهما في المعاجم ، مالم يُقَلَّ أن الخبير جمع خبيرة أي المختار ، ولا شك في أن العجاج نظر إلى قول عدي السابق ذكره ، ولا سبأ أن أقدم رواية وهي « الشبر » رافية إلى الخليل في القرن الثاني للهجرة »^(٣).

وبهذا يجد الأب لويس شيخو أن الحجة قد قامت له ، وأن العجاج قد أصبح فعلاً يدين بالنصرانية ، ولكن هذه الحجة جدّ واهية من أساسها ، لأن كلمة واحدة لا تكفي لإقامة الدليل على عقيدة الرجل ، ذلك لأنها ان كانت فعلاً بالرواية التي أوردها الأب شيخو ، وبالمعنى نفسه الذي اختاره لها ، فهي لا تعدوا أن تكون من آثار ثقافة العجاج وتقليده لشاعر جاهلي هو عدي ابن زيد ، ولا تدل بذلك إلا على مجرد تأثره ونقله هذا المعنى عن سواه من الشعراء ، وسوف نرى في دراستنا لمعانيه كثيراً من نظائر هذا التقليد في المعاني ، وسوف نقف كذلك على عدد من المعاني التي كانت بمنزلة المأخذ

(١) مجلة المشرق ٢٣/٤٤٠ - ٤٤١ .

(٢) مجلة المشرق ٢٣/٤٤١ .

(٣) مجلة المشرق ٢٣/٤٤١ .

على العجاج ، لأنه لم يمتثل فيها ذلك الواقع الجديد للحضارة العربية بعدد الاسلام ، وإنما بقي يستمد بعض معانيه من أعماق الحياة الجاهلية أحياناً .

ثم إن وجود رواية أخرى للبيت تُسقط الاحتجاج به ، وإذا كان الأب شيخو قد ردّ رواية البيت « الشبر » إلى الخليل بن أحمد في القرن الهجري الثاني ، فهو لم يجد مصدر هذه الرواية ، وعدم تحديد هذا المصدر مضعف لاستشهاده بها ، ولنقرض جدلاً أنه اعتمد في ذلك على بعض كتب اللغة ، فهذه الكتب لا تدقق أحياناً في الرواية لأنها تروي البيت مستقلاً عن قصيدته ، في حين نجد الأصمعي وهو من رجال القرن الثاني أيضاً لا يشير مطلقاً إلى هذه الرواية في شرحه لديوان العجاج ، وإنما يروي البيت على هذا النحو :

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَى الْخَبِيرَ

ويقول في شرحه : « الخبير : السرور ، ويقال : هو في خبرٍ من العيش أي في مسرة من العيش . والخبير : السرور ... يقول : الحمد لله الذي أعطى هذا العهد ، يقول : اتبعوا أثر نبيهم وذهب تشبه الخوارج »^(١). فالأصمعي يجعل معنى البيت مرتبطاً بسائر أبيات الأرجوزة ، إذ أن معنى السرور يمكن أن يرتبط بالقضاء على الخوارج ، فإذا قُيِّمَ على الخوارج كان ذلك مدعاة حبور وسرور لدى الناس في اليمامة وذلك لما عانوه من ظلم الخوارج وعسفهم وتسلطهم على رقاب الناس وأموالهم . وهذا يردّ ما زعمه الأب لويس شيخو من أن هذه الرواية فيها بعد أو تصحيف ، ولا سبأ أنها هي الرواية الوحيدة التي أوردها الأصمعي في ديوان العجاج وشرحها ، ولم يشر إلى أية رواية أخرى .

وإذا كان للبيت رواية أخرى في بعض كتب اللغة ، وهي رواية

(١) شرح الأرجوزة ٣/١ .

« الشَّيْر » ، فبهذه الكتب أشارت الى معنى القربان مدفوعة بما ورد في بيت عدي بن زيد التصواني ، وأشارت الى أن المعنى هو مجرد « الشَّيْر أو العطية » ، وأكثرها لم يشر في هذه الرواية الا الى المعنى الأخير فقط^(١) . ومما دام هنالك أكثر من شرح واحد لرواية « الشَّيْر » ، فهذا يكفي لاسقاط الاحتجاج حتى بهذه الرواية نفسها ، اذ لا يجوز الاحتجاج بأحد هذين الشرحين دون الآخر .

ومما يمكن فوجود كلمة واحدة لا يكفي لتحديد عقيدة العجاج مع وجود مئات من الألفاظ والمعاني الاسلامية في رجزه ، وقد شعر بهذا الأب لربس شيخو ، فقال : « ولنا قصد بقولنا هذا أن نصرانية العجاج كانت خالصة لا غبار عليها ، فكما ترى هنا أثر النصرانية^(٢) ، نجد أيضاً في شعره آثاراً اسلامية^(٣) » . ثم أئسد بعض الأمثلة من المعاني الاسلامية في رجزه . وفي قوله الأخير مغالطة علمية ليست من المنطق في شيء ، اذ يجعل كلمة واحدة دليلاً على نصرانية الرجل ، ثم يجعل الآثار الاسلامية الكثيرة في رجزه ، والمتغلغلة في أعماق نفسه ، أشبه بالغبار على نصرانيته تلك ، ثم زاد مغالطة حين قال : « فن هذه الأمثلة يلوح للقراء ما صار إليه شعر الرجز في عهد بني أمية ، اذ بلغ الغاية من المثانة والتبسط ، وكان للعجاج في ذلك السهم النازع ، وعلى أثره جرى ابنه رؤبة من بعده ، وعاش الى زمن دولة بني العباس ، ولا نعرف من نصرانيته شيئاً كما ظهر من شعر والده ، ولعل

(١) انظر اصلاح المنطق لابن السكيت ١١٠ ، وتهذيب اصلاح المنطق للبربري ١٦٩/١ وأمالى القالي ١٣٤/١ ، وجبهة اللغة ٢٥٧/٢ ، والمصاح ٦٢١/٢ و ٦٩٢ ، ومجالس ثعلب ٥٢٣ ، والمخصص ٨٠/١٥ ، واللسان والتعاج (سير) .

(٢) يريد في كلمة (الشَّيْر) .

(٣) مجلة المشرق ٤٤٢/٢٣ .

لم يثبت على دينه أو جمع بينه وبين الدين المحدث كما وقع لغيره من نصارى عهد الاسلام الأول الذين لم يستقروا على رأي فتقلبوا على حسب أحوال الزمان والله أعلم^(١) .

وهذا كلام كله مغالطة لا تعتمد على أدلة من العلم أو المنطق ، وإنما تعتمد على أوهم كانت تحيا في مخيلة الأب اليسوعي ، وحمله حملاً على المغالاة والخروج عن الأساليب العلمية في أمثال هذه الابحاث ، اذ أن رؤبة بن العجاج لا مجال أبداً للشك في عقيدته الاسلامية الخالصة من كل شائبة ، والعجاج لا يمكن مجال أن تناقش مسألة عقيدته لولا ما اصططعة الأب شيخو من أوهم أيضاً ، وما ابتداء من برهان لا يقوم على أساس علمي في الاحتجاج ، حين جعل كل الحجة تتركز حول بعض المعاني لأحدى روايات بيت واحد من رجز العجاج ، ثم اغفل ما بين أيدينا من أخبار وأرائيز تشير بكل وضوح الى أن الاسلام كان من الأركان الأساسية في تكوين شخصية العجاج وبعض خصائص رجزه .

فاذا نظرنا الى رجزنا العجاج لم نجد فيه الا شيئاً ورعاً ، قد أضاء الاسلام بين جرائحه ، وهذبته خير تهذيب ، حتى كلف يوماً ما يقوله على عادة الشعراء من التسيب والغزل ، بل كان يخشى أن يكون ذلك بما حرمه الاسلام ، فقد ورد في شرح ديوانه : « حدثنا أبو حاتم قال : حدثنا أبو عبيدة حدثنا رؤبة بن العجاج عن أبيه قال : وردت المدينة فأتيت أباهروية ، فقلت : يا صاحب رسول الله ، اني رجل أقول من هذا الرجز شيئاً ، فهل ترى فيه حرجاً ، قال : أسمعني بعض ما قلت . قال : فأنشدته :

طَافَ الْخَيْلَانِ فَتَهَلَّجًا سَقَمًا خَيْالٌ تَكُنِّي وَخَيْالٌ تَكُتَمًا

(١) مجلة المشرق ٤٤٨/٢٣ .

قَامَتْ تُرَيْكُ رَهْبَةً أَنْ تَصْرَمَا سَاقًا يَخْتَدَاةً وَكَعْبًا أَدْرَمَا
فقال : قد كنت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنشد مثل هذا
فلا تَرَي بَأْسًا^(١).

ولا يخاف الحرج والالتم في أمثال هذا الغزل ، إلا انسان بقي ورع
قد آمن بالاسلام قلباً ونفساً ولساناً ، وإذا كان قد سأل أبا هريرة عن أبياته
في الغزل ، فإنه لم يقف عند ذلك ، وإنما راح يسأله عما يقوله أيضاً في
موضوع الوعد ، وقد تنقل الأصفهاني شيئاً من ذلك فقال : « أخبرني عبد
الله بن أبي داود السجستاني قال حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد قال حدثنا
يعقوب بن محمد الزهري قال حدثنا محمد بن إبراهيم عن يونس بن حبيب عن
رؤبة بن العجاج عن أبيه ، قال : أنشدت أبا هريرة^(٢) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَعَلَّيْتُ بِأَمْرِهِ السَّهَاءُ وَاسْتَقَلَّتْ
بِأَيْدِيهِ الْأَرْضُ وَمَا تَغَيَّرَتْ أَرَسَى عَلَيْهَا بِالْجِبَالِ الثَّيِّبِ
الْبَاعَثِ النَّاسَ يَوْمَ الْمَرْقَاتِ

قال أبو هريرة : أشهد أنك تؤمن يوم الحساب^(٣) .

ولا شك أن لقائه لأبي هريرة قد جعله يتجمل شيئاً من الحديث عنه ،
وفي الأخبار السابقة شيء من هذا الحديث ، وروايته عن أبي هريرة مشهورة
قد أشار إليها السيوطي وابن عساکر^(٤) ، وقال ابن قتيبة : « وكان لقي أبا
هريرة وسمع منه أحاديث . قال العجاج : قال لي أبو هريرة : من أنت ؟

- (١) الأرجوزة ١٦/٢١ ، وانظر الأغاني ٥٨/٢١ ، والمعقب الفريد
١٣٩/٦ ، واللسان (يخذ) ، و (درم) .
(٢) الأرجوزة ١/٢٢ - ٣ ، ٥ ، ٨ .
(٣) الأغاني ٥٨/٢١ ، وأشار البغدادي إلى هذا الحديث في الخزائن
٥٠٩/٣ (بولاق) .
(٤) تاريخ ابن عساکر ٣٩٤/٧ ، وشرح شواهد المغني ١٨ .

قلت : من أهل العراق . قال : يوشك أن تأتيك بقعان الشام فيأخذوا
صدقك ، فإذا أتوك فتلقيهم بها ، فإذا دخلوها فكن في أقاليمها وخلّ عنهم
وعنها ، وإياك وأن تسبهم ، فانك إن سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقك ،
وان صبرت جاءت في ميزانك يوم القيامة^(١) .

ولا ريب أن لقائه لأبي هريرة كان بمن عمن اسلام حق ، لا بدخله
شك ، ولا يصدعه رياء ، ولهذا كثرت المعاني الإسلامية في رجزه ، كالحديث
عن الملائكة الموكلين بأصحاب النار يوم القيامة ، إذ يجد في نفسه خوفاً منهم ،
ولولا ذلك لكان قاسياً على جهة الناس من يناصبونه عداء أو حسداً^(٢) .

تَكَلَّمَ لَوْ لَا أَنْ تَسْتَشِطَّ الطَّبْعُ فِي الْجَنِيمِ يَجِيءُ لَا مُسْتَصْرَحُ
فِي دُخَانِ النَّارِ وَقَدْ تَسَلَّخُوا لَعَلِّمَ الْجِبَالُ أَنِّي مَفْتَحُ
لِهَامِيمِ أَرْضِهِ وَأَنْقَضُ أَمَّ الصَّدَى عَنِ الصَّدَى وَأَصْمَحُ
فَالطَّبْعُ أَرَادَ بِهِم مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ الْمَوْكَلِينَ بِنَارِ جَهَنَّمَ^(٣) ، وقد تناول
هذه الفكرة من زاوية اسلامية خالصة ، ومثلها أحاديث كثيرة عن الايمان
والكفر والغفران .

فالخوارج قد خرجوا على دين الله ، وكنفروا فهُزِمُوا وَقُتِلُوا بِكُفْرِهِمْ
وَضَلَالَتِهِمْ^(٤) :

وَالْخَتَالُ فِي الدِّينِ الْخَرُودِيُّ الْبَطْرُ وَأَشْرَفَ الْحَقُّ وَأَوْدَى مَنْ كَفَرَ
وَالدِّينُ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الْخَلِيفِيُّ طَبْعاً ، فالعجاج يكثر من ذكره ولا سيا

- (١) الشعر والشعراء ٥٧٢ - ٥٧٣ .
(٢) الأرجوزة ١/٤١ - ٦ .
(٣) انظر مقاييس اللغة ٧٢٧/٣ ، والصحاح ٤٢٦/١ ، واللسان
(حشيش) و (طين) .
(٤) الأرجوزة ٣٤/١ - ٣٥ .

في حديثه عن الحوارج وأصحاب ابن الأشعث ، ممن خرجوا على سلطان الدولة أيام الأمويين وابن الزبير .

والعجاج دائم الدعاء الى الله تعالى ، يطلب منه الرزق في الدنيا ، والغفران في الآخرة (١) :

يَا رَبِّ رَبِّ الْبَيْتِ وَالْمَشْرِقِ وَالْمَشْرِقَاتِ كُلِّ سَهْبٍ سَمَلْتِ
إِيَّاكَ أَدْعُرُ فَتَقْبَلُ مَلَكِي فَتَاغْفِرُ تَطْلُبُ إِلَيَّ وَسَمَرُ زَرْقِي
فالرجل مؤمن أشد الايمان بالله والملائكة واليوم الآخر ، وهذا الايمان
الذي ينبع من الاسلام نفسه لامن دين سواه ، ذلك لانه في رجزه أيضاً قد
حدد لنا طبيعة هذا الايمان العميق ، فقد هلى لرسالة محمد صلى الله عليه
وسلم ، اذ دعا الى دين الله وما زال حتى أظهر الله هذا الدين به ، وغفر
له ما تقدم من ذنبه وما تأخر (٢) :

فَاَوْتَى مُحَمَّدًا مَدًى أَنْ غَفِرَ لَهُ الْإِلَهُ مَا مَضَى وَمَا غَبَرَ
أَنْ أَظْهَرَ الدِّينَ بِهِ حَتَّى ظَهَرَ

وهو لا يقتصر على هذه المعاني الاسلامية العامة ، وانما يستمد من القرآن
الكريم بعض المعاني بالفاظها وعباراتها أحياناً وهذا لا يحسنه الا من آمن
بكتاب الله أشد ايمان ، حتى كان في وسعه أن يستمد من ألفاظه ومعانيه .
فاذا تحدث عن قتل أعدائه جعلهم يتنازرون هنا وهناك كأعجاز غزل
مُعَرَّق (٣) :

كَأَنَّهُمْ مِنْ زَاهِقٍ وَمُزْهَقٍ بَيْنَ الزَّوَانِقِ وَعَطْفِ الْأَبْرَقِ
أَعْبَازُ تَخْلُ بِالْحَزَنِيرِ مُعَرَّقِ

- (١) الأرجوزة ١/١٠ - ٤ .
- (٢) الأرجوزة ١/١٤ - ١٦ .
- (٣) الأرجوزة ١/٢٥ - ٢٧ .

ثم عاد الى هذه الصورة مرة أخرى في حديثه عن قتل أعدائه ،
فقال (١) :

كَأَنَّهُمْ مِنْ هَالِكٍ مُطَاعٍ وَرَامِقٍ يَجُورُ بِالصَّيَاحِ
وَعَانِسٍ تَغَادُ بِالْوَشَاحِ أَعْبَازُ تَخْلُ بِالْحَزَنِيرِ تَحَاحِ
ولا نكاد نشك أن هذه الصورة قد استمدتها العجاج من القرآن الكريم ،
اذ وردت في الحديث عن هلاك قبيلة عاد ، فجاء في سورة القمر : « انا
أرسلنا عليهم رجلاً صريراً في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز
نخل منكسر » (٢) ، وفي سورة الحاقة : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر
عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى
كأنهم أعجاز نخل خاوية » (٣) .

واذا تحدث العجاج عن الثور واشرافه على القنجر ، قال (٤) .
حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهُ تَنَفَّسًا غَدَاً بِأَعْلَى سَحَرٍ وَأَجْرَسَا
غَدَاً يُبَارِي خُرُجاً وَاسْتَأْنَسَا كَالْكُوكَبِ الدَّيْءِ يَعْشُو الْأَوْعَسَا
وَتَنَفَّسُ الصُّبْحُ أُنَى بِهِ مِنَ الْآيَةِ : « وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ » (٥) ،
وتشبيه الثور بالكوكب الذي لعنه الله من أعجاب العجاج بتلك الصورة
الرائعة في قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة
فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري .. » (٦) .

- (١) الأرجوزة ٣٧/٣٠ - ٣٣ .
- (٢) سورة القمر ١٩/٥٤ - ٢٠ .
- (٣) سورة الحاقة ٦٩/٧ - ٨ .
- (٤) الأرجوزة ١١/٤٦ - ٤٩ .
- (٥) سورة التكوين ١٩/٨١ .
- (٦) سورة النور ٢٤/٣٦ .

وإذا تحدث عن أخلاقه ذات الطابع الإسلامي الخالص ، أعقبا بقوله (١) :
« عَلَّ الْأَلَمَةِ الْبَائِثِ الْأَفْعَالَا بِعَفِيفِي مِنْ جَنَّةٍ تَطْلُلَا
وَعَنِيَا يُسَاقِطُ الْأَهْدَالَا »

وصورة الجنة بظلالها وقطوفها الدانية ، صورة اسلامية وردت في مواضع
كثيرة من القرآن ، إلا أن قوله « البائث الأفعلا » نقل حرفي لقوله
تعالى : « وأخرجت الأرض أثقالها » (٢) ، أي ما فيها من كنوز أو موتى ،
وذلك يوم القيامة .

فالعجاج ينقل عن القرآن المعاني والألفاظ والعبارات ، ويتأثر بالأسلوب
كذلك ، ومن أبرز هذه الصور التي تأثر فيها بأسلوب القرآن ، قوله مثلاً :
« وَاعِصْ مَا عَاصِمٌ لَّوْ اغْتَصَمَ »

وكان العجاج يعتد بهذا البيت ويسمي ما فيه من التجنيس بـ«عطف
الرجز» ، قال ابن رشي : « ولم تكن القدماء تعرف هذا اللفظ ، أعني
التجنيس ، يدلك على ذلك ما حكى عن رؤبة بن العجاج وأبيه ، وذلك أنه
قال له يوماً : أنا لشعر منك . قال : وكيف تكون أشعر مني ، وأنا
علمتك عطف الرجز ؟ قال : وما عطف الرجز ؟ قال : (البيت) .. » (٣) .

وعطف الرجز هذا لم يأت به العجاج من ابداعه ، وإنما تأثر فيه بأسلوب
القرآن ، إذ نجد من أساليب القرآن التكرار في بعض الآيات ، ليعظم من
شأنها ويجعل لها وقعاً في النفوس قوياً ، ولفتاً للأصابع والأفهام سريعاً ، ومن
ذلك ما جاء في سورة الطارق : « والساء والطارق ، وما ادراك ما الطارق ، النجم

- (١) الأرجوزة ١٤/١٤ - ١٦ .
- (٢) سورة الزلزلة ٢/٩٩ .
- (٣) الأرجوزة ٣٣/٣٩ .
- (٤) العمدة ٢٢٧/١ .

الثاقب ، إن كل نفس لـمّا عليها حافظ » (١) ، وفي سورة القارعة :
« القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » (٢) ،
وفي سورة الحاقة : « الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ، كذبت
ثود وعاد بالقرعة » (٣) .

فالعجاج قد أخذ بهذا الأسلوب وسماه بعطف الرجز ، ومن ثم فقد تأثر
بالقرآن أسلوباً وألفاظاً ، واستمد منه كثيراً من العبارات والمعاني ، وهذا
كله يجعل من أغرب العجب أن ينظر إليه الأب لويس شيخو على أنه نصراني
لمجرد وجود رواية لأحد أبياته يمكن أن تُفسر بالقرآن أو الإنجيل ، ولكن
قاتل الله التعصب ، فكثيراً ما يغور بصاحبه ، ويؤثر بطن الرأي صواباً ،
ويخرج بالحق إلى الهوى ، وما هذا من أساليب العلم في شيء ! فالعجاج
كان مؤمناً بعبقيرة الاسلام ، وهذا الايمان قد حدّد أكثر اتجاهاته الأخلاقية ،
وكان من العناصر البارزة في تحديد شخصيته وأخلاقه .

٤ - شخصية العجاج

ونود الآن أن نرسم صورة لشخصية العجاج بما تنطوي عليه من أخلاقه
وصفاته وثقافته ، ولنا أن نعرف منذ البدء ، أن وسائنا إلى دراسة هذا
الجانب الهام شبه قاصرة بعد ضياع أكثر أخباره ، وليس لنا إلا أن نعتمد في
أكثر هذا البحث على رجز العجاج نفسه ، وهذا قد جيء لنا معرفة بعض
الجوانب الأخلاقية من خلال حديث العجاج عن نفسه ، ولكنه لا يكفي إذا
أردنا المنهج العلمي الصحيح ، إذ ينبغي أن نقارن بين ما قاله هو عن نفسه ،

- (١) سورة الطارق ١/٨٦ - ٤ .
- (٢) سورة القارعة ١/١٠١ - ٤ .
- (٣) سورة الحاقة ١/٦٩ - ٤ .

وما قاله الناس عنه ، ومع ذلك فانتنا لا نتبع عن الصواب اذا قلنا ان هذه المعاني التي تحدث فيها العجاج عن نفسه ، قد تكررت بكثرة في أراجيزه ، بما يشير الى أنها أقرب ما تكون الى الصواب في تصوير حياته وأخلاقه وشخصيته .

وأول ما يطالعنا في شخصية العجاج أنه رجل أعرابي نشأ كما رأينا في الياقة من بادية نجد ، ثم أقام فترة أو فترات بالصرة ، ولذلك كان يوصف بأنه من أعراب البصرة^(١) . وهذا الجانب الأعرابي من شخصيته قد برز واضحاً في ألفاظه الغريبة ومعانيه الجافية أحياناً ، أمثال قوله^(٢) :

يا رب! لا أدري وأنتَ الدَّاري

وقد أخذ عليه اسناد الدرواة لله تعالى لما في الدرواة من معنى القتلى والحيلة ، واعتبر هذا الاسناد من جفاء الأعراب ، لأن العجاج ، وهو أعرابي ، لا يعلم بدقة ما يُطْلَقُ على الله من الصفات وما يجوز منها وما يمتنع^(٣) .

وأما هذا كثير في رجزه وسوف نفرد له بحثاً خاصاً ، ولكنه يشير الآن الى جفاء هذا الأعرابي واتصاله الوثيق بمجاء الصحراء ، حتى انه اذا أراد أن يتحدث عن قوة ابنه ربيعة وفائه واكثاله لم يجد أفضل من ان يشبه بالبرذون المشدود بالإكاف^(٤) :

حَسَى إِذَا مَا أَصَّ ذَا أَعْرَافٍ كَالْكُرْدَنِ الْمَشْدُودِ بِالْإِكَافِ
قَالَ الَّذِي جَمَعَتْ لِي صَوَافٍ

(١) المقاصد النحوية ٢٧/١ ، وفرائد القلائد ٥ .

(٢) الأرجوزة ٢٥/٤ .

(٣) النظر المخصص ٣/٣ ، والمفردات في غريب القرآن ١٦٩ ، وتفسير البحر المحيط ١٩٤/٧ .

(٤) الأرجوزة ٦٠/٨ - ٦٢ . والإكاف : البرفعة .

وهذا الأعرابي قد تذبذب بالاسلام أحسن تذبذب ، وانطبع بالمسيسة التجديبة العذرية أجل انطباع ولكنه إن تحدث عن شباه الماضي أورد شيئاً عن شغف النساء به ، حتى انهم لينظرون اليه من خلل الحدور اعجاباً به وميلاً اليه^(١) :

إِذ تَرْتَسِمِي مِنْ خَلَلِ الْخُدُورِ بَاعِثِينَ مُحَوَّزَاتِ حُورٍ
خُزْنِي بِالْبَسَابِ إِلَى صُورِ إِذ نَحْنُ فِي ثِيَابَةِ التَّسْكِينِ
بل ربما حدثنا عما كان فيه من سفة الشباب ، قبل أن ينهض الحلم والدين الحنيف عن ذلك^(٢) :

فَإِنْ يَكُنْ نَاهِي الصَّبَا مِنْ سِنِي وَالْجِلْمِ بَعْدَ السَّنَةِ الْعُسْتَنِ
وَعِلْمِ وَعَنْدَ اللَّهِ غَيْرُ الظَّنِّ فَقَدْ أَرَانِي وَلَقَدْ أَرْنِي
بِالْفَتَنِ مِنْ نَسَجِ الصَّبَا وَالْقَبَنِ غُرّاً كَأَرَامِ الصَّرِيمِ الْغُنِّ
وربما أشار الى شيء من اللهو والجون ، ولكنه لا يصرح بهذه الكلمات ، وإنما يورد ذلك عن طريق الكتابة والغموض المتعمد ، وإذا بجنة تسامي جنتهن في لهُو كأنه الشجر الملتف الكثيف في ظلمته والبسه^(٣) :

وَقَدْ يَسَامِي جَنَّتُهُ جَنِّي فِي غَيْطَلَاتٍ مِنْ دُجَا الدُّجَيْنِ
وبلخص تلك الفترة من شبابه بعبارة لا تخلو من حرقة ولوعة ، اذ يرى أن تلك الفترة قد كانت زمناً تمتع به وكأنه سكران قد أخذت به نشوة الصنع والذن^(٤) :

(١) الأرجوزة ١٢/١٩ - ١٥ .

(٢) الأرجوزة ١٧/١٦ - ٢٢ .

(٣) الأرجوزة ٢٦/١٦ - ٢٧ .

(٤) الأرجوزة ٢٣/١٦ - ٣٥ .

ملاوة ملثمتها كما في صارب صنيته نشوة مغن
بين جفائتي فترقتي ودن

وقد يشير الى تعلقه بامرأة أيام شبابه ، ولكنه في أحاديث الشباب كلها لا يشير الى مجون سافر كالذي كانت عند طرفة بن العبد في الجاهلية ، أو شعراء الجواز في عصره ، وإنما يتحدث عن حديثاً عاماً ، وإذا ما أورد طرفاً من حديث المجون جاء به غامضاً أو مستتراً وراء صور مختلفة من الكناية ، وهو في هذا كله لا يريد أن يتحدث عن غزله ومجونه ، وإنما يريد أن يفض بنفسه أيام كان في أرواد الشباب ، ولذلك نجده يبلغ على بعض المعاني التقليدية عند الشعراء ، فالنساء شعوقات به ، ينظرون اليه من خلل الحدود ، وهو يحدثن يخطق لو سمعته حيات الجبال لجأت اليه ، ولو سمعته الوعول لاحتدت نحوه ، وأغلب الظن أن العجاج لا يقصد وجه الحقيقة تماماً لأن طبيعة الفخر هي التي تدفع غالباً الى أمثال هذا الحديث ، ومما يكن فضدبت العجاج عن الشباب لا يصرح بالمجون السافر ، ولا يقص أخباراً مع هذه أو تلك ، ولنا أن توقع منه ذلك لما عرفنا في طباعه من عمق الايمان ، وأصالة العقدة ، والبعد عن الريبة .

فشخصية العجاج إنما تبرز من خلال هذه الأخلاق التي طبعت على الجير ، وابتعدت كل البعد عن الشر والافساد بين الناس ، فهو امرؤ ذو غفلة لا ينبغي من جاراته سوءاً ، ولا يشتم الناس ، ولا يسير في غيمة ، ولا يجتذبه عمل فيه عيب ، أو خلق فيه سوء (١) :

اني امرؤ عن جاري كفي
عن الأذى إن الأذى مقالي
وعن تبغي يرها غني
عن فلا لاص ولا ملصبي

(١) الأرجوزة ٢٥ / ٣٨ - ٥٠ .

برز ذو العقافة البرزي
إن تدن أو تنأ فلا نسي
لما قننى الله ولا قني
ولا مسع الماسي ولا مضي
تلميزها وذلك طرائي
لا يطيبيني العمك المعدي
ولا من الأخلاق دغمري
وجنارة البيت لها حجري
ومحرمات هتكها يجري

وهذه المعاني الأخلاقية قد أكثر العجاج من ترديدها ، فهو دائماً يصون حرمة جارته ، ويبعد بنفسه عن الفحش والخنأ ، ولا يقدم على ما حرم الله عليه (١) :

يارب إذ شدة قنني عقالا
ولو تشاء أسرع انجلا
إن كنت قد غيبت حالي حالا
من كبر قد أوهنت الأوصلا
فلم أكن أستطيع العذالا
من أن يروني للخنأ فتوالا
ولم أكن لجارتي غوالا
ولم أكن في جنبها جهالا
ولم أكن أخارع الضلالا
ولا ليبت جاري ختالا
بعذ المتلمز ابتغي الأذالا
تبعي ما ليس لي حلالا
عن الإله الباعث الانغالا
يعقبني من جنة تظلالا
وعني بساقط الأهدالا

وقد يشيب الصابر التوالا

فهو انسان مؤمن كل الايمان بالله ، ولذلك أصبحت تتمثل فيه أخلاق المسلم الحق ، أنه لا يشتم الناس ، بل ربما خصص فعدا لا يشتم الانسان الكريم المسلم ، ولا يرى من العنثم أن يشتم انساناً بريئاً ، ولا أن يعين بذلك أقرب الناس اليه ، ثم يؤكد مرة أخرى أن جارته حرام عليه كما أراد

(١) الأرجوزة ١/ ١٤ - ١٧ .

الله لها أن تكون ، وفي ذلك تكريم لنفسه لأنه يسعى الى مكالم الأخلاق خائفاً من الله ، راعياً في نوال ثوابه^(١) :

لا أَشْتُمُ المَرَّةَ الكَرِيمَ السَّلِيمَ ولا أرى شَتَمَ البَرِّ مَغْنَمًا
ولا ابنَ عَمِّي أنْ أراه مَغْنَمًا وجارةَ البَيْتِ أراها مَحْرَمًا
كَمًا قَضَاهَا اللهُ إلَّا أَنَّمَا مَسْكَرُمُ السَّعْيِ لِمَنْ تَكْرُمًا
مَخَافَةَ اللهِ وَعِلْمًا أَنَّمَا يَجْزِي المُجَازِي عاملاً ما قَدَّمَا

وفي أرجوزة أخرى يعود الى هذه الفكرة أيضاً ، فهو لا يشتم السعدية من قبيلته ، ولا تبيت جاراته بريئة تُقَدِّف بها ، ولا تنال منه الاهدية وتكرها^(٢) :

إني أَمُوءُ لا أَشْتُمُ السَّعْدِيَّةَ ولا تَبِيدُ جاريتي مَكْنِيَّةَ
إلَّا مِنْ التَّكْزِيرِ وَالْهَيْدِيَّةِ

ولهذا تغلّى راجز بني سعد عن هجاء الناس ، وإذا تخم عليه ما يشبه الهجاء ، مال الى التعريض أو ما يشبه أن يكون تعريضاً ، وقد نجد من الغواية أن العجاج قد لجأ الى ما يشبه النفاق في صلته بأمرأه عصره ، اذ مدح الأمويين ، ثم مدح آل الزبير ، فلما عاد الأمر الى بني مروان ، عاد العجاج أيضاً الى مدح بني أمية والنيل من آل الزبير ، ولكن هذا النفاق أو المصانعة كان ظاهرة طبيعية في تلك الفترة ، ذلك لأن تقلب الأحداث السياسية بسرعة ، والصراع العنيف بين الطامعين الى الحكم والسلطان ولا سيما في العراق ، قد جعل أمثال العجاج يهابون أن تدور الدائرة عليهم ، أو على قريتهم ، في ظروف لم تكن لها سابقة في تاريخ القبائل ، ولهذا كان

(١) الأرجوزة ٢١/٢١ - ٢٨ .

(٢) الأرجوزة ١٧/٤٠ - ١٩ .

جانب المصانعة لا بد منه في شخصية العجاج ، وخاصة ان زيار المصانعة كان هو السائد لدى شعراء ذلك العصر ، ولم ينبج منه آئذ الا شعراء الحوارج ، فهم الذين أبرأ أت يصنعوا خليفة أو أميراً حتى ولو كان السيف ينظر الى أعناقهم في قبضة الجلال .

فالعجاج اذن قد تأثر بشيء من أخلاق العصر الذي عاش فيه ، ولعله كان على شيء من الفاقة والعوز حتى وجدنا في الأخبار أنه يقترض من ابنته حزمة سبعين درهماً يدفعها للمصدق^(١) ، وقد يكون له بعض الانبل ، ولكنه على ما يبدو لم يكن صاحب غنى وراء ، ولهذا كان في بعض مدحيه يتجه الى التكسب وطلب النوال ، ولكنه في مدائحه كثيرة لا يتعرض لمعاني التكسب مطلقاً ، وكأنه كان مخلصاً في هذا المديح ، أو أنه كانت تشغله المعاني السياسية عن التفكير في المعاني الأخرى ، ولا نجده يتعرض للتكسب إلا في المدائح التي قالها ليزيد بن معاوية ، والوليد بن عبد الملك .

ومن هنا نلاحظ أن شخصية العجاج كانت ذات جوانب متعددة ، منها ما كان وليد النشأة الأعرابية والتربية الدينية ، ومنها ما كان وليد البيئة الاجتماعية والسياسية ، ولهذا يمكن القول ان العناصر التي كوَّنت شخصية العجاج كانت كثيرة جداً ، منها يشته وأسرته وقبيلته من بني سعد ، ومنها رحلاته الى بعض أنحاء الجزيرة وإلى العراق والشام ، ومنها الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية التي عاصرها ، ولكن الحضارة الجديدة في العراق والشام ، لم تغير كثيراً من ثقافته الأعرابية ، ولهذا كان يحطئه التعبير أحياناً عن بعض مظاهر هذه الحضارة التي لاتصل بجاء الأعراب ، ومن ذلك قوله في وصف يعزيره^(٢) :

(١) اللسان ، مادة (مصدق) .

(٢) الأرجوزة ١٩/٥٢ - ٥٧ .

كَانَ عَيْنِي مِنَ الْغُورِ بَعْدَ الْإِنْسِ وَعَرَقِ الْغُورِ
قَلْبَانِ فِي لَحْدَيْ صَفَا مَنَقُورِ أَذَلِكَ أَمْ حَوَاجِلَنَا قَارُورِ
غَيْرَنَا بِالنَّصْرِ وَالتَّصْيِيرِ صَلَاحِ الزَّيْتِ إِلَى الشُّطُورِ

فشبه عيني بغيره بقارورين ترشجان الزيت ، وبذلك ظن أن الزجاج
يوشح كالنخار ، وهذا المعنى أخذته عليه عدد من النقاد ، أمثال ابن قتيبة^(١) ،
وابن عبد ربه^(٢) ، وأبي هلال العسكري^(٣) .

وهذا يعني أن ثقافته كانت تنحصر في الحياة التي تمكّن منها في بيئة
الصحراء النجدية ، حيث أخذ الفصاحة من قومه أو بيئته أو بيئة نجد ، حتى
قال الجاحظ أنه : « أوجز الناس وأفصحهم »^(٤) ، وهذه الفصاحة قد انتقلت
منه إلى ابنه حتى قال ابن سلام : « قلت لبونس : هل رأيت عربياً قط »
أفصح من رؤية ؟ قال : ما كان معد بن عدنان أفصح منه »^(٥) ، ونقل
صاحب الأغاني بسنده عن محمد بن داود قال : « لقيت الخليل بن أحمد يوماً
بالبحرة ، فقال لي : يا أبا عبد الله ، دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم !
فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : هذا حين انصرفت من جنازة رؤية »^(٦) ،
وفصاحة رؤية هذه قد اشتهرت عند النقاد حتى أصبح ابن قتيبة إذا تحدث
عن الحسن البصري قال : « وكأني بشبه رؤية بن العجاج في فصاحة لهجته
وعربيته »^(٧) ، وإذا تحدث الجاحظ عن براعم بن السدي قال : « وكان

(١) الشعر والشعراء ٥٧٤ .

(٢) المقصد الفريد ٢٠٥/٦ .

(٣) كتاب الصناعتين ٦٧ .

(٤) البيان والتبيين ٣٥٦/١ .

(٥) الأغاني ٥٨/٢١ .

(٦) الأغاني ١٢٥/١٨ و ٦١/٢١ .

(٧) كتاب المعارف ٤٤١ ، ومثله في الأغاني ١٢٤/١٨ .

يتكلم بلسان رؤية »^(١) ، وربما ذهب بعضهم إلى أن رؤية أفصح من أبيه^(٢) ،
الا أن هذه الفصاحة لم تكن لرؤية الا اكتساباً من أبيه العجاج ، فالعجاج
قد نقل ذلك عن بيته وبيئته ومن ثم أعطاه إلى أبنائه وأحفاده ، فكانت
فصاحته من أبرز ما تميزت به شخصيته وثقافته ، وما ذلك الا لأن هذه
الثقافة كانت تتميز بالطابع البدوي الأعرابي ، ولوف نجد لها آقراً واضحة
في دراستنا لموضوعاته وخصائص رجزه ، ولنا أن تشير هنا إلى بعض مظاهر
هذه الثقافة ، إذ نجد العجاج غائلاً بأمور الصحراء وما يتصل بها من مستلزمات
الحياة ، فهو عالم بالألواء والرياح ، ومن ذلك قوله^(٣) :

سَارِ سَرِي مِنْ قِبَلِ الْعَيْنِ فَجَرِ عِطَ السَّحَابِ وَالْعَرَابِيعِ الْكُبَرِ
وَزَفَرَتْ فِيهِ السَّوَابِي وَزَفَرَتْ بَغْرَةَ نَجْمٍ هَاجٍ لَيْلًا فَتَغَرِ
فلما أراد أن يشبه الجيش في أبيات سابقة بالمطر ، جعل هذا المطر
غزيراً جداً ، وجعل سحابه من أعظم السحب ، ولكنه بثقافته الأعرابية
أدرك أن أغزر ما يكون المطر ، إنما يأتي من جهة العين ، وهي عين
قبة العراق ، والعرب تقول : « مطرنا بالعين ومن العين » ، إذا كانت
السحاب ناشئاً من ناحية قبة العراق^(٤) ، ولهذا جعل ذلك المطر يسري
من جهة العين ، ثم يجر أعظم السحاب ، ولم يكتف بذلك بل جعل هذا
السحاب من « المرائيع الكبر » أي من السحاب العظيم الذي يكون مطره
في أول الربيع ، وذلك أغزر له وأشد .

(١) البيان والتبيين ٣٣٥/١ .

(٢) انظر الموضح ٢١٩ ، ورفض المرزباني ان يكون رؤية أفصح من

أبيه العجاج .

(٣) الأراجوزة ٤٩/١ - ٥٢ .

(٤) المخصص ١٨٥/١٦ ، وانظر الأرملة والأمكنة ٨/٢ ، واللسان

(عين) .

وهذا كله إنما يستمد العجاج من ثقافته الأمازيغية ، التي خبوت أنواء الصحراء وأمطارها ورياحها ، وهو عالم أيضاً بطباع الحيوان في هذه الصحراء ، فإذا تحدث عن الثور الوحشي عرض لأمر في وصفه لا يدركه إلا من رآه بعينه ، فقال (١) :

يَرْكَبُ كُلُّ عَاقِرٍ جُمُودَ مَخَافَةٍ وَزَعَلِ الْعَبِيدُ
وَالْهَوَى مِنْ تَهَوُّلِ الْهَوَى

فالثور يركب الرمل العظيم الذي لا يثبت . ويعصم به خوفاً من الرعاة ، ولأن كلاب القاص لا تقدر على ركوب الرمل (٢) ، وهذا من طباع الثور ، ولا يدركه إلا من ألفه في الصحراء . ولكن العجاج رجا ربط بين صورة لهذا الثور وهو يجفر كناسه ، وبين صور أخرى لطرائقهم في حفر الآبار ، وذلك في قوله (٣) :

وَشَجَرُ الْهَبِّ عَنْهُ فَجَفَا بِسَلْسَلَتَيْنِ فَوَقَّ أَنْفَ أَذْلَقْنَا
إِذَا انْتَحَى مُعْتَقِماً أَوْ لَجِجَا

فالثور يدفع عنه أغصان الشجر بقرنيه الطويلين ، ويجفر كناسه مُعْتَقِماً أَوْ مُلْجِجاً ، والاعتقاد أن تَحْفَرُ الْبُئْرُ ، فإذا قَرُبَتْ من الماء احتفرت في وسطها بئراً صغيرة بقدر ما تجد طعم الماء ، فإن كان عذباً حفرت بقتها (٤) ، والتكجيف حَفَرْتُ في جوانب البئر من أسفل توسعاً دون تعميق (٥) .

- (١) الأرجوزة ٨٦/١٩ - ٨٨ .
(٢) انظر المعاني الكبير ٧٤٩/٢ ، والانتصاب ٣٢٠ ، وتحصيل مین الذهب ١٨٥/١ ، والخزانة ١٠٢/٣ .
(٣) الأرجوزة ٥٢/٤٤ - ٥٤ .
(٤) الصحاح ١٩٨٩/٥ ، واللسان (مقم) .
(٥) الصحاح ١٤٢٥/٤ ، والاساس ٢٣٣/٢ ، واللسان (لجف) .

- ٩٦ -

وبذلك أمكن للثقافة العجاج أن تمه بل هذه الصور عن حياة الصحراء ، بل زادته معرفة بالأمراض والأدواء التي لا بد منها في حياة الأعراب ، فإذا وصف المعركة بين الثور والكلاب قال (١) :

وَبَجَّ كُلُّ عَانِدٍ نَعُورِ الْجَنُوفِ ذِي ثَوَاتٍ تَوَوَّرِ
فَقَشَبَ الطَّبِيبُ نَائِطَ الْمَصْفُورِ

فالثور يطعن منها كل عريق نَعُورٍ بالدم ، فيقطعه قطع الطبيب لذلك العرق المعروف بالنائيط والمتمد في الصلْبِ ، وذلك معالجة للصغار وهو اجتماع الماء في البطن (٢) .

وإذا وصف المعركة مع الخوارج ، وتحدث عما أصابهم من قتل وجراحات ، قال (٣) :

ضَرْباً إِذَا صَابَ الْيَافِيعَ احْتَقَرُ فِي الْهَامِ دُحُلَانًا يُفَرِّسُنَ الشَّعْرَ
بَيْنَ الطَّرَاقِصِ وَيَقْلِينُ الشَّعْرَ عَنْ قَلْبِ ضُجْمٍ تَوَرَّى مِنْ سَبَرِ
فَالْجَوَاحِثُ تَشَبَّهَ الْآيَالُ الضُّجْمَ ، أَيِ الْمَالَةِ ، وهذه الجراحات لفسادها تورَّى من سبورها ، أي من قاسها أورت جوفه داء يُسمى «التورّي» (٤) ، وهو داء في الجنوف ، وقيل : هو قرح شديد يقاء منه القيح والدم (٥) .

وهذه مجرد أمثلة لبعض الجوانب من ثقافة العجاج الأمازيغية ، وسوف نجد ظواهر أخرى كثيرة من هذه الجوانب في أبحاثنا القادمة ، إذ أن هذه

- (١) الأرجوزة ١٤٩/١٩ - ١٥١ .
(٢) انظر أدب الكاتب ١٥٢ ، وشرح أدب الكاتب ٢٢٦ ، والصحاح ١١٦٦/٣ ، واللسان (صفر) .
(٣) الأرجوزة ١١٩/١ - ١٢٢ .
(٤) المعاني الكبير ٩٨٥/٢ - ٩٨٦ ، والصحاح ٢٥٢٢/٦ .
(٥) اللسان ، مادة (وري) .

- ٩٧ -

المعاج - ٧

الثقافة الأعرابية قد تأثرت بروافد أخرى منها سياسية واجتماعية وفكرية سوف نرى آثارها في معانيه وموضوعاته ، ومنها دينية اسلامية سوف نجد آثارها في موضوع الوعظ وفي المعاني والألفاظ القرآنية أو الاسلامية التي تطالعنا في أغلب اراجيزه ، وفي ملاحظة هامة ينبغي أن نشير اليها ، وهي اكثار العجاج من تشبيه الأطلال بالكتابة ، ومن ذلك قوله في وصف الأطلال^(١) :

كَانَ بَعْدَ الرِّيحِ الْهَجْمُ وَبَعْدَ هَذَا السَّحَابِ السَّجْمُ
مِنْ أَمْوَالِ السَّيْنِ الْعَوْمُ مَوَاجِعُ النَّفْسِ بِرَوْحِي مُعْجَمُ^(٢)
فَشَبَّ آثَارُ الدِّيارِ بِآثَارِ الْمَدَادِ فِي كِتَابِ مَعْجَمِ .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله في وصف الديار^(٣) :

تُتَنَزَّعُ الْأَرْوَاحُ وَالْأَمْطُتُتَارَا أُنْشَوَتْهَا وَالْبَارِحُ الطُّشُّتَارَا
بِالْجَوِّ الْآلَا أَنْ تَرَى حَبَّالَا^(٤) كَمَا يُحْدِ الْكَاتِبُ الْأَسْطُكَارَا
فَشَبَّ آثَارُ الْأَطْلَالِ بِتَجْدِيدِ آثَارِ الْكِتَابَةِ .

وفي اشارات أخرى في اراجيزه ، ولعل من أوضحها قوله لمروان بن الحكم^(٥) :

فَدَافَعْتُ وَأَنْتَ دَفَعْتَ أَذُنِي لِلْكَرَمِ فِي عَاجِلِ الْأَمْرِ وَأَجَلَسْتَ لِلظُّلَمِ
وظَاهِرِ الْإِسْأَالِ وَأَكْتَبْتَ بِالْقَلَمِ السَّابِقِ حَرْبَ لَا تَجِدُهُ كَالْيَوْمِ
فهو يدعوه أن يكتب الى معاوية بن أبي سفيان في أمر «عاصم» و
«حيي» وكانا في سجن مروان بن الحكم .

(١) الارجوزة ١٢/٢٤ - ١٥ .

(٢) النقيس : المداد ، ومتراجيحه : آثاره . والوحي : الكتاب .

(٣) الارجوزة ٩/٢٤ - ١٢ .

(٤) الجو : كل بطن واسع مطنش . والخبر : الآخر .

(٥) الارجوزة ١٤/٢٣ - ١٧ .

وهذه الاشارات في رجزه تدعونا الى التساؤل ، أكان العجاج يعرف الكتابة ، أم كان يجسها قراءة وخطاً ، الآ أن كثرة ترددها في رجزه ، تجعل من المحتمل أن يكون العجاج من كان يقرأ ويكتب ، وإذا صح ذلك ، كانت القراءة مصدراً جديداً من مصادر ثقافته وبناء شخصيته .

ثقافة العجاج كانت بدوية أعرابية ، ولكنها لا تخلو من مؤثرات العصر والبيئات المختلفة التي ارتحل اليها ، وأخلاقه كانت تتعد عن الفحش قولاً وعملاً ، وتصدر عن إيمان عميق بالدين الاسلامي الحنيف ، وبذلك كانت شخصيته تمتاز بمعالم خاصة ، لابد أن تؤثر في ديوانه وخصائص رجزه .

الفصل الثاني

مصادر رجز العجاج

عن الشيخ الفقيه
المسكين الفقيه (الشيخ)

ان تعرف رجز العجاج وخصائصه لا يتم لنا ، الا بعد توثيق هذا الرجز ، ومن ثم نجد أنفسنا في هذا الفصل والذي يليه ، أمام عدد من الأبحاث الهامة ، اذ ينبغي أن نقف عند ديوان العجاج ، لنرى طريق روايته ، ومدى الثقة بين رواه ، وما يتصف به شرحه من خصائص ، ومن ثم نحاول أن نلقي نظرة على ما بين أيدينا من رجزه ، لنرى ان كان قد تسربت اليه بعض مظاهر الشك أو الانتحال ، فإذا فرغنا من غربة أراجيزه على هذا النحو ، قمنا بغربة أخرى مهمة جداً نحاول فيها أن نحيط ما استطعنا بالاضطراب في رواية أراجيزه وعزوها أحياناً اليه وإلى غيره من الرجاز أو الشعراء ، وبذلك نقر ما للعجاج ونفني عنه ما ليس له ، وبهذا يصبح من اليسير أن نحدد خصائص رجزه ، بعد أن وثقناه ، وفصلنا عنه ما دخله من قبل الرواة .

١ - ديوان العجاج

ان ديوان العجاج كان معروفاً لدى المصنفين خلال قرون متعاقبة منذ أن وضعه الأصمعي ، اذ نجد اشارات اليه في كتب اللغة والتراجم والأدب منذ القرن الثالث الى القرن الحادي عشر الهجري ، ومن أقدم الاشارات التي وجدناها ماورد في جهرة اللغة لابن دريد (٣٢١ هـ) اذ جاء فيها : « والسبط

- ١٠٠ -

واحد الأسباط ، وهم أولاد اسرائيل اثنا عشر سبطاً ، كل سبط قبيلة هكذا فسر في التنزيل والله أعلم . وغلط العجاج أو رؤبة فقال - الشعر في أراجيز العجاج يصف تور وحش : (الأبيات) «^(١)» ، وفي العبارة الأخيرة إشارة الى تصنيف أراجيزه في ديوان خاص به ، الا أن هذه العبارة قد تكونت مزيدة على أصل الجمهرة من قبل بعض النساخ .

وفي القرن الرابع نجد إشارة الى ديوان العجاج في فهرست لابن النديم (٣٨٥ هـ) ، اذ أشار ابن النديم الى أن ديوان العجاج قد عمله كل من الأصمعي وأبي عمرو والشيباني^(٢) .

وفي القرن السادس يطالعنا ابن خيبر الأندلسي (٥٧٥ هـ) بنص جدّ حين عن ديوان العجاج ، فيقول : « أراجيز العجاج وابنه رؤبة بن العجاج : حدثني بها الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان النفزي عن خاله أبي محمد غانم ابن وليد الخزومي عن أبي عمر بن خيرون السهمي عن أبي القاسم أحمد بن أبان بن سيّد عن أبي علي البغدادي . وحدثني بها أيضاً الشيخ أبو الحسين عبد الملك بن محمد بن هشام رحمه الله عن الأستاذ أبي عبد الله محمد بن السيد النحوي عن أخيه أبي الحسن علي بن محمد عن الأستاذ أبي عبد الله محمد بن يونس الحنجاري عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن الأسلمية عن محمد بن أبان بن سيّد عن أبي علي البغدادي عن أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن رؤبة بن العجاج عن أبيه العجاج رحمه الله^(٣) » .

وفي القرن السابع نجد إشارة الى الديوان في وفيات الأعيان لابن خلكان (٦٨١ هـ) ، اذ يقول في ترجمة رؤبة : « هو وأبوه راجزات

(١) جهرة اللغة ٢٨٤/١

(٢) الفهرست ١٥٨

(٣) فهرسة ابن خيبر ٣٩٣

مشهوران ، كل منها له ديوان رجز ليس فيه شعر سوى الأراجيز ^(١) ، وهذه العبارة بتأنيدها في المقاصد النجوية للإمام محمود بن أحمد العيني (٨٥٥ هـ) ، وكشف الظنون لحاجي خليفة (١٠٦٧ هـ) ، مما يدل على أن الديوان كان معروفاً في القرن التاسع والقرن الحادي عشر ، وفي إشارة أخرى وردت لهذا القرن الأخير في خزنة الأدب للبغدادي (١٠٩٣ هـ) إذ يصبح رواية أحد النواهد للعجاج ثم يقول : « كما هو في ديوانه ^(٢) » .

فديوان العجاج كان معروفاً خلال هذه القرون الطويلة ، وقد حفظ لنا ابن النديم أنه صنف على يد الأصمعي (٣١٠ أو ٣١٣ هـ) ، وأبي عمرو الشيباني (٣٠٦ أو ٣١٣ هـ) ، ولا نعرف شيئاً عن ديوان الشيباني ، إلا هذه الإشارة التي أوردها ابن النديم ، أما ديوان الأصمعي فقد حفظ لنا ابن خيوط سنداً متصلاً لروايته حتى القرن السادس الهجري ، وأهم ما في هذا السند هو اتصاله بأبي علي البغدادي عن أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن رؤبة بن العجاج عن أبيه العجاج رحمه الله .

وقد حفظت لنا مكتبة « فائق » في استانبول نسخة من ديوان العجاج ، هي أقدم ما عثرنا عليه من نسخ ، وهي أصل لها جميعاً ، وهذه النسخة لم يحدد ناسخها شيئاً عن اسمه أو تاريخ نسخها ، ذلك لأنه بدأ بعد رجز العجاج برجز رؤبة ، وبذلك أصبح المكان المعتاد لوضع اسم الناسخ وتاريخ النسخ وما إلى ذلك في آخر رجز رؤبة ، إلا أن الناسخ لم ينجز نقله ديوان رؤبة ، أو أن هذا الديوان قد سقط وضاع من هذه النسخة ، فضاع حاكها يمكن أن يرشدنا بدقة إلى تاريخها واسم ناسخها .

(١) وفييات الأعيان ٦٣/٢ .

(٢) خزنة الأدب ٢٧٩/٤ .

ومع ذلك فدراسة الخط الذي رُسمت به ، تجعل من اليسير إلى حد ما ، أن يجد لها تاريخ على وجه التقريب ، فالخط مغربي قديم ، يرقى إلى القرن السادس الهجري ، وبذلك فتاريخ رسمها قريب جداً من تاريخ تدوين كتاب الفهرسة لابن خيوط ، وإذا طالعنا الورقة الأولى من الديوان ، وجدنا فيها : « سَفَرٌ في رجز العجاج عبد الله بن رؤبة بن ليث بن صخر التميمي رواية عبد الملك بن قزب الأصمعي رحمة الله عليه » .

وعنوان النسخة على هذا النحو واضح الدلالة على أنها من عمل الأصمعي ، ويؤكد ذلك أن الأصمعي أو كنيته « أبو سعيد » قد ورد بكثرة تلت النظر في شرح الأراجيز ، إلا أن هذا العنوان قد أغفل سند الرواية عن الأصمعي ، وهو نقص يمكن أن يُعَوَّض جانباً منه بما ورد في النسخة نفسها من عبارات تؤكد أنها من رواية أحد تلامذة أبي حاتم السجستاني عن أبي حاتم عن الأصمعي ، وبذلك تلتقي بالجزء الهام من الأسانيد التي أوردها ابن خيوط في فهرسته .

وهذه العبارات يمكن أن نسلکها في قسمين : الأول عبارات تفيد أن الرواية منقولة عن الأصمعي نفسه ، وهي أربع ، الأولى في الورقة (٣٠ / ب) وهي : « وأخبرنا الأصمعي » ، والثانية في الورقة (٣٧ / ب) وهي : « زعم الأصمعي » ، والثالثة في الأوراق (٥٢ / ب ، ٥٣ / ب ، ٥٦ / آ) ، وهي : « وأشهدنا أبو سعيد » ، والرابعة في الورقة (٥٦ / ب) ، وهي : « وقال أبو عمرو : فرغلة ، أراد ولد الضبع ، وقال الأصمعي : صف » ، ومن المحتمل أن يكون في العبارة الأخيرة تحريف بزيادة الواو في قوله : « وقال الأصمعي » ، إذ لو حذفت هذه الواو لكانت العبارة تعبيراً من الأصمعي على قول استاذة أبي عمرو .

والقسم الثاني من هذه العبارات فيه ما يؤكد رواية النسخة من قبل أبي حاتم عن الأصمعي وهي فان : الأولى في الورقة (٢٦ / آ) وهي : « قال أبو حاتم : سمعتني عن الأصمعي : من طول ما نُسِجَ المِثَالِكَا » ، والثانية في الورقة (٨٨ / آ) وهي : « قال أبو حاتم : سمعت من الأصمعي قال : تسبج ، ليس القميص .. » ، والثالثة في الورقة (٩٠ / آ) وهي : « وروى : بطن قَوْرَعَرَفَتِجَا . قال أبو حاتم : أنشدني الأصمعي : بطن قَوْرَعَسِجَا » ، والرابعة في الورقة (٩١ / ب) وهي : « قال أبو حاتم : سألت الأصمعي ، فقال نُسِجَ تَوْتَر » ، والخامسة في الورقة (٩٣ / ب) وهي : « قال أبو حاتم : قال الأصمعي : المَثْرُجُ الواسعة الفروج » ، والسادسة في الورقة (٩٣ / ب) وهي : « قال أبو حاتم : كل الأصمعي ينشد : ترى نليله .. » ، والسابعة في الورقة (٩٨ / ب) وهي : « ونبأه : أضحكه . والقيدم : مامر من السنين . قال أبو حاتم : سمعت الأصمعي عن خلف الأحمر وبيك قريش » ، وأما أضحكك فعن ابن عباس ، « والثامنة في الورقة (١١٣ / آ) وهي : « قال أبو حاتم : إن تَكْبِرَ عَا فَهِيَ تَكْرَابِيَّةٌ » .

هكذا قرأته على الأصمعي .

فهذه العبارات تؤكد رواية النسخة من قبل أبي حاتم عن الأصمعي ، وفي المصادر ما يشير أيضاً إلى قراءة أبي حاتم رجز العجاج ، أو بعض رجزه على الأصمعي ، ففي المزهري : « وقال أبو حاتم أيضاً : قرأت على الأصمعي رجز العجاج حتى وصلت إلى قوله : جاباً ترى بلبته مسجاً »^(١) ، وفي الخصائص : « قال أبو حاتم : قرأت على الأصمعي في جيمة العجاج : جاباً

(١) المزهري ٢/ ٣٧٥ .

ترى بلبته مسجاً»^(١) .

فمن الثابت أن أبا حاتم هو الذي روى نسخة الديوان التي بين أيدينا عن أستاذه الأصمعي ، وإذا كانت أسانيد ابن خنير تجعل أبا بكر بن دريد هو الذي نقل رواية الديوان عن أبي حاتم ، ففي جبهة اللغة ما يؤكد ذلك ، إذ نجد ابن دريد يسأل أبا حاتم عن رجز العجاج في مسائل أوجز الأصمعي في شرحها ، ومن ذلك قول العجاج حسب رواية المجهرة^(٢) :

يَحْوِزُهُنَّ وَلَهُ حُوزِي كَمَا يَحْوِزُ الْفَيْثَةَ الْكُتَيْبِي

قال ابن دريد : « وروى (حوزي ، كما يحوز) ، وسألت أبا حاتم عن قوله (وله حوزي) ، قال حاز من قلبه مزجج »^(٣) . ولم يتطرق الأصمعي إلى شرح ذلك في البيت ، بل اكتفى بقوله : « ويجوز : يسوق ويطرد » .

ويبدو أن ابن دريد قد أنقل على أستاذه في هذه الأسئلة ، يبدل على ذلك قوله : « قال أبو عبيدة وقد روى بيت العجاج^(٤) :

وَحَسَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثَّبِيَّتْ

(وأوحى لها) أيضاً . قال أبو بكر : سألت أبا حاتم عن هذا فضج ، فقال : لا تزال تسألني عما أكره »^(٥) ، ثم شرح أبو حاتم لتلميذه ابن دريد قول أبي عبيدة ورأيه في شرح الروايتين ، ذلك لأن الأصمعي قد أورد الروايتين ولكنه أوجز في شرحه ، ولم يوضح الفارق بينهما .

فابن دريد كان حريصاً على تقديم رجز العجاج من أستاذه ، ولكنه كما

(١) الخصائص ١/ ٣٦٦ ، ومثله في نزهة الألباء ٢٥٤ .

(٢) الأرجوزة ٢٥/ ١٧٨ ، ١٨٠ .

(٣) جمهرة اللغة ١/ ١٥١ .

(٤) الأرجوزة ٢٢/ ٥٠ - ٥١ .

(٥) جمهرة اللغة ٢/ ١٩٨ .

سنرى لم يصف الى شرح الاصمعي الا "أشياء يسيرة نقلها هو عن أبي حاتم ، أو أضافها أو حاتم نفسه ، وهي لاتعدو عدة مواضع محددة لدينا معروفة ، وذلك لأنه قدم قبلها ما يشير الى اضافتها .

ويبدو لنا أن رجز العجاج قد رواه عن الاصمعي بعض تلامذته غير أبي حاتم السجستاني ، وينبغي هنا ألا نعتبر سند ابن خنير هو السند الوحيد لرواية ديوان العجاج عن الأصمعي ، إذ كان الأصمعي يقرئ هذا الديوان لتلامذته ، وليس في أيدينا من الأدلة على ذلك الا ما أورده ابن جني بسنده عن أبي عبد الله الزبدي قال : « حدثنا الخليل بن أسد النوشجاني قال : قرأت على الأصمعي هذه الأرجوزة :

باصاح على تعرف رسماً مكرساً

الى آخر الخبر .. (١) .

فالأصمعي كان يقرئ رجز العجاج لتلامذته ، وإذا كان الخليل بن أسد النوشجاني قد قرأ هذه الأرجوزة على الأصمعي ، فلا شك أن تلامذة آخرين قد قرأوا على الأصمعي ديوان العجاج كاملاً مع أبي حاتم السجستاني ، ومنهم مشاهير أمثال عبد الرحمن بن أخي الأصمعي ، وأبي الفضل العباس بن الفرج الرياشي ، وأبي اسحق إبراهيم بن سفيان الزبدي .

والذي جعلنا نرجح هذا الاحتمال ، ونبرز أسماء هؤلاء الثلاثة من تلامذة الأصمعي ، أمران : الأول ما نلاحظه في نسخة الأصل من ديوان العجاج الذي بين أيدينا ، والثاني ما نلاحظه في كتب الأدب واللغة والتراجم من ملاحظات تؤيد ذلك .

(١) الخصائص ١/ ٣٦٠ .

ففي نسخة الأصل وردت حواش كثيرة أضيفت اليها بخط يختلف عنها لربنا وطريقة ، وهو خط مغربي قريب من خط الأصل الا أنه أحدث منه زمناً ، وهذه الحواشي منها ما كان شروحاً لغوية ، ومنها ما كان إشارة الى روايات أخرى للأبيات ، وفي نهاية الأرجوزة (٤٢) ورد بخط الحواشي نفسه : « بلغت المقابلة من أوله الى آخره بالكتاب الذي قرئ على ابن أخي الأصمعي رحمه الله فصح محمد الله تعالى وعونه وصلى الله على محمد نبيه » .

وهذه الحاشية الأخيرة يمكن أن تشير الى أن صاحبها قد قابل نسخة الأصل بنسخة من ديوان العجاج قُرئت على عبد الرحمن بن أخي الأصمعي ، ونقل عنه بعض ما لاحظته من اختلاف في الرواية أو نقص في الشروح ، وهذا أمر نسلم به تماماً ، الا أن المقابل لم يلتزم بالإشارة الى عبد الرحمن بن أخي الأصمعي في نقل الروايات المخالفة ، ولما أشار أيضاً بدقة واستقصاء الى روايات أخرى تخص الرياشي ، وثالثة تخص الزبدي ، وكان يمكن أن نذهب الى أن فقه تحريفاً بين « الرياشي » و « الزبدي » ، إذ أن المقابل قد أشار الى عبد الرحمن (٢١) مرة ، وأشار الى الزبدي (٤) مرات فقط . ولكن هذا الاحتمال ينفيه أن المقابل كان يميز بين رواية كل من الثلاثة ، فإذا اتفقت رواية عبد الرحمن والرياشي رسم الى جانبها « صح لها » وجاء هذا في (٧) مواضع ، أو رسم كلمة « صحا » وجاء هذا في (٤) مواضع ، وقد نص في موضعين على اختلاف رواية الرياشي وعبد الرحمن معاً عن رواية الزبدي ، ففي الأصل ورد البيت (٧) من الأرجوزة (٥) على هذا النحو :

هشمتك حويي السيد أركا

والى جانب (أركا) رسم المقابل : « صح زبدي » مشيراً الى أن روايته كرواية الأصل ، ثم رسم فوقها : « الراسكا : صح لها » إشارة الى

لأنها رواية الرياشي وعبد الرحمن ، وكذلك الأمر في البيت (٧٠) من الأرجوزة (٣٤) إذ ورد في الأصل :

فَعَادَ مِنْهُ رَحْمَةً وَعَارَا

وتحت كلمة « رحمة » رسم المقابل « صح لها » إشارة إلى أنها أيضاً رواية الرياشي وعبد الرحمن ، ورسم فوقها : « أُنْقَصَ - صح زيادي » . وهذا يدل دلالة قاطعة على أنه لا تحريف بين « الرياشي » و « الزيادي » في الإضافات المقابل ، فكل منها كان مقصوداً بذاته ، ولا سيما أن المقابل قد أشار إلى أن رجز العجاج قد قرئ على الرياشي ، وعلى عبد الرحمن بن أخي الأصمعي ، كما أشار أيضاً إلى وجود كتاب للزيادي يضم رجز العجاج .

فقد أُلحق حاشية بشرح البيت (٤٩) من الأرجوزة (١) يقول فيها : « وقرئ على الرياشي : من كوكب العين » ، ورسم حاشية إلى جانب البيت (١٠٨) من الأرجوزة (٣٣) يقول فيها : « قرئ على الرياشي : ولم تعوج رسم من تعوجا » . مما يدل على أن هذا الرجز كله قرئ على الرياشي ، ويؤيد ذلك ما تتبَّعُه المقابل من رواية الرياشي لأراجيز الديوان جميعاً ، ولا يكون هذا التتبع إلا عن كتاب يجمع ديوان العجاج برواية الرياشي عن الأصمعي . وفي شرح البيت (٤١) من الأرجوزة (٢٠) قال الأصمعي : « المهور : المكان الملمس من الأرض » ، ورسم المقابل حاشية إلى جانب هذا الكلام فقال : « واحد هير ، هكذا في الكتاب الذي قرئ على ابن أخي الأصمعي » ، وهذه الحاشية قديمة جداً لأنها تشير إلى أن كتاب ابن أخي الأصمعي قد نقل عن الأصمعي الأراجيز والشرح معاً .

والى جانب البيت (٢١) من الأرجوزة (٢١) رسم المقابل حاشية يقول فيها : « في كتاب الزيادي : لا أشتُم الحر البريء المسلما » . ويمكن

أن ينهب بنا الظن إلى احتمال أن يكون كتاب الزيادي هذا كتاباً لغريباً ورد فيه هذا الشاهد ، أو بعض أبيات من رجز العجاج ، ولكن هذا ينبغي نفيّاً قاطعاً أن المقابل قد أضاف إلى نسخة الأصل الأرجوزتين المخطوتين (٤٣) و (٤٤) نقلاً عن كتاب الزيادي نفسه ، إذ قال في التقديم لها : « وقال العجاج في رواية أبي اسحق الزيادي » ، وهذا يشير بوضوح إلى أن كتاب الزيادي ، إن هو إلا « ديوان العجاج » وشترحه ، نقله الزيادي عن أستاذه الأصمعي كما نقله أبو حاتم السجستاني ، والرياشي ، وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي .

وأمام هذه الأدلة لا نجد ما يمنع أن يكون رجز العجاج قد نُقل عن الأصمعي عن طريق تلامذته هؤلاء جميعاً ، ولم تنقل لنا المصادر إلا « سنداً متصلاً » بآبي حاتم في فهرسة ابن خير ، ولم يحفظ لنا الزمن إلا « نسخة برواية أبي حاتم عن الأصمعي » .

والذي يجعلنا نزداد يقيناً بهذا الاحتمال ، هو أن هؤلاء جميعاً من أبرز تلامذة الأصمعي ، وأكثرهم رواية لكتبه ، فأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (٢٥٥ هـ) كان كثير الرواية عن أبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي ، وكان عالماً باللغة والشعر ^(١) ، وقد روى كثيراً من كتب الأصمعي ومصفاته من دواوين الشعراء ^(٢) . والرياشي أبو الفضل العباس بن الفرج (٢٥٧ هـ) كان كثير الرواية عن الأصمعي وغيره ، إلا أنه قال : « تحفظت كتب أبي زيد ودرستها ، إلا أنني لم أجالسه مجالسة للأصمعي ، وأما كتب الأصمعي فاني حفظتها لكتوة ما كانت ترد على سمعي لطول مجالستي له ^(٣) » ، وكان

(١) انظر الفهرست ٥٨ ، وأخبار النحويين البصريين ٩٣ ، وافية الوعاة ٢٦٥ ، ومراتب النحويين ٨٠ ، وطبقات النحويين ١٠٠ ، ونزهة الألباء ٢٥١ .
(٢) انظر فهرسة ابن خير ٣٤١ و ٣٧٥ و ٣٨٩ و ٣٩٣ و ٣٩٤ و ٤٠٢ .
(٣) طبقات النحويين ١٠٣ - ١٠٤ .

عالمًا بالشعر واللغة والنحو وكان مقدماً على أبي حاتم عند أهل البصرة^(١). والزيادي أبو اسحق إبراهيم بن سفيان (٢٤٩ هـ)، وكان نحوياً لغوياً راوية، وقد روى عن أبي عبيدة والأصمعي وكان يشبهه به في معرفة الشعر ومعانيه^(٢). وعبد الرحمن بن عبد الله بن قُرَيْب^(٣) روى عن عمه الأصمعي علماً كثيراً، وكانت كتب الأصمعي بين يديه، وربما حكى عنه ما يجيده في كتبه من غير أن يكون سمعه من لفظه، وهو ثقة فجا يرويه عن عمه وعن غيره من العلماء^(٤).

فهم جميعاً من تلامذة الأصمعي النابهن، ولا يبعد أن يكونوا جميعاً قد نقلوا عنه ديوان العجاج، ولا سيما أن لغة دواوين أخرى أمكن أن نجد لأسانيدنا عن الأصمعي أكثر من تلميذ واحد، ومنها مثلاً أشعار هذيل وقد رواها عن الأصمعي كل من أبي حاتم والرياشي^(٥). وشعر طفيل الغنوي، وقد رواه عن الأصمعي كل من أبي حاتم وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي^(٦). وهذا يرجح أيضاً أن يكون رجز العجاج قد رواه عن الأصمعي كل من الرياشي والزيادي وعبد الرحمن بالإضافة إلى رواية أبي حاتم، وذلك لما رأيناه من أدلة مختلفة تؤيد هذا الاحتمال، وإذا كانت لم تتيسر لنا إلا نسخة من رواية أبي حاتم عن الأصمعي، فقد حُفِظَت لنا بعض الروايات

(١) انظر طبقات النحويين ١٠٥، والفهرست ٥٨، وأخبار النحويين البصريين ٨٩، ونفحة الوعاة ٢٧٥، ونزهة الألبا ٢٦٢.
(٢) انظر نفحة الوعاة ١٨١ والفهرست ٥٨، وأخبار النحويين البصريين ٨٨، ونزهة الألبا ٢٦٩، وطبقات النحويين ١٠٦.
(٣) لم أقف على سنة وفاته، وكان حياً حوالي ٢١٦ هـ، انظر معجم المؤلفين ١٤٨/٥.
(٤) انظر مراتب النحويين ٨٢، ونفحة الوعاة ٢٩٩، وطبقات النحويين ١٩٧، والفهرست ٥٦، وفهرسة ابن خير ٣٧٥.
(٥) فهرسة ابن خير ٢٨٩.
(٦) فهرسة ابن خير ٢٩٢.

للسنخ الأخرى فيما ورد من إضافات على حواشي نسخة الأصل. وكان يمكن أن نضيف هذه الحواشي إلى متن الأصل نفسه، لولا أنها تضم أيضاً بعض الروايات دون تحديد لأصحابها، وتضم شروحات لغوية كثيرة منها ما يظهر عليه أنه منقول عن كتاب عبد الرحمن بن أخي الأصمعي، ومنها ما يبدو أنه منقول عن كتب لغوية مختلفة، وليس من الميسر التمييز دائماً بين هذا وذلك ولذلك كان لابد من وضع هذه الإضافات جميعاً في حاشية التحقيق، دون أن تخلط بالأصل.

والمهم أن الأصمعي هو الذي روى ديوان العجاج^(٧) وشرحه، ومن واجبتنا أن نقف رويداً عند صانع هذا الديوان، قبل أن نتجه إلى دراسة طريقته في شرحه وتفسيره.

والأصمعي هو عبد الملك بن قُرَيْب ويكنى أبا سعيد، واسم قُرَيْب عاصم بن عبد الملك بن أصمَّع بن مطهر بن رياح بن عمرو بن عبد الله الباهلي^(٨)، وكانت من أهل البصرة، ثم قدم بغداد أيام هارون الرشيد^(٩)، وقد اجتمع له من الأخلاق والصفات ما جعله أهلاً لمجالسة الرشيد ومنازحته، فلم يكن الأصمعي من أصحاب الأهواء، وكان في ذلك يشبه أبا عمرو بن العلاء والحليل بن أحمد ويزن بن حبيب^(١٠)، وكان صدوقاً في الحديث^(١١)، يثني

(١) أخبار النحويين البصريين ٥٨، ونفحة الوعاة ٣١٣، وأنباء الرواة ١٩٧/٢، فانظر: نزهة الألبا ١٥٠، ونفحة الوعاة ٢١٣، وأنباء الرواة ١٩٧/٢، واللباب في تهذيب الأنساب ٥٦/١، ولب الألباب ١٧، والفهرست ٥٥، وروحات الجنات ٤٥٨، وطبقات النحويين ١٨٣، وتقريب التهذيب ٥٢١/١، وجمهرة أنساب العرب ٢٤٥، ومراتب النحويين ٤٦.
(٢) أنباء الرواة ١٩٨/٢.
(٣) نزهة الألبا ١٧١.
(٤) نزهة الألبا ١٥٠.

عليه بالثقة أكبر علماء الحديث أمثال الشافعي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين^(١)، ولم يشكهم الأصمعي في شيء من دينه^(٢)، وكان يفتي أن يفسر الحديث أو يفسر القرآن^(٣)، بل كان لا يفسر شيئاً من اللغة له نظير أو اشتقاق في القرآن وكذلك الحديث تخرجاً، وكان لا يفسر شعراً فيه هجاء، وكان صدوقاً في كل شيء^(٤).

وكان الأصمعي إلى ذلك كله وفياً في صداقته للناس، إذ نقل الزبيدي بسنده عن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن أخي الأصمعي قال: «سمعت عمي يقول: أرسل إلي هارون الخليفة فدخلت عليه، فإذا هو على كرسي يجالس، والفضل بن الربيع على كرسي، وإذا بنطع مبسوط عليه رجل مقبول، فجلست. قال: فقال لي الفضل بن الربيع: يا عبد الملك، هذا جعفر قد أخزاه الله. قال: فسكت. قال: فقال هارون: قم. فقامت. وسمعت عمي يقول: سمعت هارون يقول: ما رأيت أوفى من الأصمعي بعد، ما ذكرت جعفر لأحد إلا دعا عليه أو شتمه إلا الأصمعي^(٥)». وهذه الأخلاق والصفات تجعل باطلاً ما يروى عن أبي عبيدة تنسب الأصمعي إلى الكذب^(٦)، ذلك لأن السيرافي ذكر أن أبا عبيدة والأصمعي كانا يتقاربان كثيراً ويقع كل واحد منهما في صاحبه^(٧)،

- (١) نزعة الألبا ١٧١ - ١٧٢، وروضات الجنات ٤٦١، وطبقات النحويين ١٨٤ و ١٩٢، وتقريب التهذيب ٥٢٢/١.
- (٢) طبقات النحويين ١٨٨.
- (٣) بنية الوعاء ٣١٣.
- (٤) مرآب النحويين ٤٨، وانظر أخبار النحويين ٦٠، ونزعة الألبا ١٧٠.
- (٥) طبقات النحويين ١٨٥.
- (٦) انظر الفهرست ٥٥.
- (٧) أخبار النحويين ٦٩.

ونقل الأنباري شيئاً من أخبار هذه المقارعة^(١)، وقال أبو الطيب اللغوي: «فأما ما يحكيه العوام وسفكاط الناس من نوادر الأعراب، ويقولون: هذا ما فعله الأصمعي، ويحكون أن رجلاً رأى عبد الرحمن ابن أخيه فقال: ما فعل عمك؟ فقال: قاعد في الشمس يكذب على الأعراب، فهذا باطل ما خلق الله منه شيئاً، ونعوذ بالله من معرفة جهل قائله، وسقوط الخائضين فيه. وكيف يقول ذلك عبد الرحمن ولولا عمه لم يكن شيئاً! وكيف يكذب عمه وهو لا يروي شيئاً إلا عنه! وأنسى يكون الأصمعي كما زعموا ولا يفتي إلا فيما أجمع عليه العلماء، ويقف عما يتفردون به عنه، ولا يجوز إلا أفصح اللغات، ويكسح في دفع مساوئه^(٢)».

وهذا كله إنما أحاط بالأصمعي خصوصاً كانت بينه وبين أقرانه من معاصريه أمثال أبي عبيدة وأبي زيد^(٣)، وأما ما ينسب إليه من نوادر وأساطير فذلك لشهرته الواسعة في حياته أو بعد وفاته.

فالأصمعي صدوق ثقة فيما يرويه، وأكثر روايته كانت عن الأعراب، قال السيرافي: «وأكثر سماعه من الأعراب وأهل البادية، حدثنا أبو بكر ابن السراج قال حدثنا أبو العباس المبرد قال: قال الأصمعي: رأيت أعرابي وأنا أكتب كل ما يقول، فقال: ماتدع شيئاً إلا تَمَسَّسْتَهُ، أي ثقته. وقال له بعض الأعراب وقد رآه يكتب كل شيء: ما أنت إلا العفظة، تكتب لفظ اللفظة. وقال له آخر: أنت حنف الكلمة الشرود^(٤)».

ولعل اتصاله الوثيق بالأعراب، وأخذه عن الثقاة أمثال أبي عمرو بن

- (١) نزعة الألبا ١٦٧ - ١٦٨.
- (٢) مرآب النحويين ٤٩.
- (٣) انظر مرآب النحويين ٥٠.
- (٤) أخبار النحويين البصريين ٦٦ - ٦٧، وانظر الفهرست ٤٧.

العلامة^(١)، كان من الأسباب التي جعلت من لسانه لساناً طلقاً فصيحاً ، حتى قال الشافعي رحمه الله : « ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبادة الأصمعي^(٢) » ، وروى الرياشي قال : « سمعت عمرو بن مرزوق يقول : رأيت الأصمعي وسيبويه يتناظران ، فقال يونس : الحق مع سيبويه وهذا يغلبه بلسانه في الظاهر ، يعني الأصمعي^(٣) » .

والأصمعي في نقله عن الأعراب كان يكتب ويدون كل ما يسمعه ، إلا أن ذاكرته لم تكن دون كتابته في الحفاظ على ما يسمعه من لغة أو غريب أو أخبار مختلفة ، وقد نُقِلَ عن ذاكرة الأصمعي من الأخبار ما يشبه الأساطير ، ولكنه مع ذلك لا يتروى إلا الحقيقة^(٤) ، إذ كانت ذاكرة الأصمعي تنسج لأكثر ما نُقِلَ إلى عصره من تراث العرب ، فقد نُقِلَ السرياني بسنده عن ابن الأعرابي قال : « شهدت الأصمعي وقد أُنشد نحواً من مائتي بيت ما فيها بيت عرفاه^(٥) » ، ولهذا كان عمر بن شبة يقول : « سمعت الأصمعي يقول : أحفظ عشرة آلاف أرجوزة^(٦) » وفي رواية أخرى : « ستة عشر ألف أرجوزة^(٧) » ، ونقل أبو الطيب اللغوي بسنده عن أبي حاتم قال : « كان الأصمعي أروى الناس للرجز ، سمعت بسخرانياً كان قد طاف بنواحي خراسان يسأله ، فقال له : أخبرني فلان بالري أنك تروي اثني عشر ألف أرجوزة . فقال : نعم ، أروي أربعة عشر ألف

- (١) انظر بعض اساتذته في بنية الوعاء ٣١٣، وانباه الرواة ١٩٨/٢ .
- (٢) نزهة الألبا ١٦٩ ، وبنية الوعاء ٣١٣ ، وروضات الجنات ٤٥٨ و ٤٦١ ، وفي الروضات : « ما عبر أحد من العرب » .
- (٣) نزهة الألبا ١٦٩ ، وبنية الوعاء ٣١٣ .
- (٤) انظر نزهة الألبا ١٦٧ - ١٦٨ .
- (٥) أخبار النحويين البصريين ٦٠، ونقله الأتباري في نزهة الألبا ١٥٤ .
- (٦) نزهة الألبا ١٥١ .
- (٧) بنية الوعاء ٣١٢ ، وروضات الجنات ٤٦١، وانباه الرواة ١٩٨/٢ .

- ١١٤ -

أرجوزة . فصجبت ، فقال لي : أكثرها فصار . فقلت : اجعلها بيتاً بيتاً ، أربعة عشر ألف بيت !

وأما في رواية الرياشي فيما كتب اليّ أبو روق الهزلي ، قال : سمعت الرياشي يقول : سمعت الأصمعي يقول : أحفظ اثنتي عشرة ألف أرجوزة ، فقال له رجل : منها البيت والبيتان ، فقال : ومنها المائة والمائتان .

حدثنا جعفر بن محمد قال : أخبرنا علي بن ذكوان عن المازني قال : قلت للأصمعي : أنك لتحفظ من الرجز مالا يحفظه أحد . فقال : إنه كان ههنا وسدنا . قال اللغوي : والسدّ ههنا الخرص^(١) .

فذاكرة الأصمعي نادرة في انتاج ما تحفظه من أشعار العرب وأخبارها ، وصلة الأصمعي بأراجيز العرب صلة جدّ وثيقة ، ولذلك كان يحفظ وجز العجاج وروية ، يدل على ذلك ما نقله المرتضى في خبّر أول لقاء بين الأصمعي والرشد ، وفيه يقول الأصمعي : « قال لي الرشد : أصبت ، ثم قال : أتروي لرؤية بن العجاج والعجاج شيئاً ؟ فقلت : هما شاهدان لك بالقوافي وانت شئيبا عن بصرك بالأشخاص^(٢) » ، ثم طلب إليه ، فأثبته بعض أراجيز رؤبة .

واتصاه بالرجز عامة ، وحفظه لأراجيز رؤبة والعجاج خاصة ، جعله هو نفسه يقول للرجز^(٣) ، وأدى به أيضاً إلى تصنيف كتاب الأراجيز^(٤) ، وهذا كله يشير إلى مدى اهتمام الأصمعي بالرجز ، ويؤكد مرة أخرى صغره لديزان العجاج وشرحه له وعتابه به ، وهذه الصلة بالرجز من ناحية ، وبالأعراب

- (١) مراتب النحويين ٥٧ ، وانظر طبقات النحويين ١٨٥ و ١٨٨ .
- (٢) أمالي المرتضى ٩٨/٢، ونقله ابن عديريه في العقد الفريد ١٦١/٦ .
- (٣) انظر كتاب الورقة ٣١ - ٣٢ .
- (٤) بنية الوعاء ٣١٤ ، وانباه الرواة ٢٠٤/٢ ، والفهرست ٥٥ ، وروضات الجنات ٤٦١ .

- ١١٥ -

من ناحية أخرى ، جعلت للأصمعي شهرة واسعة في معرفة الغريب واللغة ، بل جعلته صاحب ملح ونواد وأخبار لكثرة ما كانت يجالس من أعراب البادية .

وكان يوصف دائماً باتساع بابه في اللغة والغريب والنواد والأخبار وقد يوصف أيضاً بأنه صاحب نحو ، ولكنه في هذا دون أبي زيد الأنصاري وفوق أبي عبيدة معمر بن المثنى ، ولذلك قال السيوطي : « أبو سعيد الأصمعي البصري اللغوي أحد أئمة اللغة والغريب والأخبار والملح والنواد » . قال ابن معين : ولم يكن من يكذب ، وكان أعلم الناس في فنه ^(١) ، ونقل أبو الطيب اللغوي عن الفراء قوله : « ذاك أعلمهم بالشعر ، وأتقنهم للغة ، وأحضرهم حفظاً » ^(٢) ، وقال محمد بن داود : « بصري راوية للشعر والغريب موثوق به في الحديث » ^(٣) ، وقال الأنباري : « وكان صاحب النحو واللغة والغريب والأخبار والملح » . ويقال : كان الرشيد يسميه شيطان الشعر . وقال الأخفش : ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي وخلف ! فقلت : أيها كان أعلم ؟ فقال : الأصمعي لأنه كان نحوياً . وقال أبو العباس محمد ابن يزيد المبرد : كان أبو زيد صاحب لغة وغريب ونحو ، وكان أكثر من الأصمعي في النحو ، وكان أبو عبيدة أعلم من أبي زيد والأصمعي بالأنساب والأخبار والأخبار ، وكان الأصمعي يد غراء في اللغة لا يعرف فيها مثله وفي كثرة الرواية ، وكان دون أبي زيد في النحو ^(٤) .

وهذا كله إنما يفسر اهتمام الأصمعي برجز العجاج ، وبما بقي ضوءاً على

(١) بغية الوعاة ٣١٣ ، ومثله في روضات الجنات ٤٥٨ .

(٢) مراتب النحويين ٤٨ .

(٣) كتاب الورقة ٣٠ .

(٤) نزهة الألبا ١٥١ - ١٥٢ ، وتنقل كلام المبرد بروايات متقاربة في أخبار النحويين ٥٩ ، وانباء الرواة ٢٠١/٢ ، والفهرست ٥٥ ، وأخبار النحويين ٦٨ .

طريقته في شرح هذا الرجز ، وقد ترك الأصمعي مصنفات عديدة جداً ^(١) ، وجمع دواوين كثير من الشعراء ، والذي يمتنا من مصنفاته كتاب الأراجيز السابق ذكره ، وكتاب الأمثال ^(٢) ، وهذا الكتاب يمكن أن يوضح السبب لاهتمام الأصمعي بالأمثال في شرحه للديوان .

وقد عثر الأصمعي فبلغ ثانياً وثلاثين في بعض الروايات ، أو بلغ إحدى وتسعين في روايات أخرى ، وتوفي رحمه الله بالبحرة سنة (٥٢١٣) وقيل سنة (٢١٠ أو ٢١٢ أو ٢١٥ أو ٢١٦ أو ٢١٧) على خلاف . في ذلك ، وتفرد الزبيدي فذكر أنه توفي بربو خراسان ^(٣) .

٢ - شرح الديوان

في البحث السابق تأكد أن ديوان العجاج من عمل الأصمعي ، وأنت شرحه أيضاً من عمل الأصمعي نفسه ، ونود هنا أن نزيد ثقله في نسبة الشرح إلى الأصمعي ، لا لأننا نجد مجالاً للشك ، ولكن دفعاً لكل تشكك أو ريب في ذلك ، ولا سيما أن هذا الشرح من أقدم الوثائق التاريخية للشروح في مكتبتنا العربية .

— وأهم ما يؤكد أن الشرح للأصمعي نفسه ، كثرة ما نقل عنه من عبارات حرفية أو شبه حرفية عزيت للأصمعي في كثير من المصادر المختلفة ، وقد أشرنا في تحقيق الديوان إلى العديد من هذه العبارات ، وحسبنا هنا أن نورد بعض الأمثلة التي توضح ذلك .

(١) انظر بغية الوعاة ٣١٤ ، وانباء الرواة ٢٠٣/٢ ، وروضات الجنات ٤٦١ ، وفهرست ابن خير ٣٧٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ .
(٢) فهرسة ابن خير ٣٤٠ - ٣٤١ .
(٣) طبقات النحويين ١٩٢ .

فقد أنشد البكري (٤٨٧) بيت العجاج :
والشَّدَّيَاتِ يَسَافِطُنَ الشَّعْرَ
ثم قال : « قال الأصمعي : أنا يقال : فاقة ماحمكتْ نَعْرَةً قط ،
ولا يقال طَرَحَتْ نَعْرَةً » (١) .
وهذه العبارة منقولة حرفياً عن شرح الديوان ، وفيه : « قال الأصمعي :
ليس أحد يقول : يَسَافِطُنَ الشَّعْرَ ، ولا طَرَحَتْ نَعْرَةً » ، إنما يقال :
فاقة ماحملت نعرة قط » (٢) .
وأنشد البكري أبيات العجاج
رَحَلْتُ مِنْ أَهْصَى بِلَادِ الرُّحُلِ مِنْ قُلُوبِ الشَّجَرِ فَتَجَنَّبِي مَوْكِلَ
ثم قال : « قال الأصمعي : (مَوْكِل) . أظنه حصناً بجزموت » (٣) .
وفي شرح الديوان : « وجني موكل : أظنه حصناً بجزموت » (٤) .
وقال البكري : « كايه : بكسر الباء ، بعدها دال مهملة ، على لفظ
فاعل : موضع في شق ديار بني تميم ، قاله الأصمعي . وأنشد للعجاج :
وَلَيْسَتْ مِنَ اللَّيَالِي مَرَّتْ سَاعِدُهَا بِكَابِدٍ وَجَرَّتْ
كَكَلِكَلَتْهَا لَوْلَا الْإِلَهُ ضَرَّتْ
وقال مرة أخرى : « (بكابيد) أي بكابدة شديدة ومشقة ، كذا
نقله قاسم بن ثابت » (٥) .

(١) معجم ما استعجم ٧٨٤/٣ .

(٢) شرح الأرجوزة ٦٣/١ .

(٣) معجم ما استعجم ٧٨٣/٣ .

(٤) الأرجوزة ٥٠/١٢ .

(٥) معجم ما استعجم ١١٠٧/٤ وقاسم بن ثابت بن حزم اندلسي توفي
بسرقة سنة (٣٠٢ هـ) .

وفي شرح الديوان : « بكابد ، يقول : بأمر يكابدي . وكابيدها :
شأنها . وقال مرة أخرى : (بكابد) ، كأنه موضع في شق بني تميم ،
يقال له : كابد » (١) .
وقال البكري : « صَعْفُوقَة : قرية بالهامة ، كان ينزلها خَوَلُ
السلطان ، قاله الأصمعي ، قال : وخَوَلُ بالهامة يقال لهم الصعافقة ، كان
بنو مروان سيروهم ثمة . وإياهم أراد العجاج بقوله :
مِنْ آلِ صَعْفُوقٍ وَأَنْبَاءٍ أُخَرِ
صَعْفُوق : مفتوح الأول ، ولم يأت منه في الكلام إلا مضموم
الأول » (٢) .
وهذا نقل لا يخلو من تصرف ، عن شرح الديوان ، وعبارة الشرح :
« صَعْفُوق : مفتوح الأول ، لم ييء منه في الكلام إلا مضموم الأول
نحو دُحُوب ، وصَعْفُوق : قوم كانوا يخدعون السلطان ، خَوَلُ بالهامة
يقال لهم الصعافقة ، كان معاوية بن أبي سفيان أو آل مروان بن الحكم
صيروهم ثمة ، لا أدري ما أصله ، والصعافقة : قرية بالهامة كان ينزلها خَوَلُ
السلطان » (٣) .
ويمة أمثلة أخرى في اللسان ، ومن ذلك أن ابن منظور أنشد قول
العجاج :

قَدْ أَفْقَرَتْ غَيْرَ الظُّلُمِ الْأَصْعَلِ

ثم قال في شرحه : « الأصمعي : قوله (أصعل) هكذا يروي ،

(١) الأرجوزة ٢٤/٢٢ .

(٢) معجم ما استعجم ٨٣٣/٣ .

(٣) شرح الأرجوزة ٣١/١ .

فأما كلام العرب فهو (صَعَلٌ) بغير ألف^(١) .
وهذا نقول شبه حرفي عن شرح الديوان ، وفيه « قال أبو سعيد:
ولم أسمع (الأصعل) إلا ههنا والصعل هو الكلام^(٢) » .

وأشد ابن منظور أيضاً قول العجاج :
بَعْدَ الَّذِي عَدَا الْقُرُوصَ فَحَزَرَ
ثم قال في شرحه : « وقال الأصمعي وحده : إذا حذى اللسان فمر
قارص^(٣) » .

وفي شرح الديوان : « والقارص : اللّين الذي يجذبي اللسان^(٤) » .
وهذا النقل الحرفي أو شبه الحرفي لعبارة الديوان ، وعزوها إلى
الأصمعي ، لما يدل دلالة قاطعة على أن هذا الشرح للأصمعي نفسه ، وليس
من السائغ أن يقال أنه نقل عن كتب الأصمعي ، ذلك لأنه نقل حرفي
عن الديوان أحياناً دون زيادة أو نقصان .

وقد أورد البكري أيضاً ثلاث إشارات في كتابه « محط الكلي » ،
تدل دلالة قاطعة على أن الشرح للأصمعي ، وتقيد أن هذا الشرح قد نقل
عنه كل من أبي حاتم وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي .

فقد روى البكري بيت العجاج^(٥) :

تَوَاضَعُ التَّقْوِيرُ قَلْبُواً مِجْلَجاً

ثم قال في شرحه : « والقيس : الخفيف . والحليج : الشديد الملمع ،

هكذا رواه أبو حاتم عن الأصمعي^(١) . وهذا الشرح موجود حرفياً في
الديوان .

وأشد البكري أيضاً قول العجاج^(٢) :
لَا تَمَاجِزَ الْهَوَى وَلَا جَعْدَةَ الْقَدَمِ

ثم قال في شرحه : « وقال أبو حاتم عن الأصمعي في قوله (ولا
جعد القدم) : هو واسع الشحوة ليس بضيقها ، وهذا مَثَلٌ ضربه^(٣) » .
وهذا الشرح موجود أيضاً بصورة حرفية في شرح الديوان .

وأشد البكري بيتاً للعجاج على هذا النحو^(٤) :
يَتَقَسَّرُ الْأَفْوَارُ بِالتَّقَسُّمِ

ثم قال في شرحه : « هكذا رواه أبو علي ، بالتعجم (بالعين المعجمة ،
لم تختلف الرواية عنه في ذلك ، وإنما هو (بالتقسيم) بالالف ، أي الركوب
والاستعلاء ، كذلك رواه أبو حاتم وعبد الرحمن عن الأصمعي وفسره بما
ذكرته ، وهو الذي لا يصح غيره^(٥) » . والرواية الثانية مع شرحها موجودة
حرفياً في ديوان العجاج .

وهذه الإشارات الثلاث تؤكد أن الشرح للأصمعي ، وتوثق ما سبق
أن ذكرناه من أن رواية الديوان وشرحه ، قد جاءت من طريق أبي حاتم
عن الأصمعي ، ومن طريق عبد الرحمن عن عمه .

وقد رأينا في موضع سابق أن النسخة الباقية من الديوان هي من رواية

- (١) سمط الأبي ٦٩٩ .
- (٢) الأرجوزة ١٨/٢٣ .
- (٣) سمط الأبي ٧٢٩ .
- (٤) الأرجوزة ١٠٣/٢٤ .
- (٥) سمط الأبي ٤٩١ .

- (١) اللسان (صعل) .
- (٢) شرح الأرجوزة ٢٨/١٢ .
- (٣) اللسان (قيرص) .
- (٤) شرح الأرجوزة ١٣١/١ .
- (٥) الأرجوزة ٧٨/٢٣ .

أبي حاتم عن الأصمعي ، وقد كان أبو حاتم يضيف إلى شرح أستاذه بعض الزيادات ، إلا أنه لم يخلط بينها وبين شرح الأصمعي ، وإنما قدم لكل منها بقوله « قال أبو حاتم » فميز بذلك إضافاته من الأصل . وهذه الإضافات قليلة جداً ، لا تؤثر في بنية شرح الأصمعي ، ولا سبباً بعد أن تميزت منه .

وقد سبق أن حددنا المواضع التي ذكر فيها أبو حاتم شيئاً إلى أمور خاصة سأل عنها الأصمعي ، أو سمعها منه ورأى أن يثبته عليها بوجه خاص، وهنا سنعرض للمواضع الأخرى التي ذكر فيها أبو حاتم شيئاً إلى زيادات خاصة به ، وهي لا تعدو أن تكون شرحاً لما أغفله الأصمعي ، أو تدقيقاً واستدراكاً على شرحه ، أو مخالفة له فيما ذهب إليه ، أو رواية لأبي حاتم عن غير الأصمعي ، وهي جميعاً لا تزيد على عشرة مواضع في شرح الديوان كله . وأما المواضع التي شرح فيها أبو حاتم ما أغفله الأصمعي فهي أربعة ، ففي شرح البيت (٤٠) من الأرجوزة (٣٣) :

وفاجماً ومُرسناً مُسَرَّجاً

ورد لأبي حاتم قوله : « قال أبو حاتم : الفاجم الشعر الأسود ، شَبَّه سواده بسواد الفجم » . ولم يتعرض الأصمعي لشرح كلمة « الفاجم » .

وفي شرح البيت (٨٥) من الأرجوزة (٣٣) :

وفرَّغاً من رعي ماتلوجاً

جاء لأبي حاتم قوله : « قال أبو حاتم : الرعي الأكل ، والرعي المرعى » . ولم يشرح الأصمعي كلمة « الرعي » .

وفي شرح البيت (٩١) من الأرجوزة (٣٣) :

فوق البلاذري إذا ما أمَّيَّجاً

- ١٢٢ -

زاد أبو حاتم قوله « قال أبو حاتم : كان الوجه أن يقول (أمَّجاً) ، ولكنه أراد الوزن فحذف الجيم » ولم يثبت الأصمعي على ذلك .

وفي شرح البيت (١١٧) من الأرجوزة (٣٣) :

طرنا إلى كثر طوالٍ أهوجاً

أضاف أبو حاتم قوله : « قال أبو حاتم : يقال فرس طويل وطوالٌ ، فاذا أردت الجميع قلت : طوال » . ولم يشرح الأصمعي كلمة « الطوال » .

وفي ثلاثة مواضع أخرى وقف أبو حاتم من شرح الأصمعي موقف المدقق المستدرك . ففي شرح البيت (٥٨) من الأرجوزة (٣٣) :

ومهمَّه هالكٍ من تعرَّجاً

ورد مايلي : « هالكٍ من تعرَّجاً : أي من تعرَّج فيه هلك ، أي هالك المتعرجين . قال أبو حاتم : قال أبو عبيدة : يقال هلك الله وأهلكه . فسألت الأصمعي عنه فردَّه وخطأه في قوله » .

وفي شرح البيت (٥) من الأرجوزة (٣٤) :

فتحي بعد القيدم الديار

ورد مايلي : « فتحي بعد القيدم الديار : أي قل لها حيَّكِ الله ، وهو البشرُ بالإنسان ، وترياه : أضحك . والقيدم : مامر من السنين . قال أبو حاتم : سمعت الأصمعي عن خلف الأحمر : وببَّاك قريبك ، وأما أضحكك فعن ابن عباس » .

وفي شرح البيت (١٢) من الأرجوزة (٣٤) :

كما يُجِدُّ الكاتبُ الأسطارا

ورد مايلي : « ويقال سطرٌ وسطرٌ جميعاً ، والجميع أسطار

- ١٢٣ -

وَأَسْطَرُ وَسَطَرُ . قال أبو حاتم : سَطَرٌ وَثَلَاثَةُ أَسْطَرٍ ، وَسَطَرٌ وَثَلَاثَةُ أَسْطَرٍ .

وفي موضعين آخرين عَقَّبَ أبو حاتم على شرح الأصمعي بما يخالفه ، ففي شرح البيت (٩٧) من الأرجوزة (٣٣) :

تَبَايَا تَتَرَى تَلِيلَهُ مُسَحَّجًا

ورد مايلي : « ويرى : ترى بيلته . قال أبو حاتم : كان الأصمعي يشد (ترى تليه) ، والتليل : العنق : وهو الذي كان يجتارده ، وغيره يقول : بيلته ، أي بعنقه . والليتان : ناحيتا العنق . قال أبو حاتم : رواه الناس كلهم : بيلته مسحجا . فقال : هذا تصحيف . قال أبو حاتم : ويحفظ الأصمعي ، فقلت : لم ؟ قال : كيف يكون « ترى بعنقه مسحجا » ، لو كان ذلك لقال « تسحجا » . قلت له : في كتاب الله : « ومزقناهم كلَّ مُتَزَقٍ » ، يريد كل تمزق . فسكت وعرف الحق ^(١) .

وفي شرح البيت (١١٦) من الأرجوزة (٣٣) :

سَقَرُ الشَّالِ الزَّبْرِجِ الْمُزَبَّرَجَا

ورد مايلي : « وقوله الزَّبْرِجِ الْمُزَبَّرَجَا : مثل الجَبْرِجِ الْمُخْبَثِ . قال أبو حاتم : تفسير الْمُخْبَثِ أن أهله خبياء ، وليس هذا مثل المزبرج .» ففي هذين الموضعين نص أبو حاتم على مخالفته للأصمعي ، ذلك لأن أبا حاتم قد روى أيضاً عن أبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري ، وأبو زيد يفوق الأصمعي في النحو ، وأبو عبيدة يفوق الأصمعي في الأخبار ، ولهذا وجدناه

(١) هذه الحادثة مشهورة في كتب اللغة ، وقد صرح أبو حاتم في أكثر الروايات أنه سماع روايته «بليته» من أبي زيد الأنصاري عن رؤية بين العجاج انظر شرح سابق فيه التصحيف ١٠٠ و ١١٤ ، والخصائص ٣٦٦/١ ، والمؤهر ٣٧٥/٢ ، ونزهة الألباء ٢٥٣ ، واللسان (صحح) .

في موضع واحد فقط بنقل رواية خبر عن أبي عبيدة ، ويضيفه هو أو تلميذه ابن دريد إلى شرح البيت (١٥) من الأرجوزة (٢١) على هذا النحو : « حدثنا أبو حاتم قال حدثنا أبو عبيدة حدثنا رؤية بن العجاج عن أبيه قال : وردت المدينة فأتيت أبا هريرة .. الخ » .

فلك هي المواضع التي حاول فيها أبو حاتم أن يتعقب الأصمعي ، شارحاً أو مدققاً أو ناقلاً عن غير أستاذه ، وهذه المواضع المستدركة ، إنما تعني بوضوح أن الشرح الأصل ماهر الا للأصمعي نفسه ، ولو لم يكن ذلك لما أمكن لأبي حاتم أن يتعقب ذلك الشرح ويدقق فيه ويخالف بعضه ويشرح ما أغفل شرحه منه .

وبتجديد هذه العبارات التي أخافها أبو حاتم تكون قد زدنا من توثيق شرح الديورات ، وميزنا بينه وبين ما أضيف إليه ، وزيادة في هذا التوثيق ، ينبغي أن نشير إلى خمسة عبارات أخرى وردت في شرح الديورات وهي مزيدة عليه ، ونظن ظناً أن ثلاثاً منها يمكن أن تكون لأبي حاتم مع اغفال اسمه لسبب من الأسباب ، وأن اثنتين منها قد أضيفتا من قبل النساخ فيما بعد .

أما العبارات التي نظن أنها لأبي حاتم ، فالأولى في الورقة (٦٨/ب) وهي : « الجسر الطويل ، وقال غيره الشديد » . فالعبارة الأخيرة ليست من قول الأصمعي . والثانية في الورقة (٧٠/أ) ، وهي : « وقال مرة أخرى : بكابد ، كأنه موضع في شئ بني تميم » ، والقول قول الأصمعي ، الا أنه نُقِلَ عنه نقلاً . والثالثة في الورقة (١١٠/أ) ، وهي : « قال : يقول قد ضُحِرَتْ فكأنها القداح من الضمر ، قاله أبو عبيدة » ، والعبارة الأخيرة لاتصغر عن الأصمعي ، لأنه لا يمكن للأصمعي أن يروي عن معاصره

أبي عبيدة لما كان بينها عن مقارعة وانها .

فهذه العبارات الثلاث يبدو أنها من نقل أبي حاتم ، وإن كان لا يستبعد أن يكون بعضها من اضافات النسخ ، أما العبارات التي ترجح أن تكون مضافة من قبل النسخ ، فهي اثنتان ، الأولى في الورقة (٤ / ب) ، وهي : « قال عبد الرحمن قال عتي : أنشدت هارون الرشيد أمير المؤمنين .. الخ » ، والثانية في الورقة (٩٦ / أ) ، وهي : « قرئ على الرباعي : ولم تخرج رحمتم من تنوعجا » .

وبتمييز هذه العبارات جميعاً أمكن لنا أن نحدد شرح الأصمعي من كل زيادة أو سائبة قد أضيفت إليه ، ومن ثم يمكن أن نلقي نظرة إلى هذا الشرح ، لتعرف طريقة الأصمعي وأسلوبه في شرح ديوان العجاج .

وأبرز ما يمتاز به شرح الأصمعي التركيز على الشرح اللغوي للألفاظ ، وهو لا يفت عند شرح معنى الكلمة في البيت ، وإنما يقلب معانيها المختلفة في اللغة ، ثم يأتي بشواهد من الشعر القديم ، أو بشواهد من الآيات القرآنية ، وغالباً ما يشرح هذه الشواهد ، ولا سيما تلك التي يستمدحها من الشعر القديم ، إلا أن اهتمامه بالشرح اللغوي ، كان لا ينفصه غالباً أن يبرز في شرح المعنى العام للبيت ، وكثيراً ما كانت يدفعه إلى شرح معاني الآيات ذلك الحرص على إيضاح ما يرده من دقة في شرح المعاني اللغوية للألفاظ ، وتظهر هذه الخصائص بجملة في شرحه لهذه الآيات (١) :

فالحمد لله الذي أعطى الحبيب موالى الحق إن المولى شكر
إذ قال في شرحها : « قال : الحبيب السور » ، ويقال هو في حبرة

(١) ديوان العجاج ، الأجزاء ٣/١ - ٤ .

من العيش ، أى في مسرة من عيش ، والحبيب السور ، ويقال هو حبيب به ، أى سر به ، وفي الحديث : « ذهب حبره وسبزه » .
والحبيب : الأثر . وأنشد للعجاج :

به ريت كالحبيب القمل

يصف ظليماً . وقال ذو الرمة :

لا زلت في حبرة ما يتيسر ولا في سماء يوم الحساب محمداً

صلى الله على محمد وآله وسلم . وقوله « حبرة » ، يقول : في سرور ، ويقال : فلان محبوب . يقول : الحمد لله الذي أعطى هذا العهد ، يقول : اتبعوا أثر تبييتهم ، وذهب تشبيه الخواص . وقوله « موالى الحق » أي أولياء الحق . والمولى : الولي ، والمولى : ابن العم ، والمولى : المنعم ، والمولى : المنعم عليه ، والمولى : الحليف ، ويقال : مولاي ، أي ولي . وأنشد للحطيم في المولى ابن العم :

بني عمنا أن الركاب بأهلها إذا ساءها المولى تروح وتبيتر
يريد إذا ساءها ابن العم بأمر مكروه رحلت إلى غيره . وقوله « إن النبوى شكر » ، قال : هذا بمنزلة قولك : قد أعطاك الله خيراً إن شكرت ، أي فاشكر . يقول : رد الحق إلى أهله فليشكروا » .

ومن الملاحظ أن هذا النص فيه معظم خصائص شرح الأصمعي ، من اصرار على شرح الألفاظ شرحاً لغوياً ، واستطراد في الشرح اللغوي للكلمة ، وتقلب لمعانيها المختلفة في اللغة ، أو لأصل اشتقاقها ، أو ما تفرع عنها من طرق الاشتقاق ، ثم الإيجاز في معاني الآيات ، والاستشهاد بالشعر والحديث . إلا أن هذا الاتساع في الشرح لا يجده دائماً في شروح الأراجيز ، وإنما نجد الشرح يستفيض في بعضها ، ويضمر في بعضها الآخر ، ويكاد ينعدم في

بعض الأراجيز القصيرة^(١).

وسواء أوجز الأصمعي في شرحه أو أطال فإنه الحاصل لانفارقة كلها أو بعضها حسب حاجته في شرح كل بيت . وإذا رأينا في النص السابق يستشهد بالشعر القديم ، فتمه مواضع أخرى بلجا فيها إلى آيات الكتاب العظيم ، ومن ذلك ما تجده في شرح هذه الآيات^(٢) :

يوم تَرَى النُفُوسَ مَا أُعِدَّتْ مِنْ نَزْلٍ إِذَا الْأُمُورُ غَبَّتْ
وقال في شرحها : « ما أُعِدَّتْ : أي ما أُعِدَّتْ هناك من ثواب لحير أو شرٍّ قدمته . أي هيأت من نَزْلٍ . قال الأصمعي : من قوله عز وجل : « كانت لهم جنات الفردوس نُزْلاً^(٣) » . وغبت : أتى عليها زعمت ، إذا غَبَّتْ الأمور فَبَقِيَ أَيْلَهَا » .

ولا يفتي الأصمعي عند الشواهد من الشعر والقرآن والحديث ، وإذا يكثر من الأمثال أيضاً ولا سيما تلك التي ترد إشارة إليها في آيات العجاج ، ومن أمثلة ذلك ما قاله في شرح البيت^(٤) :

فِي بَيْتٍ لَأَحْوَرٍ سَرَى وَمَا شَعَرَ

إذا قال في شرحه : « وقوله « في بئر لأحور » ، يريد في بئر حور ، وهي بئر نقص ، سرى الحوروي وما شعر ، يقول : نقص وما درى . ولا : لغو . ويقال : فلان يعمل في حور ، أي في نقصات ، وأنشدنا عن أبي عمرو :

- (١) انظر الأراجيز ٢٦ - ٣٢ ، فالشرح فيها يكاد يكون متعمداً .
(٢) الأرجوزة ١٠/٢٢ - ١١ .
(٣) سورة الكهف ١٨/١٠٨ .
(٤) الأرجوزة ٤٠/١ .

واستعجلا عن تحقيق المتخلف فبادر رد

واللزم يبقى وزاد القوم في حور

ومثل من الأمثال يقال للرجل إذا رأوه ينقص ويبر أمره : « حور في تحركة » ، أي نقص في منقصة . يقول إن الحوروي سرى من أمره في في أمر حوري به سفل في حور » .

فالأصمعي هنا جاء بشاهد من أمثال العرب ، وإذا كانت الأمثال ترد في مواضع متعددة من شرحه ، فهذا يذكرنا بما رأينا منذ حين ، وهو أن الأصمعي قد ألث كتاباً خاصاً بالأمثال . وفي النص السابق فمة إشارة إلى أمور نحوية ، وذلك في قوله « ولا : لغو » أي زائدة ، ومثل هذا قليل في شرحه نسبياً ، ذلك لأن الأصمعي لم يكن يعنى بالنحو عنايته باللغة ، ولهذا كان أبو زيد الأنصاري يقدم عليه في النحو .

وإهتم الأصمعي باللغة جعله يوفق في شرحه اللغوي ، ويحترز في عبارته ، ولا يلقي الكلام على عواهنه ، إذا لم يكن على ثقة تامة مما يقول ، ومثال ذلك شرحه لهذا البيت^(١) :

دَيْتُ صَعْبَاتِ الْقِفَافِ وَابْتَنَرُ

فقد جاء في شرحه : « وقوله « ابتنر » ، قال : أظنه احتقنر ، اتخذ طريقاً واتخذ بئراً . ويقال : ابتنر يبتنر ابتناراً . قال : ومعناه أنه اتخذ طريقاً سهلاً » .

فهنا قال : « أظنه » ، ولم يلق رأيه بعبارة فيها يقين أو ما يشبه اليقين ، بل أنه لا يجد خيراً أن يصرح بأنه لا يدري كنه أحد المعاني إذا استغفلت عليه في بعض الروايات من رجز العجاج ، وبذلك لا يتعنت في شرحه ولا

(١) الأرجوزة ٤٥/١ .

يجعل نفسه على مواطن الزلل ، ومن أمثلة ذلك شرحه للبيت^(١) :

هَشَمَكَ حَوِيلِي الهَيْبِدِ آرَكَ

فقد نصّ على أن البيت يروى أيضاً « حولي الهيبد الراتكا » ، وبعد أن شرح الرواية الأولى ، قال : « الرتلك : أن تقارب الخطر وتسرع المشي . قال الأصمعي : وأما قوله « الهيبد الراتكا » فإن هذا لا أدري ما هو » .

ويلاحظ في هذا النص أيضاً أن الأصمعي قد يورد أكثر من رواية للبيت إن وقف على روايات مختلفة له ، ومثل هذا كثير في شرح الديوان . والأصمعي لا يكتفي بالشرح اللغوي للألفاظ ، دون أن يتحدث عن أصل الكلمة الأصمعي إن كان لها ذلك ، فهو لا يمر بكلمة أعجمية ، إلا وقف عندها وأشار إلى أصلها باللغة الفارسية أو النبطية أو غيرها ، ومثال ذلك شرحه لهذا البيت^(٢) :

نُحْشِيمُ مِنْ بَعْدِ شَلِّ صَائِكَا

إذا قال في شرحه : « الشلّ : الطرد ، ويقال شلّ شتلاً . والصائك : الدم ، وأصله الذي له ريح ، أي منق ، وقد أخطأ لأن الدم لا يكون له تلك الساعة ريح ، إلا أنه أطلق عليه ما يؤول إليه ، وأصل الصائك بالنبطية صيقاً » .

فقد شرح الكلمة ثم ردها إلى أصل معناها ، وفسر استعمال العيباج لها ، ومن ثم تحدث عن أصلها في اللغة النبطية ، وهذا الحرص اللغوي جعله يتم في شرحه باللهجات العربية ، فإذا وقف على كلمة تختلف من لهجة إلى

أخرى في بنيتها أو معناها ، لم يغفل هذا الاختلاف ، وإنما وقف عنده بشرح يرضي نزعه إلى الدقة والاستقصاء في شرح ألفاظ اللغة ، ومثال ذلك شرحه للبيت^(٣) :

حَتَّى اشْفَتَرُوا آخِرَ مَرْقَضَا

وبما قاله في شرحه : « والمرقض : المتفرق . ومشفّض : من التفرق أيضاً ، يقال : لا يشفّض الله فاك ، وفيس ويقم ومن دنا منهم يقولون : لا يشفّض الله فاك » .

وهذا الحرص اللغوي ربما دفعه إلى نقد أستاذه أبي عمرو بن العلاء ، وعدم الأخذ برأيه ، فإذا أورد أبيات العجاج^(٤) :

كَأَلْبُرْدُ بَعْدَ الْجِدَّةِ الْمُزْعَبِلِ فَتَرْعَلَةٌ بِالْأَدَمَى وَالْمَغْسَلِ

قال في شرحها : « قال : المزعبل ، المشقق . وفترعلة : قطعة من الناس ، قال أبو عمرو : فترعلة » ، أراد ولدة الضبع . وقال الأصمعي : صنف . والأدَمَى والمَغْسَلِ موضعان » .

فالأصمعي كان أدق من أبي عمرو في شرح البيت وفهمه ، وذلك لأن « الترعلة : القطعة من الناس » ، ومعنى البيت أن الناس بعد أن أجهدهم القحط وسوء معاملة الجبّاة ، أصبحوا كأنهم برد مشقق بعد جدّة ، وغدت قطعة منهم في هذا المكان وأخرى في ذاك المكان .

والأصمعي في شرحه ربما أتى بأحكام تصل بالنقد أو باللغة أو بضرار الشعر ، وربما أورد بعض الأخبار التي تفسر بعض الأراجيز ، وتشرح المناسبات التي قيلت فيها ، ولكن معظم هذه الأخبار ترد موجزة لا تفصيل

(١) الأرجوزة ٢٦/٦ .

(٢) الأرجوزة ١٣٢/١٧ - ١٣٣ .

- ١٣١ -

(١) الأرجوزة ٧/٥ .

(٢) الأرجوزة ٩/٥ .

فها ولا استقصاء ، ومثال ذلك كله ما تجده في شرح الأبيات (١) :
فاصْبَحًا يَنْجُو بَعْدَ ضَرْزٍ مُسَلَّمِينَ مِنْ إِسَارٍ وَأَمْرٍ .

وقال في شرحها : « قال : والنَّجْوَةُ ، ما ارتفع من الأرض ، أي أصبحا بكان مرتفع عن الأدنى بعد ضرر ، يريد عاصمًا وحيتيًا . يقول : أصبحا بيمس من حال بعد ضرر من إيسار وأمر ، قال : لما اختلف اللفظان حسن التكرير ، ولما يقال : إيسار وأمر ، فاحتاج إليه فخر كـ . قال : وكلا لصين ، فآخذهما مرواث وكان على اليلة والمدينة ، فرفعها الى سجن المدينة . قال فشفع الى عبد العزيز بن مروان فأعانه على شيء من أمرهما . والذي نعلمه من أخبار الأصمعي أن أكثر روايته كانت عن الأعراب ، وهذا يظهر أيضا في شرحه لديوان العجاج ، فلذا وقفنا عند البيت (٢) :

وَعَهْدٌ لِخَوَانِهِمْ كَانُوا الْوَزْرَ .

وجدناه يشرح الوزر بالتلجأ ، ثم يقول : « قال الأصمعي : وحدثنني شيخ من غني (٣) قال : قلت لأعراب نزلت عندهم ممسئ : هل من مرعى ؟ فقالت امرأة منهم : نعم ، انظر بأقبال الأوزار ، تعني بتلك الجبال » .

وإذا كان الأصمعي قد اشتهر بأنه صاحب ملح ونوادير وأخبار ، فهذه كلها قد تركت آثاراً في شرحه ، فهو لا يترك مجالاً لدخال فادرة أو خبر طريف الا أورده واتخذ منه ما يريح قارئة أو سامعه من عناء اللغة ومشكلاتها ، ومثال ذلك شرحه للبيت (٤) :

- (١) الأرجوزة ١١/٢ - ١٢ .
(٢) الأرجوزة ٨/١ .
(٣) غني : جي من غطفان .
(٤) الأرجوزة ٩٨/١ .

كَجَمَلِ الْبَحْرِ إِذَا خَاضَ جَسَرَ

فقد شرح جَمَلُ الْبَحْرِ بأنه سمكة طولها ثلاثون ذراعاً ، أقل وأكثر ، ولا فرغ من شرح البيت تماماً ، قال : « قال الأصمعي : قال خلف : قلت لأعرابي خبثت نفسه عليّ وكسل ، وأردت أن أنشطه : إن في البحر سمكة طولها ستون ذراعاً تسير السفينة رأسها عند رأسها ، وذنبها عند ذنبها . قال : أشهد أن أمر الله حق - وطابت نفسه - والله ماهي بسمكة انها لشيطان ! » .

ومثل هذا ما تجده في شرح الأبيات (١) :

وَبَلَدَتْ لِمَاعَةَ الْأَكْشَافِ قُلُوبُ غَائِبِهَا عَلَى الْخِرَافِ .

وقال الاصمعي في شرح الثاني : « وقوله « على الخراف » ، يقول : من غشيتها فانه منحرف ليس بطمئ . قال الاصمعي : قال اعرابي ، وسمعت رجلاً يقرأ « ومن الناس من يعبد الله على حرف (٢) » ، فقال : اللهم اجعلنا من يعبدك على حرفتين » .

فالأصمعي إذن لا يتخلى عن الملح والنوادير ان وجد اليها متقدماً ، بل يجعل منها ما يشبه الاستراحة أحياناً من ذلك التراحم اللغوي في رجز العجاج أو شرح الاصمعي له .

ومن المهم جداً أن نشير الى أن الأصمعي قد تنبه في شرحه الى ظاهرتين خطيرتين ، الأولى ظاهرة الانتحال في رجز العجاج ، والثانية ظاهرة الاضطراب في نسبة بعض الأبيات الى العجاج والى غيره من الشعراء .

- (١) الأرجوزة ١/٨ - ٢ .

(٢) سورة الحج ١١/٢٢ والحرش في الآية : الشك ، أي هل شك في صيادته ، شبهه بالبحال على حرف جبل في عدم ثباته . ولم يفهم اعرابي هذا المعنى .

عدداً من أبياتها الى دهلج ثم صحح روايتها للعجاج بأنه قد سمعها عن عقبة بن ربيعة ينشد لها للعجاج نفسه ، وعقبة في هذا حجة على غيره من الرواة .

وبذلك كان الأصمعي في شرحه واسع الآفاق ، فلم يترك مجالاً فيه فائدة الاطرفة ، ولكن اهتمامه بالشرح اللغوي ، واستطراده الدائم في سبيل استقصاء هذا الشرح ، كان أبرز ما يميز طريقته في شرح الديوان ، وهذه الطريقة لم تحتفظ بخصائصها لدى شراح الدواوين ومن الهم بعد الأصمعي ، وإنما جعل الشرح اللغوي يضم تدرجياً ، وينتهي الى التخفيف من الاستطراد ، حتى كاد لا يشرح الا المعنى اللغوي المستعمل للكلمة في البيت ، في حين بدأ يتسع تدريجياً شرح المعاني للأبيات ، حتى غدا يحتل المكان الأكبر من شرح كل ديوان أو مجموعة مختارة .

٣ - مصادر مختلفة

في دراستنا لديوان العجاج ، أمكن أن نجد سنداً متصلاً لرواية أراجيزه الا أن قمة ما يدعو الى نظرة أخرى شاملة الى رواية رجزه ومصادره بوجه عام ، ذلك لأن الأصمعي لم يكن بالرواية الوحيد لأراجيز العجاج ، وفيه ملحقات كثيرة أضفناها الى الديوان ، وهي متناثرة في مصادر اللغة والأدب والمعاجم والتراجم وما إليها ، ولا وجود لها في أصل الديوان ، ومثل هذه الملحقات ظاهرة أصبحت مألوفة لدى كل ديوان قديم ، وكان صناع تلك الدواوين أمثال الأصمعي وأبي عمر الشيباني وابن السكيت ومن الهم ، كانوا يصنفون للشاعر ديواناً يجمع كل ما وقفوا عليه من أشعاره أو كل ما أعجبوا به أو اطمأنوا اليه من هذه الأشعار ، ومن ثم كانت تبقى هنالك أشعار أخرى متناثرة في مصادر المكتبة العربية ، ولا وجود لها في الديوان المصنف .

- ١٣٥ -

أما ظاهرة الانتحال فقد أشار إليها في موضعين ، إذ شرح البيت (٥٢) من الأرجوزة (١) ثم قال : « قال الأصمعي : أظن هذا البيت مصنوعاً ، أظن ناساً وضعوه يتيمنون به ، فأسقط هذا البيت » . وفي مقدمة الأرجوزة (٥) قال : « وقال العجاج أيضاً في قتال الأزد وبني تميم في دم عمرو بن مسعود . قال : وهي تشبه » . ففي الموضع الأول أشار الى انتحال بيت في إحدى الأراجيز ، وفي الموضع الثاني أشار الى اتهام أرجوزة بكاملها ، وهذا يعني أن الأصمعي لم يغفل عن هذه الظاهرة الخطيرة في رجز العجاج .

وأما ظاهرة الاضطراب فقد أشار إليها في موضعين أيضاً ، إذ شرح هذين البيتين للعجاج (٢) :

يُمْكِنُ السِّيفُ إِذَا الرَّمْحُ انْطَاطَرَ فِي هَامَةِ اللَّيْلِ إِذَا مَا اللَّيْلُ هَمَرُ
ثم قال بعد شرحها : « قال الأصمعي : قال العلائق بن جندب ، وهو مع أبي موسى أو خالد بن الوليد بنهر المرأة (٣) :

مَنْ يَرَا يَوْمَ الْمَدَارِ وَالنَّهَرِ بَيْطُنَ مَيْسَانَ وَقَدْ حَقَّ الْعَدَرُ
حَوَّلَ أَمِيرٌ صَادِقٌ ثَبَّتَ الْعَدَرُ يُمْكِنُ السِّيفُ إِذَا الرَّمْحُ انْطَاطَرَ
في هَامَةِ اللَّيْلِ إِذَا مَا اللَّيْلُ هَمَرُ » .

وكانه يشير هنا الى التداخل في رواية أبيات العجاج وأبيات العلائق بن جندب ، ولهذا نلاحظ كثرة في رواية الشعر العربي القديم ، وقد أشار الى مثل هذا أيضاً في الأرجوزة (١٦) إذ قال بعد البيت (٣٠) : « قال الأصمعي : بعضهم يجعل من هذا الدهلج القريني . قال أبو سعيد : وسمعت عقبة بن ربيعة ينشد للعجاج » ، فقد أشار الى أن بعض الرواة قد نسب

(١) الأرجوزة ٩٦/١ - ٩٧ .

(٢) نهر المرأة : نهر بالبصرة ، انظر معجم البلدان ٢٢٣/٥ .

وهذا كله يدعونا أن نتعرف الطرق التي وصل منها رجز العجاج ،
وأي طبقة من الرواة قد عُنيت به واعتنت بنقله ، وفي معرفة ذلك ، كانه
ما يقيد حتماً في دراسة توثيق هذا الرجز ، وتعليل اختلاف رواياته ، أو
الاضطراب في نسبه ، أو ما داخله من رجز متحول عليه .
ولا شك أن أفراد أسرة العجاج وقيلته كانوا على رأس الرواة في حمل رجزه
ونقله من القرن الأول الهجري إلى عصر التدوين في القرن الثاني ، فابنه
رؤبة كان أشبه برواية لأراجيزه وأخباره ، وعنه روى أبو عمرو بن العلاء
ديوان العجاج وعن أبي عمرو رواه الأصمعي^(١) ، وكثيراً ما نجد روايات
لآيات العجاج أو شروحاً لها أو أخباراً حولها تُسند روايتها إلى رؤبة بن
العجاج ، ومن ذلك مثلاً ما سبق أن ذكرناه من اختلاف أبي حاتم والأصمعي
حول بيت العجاج^(٢) :

جاءاً تَرى تَكْلِيَةً مُسَجَّجاً

ونقل ابن جني هذا الخلاف فقال : « قال أبو حاتم : قرأت على
الأصمعي في جيمية العجاج : (البيت) ، فقال : (تَكْلِيَةً) ، فقلت :
بليته . فقال : هذا لا يكون ، فقلت : أخبرني به من سمعه من فلان
في رؤبة أعني أبازيد الأنصاري .. الخ »^(٣) .

فأبو حاتم ينجح على الأصمعي برواية رؤبة البيت ، وأمثال هذا كثير
في مصادرنا المختلفة . وأما رواية رؤبة لأخبار أبيه ، فمن ذلك ما رواه صاحب
الأغاني فقال : « أخبرني محمد بن الحسن بن دريد ، قال حدثنا أبو حاتم عن
أبي عبيدة عن رؤبة ، قال : لا ولي الوليد بن عبد الملك الخليفة بعث بي

(١) فهرسة ابن خلدون ٣٩٣ .

(٢) الأوجوزة ٧٩/٣٣ .

(٣) الخصائص ٣٦٦/١ - ٣٦٧ ، وانظر نزعة الألبا ٢٥٣ .

العجاج مع أبي لنقاء^(١) . الخ » .
« روايته لأخبار العجاج جعله يروي عنه أيضاً الحديث ، ومن
ذلك ما نقله صاحب الأغاني فقال : « أخبرني عبد الله بن أبي داود السجستاني
قال حدثنا عبد الله بن محمد بن خالد قال حدثنا يعقوب بن محمد الزهري قال
حدثنا محمد بن إبراهيم عن يونس بن حبيب عن رؤبة بن العجاج عن أبيه قال :
أنشدت أبا هريرة^(٢) :

السَّمْعُ لله الذي تَعَلَّيْتُ بِأَمْرِهِ السَّهْلُ واستَقَلَّتْ
يَاذَنِي الْأَرْضُ وما تَخَيَّتُ أَرَسَ عَلَيْهَا الْجِبَالُ الثَّيِّبُ
الْبَاعِثُ النَّاسَ يَوْمَ الْمَوْقِيتِ

قال أبو هريرة : أشهد أنك تؤمن بيوم الحساب^(٣) .

وقال أبو الفرج أيضاً : « أخبرني محمد بن خلف عن وكيع قال
حدثنا عبد الله بن عمرو عن محمد بن إسحق السهمي عن أبي عبيدة الخداد قال :
حدثنا رؤبة بن العجاج عن أبيه قال : سمعت أبا هريرة يقول : السَّوَالُ
يُذْهِبُ وَتَحْرِبُ الطَّعَامُ^(٤) » .

فروية كان رواية لأراجيز أبيه وأخباره ، وقد كان إلى ذلك كثيراً
ما يُسأل عن شروح بعض الآيات أو مما فيها من مشكلات ، ومن ذلك
مثلاً ما نقله المرزباني فقال : « أخبرنا أبو بكر الجرجاني قال : حدثنا أبو
العباس ، قال : سئل الأصمعي عن بيت العجاج^(٥) :

(١) الأغاني ٦٠/٢١ وانظر الأغاني أيضاً ١٢٤/١٨ .

(٢) الأوجوزة ١/٢٢ - ٣ ، ٥ ، ٨ ، وفي رواية الأغاني اختلاف واسع
عن رواية الديوان .

(٣) الأغاني ٥٨/٢١ .

(٤) الأغاني ٥٨/٢١ .

(٥) الأوجوزة ٨/٢٤ ، ورؤية ردة إلى الوار فقط ، وأورده صاحب
الخصائص بالواو والياء معاً .

غَيَّرَ ثَلَاثَ فِي الْمَحَلِّ حَيْثُ.

وأصله الواو : قال حدثني عيسى بن عمر قال : سألت رؤبة عن هذا فقال : تبه به في العُشَيْن ، هو صَوْمٌ^(١).

وقال الموزاني أيضاً : « أخبرني الصولي قال : حدثنا القاسم بن اسماعيل قال : حدثنا محمد بن سلام ، قال : سمعت يونس يقول : كان رؤبة عندي ، فقال له رجل : مامعنى قول العجاج ؟^(٢) »

وحَبَّسَ النَّاسُ الْأُمُورَ الْحَبْسَا

فقال له رؤبة : قَلْبَهُ وبَلَك^(٣) .

وهكذا كان رؤبة رواية لأراجيز أبيه ، شارحاً لما يُسأل عنه من معانيها أو أبلغتها ، غير مغفل لما يوضح أمرها من أخبار أحيانا ، وكأنه بذلك من طبقة أولئك الرواة العلماء الذين ستحدث عنهم بعد قليل .

ورؤبة كان له من الأبناء عبد الله بن رؤبة ، وعقبة بن رؤبة ، ولا شك أنها قد أسماها أيضاً في رواية أراجيز العجاج وأخباره ، وقد نُقِلَ اليَنا بعض الأخبار التي تشير إلى ذلك ومنها قول البغدادي : « قال أبو القاسم الزجاجي في أماليه الوسطى والصغرى أخبرنا أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي قال أخبرنا أبو الفضل الرياني عن الأصمعي عن عبيد الله بن رؤبة بن العجاج عن أبيه عن جده قال : أنشدت أبا هريرة .. الخ^(٤) » ، ومن ذلك أيضاً ما قاله الموزاني : « قال الأصمعي . وأنشدني عقبة بن رؤبة :
ودَغِيَّةٌ مِنْ حَظِيلٍ مُغْدَوْدِينَ

ولمَّا هو دَغْوَةٌ ، يقال : فلان ذو دغوات أي سقطات^(٥) . »

وهذا البيت لرؤبة بن العجاج^(٦) ، وقد أنشده عقبة بن رؤبة ، وقد أشرنا في بحث سابق إلى أن عقبة هذا لم يحتفظ عنه خبر غير التفاته مع بشار بن برد عند عقبة بن سَنَم ، ولم يُنْقَلْ له بيت واحد من الشعر ، ولمَّا ضاعت أخباره وأراجيزه ، ولا شك أنه فُقِدَ معها أيضاً كثير من مروياته وأسانيده التي نقل فيها بعض الأخبار والأراجيز عن أبيه وجده .

ومن هنا نجد أن أسرة العجاج من ولده وأحفاده قد أسهمت دون ريب في رواية رجزه ، وكذلك أخوه العباس ، إذ قال الجاحظ : إنه كان « علامة عالماً ، ناسباً راوية^(٧) » ، وإذا كان راوية ، فلا يعقل أن يروي أشعار الناس من دون أراجيز أخيه العجاج ، بل ينبغي أن يكون العباس من أفراد أسرة العجاج الذين كان لهم الدور الأول في رواية رجزه .

ولم تكن أسرة العجاج هي الوحيدة التي نقلت رجزه إلى عصر التدوين ، ولمَّا كانت قبيلة أيضاً لها حظ في ذلك ، شأن أي شاعر آخر من شعراء أدبنا القديم ، فالقبيلة كانت تحفظ أشعار شعرائها منذ الجاهلية ، واستمر بها الأمر على هذا النحو في الإسلام وذلك لما رأيناه من استمرار الأساس القبلي في تكوين المجتمع الإسلامي لذلك الحين ، وربما بلغ الأمر بأحد أفراد قبيلة العجاج أن يشتمل رجزه وينسبه إلى نفسه ، فقد نقل الجرجاني بسنده أن أبا نَحِيلَةَ^(٨) الراجر قال : « وفدت على مسلمة بن عبد الملك وقد منحه

(١) الموشح ٢١٨ .

(٢) في المعاني الكبير ٧٩٦/٢ ، وشرح القاموس مادة (غدن) .

(٣) البيان والتبيين ٣٥٦/١ .

(٤) سبق التنبيه إلى أن اسمه تحرف في الوساطة فجاء «أبا بجيلة» بالباء والجيم .

(١) الموشح ٢١٨ .

(٢) الأرجوزة ٦٤/١١ ورواية الديوان : « وحابَّسَ النَّاسُ الْأُمُورَ » .

(٣) الموشح ٢١٨ - ٢١٩ .

(٤) خزائن يولاق ٥٠٩/٣ .

فأكرمني وأئزني ، ثم قال لي : مالك والقصيد وأنت من بني سعد ، عليك بالرجز فقلت : أولست بأرجز العرب ؟ فقال : اسمعني ، فأنشدته :
 يا صاح ما شافتك من رَسَم خالٍ - ودمنكة تعرّضها وأطلالٍ
 وهو من قول العجاج^(١) ، فلما سمع أولها أصاح ، فلما أسهت فيها قال : امسك ، فنحن أروى لهذا منك ! وظننته مقني لما أحبت منه خيراً^(٢) .

ولا يمينا في هذا الخبر الآن ما يدعيه أبو نخلة لنفسه من رجز العجاج ، ولقفا يمينا أن أبا نَحْلَةَ قد حفظ رجز العجاج ، وكلاهما من قبيلة بني سعد من تميم ، وهذا يؤيد ما قلناه من أن قبيلة العجاج نفسها كانت تحفظ أراجيزه وترونها ، ولم تكن كلها كآتي نخيلة في هذا الانتحال والادعاء ، ومع ذلك فخير آتي نخيلة هذا يمكن أن ينهنا منذ الآن على بعض الأسباب للاضطراب في رواية رجز العجاج .

فأمره العجاج وقيلته قد كان لها اليد الطولى في رواية رجزه خلال القرن الهجري الأول ، أضف إلى ذلك أن العجاج نفسه وبما كان يحسن الكتابة ، يدل على ذلك كثرة ما أورده في رجزه من تشبيه الأطلال بأثار الكتابة ، وقد رأينا أمثلة لذلك في موضع سابق ، وإذا كان العجاج يحسن الكتابة فهذا يعني أنه قد أسهم هو أيضاً بتدوين طائفة من رجزه على الأقل ، فكان ذلك عوناً للرواة من بعده ، أو لبعض الرواة الأقربين منه أو من ولده رؤبة .

ولعل أراجيز العجاج كلها أو بعضها قد دُوِّنت قبل الأصمعي ، فقد

(١) ملحقات الديوان ١/٦٤ - ٢ .
 (٢) الوساطة ١٥٢ .

ذكر الأديمي كتاباً لبني سعد^(١) ، وذكر ابن النديم كتاباً آخر لبني تميم^(٢) ، وبني سعد من أحياء تميم ، وإذا جُمِعَت أشعار تميم فليس من شك في أنها تضم أشعار بني سعد ، ذلك لأن كتاب القبيلة كان يضم شعر شعرائها أو بعضهم ، وينقل ما يتصل بهذا الشعر من أخبار أو قصص أو أنساب أحياناً^(٣) ، وهذا يعني أن رجز العجاج قد جُمِع كله أو بعضه في كتاب بني سعد أو كتاب بني تميم .

وقد نشط تصنيف دواوين القبائل منذ أواخر القرن الهجري الثاني على أيدي أبي عبيدة معمر بن المثنى والأصمعي من علماء البصرة ، والمفضل الضبي وأبي عمرو الشيباني من علماء الكوفة ، إلا أن ثمة من الأخبار ما يدل على أن كتب القبائل كانت مكتوبة بمدونة قبل مطلع القرن الثاني الهجري ، وأن العلماء الرواة من رجال الطبقة الأولى - في القرن الثاني - قد وصلتهم هذه المدونات من القرن الأول الهجري فاعتمدوها مصدراً من مصادر تدوينهم نسجهم الخاصة التي نسبت روايتها إليهم^(٤) .

وبما يؤيد هذا الرأي ما ورد في خبر دخول الأصمعي لأول مرة على الرشيد ، وفيه يقول الأصمعي : « قال الرشيد : احسن ، أدويت للعجاج ورؤبة شيئاً ؟ قلت : هما يا أمير المؤمنين يتناسدان لك بالقوافي وإن غابا عنك بالأشخاص . فمدّ يده فأخرج من تحت فراشه رقعة ، ثم قال : اسمعني . فقلت :

(١) المؤلف والمختلف ٦٦ .
 (٢) الفهرست ٢٢٦ .
 (٣) انظر مصادر الشعر الجاهلي ٥٥١ - ٥٥٤ .
 (٤) مصادر الشعر الجاهلي ٥٥٨ .

الرُّقِي طَارِقُ حَمَّ طَرَقًا

لفظت فيها مضي الجواد في سَنَن مِدَانِه .. الخ (١) .

ووجود « رقعة » عند الرشيد فيها رجز للعجاج أو لرؤبة بن العجاج ، يعني أن بعض هذا الرجز على الأقل قد دَوِّن قبل اشتباه أمر الأصمعي ، ذلك لأنه لم يحظ بهذه الشهرة إلا بعد أن اتصل بالرشيد ، ولخص بتمامه ومجاليته .

وبذلك كانت الرواية والتدوين قد اجتمعا معاً في الحفاظ على أراجيز العجاج ونقلها من القرن الأول إلى القرن الثاني ، ومن ثم أصبحت أراجيزه بين أيدي الطبقة الأولى من الرواة العلماء (٢) ، أمثال أبي عمرو بن العلاء ، وعبد الملك بن قريب الأصمعي ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأبي زيد الأنصاري ، وأبي عمرو الشيباني ، ثم الطبقة الثانية من هؤلاء الرواة ، أمثال أبي حاتم السجستاني ، وأبي إسحق الزبدي ، وأبي الفضل الرباعي ، وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي .

وقد سبق القول في تفصيل أمر هؤلاء الرواة ، وسبق القول أيضاً في أن ديوان العجاج قد رواه الأصمعي عن أستاذه أبي عمرو بن العلاء عن رؤبة ابن العجاج عن أبيه العجاج ، وكثيراً ما نجد في مصادرها روايات لأبيات العجاج تستند إلى أبي عمرو بن العلاء ، أو الأصمعي ، أو أبي عبيدة ، أو أبي زيد ، أو من تلامهم من تلامذة أخذوا عنهم ، واستنوا طريقتهم في الرواية والعلم معاً .

(١) العقد الفريد ١/٦١ (طبعة القاهرة ١٣٥٩ هـ) ، وأورد المرتضى هذا الخبر في أماليه ٩٨/٣ .
(٢) انظر طبقات الرواة في مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد ٢٢٢ - ٢٥٤ .

وكثيراً ما نجد اختلافاً في روايات بعض الأبيات بسبب اختلاف هؤلاء الرواة العلماء ، ومثال ذلك ما قاله السيوطي : « الأحوزي مثل الأحوزي ، وهو السائق الحقيف عن أبي عمرو ، قال العجاج (١) :

يَعُوْزُ مُمْرٌ وَلَمْ يَحُوْزِيْهِ

وأبو عبيدة يرويه بالذال ، والمعنى واحد (٢) .

وهناك شروح كثيرة لقدامى الرواة ، تتناول بعض أبيات العجاج ، وهي متناثرة في مصادر الأدب واللغة ، ومنها مثلاً ما نقله أبو بكر بن دريد فقال : « .. وأوحى يوحى إلهاء ، فالوحي من الله عز وجل إلهاء ، ومن الناس إلهاء .. قال أبو عبيدة ، وقد روى بيت العجاج (٣) :

وَحَى لَهَا الْفَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ وَشَدَّهَا بِالرَّيَاسِاتِ الشُّبَّتِ

و (أوحى لها) أيضاً . قال أبو بكر : سألت أبا حاتم عن هذا ففج ، فقال : لا تزال تسألني عما أكره ، ثم قال : يأتي قال أبو عبيدة : وحى لها القرار ، أي كتب لها ذلك ، وأوحى لها القرار لقوله عز وجل (اتينا طوعاً أو كرهاً ، قلنا أتيناطائعنا) (٤) هذا لفظه ، وقال مرة أخرى : قلنا أتيناطائعنا ، أي قال لاهل السموات والأرض ، فأكفى بذكر السموات والأرض (٥) . وأمثلة هذه الروايات والشروح كثيرة جداً ، وقد حملت جهدي في التقدير

(١) الأرجوزة ٢٥/١٧٨ ، ورواية الديوان : « يعوذها وهو لها حوزي » .

(٢) المزهري ١/٥٦٠ .

(٣) الأرجوزة ٢٢/٤٠ - ٥ .

(٤) سورة فصلت ١١/٤١ وتعام الآية : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قلنا : أتيناطائعنا » .

(٥) جهمرة اللغة ٢/١٩٨ .

والنحو ، حتى كانت الإشارة اليه تكفي لتعريفه وتعريف موضع الشاهد من رجزه ، ومثال ذلك ما قاله ابن فارس : « فالدخسُ أن يندس الشيء في التراب ، ولذلك سَمِيَ الرَّاجِزُ الْأَفْأَفِيُّ دُخَسًا »^(١) .

وهو في ذلك إلتفاتٌ يشير إلى بيت العجاج في وصف آثر الديار^(٢) :
فَطَرَّقَتْ إِلَّا ثَلَاثًا دُخَسًا

ولهذا ينبغي أن نتوقع انتشار أراجيز العجاج في تلك المصادر التي عُدَّت بجميع اللغة أو تناولت بالتصنيف مشكلات اللغة وظواهرها من فقه واشتقاق وغريب ونوادر وما أشبه ذلك ، لأن في رجز العجاج ذخراً واسعاً من الشواهد على هذا كله ، ولذا كانت أمثال هذه المصادر في مقدمة مصادر رجز العجاج ، ولا سبأ المعاجم منها ، حتى إننا عددنا في كتاب الألفاظ لابن السكيت (١١٠) أبيات للعجاج ، وفي جبهة اللغة لابن دريد (٤٢٨) بيتاً ، وفي مقاييس اللغة لابن فارس (١٥٣) بيتاً ، وفي الصحاح للجوهري (٣٨٨) بيتاً ، وفي الأساس للإخشي (١١٠) أبيات ، وفي المحمص لابن سيده (٢٠٩) أبيات ، وفي اللسان لابن منظور (٨٠٩) أبيات من أصل الديوان وحوالي (٣٠٠) بيت من الملحقات ، وار عددنا الأبيات المكررة لكادت هذه الأرقام تتضاعف في هذه المعاجم ولا سبأ في اللسان .

وهذه المصادر اللغوية جميعاً إنما تورد أبياتاً للعجاج لتكون شاهداً على معنى من المعاني ، أو بنية لفظ من الألفاظ ، أو أصل كلمة من الكلمات . ولهذا الغاية أيضاً كانت كتب التفسير وما يتصل بها من كتب صنفت في غريب القرآن ، أو مشكله ، أو مجازيه ، أو ما أشبه ذلك ، هي من المصادر

(١) مقاييس اللغة ٣/٣٣٤ .
(٢) الأرجوزة ٩/١١ .

عنها ، أثناء تحقيق الديوان .

فأراجيز العجاج قد حملتها الرواية والكتابة إلى هؤلاء الرواة العلماء في القرن الثاني ، ومن ثم أصبحت ألسنة اللغويين والنحاة تليج بها قولاً يعسد قرن ، لما في هذه الأراجيز من شواهد لاتعد ولا تحصى على معاني اللغة ، وأنبئة الألفاظ ، وطرائق الاشتقاق ، وغرائب الاستعمال ، ولهذا كانت يقال : « أشعر الناس العجاجان ، أي رؤبة وأبوه »^(١) ، وهذا إنما يمثل آراء اللغويين والنحاة فيه ، يدل على ذلك قول الأصفهاني : « أخبرني ابن دريد ، قال أخبرني عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي عن عمه قال قيل ليويس : من أشعر الناس ؟ قال : العجاج ورؤبة . فقيل له : ولم ؟ لم نعلم نعلم الرجز ! فقال : هم أشعر من أهل القصيد ، إنما الشعر كلام ، وأجوده أشعره ، قال العجاج »^(٢) :

فَدَّ جَبَرُ الدِّينِ الْإِلَهَ فَيَجَبَرُ

ففي نحو ماتي بيت موقفة القوافي ، ولو أطلقت قوافيها ، كانت كلها منصوبة . قال : وكذلك عامة أراجيزها^(٣) . فيونس ، وهو من النحاة ، معجب بالعجاج ورؤبة ، مقدم لها على أهل الرجز والقصيد ، ومصدر إعجابه هو جودة الكلام ، وجودة الكلام بينها على أساس لغوي إذ يرى في فنونة العجاج على اللغة في أرجوزته تلك دافعاً إلى تقديمه على أقاربه من رجزاز ومقصدين .

وهذه القدرة اللغوية هي التي شهرت رجز العجاج في أوساط أهل اللغة

(١) الصحاح ١/٣٢٧، والمقاصد النحوية ١/٢٦، واللسان (عجج) .
(٢) مطلع الأرجوزة (١) من الديوان .
(٣) الأغاني ١٨/١٢٤ و ١٩/٢١ ، ونقله ابن رشيق في العمدة ١/٥٦ ، والبغداد في الخزنة ١/٩٢ ، والسيوطي في المزهو ٢/٤٨٤ .

الرئيسية لرجز العجاج ، ولهذا أمكن أن نعد في مجاز القرآن مثلاً لأبي عبيدة (٢٧) بيتاً من رجز العجاج .

ثم كانت كتب الشعر على اختلافها من مصادر رجز العجاج أيضاً ، وذلك لما في رجزه من شواهد كثيرة تؤيد ماضعه أوائل النجاة من قواعد اللغة ، أو لا فيه من خروج على تلك القواعد أحياناً ، ومن ثم كان الخلاف يتسع بين النجاة ، منهم من يحاول أن يوجد له تعليلاً ، ومنهم من يذهب به إلى الشذوذ في الاستعمال ، وحسبنا أن سيوبه قد احتجّ بأبيات العجاج ، أو بأبيات تنسب إليه ، في (٢٧) سبعة وعشرين موضعاً من كتابه ، وهذه نسبة كبرى إذا ما قيست بسائر الشعراء الذين احتجّ بهم سيوبه في الكتاب ، وإذا عدنا إلى مجالس نعلب أو الحصاص لابن جني مثلاً ، وجدنا في الأول (٢٧) بيتاً للعجاج ، وفي الثاني (٤٥) بيتاً ، مما يؤكد اهتمام هذا النوع من المصادر بـرجز العجاج .

ثم تردّد مصادر الأدب والنقد والمعاني ، وقد أورد كل منها طائفة من رجزه ، ولكنها قليلة نسبياً إذا ما قورنت بالمصادر السابقة ، حتى إن كتاب الأغاني مثلاً لم ينقل من أراجيز العجاج إلاّ ثمانية أبيات متفرقة وردت في ثنايا أخباره ، ولم ينشد الجاحظ من رجزه غير (١٦) بيتاً في البيان والتبيين ، و (٩) أبيات فقط في كتاب الحيوان ، إلاّ أن هذه المصادر ربما طالعنا شيء من أخباره ، أو أغلاله ، أو بعض خصائص رجزه أو أحكام النقاد القدامى فيه ، ولذلك فهي من المصادر الهامة جداً لرجز العجاج ودراسته معاً . ويتلو ذلك منزلة تلك المصادر التي تناولت شرح بعض الدواوين أو المختارات أو اهتمت بجمع الأمثال ، أو صنّفت على شكل رسائل في موضوع من الموضوعات ، أو تعرضت لطائعات الحيوان ، أو ألقت في الأماكن

والبلدان ، فهذه المصادر جميعاً إما تورد بعض ما يتصل بموضوعها من الشواهد ، وكثيراً ما نجد في بعضها تحريفاً أو اضطراباً في الرواية .

وأما كتب البلاغة فلا قيمة لها في دراسة رجز العجاج ، ولولا بيت العجاج^(١) :

ومقة وحاجبا مزجبا وفحما ومرسنا مسرجا

لما كان له ذكر في هذه المصادر ، إلاّ أن البيت الثاني لا يخلو منه كتاب من كتب البلاغة ، وذلك لأن الإغراب في قوله « مسرجا » قد أصبح من شواهد البلاغيين طراً .

وهناك مصادر أخرى في المكتبة العربية ، ولا وجود فيها لأشعار العجاج وهي كتب التاريخ ، والسيرة^(٢) ، والديانات ، والمذاهب والفرق ، والكتب التي عالجت أبحاثاً عامة في الديانة الإسلامية ، وصفات الله وأسمائه ، واللائكة والكتب المقدسة ، والأنبياء والرسل ، والقضاء والقدر ، وما يتفرع عن هذه الأبحاث جميعاً^(٣) .

فهذه المصادر كلها لم تنف على أي بيت فيها للعجاج ، وأكثرها بعيد كل البعد عن ذكره مع أنها تحدثت عن بعض معاصره ، وهذه المصادر أكثرها غير موثقة فيما تناولته من أشعار ، ولا سيما كتب التاريخ منها ، لأن أصحابها لا يبتون بصلة إلى رواية الشعر أو نقده ، وأكثر الشعر المنحول على أمة بن أبي الصلت مثلاً ، قد حمته البنا أمثال هذه المصادر من كتب التاريخ والسيرة وما إليها ، أما المصادر التي تناولت طرفاً من رجز العجاج ، فهي من المصادر

(١) الأرجوزة ٣٩/٣٣ - ٤٠ .

(٢) ماعدا الروض الأنف ، وهو من شروح السيرة ، لا كتاب في السيرة نفسها .

(٣) كل ما رجعتنا إليه من هذه المصادر ابتناه في ثبت المصادر والمراجع .

نحو عبد الرحمن النجدي الفصل الثالث توثيق رجز العجاج

أشرنا في مواضع سابقة إلى ظاهرتين كان الأصمعي قد تنبه إليهما في رجز العجاج ، وهما ظاهرة الانتحال ، وظاهرة الاضطراب في الرواية ، وفي هذا الفصل نسود أن نبسط القول في كل منها ، وذلك لتوثيق أراجيز العجاج قبل أن نخفي في الفصول التالية إلى دراسة خصائصها المختلفة .

١ - الانتحال في رجزه

إن ظاهرة الانتحال لم تقتصر على شعراء ما قبل الاسلام ، ولما تبرز أحياناً لدى شعراء العصر الأموي ، ذلك لأن القرن الأول الهجري لم يتسع فيه نطاق التدوين اتساعه في القرن الثاني وما بعده ، إلا أن هذه الظاهرة تختلف في وضوحها واتساع أمرها من شاعر إلى آخر ، سواء كان الأمر في الجاهلية ، أم كان في عصر بني أمية ، إذ أن الأحداث نفسها كانت تحدد للقبائل والأحزاب أي شاعر يمكن أن يضاف إلى شعراء بعض المنحول عليه ، وذلك تبعاً للصراع القبلي والحزبي الذي ضج في القرن الأول بعد الهجرة .

ومن هنا يمكن أن تنلس ظاهرة الانتحال في رجز العجاج ، فهذا رجل لم يشتهر أمره على أساس ذلك الصراع الحزبي أو القبلي لعصره ، وإن كان قد مس بعض جوانب هذا الصراع في رجزه ، ولعل عدم شهرته بذلك

- ١٤٩ -

الموثوق بها بوجه عام ، وإذا رأينا فيها بعض آثار التجريف أو الاضطراب في الرواية ، فهذا أمر لا ينبغي منه شاعر قديم في تاريخ أدبنا العربي ، وإذا وقفنا على بعض الأبيات التي نرجح أن تكون منجولة ، فهذا لا يعدو كتب النحو بوجه خاص ، ذلك لأن الصراع بين النحاة ربما قاد بعضهم أحياناً إلى صنع ما يزيد من شواهد ، ومثل هذا لا يخفى منه طابع الوضع والتلفيق ، ولذلك كانت مصادر العجاج بوجه عام لا مجال إلى اتهامها أو النيل من توثيقها ، وكل ما يمكن لنا أن نشير إليه هو وجود بعض الشواهد القليلة المثبتة في كتب النحو وهي لا تجعل من السائق أن ننهم كتب النحو كلها ، أو أن نعتبرها كتباً غير موثوق بها ، شأن اتهامنا لابن إسحق في السيرة^(١) ، أو للمقدسي في كتابه البدء التاريخ^(٢) . والفصل القادم سيكون خاصاً بدراسة هذا الجانب من رجز العجاج .

(١) انظر دراستنا لأمية بن أبي الصلت ٥٣ - ٥٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه ٥٩ .

مادفع بالجاحظ إلى القول عنه : « وهو أعراي ليس بنذي تحفة ، ولا حب خصومة ، وقد أدرك الجاهلية ^(١) » .

ولو اشتهر أمره بثل هذه الموضوعات لكان جميل عليه شيء منها ، سيما أن الأرجوزة التي انتهيا الأصمعي لا تخرج في موضوعها عن الصراع لي في البصرة .

ومعظم أراجيز العجاج كانت وفقاً على الصحراء وما فيها من صور رائعة . هذه الأراجيز لأحاجة لأحد كي يضيف إليها أشعاراً منجولة عليها ، ولا أن أسلوب العجاج في بناءه الأرجوزة بالفاظها وتراكيبها وموسيقاها كان قوى عليه أربع الموضوعات حذفاً ومباردة ، ومع ذلك فقد أشار الأصمعي موضعين من الديوان فيها شيء من آثار الوضع والانتحال ، وكنا أثبتنا هذين الموضوعين ولكننا نعود إليها الآن ، لنحاول مناقشة ما فيها من وضع تلفيق .

فالعجاج وصف الجيش بالكثرة والجليلة ، فجعل من كثرته ليلاً ، ن أصواته مطراً غزيراً ، فقال ^(٢) :

كأَمْثَلِ زَمْهَارِهِ لَيْلٌ جَهَرٌ لَيْلٌ ، وِرْزُهُ وَغَرُّهُ إِذَا وَغَرُّهُ
سَارِ سَرَى مِنْ قِبَلِ الْعَيْنِ فَجَرٌ عِطَ السَّحَابِ وَالْمَرَايِيعُ الْكَثِيرُ
زَفَرَتْ فِيهِ السَّوَاكِي وَزَفَرَتْ بَغْرَةٌ نَجْمٍ هَاجَ لَيْلًا فَبَغْرَتْ
مَاءٌ نَشَاصٌ حَكَيْتَ مِنْهُ فَنَدَرٌ حَذَوَاهُ تَحْدُوهُ إِذَا الْوَيْلُ انْتَشَرَتْ

وفي شرح البيت السادس من هذه الأبيات قال الأصمعي : « وقوله بغرة نجم » ، قال : فورة نجم . فَبَغْرَتْ ، يقول : فار بها . قال

(١) كتاب العثمانية للجاحظ ١٢٥ .

(٢) الأرجوزة ٤٧/١ - ٥٤ .

الأصمعي : اظن هذا البيت مصنوعاً ، اظن ناساً وضعوه يتبعون به ، فأسقط هذا البيت » .

وأفضل ما في قول الأصمعي كلمة « اظن » ، فهو يظن أن البيت مصنوع ، ولذلك يدعو تلميذه إلى إسقاط هذا البيت وعدم روايته ، ومرد ذلك إلى أن في البيت روحاً جاهلية لاتتفق مع الشعر الإسلامي ، فالعرب قبل الإسلام كانوا يؤمنون بالأوثان ، وينسبون المطر إلى النجوم ، فيقولون : « مطرنا ينزل كذا » ^(١) . . . ، وهذا كله قد أبطله الإسلام ، ولعل هذا مادفع الأصمعي إلى اتهام البيت وربما كان البيت موضوعاً فعلاً ، إلا أننا لانجد سبيلاً إلى القطع بذلك ، لأن رجز العجاج قد تنقل عدداً من المعاني الجاهلية التي لا يمكن أن تشتمل لجزء منها معان جاهلية ، ذلك لأنها وردت في رجز أعراي قد تمثل الإسلام على ما يبدو من رجزه ، ولكنه لم يستطع أن يتخل عن بعض المعاني الجاهلية التي انطبع في نفسه وهو بعيد في صحارى نجد ، ولا سيما أن هذه المعاني لا تخرج عن تصوير بعض العادات القديمة أو المعتقدات التقليدية التي لاتعارض مع الإسلام تعارضاً واضحاً أو جفرياً .

ولهذا يمكن القول إن البيت الذي شك فيه الأصمعي ، قد يكون مثاراً للشك والاتهام ، ولكنه لا يمكن القطع بوضعه وانتاله .

وقفة موضع آخر أشار فيه الأصمعي إلى الانتحال في رجز العجاج ، وذلك في الأرجوزة (٥) من الديوان وأولها :

لَسَمَّا رَأَوْا مِنْهَا إِذَا سَامِكَا مَرْدَى حُرُوبٍ يَفْرُجُ اللَّسَاكِيكَا
وقال الأصمعي مقدماً لها : « وقال العجاج أيضاً في قتال الأزد وبني تميم في دم مسعود بن عمرو . قال : وهي تشتم » .

(١) انظر اللسان مادة (نوا) .

«دراسة الأرجوزة تبرز بعض دواعي الشك فيها ، ومن ذلك موضوعها ، فهو يتصل بالفتنة التي شجرت بين القبائل في البصرة عقب وفاة يزيد بن معاوية وهرب والده على الجيرة عبد الله بن زياد ، فخلت البصرة من أمير شرعي ، وبرز الصراع العصي بين تيم الخزمية والأزد البائية ، فجعلت تيم ترفع إلى الأمانة من شامت ، وشرعت الأزد ترفع إليها من أرادات ، وبذلك قامت الحرب بينهما ، وقتل مسعود بن عمرو العنسي بعد أن رفعته الأزد إلى إمارة البصرة^(١) . ومن ثم نجد في هذه الأرجوزة المنسوبة إلى العجاج فخرًا بالقضاء على الأزد وقتل زعيمها مسعود بن عمرو . ومثل هذا الموضوع يمكن أن يُنحَل الشعرُ بسببه ، لما فيه من أهداف عصية بين القبائل ، ولا سيما أن للعجاج أرجوزة أخرى موثقة . تناول فيها فتنة البصرة وقتال الأزد وبني تيم ومقتل مسعود بن عمرو العنسي^(٢) .

وبما يؤيد ذلك أن في الأرجوزة بعض المآخذ التي أشار إليها الأصمعي نفسه ، ومنها ما علق به على هذا البيت^(٣) :

هذا ومنّا المَطِيرُ الرِّكَائِكَا

قال الأصمعي : « أخطأ إنما كان ينبغي أن يقول : منّا المَطِيرُ المطر الغزير ، فقال : الرِّكَائِكَا ، وهو جمع رِكَائِكٍ ، وركائك جمع رِكَاءٍ ، وهو المطر الضعيف » .

وأمثال هذا لا يصدر عن العجاج ، إذ لا يمكن أن يضل في تحديد أوصاف

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٠٣ - ٤٠٨ ، وتاريخ ابن الأثير ٤/٥٥ - ٥٧ ، وجمهرة الانساب ٣٥٠ ، وأسماء الغتالين من الإشراف في نوادر المخطوطات ١٧١/٢ .

(٢) البيت ٢٧ من الأرجوزة .

(٣) الأرجوزة (٣٥) من الديوان .

وثيقة الصلة بالصحراء ، وهذا يرجح أن تكون الأرجوزة منجولة عليه بدافع من الصراع بين العصيات ، لأن هذا الصراع حل كل قبيلة على التزبد من أمثال هذه الأشعار التي تصور أيلها واتصاراتها على القبائل الأخرى .

فإذا عدنا إلى الأراجيز التي وردت في ديوان العجاج لم نجد موضعاً للشك في غير الأرجوزة السابقة ، وأما الملحقات التي أضافها من مصادر مختلفة فالشك يلح في بعض المقتطعات أو الأبيات التي وردت في كتب النحو بوجه خاص ، ذلك لأن الخلاف بين النحاة والخصومة القائمة بين مدرستي الكوفة والبصرة^(١) ، كانت من الأسباب التي أدت إلى نحل بعض أبيات الشواهد وعزوها للشعراء القدماء ، وكثيراً ما يقع الاضطراب في رواية هذه الأبيات وعزوها لهذا الشاعر أو لذاك . ومن هنا نجد مجالاً للشك والالتام في بعض المقتطعات التي عزيت للعجاج ، أو نسبت إليه وإلى عدد آخر من الشعراء أو الرجاز .

ومن المقتطعات التي نشك فيها هذه الأبيات :

لقد رأيتُ عَجَباً مَدُّ أَمْسَا عَجَازاً مِثْلَ الْأَفَاعِي خَمْسَا
بَاكِنْنِ مَا فِي رَحْلَيْنِ خَمْسَا لَا تَرَكْ اللَّهُ لِهَيْنٍ فِرْسَنَا
وَلَا لِقَيْنِ الدَّهْرِ إِلَّا تَعَسَا فِيهَا عَجُوزٌ لَاتَشَاوِي فَلَئْسَا
لَا تَاكُلُ الزُّبْدَةَ إِلَّا نَهْسَا

وقد وردت هذه الأبيات كلها أو بعضها في مصادر كثيرة جداً^(٢) ، وذلك لأن البيت الأول ساعد على أن بعض بني تيم يعزبون « أمس » ويعنونها من الصرف ، خلافاً لأهل الحجاز فهي عندهم مبنية على الكسر مطلقاً ، وكل من رواها أو روى أبياتاً منها كانت روايته دون نسبة إلى شاعر معين ،

(١) انظر هذه الخصومة في مصادر الشعر الجاهلي ٤٢٩ - ٤٢٨ .

(٢) انظر تخريجها في الديوان .

، إن بعضهم قد صرح أنها من الشعر الذي لا يُعرَفُ قائله^(١) ، ولم ترد إشارة إلى نسبتها للعجاج إلا عند البغدادي إذ قال : « والبيت الشاهد ن أبيات سيويه التي ما عُرِفَ قائلها ، وقال ابن المستوفي : وجدت هذه أبيات الثانية في كتاب نحو قديم للعجاج إلى روبة ، وأراه بعيداً من له^(٢) » . ولم نجد منها إلا سبعة أبيات فقط .

والحق مقالته ابن المستوفي فالأبيات بعيدة عن نط العجاج في أراجيزه ، قد يقال : إن لكل شاعر ضعيفاً وسقطاً ، وقد تكون هذه الأبيات من عيف العجاج وسقطه ، وهذه حجة لا تكفي ، وإلا لاهنا قطعنا بنقل الأبيات طعماً ، إلا أن وضع النواة للشواهد ، ونجاني هذه الأبيات عن أسلوب عجاج ، تجعلنا نشك فيها ، ويمل بها إلى الشعر المنحول عليه ، ولا يمنعنا من هذا الشك أن بعضها ورد في كتاب سيويه ، لأن شواهد سيويه لم تخل من بعض الأبيات المنحولة ، وإذا كنا نخل سيويه عن ذلك ، فلا مرة أن نل هذه الأبيات قد وضعت قبل تأليف سيويه للكتاب .

ومن الرجز الذي نشك فيه أيضاً ، هذه الأبيات :

بَيْتًا بَحْسَانٌ وَمَعْرَاضٌ تَحْطُ تَحْسُ أُنْثَى وَحَيْثُ تَحْتَضِطُ
فِي سَمَرٍ مِنْهُ كَثِيرٌ وَأَقْطُ مَا زِلْتُ أَسْعَى بَيْنَهُمُ وَالْتَحِطُ
حَتَّى إِذَا كَادَ الظُّلَامُ يَنْتَحِطُ جَاءُوا بِمَدَنِي هَلْ رَأَيْتَ الذَّبَّ قَطُ

وهذه الأبيات وردت في مصادر كثيرة دون نسبة^(٣) ، وعزتها بعض لصادر العجاج ، فقال العيني : « أقول ذكره المبرد ونسبه إلى راجز لم

يعين اسمه ، وقيل هو العجاج^(١) ، وقال العيني أيضاً : « عزى إلى العجاج ، ولم يثبت^(٢) » ، وقال البغدادي : « وهذا الرجز لم ينسب أحد من الرواة إلى قائله ، وقيل : قائله العجاج^(٣) » .

وكل من أورد هذه الأبيات كلها أو بعضها ، إنما أوردتها لأن في البيت الأخير شاهداً عن عدم وقوع جملة « هل رأيت الذب قط » الاستهامية ، نعمنا لـ « مذق » على تقدير القول ، أي جاءوا بمدق يقول من رآه : هل رأيت الذب قط . ذلك لأن الجملة التي تقع نعمناً شرطها أن تكون خبرية . وإذا عدنا إلى تأمل الأبيات وجدناها كالأبيات السابقة تختلف كل الاختلاف عن نط أراجيز العجاج ، وعدم نسبتها في أكثر المصادر إلى راجز معين ، ربما أوحى بنقلها من أساسها على أيدي صناع النحو ، ثم حاول بعضهم أن يلصقها بالعجاج لإصافاً ، ولذا لانلسم بتوثيقها ، وإنما نشك فيها ويحيل إلى ترجيح وضعها وانتحالها .

وفى أبيات أخرى تبدو فيها بعض مواطن الشك ، ولكننا لانجد أدلة كافية للكتابة في الرجز المنحول أو المشكوك فيه ، ولا سيما أن بعضها مضطرب في نسبه إلى العجاج ، وإلى غيره من الرجاز ، ولذا ربما كان من صنع العجاج ، وربما كان منحولاً أيضاً ، ولهذا أرجأنا النظر فيه إلى القسم الثاني من هذا الفصل ، وهو الاضطراب في رواية رجز العجاج .

٢ - الاضطراب في رواية رجزه

وجدنا أن صور الالتحال قليلة جداً في رجز العجاج ، ولا سيما في

- (١) المقاصد النحوية ٣٥٧/٤ .
- (٢) خزائن بولاق ٢٢٢/٣ .
- (٣) انظر تخريجها في آخر الديوان .

ديوانه الذي رواه الأصمعي ، إلا أن صور الاضطراب في رواية رجزه كثيرة جداً ، ولا بد من عرضها جميعاً لغربة رجز العجاج قبل أن نبين في موضوعاته وخصائصه . ومشكلة الاضطراب في رواية الشعر ونسبته إلى أصحابه مشكلة صعبة الممالك ، يمكن أن تصادف الباحث في كل دراسة يتجه بها إلى أدبنا القديم ، ولا سيما أدب الجاهلية وصدر الاسلام ، ذلك لأن تشابه الأسماء أحياناً يميل بالرواية إلى الوم والاضطراب بين هذا وذاك ، وأسرة الشاعر أيضاً ربما أوقعت في الوم إن كان فيها من يقرض الشعر ، وكذلك شهرة الشاعر بادن معين من الشعر يمكن أن يرفع في الوم والاضطراب مع من اشترى بهذا اللون أيضاً ، ومن ثم وجدنا اضطراباً واسعاً بين الشعراء الذين عرفوا بالثالة والتخف ، والشعراء الذين عرفوا بالنسب والغزل ، والشعراء الذين عرفوا بنظم الرجز ، وكذلك نجد اضطراباً في نسبة الأشعار إلى أصحابها لاسيما "ال" بسبب الوم وعدم التثبت من الرواة ، وهذا كثير جداً في أدبنا القديم ، وهذه الأسباب وما إليها تجعل من واجب الباحث أن يحقق دائماً في هذه الأشعار المضطربة ، ليكون على يقينة مما لهذا الشاعر وما ليس له .

ومن هنا كان توثيق رجز العجاج لابد فيه من دراسة للأشعار المنحولة أو المشكوك فيها ، ودراسة أخرى للأشعار المضطربة التي يتنازعها الرواة بين العجاج وبين غيره من الشعراء . ويمكن أن تصنف الأراجيز أو الأبيات المضطربة عند العجاج في أربعة أقسام تبعاً للأسباب التي أدت إلى هذا الاضطراب ، وأول هذه الأقسام تلك الأراجيز التي وقع الاضطراب في روايتها مع أسرة العجاج ، ونعني بذلك رؤية بن العجاج ، وعبد الله بن رؤية حفيد العجاج .

أما عبد الله بن رؤية فقد أثار لدينا الشك في موضع واحد فقط ، إذ

أورد الراغب الأصفهاني هذين البيتين :

يرى راحة في كثرة المال ربه . وكثرة مال المرء للمرء منعب
إذا قل مال المرء قلت همومه . وتشتعبه الأموال حين تشتعب
وعزاهما إلى عبد الله بن رؤية^(١) . ومرة إثارة الشك ، إلى أن عبد الله بن رؤية يمكن أن يكون العجاج نفسه ، ويمكن أيضاً أن يكون حفيده ، فكل منها يدعي عبد الله بن رؤية ، والبيتان من الطويل لا من الرجز ، وقول العجاج لغير الرجز نادر جداً ، ومع ذلك فإننا نرجح أن تكون الأبيات له ، لأن حفيده لم ينقل عنه أنه يقول الشعر أو الرجز .

وأما رؤية فقد حمل لواء أبيه في الرجز ، حتى كثر من أبيه رجزاً ، وأغزر منه ديواناً ، والرواة يجمعون بينهما في الفصاحة واللغة والاحتجاج ولهذا كان فقه تداخل كثير واضطراب واسع في رواية بعض الأراجيز أو الأبيات ، والخطأ في عزوها إلى رؤية أو إلى أبيه العجاج .

وأول ما نلاحظه من صور الاضطراب بين رؤية والعجاج بعض الأراجيز التي وردت في ديوان العجاج ، ثم وردت في ديوان رؤية ، وهي تعني أنها عزيت إلى العجاج مرة وإلى رؤية مرة أخرى ، ولا بد من نظرة إليها ، ولأن كان لنا أن نقول منذ الآن ، إن رؤية كان هو الذي روى نيران العجاج ، ومن المحتمل جداً أنه روى هذه الأراجيز لأبيه فظن بعضهم أنها لرؤية فرواها له .

وأول هذه الأراجيز الأرجيزة (٢٨) من ديوان العجاج ، وأولها :

لئن جُعِلنا إتيماً جَبَلًا . وتمتعلاً إذا أرادوا تمعُّلاً

(١) محاضرات الادباء ٢٤٧/١ .

وتتألف من (٧) أبيات ، وقد وردت أيضاً في ديوان رؤبة^(١) ، وفي النسخة التي جاءت برواية الأصمعي وشرحه^(٢) ، مما يشير إلى أن الأصمعي قد رواها للعجاج أولاً ، ثم رواها لرؤبة ثانياً ، وكان يمكن أن يقال إنها قد أضيفت إلى ديوان رؤبة يوم من النسخ ، ولكن اختلاف الشرح بين هذا الديوان وذاك ، يجعل من المستبعد أن يكون نقلها في ديوان رؤبة بفعل النسخ لآمن الديوان .

ولم يرد شيء من أبياتها في كل مارجعنا إليه من مصادر ، وبذلك لا نجد لها مصدراً إلا رواية الأصمعي ، وإذا عدنا إلى دراستها وجدنا من الصعب جداً أن يقال فيها حكم فصل يدفع بها إلى العجاج أو إلى ولده رؤبة ، ولا سيما أن موضوعها هو الفخر بتميم ، وهذا سائد في رجز رؤبة والعجاج معاً ، وأسلوبها لا يتميز فيه بسهولة الفوارق بين أسلوب كل منها ، ولكننا نستشعر من تكرار الألفاظ داخل البيت أنها أقرب إلى أسلوب العجاج منها إلى أسلوب رؤبة ، وكذلك يساعدنا في هذا الترجيح ما قلناه سابقاً من أن رؤبة كان راوية أبيه ، وقد روى هذه الأرجوزة لأبيه حين جمع شعر العجاج ، ثم رواها مرة أخرى فظن الأصمعي أو أستاذه أبو عمرو أنها لرؤبة نفسه .

والأرجوزة الثانية هي الأرجوزة (٣٩) من ديوان العجاج ، وأولها :
 إِنْ شَأْنُ مَا الْحَرْبُ حَدَّ نَابِهَا وَطَالَ بَعْدَ قِصَرِ أَسْبَابِهَا
 وتتألف من (٢١) بيتاً ، وقد وردت أيضاً في ديوان رؤبة ، وفي

(١) النسخة (٥١٩) أدب ص ١٥٥ ، والنسخة (٤٩) أدب ص ١٦٦ .
 (٢) أمكن لنا أن نعثر على أصليين لديوان رؤبة : الأول برواية الأصمعي وشرحه ، والثاني برواية ابن الأعرابي وشرحه أيضاً ، وقد اختلفا في عدد الأراجيز ، وترتيبها ، وطريقة شرحها .

النسخة التي رواها وشرحها ابن الأعرابي^(٣) ، ولم يرد شيء من أبياتها في كل مارجعنا إليه من مصادر ، وإذا عدنا إلى الأرجوزة نفسها وجدناها تتبع طريقة العجاج في الفخر ، فصاحبها لا يشتم ولا يحب ذلك الشتم حتى إنه لا يرد في هذه الأرجوزة على من تعرض له بذلك ، ثم نجد لديه فخراً بقوافيه وجرياً على لسانه جري السيل من شعاب الجبال ، وهذه المعاني وردت بكثرة في أراجيز العجاج التي خصها بموضوع الفخر الذاتي ، ولهذا نرجح أن تكون الأرجوزة للعجاج نفسه وما سلكها في ديوان رؤبة إلا لأن رؤبة كان راوية لديوان أبيه ، ولا يبعد أن يكون ابن الأعرابي أو أحد أساتذته قد وهم في نقل بعض الأراجيز التي رواها رؤبة لأبيه فظن أنها لرؤبة نفسه .

والأرجوزة الثالثة هي الأرجوزة (٤٣) من ديوان العجاج ، وأولها :
 يارب! إِنْ أَهْطَأْتُ أَوْ نَسِيتُ فَأَنْتَ لَا تَنْسَى وَلَا تَمُوتُ

وتتألف من (٧٤) بيتاً ، وقد وردت في ديوان رؤبة ، وفي كل من نسختي الأصمعي وابن الأعرابي^(٤) ، وفي اختلاف بين شرح الأصمعي لها في ديوان رؤبة ، وبين شرحها في ديوان العجاج ، وهذا الاختلاف ينفي أن تكون الأرجوزة قد أضيفت مع شرحها إلى ديوان رؤبة بفعل النسخ ، إذ لو تم ذلك على يد ناسخ لا اختلف الشرح المدرج مع الأرجوزة ، وهذا يؤكد أن الأصمعي هو الذي صنف الأرجوزة في ديوان العجاج وشرحها ، ثم صنفها في ديوان رؤبة وشرحها أيضاً .

وقد وردت أبيات من هذه الأرجوزة في مصادر كثيرة جداً ونسبت إلى

(١) النسخة (٥١٦) أدب الورقة ٣٠٢ .
 (٢) النسخة (٥١٦) أدب الورقة ١٢٨ ، والنسخة (٥١٩) أدب ص ١٠٣ ، والنسخة (٤٩) ش (أدب ص ١٠٩) .

ية^(١) ، ولم ترد أية إشارة إلى العجاج إلا في رواية الخالدين للبيتين (٣٢-٣٣) منسوين للعجاج ، وكثرة هذه المصادر التي تروي أبياتاً منها إية ربما كانت مرجحاً قريباً في عزو الأرجوزة إلى رؤبة دون العجاج ، لما لم افترضنا أن الرواة والمصنفين قد نقلوا عن ديوان رؤبة هذه الأرجوزة ، بلهم لا ينقلونها عن ديوان العجاج أيضاً ، وكلاهما مصنف موجود بين أيدي مدة الأصمعي ومن لحق بهم ، إن هذا لا نجد له تفسيراً سوى شهرة الأرجوزة إية دون العجاج ، ولكننا بالمقابل لا نقوى على تأكيد هذه النتيجة واعتبار رجوزة لرؤبة وإخراجها من ديوان العجاج ، ذلك لأن الديوان الذي بين يدينا قد نقلت الأصمعي روايته نقلاً عن أبي عمرو بن العلاء عن رؤبة ، ورواية رؤبة لرجز أبيه ربما أوقعت الأصمعي أو أبا عمرو في شيء من الاضطراب والره ، ولهذا نشك في نسبة الأرجوزة إلى العجاج ، كنتي مجرد التنبيه على ما في نسبتها من اضطراب بينه وبين ولده رؤبة . ومقابل هذه الأراجيز الثلاث التي وردت في ديوان العجاج ، وفي ديوان به أيضاً ، فة أرجوزة وردت في ديوان رؤبة برواية الأصمعي دون إشارة العجاج ، وأولها^(٢) :

وبلّد يغتال خطو المخططي يغابيل الغول عريض المبتسط
وهي تتألف من (٤٥) بيتاً ، وقد وردت أيضاً في ديوان رؤبة برواية الأعرابي ، وجاء في مقدمتها قوله : « قال أبو الحسن الخبزي إن الأعرابي ، هذه للعجاج ، وهي في رواية أبي عمرو والأصمعي لرؤبة^(٣) » . ولا شك أن الأصمعي قد رواها عن أبي عمرو (١٥٤) هـ ، ورواية

(١) انظر تخرجه الأرجوزة في آخر الديوان .
(٢) النسخة (٥١٩هـ) ص ٢١٣ ، والنسخة (ش) ٤٩ أدب ص ٢٢٧ .
(٣) النسخة (٥١٦هـ) الورقة ١٥٤ .
- ١٦٠ -

أبي عمرو أوثق وأقدم من رواية ابن الأعرابي (٢٣١هـ) ، ولا سيما أن أبا عمرو قد نقل ذلك كله عن شفاه رؤبة ، ولو نقل أبو عمرو شيئاً من رواية هذه الأرجوزة للعجاج لأوردتها الأصمعي في ديوانه ، بل إن الأصمعي قد أكد نسبتها إلى رؤبة حين قال في شرح البيت الأول منها : « قال أبو سعيد : سرقاً رؤبة من أبيه العجاج ، قال أبوه :

وبلّد يغتال خطو المخططي^(١)

قال : حدثنا مسلمة بن عياش قال : قال رؤبة : الفحول هم الرواة . قال : يريد أنهم يسرقون » .

ونقل : ابن الأعرابي في نسخته خلاصة قول الأصمعي فقال : « قوله وبلد ، قال الأصمعي : سرق هذا من أبيه من قوله : وبلد يغتال خطو المخططي » .

فالأصمعي قد نص على سرقة رؤبة لهذا البيت من أبيه العجاج ، وهذا مانص عليه ابن قتيبة أيضاً فقال عن رؤبة : « قوله :

وبلد يغتال خطو المخططي

سرقة من أبيه ، قال أبوه :

وبلد يغتال خطو المخططي^(٢) » .

وبذلك نقول الأصمعي وابن قتيبة يؤكد أن تكون الأرجوزة لرؤبة لا لأبيه كما زعم ابن الأعرابي : والذي يؤكد ذلك أيضاً أن ابن دريد وابن فارس والملاحظ^(٣) والخبزي قد نقلوا أبياتاً منها ونسبوا جميعاً إلى رؤبة^(٤) ،

(١) الأرجوزة ٢/٢ ، والبيت برواية الديوان :
وبلدة بعيدة النياط مجعولة تغتال خطو المخططي
(٢) الشعر والشعراء ٥٧٨ .
(٣) انظر جبهة اللغة ١/٣٠٦ ، ومقاييس اللغة ٤/١٥٨ ، والبيان
العجاج - ١١

في حين لم نجد إشارة إلى العجاج إلا في اللسان^(١) ، إذ نسب إليه بيتين من الأرجوزة ، وهذا لا يعدو أن يكون ضرباً من الهم ، إذا ما قورن بكثرة الروايات التي تنسب الأرجوزة إلى رؤبة .

ولهذا لم نخل هذه الأرجوزة إلى ديوان العجاج ، لأثر من المرجح لدينا أنها ليست له مطلقاً ، وإنما هي لرؤبة بن العجاج ، ومكانها الطبيعي أن تكون في ديوان رؤبة .

وفي أرجوزة ألحقت بديوان العجاج ، من رواية أبي اسحق الزبادي ، وهي الأرجوزة (٤٣) ، وأولها :

كَمْ قَدْ حَسَرْنَا مِنْ غَلَاةِ عَنَسٍ كَبْدَهُ كَالْفَنَسِ وَأَخْرَى جَلَسٍ
وتتألف من (٧٧) بيتاً . وفي أخبار نجعل منها أرجوزة لرؤبة بن العجاج ، أو نجعل العجاج هو الذي سرقها من رؤبة ونسبها إلى نفسه ، ولا بد من مناقشة ذلك حتى نخرج إلى توثيق هذه الأرجوزة .

والخبر الأول نقله ابن قتيبة فقال : « وحدثنني (سهيل بن محمد) عن الأصمعي عن عقبة بن رؤبة عن أبيه ، قال : بينما أنا أصلي برذعة لي وأنا أقول^(٢) :

حَتَّى احْتَضَرْنَا بَعْدَ سَبْرِ حَدَسٍ إِمَامَ رَغَسٍ فِي نِصَابِ رَغَسٍ
خليفة ساس يغير تغس

فقال لي أبي : يا أحمق ، ألا قلت^(٣) :

والتيبين ٢٦٦/١ ، وأساس البلاغة ٣٤٦/٢ . وعبارة الجمهرة : « قال الراجز رؤبة بن العجاج » .
(١) اللسان (أجن) .
(٢) الأبيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ من الأرجوزة .
(٣) البيت الأول والثاني هما البيتان (٤٠ - ٤١) من الأرجوزة ،

بَيْنَ ابْنِ مَرْوَانَ قَتْرِيعِ الْإِنْسِ وَبَيْنَ عَبَّاسٍ قَتْرِيعِ عَبَسِ
أَنْجَبَ عَرَسَ جَبِلًا وَعَرَسَ
فذهب بها كلها ، لا والله ماله منها إلا أربعة أبيات^(١) .

والخبر الثاني أورده السيراقي فقال « وحدثننا أبو بكر بن السراج ، قال حدثنا أبو العباس محمد بن يزيد ، قال حدثنا الزبائني ، أحسبه عن الأصمعي ، قال : قال رؤبة خرجت مع أبي أربد سليمان بن عبد الملك^(٢) ، فلما صرنا ببعض الطريق قال لي أبي : أيرك راجز وجدك راجزاً وأنت مفهم ! قلت : أمأقول ؟ قال : نعم . قال فقلت :

كَمْ قَدْ حَسَرْنَا مِنْ غَلَاةِ عَنَسٍ

ثم أنشدته إلها ، فقال : أسكت فص الله فاك . قال : فلما انتهينا إلى سليمان ، قال له : ما قلت ؟ فأنشده أرجوزتي ، فأمر له بعشرة آلاف ، فلما خرجنا من عنده قلت : أنسكتني وتشد أرجوزتي ؟ قال : أسكت وملك فأنك أرجز الناس . قال : فالتفت منه أن يعطيني نصيباً مما أخذته بشعري فأبى أن يعطيني منه شيئاً فزادته ، فقال^(٣) :

لَطَال مَا أَجْرَى أَبُو الْبَحَّافِ لَيْبَةَ بَعِيدَةَ الْإِجْجَافِ
ثَلَوَ عَنْ الْأَهْلِينَ وَالْأَلَّافِ سَرْمَهَتْهُ مَامَتْهُ مِنْ سَرْهَافِ
حَتَّى إِذَا مَا آخَصَ ذَا أَعْرَافِ كَالْكُوْدُنِ الْمَشْدُودِ بِالْإِكْكَافِ

والبيت الثالث لم يرد في أرجوزة الديوان ، وقد رواه أيضا بعد هذين البيتين الجواليقي في التكملة ٢٥ ، ورواه ابن منظور في اللسان (عرس) بعد البيت (٤٣) من الأرجوزة .
(١) الشعر والشعراء ٥٧٦ - ٥٧٧ .
(٢) سبق أن أشرنا إلى أن الضواب هو الوليد بن عبد الملك . انظر حديثنا عن رحلة العجاج .
(٣) ديوان العجاج ، الأرجوزة ٤٧/٨ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٩ - ٦٣ ونسبة اختلاف في الرواية .

قال الذي عندك لي صَوافٍ من غير ما كَسَبَ ولا احتِرافٍ
فقال رؤبة يجيبه ^(١) :

أنك لم تصف أباً الجفافِ وكان يرضى منك بالانصافِ
ظلمتني غيبتُكَ ذو الإمِّرافِ باليت حظي من نَمالِكَ الصافي
والفضل أن تتركني كَنَفِ ^(٢) .

فالخبر الأول يزعم أن الأرجوزة لرؤبة ، وليس للعجاج منها إلا أربعة
أبيات والخبر الثاني يزعم أن العجاج قد سرق الأرجوزة من رؤبة ، ثم يجعل
ذلك سبباً للعتاب الذي جرى بين العجاج ورؤبة ، إلا أن هنالك من الأخبار
والخلفاء ما يفند هذين الخبرين ، ويؤكد أن الأرجوزة للعجاج نفسه .

فالمرزباني نقل بسندين عن أبي عبيدة والأصمعي : « أن العجاج دخل
على الوليد بن عبد الملك ، فأنشده :

كَمْ قَدْ حَسَرْنَا مِنْ عِلَاقَةِ عَنَسٍ

فصار إلى قوله :

بين ابن مروان قريع الإنس وابنة عباس قريع عيس

فقال له الوليد : ما صنعت شيئاً ، أنشدني غيرَ هذا . فأنشده ^(٣) :

وقد أُراني اللغواني مَصِيْدًا ملاوة كان فوق جَنِيْدًا

فقال : مَصِيْدًا ، وجَنِيْدًا ، لم تصنع شيئاً ، أفرغتَ مدحك في عمر

(١) ديوان رؤبة : من أرجوزة دة يساع على أبيه ، وهي في النسخة
(٥١٦) أدب : الورقة ٢٩٩ ، والنسخة (٥١٩) أدب ص ١٥٣ ، والنسخة
(٤٩٩) أدب : ص ١٥٩ ، وثمة اختلاف في الترتيب والرواية .
(٢) أخبار التحويين البصريين ٩١ - ٩٣ ، ونقله ابن عساکر في تاريخه
٣٩٥/٧ .
(٣) ديوان العجاج ، الأرجوزة ٩/٢٧ - ١٠ وفي الرواية بعض الاختلاف .

ابن عبيد الله بن معمر إذ قلت - وقال الأصمعي فقال له أقول في ابن
معمر - ^(١) :

حَوَّلَ ابنَ غَرَّةٍ حَصَانٍ إِنْ وَتَرَ فَازَ وَإِنْ طَالَ السَّبَّ بِالرَّغْمِ اقْتَسَدَرَ
إِذَا الْكِرَامُ ابْتَدَرُوا الْبَاغَ بَدَرَ

ونقول في ^(٢) :

بين ابن مروان قريع الإنس وابنة عباس قريع عيس
فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لكل شاعر غربة ، وإن غربة ذهاب
في ابن معمر ، وقال أبو عبيدة : قال : فإن لكل شاعر حمة ، وكانت
هذه الأرجوزة حُمَتِي فَقَدَتَهَا ^(٣) .

ثم روى المرزباني شيئاً من هذا الحديث بأسانيد تنتهي عند أبي عمرو بن
العلام ، وذكر في نهايته أن يونس كان يشك بهذا لعله أن الوليد كانت
لصاناً لا يحسن ذلك ^(٤) ، إلا أن هذا الشك فيه نظر ، ذلك لأن اللحن في
اللغة لا يمنع أن يتذوق الخليفة بعض المعاني في المديح ، ويفاضل بينها ، ولا
سبباً إذا كان الفارق شيئاً كما في أبيات العجاج المتقدمة .

والمهم في خبر المرزباني أن سنده ينتهي عند الأصمعي وأبي عمرو وأبي
عبيدة لأعند رؤبة بن العجاج ، وكذلك فهو لا يشير إلى استعسان العجاج
لمعاني بعض الأبيات التي أوردها ابن قتيبة ، ولا نجد هذه الرحلة التي وصفها
السيرافي ، ولا أثر لرؤبة في حضرة الوليد ، وإنما دخل العجاج وحده فأنشد
الأرجوزة ، أما خبر السيرافي فيشير من طرف خفي إلى اجتماع رؤبة والعجاج

(١) ديوان العجاج ، الأرجوزة ٧١/١ - ٧٣ .
(٢) الموشح ٢١٥ - ٢١٦ .
(٣) الموشح ٢١٦ - ٢١٧ .

معاً بين يدي الوليد . وإذا وُجِدَ الخبر أكثر من رواية لم يعد من العلم في شيء أن يؤخذ بواحدة دون أخرى .

وما يمكن أن ينقص خبر البيهقي من أساسه ، هو أن هذا الخبر قد أوردته السيوطي^(١) ، والبغدادي^(٢) أيضاً ، ونقله بعده خبيراً آخر يفسر الخلاف بين العجاج وولده ، فقال السيوطي : « وروى صاحب كتاب مناقب الشبان وتقديمهم على ذوي الأسنان من طريق محمد بن سلام عن أبي عجيبي الضبي ، قال : كان رؤبة يرعى لبل أبيه ، حتى بلغ وهو لا يقرب الشعر ، فتزوج أبوه امرأة يقال لها عقرب ، فعادت رؤبة ، وكانت تقسم إبله على أولادها الصغار ، فقال رؤبة : ما هم أحق مني^(٣) ، إني لأقاتل عنها السنين ، وأنتجع بها الغيث . فقالت عقرب للعجاج : اسمع ، هذا وأنت حي ، فكيف بنا بعدك ؟ ! فخرج فزبره ، وصاح به ، وقال : اتبع ابلك : لعلنا أجري أبو الجحاف .. الخ^(٤) » .

وهذا الخبر ينقص مانص عليه خبر البيهقي من أن الخلاف بين رؤبة والعجاج كان بسبب الأرجوزة السنية ، إذ يجعل الخلاف بينهما خلافاً أسرياً يمكن أن يحدث في كل ظرف مشابه ، وما يؤيد هذا أن أرجوزة العجاج التي عاتب فيها ولده ، وأرجوزة رؤبة التي رد بها على أبيه ، لا تحتملان أية إشارة إلى رواية تلك الأرجوزة في حضرة الوليد ، ولما نجد من خلال الأرجوزتين مانص عن ذلك الخلاف الأسري بسبب إبل أو مال أو ما أشبه ذلك ، قد جر إلى خلاف أوسع بينهما ، ويبدو من قراءة أرجوزة

(١) شرح شواهد المفني ٢٢٣ .

(٢) الخزائن ٣٩/٢ .

(٣) في الخزائن : « ما هم باحق مني لها » .

(٤) شرح شواهد المفني ٣٢٤ ، ونقله البغدادي في الخزائن ٤٠/٢ .

رؤبة أنه كان مهذباً بعض الشيء في الرد على أبيه ، ولكنه كان مثالاً لأن والده قد رجز فيه ، ولو كانت المشكلة مشكلة سرقة العجاج لأرجوزة من أراجيزه ، لكان رؤبة ساقاً إلى الإشارة ، ولو من طرف خفي ، إلى هذا السبب الذي أثار العجاج فقال في رؤبة رجزاً قد يسيء إليه بين الناس . ولكن ليس من إشارة إلى هذا كله ، بما يدل على أن هذا العتاب الذي سجر بين الوالد وولده كان خلافاً آخر لا يمت بصلة إلى ما يرمعه رؤبة فيما بعد من أن السبب كان سرقة العجاج لأرجوزة له .

ولعل الصلة قد ساءت فيما بعد بين رؤبة بن العجاج وأسرته أبيه ، ولا سيما بعد وفاة العجاج ، ولهذا ربما سمح رؤبة لنفسه أن يلق بعض الأخبار التي تناهض أباه العجاج ، أو تلقى عليه السلام فيما كان قد سجر بينهما من خلاف . ولذا وجدنا الخبرين اللذين يتالان من العجاج ينتهان عند رؤبة نفسه ، في حين لم نجد الأخبار الأخرى تنتهي عنده ، ولما تنتهي عند كبار الرواة أمثال أبي عمرو بن العلاء ، تنقل عن شاهد ماجري في مجلس الوليد أو سمعه .

وبهذا نرجح أن يكون باطلاً كل ما قيل عن سلب العجاج هذه الأرجوزة من رؤبة . وتزداد هذه الحقيقة يقيناً باتفاق الأصمعي وابن الأعرابي على أنها للعجاج ، فالأصمعي قد رواها عنه أبو اسحق الزبدي في ديوان العجاج ، وأما في ديوان رؤبة فلم ينقل الأصمعي منها شيئاً ، ولم يشر إليها بأية إشارة ، وكذلك ابن الأعرابي لم يروها في ديوان رؤبة ولم يشر إليها مطلقاً ، وقد رأيناها يعرض لرواية الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء في غير هذه الأرجوزة ، ولو وجد مجالاً إلى مخالفة الأصمعي ورواية هذه الأرجوزة لرؤبة ، لنص على ذلك ، إلا أنه أنقلها من ديوان رؤبة ، وكان هذا الرهاص منه بأنها للعجاج كما رواها الأصمعي .

وأبيات الأرجوزة قد تناوت في مصادر كثيرة جداً^(١) ، ومعظم هذه المصادر على صحتها قد نسبت إياتها إلى العجاج ، ولم نجد في كل ما رجعنا إليه من مصادر إية إشارة إلى رؤبة إلا في موضع واحد من جبهة اللغة ، نقل فيه ابن دريد البيت (٢١) وعزاه إلى رؤبة^(٢) ، وهذا لا يعدل أن يكون وهما منه في هذا الموضع لأنه نقل أبياتاً أخرى من هذه الأرجوزة في مواضع متعددة من جبهة اللغة ، ونص في عدد منها على أن الرجز للعجاج^(٣) . وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الأرجوزة للعجاج ، وما قيل من أنها لرؤبة ، لم يجد أدنى صاغية لدى الرواة الأوائل من أمثال أبي عمرو بن العلاء والأصمعي وأبي عبيدة ومن إليهم .

فإذا توسعنا في دراسة الاضطراب بين رؤبة والعجاج رأينا هذه الظاهرة بتسع نطاقها اتساعاً بلغت النظر في رواية أبيات من أراجيز العجاج وعزوها إلى رؤبة ، أو رواية أبيات من أراجيز رؤبة وعزوها إلى العجاج ، ومرد هذا الاضطراب الراسع في الرواية بينها ، إما يعود إلى أن شهرة رؤبة في قول الرجز لا تقل عن شهرة العجاج ، وهذا ما أدى برواة الشاهد إلى الوقوع في الوم والخطأ في إسناد الرجز لرؤبة أو للعجاج . وبما ساعد على اتساع ذلك أمران : الأول تشابه الأسماء ، والثاني تشابه الرجز .

أما تشابه الأسماء فيبدو في كنية رؤبة ، إذ كان يكنى بأبي الجحاف،

وبأبي العجاج أيضاً^(٤) ، ولا شك أن كنيته الثانية « أبا العجاج » ، قد لعبت دوراً هاماً في مشكلة الاضطراب بين العجاج ورؤبة ، ويمكن أن يضاف إليها أن الرواة والمصنفين قد أكثروا من عبارة « قال العجاج بن رؤبة »^(٥) ، أو « أنشد للعجاج بن رؤبة »^(٦) ، وأكثروا أيضاً من عبارة « قال رؤبة بن العجاج »^(٧) ، أو « أنشد لرؤبة بن العجاج »^(٨) ، ولا يخفى التشابه بين « العجاج بن رؤبة » و « رؤبة بن العجاج » ، مما كان يوقع في الوم ، أو التقديم والتأخير من قبل النساخ أو الرواة ، ولعل من صور هذا الوم ما كان يصادفنا من حيرة لدى بعضهم ، إذ كان يقف عند رواية البيت فيقول : « وأنشد للعجاج أو رؤبة^(٩) » ، فيحار بين الرأجرين الكبيرين ، وهذا التشابه كان وراء كثير من أمثلة الاضطراب بينها .

ولم يكن تشابه الأسماء هو الوحيد الذي أوقع في الوم والاضطراب، ولها كان لتشابه الأراجيز دور هام في ذلك أيضاً ، ومن أمثلة ذلك ، أن الزغشري أنشد بيت العجاج^(١٠) :

صرباً هذا ذبك وطعننا ونخضنا

وعزاه إلى رؤبة وهما منه^(١١) ، وذلك لوجود بيت مشابه لرؤبة

(١) انظر تخريجها في آخر الديوان .

(٢) جمهرة اللغة ٢٥٦/٣ ، وعبارة الجمهرة : « قال رؤبة » .

(٣) انظر جمهرة اللغة ٦٠/١ ، ١٧٣ ، ٢١٠ ، و ٤٧/٢ ، و ٢٧/٣ ، و ٤٤ وعبارة الجمهرة فيها جميعاً : « قال العجاج » ، وهي صريحة بأنها لابن دريد . وانظر الجمهرة ١٤٧/١ ، و ٧٢/٢ ، و ٩٤ ، ١٦٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، و ٤٣/٣ ، و ٢٠٥ ، وعبارة الجمهرة في هذه المواضع : « قال الرجز العجاج » وانظر الجمهرة ١٣٧/١ والعبارة هنا : « قال الآخر العجاج » .

(١) الأغاني ١٢٢/١٨ ، و ٥٧/٢١ ، و ٥٨ .

(٢) انظر مثلاً الصحاح ١٦٧٢/٤ ، وجمهرة اللغة ٢١٣/١ .

(٣) جمهرة اللغة ٢٢/١ ، و ٤٩٩/٣ .

(٤) انظر مثلاً البيان ٤٠/١ ، وجمهرة اللغة ٦/١ ، و ٩٣ ، وأدب الكاتب ٦٤ ، والصحاح ٩٧٢/٣ ، وشرح المفسر ٢١٤ .

(٥) انظر مثلاً البيان والنبين ٢٧/١ .

(٦) انظر مثلاً الأرملة والاسكتة ٣١٩/٢ .

(٧) ديوان العجاج ، الأرجوزة ٣١/٦ .

(٨) أساس البلاغة ٥٤١/٢ .

ن أرجوزة في ديوانه تشبه في رويتها وقائيتها أرجوزة العجاج ، وهو^(١) :
فَتَحَّنَا عَلَى الْهَامِ وَبَجَا وَخَصَا

فالتشابه بين الأرجوزتين أو بين البيتين ، أوقع الزمخشري في الوم
أخطأ في رواية بيت العجاج ونسبه إلى رؤبة . ومن هنا كان تشابه الرجز ،
و تشابه الأسماء ، يؤدي إلى رواية بعض الأبيات وعزوها إلى رؤبة وهي
عجاج ، أو عزوها إلى العجاج وهي لرؤبة ، وتبين ذلك سهل جداً إذا كانت
هذه الأبيات من أرجيز قد وردت في ديوان كل منهما ، إذ أن وجود بيت
نسب إلى رؤبة وهو للعجاج ، يمكن أن تصحح نسبة أرجوزة البيت
لواردة في ديوان العجاج مثلاً ، ولهذا نلجئ ضرورة لعرض ذلك الحشد الكبير
ن صور الاضطراب في أبيات من ديوان العجاج تعزى إلى رؤبة ، أو من
ديوان رؤبة تعزى إلى العجاج ، فهي كثيرة جداً ولا فائدة من عرضها في
هذا الموضع ، وقد أشرنا إليها جميعاً في مواضعها من ديوان العجاج نفسه .

وأما الاضطراب في ملحقات ديوان العجاج ، فقد نجد صعوبة أحياناً
، دراسته وردت روايته للعجاج أو لرؤبة ، ولكن أكثر الاضطراب في هذه
الملحقات يمكن أن تحل مشكلاته ، وذلك تبعاً لدراسة نوع المصادر التي أوردت
هذه الرواية أو تلك ، وقدم هذه المصادر ، ومدى توثيق أصحابها ، وما
تصل بها من ظروف خاصة ، وما يلاحظ من كثرة الأبيات المتفرقة التي
عزى إلى أحدهما ، وهي من روي وقافية واحدة وقلة أبيات أخرى من
لروي والقافية نفسها تعزى إلى الآخر ، إذ ربما أشار ذلك إلى أنها كانت

(١) البيت (٨٦) من أرجوزة رؤبة ، وهو في ديوانه النسخة (٥١٦)
أدب) الورقة ١١١ ، والنسخة (٥١٩) أدب ص ١٩٨ ، والنسخة (٤٩) ش) ص
٢١٢ . وهو في مقاييس اللغة ١/١٧٣ ، و ٥/١١٢ ، والصحاح ١/٢٩٨ ،
٤٢٩ ، واللسان (فتح) و (بجج) و (وخص) .

تؤلف أرجوزة واحدة في الأصل ، قد تكون لمن تعزى إليه أكثر أبياتها.
فهذه الملاحظات يمكن أن تحدد لنا صاحب الأبيات بشيء من السهولة
أحياناً .

وإذا كنا لم نجد ضرورة لعرض ماحدث من اضطراب بين رؤبة والعجاج
في أبيات من أرجيز كل منها ، فإن ملحقات الديوان بحاجة إلى مثل هذا
العرض والدراسة .

ففي الأرجوزة (١) من الملحقات ، نجد ابن منظور (٧١١ هـ) قد أنشد
منها البيتين :

حَيْرَانٌ لَا يَشْعُرُ مِنْ حَيْثُ أَتَى عَنْ قَيْسٍ مَنْ لَاقَى أَخَاسَ أَمْ زَكَا
وعزاهما إلى رؤبة في موضع من اللسان^(٢) ، ثم عزاهما إلى العجاج في
موضعين آخرين^(٣) ، ورواية الأبيات في موضعين للعجاج أرجح من روايتها في
موضع واحد لرؤبة ، ولا سيما أن الأبيات قد رواها ابن قتيبة (٢٧٦ هـ)
للعجاج^(٤) ، وروايته أقدم من رواية المصادر التي اعتمدها ابن منظور في
تصنيف كتابه^(٥) ، ولهذا تبقى الأبيات للعجاج دون رؤبة .

وفي الأرجوزة (٢) من الملحقات ، أنشد البكري (٤٨٧ هـ) للعجاج^(٥) :

(١) اللسان (حسا) .

(٢) اللسان (دجر) و (زكا) .

(٣) المعاني الكبير ٢/٩٦٣ .

(٤) صنف ابن منظور كتابه اللسان من الأصول الخمسة : تهذيب
النسخة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى (٢٧٠ هـ) ، والصحاح لأبي
نصر اسماعيل بن حماد الجوهري (٢٩٢ هـ) ، والمحكم لأبي الحسن علي
ابن اسماعيل بن سيدة الأندلسي (٤٥٨ هـ) ، والإسماعيلي على الصحاح
للشيخ أبي محمد عبد الله بن بري (٥٨٢ هـ) ، والنهاية لأبي السعادات
المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (٦٠٦ هـ) .

(٥) معجم ما استعجم ٤/١٢٤٧ .

وَحَلَّتْ أَنْقَاءُ الْمُعَيَّ تَبَرُّبَا

وَأَنشده ابن سيده (٤٥٨ هـ) لرؤبة^(١) ، والكيري وابن سيده متعاصران إلا أن رواية الكيري أرجح لأن للعجاج أرجوزة بهذا الوزن تتناثر أبياتها في مصادر كثيرة ، وليس لرؤبة مثل هذه الأرجوزة .

وفي الأرجوزة (٢) أيضاً أنشد ابن منظور (٧١١ هـ) :

شَدَّ الشَّطِيْهُ الْجَنْدَلَ الْمَطْلُوبَا

وعزاه إلى رؤبة^(٢) ، وأنشد ابن فارس (٣٩٥ هـ) البيت الذي يليه :

فِي رُشْعٍ لَا يَتَشَكَّى الْحَوْبَا

وعزاه إلى رؤبة أيضاً^(٣) ، إلا أن هذا البيت أنشده الجوهري (٥٣٩٣) في موضعين للعجاج^(٤) ، وأنشده الإسكافي (٤٢١ هـ)^(٥) ، وابن منظور^(٦) للعجاج أيضاً ، كما نسب البيتان معاً إلى العجاج في جهرة اللغة^(٧) ، وهذا كله ميل بالبيتين إلى العجاج ، ولا سيما أن لهما نظائر من وزنهما في رجز العجاج ، وليس لهما نظائر في رجز رؤبة .

وفي الأرجوزة (٢) أيضاً أنشد ابن منظور هذين البيتين :

وَلَنْ تَنَاهِيَهُ تَجِدُهُ مِنْهَبَا تَكْسُو حُرُوفَ حَاجِيَتِهِ الْأَنْثَبَا

(١) المخصص ١٣/١٧ .

(٢) اللسان (طرب) .

(٣) مقاييس اللغة ٦٦/٢ .

(٤) الصحاح ١١٢/١ و ١٣١٩/٤ .

(٥) مبادئ اللغة ١٢١ .

(٦) اللسان (حطب) .

(٧) جهمرة اللغة ٣/٣٦١ ، وعبارة الجهمرة « قال الراجز العجاج » ،

وكلمة « العجاج » قد تكون لابن دريد أو لناسخ بعده .

وعزاهما إلى رؤبة^(٨) ، وفي موضع آخر أنشد الأول منها مع ثان على هذا النحو :

وَلَنْ تَنَاهِيَهُ تَجِدُهُ مِنْهَبَا فِي وَعْكَةِ الْجَدِّ وَحِينًا مِثْلَبَا

وعزاهما إلى العجاج^(٩) ، ثم أنشد البيت الأول مرة ثالثة ونسبه إلى العجاج أيضاً^(١٠) ، وإشارته إلى العجاج في موضعين أرجح من إشارته إلى رؤبة في موضع واحد ، ولا سيما أن بنية هذه الأبيات ومعانيها تدل على وحدة نسقها في أرجوزة واحدة في الأصل .

وآخر ما عثرنا عليه من اضطراب مع رؤبة في الأرجوزة (٢) هذا

البيت :

وَقَارِجًا مِنْ هَضْبٍ مَا تَقْتَضِبَا

فقد أنشده الزمخشري (٥٣٨ هـ)^(١١) ، وابن منظور لرؤبة^(١٢) ، وجاء في جهرة اللغة مع بيتين آخرين من هذه الأرجوزة للعجاج^(١٣) ، ولا شك أن كثرة الأبيات المنسوبة إلى العجاج في هذه الأرجوزة تشد هذا البيت لإلها وتنفيه عن رؤبة ، وبذلك يكون قد رُدتْ إلى العجاج كلُّ ما رُوِيَ لرؤبة من هذه الأرجوزة التي بلغت أبياتها (٦٠) بيتاً ، ولا يبعد أن تكون جزءاً من الأرجوزة (٧) من أصل الديوان ، وهذا الاحتمال يبعد عنها كل اضطراب داخلها بين العجاج وغيره .

(١) اللسان (ثلب) .

(٢) اللسان (ألب) .

(٣) اللسان (نهب) .

(٤) أساس البلاغة ١/٣٣٦ .

(٥) اللسان (قضب) .

(٦) جهمرة اللغة ٣/٤٣١ ، وعبارة الجهمرة : « قال الشاعر العجاج » .

وفي الرقم (٨) من الملحقات ، أنشد التميمي (٥٣٨) البيتين (١) :
مالي إذا أُجْدِبُهَا صَاحِبْتُ أَكْبَرُ غَيْرَتِي أَمْ يَبِيتُ

وعزاهما إلى العجاج ، وهذان البيتان أنشدتهما ابن دريد (٣٢١ هـ) في
جهرة اللغة ، وعزاهما إلى رؤبة بن العجاج (٢) ، وأنشد العيني (٨٥٥ هـ)
الآيات (١-٢) من هذه المقتطفة في المقاصد ، وقال : « أقول : قيل
لأنه لرؤبة ، ولم أقف على صحته (٣) » ، وأنشدتهما أيضاً في الفرائد ، وقال :
« عزي لرؤبة ولم يصح (٤) » ، وأنشد الآيات (٣-٦) في المقاصد أيضاً ،
وقال : « أقول : قاله رؤبة بن العجاج ، وهو من الرجز المدس ، ويقال :
هذا أنشده الكسائي ولم يعزه إلى أحد (٥) » ، وأنشد الآيات (٥-٦)
في الفرائد أيضاً ، وقال : « هذا رجز عزاه بعضهم إلى رؤبة ولم يثبت (٦) » .
ولا شك أن رواية ابن دريد أقدم من رواية أبي طاهر محمد بن يوسف التميمي
وأوثق ، وهي ترجح أن تكون الآيات لرؤبة ، ولكن الشك الذي أُلح
عليه الامام العيني ربما أشار إلى احتمال وضع هذه الآيات من قبل النحاة أو
أصحاب الشواهد وعزوها فيما بعد إلى العجاج عند بعضهم ، أو إلى رؤبة
في أكثر الروايات .

وفي الرقم (١٣) من الملحقات أنشد الجوهري هذا البيت :

بِفَاحِهِمْ وَحُفٍّ وَغَيْتِي يَخْرُجُ

(١) المسلسل في غريب اللغة ٤٢ .

(٢) جهرة اللغة ١/١٨٢ .

(٣) المقاصد ٣/٥٧٣ .

(٤) فرائد القلائد ٢٦٠ .

(٥) المقاصد ٢/٥٢٤ ، ونقل السيوطي نسبة الرجز لرؤبة عن العيني

في شرح شواهد الغني ٢٧٧ .

(٦) فرائد القلائد ١٦٨ .

- ١٧٤ -

وعزاه إلى العجاج (١) . وأنشده كذلك ابن منظور وعزاه إلى رؤبة (٢) ،
ولا مرجح بينهما لشبه المعاصرة بين الجوهري (٣٩٣ هـ) وأصحاب المصادر (٣)
التي يمكن أن ينقل عنها ابن منظور هذا البيت .

وفي الرقم (٢٠) من الملحقات أنشد ابن يعيش هذا البيت :

وَالرَّاسُ قَدْ كَانَ لَهُ شَكِيرٌ

وعزاه إلى العجاج (٤) ، ثم أنشده البغدادي في الخزانة وعزاه إلى رؤبة
ابن العجاج (٥) . ورواية ابن يعيش أقدم من رواية البغدادي (٩٠٣ هـ) ،
ولهذا ترجح أن يكون البيت للعجاج .

وفي الأرجوزة (٢٥) من الملحقات ، أنشد سيبويه هذا البيت :-

يَذْهَبِينَ فِي نَجْدٍ وَغَوْرًا غَاثًا

ونسب إلى العجاج (٦) ، ثم أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن مع
بيت آخر على هذا النحو :

يَهْوِينَ فِي نَجْدٍ وَغَوْرًا غَاثًا فَوَارِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَارًا

ونسب البيتين إلى رؤبة (٧) ، وبا أن أبا عبيدة قد أنشدتهما في مجاز

(١) الصحاح ١/٢٩٩ .

(٢) اللسان (بحر) .

(٣) الأزهري (٣٧٠ هـ) ، وابن سيده (٥٨ هـ) ، أما ابن بري

(٥٨٢ هـ) فلا ينقل عنه ابن منظور عادة إلا بعد ذكر اسمه والنص على

أقواله .

(٤) شرح المفصل ٧/١٠٠٧ .

(٥) الخزانة ٤/٣٢ (بولاق) .

(٦) الكتاب ١/٤٩ ، وعبارة الكتاب : « ومثله قول العجاج » وهي

صريحة بأنها من كلام سيبويه نفسه ، لا من كلام أبي عمر الجرمي (٢٢٥ هـ)

الذي قيل أنه نسب بعض آيات الكتاب . انظر في هذه المسألة كتاب

سيبويه وشروحه للدكتور خديجة الحدوشي ١١٨ وما بعدها .

(٧) مجاز القرآن ١/٤٠٦ .

- ١٧٥ -

القرآن ، فقد نُحِلّا عنه لرؤية في عدد من المصادر التي اعتمد بهذا الموضوع أو بما يقاربه ^(١) ، وعليها نُحِلّت هذه النسبة لرؤية في بعض المصادر الأخرى ^(٢) ، إلا أن رواية أحد الأبيات من قبل سيبويه للعجاج يجعل من المرجح أن يكون البيتان معاً للعجاج ، لأن سيبويه (١٦١ أو ١٦٨ هـ) سبق من أبي عبيدة (٢١٠ هـ) زمناً ، ويؤيد ذلك أبيات أخرى بهذا الوزن قد نُسبت إلى العجاج في بعض المصادر ^(٣) ، وليس من إشارة إلى رؤية إلا في رواية أبي عبيدة .

وفي الرقم (٢٨) من الملحقات أنشد ابن عساكر (٥٧١ هـ) في ترجمة العجاج البيت :

كَانَ خَلْفَهَا إِذَا مَادَرَا جَرُوا هِرَاشَ حُرْشًا فَهَرَا

وقال قبلها : « وما يستحسن له ^(٤) في وصف الدّر » وتروى لرؤية ^(٥) ، وهذا يشير إلى أن البيت من أرجوزة تروى للعجاج وتروى لرؤية أيضاً ، ولكنه لا أثر لها في ديوانه هذا أو ذاك ، ولم نعتز بهذا الوزن والقافية إلا على بيت واحد أنشده صاحب اللسان ، ومن المرجح أن يكون من هذه الأرجوزة الضائعة ، وقد عزاه ابن منظور إلى العجاج ^(٦) ، وليس

(١) الكشف للزمخشري ٣٩٣/٢ ، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٩٢/١ ، والتفسير الكبير لأبي حيان الأندلسي ١٣٦/٦ ، ومفاتيح الغيب للأمام الرازي ٤٨٨/٥ .

(٢) أساس البلاغة للزمخشري ٢٠٠/٢ ، وشرح القامات للشريشي ٥١/١ .

(٣) جوهرة اللغة ٣٣٤/٣ ، والشعر والشعراء ٥٧٣ ، واللسان (دعثر) .

(٤) أي للعجاج .

(٥) تاريخ ابن عساكر ٣٩٤/٧ .

(٦) اللسان (دعثر) ، وفي اللسان (دعثر) أربعة أبيات بهذا الوزن والقافية أيضاً قالها العجاج في أبيته حزمة ، ولكنها تبدو خاصة بمناسبة معينة ، وليست من أرجوزة مطولة ، ولهذا أفردناها في الرقم (٢٦) من الملحقات .

في هذا البيت ما يرجح نسبة الأرجوزة إلى العجاج دون رؤية ، وذلك لضياع هذه الأرجوزة ، وبذلك لا نجد من دليل يقطع في نسبة الأرجوزة إلى العجاج أو إلى ولده رؤية .

وفي الرقم (٤٢) من الملحقات ، أنشد المستشرق أواردت هذين البيتين :
إِنِّي إِذَا اسْتَشَيْتُ لَا أَحْبَبْتُ نَظِي وَلَا أَحْبَبْتُ كَثْرَةَ التَّمَطِّي
وأشار إلى أنه قد نقل البيتين عن كتاب الإشتاق (ص ٧٨) ، ولم نعتز عليها في كتاب الإشتاق لابن دريد ، أو في كتاب الإشتاق للأصمعي ، وقد وردا في بعض المصادر دون نسبة ، وأنشدهما العسكري في موضعين اثنين لرؤية بن العجاج ^(١) ، وليس في وسعنا مناقشة هذين البيتين إلا بالوقوف على مصدر نقل أواردت ، وذلك لاحتمال وجود خطأ في تصريحه بنقل البيت عن الإشتاق .

وفي الرقم (٤٥) من الملحقات ، أنشد الجاحظ هذه الأبيات :
أَمَّا رَأَيْتِ الْأَلْسُنَ السَّلَاطَا إِنَّمَا تَنْتَرَى الضَّخَا
والجاءة والإفْدَامَ والنُّشَاطَا

ولم يصرح باسم صاحب الأبيات ، ولما قال : « وقال التميمي : الأبيات ^(٢) » ، إلا أن المبرد أنشد البيت الثاني منها وعزاه إلى رؤية ^(٣) ، وأنشده كذلك الخالديان وعزياه إلى العجاج ^(٤) ، وبذلك أصبحت الأبيات تضطرب روايتها بين العجاج وابنه رؤية ، ولكن المبرد (٢٨٦ هـ) سبق من

(١) شرح ما يقع فيه التصحيف ٢٨ و ١٠٨ .

(٢) البيان والتبيين ١٧٧/١ .

(٣) الكامل للمبرد ١٤٩ .

(٤) المختار من شعر بشر ٩٥ .

المخالفين^(١) ، وباعتبار هذا المقياس الزمني ترجح أن تكون الأبيات لرؤية ، لأننا لا نجد من حولها أو في أسلوبها وبيتها مرجحاً آخر ميل بها نحو هذا الراجز أو ذاك .

وفي الأرجوزتين (٥١) و (٥٢) من الملتفات نجد تشابهاً في الوزن والموضوع ، فالأولى في مدح الحارث بن سليم الهجيمي ، والثانية في مدح إبراهيم بن عربي والي اليمامة . وقد نقل البغدادي هاتين الأرجوزتين للعجاج عن أبي محمد الأعواني في فرحة الأدب ، ثم قال بعدهما : « هكذا أوردته والله أعلم بالصواب ، والأكتون على أن هذا الرجز لرؤية بن العجاج لا للعجاج^(٢) » .

ولم نجد من أبياتها إلا بيتين فقط ، فقد عثرنا على البيت (٦) من الأرجوزة الثانية مروياً على هذا النحو :

يا أبتاً علك أو عساك

وقد ورد في بعض المصادر دون نسبة^(٣) ، ولكنه نسب في كتاب سيويه إلى رؤية^(٤) ، ونابغ الشنمري على نسبته إلى رؤية أيضاً^(٥) . وعثرنا على البيت (١) من الأرجوزة الأولى مروياً مع البيت (٦) من الأرجوزة الثانية على هذا النحو :

تَقُولُ بِنْتِي قَدْ أَتَى أَتَاكَ يَا أبتاً علك أو عساك

- (١) سعيد بن هاشم (٢٧١ هـ) ومحمد بن هاشم (٢٨٠ هـ) .
- (٢) خزائن الأدب ٤٤٣/٢ (بولاق) .
- (٣) أدب الكاتب ١٣٦ ، والانصاف ٢٢٢/١ ، والخزانة ٧٤/١ ، وخزانة بولاق ٤٣٠/٢ .
- (٤) الكتاب ٣٨٨/١ ، ومبارته : « قال الراجز وهو رؤية » ، وكلمة « وهو رؤية » زيادة من أبي عمر الجرمي على الأرجح .
- (٥) تحصيل عين الذهب ٢٨٨/١ .

وهذه الرواية أنشدنا الإمام العيني ، وصرح أن الأول منها صدر للثاني ، ونسب البيتين إلى رؤية بن العجاج^(١) ، ثم تابعه السيوطي على ذلك كله ونسب البيتين إلى رؤية أيضاً^(٢) ، ثم نسب البغدادي على هذا الخط والتداخل في رواية البيتين وأشار إلى موقع كل منهما في كتابنا الأرجوزتين^(٣) .

وبذلك فالمصادر لا تذكر العجاج مطلقاً ، ولما تشير إلى رؤية ، والذي يبدو لنا من دراسة الأرجوزة الأولى أنها لا يمكن أن تصدر عن العجاج ، لأنه في مدح لا يسفر الوجه تماماً عن الدوال وطلب العطاء ، ولأنه لم يخرج إلى خراسان أو كرمان ، وكذلك فأسلوب الأرجوزة بوجه عام ليس من نط أسلوب العجاج ، ولعل من الأرجح أن تكون لرؤية لأنها أقرب إلى طبيعة رؤية وأسلوبه منها إلى العجاج .

وأما الأرجوزة الثانية فلا يبدو أن تكون هي الأخرى لرؤية ، إلا أننا لا نكاد نمل كل الميل إلى ذلك ، لأن في الأرجوزة مدحاً لوالي اليمامة إبراهيم بن عربي ، وقد مدحه العجاج بأرجوزة مطولة في ديوانه^(٤) ، والمطاني التي نصادفها في هذه القطعة تشبه بعض المطاني التي وردت في أرجوزة البيوان ، ولا سيما في الخدب عن السنين والفتط وما ألم بالناس من بلاه ، ولهذا نكاد نرجح أن تكون هذه الأرجوزة للعجاج ، ولكن إنشاد سيويه لبيت من أبياتها وعز الجرمي (٢٢٥ هـ) على الأرجح لهذا البيت إلى رؤية ، وكذلك أشهر رؤية بالرجز إلى جانب والده في اليمامة ، محملاً لبعد الخطأ في هذا الترجيح ، ومن هنا نجد وسائلنا لا تقوى في هاتين الأرجوزتين على القول

- (١) المقاصد النحوية ٢٥٧/٤ ، وفرائد القلائد ٣١٨ .
- (٢) شرح شواهد المغني ١٥١ .
- (٣) الخزائن ٤٤٣/٢ (بولاق) .
- (٤) انظر ديوان العجاج : الأرجوزة (١٧) .

الفصل تماماً ، ولما خرج وغن مؤججين بين الشاعرين ، وإن كنا نفضل أن تكون الأرجوزة الأولى لرؤية ، والثانية للعجاج ، وما حدث بينهما من تداول ، إن هو إلا من صور الاضطراب بسبب تشابه الأوزان .

وفي الرقم (٦٠) من الملتفات أنشد ابن منظور هذا البيت :

كُلُّهُ جَلَالِي يَمْلَأُ الْمُجَبَّلَا

ونسبه إلى رؤية^(١) . ثم أنشده مع بيت آخر ونسب البيت إلى العجاج^(٢) ، وما يرجح أن يكون البيت للعجاج أن أبا زيد الأنصاري (٢١٥ هـ) قد أنشد بيتين آخرين بهذا الوزن وعزاها للعجاج^(٣) ، مما يدل على أن فئة مقطعة للعجاج بهذا الوزن ، ومنها هذه الأبيات المتفرقة .

وفي الأرجوزة (٦٤) من الملتفات أنشد الجوهري هذا البيت :

كَمَا يَأْوِجُ الْخَوْعُ بَيْنَ الْأَجْبَالِ

ونسبه إلى رؤية وزعم أنه يصف ثوراً^(٤) ، فردّه عليه الصاغاني وابن بري ، أن البيت للعجاج^(٥) ، وهو من أبيات يصف فيها الأفاعي وآثار الدباب ، وأنشده ياقوت لرؤية أيضاً^(٦) ، ولعله تأثر في ذلك بالجوهري^(٧) ، والصواب أنه من أرجوزة العجاج ، وقد مرّ بنا في موضع سابق أن أبا نخلة الراجز السعدي قال : « وفدت على مسلسلة بن عبد الملك وقد مدحته فأكرمني

(١) اللسان (جيل) .

(٢) اللسان (نيل) .

(٣) نوادر أبي زيد ١٤٥ .

(٤) الصحاح ١٢٠٦/٣ .

(٥) اللسان والتاج (خوع) .

(٦) معجم البلدان ٢٩٦/٢ و ٢٩٩/٢ .

(٧) لأنه نقل عبارة الجوهري : « قال رؤية يصف ثورا » ، معجم البلدان ٢٩٩/٢ .

ولزني ثم قال : مالك والقصيد وأنت من بني سعد ، عليك بالرجز ، فقلت : أولست بالرجز العرب ؟ فقال : اسمعي ! فأنشدته :

بِأَصَاحِ مَشَاقَّتِكَ مِنْ رَسْمِ خَالٍ وَدِمْنَةٍ تَعْرِفُهَا وَأَطْلَالٍ

وهو من قول العجاج ، فلما سمع أولها أصاخ ، فلما أسهت فيها قال : أمسك فحين أروى لهذا منك ، وطننته مقني ، فما أصبت منه خيراً^(١) .

ومعنى ذلك أن هذه الأرجوزة كانت مشهورة للعجاج منذ أيام مسلمة ابن عبد الملك وقد توفي سنة (١٢٠ هـ)^(٢) ، وأمكن لنا أن نجعل منها أبياتاً كثيرة منسوبة إلى العجاج ، وهذا ينقض ماذهب إليه الجوهري من أن ذلك البيت لرؤية ، ويؤكد أنه للعجاج من هذه الأرجوزة ، ولا سيما أن رؤية ليس له أرجوزة على هذا الوزن .

وأنشد الآمدي (٣٧٠ هـ) من الأرجوزة السابقة هذه الأبيات :

مَيْلًا مِثْلُ الْكَتَيْبِ الْمُنْهَالِ عَزَّزَ مِنْهُ وَهَوَّ مَعْطَى الْأَسْهَالِ
قَرَّبَ السَّوَارِي مِنْهُ بِالسَّهَالِ

ونسبها إلى رؤية في موضعين من كتابه الموازنة^(٣) ، إلا أن ذلك قد ندر عن وهم منه ، ذلك لأن البيت الثاني والثالث منها قد نسبنا للعجاج لدى عدد من معاصري الآمدي ، وهم أبو الطيب اللغوي (٣٥١ هـ) في كتابه الإبدال^(٤) ، وأبو علي الغالي (٣٥٦ هـ) في أماليه^(٥) ، وأبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢ هـ) في كتابه الخصائص^(٦) ، وكذلك وردا للعجاج في مصادر

(١) الوساطة للرجزاني ١٥٢ ، وتوفي الرجزاني سنة (٣٦٦ هـ) .

(٢) دول الاسلام ٦٢/١ .

(٣) الموازنة ٣٢٦ و ٣٢٧ .

(٤) الإبدال ٢٨٣/٢ .

(٥) الأمالي ٤١/٢ .

(٦) الخصائص ٨٣/٢ .

أخرى^(١)، ونُسب البيت الأول للعجاج أيضاً في شرح القاموس^(٢)، وجاءت هذه الأبيات الثلاثة بهذا الترتيب منسوبة للعجاج في لسان العرب^(٣).

ورواية هذه الأبيات للعجاج من قبل جماعة من معاصري الأمدى، ثم شهراً للعجاج بعد ذلك في مصادر أخرى، تجعل من المؤكد أن تكونت من ضمن أبيات هذه الأرجوزة المشهورة للعجاج.

وفيه أبيات أربعة، تفرقت في بعض المصادر، وعزيت إلى رؤبة، والأرجح أنها من أرجوزة العجاج، فقد أنشد ابن دريد هذا البيت:

مِنْ سَاهِكَاتٍ دُقَّتِ وَخَلَّجَالٍ

وعزاه إلى رؤبة^(٤)، وأنشد ابن منظور هذا البيت:

مُغْدَوْدِينَ الْأَرْضَى غُدًا فِي السَّالِ

ونسبه إلى رؤبة^(٥)، وأنشد الزحشرى هذين البيتين:

وَقَدْ أَعَايِي فِي الشَّبَابِ السَّالِ مَوْعِظَةً الْأَدْنَى وَتَهْطِطِينَ الرِّالِ

ورواهما لرؤبة بن العجاج^(٦).

ومن المرجح أن تكون هذه الأبيات الأربعة من أرجوزة العجاج نفسها، ذلك لأن رؤبة لا يمتلك أرجوزة بهذا الوزن، ولا يعقل أن تشرده له هذه الأبيات فقط، على ما فيها من تفرق وعدم اتصال، ولما الأولى أن تكون

أستأنا من أرجوزة العجاج، التي لم ترد في الديوان ولما تفرقت أبياتها في أثناء المصادر. ولهذا كله فقد ألفت هذه الأبيات الأربعة بأرجوزة العجاج، وأثبتها في المواضع التي تتناسب مع المعاني والنسق العام للأرجوزة.

وفي المظلة (٧١) من الملهقات، أنشد الجوهري هذا البيت:

صُرْتُ بِهَ الْحَكْمِ وَأَعْيَا الْحَكْمَا

ونسبه للعجاج^(٧)، وأنشد ابن منظور للعجاج أيضاً ثم قال: «قال

ابن بري: هذا الرجز نسبة الجوهري للعجاج، وليس هو للعجاج، وإنما هو لرؤبة مخاطب الحكم بن صخر بن عثان، وقيل:

أَبْلَيْخُ أَبَا صَخْرٍ بَيَانًا مُعَلِّمًا صَخْرُ بْنُ عَثَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَالٍ»

وبذلك جعل ابن بري هذه الأبيات الثلاثة لرؤبة لا للعجاج. وفيه

أرجوزة لرؤبة بهذا الوزن وردت في ديوانه المخطوط^(٨)، ونقلها حيدر في

مشارف الأفاويز^(٩)، ولا وجود فيها لهذه الأبيات الثلاثة. وكذلك في

أرجوزة العجاج أيضاً بهذا الوزن^(١٠)، ولا وجود فيها أيضاً لهذه الأبيات،

ومن هنا لا نجد مرجحاً يدفع بالأبيات إلى رؤبة أو إلى العجاج، إلا ما قاله

ابن بري، ولا نسلم له تسليماً مطلقاً، لأنه لم يعرض حجة مقنعة في ذلك،

ولهذا نبقى على هذه الأبيات مترجمة بين الراجزين، دون أن نقطع برأي

في أمر نسبتها.

وبهذا تكون قد فرغنا من مناقشة القسم الأول من الاضطراب في

(١) الصالح ٧١٧/٢.

(٢) اللسان (صور).

(٣) النسخة (٥١٩) أدب ٢٨٩، والنسخة (ش ٤٩ أدب) ٣١٣.

(٤) مشارف الأفاويز ١٢٠.

(٥) هي الأرجوزة (٢١) من الديوان.

(٦) ١٨٣ -

(١) الأرملة والامكنة للمزدوقي (٤٥٣ هـ): ١٤٢/٢، واللسان

(هتل)، والتاج (عز).

(٢) شرح القاموس، مادة (ضنك).

(٣) اللسان، مادة (ضنك).

(٤) جمهرة اللغة ١/١٤٠، وعبارة الجمهرة: «قال رؤبة». وجاء

البيت في اللسان (سهك) و (دق) و (خل) دون نسبة.

(٥) اللسان (غلن).

(٦) أساس البلاغة ٢/٢٠٦.

- ١٨٢ -

رواية رجز العجاج ، وهو القسم الذي يتصل بأسرة العجاج ، أو قل بولده
وؤبة . وأما القسم الثاني فقد حدث بسبب تشابه الأراجيز بينه وبين عدد من
الرجاز أو الذين عرفوا بقول الرجز ، وهذا القسم يكاد يشمل كل ماورد من
اضطراب وتداخل في أراجيز الديوان ، وإن كان قد يند إلى بعض الملحقات
أيضاً . ولا بد من عرض ومناقشة لكل ماورد من صور هذا النوع من
الاضطراب .

وإذا كان وؤبة قد مضى الحديث عنه في القسم السابق ، فإن أبا النجم
العجلي أكثر الرجاز حظاً في هذا القسم ، وذلك لكثرة أراجيزه وشهرتها
وتشابه بعضها مع أراجيز العجاج ، ولهذا كان فقه اضطراب أو تداخل بين
أراجيز العجاج وأبي النجم .

ففي إحدى أراجيز العجاج ، ورد هذا البيت ^(١) :

نَظَّارُ أَنْ أَرَكَبَهُ نَظَّارُ

وقد أنشده المبرد لأبي النجم ^(٢) ، وذلك لوجود أرجوزة له بهذا
الوزن يمكن لنا أن نجتمع منها نحو ثلاثين بيتاً ، ولا ندرى إن كان فيها
ما يشابه هذا البيت في الأصل .

وفي أرجوزة أخرى للعجاج ، ورد هذان البيتان ^(٣) :

تَشْكُو الْوَجَى مِنْ أَظْلَمَ وَأَظْلَمَ

وطُولُ لِمَلَالٍ وَظَهْرُ مُثَلَّارٍ

(١) الأرجوزة ٥/٤ .

(٢) الكامل للمبرد ٤١٣ . ونسب هذا البيت لرؤبة في الكتاب ٢/٢٧ ،
والإنصاف ٢/٥٤٠ ، والمخصص ١٧/٦٣ ، وهذه النسبة لا تعدد بعض
صور الوهم الذي رابناه في حديثنا عن رؤبة منذ حين .

(٣) الأرجوزة ١٢/٨٨ - ٨٩ .

والبيت الأول من شواهد سيبويه ، ولذلك كثرت روايته عند شرح
أبياته ، ومن ثم أنشد شارح الشافية هذين البيتين ، ثم قال : « والبيتان
من رجز طويل لأبي النجم العجلي ، وصف فيه الإبل لهشام بن عبد الملك
وأولاه :

الْحَمْدُ يَهْدِي الْعَبْدُ الْإِبِلَ

وهذا أيضاً ضرورة ، والقياس الأرجل ^(١) . »

وقد دهم شارح الشافية فظن البيتين من أرجوزة أبي النجم ، وذلك
لشابهها مع أرجوزة العجاج ، بل ربما زاده وهما أن موضع الشاهد في بيت
العجاج ، وهو فك الإدغام ، قد وجد أيضاً في مطلع أرجوزة أبي النجم ،
فأرسل حكمه دون عودة إليها ، أو نظر إلى أبياتها .

وفي الأرجوزة (١٧) من أراجيز العجاج ^(٢) :

مَعَجُ الْعَرَامِي عَنْ قِيَّاسِ الْأَشْكَالِ

وقد تعرّف هذا البيت في عدد من المصادر ^(٣) ، منها أمالي القاضي ^(٤) ،
فجاء على هذا النحو :

عُوجاً كَمَا عَوَّجَتْ قِيَّاسُ الْأَشْكَالِ

وبهذه الرواية أنشده البكري (٤٩٦) في سمط اللاي ، ثم قال :
« أنشده كراع لأبي النجم ، ولم أجده في رجز أبي النجم الذي على هذا
الروي ^(٥) . »

(١) شرح الشافية ٤/٤٩١ .

(٢) الأرجوزة ١٧/٥٥ .

(٣) مقاييس اللغة ٣/٢٠٥ ، والصحاح ٥/١٧٣٦ .

(٤) الأمالي ٢/٢٦٦ .

(٥) سمط اللاي ٩٠٦ . وانظر أرجوزة أبي النجم في الطرائف

الأدبية ٥٧ - ٧١ .

ولا شك أن الذي أوقع كراعاً في الرمح إنما هو تخويف البيت ، وعدم بنيه في المصادر التي تتحدث فيها ، ثم تشابه أرجوزة العجاج مع أرجوزة النجم .

ولم يقف الاضطراب مع أبي النجم عند أراجيز الديوان ، وإنما تعدى لك إلى بعض الملحقات ، ففي الأرجوزة (١) من الملحقات أنشد أبو عبيدة يائناً للعجاج^(١) ، منها هذا البيت :

ساطر إذا ابتسك رقيقاه ندى

وهذا البيت أنشده ابن قتيبة مفرداً لأبي النجم^(٢) ، إلا أن أبا عبيدة شده في موضع آخر للعجاج أيضاً^(٣) ، بما يدل على وعي منه في عزوه البيت للعجاج ، ولعل هذا هو الصواب بدليل أن ابن قتيبة نفسه قد أنشد يائناً من هذه الأرجوزة وعزاها إلى العجاج^(٤) .

والذي أوقع ابن قتيبة في هذا الرمح ، إنما هو تشابه الرجز ، ذلك جود أرجوزة على ما يبدو لأبي النجم بهذا الروي وقد جمعنا منها (١٣) بيتاً ولا ندرى إذا كانت هذه الأبيات من أبيات تلك الأرجوزة التي ألحقناها بيوان العجاج ، أم أن لكل منها أرجوزة مستقلة بهذا الوزن .

وفي الرقم (٥٠) من الملحقات ، ورد هذا البيت :

كأن عينه إذا ما ألتفتا

وقد نسب في جملة اللغة إلى العجاج^(٥) ، إلا أن ابن قتيبة (٢٧٦هـ)

(١) كتاب الخيل لأبي عبيدة ١٦٩ .

(٢) المعاني الكبير ١٤/١ .

(٣) كتاب الخيل ١٢٥ .

(٤) المعاني الكبير ١٤/١ .

(٥) جمهرة اللغة ١٤٨/٣ ، ومبارة الجمهرة : « قال الراجز العجاج » .

أنشده لأبي النجم ضمن أبيات لا يفصل عنها لشدة تشابهها^(٦) ، وهذا يعني أنه من هذه الأبيات التي تروى لأبي النجم ، وإذا كان ثمة أبيات أخرى بهذا الوزن تروى لأبي النجم في بعض المصادر^(٧) ، فهذا يرجع أن تكون هنالك أرجوزة له ، منها أبيات ابن قتيبة ، وأما الأبيات الثلاثة الباقية في الرقم (٥٠) من ملحقات العجاج ، وهي بيت ورد في اللسان^(٨) ، وبيتان وردا في الألفاظ لابن الكيت (٥٢٤هـ)^(٩) ، فقد تشير إلى أنها ربما كانت أيضاً من أبيات أرجوزة للعجاج ، أو من شوارد الأرجوزة الأخيرة في ديوانه ، وربما كانت أيضاً من أرجوزة أبي النجم وقد نسبت سهواً إلى العجاج في رواية ابن الكيت واللسان .

والهم أن هذا الاضطراب إنما حدث فعلاً لوجود أرجوزة للعجاج في ديوانه بهذا الروي واللقافية هي الأرجوزة (٤٤) وهي آخر أرجوزة وردت في الديوان ، وأولها :

يا صاح ما هاج الذموج الذرقا من طلكل أضحت تخال المصنفا

ومن المرجح وجود أرجوزة أخرى تماثلها لأبي النجم ، وهذا التشابه

(١) المعاني الكبير ٢٥٢/١ ، والأبيات وردت فيه على هذا النحو :
كان سقفاً بخوص سقفاً من سعب النخل كميناً سقفاً
ناظر على التين منه خصفاً وابتن منه الصدر بطناً أهيفاً
وأن رآه مدلسج تلطفاً وصدق الظن الذي تخوفاً
معدو وإلهاباً يمد الطنطفا كأن عينيه إذا ما التفتا
التشعيران لاحتا بعد الشفا

(٢) محاضرات الإدياء ١٥١/٢ ، والمعاني الكبير ٦٨٨/٢ ، وبعض هذه الأبيات ينسب إلى رؤبة ، فانظر المدة ١٨٨/٢ ، والكاميل للمبرد ٥٢٢ ، ودوائها لرؤبة قد تكون من قبيل الاضطراب بينه وبين أبي النجم .

(٣) اللسان (وكف) .

(٤) مختصر تهذيب الألفاظ ٤١٧ .

هو الذي أدى إلى الوهم والاضطراب في بعض الأبيات . ولم نجد من أوجه الاضطراب مع أبي النجم لسبب آخر غير تشابه الرجز ، إلاّ بيتين أوردهما ابن منظور ، وهما :

يَا ذَا ثَدْيِهَا خَوْصًا بِأَرْسَالٍ وَلَا تَذَوْدُهَا ذِيَادَ الضَّلَالِ

وقد عزاهما إلى أبي النجم العجلي (١) . ولم نجد لأبي النجم أي شعر بهذا الوزن ، ولنا هنالك أرجوزة مشهورة للعجاج بهذا الوزن سبقنا الإشارة إليها في حديث رؤبة ، ولهذا نرجح أن يكون البيتان من أرجوزة العجاج (٢) ، وأنت ماورد في رواية اللسان ليس إلاّ وليد الوهم أو التصحيف ، والذي حمل صاحب الرواية على ذلك أن البيتين قد وردا في عدد من المصادر دون نسبة (٣) ، فلما أراد لها ردّاً إلى راجز معين ، وهم في ذلك أو أخطأ .

فالاضطراب والتداخل بين أراجيز العجاج وأبي النجم ، كان معظمه بسبب التشابه بين هذه وتلك ، ومثل هذا التشابه كان داعياً إلى شيء من الاضطراب والتداخل أيضاً بين أبيات العجاج ، وأبيات عدد من الرجاز ، أو من عرف بقول الرجز .

ففي الأرجوزة (١١) من ديوان العجاج ، قال يمدح عمر بن عبد الله بن معمر (٤) :

يُمْكِنُ السَّيْفَ إِذَا الرَّمْعُ انْطَاطَرَ فِي هَامَةِ اللَّيْلِ إِذَا مَا اللَّيْلُ هَرَمَ
وفي شرحها قال الأصمعي : « قال العتّاق بن جَحَل ، وهو مع أبي

موسى أو خالد بن الوليد بنهر المرأة (١) :

مَنْ يَرَا يَوْمَ الْمَدَارِ وَالنَّهَرِ بَيْتَيْنِ مَيْسَانَ وَقَدْ حَقَّ الْبَحْرُ
حَوْلَ أَمِيرِ صَادِقٍ ثَبَّتَ الْغَدْرُ يُمْكِنُ السَّيْفَ إِذَا الرَّمْعُ انْطَاطَرَ
في هَامَةِ اللَّيْلِ إِذَا مَا اللَّيْلُ هَرَمَ .

ولم يعلق الأصمعي شيء حول روايته هذه الأبيات ، وكأنه يشير إلى ماينها وبين أبيات العجاج من تداخل ، ولا نظن أن الأصمعي يشير بذلك إلى أخذ هذا عن ذاك ، لانه لو أراد ذلك لصرح به على عادته في بعض المواضع من شرحه لديوان العجاج (٢) ، أو ديوان رؤبة (٣) . ولكنه يشير إلى مجرد التداخل ، وهذا مرده إلى وهم الرواة وخطئهم بـ بين أبيات من أرجوزة العجاج مع أبيات لابن جَحَل وذلك لتشابه الرجز .

وفي الأرجوزة (١١) من ديوان العجاج ، ورد هذا البيت في وصف الثور (٤) :

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَمْ تَنْفَسْ

وهذا البيت أنشده أبو عبيدة مع بيت آخر لم يرد في أرجوزة العجاج، ورواه على هذا النحو :

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَمْ تَنْفَسْ وَأَنْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَسَا

ونسب البيتين إلى علقمة بن قوط (٥) . وقد ورد هذان البيتان بهذه

- (١) نهر المرأة : نهر بالبصرة ، انظر معجم البلدان ٣٢٥ .
- (٢) انظر مثلاً شرح الأرجوزة ١٤/٦ من ديوان العجاج .
- (٣) انظر مثلاً ديوان رؤبة : النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ١٥٤ ، والنسخة (٥١٦ أدب) ٢١٣ ، والنسخة (ش ٤٩ أدب) ٢٢٧ .
- (٤) الأرجوزة ٤٦/١١ .
- (٥) مجاز القرآن ٢٨٧/٢ .

- (١) اللسان ، مادة (خوص) .
- (٢) ملحقات ديوانه رقم (٦٤) .
- (٣) مقاييس اللغة ٢٢٩/٢ ، والصحاح ١٠٣٩/٣ .
- (٤) الأرجوزة ٩٦/١ - ٩٧ .

الرواية في بعض المصادر^(١) ، ونسبها إلى العجاج . وهذا يجعلنا في حيرة من أمرها ، إذ ربما كان هنالك أبيات لعقمة بهذا الوزن منها البيت الثاني ، وربما كان هذا البيت من شوارد أرجوزة العجاج ، ولم ينقله الأصمعي ، وربما كان أيضاً من زيادات رواة الشواهد ، زادوه بعد روايتهم البيت الأول شاهداً على اللغة في قوله تعالى : « والصبح إذا تنفس^(٢) » .

فاذا صح وجود أبيات لعقمة بهذا الروي ، فلا شك أن البيت الأول قد تدخل معها بسبب تشابه الوزن ، ولإلا فالبيت للعجاج ، والثاني من شوارد أرجوزته ، أو أنه مزبد عليها .

وفي الأرجوزة (١٢) من أراجيز العجاج ، جاء قوله^(٣) .

ومَنَسَّهْلٌ وَرَدَّتْهُ عَنْ مَنَسَّهْلٍ

وهذا البيت من شواهد النجاة على وادب^(٤) ، وقد ورد في بعضها دون نسبة ، إلا أن السيرطي أنشده ضمن أرجوزة قوامها (٢٢) بيتاً ، وترتيبه فيها الثالث عشر ، وقدم لها بقوله : « قال ابن الأعرابي في نادره : أنشدني بكبر ابن عبد الله الربيعي^(٥) » . وعزاه ابن السيد البطليوسي إلى العجاج ، ثم قال : « وأنشده ابن الأعرابي في نادره في رجز ذكر أنه لعبد الله بن وراحة^(٦) » . وجاء بعد هذا البيت في أرجوزة ابن الأعرابي :

فَقَرَّبَ بِهِ الْأَعْطَانُ لَمْ تَسْهَلْ عَلَيْهِ نَسَجُ الْعَنْكَبُوتِ الْمَرْهَلِ

طال فلم يقطع ولم يوصل ..

(١) الكشف للزمخشري (٥٣٨ هـ) ٢/٢٧٥ ، ومغنيه الغيب للرازي (٦٠٦ هـ) ٨/٢٦٦ .

(٢) سورة التكاوير ١٨/٨١ .

(٣) الأرجوزة ١٢/١٠٢ .

(٤) شرح شواهد المفني ١٤٨ .

(٥) الاقتضاب ٤٤٤ .

(٦) ٦٦٠ -

والبيت الثاني من هذه الأبيات ، هو أيضاً من أرجوزة العجاج مع اختلاف يسير في الرواية^(١) ، ولا يُعْقَل أن يكون فقه اضطراب بين الأرجوزتين : أرجوزة العجاج ، وأرجوزة ابن وراحة ، في هذين البيتين ، وذلك لتمكن كل منهما في موضعه من كل أرجوزة ، ولهذا نرجح ألا يكون فقه اضطراب أو تدخل بينهما ، بل نرجح أن فقه شيئاً من التضمن أو توارد الحواطر ، لأن معاني الأبيات ربما كانت من المعاني الشائعة بين الشعراء يومئذ ، فكل من عرف الشعراء وقاسماها ذلك الطين ، قد سار من منزل إلى منزل ، وأول ما يلاحظه حتماً إذا ماورد منزلاً بعيداً عن الواردة ، انما هو العنكبوت المتدلي من الأغصان ونحوها .

وفي الأرجوزة (١٦) من ديوان العجاج ، قال الأصمعي في شرح البيتين (٢٩ - ٣٠) : « قال الأصمعي : بعضهم يجعل من هذا لَدَهْلَبِ الْقَرْيَمِيِّ . قال أبو سعيد : سمعت عقبة بن ربيعة ينشدها للعجاج » . وقال بعد البيت (٤٣) : « قال : هذا آخرها ، والباقى زيادة » ، ثم رسمت حاشية بخط المائل فابعت السطر تقول : « أنشدها ابن الأعرابي في نادره لدعلب » ، وأراد صاحب هذه الحاشية أن الزيادة هي التي أنشدها ابن الأعرابي لدعلب ، وهي أربعة أبيات وردت في نهاية الأرجوزة .

فالأصمعي قد أشار إلى تدخل حدث على ألسنة الرواة بين أرجوزة العجاج ، وأرجوزة عائليا لدعلب القريني ، إلا أنه احتج بأن موطن التدخل ، في بعض الأبيات التي تروى لدعلب ، قد سمعها الأصمعي نفسه من عقبة بن ربيعة ينشدها للعجاج ، وهذا حجة في نظره ، وفي نظرنا أيضاً ، على أن هذه الأبيات للعجاج .

(١) الأرجوزة ١٢/١٠٨ .

ولكن بعض هذه الأبيات بقيت تروى للدهلب في بعض المصادر ، فقد أنشد ابن منظور الأبيات (١) :

جاريةً ليست من الوخشن كان مَجْرَى دَمْعِهَا الْمُسْتَن
قَطْطَةً من أجود القطن

وعزاها إلى دهل (٢) ، ثم روى البيتين الآخرين من هذه الأبيات الثلاثة وقدم لها بقوله : « قال قارب بن سالم المري ، ويقال : دهل بن قريع : البيتين (٣) » . وبذلك زاد ابن منظور من الاضطراب في رواية هذين البيتين ، إلا أن ابن دريد قد أنشدهما أيضاً وقال مقدماً لها : « وأنشدنا أبو حاتم عن أبي زيد للعجاج : البيتين (٤) » ، بما يدل على أن رواية هذه الأبيات قد جاءت للعجاج من طرق متعددة موثوق بها ، فقد نُقلت من طريق عقبة بن روبة ، والأصعي ، وأبي زيد الأنصاري (٥) ، وأبي حاتم السجستاني وكلهم يجمعونها للعجاج ، ولهذا نرى أن هذه الأبيات ينبغي أن تكون فعلاً للعجاج ، ولكنها تدخلت عند الرواة مع رجز يئانها للدهلب القريني ، أو قارب بن سالم المري ، وقد نبه الأصعي على هذا منذ قليل .

وامتد هذا النوع من الاضطراب إلى بعض ملحقات الديوان ، ففي الأرجوزة (٢) من الملحقات ، أنشد التبريزي هذين البيتين :

(١) وهي من أرجوزة العجاج ٣٧/١٦ ، ٤٠ ، ٤١ .

(٢) اللسان (وخش) .

(٣) اللسان (قطن) .

(٤) جبهة اللفة ١١٥/٣ . وأنشدهما ابن دريد في الجبهة ٣٥٠/٣ دون نسبة .

(٥) جاء في نوادر أبي زيد مابلي : « قال أبو زيد : وقال الرازي (وهو قارب بن سالم المري ، وقيل : دهل بن قريع) : الأبيات ١٦٧ . وما بين الأقواس ليس من كلام أبي زيد ، وإنما وضع ضمن أقواس مكانه زيادة من ناسخ أو محقق ، أخذت من اللسان .

- ١٩٢ -

واطناً من دَعَسَ الصَّيْغِ نَيْسَبَا مِنْ صَادِرٍ أَوْ وَارِدٍ أَيْدِي سَبَا
وعزاها إلى العجاج مع أبيات أخرى (١) ، وفي اللسان أنشد ابن منظور لدهلبن الرازي (٢) :

مَلِكًا تَرَى النَّاسَ إِلَيْهِ نَيْسَبَا مِنْ دَاخِلٍ أَوْ خَارِجٍ أَيْدِي سَبَا
ثم قال : « ويرى : من صادر أو وارد » .

وقد يكون هذا تحريفاً أو اضطراباً أو تداخل بين الأرجوزتين ، وقد يكون مجرد تضمين من أرجوزة العجاج ، أو سرقة لبعض معانيه وهذا هو الأرجح ، لأن البيت يبدو متمكناً من موضعه في أبيات دكين ، وبذلك لا يشير إلى التداخل ، ولذا يشير إلى أنه من أصل بناء الأبيات ، وهذا يعني أن دكيناً قد اقتنه أو سرقة من العجاج .

وفي الرزم (٢٥) من الملحقات ، ورد هذان البيتان في وصف حمر الوحش :

يَتَبَعْنَ ذَاهِدًا هَدًى عَجَسًا إِذَا الْغُرَّانِ بِهِ تَمَرَسَا

وقد أنشد الجوهري البيت الأول وعزاها إلى العجاج (٣) ، ثم أنشد ابن منظور البيتين ، وقال : « قال العجاج وقيل جُزِّي الكاهلي : البيتين ، قال ابن بري : نسب الجوهري هذا البيت للعجاج ، وهو لجري الكاهلي (٤) » ، ثم أنشد البيت الأول مع البيت (٢٧) من أرجوزة العجاج (١١) دون نسبة على هذا النحو (٥) :

(١) كنز الحفاظ ٥٥ .

(٢) اللسان (نسب) .

(٣) الصحاح ٦٤٣/٢ .

(٤) اللسان (عجسس) .

(٥) اللسان (هدد) .

يَتَّبِعِينَ ذَا هُدَاهِ عَجَسًا مُرَاجِلًا قَفَسًا وَرَمَلًا أَدَسًا

وهذا تلفيق لامكان له في أرجوزة العجاج ، لأن البيت (٢٧) وما قبله يتحدث عن القفط ، لا عن حر الوحش .

وبهذا نكون قد فرغنا من دراسة القسم الثاني مما وقفنا عليه من تداخل واضطراب في رواية رجز العجاج بسبب تشابه الرجز بينه وبين عسدد من الرجز الآخرين .

وأما القسم الثالث من الاضطراب في رواية رجزه ، فمودة إلى عدم تَشَبُّهت الرواة وخططهم في نسبة الرجز بين العجاج وبين عسدد من الرجز أو من عرف بقول الرجز . وهذا الإهم أو الخطأ في الرواية أمر لا يسلم منه رواة الشواهد ومن إليهم من لا يعينهم صاحب البيت أو الأبيات ، ولما الذي يعينهم هو مافي البيت أو الأبيات من شاهد على اللغة أو النحو أو المعاني أو ما إلى ذلك ، ولهذا ربما نسبوا هذه الأبيات خطأ إلى غير أصحابها ، وبذلك ينشأ الاضطراب في نسبتها بين شاعرين أو أكثر .

ومن هنا كان ثمة اضطراب واسع بين طبقة الرجز في الأدب العربي ، فهناك اضطراب في نسبة بعض الرجز بين رؤبة وأبي النجم^(١) ، وبين رؤبة وأبي نُخَيْلَة^(٢) ، وبين رؤبة والحطيئة^(٣) ، وبين رؤبة وعنترة بن عروس^(٤) ، وبين رؤبة وولي الأخيلة^(٥) ، وهناك اضطراب بين أبي نُخَيْلَة وهميان

- (١) انظر النضر والنضر ٥٨٢ ، والمغرب ٣٣٩ ، وقابل ذلك باللسان (نجم) ، وانظر الف با ٧٥/٢ فقد نسب البلوي الى رؤبة أشهر بيت معروف لأبي النجم .
(٢) انظر البديع ١٤١ ، وقابلة بالنضر والنضر ٥٨٤ ، والعمدة ١٨٧/٢ ، والمقد ٢٠٦/٦ .
(٣) انظر الصحاح ١٩٨٢/٥ ، وقابلة بالعمدة ٧٤/١ .
(٤) انظر شرح شواهد الغني ٢٠٦ .
(٥) انظر فتح الجليل ٢٩ .

- ١٩٤ -

ابن قُصَافَة^(١) ، وبين أبي نُخَيْلَة ومعاصره العماني^(٢) ، وهناك اضطراب بين هيمان بن قُصَافَة والزَّيَّان^(٣) ، وبين هيمان بن قُصَافَة وخطام الجاشعي^(٤) ، وهناك اضطراب بين أبي النجم وحميد الأرقط^(٥) ، وبين أبي النجم وغيلان ابن حُرَيْث الربيعي^(٦) ، وبين أبي النجم وبعض بني ضَبَّة^(٧) ، وهناك اضطراب بين حميد الأرقط وحميد بن ثور^(٨) ، وثمة اضطراب بين الأغلب العجلي ويحيى بن منصور^(٩) ، وبين الأغلب وخطام الجاشعي^(١٠) ، وبين الأغلب وولي بنت الحيارس^(١١) ، وبين الأغلب وعجفاه بنت علقمة^(١٢) ، وقد يضطرب الرجز الواحد بين عدد من الرجز ، وهناك مثال على ذلك بين الشراخ وابن أخيه جَبَّاد بن جزء بن ذرار وأبي النجم وابن المعتز^(١٣) ، ومثال آخر بين أبي نُخَيْلَة والعاني والحكم بن عبد^(١٤) ، وأمثال هذا كثير .

ولعل من أغرب ما يصادفنا من صور هذا الاضطراب بين طبقة الرجز،

- (١) المخصص ١٣٩/١١ ، والتكامل ١٤٩ .
(٢) خزائن بولاق ٢٩٢/٤ .
(٣) الحيوان ١٥/٢ .
(٤) الخزائن ٣٧٤/٢ - ٣٧٦ ، وكتاب سيبويه ٢٤١/١ ، ٢٠٢/٢ .
(٥) الحيوان ٩٨/٥ ، والجمهرة ٣٠٦/١ - ٣٠٧ .
(٦) مجالس لعل ٦٥٥ ، ومجاز القرآن ١٥٠/٢ .
(٧) شرح أدب الكتاب ٣٢٤ - ٣٣٦ .
(٨) اللسان (جف) .
(٩) كتاب الإبدال ٨٧/٢ .
(١٠) اللسان (رع) .
(١١) جمهرة اللغة ١٧/١ ، ومقاييس اللغة ١٢/١ .
(١٢) جمهرة الأمثال ١٦٢ .
(١٣) أسرار البلاغة ١٤٤ .
(١٤) قابل بين ديوان المعاني ٣٦/١ ، ومغني اللبيب ١٦٤/١ ، وشرح شواهد الغني ١٧٥ ، وخزائن بولاق ٢٩٢/٤ - ٢٩٣ ، وفوات الوفيات ١٤٦/١ .

- ١٩٥ -

أرت نجد ابن قتيبة (٥٧٦هـ) يقول : « أخبرنا أبو حاتم حدثنا الأصمعي قال : كان ثلاثة أخوة من بني سعد لم يأتوا الأمصار ، فذهب رجزهم ، ويقال لهم منذر ونذير ومنتذر ، ويقال لث قصيدة روبة التي أولها :

وقالهم الأعماق خاوي المخترق^(١)

لمتندر^(٢) » .

ففي هذا الأصمعي ومُجد من يزعم أن أرجوزة روبة وهي غرّة ديوانه ، ليست له وإنما هي لرجز مغفور من بني سعد ، وهذا لا يمكن أن يصدق بحال على أرجوزة روبة .

والمهم أن وهم الرواة وخطهم في نسبة أبيات الرجز بين عدد من الرجاز أو الشعراء قد حمل على وجود اضطراب واسع في رواية رجز العجاج ، إلا أن ذلك لا يكاد يخرج عن ملحقات الديوان إلا نادراً ، إذ لم نجد من هذا النوع غير بيت واحد في الديوان قد تلاقى على الاضطراب حوله كل من العجاج وروبة وذو الرمة ، وذلك بسبب الوهم والخطأ من الرواة ، وهذا البيت هو^(٣) :

تُرْجِي أَرَاغِيلَ الْجَهَامِ الْخُورِ

فقد أنشده ابن منظور لذي الرمة^(٤) ، وأنشده الزمخشري لروبة^(٥) ، وكلا الروايتين فيها خطأ أو وهم ، لأن البيت من أرجوزة للعجاج في ديوانه وليس لروبة أو لذي الرمة رجز بهذا الوزن .

- (١) الشعر والشعراء ٥ ، وقارن ذلك بالوساطة ١٣١ - ١٣٢ .
(٢) الأرجوزة ٧٩/١٩ .
(٣) اللسان (رمل) .
(٤) أساس البلاغة ١/٣٥٠ .

ولا نكاد نضيف إلى هذا البيت ، إلا بعض الصور التي مرت بنا فيها سبق ، وأما سائر هذا النوع من الاضطراب فهو خاص برواية بعض الملحقات ، وسوف نعرض لها جميعاً .

ففي الأرجوزة (٣) من الملحقات ، أنشد الزبيدي للعجاج^(١) :

وإن ترنسى التلاليات عقيباً

وأنشده ابن منظور للطرماح^(٢) ، وكان صاحب التاج قد صحح ما وهم به صاحب رواية اللسان ، لأن البيت أقرب إلى العجاج منه إلى الطرماح ، ذلك لوجود أرجوزة بهذا الوزن للعجاج ، وليس من أرجوزة للطرماح بهذا الوزن ، مما يرجح أن يكون البيت للعجاج .

وفي الأرجوزة (٧) من الملحقات ، التي أولها :

ومَنبَلٌ فِي الْغُرَابِ مَيَّتٌ كَانَ مِنْ الْأَجُونِ زَيْتٌ

أشار البكري إلى أبيات الرجز ، وقال : « هذه الأشرطة قد نسبها قوم للعجاج ، ونسبها آخرون إلى أبي عمدة الفقعسي ، وكذلك قال يعقوب إنها للندلي^(٣) » ، وأشار إليها في موضع آخر فقال : « هو لأبي محمد الجرهمي الفقعسي ، وقد مضى القول فيه ، وقد نسب هذا الرجز إلى العجاج والصحيح ما قدمناه^(٤) » ، وأنشد ابن منظور الأبيات (١ - ٣) ونسبها إلى أبي عمدة الفقعسي^(٥) ، وأنشد الأبيات (٧ - ٩) وعزاها أيضاً إلى أبي

- (١) التاج (عقب) .
(٢) اللسان (عقب) .
(٣) سمط اللالي ٢٠١ .
(٤) سمط اللالي ٨٦٩ .
(٥) اللسان (أجن) .

محمد الفقعسي^(١) ، واتسع الاضطراب حول هذه الأبيات فلمند إلى رؤبة أيضاً إذ أنشد أبو عبيدة البتيني (٤-٥) في مجاز القرآن وعزاها إلى رؤبة في موضعين من كتابه^(٢) ، ولعله هو السبب لنقل أبي حيان الأندلسي نسبة هذين البيتين إلى رؤبة^(٣) .

واحقق أن رواية أبي عبيدة (٢١٠هـ) لبعض الأبيات وعزوه إليها إلى رؤبة ، يمكن أن تكون صورة من صور الاضطراب بين العجاج ورؤبة التي مونت بنا فيها سبق ، وهي مرجع للعجاج على الفقعسي ، ولكننا لانكاد نقتطع بهذا الترجيح لأننا لم نقف على مصادر البكري (٤٩٦هـ) ، ولم نعلم شيئاً ممن روى هذه الأبيات للعجاج ، أو ممن رواها لأبي محمد الحذلي غير ما جاء في اللسان .

وفي الرقم (١٤) من الملحقات ، أنشد البغدادي هذه الأبيات للعجاج^(٤) :

لاخَيْرَ في الشَّيْخِ إِذَا مَا أَجْلَحْنَا وَسَالَّ غَرَبُهُ عَيْنَهُ وَلَحْنَا
وَكَانَ أَكْثَلًا قَاعِدًا وَشَطَّأ تَحْتَهُ رَوَاقِ الْبَيْتِ يَغْشَى الدُّخَانُ
وَانْتَهَتْ الرَّجُلُ فَكَانَتْ فَتْحًا وَكَانَ وَصْلُ الْغَانِيَاتِ أَخْبَا
وقال البغدادي في البيت الأخير : هـ ولم أر نسبة البيت للعجاج إلا في الفصل وفي العباب للصاغاني ، وفي هذا القول وهم أو تصحيف ، ذلك لأن الزعشمري في الفصل قد أنشد البيت دون نسبة^(٥) ، ولما الذي أنشده

- (١) اللسان (جمع) .
- (٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٢١ ، ٢٢٢ .
- (٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٠٤ .
- (٤) خزائن بولاق ٣/ ١٠٣ .
- (٥) الفصل ١٦٥ .

- ١٩٨ -

للعجاج هو ابن يعيش في شرح المنصل^(١) .
والمهم أن ابن يعيش والصاغاني هما اللذان نسبنا بعض هذه الأبيات إلى العجاج ، وقد وردت طائفة منها في عدة مصادر^(٢) ، ولكننا لم تنسب إلى راجز معين ، إلا أن البغدادي نقل أيضاً بسنده عن الأصمعي أن الأبيات لأعرابية في زوجها وكان شيخاً ، فقال : هـ وقال أبو عبد الله محمد بن الحسين البعني في طبقات النحويين : حدثنا ابن مطرف قال أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال : قالت أعرابية في زوجها وكان شيخاً : الأبيات^(٣) ، ثم روى الأصمعي أبياتاً لزوجها يرد بها عليها .
ولا شك أن رواية الأصمعي هذه الأبيات لأعرابية مرجح أن تكون لها دون العجاج ، ولا سبب أنها ترتبط في رواية الأصمعي بغير معين ، يمكن أن يساعد على تحديد صاحب الأبيات .

وفي الرقم (٢٣) من الملحقات ، أنشد ابن السكيت (٢٤٤هـ) هذين البيتين :
فَوَدَّتْ قَبْلَ انْبِلَاجِ الْفَجْرِ وَابْنُ ذَكَاةٍ كَأَنَّ مِنْ كَفَرٍ
ونسب البيتين إلى حميد^(٤) ، وأنشدهما ابن منظور لمحمد أيضاً^(٥) ، وأضاف البرزني (٥٠٢هـ) إليها ثالثاً ونسب الأبيات إلى حميد أيضاً^(٦) ، إلا أن الملاحظ (٢٥٥هـ) أنشد البيت الثاني ونسب إلى العجاج^(٧) ، والملاحظ وابن السكيت متعاضدان وكلاهما حجة في روايته ، ولئن كان البرزني

- (١) شرح المنصل ٢/ ٥٢٦ .
- (٢) انظر تخريجها في آخر الديوان .
- (٣) خزائن بولاق ٣/ ١٠٤ .
- (٤) مختصر تهذيب الالفاظ ٢٢١ .
- (٥) اللسان (كفر) ، وأنشدهما في (ذكا) دون نسبة .
- (٦) كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الالفاظ ٢٨٧ .
- (٧) الحيوان ٥/ ١٣ .

- ١٩٩ -

واللسان مرجحاً لابن السكيت ، فإن رشيق (٤٦٣هـ) مرجح للمجاهد لأنه أشد للعجاج بيتين آخرين بهذا الوزن نفسه ^(١) ، والمعاني فيها تصل اتصالاً وثيقاً بمعاني هذه الأبيات ، مما يدل على أنها جميعاً من أرجوزة واحدة في الأصل ، ومن ثم لا نجد مرجحاً في نسبة الأبيات إلى حميد أو إلى العجاج .

وفي الرقم (٣٠) من الملحق ، أشد الزعشمري (٥٣٨هـ) :

لقد تَخَازَرْتُ وما بي من خَزَرٍ

ونسبه إلى العجاج ^(٢) ، وهذا البيت ورد في عدة مصادر دون نسبة ^(٣) ، ودواه الجواليقي (٥٣٩هـ) أول أربعة أبيات على هذا النحو :

إذا تَخَازَرْتُ وما بي من خَزَرٍ نَمَّ كَسَرْتُ العَيْنَ من غَيْرِ عَوَرٍ

أَلْفَيْتِي أَلْوَى بَعِيدَ المَسْتَمَرِّ أَحْمِلُ مَا حَمَلْتُ من خَيْرِ وَشَرِّ

ونسب الأبيات إلى الأغلب العجلي ^(٤) . ثم دواه الدميري مع أربعة أبيات على هذا النحو :

إذا تَخَازَرْتُ وما بي من خَزَرٍ ثم كَسَرْتُ الطَّرْفَ من غَيْرِ عَوَرٍ

أَلْفَيْتِي أَلْوَى بَعِيدَ المَسْتَمَرِّ كَالنَّيْسَةِ الصَّلَوِّ في أَصْلِ الشَّجَرِ

أَحْمِلُ مَا حَمَلْتُ من خَيْرِ وَشَرِّ

ثم قال مقدماً لها : « قال عمرو بن العاص رضي الله عنه يوم صفين ^(٥) » .

(١) العمدة ١٠٩/٢ .

(٢) أساس البلاغة ٢٢٧/١ .

(٣) كتاب سيبويه ٢٣٩/٢ ، والحيوان ٢٨٠/١ ، والمخصص ١١٩/١ ،

والمفصل ٢٨٠ ، واللسان (خور) .

(٤) شرح أدب الكاتب ٣٢١ ، وأشهدها ابن سيدة في المخصص ١٨٠/١ .

(٥) حياة الحيوان ٢٥٤/١ ، ودواها القنابي دون نسبة في أماليه ٩٥/١ مع اختلاف في الترتيب والرواية .

وبذلك أصبح الاضطراب في هذه الأبيات بين الأغلب والعجاج وعمرو بن العاص ، إلا أن ابن منظور أشد الأبيات الأربعة المتقدمة ثم قال : « قال ابن بري : هذا الرجز يروي لعمر بن العاص ، قال : وهو المشهور ، ويقال : إنه لأرطاة بن سمية تستل به عمرو رضي الله عنه ^(١) » .

وهذا يشير إلى أن الرجز ليس لعمر بن العاص ، وإنما يمثل به مثلاً ، وإذا كان قد قيل بهذا يوم صفين فهذا يرجح ألا تكون الأبيات للعجاج ، لأنها تم عن تقدم في السن ، وحكمة وتجربة لدى قائلها ، وهذا قد يتوفر لدى الأغلب أو ابن سمية في ذلك الحين ، ولكنه لا يتوفر للعجاج آنشد لأنه كان مازال في شبابه . ومن هنا تبقى الأبيات متنازعة بين الأغلب العجلي وأرطاة بن سمية ، وليس من مرجح بينها يميل بها إلى هذا أو ذاك .

وفي الرقم (٣١) من الملحق ، أشد البكري أرجوزة أولها :

بَضْرَيْنِ تَجَابَا كَمَثَقِ المِعْطِيطِ

يَنْتَشِفُ البَوْلُ انْتِشَافَ المَعْدُورِ

ودواها دون نسبة ^(٢) . إلا أن الأبيات (١ ، ٤ ، ٥) نسبت إلى

العجاج في مواضع متعددة من الصحاح ^(٣) ، واللسان ^(٤) ، والأبيات (٧ ،

١٠ ، ٩) نسبت إلى منظور بن مرثد الأسدي في موضع واحد من اللسان ^(٥) .

ونسبة الأبيات إلى العجاج في مواضع متعددة من الصحاح واللسان ، أرجح من نسبتها إلى منظور بن مرثد في موضع واحد من اللسان ، ولهذا نرجح

(١) اللسان (مر) .

(٢) أراجيز العرب ١٥٥ .

(٣) الصحاح ٧٥١/٢ و ١٤٧٦/٤ و ١٥٠٩/٤ .

(٤) اللسان (عطر) و (دقق) و (صلق) .

(٥) اللسان (روح) .

أن تكون الأبوته بكاملها للعجاج .

وفي الرقم (٤٠) من الملحقات ، أشد السيوطي أبياتاً أولها :
أَصْبَحْتُ لَا يَحْمِلُ بَعْضِي بَعْضِي مُتَقَبِّلاً أَدْوَحَ مِثْلَ الْبَيْضِ
وقال : « وفي شرح سيبويه للزغشري : هذا الرجز للأغلب العجلي ،
وقيل : للعجاج ، وأوله : (الآيات) (١) » .

وهذا الرجز وردت بعض أبياته في مصادر كثيرة دون نسبة (٢) ،
وثبتت بعض أبياته إلى الأغلب العجلي عند أبي حاتم السجستاني (٣) ،
والأصفهاني (٤) ، والحيثي (٥) ، والبغدادي (٦) ، وثبتت أبيات أخرى إلى
العجاج عند سيبويه (٧) ، وابن سيده (٨) ، والشنتمري (٩) ، وأبي عبيدة معمر
ابن المنذر (١٠) .

ولا شك أن منزلة سيبويه وأبي عبيدة ، تقابلها منزلة أبي حاتم السجستاني
والأصفهاني ، ولذلك لا نجد مجالاً للترجيح من حيث المصادر ، ولكن الملاحظ
نقل أن معاوية بن أبي سفيان قد رأى هؤلاء وهو متعجب فقال بعض هذه
الآيات (١١) ، ولا مريّة أن معاوية قد تمثل بها لما تَنَحَّدْتُ عنه من

- (١) شرح شواهد المغني ٢٩٨ .
- (٢) انظر تخريج الآيات في آخر الديوان .
- (٣) كتاب المعمرين ٧٦ .
- (٤) الأغاني ١٦٤/١٨ .
- (٥) المقاصد ٣٩٥/٣ ، والفرائد ٢٢٣ .
- (٦) الخزائن ١٦٧/٤ - ١٦٨ .
- (٧) الكتاب ٢٦/١ ، وعبارة الكتاب : « وقال العجاج » ، وهي مريحة
بأنها من كلام سيبويه .
- (٨) المخصص ٧٨/١٧ .
- (٩) تحصيل عين الذهب ٢٦/١ .
- (١٠) معجم القرآن ٩٩/١ .
- (١١) البيان والتبيين ٦/٤ ، ونقله السيوطي عن الجاحظ في شرح
شواهد المغني ٢٩٨ .

ضعف وهم . وإذا صح هذا الخبر الذي نقله الجاحظ فهو يحتم أن تكون
الآيات للأغلب لا للعجاج ، لأن معاوية توفي سنة (٦٦٠ هـ) ، ولعله قال
هذه الآيات سنة وفاته أو قبل ذلك بسنوات ، وعلى الخليلين فالآيات ينبغي
أن تكون قد خرجت من شفاة صاحبها قبل سنوات على الأقل ، حتى أمكن
لها أن تبلغ من الشهرة ما يصل بها إلى أسماع الخليفة وذاكرته ، والعجاج
في ذلك الحين لم يكن من الحرم يثل مانصور الآيات ، ، لأنه توفي بعد
معاوية بنحو ثلاثين عاماً ، ولهذا نرجح أن تكون الآيات للأغلب لأنه من
المعمرين وقد توفي سنة (١٩٨ هـ) في معركة نهاوند أيام الخليفة عمر بن الخطاب
رضي الله عنه (١) .

وفي الرقم (٤٤) من الملحقات ، أشد الجوهري هذا البيت :

كَانَمَا رَحِيلِي وَالْقَرَّاطُطَا

ونسبه إلى العجاج (٢) ، ثم أنشده ابن منظور وقال : « هذا الرجز
نسبه الجوهري للعجاج ، وقال ابن بري : هو للزبيان للعجاج ، قال :
والصحيح في إنشاده :

كَانَ أَقْتَادِي وَالْأَسَامِطَا وَالرَّحْلُ وَالْأَنْسَاعُ وَالْقَرَّاطُطَا
ضَمْنَهُنَّ أَخَذَرِيّاً نَاسِطَا (٣) »

وهذا يعني أن الآيات مضطربة الرواية بين العجاج والزبيان ، وليس
من مرجح بينها إلا قول ابن بري وليس كلامه بالقول الفصل ، لأنه لا يعرض
سبباً أو حجة لذلك .

- (١) الشعر والشعراء ٥٩٥ ، والأغاني ١٦٤/١٨ .
- (٢) الصحاح ١١٥١/٣ .
- (٣) اللسان (قرط) .

وفي الرقم (٥٨) من الملحقات ، أنشد ابن فارس هذا البيت :

بَارَكَ فَيْكَ اللَّهُ مِنْ ذِي آلٍ

ونسبه إلى العجاج ^(١) ، ثم أنشده ابن منظور فقال : « قال أبو الحضر اليربوعي يمدح عبد الملك بن مروان ، وكان أجري مَهْرًا فَنَبَّحَ :

مَهْرًا أَيْ الْحَبِيبَ لَا تَنْفَكْ لِي بَارَكَ فَيْكَ اللَّهُ مِنْ ذِي آلٍ

أي من فارس ذي سرعة ^(٢) . ثم أنشد هذين البيتين مرة أخرى لأبي الحضر اليربوعي أيضاً ^(٣) . ومن المرجح أنه يكون البيت لأبي الحضر اليربوعي خلافاً لابن فارس ، ذلك لأن رواية اللسان قد حددت مناسبة البيت ، ولا شك أن تحديد هذه المناسبة أدعى إلى تحديد صاحب البيت ، وهذا أوثق من رواية البيت مجرداً من ذلك ، يتبادر دون أقوانه ، فتل هذه الرواية قد يقع صاحبها في وهم أو نسيان أو خطأ في عزو البيت إلى صاحبه ، ولهذا ترجح أن يكون البيت لليربوعي دون العجاج .

وفي الرقم (٦٣) من الملحقات ، أنشد ابن منظور هذه الأبيات :

تَبَادَرُ الْحَوْضُ إِذَا الْحَوْضُ شُغِلَ بِشَيْءٍ شَعَائِيٍّ صِهَائِيٍّ هَدَلٍ
وَمَنْكَبَاهَا خَلَفَ أَوْرَاكُ الْإِبِلِ

ونسب الأبيات إلى العجاج ^(٤) ، وأنشد البيت الثاني في موضع آخر ونسبه إلى العجاج أيضاً ^(٥) ، وفي موضع ثالث أنشد البيتين الأول والثاني مع اختلاف يسير في الرواية ونسبها إلى أبي محمد الخليلي ^(٦) ، وهذا يعني أن الأبيات

- (١) مجمل اللغة ٧/١ .
- (٢) اللسان (الل) .
- (٣) اللسان (شلل) .
- (٤) اللسان (شعع) .
- (٥) اللسان (صهب) .
- (٦) اللسان (هدل) .

ربما كانت متنازعة بين العجاج والخللي ، ولا مرجح بينها إلا أن يقال إن نسبة الأبيات إلى العجاج في موضعين من اللسان ، أرجح من نسبتها لأبي محمد الخليلي في موضع واحد .

وفي الرقم (٦٨) من الملحقات ، أنشد البغدادي هذين البيتين :

بِالْبَيْتِهَا قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فَعْمٍ حَتَّى يَعُودَ الْمَلِكُ فِي أَسْطُفَةٍ
وَكُنْ قَدْ أَنْشَدَ الْأَوَّلُ : « حَتَّى إِذَا مَا خَرَجْتَ .. » ، ثم قال :

« والبيت من أرجوزة للعجاج ، وقد تقدمت ترجمته في الشاهد الحادي والعشرين من أوائل الكتاب ، ورواية الشارح للبيت غير جيدة ، والحواب :

بِالْبَيْتِهَا قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فَه

كما هو في ديوانه ^(١) . »

فالبغدادي قد رأى أرجوزة لهذين البيتين في ديوان العجاج ، وليس من وهم أو تصحيف في ذكره للعجاج ، لأنه أكد أنه يريد به بناته حين قال : « وقد تقدمت ترجمته في الشاهد الحادي والعشرين من أوائل الكتاب » ، والذي ترجم له في الشاهد (٢١) من الخزائن إنما هو العجاج فعلاً ^(٢) .

ومن الغريب أنه البغدادي لم يشر إلى غير العجاج في نسبة الأبيات ، ولعله لم يفعل ذلك ، لأنه رأى في ديوانه ، إلا أن ابن عبد ربه (٨٣٢٨) أورد خبراً جاء فيه قوله : « وحدث المهيم بن عدي عن سليمان عن ابن عباس ، قال : لا أواد الوليد أن يبيع لابنه عبد العزيز بعد سليمان ، أبي ذلك سليمان وشنع عليه ، وقيل للوليد : لو أمرت الشعراء أن يقولوا في

- (١) الخزائن ٢٧٨/٤ - ٢٧٩ .
- (٢) الخزائن ١٥٧/١ .

ذلك لعله يسكت فيسند عليه بذلك . فدعا الأقبيل العتي فقال له :
ارنجز بذلك وهو يسمع فدعا سليمان فبارده ، والأقبيل خلفه ، فرفع صوته
فقال :

لِنْ وَلِيَّ الْعَهْدِ لَا بَيْنَ أُمِّهِ ثُمَّ ابْنُهُ وَلِيَّ عَهْدٍ عَمِّهِ
قَدْ رَضِيَ النَّاسُ بِهِ فَسَمِعَ فَهُوَ بِضَمِّ الْمَلِكِ فِي مَضْمَعِهِ
بِالْيَتَاءِ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فَمِهِ حَتَّى يَعُودَ الْمَلِكُ فِي أَسْطُوعِهِ

فالتفت إليه سليمان ، وقال : يا بن الحثيثة ، من رضي بهذا ؟^(١) .

وهذا الخبر يجعل الأبيات للأقبيل العتي ، وفيه خبر مشابهة أورده ابن
رشي (٤٦٣) يجعل الأبيات للعاني الراجز ، وفيه يقول : « ودخل
العاني الشاعر وهو أبو العباس محمد بن ذيئب الفقيمي على الرشيد فأنشده
أرجوزة يقول فيها :

قُلْ لِلْإِمَامِ الْمُتَّقِدِ بِأُمِّهِ مَا قَامَ دُونَ مَدَى ابْنِ أُمِّهِ
فَقَدْ رَضِيَائَهُ فَقَمُ فَسَمِعَهُ^(٢) »

والعاني هنا يطلب من الرشيد أن يبايع لابنه القاسم بولاية العهد ،
والأبيات في هذا الخبر لاتنأى عن الأبيات السابقة ، ولنا نشارك معبا
في توسيع الاضطراب حولها بين العجاج ، والأقبيل ، والعاني . وهذا
الاضطراب قد اتسع في اللسان إذ روى ابن منظور هذه الأبيات للعاني
مخاطب الرشيد :

مَا قَامَ دُونَ مَدَى ابْنِ أُمِّهِ قَدْ رَضِيَائَهُ فَقَمُ فَسَمِعَهُ

(١) المقصد الفريد ١٨٦/٥ - ١٨٧ .
(٢) العمدة ٣١/١ - ٣٢ .

بِالْيَتَاءِ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فَمِهِ حَتَّى يَعُودَ الْمَلِكُ فِي أَسْطُوعِهِ
ثُمَّ قَالَ بَعْدَهَا : « قَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ : الرَّجَزُ لِرَبْرِ قَالَ فِي سُلَيْمَانَ بْنِ
عَبْدِ الْمَلِكِ وَعَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَهُوَ :

لِنْ الْإِمَامِ يَعْنِي ابْنَ أُمِّهِ ثُمَّ ابْنُهُ وَلِيَّ عَهْدٍ عَمِّهِ
قَدْ رَضِيَ النَّاسُ بِهِ فَسَمِعَ بِالْيَتَاءِ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فَمِهِ
حَتَّى يَعُودَ الْمَلِكُ فِي أَسْطُوعِهِ أَبْرَزْنَا يَمِينَهُ مِنْ كُمِّهِ^(١) »

وهكذا فالأبيات متنازعة بين العجاج ، وجري ، والأقبيل ، والعاني ،
وبين العصريين الأموي والعباسي ، ولا نكاد نعلم أت تكون للعجاج
لأنها في الأخبار جميعاً ترتبط بأمر ولاية العهد ، ولم نجد في أخبار العجاج
شيئاً من ذلك ، وطبيعة العجاج أصلاً تحول بينه وبين أمثال هذه المازق ،
وأما وجود الأبيات في ديوانه على قول صاحب الحزانة ، فليس له تفسير
إلا أن يكون زيادة من النسخ ، لأن الأصمعي أدرى بأمثال هذه الأخبار
المتصلة ببني أمية ، وأعلم بهذه الأشعار إن كانت قد أنشدت حقاً في
بلاط الرشيد .

وفي الرقم (٧٠) من الملحقات ، أنشد العيني أرجوزة ، أولها :
عَبْسِيَّةٌ لَمْ تَرَخْ قَفْئاً أَدْرَمًا وَلَمْ تَعْجَمْ عَرَفْطاً مُعْجَمًا
وقال بعد إنشاده البيتين (١٨ - ١٩) : « أقول قائلته هو أبو حيان
الفقعسي ، كذا قاله ابن هشام الجيلي ، وقال ابن هشام اللخمي : قائله
مساور العبيسي ، ويقال : العجاج والد رؤبة ، وقال السيرافي : قائله الديلمي ،
وقال الصلغاني : قائله عبد بني عبس . وهو من قصيدة مرجزة أولها هو قوله :

(١) اللسان (طبع) .

(الأبيات)^(١) .

وَأشار الجهادي إلى شيء من قول العيني ، وزاد عليه قوله : « وقد روى الحلواني في كتاب الشعراء المنسوبين إلى أمهاتهم الأبيات الأخيرة من قوله :

عَنْدَ كِرَامٍ لَمْ يَكُنْ مَكْرُومًا

إلى آخرها باختلاف في بعض الألفاظ ، ونسب الشعر إلى ابن جُبَّانة ، بضم الجيم وبعدها موحَّدتان خفيفتان وهو شاعر جاهلي لص ... ونسب ابن السيد والبخمي هذا الشعر إلى مساور العبيسي ، ونسب بعضهم إلى العجاج ، قال ابن السرياني في شرح أبيات الغريب المصنف للعجاج قصيدة ، يشبه أن تكون هذه الأبيات منها ، والرواية تختلف ، وأبيات العجاج في صفة فعل من فحول الإبل ...^(٢) » .

ولا شك أن السرياني قد أشار إلى أرجوزة العجاج^(٣) :

طَافَ الْخَالَانَ فَتَهَاجَا سَقَمًا خَيَالٌ تَكُنْتِي وَخَيَالٌ تَكُنْتِمَا

ولم ترد فيها أبيات الأرجوزة المتنازعة بين عدد من الرجاز ، ولكنه لا يبعد أن تكون جزءاً منها لم ينقله الأصمعي ، أو أن تكون أرجوزة أخرى للعجاج تتفق مع الأولى رويًا وقافية ، ولكن هذا أو ذاك من الصعب أن نجد عليه دليلًا ، ولذا كانت ثلاثة أبيات من الأرجوزة المتنازعة بين عدد من الرجاز قد نسبت في جمهرة اللغة إلى العجاج ، وهذه النسبة زائدة

(١) المقاصد النحوية ٨/٤ ، ومثله في الفرائد ٢٨٤ ، وشرح شواهد المفني ٢٢٩ .
(٢) خزانة بولاق ٥٧٢/٤ .
(٣) الأرجوزة (٢١) من ديوان العجاج .

من المحقق على الأرجح^(١) ، وبذلك لا نجد من الأدلة ما يميل بالأرجوزة إلى العجاج أو غيره ، ولذا تبقى مُتَنَازَعَةٌ بينه وبين عدد من الرجاز .

وفي الرقم (٧٣) من الملتفات أنشد الزبيدي هذا البيت :

يَطْفَنُ بِيحُورِي الْمَرَاتِعَ لَمْ تَرَعْ

بواديه من قترنر القيسي الكنائس

وعزاه إلى العجاج^(٢) ، وهذا البيت أنشده ابن منظور وعزاه إلى الطرماح^(٣) ، وأنشد الرماني عجزه وعزاه إلى الطرماح أيضًا^(٤) ، وإنشاده من قبل الرماني وابن منظور للطرماح يزيد أن يكون للطرماح فعلًا ، وذلك لأنها أسبق من المرتضى الزبيدي زمانًا ، ولأن البيت من الطويل ، ويدعو أنه من قصيدة وليس بيتًا ، والعجاج قل أن يقول شعراً من غير الرجز إلا "فيا ندر ، ولا يقول إلا" البيت أو البيتين ، أما المقاصد غير المرجزة ، فلا أثر لها في ديوانه أو في مصادرها على اختلاف أنواعها .

وفي الرقم (٧٦) من الملتفات ، أنشد ابن منظور هذه الأبيات :

مَابَالُ عَيْنٍ شَوَّقَهَا اسْتَبْكَاها فِي رَسْمِ دَارٍ لَبِستُ بِبِلَاهَا
تَلَفَّ لَوْلَا التَّارُ أَنْ تَصْلَاهَا أَوْ يَدْعُو النَّاسَ عَلَيْنَا اللَّهُ

لَمَّا سَمِعْنَا لِأَمِيرٍ قَاهَا

ونسب الأبيات إلى الزَّهَّانِ^(٥) . والبيت الأخير أنشده الجوهري ونسبه

(١) جمهرة اللغة ٣/٢٢٥ ، وميسرة الجوهرة وردت على هذا النحو :
« وقال الرازي في الشجعان - هو العجاج » .
(٢) تاج العروس (حوز) .
(٣) اللسان (حوز) .
(٤) توجيه أشراف أبيات ملفرة الإعراب ٥٥ .
(٥) اللسان (قوه) .

إلى العجاج^(١) ولهذا أنشد ابن منظور الأبيات الثلاثة الأخيرة ، وقال قبلها :
« وقال العجاج ، قال ابن بري : صوابه الزيفان^(٢) » ، فقد نسب ابن
منظور الأبيات الأخيرة للعجاج ثم أورد تصويب ابن بري بأنها للزيفان ،
ومن هنا نجد الأبيات متنازعة بين العجاج والزيفان ، والذي يرجح أنها للعجاج
مافيه من معان تقرب كل القرب من معاني العجاج المعروفة في هذا الموضوع
وكذلك وجود بيتين آخرين من هذا الروي انشدهما الزعشمري للعجاج^(٣) ،
ولهذا نرجح أن تكون الأبيات كلها للعجاج ، وهي أشتمت من أرجوزة
ضائعة له .

وبهذا ينتهي القسم الثالث من الاضطراب في رواية رجز العجاج ، وكاد
يقصر على ملحقات الديوان يوجه خاص ، لأنها أكثر الأراجيز هدفًا لوم
الرواة وخطبهم بين هذا وذاك من الرجز .

وأما القسم الرابع فهو ما أنشد للعجاج من أبيات وليست له ، وإنما
هي من قصائد أو أراجيز أمكن لنا أن نعتبر عليها في دواوين أصحابها ،
وبذلك أخرجنا تلك الأبيات من الديوان ، وألحقناها به في قسم خاص أطلقنا
عليه اسم « ما أنشد للعجاج وليس له » . ولا حاجة بنا إلى استعراض
ماورد منها ، لأنها لا تحتاج إلى أي مناقشة ، ذلك لأنها مجرد أبيات وردت
في بعض المصادر منسوبة إلى العجاج ، وقد أمكن أن نعتبر على قصيدة كل
بيت ، ونردها إلى صاحبها ، ونحدد مكانها في ديوانه ، وبذلك أصبح من
الحال أن تكون تلك الأبيات لأرجوزنا العجاج . ولم نلتحق بهذا القسم شيئًا
ما رجحنا أنه لغوي العجاج فيما سبق ، لأن مجرد الترجيح ليس فيه كل اليقين ،

(١) الصحاح ٦/٢٤٠ .

(٢) اللسان (صلا) .

(٣) أساس البلاغة ١/١١٢ .

وليس من السائع أن تلحق ذلك بما ثبت يقينا أنه ليس للعجاج ، رغم
نسبته إليه في بعض المصادر .

ولا مزية أننا بدراسة مداخل رجز العجاج من اضطراب أو انتحال ،
قد غربلنا هذا الرجز ، وأصبح من اليسير أن نتجه إلى دراسة موضوعاته
وخصائصه ، وذلك من خلال الرجز الموثق الذي بقي لدينا من ديوانه ،
وما كان لنا أن نقف على صورة واقعية لما فيه من موضوعات أو خصائص فنية
قبل تلك المرحلة من التوثيق والغربة .

* * *

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
(أسكنه الله الفردوس)
الفصل الرابع
موضوعات رجزه

في هذا الفصل سوف نتحدث عن الموضوعات التي تناولها العجاج في رجزه ، والموضوعات التي صدّ عنها ، ولكننا لانفهم دور العجاج في مدرسة الرجز ، إلاّ إذا عدنا قليلاً إلى موضوعات الرجز قبل العجاج ، على أننا لن ندخل هذا البحث دخول المؤرخ او المستقصي رغم مالدننا من الأسباب التي تسهل علينا طريق الاطالة والاسهاب في ذلك ، وأهمها ماقتنا به من جمع لدواوين أكثر الرجاز المشاهير ، من فُحِّدَت دواوينهم أو حُفِّظَت أقسام منها قليلة ، ولكن مثل هذه الدراسة المطلوبة أخرى أن تكون خاصة بداسة « قريض الرجز » ، لا أن تسلك ضمن دراسة خاصة براجز معين ، ولهذا لن نتناول موضوع الرجز قبل العجاج ، إلاّ بشيء من الاجياز والوقوف عند الأمور الهامة فحسب ، والتي فيها مايساعد على فهم دور العجاج في تطوير موضوعات الرجز .

١ - موضوعات الرجز قبل العجاج

لاشك أن الرجز من أقدم الأوزان في الشعر العربي ، بل إن بعض الباحثين يردّ ظهور الشعر العربي إلى هذا الوزن ، فيرى أن الشعر إنما بدأ بوزن الرجز ، ثم ربط بعضهم بين الرجز والإبل والجداء ، واتخذ من حذاء

الإبل ، أو إيقاع أقدامها على الأرض ، مبدأ لظهور هذا الكلام الشعري الموزون ، وهذه النظرة إلى الرجز قديمة ليس لأحد من المحدثين أن يدعيها لنفسه ، فقد نقل القرشي بسنده عن محمد بن اسحق قال : « قدم قيس بن عاصم التميمي على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يوماً وهو عنده : أنتدي يا رسول الله من أول من رجز ؟ قال : لا ، قال : أبوك مضر ، كانت يسوق بأهله ليلة ، فضرب يد عبد له ، فصاح : وايداه ! فاستوثقت الإبل ونزلت ، فرجز على ذلك »^(١) .

ولا يعنينا الآن مناقشة هذا الخبر ، وإنما چنا منه قدّم هذه النظرة إلى الرجز والربط بينه وبين سير الإبل ، وبذلك يكون الربط بين الرجز والإبل قديماً ، قال به جماعة منذ عهد ابن اسحق على الأقل ، وليس جديداً يمكن أن يدعيه لنفسه بعض الباحثين في هذا العصر .

وقد لاحظ الدكتور شوقي ضيف أن الرجز كان وزناً شعبياً عاماً في عصر ما قبل الإسلام ، فقال : « الرجز من البحور القديمة في الشعر العربي ، فقد كان يستخدم بكثرة في العصر الجاهلي ، وهي كثرة تؤكد أنه كانت الوزن الشعبي العام الذي يدور على كل لسان ، ومن ثم قلنا وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه ، وكانوا تركوه للجمهور يتبعده ويرعاه »^(٢) .

ثم أوضح بعض مظاهر هذه الشعبية فقال : « وليس ذلك كل ما نلاحظه في شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزخاف ، لانتقالنا في أي وزن آخر ، فكثير فيه المشطور والمنهوك ، وأيضاً فإنه لم يطل إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلاّ نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون

(١) جهرة أشعار العرب ٢٧ .
(٢) العصر الاسلامي ٣٦٤ - ٣٦٥ .

معروفون ومجهولون ، حين يجدون بغير ، وحين يجولون في ميادين الحروب ،
وحين يتناولون أي عمل كحفر بئر أو منح منها ^(١) .

ولذا ماعداً إلى الأخبار المنصبة بالرجز الجاهلي وجدناه فعلاً شديد
الاتصال بحياة الأعراب وما يعرض لهم من أحوال أو أسفار أو مهاجاة أو
قتال أحياناً ^(٢) . ولم يكن من طبيعة الرجز في الجاهلية أن يطول إلى
آيات متعددة ، ولما نجده غالباً في ثنايا الأخبار التي تتحدث عن وقائع
القوم وأيامهم ، وكثيراً ما نجد أمثال هذه العبارة : « فخرج إليه وهو يرتجز » ،
أو « وكان فلان يحمل عليهم وهو يرتجز » ، ثم يوردون آياتاً لا تزيد على
الثلاثة في أغلب الأحيان ، وهي آيات يتحدث فيها ذلك الفارس عن إقدامه
وجرأته ، ولا ينسى أن يتهدي الأعداء بسيف له أو برمح . ولا يقف
موضوع هذا الرجز عند الحرب ، ولما يتعدى ذلك إلى حياة الأعراب نفسها ،
ولا سيما في ترقص طفل أو طفلة ، أو ترديد آيات أثناء عمل شاق وخاصة
إذا كانت تشترك فيه جماعة ، فإذا ما أوردوا آياتاً من الرجز ، وإذا
ماوقفوا على الآثار رجزوا أيضاً ، وغنوا بآيات ينشدونها ، قُبعت فيهم
نشاطاً ، وهم يكتفون ويتعبون ، ولهذا قال راجزهم ^(٣) :

لن يُغْلَسَ الماتِحُ مادامَ رَجَزٌ فكينَ أصاحَ ساكِناً فقد عَجَزَ
فالمرسوعات في رجز الجاهلية عامة لا تكاد تخرج عن هذا النطاق المحدود
في التعبير عن بعض أحوال النفس من تعب أو حماس أو ما أشبه ذلك ،
فهي تعبر عن دفقة شعورية خاصة في آيات قليلة لا تتجاوز الثلاثة في أغلب

(١) العصر الإسلامي ٣٩٥ .
(٢) انظر طبقات ابن سلام ، ٢٧ ، ٢٨ ، والمقد الفريد ٧٧/٤ -
٨٣ و ٢٤/٦ - ٢٥ ، وشرح التبريزي على حماسة أبي تمام ١٣/٢ - ١٤ .
(٣) شرح التبريزي على الحماسة ٧٠/٢ .

الاحيان ، ولم تكن الأرجوزة تعبر عن أمور متشعبة ، أو تطول لتعبر عن
جوانب معقدة للموضوع واحد كالذي نجده في بعض القصائد أو المقطعات
الشعرية لذلك العصر .

أما أراجيز العجاج فهي تتناول موضوعات القصيد نفسه ، والأرجوزة
الواحدة ربما طالت فقاربت المائتين من الآيات ، وهي تنتهج سُنَّة الشعراء
في تعدد المرسوعات ضمن الأرجوزة الواحدة ، وكثيراً ما تنقح مواقفهم من
الأطلال واليكاء عليها وتذكر أيام الشباب الخاليات ، أيام كانت تلك الأطلال
ماهولة بالأحبة ، عامرة بجبال الأنس والهوى ، ثم تخفي مواقف الأرجوزة
إلى وصف الرحلة أو الطريق ، وما يعرض فيها من متاعب ، ثم لا ينسى
العجاج أن يشبه ناقته أو جملة يتوار أو يجار وحشي ، ومن ثم ينطلق إلى
وصف هذا الثور وما يصادفه من كلاب وصياد ، وقد تنتهي أرجوزة العجاج
عند هذه المشاهد الأخاذة من الصراع بين الثور والكلاب ، ويجد غاية ما يحتم
به الأرجوزة أن يجعل الثور يضي في نشوة النصر والغلبة ، والكلاب بين
صرير وجريح يلفظ آخر الأنفاس ، وقد لاتنتهي الأرجوزة عند انتصار
الثور ، ولما تخفي إلى مدح هذا الخليفة أو ذلك الوالي أو الأمير ..

وبذلك نجد موضوعات الأرجوزة عند العجاج لا تختلف في شيء عن موضوعات
القصيدة الجاهلية وما فيها من إطالة وتنويع ، ولا شك أن هذا الخلاف بين
موضوعات الرجز في الجاهلية وبين رجز العجاج ، لم يحدث إلا بعد أن
مرت الأرجوزة بأطوار متعددة قبل أن تصل إلى منج القصيد ، ولا نظن
أن العجاج هو الذي بدأ هذا التحويل الجذري في تاريخ الأرجوزة ، ذلك
لأن القدماء قد لاحظوا أن الأغلب العجلي كان أول من أطال الرجز وتوسع
في أغراضه وموضوعاته .

فإن سلام (٢٣٢) ذكر الأغلب العجلي في طبقة الرجاز ، فقال :
« الأغلب العجلي ، وكان مقدماً ، أول من رجز »^(١) ، وقد تكون هذه
العبارة محرفة في نسخة الطبقات ، وقد يكون هذا التحريف قديماً يرقى إلى
عهد ابن رشتي (٤٦٣هـ) لأنه نقل عبارة ابن سلام ورد عليها فقال : « وزعم
الجمعي وغيره أنه أول من رجز ، ولا اظن ذلك صحيحاً ، لأنه إذا كان
على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك »^(٢) ،
وبهذا الرأي قال محقق الطبقات^(٣) .

وقد تكون العبارة غير محرفة في الطبقات ، وإنما كلف ابن سلام
يريد بها هذا النمط المطول من الرجز ، الذي بدأ به الأغلب وطوره العجاج ،
للمجرد النظم بهذا الوزن ، وهذا ما كان يعنيه الرجز عند علماء القرن الثاني ،
ذلك لأن « الرجز » لم يعد في نظر هؤلاء مجرد البيت أو البيتين أو المقطعات
القصيرة التي كانت لعبد الجاهلية ، وإنما أصبح له معنى اصطلاحى يراد منه
ذلك النمط الجديد الذي بدأ به الأغلب ، واستوى أمره على يد العجاج ،
واستمر يحتفظ بشيء من خصائصه إلى عهد ابن سلام أواخر القرن الثاني
وأوائل القرن الثالث .

وبعد ابن سلام جاء ابن قتيبة (٢٧٦هـ) فوضع دور الأغلب بعبارة
ادق وأوضح فقال في ترجمته : « هو الأغلب بن جشم ، من سعد بن عجل ..
وعاش تسعين سنة . وكلف الأغلب جاهلياً اسلامياً ، وقتل بنهاوند »^(٤) ،

(١) طبقات ابن سلام ٥٧١ .

(٢) العمدة ٥٦/١ .

(٣) انظر حاشية الاستاذ محمود محمد شاكر ٥٧١ .

(٤) كانت وقعة نهاوند سنة (١٦ هـ) في خلافة عمر بن الخطاب رضي

وهو أول من شبه الرجز بالقصيد وأطاله ، وكان الرجز قبله إذا يقول الرجل
من البيتين أو الثلاثة ، إذا خاضم أو شاتم أو فاضح^(١) .

فالأغلب في رأي ابن قتيبة أول من شبه الرجز بالقصيد وأطاله ،
وهذا ما نجد بعد ذلك عند الأصفهاني (٣٥٦هـ) إذ قال : « وهو أحد
المعمرين في الجاهلية عمرأ طويلاً ، وأدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه ،
وهاجر »^(٢) ، ثم كان فيمن توجه إلى الكوفة مع سعد بن أبي وقاص ، فترها
واستشهد في وقعة نهاوند فقبوه هناك في قبور الشهداء . ويقال : إنه أول
من رجز الأربليين الطوال من العرب »^(٣) .

ونقل ابن رشتي كلاماً لأبي عبيدة سنورده بعد قليل ، ثم قال :
« وقال غيره : أول من طول الرجز الأغلب العجلي وهو قديم »^(٤) ، ثم ردَّ
على ابن سلام أن يكون الأغلب « أول من رجز » .

ولئن كانت عبارة ابن سلام فيها غموض أو تحريف ، فعبارة ابن قتيبة
والأصفهاني وابن رشتي ، واضحة كل الوضوح ، وهي تشير إلى أن الأغلب
أول من أطال الرجز ، وأول من شبهه بالقصيد ، ويفهم من هذا أن الأغلب
العجلي أول من حاول تطوير الرجز ونقله إلى ميدان القصيد ، إلا أن
هذه الأقوال جميعاً لا تجعلنا نقف على موضوعات الأرجوزة الواحدة عند
الأغلب ، ولا موضوعات جزءه بوجه عام ، فتطوير الأرجوزة شيء ، وحملها
على منبج القصيدة شيء آخر ، وهنا نجد مسألة جد دقيقة ، وليس في أيدينا

(١) الشعر والشعراء ٩٥ ونقله عن ابن قتيبة البغدادي في الخزانة

٢٠٧/٢ ، ونقل السيوطي أقوال ابن قتيبة والجمعي ورد ابن رشتي

عليه في الفهرست ٤٨٤/٢ وانظر شرح شواهد المفني أيضا ١٨ و ٢٩٨ .

(٢) انظر تعليق البغدادي حول « هجرة الأغلب » في الخزانة ٢٠٧/٢ .

(٣) الأغاني ١٨/١٦٤ .

(٤) العمدة ٥٦/١ .

مايجل لإيهامها ، ويوضح شيئاً من أمرها ذلك لأن تراجم الأغلب لم يشر إلى هذا أبداً ، وكان يمكن لديوانه أن يعوض من ذلك ، ولكنه مفقود ليس له من أثر ، وقد حاولنا التعويض من ذلك بجمع ديوان له عسى أن يحل شيئاً من هذه المشكلة الغامضة .

إلا أن هذا الديوان الذي جمعناه للأغلب لا يستجيب لحل تلك المشكلة ، ذلك لأننا لا نجد أرجوزة مطولة فيه ، ولا نكاد نجد ما يطول غدير تلك الأرجوزة المفضلة التي قالها ججو ميلة الكذاب وسجاح التميمية ، وهذه الأرجوزة لا تخرج عن موضوع الهجاء والنيل من الكذابين ، وهي برواية ابن سلام لا تخرج عن (٣١) بيتاً . وأما سائر الديوان فلا نجد فيه إلا أبياتاً فزادى أو مقطعات لا تزيد على ثلاثة أبيات غالباً ، ولا تبلغ الأرجوزة القصيرة إلا نادراً ، ولا شك أن هذه الأبيات أو المقطعات القصيرة ، ليست إلا بقايا من أرجوزات كانت للأغلب ثم فُقدت ، فضاقت معها الحلقة الهامة التي تمثل أول منطق الرجز نحو ما يشبه القصيد .

ولعل رجز الأغلب قد فُقد أكثره قبل القرن الثاني الهجري إذ قال المرزباني (٣٨٤ هـ) في ترجمته : « أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا أبو حاتم قال : سألت الأصمعي عن الأغلب العجلي : أفهل هو أم من الرجساز ؟ فقال : ليس هو بفهل ولا مفلح . قال : وأعياني شعره . وقال لي مرة أخرى : ما أروي للأغلب إلا اثنتين ونصفا . قلت : وكيف قلت نصفاً ؟ قال : أعرف له اثنتين ، وكنت أروي نصفاً من التي على القاف ، فطوّلوها . ثم قال : كان ولده يزيدون في شعره حتى أخذوه . »

قال أبو حاتم : وطلب اسحق بن العباس الهاشمي من الأصمعي رجز الأغلب فطلبه مني فأقرته إياه ، فأخرج منه نحواً من عشرين قصيدة ، فقلت

للأصمعي : ألم ترعم أنك لم تعرف إلا اثنتين ونصفاً ؟ قال : بلى ، ولكن انتقيت ما أعرف ، فإن لم يكن له فهو لغيره من هو ثبت أولئك . قال أبو حاتم : وكان الأصمعي من أروى الناس للرجز . قال الأصمعي وقال خلف أيضاً : أعياني شعر الأغلب . قال خلف : وكان ولده انساناً يصدق في الحديث والروايات ويكذب عليه في شعره (١) .

فهذا يشير إلى أن كبار الرواة أمثال الأصمعي وخلف لم يجدوا للأغلب أرجوزة صكيرة ، وإنما فقدت هذه الأرجوزة ، ولم يحفظ منها إلا أبيات متفرقة على السنة الرواة ، وربما كان لتزيد ولده في شعره ما زعمد الرواة في حمله والحفاظ عليه ، إذ ليس من السهل أن يقل الرواة هذا الرجز ، والأصمعي نفسه يشير إليه بإصبع الاتهام ، ولهذا لم نظفر في مصادرتنا على كثرتها بأرجوزة مطولة للأغلب ، وإنما عثرنا على أبيات أو مقطعات قصيرة فحسب .

ومع ذلك فهذه الأبيات والمقطعات تدل على أن الأغلب قد تصرف في موضوعات الرجز ، وجعله أهلاً للتعبير عن موضوعات الشعر بوجه عام ، فقد تناول فيها بعض موضوعات الوصف ، والهجاء ، والحكمة ، والجماسة ، وذكر فيها بعض أيام بكر بن وائل ، أمثال الزمورين وكان ليكر على قيم ، وذي قار وكان على الفرس .

ولم نقف للأغلب على شعر من غير الرجز ، والذي يبدو لنا أن الأغلب كان يقرض الشعر إلى جانب الرجز ، وأن الرجز كان يتميز عنده من القصيد ، يدل على ذلك هذا الخبر المشهور الذي كان ابن سلام أول من

(١) الموضح للمعزباني ٢١٣ .

نقله فقال موجزاً : « وكتب عمر إلى عامله ^(١) ، أن سل ليدياً والأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام . فقال الأغلب :

أرجزاً تُريد أم قصيداً فقد سألتَ حيثما موجوداً

وقال ليدي : قد أبداني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران ^(٢) .

وفي هذا ما يدل على أن الأغلب كان يحسن القصيد إلى جانب الرجز ، وأن الرجز كان يتميز عنده من القصيد ، ومن ثم كان في تطويله للرجز إنما يحاول فعلاً أن يجدد في هذا اللون من الشعر ، ويجدد له بعض الخصائص التي لم تكن له من قبل ، ولعل محاولة الأغلب هذه قد لقيت بعض الأصداء في جزيرة العرب ، قبل أن يصل الأمر إلى العجاج ، إذ بدأ الرجز يطول على ألسنة بعض الشعراء ، ومن أمثلة ذلك ما أنشدته الطبري من قول عمرو بن سلم الخزاعي ^(٣) :

لا همَّ لي في فاشد محمدًا حلفتَ أينا وأيه الأُنشدًا
فوالدا كنتَ وكنتَ ولدا نُسئتَ أسلمنا فلم تنزع بدا
فانصر رسول الله نصرًا عتدًا وادع عبادة الله ياؤا مسدًا
فيهم رسول الله قد تجردًا أبيض من الداليد تشمي صعدًا
إن سيم خسفاً وتجنه ترويدا في فيلق كالبحر يجري مزيدا
إن قريشاً أخفرك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداه رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أدلُّه وأقلُّه عتدا هم يثبثونا بالوتيد هجدا
فقتلتونا ركعًا وسجداً

فهذه الأرجوزة ليست من نخط الرجز الذي كان سائدًا لدى القوم قبل الأغلب العجلي ، فهي أطول في عدد أبياتها ، وأكثر تنوعاً من حيث موضوعاتها ، إذ حشدت عدداً من الموضوعات على قلة أبياتها نسبياً ، ففيها مدح للرسول عليه السلام ، وتحريض على القتال ، وتعرض بقريش ، وشرح لما حدث من عدوان على خزاعة ، فهي إذن لا تختلف في شيء عن القصيدة الشعرية هدفاً وأغراضاً ، ولنا تسار القصيدة في ذلك مسارة النسد للند ، ولنا الآن بصدد الخصائص الفنية عند العجاج للبحث الفارق بين هذه الأرجوزة وأراجيزه ، ولنا حسناً أن نلاحظ ما فيها من كثرة في الأبيات ، وتنوع في الأغراض ، فهذا طور من أطوار الرجز ، كلن قد حدث بتأثير الأغلب العجلي على ما نظن ، وذلك لأن الأغلب قد سلخ من حياته في الجاهلية زهاء سبعين عاماً ، وهي فترة تكفي لانتشار تأثيره فيمن حوله من الشعراء .

تاريخ ابن الأثير ٨٤/٢ ، وتاريخ الطبري ٢٨١/٢ ، وتاريخ أبي الفداء ١٤٦/١ ، والبداية والنهاية ١٧٥/٤ ، وأنسان العيون ٢٤/٣ ، وجوامع السيرة ٢٠٨ .

(١) الفترة بن شعبة وكان على الكوفة .
(٢) طبقات ابن سلام ١١٣ ، وانظر تفصيل ذلك في لمالي الزبيدي ١٠٠ ، والأغاني ٩٤/١٤ ، ١٦٤/١٨٥ ، ١٦٥ ، والخزانة ٢١٤/٢ - ٢١٥ ، وثمة إشارة إلى ذلك في جواهر الانفاظ ٥٤٤ ، ومجالس نعلب ٥٨٨ ، والمخصص ١٣٢/١٠ ، ورواية الأبيات في المصادر الثلاثة الأخيرة فيها اختلاف ، وتنسبت في المخصص لحميد الأرقط وهما من ابن سيده .
(٣) تاريخ الطبري ٢٢٥/٢ ، والأبيات في تاريخ ابن الأثير ٩٩/٢ ، والبداية والنهاية ٢٧٨/٤ ، وعيون الأثر ١٦٤/٢ ، وأنسان العيون ٨٣/٢ ، وتاريخ الخميس ٧٧/٢ ، والعقد الفريد ١٣١/٦ ، وجمهرة أشعار العرب ٢٦ - ٢٧ ، مع اختلاف في الرواية والترتيب .

وخزاعة من حلفاء الرسول عليه السلام بعد صلح الحديبية ، فلما اغارت قريش على حي من خزاعة يقال له بنو كعب ، فقتلوا فيهم وأخذوا أموالهم ، جاء عمرو بن سلم الخزاعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم مستنصراً فأنشده هذه الأبيات . وكان غدر قريش ببني كعب نقضاً لعهد الحديبية ، مما أدى إلى الحرب وفتن مكة . انظر شروط الحديبية في

وفئة أمثلة أخرى لتأثير الأغلب العجلي فيما نُقِل إلينا من رجز تلك الفترة^(١) ، ولا يعيننا أن نطيل في سرد هذه الأمثلة أو أن نفق عند هذه المسألة ، إلا أن حمة قولاً للجاحظ لا يبد من الوقوف عنده ، وهو قوله : « ومن الشعراء من يحكم القريض ولا يحسن من الرجز شيئاً ، ففي الجاهلية منهم : زهير والناطقة والأعشى ، وأما من يجمعها فامرؤ القيس وله شيء من الرجز ، وطرفة وله كمثل ذلك ، وليد وقد أكثر »^(٢) .

ومثل هذا القول قد يكون مغايراً لما ورد من أقوال عدد من علمائنا وروائنا القدامى حول دور الأغلب العجلي ، إلا أن ديوان امرئ القيس لا يحتوي من الرجز إلا على مقطعة واحدة هي قوله في بني أسد^(٣) :

يُلفّ هندي إذ حطّيت كاهلاً تالله لا ينعب شَيْخِي باطلاً
حتى أبير مالكا وكاهلاً القاتلين الملك الملاحلاً
خير معد حسبا وثائلاً وخيرهم قد علموا شتائلاً
نحن جلبنا الفرّج الفواطلا يحملننا والأسل النواطلا
وحي صعب الوشيج الذابلاً مستنفرات بالخصى حواطلا
يستشرف الأواخر الأوائل

ولا يبعد أن تكون منجولة لما فيها من سطحية تشبه أن تكون من أساليب القصص ، وشعر امرئ القيس لا يؤتقن بوجه عام ، والشعر المنحول

(١) انظر أبياتا لابن ربيعة في طبقات ابن سلام ١٨٦ - ١٨٧ ، ١٨٩ ، المؤلف والمؤلف ١٢٧ ، وتاريخ الخميس ٤٤/٢ ، وأبياتا لأعشى بن الحرمان في المؤلف ١٥ - ١٦ .
(٢) البيان والتبيين ٨٤/٤ .
(٣) ديوان امرئ القيس ١٥٤ - ١٥٥ .

لم ينتبه إليه كله أمثال ابن سلام والأصمعي والأصمعي والجاحظ ومن إليهم ، ولما قنّيه هؤلاء إلى بعض المنحول في الشعر العربي ، وجاز عليهم شعر آخر لم ينتبهوا إلى اتحاله ووضعه .

وطرفة لم تقف في ديوانه على غير هذه الأبيات^(١) :

يا لك من مقبرة يستعمر خلا لك الجو فبضي واصغري
قد رُفِع الفخ فاذا تحذري وتغري ما شئت أن تغري
قد ذهب الصياد عنك فابشري لا بد يوماً أن تصادي فاصبري

وهي تروى أيضاً لكليب أخي مهلب بن ربيعة ، ولا يبعد أن يكون طرفة قد تمثّل بها . ومما يكن من أمرها ، أو أمر مقطعة امرئ القيس السابقة ، فنحن لا ندرى إذا كان لها رجز آخر علم به الجاحظ ولم يُنقل إلينا في ديوانها ، ولكن يبدو أن مثل هذا الرجز لم يكن يخرج عن حدود الرجز المعروف عند العرب قبل الأغلب العجلي ، إذ لو كان يشبه ما أراده الأغلب للرجز من تطوّر ، لما غفل عنه كبار العلماء من أمثال ابن سلام وابن قتيبة والأصمعي وابن رشيّ وهم يجددون دور الأغلب في تطوّر الرجز . وأما ليد فقد وجدناه رجزاً في أضعاف بعض المصادر ، ولكنه لا يخرج عن نطاق الرجز الجاهلي ، وذلك مثل قوله في الحكم بين عامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة^(٢) :

ياهرم بن الأكرمين منصبا^(٣) إنك قد أوتيت حكماً معجبا
فطبق الفصل واغم طيبا

(١) ديوان طرفة ٦٣ (طبعة صادر) .
(٢) البيان والتبيين ١٠٩/١ ، وبلغت هذه الأبيات سبعة في الاغاني ٥٤/١٥ .
(٣) هو هرم بن قطبة بن سنان بن عمرو الغفاري ، أحد حكام العرب ،

فقول الجاحظ لا يعني أن هؤلاء الشعراء قد ساروا بالرجز سيرة الأغلب العجلي ، وإنما يعني أنهم قالوا من الرجز ما يشبه عادة العرب فيه أسلوباً وشكلاً وموضوعاً ، ولم يطلوا في شكله أو ينوعوا في موضوعاته كالذي أحدثه الأغلب فيما بعد ، وبذلك يبقى الأغلب العجلي أول من طور موضوعات الرجز وأطال في شكل الأرجوزة ، ولا شك أن امتداد حياته في عصر ما قبل الإسلام قد جعل له تأثيراً في رجز معاصريه ، وإذا كان العجاج قد وُلِدَ في الجاهلية وقال أبياتاً فيها ، فإن ما لا ريب فيه أنه قد انجسبه إلى أساليب الأغلب ، وأعجب به ، ولهذا ذكره في رجزه فقال^(١) :

إني أنا الأغلب أضحي قد نشير

وهذا القول يشير بنفسه إلى أن الأغلب هو الذي رسم الطريق للعجاج ، ولولا ذلك لما فاخر العجاج بأنه الأغلب قد نشير إلى الناس برجزه ، وإن توارى عنهم تحت طيات التوى .

إلا أن العجاج لم يقف عند الحدود التي رسمها الأغلب لموضوعات الأرجوزة ، ولم يكتف بجرد إطالة الأبيات ، وإنما سار بالتطوير إلى أبعد من ذلك ، فجعل من الأرجوزة ما يشبه القصيدة فعلاً وذلك في بنائها وموضوعاتها ، ثم جدد لقصيدة الرجز بعض الخصائص التي تميزها من القصيد بوجه عام ، فجعل ألفاظها ومعانيها تنتم بطابع الغرابة والبداعة ، وهذه الخصائص سوف نعرض لها في أبحاث خاصة ، إلا أن موضوعات الأرجوزة هي ما همنا في هذا البحث .

وقد لاحظ أبو عبيدة معمر بن المثنى التطوير الذي أدخله العجاج على

موضوعات الرجز ، فقال : « إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك ، إذا حارب أو شاتم أو فاخر ، حتى كان العجاج أول من أطاله وقصّده ، ونسب فيه ، وذكر الدليل ، واستوقف الركاب عليها ، ووصف ما فيها ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحة ، كما فعلت الشعراء بالقصيد ، فكان من الرجاز كمرى القيس من الشعراء^(٢) » .

فأبو عبيدة لا يكاد ينظر إلى الأغلب العجلي ، وإنما يجعل العجاج هو صاحب الدور الأوفى في تطوير أغراض الرجز وموضوعاته ، وذلك لأن هذا التطوير قد انتصح بمجلاء بين في أراجيز العجاج ، واتخذ طابعاً محدد المعالم والسمات في تاريخ الرجز ، إلا أن دور الأغلب مع ذلك ينبغي ألا يُغفل تماماً ، ولذلك نجد ابن رشيق قد حدد بدقة دور كل من الأغلب والعجاج فقال : « وزعم الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً وقطعاً ، وأنه إذا قصّد على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصّده مهمل وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجيء الإسلام مائة وثلاث وخمسون سنة ، وذكره الجميع وغيره . وأول من طوّل الرجز وجعله كالقصيد الأغلب العجلي شيئاً يسيراً ، وكان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى العجاج بعد فافقت فيه ، فالأغلب والعجاج في الرجز كمرى القيس ومهمل في القصيد^(٣) » . فالأغلب قد طور الرجز شيئاً يسيراً ، ثم أتى العجاج فافقت في هذا التطوير ، ومثل هذا الحكم الذي يطلقه ابن رشيق جدّ نحن في نظرنا ، لأن ابن رشيق أقرب منا إلى رجز الأغلب ، ولا شك أنه أطلع على شيء من

(١) العمدة لابن رشيق ١/٥٦ ، ونقله السيوطي في المزهري ٢/٤٨٤ .
(٢) العمدة ١/١٢٦ .

وهو غير هروم بن سنان المري الذي مدحه زهير بن أبي سلمى في المعلقة وغيرها ، انظر الأغانى ١٥/٥٢ ، والأشعراق ٢٨٣ .
(٣) الشعر والشعراء ٥٩٥ ، والأغانى ١٨/١٦٤ ، والخزانة ٣/٢٠٧ .

أراجيزه ، التي خاضت ضياعاً تلاماً ، أو بقي منها بعض الأبيات في مصادر متفرقة .

وبذلك كان الأغلب العجلي أول أستاذ لمدرسة الرجز ، إلا أن العجاج هو الأستاذ الثاني ، وله يرجع أكبر الفضل في تطوير هذه المدرسة وتحديد معالمها في تاريخ أدبنا العربي ، وقد عاصر العجاج عدد من الرجاز^(١) في مقدمتهم ولده رؤبة ، وأبو النجم العجلي ، وليس ثمة من يمكن أن يقارن بالعجاج سوى هذين الرجازين الكبيرين .

إلا أن رؤبة كان تلميذ والده لاربيب في ذلك ولا شك ، وأبو النجم كان مقدماً في رجزه ، إلا أنه لم يتخصص وإنما فرق نفسه بين الرجز والقصيد ، ورجزه لا يساور رجز العجاج في غرابة اللغة أو المعاني ، ولم يكن رجزه على سوية واحدة شأن العجاج في أكثر أراجيزه ، ولهذا قال الموزني : « أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا أبو حاتم قال : رأيت الأصمعي لا يستجيب بعض رجز أبي النجم ويضعف بعضاً لأثر له رديتاً كثيراً . قال : وقال لي مرة في شيء : لا يعجبني شاعر اسمه الفضل بن قدامة ، يعني أبا النجم العجلي »^(٢) .

ولا شك أن هذه المآخذ التي لاحظها الأصمعي في رجز أبي النجم ، قد أوزنت به في نظر النقاد ، ولم تجعله في مقدمة هذه المدرسة الجديدة ، بل إن مدرسة الرجاز كان أول أعلامها أن تنقل في موضوعاتها ومعانيها أجواء

(١) أمثال الشمردل ، وأبي نخيلة ، ودكين ، وعمر بن لجا ، وأبي الزحف ابن عم جرير ، والكذاب الحرمازي ، وحديد الأرقط ، والعماني ، وغيرهم ، انظر تراجمهم في الأغاني ، والمؤلف ، ومعجم الشعراء ، والشعر والشعراء ، والمعارف لابن فتيبة . هؤلاء ليسوا من رجاز الطبقة الأولى وإنما هم من رجاز الطبقة الثانية وبعضهم يتفاوت عن بعض في منزلة رجزه .
(٢) الموضح ٢١٣ .

البادية إلى الحياة الجديدة في العراق والشام ، وأخص ما في حياة البادية هو الإبل ، وأول ما كان يمتاز به العجاج وابنه رؤبة هو وصف البعير أو الناقة^(١) ، وأما أبو النجم فقد أخذت عليه بعض المعاني التي تتصل بوصف الإبل نفسها^(٢) ، ومثل هذه المآخذ أيضاً لا تنعقد لأعرابي يحدث الناس بأسلوب الرجز عن حياة الأعراب والبرادي .

وهذا كله قد أبعد أبا النجم عن منزلة العجاج في مدرسة الرجز^(٣) ، ولئن وجدنا عند الموزني أيضاً أن أبا النجم « مقدم عند جماعة من أهل العلم على العجاج »^(٤) ، فذلك لأن من النقاد القدماء من كان يفضل أن يكون الشاعر شاعراً وراجزاً معاً^(٥) ، وهذا شيء والمفاضلة بين الرجازين شيء آخر .

ولهذا كان العجاج في نظر قدامى الرواة والنقاد هو رأس طبقة الرجاز غير منازع ، وهو صاحب الافتتان الكبير في تطوير الرجز شكلاً ومضموناً ، حتى أصبحنا نجد بعض النقاد إنما يحكمون على سائر الرجاز بالقياس إلى ما اقتربوا به من العجاج أو ابتعدوا عنه . فإبر العاجية يقول لابن مناذر : « إن كنت أردت بشعرك العجاج ورؤبة فما صنعت شيئاً »^(٦) ، وابن المعتز يقول في العاني الرجاز : « وله أشياء حسان كثيرة ، وكان يوزن

(١) طبقات ابن سلام ١٠٧ ، والشعر والشعراء ٥٧٧ والنقد ١٣١/١ ، و ٢٠٦/٦ ، والقول في البغال للجاحظ ٢٠ ، والأغاني ١٨/١٢٥ و ٦١/٦١ .
(٢) انظر الشعر والشعراء ٥٩٠ - ٥٩١ ، والنقد ٢٠٦/٦ ، والأغاني ٦١/١٠ (دار الكتب) .
(٣) انظر الأغاني ١٥٢/١٠ (دار الكتب) .
(٤) معجم الشعراء ١٨٠ .
(٥) انظر المصنف ١٢٣/١ - ١٢٤ ، والبيان والتبيين ٢٠٩/١ و ٨٤/٤ ، والحيوان ٢٢/٤ .
(٦) الموضح ٢٩٥ ، وانظر أيضاً الموضح ٣٦٦ .

بالعجاج ورؤية ، بسبل كان أطلع منها ، وكان من أقرانها في السن والزمان (١) . . » ، وذو الرمة يتخطى عن الرجز خوفاً من غلبة العجاج ورؤية مع أنه أعزائي صاحب وصف للابل والصحراء ، فقد نقل الرزباني بسنده أن ذا الرمة قال : « قلت الرجز ، فلما رأيتني لا أفع من الرجلين أخذت في القصيد وتركته . يعني العجاج ورؤية (٢) » .

فالعجاج إذن هو الذي افق في تطوير الأرجوزة شكلاً ومضموناً ، فعدّد من أغراضها ، وجعل الرجز أهلاً لموضوعات القصيد ، ثم حدّد للرجز بعض الخصائص ليمتاز بها من غيره ، وهذه الخصائص ستكون موضوعاً للفصل القادم ، أما في هذا الفصل فحسبنا أن نتابع القول في الموضوعات التي تناولها العجاج في رجزه .

٢ - موضوعات الرجز عند العجاج

من خلال البحث السابق رأينا أن العجاج قد افق في تطوير الرجز ، فقصّده وجعله أهلاً لموضوعات الشعر عامة ، وهذا فعلاً مايطالعنا به ديوانه ، إذ نجد فيه المديح وما يشبه الهجاء ، ونرى النسب والفخر ، ونلمس الوعظ والحكمة ، ونقف طويلاً عند الوصف بأنواعه المختلفة ، ولا نكاد نفتقد من الموضوعات الأساسية إلا موضوع الرثاء ، وذلك ربما كان لطبع عند العجاج ، أو لأنه لم يقع في حياته بأحد من أبنائه أو أجبته .

والموضوعات التي تناولها العجاج ، ليس فيها ما هو محدود ضيق الأفق

(١) طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ٤٧ ، وقوله فيه نظر لأن البون شاسع بين العجاج ورؤية وبين العصامي الراجز .
(٢) الموضح ١٧٤ .

في رجزه ، ولذا هي جميعاً من الاتساع ، بحيث تبرز في جنبات الديورات كلها ، ولا بد من عرض لها جميعاً .

النسب والمديح

إن الغزل من الموضوعات الهامة في أراجيز العجاج ، إلا أنه بقي محافظاً على الطابع التقليدي بالنظر إلى منهج القصيدة ، إذ كان يمثل ركناً من أركان المقدمة التقليدية للأرجوزة ، على نحو ما كان عليه في قصائد الشعر العربي قبل العجاج ، أو في قصائد معاصريه من شعراء العراق ، بمن سار بالقصيدة على المنهج التقليدي القديم .

ولا نجد في ديوان العجاج إلا "أرجوزة واحدة" (١) ، قصر موضوعها على الغزل وحده ، وهذه الأرجوزة لا تمثل تطوراً لدى العجاج في قصيدة الغزل ، لأنها بفردتها لا تكاد تبلغ به ما عُرِف من قصائد الغزل لدى شعراء الحجاز أو شعراء نجد في عصره . فقد تخصّص معظمهم لموضوع الغزل ، وأفردوه بقصائد خاصة به ، فأوجدوا بذلك شيئاً من التطور والتجديد في منهج القصيدة لعصر بني أمية ، وما ذلك إلا "لأن حياة أولئك الشعراء كانت وقفاً على المرأة والغزل ، سواء كان ماجناً عند شعراء الحجاز ، أو عذرياً عند شعراء نجد ، أما العجاج فلعل هذا الجانب قد اتخذ مكاناً في نفسه ومشاعره ، ولكنه لم يكن كل شيء في أدوار حياته ، ولهذا لم يغلب الغزل على أراجيزه ، ولذا كان واحداً من موضوعاتها ، ولم يتفرد بأراجيز خاصة به ، ولذا استمر في موضعه التقليدي من منهج القصيدة القديمة .

على أن هذا الغزل التقليدي ، لم يكن تقليدياً كله في مضمونه ، ولذا

(١) الأرجوزة (١٦) ، وعدد أبياتها (٤٧) بيتاً .

فيه ألوان من التنوع تبرز في معاني الأبيات وعواطفها ، فتارة تغف على غزل تقليدي مطلق لا أثر فيه لعاطفة العجاج ، وطوراً يطالعنا غزل لا يخرج من تاريج الموى وذكريات الغواني وألم الشباب ، وأحياناً يطل علينا غزل الحب والصابية ، والبعد والفراق ، وهنا يتمثل حب العجاج الحقيقي ، وتظهر تجربة له مع « ليل » والذي يبدو أنها فارقت ، وتزوجت من غديره ، ففرست حسرة لا تريح ، وآلاماً لا تريح .

وفي الغزل التقليدي المطلق لا يصور العجاج إلا بعض الأوصاف الحسية لامرأة لا يسميها ، فهو تارة ينعت امرأة « غراء تروق العنسا » وطوراً يتحدث عن « إبريق العنسي » ، وحيناً يصف « خرداً ضناكا » ، ولكنه لا يشير إلى تسمية معينة لهذه أو تلك ، وكأنه وعى في قرارة نفسه أن هذه الأبيات التي يصف بها المرأة ، ليست إلا تمهيداً لأرجوزة ، وليس له أن يتحدث عن امرأة بعينها ، ولذا حسبه أن يصف نموذجاً لامرأة جميلة يراها بخياله لا بعينه ، ولهذا كانت أوصافه لا تحمل نبضة من قلبه ، أو طرفاً من مشاعره ، ذلك لأن هذه الأوصاف إنما وردت في الأرجوزة لغرض موضوعي ، لا لتصوير تجربة شعورية واقعية ، ولهذا فهي أوصاف يصنعها العجاج صناعة ، دون أن يكون فيها أثر من خلجات نفسه أو نبضات قلبه .

إذا وقف بالأطلال كان لابد أن يصف حالها قبل ترحل الأحبة عنها ، وهذا يدفع حتماً إلى ذكر امرأة غراء جميلة كانت تعجيب حتى العنسا من النساء^(١) :

(١) الأرجوزة ١١/ ١٤ - ١٤ .

وقد تروى بالدار يوماً أنسا جَمَّ الدَّخِيسُ بالثُّغُورِ أَحْوَسَا
ولهُوَّةُ اللاهي ولوتَنَطَّسَا أَزْمَانُ غَرَّاهُ تَرَوُّقُ العُنْسَا

وما أشار إلى هذه الغراء إلا ليشغل سامعه بشيء من أوصافها قبل أن يصل إلى غرض آخر من الأرجوزة ، وذلك تبعاً لنهج القصيدة المعروف آنئذ . ولهذا تابع وصفه لمجلس هذه المرأة ، فبعلمها تعجب العنسا بشعره فاحم قد عولج بالذهن والعنسا حتى ركب بعضه بعضاً ، وبشعره فجادها لوان من البياض والسهرة ، وهي حسنة الظلن منعمة ، فتوبها كافلاً أليس دِعْصاً من الرمل ، وحلتبها في جيدها ، إذا ماتت تورت سمعت له أصواتاً كأنها صوت الريح إذا موت بالحصاد اليابس^(٢) :

بِفَاحِمِ دَوْمِي حَتَّى اعْلَشَكْسَا وَبَشَّرَ مَعَ الْيَاضِرِ الْعُنْسَا
خَرْدُ أَحْمَالٍ رِيْطَهَا الْمَدْمَقْسَا وَمَيْسَانِيَا هَا مُمَيَّسَا
أَلَيْسَ دِعْصَايْنِ ظَهْرِي أَوْعَسَا تَسْمَعُ لِلْحَلْبِي إِذَا مَا وَسَّوَسَا
وَالسَّجَّ فِي أَجْيَادِهَا وَأَجْرَسَا زَفَرَقَةَ الرِّيحِ الْحَصَادِ الْيَبْسَا

ومن ثم ينتهي من أبيات الغزل ، ويضي إلى وصف المغازاة^(٣) :
وبلدة يعمسي قِطَاعًا نَسَسَا رَوَابِعاً أَوْ بَعْدَ رِبْعٍ خُمَسَا
فالعجاج في هذه الأبيات قد تحدث بشيء عن أوصاف هذه « الغراء » ، ولكننا لا نجد أثراً من عاطفته أو تجربته مع هذه « الغراء » ، فهو لم يفعل أكثر من سرد عدد من الأوصاف التقليدية المتعارفة بين الشعراء ، لتكون مجرد جزء من المقدمة التقليدية ، لا لتعبر عما يعانيه من تجربة شعورية خاصة . وفي هذه الأرجوزة لم يُطل قسم النسيب ، ولكنه في أراجيز أخرى

(١) الأرجوزة ١١/ ١٥ - ٢٢ .

(٢) الأرجوزة ١١/ ٢٣ - ٢٤ .

ربما أطاله بعض الشيء ، فأتى بأوصاف متعددة لتلك المرأة التي كانت تمثلاً
الديار أنساً وبهجة ، وهنا ينقلب إلى مصور بارع إذ يرسم صوراً حية لها ،
ولكنه لا يحرك عاطفة في هذه الصور ، فلا يقول لنا إنها تحبه ، أو إنه يحبها ،
كما يقول شعراء مدرسة ابن أبي ربيعة في الحجاز ، أو شعراء المدرسة العذرية
في نجد .

فهي مثلاً برّاقة حتى بالعشي إذا مانت الألوات ، وخصرها ضامر
يكاد ينزل إذا مشت ، وهي غراء منعمة ، صبيحة الجسم ، تدوس بردها
تبخرًا ، وجسمها غش فغمّ العظام غير مترهل ، ومشها فيه ثاقب
واسترخاء ، وإذا مشت تدافعت في مشها تدافع الجدول لئلا الجدول (١) :

ديارٍ لإبريق العشي خوزل غراء لم تلتع بلتوح الشكر
لم تغتد في شوس ولم تشكر ولم تنبت بالجرأ المحسّر
ولم تشامر وصبا فتسائل ركاضة اللبرد والمشرحل
يقصّب فغمّ العظام خذل زيان لا عشي ولا مهبل
في صلب لذن ومشي هو جبل تدافع الجدول إنش الجدول
في أنعبان المتجنون المرسل

وربما تقلت من العجاج بعض المعاني المستمدة من أخلاقه وعفته . ولهذا
قد يشير إلى عفة هذه المرأة ، فهي مبالاة ، ولكنها لما قبل على الخليل ،
بل الخليل المحتل ، فهي ذات دل على زوجها ، لا على إنسان سواه (٢) :

مبالاة على الخليل المحتل تنال الدغص بهيل البيل
ثم يعود إلى وصف جمالها ، فهي برّاقة الحدين والثغر ، وشعرها كثيف

(١) الأرجوزة ٢٩/١٢ - ٣٩ .
(٢) الأرجوزة ٤٠/١٢ - ٤١ .

طويل تغذيه بالزيت والصندل (١) :
برّاقة الخدين والمقبل
فرون جبل وأردم مجبل
مغدودن يجيب غسل الغسل
يشتقي السليط في رفاض الصندل

ثم ينتقل بعد ذلك فجأة إلى وصف الرحلة (٢) :

رحلت من أقصى بلاد الرحل من قلل الشجر فيجني موكل

ففي هذه الأبيات قد رسم العجاج صوراً حية لإبريق العشي ، وهي
صور تجعلنا نخطر أماننا بضيائها وجمالها وبياضها ودلالها وعفتها ، ولكننا لا نجد
صلة بينها وبينه ، بل نرى صلة أخرى بينها وبين زوجها وحليها ، ومن ثم
نعود إلى القول إن العجاج في هذه الأبيات وأمثالها ، لم يكن يتجه إلى
وصف الحب والهوى ، وإنما كان يصف المرأة ذاتها ، وهو لا يشير إلى امرأة
بعينها ، وإنما يصور نموذجاً للمرأة الجميلة في نظر ذلك العصر ، وقد نجد
هذه الأوصاف كلها أو بعضها في أراجيز أخرى ، قد تتعرض فيها العجاج
لأوصاف الحب والمرأة معاً ، ونخصها بأحداث حبه وهواه .

وهذه الأحداث تبرز غزلاً آخر عند العجاج ، هو غزل وجداني لا أثر
فيه للتقليد إلا في موضعه من الأرجوزة ، وهذا الغزل الوجداني لا تخلو معانيه
من التنويع ، فهو ثارة بيكي أتمام شبابه ، وثارة يذكر فطرة الطرف وما
أوقعت بقلبه ، وثارة أخرى يتحدث عن ليلي ، وما خلفته من وجد وصباية
وآلام .

فهو كثيراً ما يتحدث عما آلت به الأيام إلى الغرم ، ثم يتجسر فيرى

(١) الأرجوزة ٤٤/١٢ - ٤٨ .
(٢) الأرجوزة ٤٩/١٢ - ٥٠ .

أيام الشباب شاخصات ذات اليمين وذات الشمال ، وهنا صلة مع الغواني ،
وهناك تجربة مع ليلي ، أما الغواني فقد كن به معجبات ، وإليه مائلات ،
فلما شاب منه الرأس ، ودب إليه الهرم ، غشيت عنه ، واستبدلن به زيدا
من الناس ، لما عنده من نضارة وشباب (١) :

إن الغواني قد غشيت عني وكنن لي عليك بالتغني
عنا ، فقلت للغواني : إني على الغني ، وأنا كالمظن
لما لبست الحق بالتغني غشيت واستبدلت زيدا مني
غرائفا ذا بصر مكنت يرضى ويرضيون بالتمني
أن شاب رأسي ورأيت أني حتى قناني الكبر المحني

ثم يسترسل في تصوير كبره وهرمه ، حتى يعود إلى الحوار مع الغواني ،
فهن لا يجدن هذا الهرم إلا لظول السن ، وهو السير الشديد ، ولا ندرى
إن كان فيه كتابة عن اللجاجة في الهوى ، لقولن بعد ذلك إن الذي أفناه
أيضا هو طول ما أنفق من دهره مع الهوى وقلة التواني فيه (٢) :

وقل لي أفناك طول السن وبرهة من دهرك المغني
مع الهوى وقلة التواني

فالشيب والهرم دائما على لسان العجاج ، وهما يثيران لديه شيئا من
ذكريات الشباب ، فإذا كن الكبر والحلم والتدين قد كف من صباه وفوه ،
فقد كانت أيام شبابه ذا صلة بأوائس يشهن الظباء ، حتى كن يذمن
الأبصار إليه إعجابا ، وكان يديم النظر إليهن أيضا إعجابا أو إغواء (٣) :

- (١) الأرجوزة ١/١٦ - ١٠ .
(٢) الأرجوزة ١٤/١٦ - ١٦ .
(٣) الأرجوزة ١٧/١٦ - ٢٢ .

فإن يكن ناهي الصبا من سبي والجلم بعد السفة المسن
وعلم وعذر الله غير الظن فقد أراني ولقد أدني
بالفن من تسخير الصبا والفن غرا كادام الصبرم الفن
وربما عرض إلى ما يشبه المجون ، ولكنه لا يشير إلى ذلك بصراحة
وتفصيل واستقصاء على نحو ما كان لدى شعراء المجاز من أصحاب مدرسة ابن
أبي ربيعة ، وإنما يشير إلى ذلك ضمن كتابة بارعة ، إذ يعبر مثلا عن الغي
والهوى بـ "ممن" تسامي جئا منه في ملتبسات مثل الغبطة ، وهي ما تلف
من الشجر ، بل زاد في دقة تصويره لهذه الغبطة فيجعلها قد ألبست بالظلمة
والسواد ، وذلك ليقول من طرف خفي : إنه كان في غاية المجون والغبي
معين (١) :

وقد تسامي جشهن جيبي في غبطلات من دجا الدجني
ثم يصور حسن منطقته وحديثه مع الغانيات ، ليخرج إلى آخر دفقة
شعورية في تصوير ذكرياته أيام شبابه ، فقد قضى من الشباب زمنا طويلا
مُتَّع به ، وكان كالسكوان اذا أخذ فيه الشراب وراح يغني بين الحرة
والدنان ، بدلا من ركوب الحبل وقطع الفاوز (٢) :

ملودة ملتبها كأنني صارب صنجي تشوة مغن
بين حفاقي قرقف ودن من قد قتر الفرس الحصن
وهذه الأرجوزة هي الوحيدة التي اختص بالغزل ، وقد لمتنا فيها
بكاء العجاج أيام شبابه ، ولكننا لا نجد وصفا لتجربة شعورية مع واحدة
بالذات ، وإنما وجدنا حديثا عن الجوف أو ما يشبه المجون ، إلا أن العجاج

- (١) الأرجوزة ٢٦/١٦ - ٢٧ .
(٢) الأرجوزة ٣٢/١٦ - ٣٦ .

في غير هذه الأرجوزة قد بكى أيام الشباب ، وأنى بكـثير من معاني
الأرجوزة السابقة ، ولكنه ربما أشار إلى أن إحداها قد سبته وتبته ، ومن
ثم ينطلق إلى وصفها وصفاً لا يتجاوز من المدة أحياناً وإن كان تقليدياً في أكثر
معانيه ^(١) ، وأبرز ما جئنا في هذا القسم من رجز العجاج أنه يكاد يلامس
أحياناً بعض المعاني عند عمر بن أبي ربيعة ^(٢) ، إذ يجعل نفسه معشوقاً
للغواني ، بدلاً من أن يكون هو العاشق المقيم ، وقد رأينا في الأرجوزة
السابقة يجعل أبصار الغواني لا ترمي عنه ، إعجاباً به ، وميلاً إليه ، وفي
أرجوزة أخرى وسع هذا المعنى ، إذ جعل حديثه عن أيام شبابه ينزل
عُصَمَ الوعل من رؤوس الجبال ، وذلك لأن النساء كنَّ يرتحن إليه
بأبصارهن من خلل الحدود ، معجبات به ، ما لالت إليه ، وهن معه في غرة
الشباب ^(٣) :

لو أن عُصَمَ شَعَقَاتِ النَّيِّرِ يَسْمَعُنَهُ بِالْهَرْنِ لَتَبَشِيرِ
بَيْنَ اقْتِحَامِ الطُّنُوجِ وَالْخُرُورِ لَذَرْتَنِي مِنْ خَلَلِ الْخُدُورِ
بِأَعْيُنٍ مَحْبُورَاتٍ حُورٍ خَزْنِي بِالْبَابِ إِلَى صُورِ
إِذْ نَحْنُ فِي ضَبَابَةِ التَّسْكِينِ

وهذه السمات في غزل العجاج لا تقربه من غزل ابن أبي ربيعة في جعل
نفسه معشوقاً لا عاشقاً ، ذلك لأن العجاج قد أكثر من وصف عشقه وما
يختلفه من أثر في نفسه ، حتى لنجد شيئاً من هذا الوصف في بعض الغزل
الوجداني الذي لم يفرد لوحده مهن باسمها ، وإنما أطلقه لغاية قد وقع في

(١) انظر الأرجوزة ١/١٩ - ٣٢ .
(٢) انظر التطور والتجديد الدكتور شوقي ضيف ١٩٥ .
(٣) الأرجوزة ٩/١٩ - ١٥ .

حالتها ، حين تبدت في تناقلها كاظلية ذات الغزال ، مع أربع هنّ مثلها
في دلالها وجلالها ، ومثل أولاد البقر في رشاقها وسعة عيونها ، فبات قلبه
يتأمل ، فلا يستقر هماً وحزناً ، ودموعه تنهل ، فلا يائنها إلا ماطر من
سحاب غريب ^(١) :

إِصْطَلَدْتَنِي مِنْ بَعْدِ طُولِ الْمَعْدَلِ عَلَى اخْتِيَالِ الْغَائِيَاتِ الْجُبُلِ
لَمَّا تَبَدَّتْ مَلَكاً كَالْمُعْزَلِ فَاقِرَةَ الطَّرْفِ مِنَ التَّكَلُّلِ
فِي أَرْتَعٍ مِثْلِكَ مِثْلُ الْبُسْلِ فَبَاتَ مَنِ الْقَلْبُ ذَا تَمَتُّلِ
مُوكِّلِ الْعَيْنَيْنِ بِالتَّهْمَلِ كَمَا طَرِ مِنْ وَاكْفَاتِ الْوُسْلِ

وبذلك كالت العجاج هو العاشق المقيم في أكثر غزله خلافاً لابن أبي
ربيعة ، الذي كاد يتفرد بالغزل بنفسه لا بالمرأة ، حتى أصبحت هي العاشقة
له في أشعاره .

وقد ذكر العجاج بعض الأسماء في غزله ، فأشار إلى خيال « تَكْسَى » ،
وخيال « تَكْتَم » ^(٢) ، وتحدث عن جمال « سلمى » ^(٣) أو « سلمي » ^(٤) ،
وصور الحب والفراق بينه وبين « ليلي » ^(٥) ، وقد تكون هذه الأسماء
لامرأة واحدة ، على عادتهم في الغزل منذ عصر ما قبل الإسلام ، إذ أرت
الشاعر الأهمي قد استمر يأتي بأسماء ومزجة أحياناً ، يكني بها عن الاسم
الحقيقي الذي يريده ، لأسباب تصل بحياة المجتمع في ذلك الحين ، وقد تنبه
أبو الفرج إلى ذلك في أشعار عمر بن أبي ربيعة ^(٦) .

(١) الأرجوزة ١/١٥ - ٨ .
(٢) الأرجوزة ٢/٢١ .
(٣) الأرجوزة ٢٤/٤٤ .
(٤) الأرجوزة ١٧/٣٤ ، والأرجوزة ١/٣٨ .
(٥) الأرجوزة ٩/٢١ ، والأرجوزة ١٨/٢٤ ، والأرجوزة ٢٧/٣٣ و ٢٧ .
(٦) الأغاني ٢٣٩/٩ .

فالأسماء التي وردت في غزل العجاج قد ترتد كلها إلى « ليلي » ، لأنها هي المرأة التي شغلت قلبه على ما يبدو من أراجيزه ، فاسمها « تكتي » وتكنم « » ، ربما كانا لمرأتين من صولح ليلي ، ذلك لأنه لا يكاد يذكر خيال هذه أو تلك ، حتى يُذكرها بليلى وقد تبدل الحال بها وغدت لانسان سواه ^(١) :

طافَ الخيالانِ فتَهاجَما سَقَمَا خيالٌ تَكْتَنِي وَخِيالٌ تَكْتَمَا
بِاتًا يَجُوسَانِ وَقَدْ تَجَرَّمَا لَيْلِي الثَّامِ غَيْرَ عِنْدِي أَدَهَمَا
بِالْعَيْفِ مِنْ مَكَّةَ لَسَا نَوَمَا فَارَقَا عَيْبًا وَسُغَمَا سَهَمَا
أَسْرَوَا وَأَسْرَيْنَ هَوْرَعًا نَمَّ مَا عَرَسْنِ إِلَّا مَا يُحِيلُ الْقَسَمَا
بِإِذْكَرَةٍ ذَكَرْتُ لَيْلِي بَعْدَمَا جَالِ الْفَوَادِ جَوْلَةً وَاسْتَهَزَمَا
وَاسْتَبَدَلْتُ لَيْلِي نَهَاءً وَتَمَا

ولا يبعد أن تكون ليلي هذه زوجة للعجاج ، ثم تقطعت بينهما الأسباب لعروض لانهاله ، وإلا فليس من داع لقوله : لَهَا اسْتَبَدَلْتُ حَمَاءَ وَحَمًا .

وأما « سلمي أو سليمي » ، فهي كذلك زوجة للعجاج على ما يبدو من حوار جرى بينهما قبل أن يرحل إلى بشر بن مروان ، إذ لا نعلم أن يكون لها موقف من رحيله وسفره ، ولهذا بدأ الأبرجوزة بذكر حوارها معه ^(٢) :

قَالَتْ سَلِيمِي لِمَعَ الضَّرَارِيسِ يَا أَيُّهَا الرَّاجِمُ رَجَمَ الْعَادِيسِ
بِالنَّفْسِ بَيْنَ النُّجُومِ الْعَوَاطِيسِ

إلى آخر هذا الحوار ، وهو لا يمت غالباً إلا « بسين الشاعر وزوجته » ،

كالذي عرفناه من حوار جرى . وأم حذرة في مقدمات بعض قصائده ، وهذا ما يرجح أن تكون سلمي هذه زوجة للعجاج ، ثم تفرقا لسبب لا ندري به ، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه علينا هو أن العجاج قد تحدث عن سلمي ، وتحدث عن ليلي ، وكل منهما تبدو أنها زوجة له ، فهل هما شخصية واحدة ، أم أنهما شخصيتان تميزتا في حياة العجاج .

والحق أن الإجابة على مثل هذا السؤال لا تخلو من الحيرة والتردد ، ولكننا مع ذلك نرجح أنها شخصية واحدة ، لأن أحاديثه عن « سلمي » لا نجد فيها لوانح الحب ، أو صباية الذكريات ، بل نجد أوصافاً للجمال الفنا معظمها في غزله التقليدي والوجداني معاً ، أما أحاديث الحب والفراق واللوعة فهي تلازم حديثه عن « ليلي » ، بما يشير إلى أنها هي المرأة التي عاشت في خياله ، واحتلت حيزاً من قلبه ، بعد أن افترقا لسبب من الأسباب ، ولا يبعد أن تكون « سلمي » أو « سليمي » تكتية عنها في بعض الأراجيز .

ولهذا كان غزل العجاج بليلى أوضح الغزل الوجداني لديه ، فهنا تبرز المشاعر الانسانية ، والصور الذاتية ، والأهواء المتناقضة ، ولا يخلو ذلك من أحاديث الصباية والحسرة أو الحزن والألم ، ووافق ذلك غالباً بعض الأوصاف الحسية والمعنوية لهذه المرأة ، التي خلعت جنوة حب ، وآلام فراق ، بعد أن كانت هي التي ترهب منه فراقاً ، فتوبه من محاسنها ما يعطفه عليها ، ويدم من حبه لها ^(٣) :

بِإِذْكَرَةٍ ذَكَرْتُ لَيْلِي بَعْدَمَا جَالِ الْفَوَادِ جَوْلَةً وَاسْتَهَزَمَا
وَاسْتَبَدَلْتُ لَيْلِي نَهَاءً وَتَمَا قَامَتْ ثَوْرِيكَ رَهْبَةً أَنْ تُصْرَمَا

(١) الأبرجوزة ١/٢١ - ١٦ .

(١) الأبرجوزة ١/٢١ - ١١ .

(٢) الأبرجوزة ١/٢٨ - ٣ .

ساقاً بِخَنْدَادٍ وَكَعْباً أَدْرَمَا وَكَفَلَاوَعْنًا وَكَنْهًا أَهْضَمَا
وَفَتْخَدًا لَفَاءً تَمَّتْ عِظَمَا وَمَا كِمَاتٍ يَرْتَجِيْنَ وَرَمَا

وإذا وقد بالأطلال تذكر لى أليم كانت غاية مايشتهه ويتمناه ، ثم أعقب ذلك بالحسرة لما آل إليه من شيب وهم (١) :

دَارُ لَيْثِيَا قَبْلِكَ الْيَتِيمُ ذِكْرُ الْغَوَانِي أَيْمًا تَرَهُمْ
أَزْمَانُ لَيْثِيَا عَامُ لَيْثِيَا وَحَمِي وَمَا التَّصَانِي لِلْعَيْنِ الْيَتِيمُ
بَعْدَ تَبْيَاضِ الشَّعْرِ الْمَكْتُمِ إِلَّا أَضَالِيلُ الْفُؤَادِ الْيَتِيمِ
ثم وقف عند تصوير محاسنها فأتى بصور ليأضها وكفلها وساقها وخصرها
وتعتمها وما أشبه ذلك ثم غلبت عليه الحسرة مرة أخرى فقال (٢) :

فَأَصْبَحْتَ عَنْ وَصْلِيَا كَانَ لَمْ يَتَعَلَّمْ بِهِ آوَسَةً وَتَعَلَّمِ
فَانْسُ الَّذِي فَاتَ وَلَا تَنْتَدِمِ

وكان معنى هذه الحسرة هو الذي حمل العجاج بعد ذلك على الانتقال إلى موضوع العظ في هذه الأرجوزة ، إذ أن لغة تجرية مع لى قد أثرت في نفسه ، وإذا ماحدث عنها بشيء من الصراحة ، لم يكن في وسعه إخفاء واقعته النفسي المتألم ، وهذا الواقع يبدى من تكرار اسمها داخل الأرجوزة أو داخل البيت الواحد :

أزلمات لى لى عام لى وحي

بل إن بعض المواقف ربما جعلت صابئة العجاج تزداد حتى تستبد به فينطق بالحكمة يستمدتها مما هو فيه من تجربة شعورية غيا في أعماق نفسه ،

(١) الأرجوزة ٢٤/١٦ - ٢١ .
(٢) الأرجوزة ٢٤/٣٦ - ٣٨ .

فالبعد قِطَاعٌ رَجَاءُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَلْقَى مِنْ مُيِّدٍ ، إِلَّا أَنْ يَحْضُرَ حَاجَتَهُ
بِنَفْسِهِ فَلَا يَنْقَطِعُ رَجَاؤُهُ (١) :

مَنْزِلَا هَيِّجْنَ مَنْ تَهَيَّجَا مِنْ آلِ لَيْثِيَا قَدْ عَقُونِ حَيِّجَا
وَالشَّخْطُ قِطَاعٌ رَجَاءُ مَنْ رَجَا إِلَّا احْتِضَارَ الصَّاحِرِ مَنْ تَعَوَّجَا

وما تزال صابته تتوقد حتى توجع فيه لهفة حرمى إلى لى ، وإذا بجباله ينتقل بها بين أرجاء جزيرة العرب ليقول إنها مها كانت بعيدة ، وبأى أرض حلت ، ثم أرسلت لى مع الريح وحياً مبهماً ، عرفت وحيها ، وتبينت حاجتها ، وما ذلك إلا شغفاً بها ، ولهفة إليها ، وتمكناً من حبها (٢) :

فَيَنْ تَصِيرُ لَيْثِيَا يَسْتَمْسُ أَوْجَا أَوْ بِالْوَدَى أَوْ ذِي حَسَى أَوْ بِأَجَا
أَوْ حَيْثُ كَانَ الْوَلَجَاتُ وَلَيْثَا أَوْ حَيْثُ زَمَلُ عَالِيهِ تَعَلَّجَا
أَوْ حَيْثُ صَارَ بَطْنُ قَتَرٍ غَوْسَجَا أَوْ تَجَعَّلَ الْبَيْتُ رَفَاجَا مَرْتَجَا
بِيَجْوَفٍ يَصْرَى أَوْ بِجَوْفٍ تَوَجَا أَوْ يَتَنَوِي النَّبَاكَ فَالَرَجَا
فَتَحْمِلُ الْأَرْوَاحُ حَاجَا مَحْتَجَا إِلَيَّ أَعْرِفُ وَحَيْثَا الْمَلْجَأُ حَاجَا

ثم يرسم صوراً لحاسنها لا تختلف كثيراً عن الأوصاف التي رأيناها فيما سبق ، ذلك لأنه في هذا القسم من غزله كان يجمع دائماً بين وصف الحب والمرأة معاً ، وكانت هو العاشق المعذب على عادة أكثر شعراء عصره ، إلا أن أوصافه لتجربة الحب لم تكن من الاتساع والوضوح كما تراها لدى شعراء نجد من أصحاب الغزل العنصري ، وما ذلك إلا لأن قضاؤه هؤلاء كانت تنفرد بالغزل وحده ، أما غزل العجاج فكان أحد موضوعات متعددة داخل الأرجوزة ، ولم يتفرد بالغزل عنده إلا أرجوزة واحدة فقط .

(١) الأرجوزة ٣٣/٢١ - ٢٤ .
(٢) الأرجوزة ٣٣/٢٧ - ٣٦ .

وبذلك لم يكن العلاج من أسهم في التطور والتجديد لفصيدة الغزل في هذا العصر ، إذ تحول موقف الغزل في القصيدة إلى مدرستين ، لكل منها خصائص تميزها عن الأخرى من حيث المعاني والمضمون ، الأولى في الحجاز وهي تمثل التجارب الحسية من مهر ومجون ، والثانية في عجيدها تمثل التجارب الإنسانية الروحية دون أن تعرض للحسية المادية في نظرية الحب ، وهما تتفان في جعل الغزل موضوعاً مستقلاً ، يُنظَّم في قصيدة أو مقطوعة ، دون أن يتخذ طريقاً تقليدية في مقدمات القاصد .

ذلك هو الغزل في رجز العجاج ، ليس فيه من التجديد لعصر بني أمية إلا آثار يسيرة لاشأن لها إذا ماقيست بالتطور الذي تم على أبيه في معاصره في هذا الموضع . وأما المديح فقد تصرف العجاج فيه ، وأخضعه قارة لعصره ، وقارة لنفسه وأخلاقه ، وكان يحتل مكانة بارزة في رجزه ، نجد فيه في أربع عشرة أرجوزة^(١١) " من أباجيز ديوانه التي تبلغ أربعاً وأربعين . وقد تتفرع العجاج لدخ الأيوبيين ، خلفائهم وأولادهم ولأبياتهم ، وقائمتهم ، والذي بداهته أنه لم يصل بمجاوبة بني سفيان ، وإنما مدحه بآيات ضمن أرجوزة مدحها به والده على المدينة واليامة مروان بن الحكم " ، ثم مدح

(١) هي الأراجيز: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠.

- ۲۳۲ -

من الخلفاء يزيد بن معاوية ^(١) ، وبعد وفاة يزيد وقيام الأمر لعبد الله بن الزبير ، مال إلى ابن الزبير ومدح أشاء مصعباً حين كان على العراق ^(٢) ، وما إلى ذلك من عادات الخلافة إلى الفرع الموالي على يد مروان بن الحكم ، حتى عادت الصلة بين العجاج والأوميين ، ولا سيما أن هذه الصلة قديمة تعود إلى أيام كان مروان والياً على المدينة والبالمة لمعاوية بن أبي سفيان ، وقد مدحه العجاج آنشد يارحوتيين ^(٣) ، وسعى لإطلاق رجلين من سجنه بالمدينة ، ثم مدح ولده عبد العزيز بن مروان لعونه على إطلاق ذئب الرجلين ^(٤) ، وأصفاه أيضاً أرجوزة تلتله لم يشر فيها إلى هذه المسألة ^(٥) ، ومدح كذلك بشر بن مروان في أرجوزة أخرى ^(٦) ، ولكننا لا نجد أرجوزة خاصة بمدح مروان بن الحكم بعد أن أصبح خليفة ، وكذلك لا نجد أرجوزة خاصة بمدح الخليفة عبد الملك بن مروان ، مع أن الصلة كانت وثيقة بينه وبين العجاج ، بعد أن أعطاه القصبة ، وهي قرية بالالمة ^(٧) ، -إلا أن ثقة أرجوزة قالها العجاج بعد مقتل مصعب بن الزبير معروفاً بأن الزبير مادحاً إلى مروان ^(٨) ولا يبعد أن تكون هذه الأرجوزة قد توجهت بها العجاج إلى عبد الملك أيام وجوده في البصرة عقب انتصاره على مصعب بن الزبير وقتله ، وقد يكون اقتفاده لديح الخلفين مروان بن الحكم وعبد

- (١) الأربعة ١٢ .
- (٢) الأربعة ٧ .
- (٣) الأربعة ٢ ، و ٢٣ .
- (٤) الأربعة ٤٤ .
- (٥) الأربعة ١٣ .
- (٦) الأربعة ٣٨ .
- (٧) معجم البلدان ١٢٦/٤ .
- (٨) الأربعة ٩ .

الملك بن مروان ، لما يعود إلى ضياع قسم من أراجيز العجاج ، ذلك لأن الصلة بينه وبين الأمويين في هذه الفترة كانت جدّة وثيقة ، إذ مدح الحجاج ابن يوسف الثقفي والي العراق وتحدث عن إيفاءه بالختار الثقفي ^(١) ، ومدح عمر بن عبيد الله بن معمر ، وكان عبد الملك قد وجهه إلى قتال الحارورية بالهامة ، فدمروهم وقتل قائدهم أبا غديك ، فصور العجاج ذلك تصويراً جعل من أراجيزه هذه غرّة ديوانه ^(٢) ، وما دامت الصلة وثيقة بينه وبين الأمويين هذه الفترة ، فلا يعقل أن يتخلّى عن مدح مروان بن الحكم ، أو عبد الملك بن مروان ، ولا سيّان عبد الملك هو الذي توحّد الدولة ، وقضى بنفسه على مناوئيه في العراق ، وهذا فيه مجال واسع للقول والمديح ، وإذا كان الحجاج قد أرسله إلى الوليد بن عبد الملك ^(٣) ، فهذا ما كان له أن يتمّ إلاّ بعد أن استوفى مدحه له ، وذلك شأن معاصره جري ، ومع ذلك لا نجد في ديوانه غير أراجيزتين في مدح الحجاج ، وهذا يعني أن بعض أراجيزه قد فقدت ولم تنتقل في ديوانه .

وقد ذكرنا في مواضع سابقة أنها ليست في مدح سليمان وإفنا هي في مدح الوليد بن عبد الملك حين ولي الخلافة ^(٤) ، وهناك مدح آخر أصفاء العجاج أحد أمراء الأمويين وقادتهم وهو مسلمة بن عبد الملك ^(٥) ، وأثنى في أراجيزه مطوّلة على والي الهامة إبراهيم بن عربي ، فمدحه وتحدث عن فساد عمال الخليفة

(١) الأراجيز ٣٤٦ .

(٢) الأراجيز ١ .

(٣) الأغاني ١٢٣/١٨ و ٥٩/٢١ .

(٤) الأراجيز ٤٣ .

(٥) انظر حديثنا عن رحلات العجاج ، والاضطراب في رواية رجوه .

(٦) الأراجيز ٤٢ ، وهي متناوذة مع رؤية ، انظر بحث الاضطراب .

وما يلقاه الناس بهم من عنت وإرهاق ^(١) .

فالعجاج قد مدح خلفاء بني أمية وعدداً من أمراءهم وولاتهم وقادتهم ، ومدح كذلك مصعب بن الزبير أيام كان والياً على العراق لأخيه عبد الله ، إلاّ أن مدحه لم يكن يجري وراء التكسب على الأغلب ، وإفنا نجد في أكثر أراجيزه بندفع إلى أغراض سياسية أو ما يقرب من الأغراض السياسية ، ولا نجد ملامح التكسب إلاّ في خمس أراجيز فقط ، وهذه الملامح تختلف من أراجيزه إلى أخرى إذ ربما عرّض لجوده وصف المملوح بالكرم فحسب ، فقال لعبد الملك بن مروان ^(٢) :

وتخضيل الكفّين غيّر نكسر كالغيث بعد الرّجس
فبو ندي الكفّين بالعطاء ، غير ضعيف من الرجال ، بل يشبه الغيث الغزيز الذي يستمع له صوت جاف غليظ ، وإذا نظر إلى قوم عبد الملك ، قال ^(٣) :

يكفون أنفان ثنأى المستأسي وبقياصون اللّيس بعد اللّيس
فهم مجملون ذوات القاتل لرت لاذ بهم أو التّجأ إليهم . وفي هاتين الأشارتين لا نجد طلباً أو سؤالاً ، ولا إرفاقاً ماء وجه ، بل لانكاد نشعر بوجود العجاج المنكسب ، لأن من الطبيعي أن يوصف الخليفة وقومه بالكرم والجود ، أو يندى الكفّين وتحمل الذّلات ، وهي من المعاني التقليدية منذ عصر ما قبل الاسلام .

ومثل ذلك مدحه لإبراهيم بن عربي والي الهامة ، إذ قال ^(٤) :

(١) الأراجيز ١٧ .

(٢) الأراجيز ٣٣/٤٢ - ٣٤ .

(٣) الأراجيز ٤٩/٤٢ - ٥٠ .

(٤) الأراجيز ٧/١٧ - ٩ .

من أجل أن وده لم ينسَلِ مِنِّي ولا يلاؤُهُ إذ نَبَيْتَنِي
منه أهْأَضِبَ وتيسعُ مُسْبِلُ

فهو يلتزم جانب إبراهيم لود لم ينهب منه ، ولأهْأَضِبَ خير بناهْأَ منه ، وفي هذه إشارة إلى أن العجاج ربما كان ينال شيئاً من أعطيات والي اليمامة ، ولكن التعبير عنها جاء متلطفاً مهذباً ، يخفي وراء هذه الأهْأَضِب والدفعات من الطور .

وفي تلك الصفات التي عددها في مديح إبراهيم ، لم ينس العجاج أن يتحدث عن وصله لإخوانه وجوده عليهم ، وإرتيابه أيام تبرد الرياح ويشند الزمان ، لا في ذلك من فرصة للجد والكرم^(١) :

وصالٍ لمُخَوَّنِ التَّدْيِ مَوْصِلُ يَرْتَاحُ أَنْ تَتَبَرَّدَ رِيحُ الشَّمَالِ
وفي هذه الإشارة أيضاً لا نجد وجه العجاج المتكسب ، لأن مثل هذه الأوصاف لا يختلف عن وصف الممدوح بالسمو والرفعة والشجاعة والإقدام ونحو ذلك ، ولهذا لا نجد في هذه الاشارات غير تلميح مهذب وسريع إلى ما كانت ترجوه نفوس الشعراء غالباً من عطاء ونوال .

ولكن هذا التلميح يزداد وضوحاً بديراً ، حين يخاطب ناقته قائلاً لها^(٢) :

لاتَمْلِئِي في السَّرى تَرْوِيحِي وَلِيْنُ تَشْكِيْنِ أَذَى الْفُرُوحِ
بِأَعْقِ كَأَعْقِ الْمَجْرُوحِ وَظَاهِرِي السَّرِيحِ بِالسَّرِيحِ
إلى ابنِ لَيْسَ فَتَغْتَدِي وَرُوحِي إِلَى فَيْءٍ فِي الْبَاعِ ذِي مَتَدُوحِ
مُرَوَّءاً رَسْبِيْبِيهِ نَقُوحِ فِي الْبَدْوِ ذُو بَدْوٍ وَذُو مَمْتُوحِ

(١) الأرجوزة ٤٦/١٧ - ٤٧ .
(٢) الأرجوزة ٥/١٣ - ١٤ .

هَذَا وَهَذَا وَتَعْلَى السَّجُوحِ جَرَى ابْنُ لَيْسَ جَرَى بَنِي السَّجُوحِ
فناقته ينبغي ألا تأمل منه قُبُوراً أو ترويحاً عنها ، وإن أُصِيت بديراً أو تأوهت تأوّه المجروح ، ولنا ينبغي أن نظاهر التعال في أخفافها ، فتجمل منها رقاعاً فوق رقاع ، حتى تصل إلى الأمير الأموي عبد العزيز بن مروان ، ذلك لأنه رجل في الكرم ذو سعة ، وفي العطاء يصاب منه الكثير ، وله مال وأنعام في البوادي ، وأخرى ينحها الناس ، ولا يخفى جماعة بنوالة ، ولنا يفرق أمواله في كل وجه ، فيعطي يمينه وتيسره وعلى القصد .

ولا شك أن في هذا تلويحاً بطلب شيء من نوال الأمير المرواني ، ولكنه لا أثر للسؤال ، ولا ذكر فيه لوصف حال العجاج من الفاقة والعوز وما أشبه ذلك ما كان يجري على ألسنة الشعراء أمثال معاصره جرير ، ولنا يجعل ناقته هي التي تعاني آلام الطريق ، أما العجاج فهو همهة إلى لقاء ابن ليل ، وابن ليل كرم بل واسع الكرم ، ولا بد أن يكون صاحب فطنة وذكاء ، وله أن يقدر رحمة العجاج إليه ، فيعطيه دون أن يتذلل أو يريق إليه ماء الجبين .

إلا أن العجاج في موضعين آخرين من ديوانه ، لا يختلف عن شعراء عصره في الوقوف أمام الممدوح بطلب العطاء طلباً ، ولكنه لا يلبح في المألة ، ولا يتذلل أو يصف ما به من فاقة أو ما خلفه من عيال لا يجدون طعاماً أو شرباً ، إنه يطلب من ممدوحه ، ولكن بعبقة دون مثالة ، فإذا سار إلى بشر بن مروان ، وتحدثت عن رحلته بقدمة قصيرة ، وقف أمامه يقول^(٣) :

(١) الأرجوزة ١٨/٢٨ - ٢٢ .

طابشر من زارك غير بائس من سبب فرغ طيب المغاس
تبن الذوا والأفضل الواجب إننا نترجو نفعه من عاين
من ماطر الكفين غير بائس

فالذي يزود بشر بن مروان لا يصيبه بؤس أو فقر لما يناله من سببه
وعطاه ، ولذا لا يجد العجاج ذبوا من قوله : إننا جشاك رجاء نفعه من
رجل كريم شريف ماجد ، تحطر كفتاه بالجوهر والعطاء .

وعلى الرغم من أن العجاج يطلب طلبا هذه النفعة من ماطر الكفين ،
فهو لا يتذلل ، وكأنه يجد في ذلك أمرا طبعيا ، وحققا لا بد منه ، فهو
شاعر قد سار إليه ومدحه ، وذلك ينبغي أن يسأل فيعطيه ، ومثل هذا
ما كان من العجاج في مدح يزيد بن معاوية ، فقد مهد لذلك بمقدمة طويلة ،
تحدث فيها عن الأطلال والنسيب والرحلة المضنية إلى يزيد ، ثم جعل غايته
من هذه الرحلة كلها أن يصل إلى يزيد رجاء نواله وعطائه ، ورجاء أن
يجعل له عطاه في الأمصار (١) :

رحلت من أقصى بلاد الرملة رجاء سجل من يزيد مسجل
ديوان مضر أو عطاه مسجل من مكمل في العلى لمكمل
تبر الأباري خنيك مسجل ينهل للسؤل وقيل السؤل
بنائسل يغمر باع النؤل مد الخليج في الخليج المرسل
فانجداه من نداه المشمل فشو طوفان الرئيس المرسل
بعلم ، والعالم لا لأجله أن حساب العمل المحصل
والأول من غب الأمور الأول عند الإله يوم تجمع العمل

(١) الأرجوزة ٤٩/١٢ ، ٦٩ - ٨٣ .

مجمع الحساب والمؤيد وأن تميز الخول المحول
فكلمة العطاه في الحقوق التزل

فغاية الرحلة أن ينال ذلوا عظيمة من جود يزيد ، وعطاه بدون له في
الأمصار ، ومن ثم وقف العجاج طويلا أمام تصوير جود يزيد ، فتارة ينهل
بمعروف دونته كل معروف سواه ، وطورا يتحول جوده إلى ماطر يعم
الناس أجمع ، ولا ينسى العجاج بعد ذلك أن يذكر بأن خير ما يجده الإنسان
عند ملك الملوك يوم الحساب هو العمل الصالح من جود وسخاء ، وخير الجود
أن يجعل العطاه في أهله من أصحاب الحقوق ، أمثال العجاج طبعاً .

وهذه الأبيات هي الوحيدة في ديوانه التي تقف عند تصوير جود الممدوح
على هذا النحو من التطويل والتنويع ، ورغم ذلك فنحن لانفج فيها وجه
جبر ولا الخطيئة ولا الأعشى ولا غيرهم من شعراء بني أمية أو بني العباس
من مدحوا وألحوا في السؤل ، ثم هذدوا وتوعدوا طلباً طائفة أو نوال ،
حتى كان منهم من وقف ذليلاً على أبواب مدوحه ، ومنهم من تصغر بين
يديه وشكى زمناً قاسياً ، أو جفافاً شاملاً ، أو عيلة لا يجد لها ما يسد رمقاً ،
إن العجاج لا يعتمد في مدحه إلى أمثال هذه السبل ، ولذا يشير إشادة مهذبة
إلى أن رحلته إنما كانت طلباً لـ « سجل » من يزيد ، ثم لا يعود إلى
السؤل والمذلة ، وإنما حسبه أن بعدد مكرمات يزيد ، ويصف جوده ،
وبذلك يوفّر لنفسه عزتها ، ولا يفرط بكرامة أو بأخلاق أبيته كان
يتصف بها .

فالتكسب في رجز العجاج كان محدوداً ومهذباً ، وهو لا يزري بصاحبه أو
ينال منه ، ولم يكن بالهدف الرئيسي في مداخله كلها ، وإنما أكثر أراجيز
المديح كانت لأهداف أخرى ، أبرز ما يتضح فيها هو الغرض السياسي ،

وذلك حرصاً على توطيد الأمر لنفسه أو لقيته عند الولاية أو الخلفاء ، ولولا هذا الغرض لما وجدنا مبرراً لتلك الأراجيز التي مدح بها مصعب بن الزبير ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، وعمر بن عبد الله بن معمر ، فالغرض منها كان رعاية لمصالح قومه بالجملة أو بالبصرة ، أو رعيابة لما جبهه هو شخصياً من شؤون وحاجات ، فهذه المدائح تخلو تماماً من أي غرض آخر أمثال التكسب أو سواه ، وأسلوبها أسلوب سياسي في الغالب ، يحاول تصوير المدح بالنبل والمنعة والقوة ، ويحدد نزغته السياسية والعقدية ، ويقرنها بنزعة خصمه من الخوارج أو الشيعة ، ثم يرسم لوحات رائعة لاتصاراته على الأحزاب المناوئة ، وتحرير الناس بما أصابهم من بلاء ، ومعظم هذا البلاء كان مجلّ بأهل العراق ومن جاورهم من أهل البصرة وصحراء نجد ، وربما كان هذا دافعاً نفسياً قوياً إلى مدح من تخلص القوم من هذا البلاء العظيم ، وقد صرح الحجاج بذلك في بعض أراجيزه ، وذلك حين غلبت الحزونية على الجماعة وصحراء نجد بقيادة أبي فديك الخارجي ، فوجه عبد الملك عمر بن عبد الله بن معمر إلى قتالهم ، فزهمهم وقتل أبا فديك ، فدحه الحجاج بغرة أراجيزه ، وفيها يخاطبه بقوله (١) :

هَافَتَهُوْ ذَا فَتَدَرَجَا النَّاسُ الْغَيْرُ مِنْ أَمْرِهِمْ عَلَى يَدَيْكَ وَالتَّوْرُ
مِنْ آلِ صَعْفَوْنَ وَأَتْبَاعِ أُخْرُ مِنْ طَائِعِينَ لِيَابِلُونَ الْقَمَرُ
فَقَدْ عَلَا الْمَاءُ الزُّبَى فَلَا غَيْرُ

فبلاء الخوارج قد طال على الناس ، حتى إنهم يرجون تغييراً لأحوالهم على يدك بأن معمر وثاراً لهم من أولئك الصعافة الطامعين ، الذين لا يابلون

(١) الأراجيزة ٢٩/١ - ٣٣ .

دنساً ولا تلطيخ أعراض ، حتى عمّ البلاء ، وبلغ الأمر غايته من السوء ، وليس للناس من يغير عنهم هذه الحال .

ومن هذه العبارات الصريحة ندرك أسباب هذه اللبقة والتحفز ، التي تنبئ في أراجيزة الحجاج هذه ، وفي أراجيزة الأخرى التي مدح بها مصعب بن الزبير بعد فضائه على ثورة المختار بن أبي عبيد ، والحجاج بن يوسف بعد فضائه على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث .

ولذا وقفنا عند مدحه للحجاج أدركنا أنه يندفع اندفاعاً إلى مديحه بعد فضائه على ثورة ابن الأشعث ، إذ يتبع كل أسلوب من أساليب السخرية والتكلم للتلين من هؤلاء الخارجين على الحجاج ، ثم ينعمهم بالقدرة وتقض العهود ثرة ، وبالسفالة ثرة أخرى (٢) :

أَلَمْ يَكُنْ أَشَدَّ قَوِّمَ رَحَضًا سَرَاهُمُ وَالْأَخْبِيَّتِينَ رَكَضًا
إِذْ رَكَضُوا وَالْأَضْعَقِينَ قَبَضًا حِينَ أَطَالُوا فِي الْأُمُورِ الْمَخْضَا
ثُمَّ اصْطَقَوْهَا غَدَرَةً وَنَقَضًا قَانَقَضَ بِالْحُوسِ حِينَ انْقَضَا
وَتَرَاهِمَا النَّقْصَ فَلَاقُوا نَقَضًا فَتَجَمَّعُوا مِنْهُمْ قَضِيضًا قَضَا
جَاءُوا مُخْلِطِينَ فَلَاقُوا حَضًا طَائِعِينَ لَا يَزِيدُ بَعْضُ بَعْضًا
عَنْ تَطَلٍّ وَلَا سَفِيهِ حَضًا

ثم يصور كثرتهم واندفاعهم ، ولكنه ينهي بهم إلى ملاقة الحجاج ، ولذا به بأبي الهزيمة ، بل تعود أن يزم الجيوش من قبلهم ، ولهذا جعل يجود عليهم ، فيسقم لبناً لا كفاي لبن ، إنه يسقم الموت بضرب من السيف أو طعن من الرماح ، حتى كانوا بين قتل مضرّج بدمه ، أو

(٢) الأراجيزة ١/٦ - ١١ .

منهزم في أشد النعم والكرب ، وانسع كرم الحجاج فراح يقدم لهم من القروض أضعاف ما أسلفوه وقدموه له^(١) :

فوجدوا الحجاج يأتي الهدى لا فانيا ولا تحدينا غنصا
ومن صربح الأكرمين تحننا نسينا إذا كان المقام دحضا
وللجيوش قبلتهم مهضا غداة يسقيهم صبحوا مضى
بالشرفيات وطعنا ونحضا يضي إلى عاصي العروق النحضا
حتى اشتقت وأخرنا مؤقضا ملجأ أو سابقين جرضي
يجزيم بكل فقرض فقرضا وتارة يسكنون فقرضا
حتى نقض القدر المقضى

وهذا المدح لا يريد العجاج به إلا غرضاً سياسياً يهدف إلى توطيد الأمر لنفسه أو لقرمه عند ولاية بني أمية أو خلفائهم ، وفيه غرض قلمي يقرب أن يكون سياسياً ، كان يدعو الشاعر الأموي إلى المدح في ذلك العصر ، وهو السعي لدى الخليفة أو الوالي لإطلاق سراح بعض السجاء ، وقد حدث للعجاج أن سجن له رجلان عند مروان بن الحكم والي المدينة واليامة لمعاوية ابن أبي سفيان ، فقام يسعى لإطلاق سراحها ، وقد برع في أراجه التي مدح بها مروان داعياً إلى فك الأسار عنها ، إذ كانت الأرجوزة تنبه في كل جزء منها إلى تحقيق ذلك الهدف ، فهي تعرض حال العجاج وتأثره البالغ بما أصابها ، حتى أصبح لا ينام نوحاً وألماً ، ولا ترفاً له عين مما وحزن^(٢) :

تطاول الليل على من لم ينم واحتمت العين احتياهم ذي السقم
وواقف الليل يستلشال سجنهم جاري الرشاش كالسجان المستنظم
من جابر مروان وجيران الحكم

(١) الأرجوزة ١٨/٦ - ٣٠
(٢) الأرجوزة ١/٢٣ - ٥

وهو لا يزعم أن أصحابه « سجناء » عند مروان ، وإنما يذهب بهم إلى أنهم في جواره وجوار أبيه الحكم ، وهذه لفظة بارعة جداً ، لأن الجار له ذمة لا تخفى ، وعهد لا ينقض ، ولا ينبغي لمروان أن يخفي ذمة ، أو ينقض عهدا^(٣) :

مروان إن الله أوصى بالذمم وتجعل الجيران أستاذ الحرم
ولم يكن جاركم لحكم وصم والرضوخ عن جواره كالمهنتم
ولا يزال يجادل مروان في أمر جواره ، وحققهم في حامية مروان
حماية الجار لجاره ، حتى يخرج إلى أمر آخر يراه مجدياً مع الوالي ، إذ أن منتهى الأمر ومآله إلى خليفة الشام معاوية ، وإذا كان مروان لا يريد حلاً لإسار ولا إطلاقاً لسجين ، فليكتب إلى الخليفة في أمرهما حتى لا تكون عليه ملامة في ذلك ، والخليفة لا يقضي بقضاء متهم لأعدل فيه ، وإنما يقضي بالحق والعدل^(٤) :

فادفع وأن تدفع خير الكثرم في عاجل الأمر وأجل اللطم
وظاهر الإرسال واكتب بالقلم إلى ابن تحرب لا تبيده كالبترم
لا عاجز البر ولا جعد القدم ولا قضيباً بالقضاء المتهم
في أمم سوسها بعد أمم كنها نصيب نجعاً ولم تلم

ثم يعود إلى مروان متهدداً متوعداً ، ذلك لأن عاصماً وحيثاً ، لم يتعاضداً على مروان ، وإنما أتياه طائفتين ، مع أن لهما من المنعة ما يجول بينهما وبينه ، وإذا فليجند مروان أن يتجه إليهما بعمل فيه داهية تكره أن تلحق الندامة^(٥) :

(١) الأرجوزة ٦/٢٣ - ٩
(٢) الأرجوزة ١٤/٢٣ - ٢١
(٣) الأرجوزة ٢٤/٢٣ - ٢٨

فَاتَّعَيْنَ مَرْوَانَ فِي الْقَرْنِ السَّكَمِ عِنْدَكَ فِي الْأَحْجَالِ شَحْرَةَ التَّدَمِّ
فَلَهُمْ زَارُوكٌ مِنْ غَيْرِ عَدَمٍ وَدَوْتُهُمْ أَتْبَاجٌ لِيَكْلَرُ وَأَكْتَمُ
وَالْعُرُ مِنْ زَمَلٍ مُعْرَاضٍ الْمُرْتَكَمُ

إلا أنه يزوج بين هذا الوعيد وبين شيء من المدح المرضي ، إذ يتابع
الآيات بأن عاصماً وحيثاً إنما جاءا طائعين ليدخا عند مروان حيث يعتصان
ويستعان به (١) :

حَسْبِيَ أَنَاخُوا بِبَنَاتِ الْمُعْتَصَمِ مِنْ عِيصِ مَرْوَانَ إِلَى عِيصِ الْحَكَمِ
ذَلِكَ يُنْجِي جَارَهُ مِنَ الْعُتَمِ

ثم يلتفت إلى وصف حيي وأنه لن لاقي أمراً شديداً يقول الطهارة ،
فإنه عاش بعيداً عن الضم ، وله من العز ما يعالي الجبال ، ثم يقف عند
عاصم ليلقي حمته من التوعد والتعريض بالطرب والقتال (٢) :

وعاصمٌ ما عاصمٌ لو اعتَصَمَ فِي الْهَامَةِ الرِّقَابِ مِنْ رَهْطٍ جَانِمٍ
مُتَقَاتِلٍ فِي الْمَجْدِ مِنْ تَخَالٍ وَتَمٍ لَوْ كَانَ تَحْكِيماً بِأَلِ مُحْتَكَمٍ
وَلَوْ أَتَى مَكَلَامَهُ فَوْقَ الْأُمَمِ عَنْكَ مَحِيٍّ مَا تَبَخَّلْنَا بِالنَّعَمِ
أَوْ كَانَ حَرَباً فِي بَافِيحِ الْبَهَمِ عَنْكَ مُحِيٍّ مَا تَجَرَّعْنَا مِنَ أَلَمِ
وَلَوْ أَطَارَ الْحَرْبُ طَعْنُ كَالْفَرَسِ فِي يَوْمٍ تَهْجَاذِي طَلَالٍ وَقَتَمِ

وفي أرجوزة أخرى نجد اختلافاً في تناول هذا الموضوع (٣) ، إلا أنه
يحافظ فيها على أسلوب المزج بين المدح والافتاع والوعيد ، ولا يختلف
عن هذه الأرجوزة إلا في اكثاره نسبياً من عدد أبيات المدح التي خص بها

(١) الأرجوزة ٢٣/٢٩ - ٣١ .

(٢) الأرجوزة ٢٣/٣٩ - ٤٨ .

(٣) انظر الأرجوزة (٢) من الديوان .

مروان بن الحكم . وبذلك كان هذا الغرض سبيلاً إلى المدح السياسي الذي
نعرف لعصر بني أمية ، وهذا ما كان يدور غالباً إلى شيء من المصانعة في
مدائح الشعراء ، وهذه الظاهرة قد وجدت لنفسها أكثر من موضع في مدح
العجاج ، وكانت من الدوافع البارزة إلى قوله بعض أراجيز المدح .

فالعجاج كان دائم المدح لولادة البصرة واليامة ، لما في ذلك من رعاية
لصاحبه ومصالح قومه معاً ، فلما غلب ابن الزبير على العراق ، وغدا مصعب
والياً لأخيه على البصرة ، كان لابد أن يتقرب العجاج إليه ، ويمدحه حين
أوقع بالختار التتفي ، ويجعل سيره في جيشه قدراً من الله تعالى (١) :

لَقَدْ رَأَيْتُمْ مُصْعَباً مُسْتَضْعَباً حِينَ رَمَى الْأَحْزَابَ وَالْمُجْتَزِبَا
بِحَاجِجِي تَبْعِينَ أَلْفَا مُعْزِبَا مُوجَّزِي قُدُمُوسَ مَكْتُوبَا
فِي مُوجِّحِينَ يَدْعُو الْمُهَيَّبَا سَارَ عَلَى أَهْوَاؤِهِ مُسْتَنَسِبَا
بِقَدَرٍ يَتَلَوُّ كِتَاباً مُوَجِّبَا

فلما قيل مصعب وآل الأمر إلى عبد الملك بن مروان لم يبق في ذهن
العجاج من رمى الأحزاب والمُجْتَزِبَا ، ولا من كان يسير إلى السبي
بقدر من الله تعالى ، ذلك لأن هذا ما كان يهيم في شيء ، فمصعب قد قتل
وأطلقاً سرابه ، وغدا سلطان العراق لغيره ، ولا بد من التقرب إلى صاحب
هذا السلطان الجديد ، ولذا فقد عرض بآل العوام ، ومدح آل مروان ،
فقال بعد مقتل مصعب (٢) :

زَلَّ بَنُو الْعَوَامِ عَنْ آلِ الْحَكَمِ وَسَيَّئُوا الْمُلُوكَ لِمُلْكٍ ذِي قَدَمٍ
تَضَعُمُ الْإِيَادِينَ شَدِيدِ الْمُدْعَمِ

(١) الأرجوزة ١/٧ - ٢ ، ٧ - ١١ .

(٢) الأرجوزة ١/٩ - ٣ .

وما هذا إلا مصانعة من شاعر العصر الأموي ، الذي ما كان غائباً
لهم بآل العوام أو آل الحكم ، وإنما كان يُعنى بالتقرب إلى السلطان
رعاية لمصالحه ومصالح قومه ، دون نظر إلى أصحاب هذا السلطان ، ولم يكن
ليخرج عن هذه الظاهرة إلا شعراء الخوارج .

وتبرز هذه المصانعة عند العجاج في موضع آخر حين مدح والي البصرة
إبراهيم بن عوف ، فالوإلى دُعي إلى الخليفة على ما يبدو من بعض أبيات
الأرجوزة (١) ، وكان الخليفة يرى فيه تقصيراً في جباية الأموال ، وكان من
المحتمل في نظر الناس أن يُحوّل عن منصبه ، فيُعزّل ويُغرّم بعض المال ،
ولهذا لم يتم العجاج على ما يبدو حين دعي والي من البصرة ، ولكن والي لم
يُعزّل ولم يُغرّم بعد رحلته هذه ، وإنما عاد إلى ولايته على البصرة ، وهنا
انقلب الأمر بالعجاج ، وراح يمدحه في أرجوزة مطولة ، معتذراً عما أسلفه
من تهاون في أمر واليه ، متعللاً بأسباب واهية القوي ، مدعياً أنه كان في
شغل شاغل (٢) :

أما ورتب البيت لو لم أشغل
ما كنت من تلك الرجال الجندل
عن حمير إبراهيم يوم الترحل
من أجل أن وده لم ينسل
منه أهاضيب ربيع مسبل
على التناهي والزمان الأعصل

وما نظن هذا صحيحاً ، وما كان ليفطن بأهاضيب ربيع ، لو أنه

(١) الأرجوزة ٢٠/١٧ - ٢٣ .

(٢) الأرجوزة ١/١٧ - ١١ .

عزّل وأنتهى به الأمر ، ولكنه فطن به وبودّه حين عاد من جديد إلى
سلطانه ، وما هذه إلا مصانعة لا تقتصر على العجاج ، وإنما كانت صفة بارزة
لدى شعراء الحزب الأموي ، وبعض شعراء الشيعة ، ولم ينبج منها إلا
شعراء الخوارج ، لتفانيهم في عقائدهم ، والتفافهم عن الدنيا بكل ما فيها من
جاه أو عرض لا يدوم .

وقد تناول العجاج في مديحه بعض المعاني التقليدية ، التي عرفت في
عصر ما قبل الإسلام ، ثم استمرت في مدائح شعراء العصر الإسلامي والأموي ،
ومدح كذلك بعض دينة وسياسة ما جدّ في العصر الإسلامي ، ودعت إليه
أحوال السياسة في العصر الأموي ، وبذلك جمع في مديحه بين القديم والجديد
من المعاني .

والمعاني التقليدية تظهر مثلاً في مديحه ليزيد بن معاوية ، فهو يمدح
الحسين ليس بقصير دميم ، ولا بضعيف أو قبيح ، وإنما هو ماجد أشبه
ما يكون بالجواد السابق أمام الخيل ، وهو كريم يبذل العطاء لمن ليست له
وسيلة إليه ، ولن له وسيلة (١) :

والقول إن يخطئك نبل الخيل
من الحثوف والمنايا الخيل
تخرج بيضة السقيفة السجل
وبجباؤ السجوة السجل
من بارغ الحددين غير حنبل
ليس بيزمبل ولا كوالكل
أشم ذي أكروم مسرير
نيسان ثور السابق السجل
بتدال سيب من ندى مبدل
لوسل القريني وغير الوسل

وهذه كلها من المعاني التقليدية التي درج عليها الشعراء منذ عصر ما قبل
الإسلام ، ومثلها أيضاً تلك المعاني التي مدح بها الوليد بن عبد الملك ، فهو

(١) الأرجوزة ٥٨/١٢ - ٦٧ .

كوتيم الفرعين إذ كان أبوه مروان بن الحكم ، وكانت أمه ولادة العنسية^(١) ، فهو ضياء بين قمر وشمس ، وأبوه لم يعجب بنقص ، وأمّه حصان ليس بها أثر من رية أو أذى ، وقومته فوق الناس في جدهم وكرمهم ، فهم يعطون إن كان عطاه ، ويحملون ديكت من أصاب جرحاً ، حتى أيام الجلب والضيّق^(٢) :

بين ابن مروان قُربيع الإنسانِ وأبنته عباس قُربيع عبس
ضياء بين قمر وشمس أرهز لم يولد بينهم الشمس
بين غيب لم يعجب يوكس وحاصن من حاصنات ملنس
من الأذى ومن قواف الوقس من قفس مجند فوق كل قفس
في الباع لن باعوا ، ويوم الحبس يكفون أنقال ثأى المستأسي
وهم إلى ذلك لاتال الدواعي الشديدة منهم ، إذ يفصلون في أمرها ، ويصلحون من فسادها ، ذلك لأنهم يتفرون من الفساد ، ويفارقون من يضر الحياة ، وهم إلى هذا أسود في الحرب ، لا تدل ولا تشقر ، وإن تعاقبت عليهم بلا لاهر لم يجزعوا^(٣) :

ويفصلون اللبس بعد اللبس من الأمور الرئس بعد الرئس
ويعتلون من مأي في الدخس بالماس يرفى فوق كل مأس
ليوث تهيج لم ترم بيأس ضراغم تنقي بأخذ همس
عن باحة البطشاه كل جرس فالأسد بين مخلصم وخرس
وما أراهم جزعاً بيحس عطف البلايا المس بعد المس
وعز كاث البأس بعد البأس

(١) قال البكري : « كانت أم الوليد وسليمان ولادة العنسية » ، سقط الالهي ٦٤٨ .

(٢) الأرجوزة ٤٣/٤٠ - ٤٩ .

(٣) الأرجوزة ٤٣/٥٠ - ٦٠ .

ثم يضي العجاج بعد ذلك إلى توسيع معنى القوة والمنعة والغلبة لديهم في أبيات متعددة وهي مع ما تقدم لا تخرج عن المعاني التقليدية في المديح ، فالشعراء جميعاً قد تناولوا في مدائحهم معاني الكرم والمجد والعفة والحن والقوة والغلبة وما أشبه ذلك ، وتفاوتوا في التعبير عنها تبعاً لأساليبهم في التعبير والتصوير وما يتصل بذلك ، وهذه المعاني التي أوردنا أمثلة لها من رجز العجاج ، يمكن أن نجد لها لدى شعراء عصره ، وكذلك لدى شعراء العصر الجاهلي ، وربما وجدنا عند النابغة صورة للنعان وهو شمس والموك كواكب ، أروع من صورة الوليد وهو ضياء بين قمر وشمس عند العجاج .

ولكن العجاج ربما أفتن في بعض هذه المعاني التقليدية في المديح ، إذ بيعث فيها روحاً من الحدة ، بما يضيفه عليها من صور متسارعة ، وأنغام متلاحقة ، وجرس إيقاعي مثير ، واختيار للألفاظ موفق ، فقد مدح الشعراء بالعفة والمنعة والقدرة على طلب الثار ، ومدحوا بالكرم والقوة والشجاعة في القتال ، وكذلك مدح العجاج بهذه المعاني في عدد من أراجيزه ، ولكنه أفتن دون سائر الشعراء في التعبير عن هذه المعاني التقليدية حين مدح عمر بن عبد الله بن معمر بقوله^(١) :

حول ابن غزاه حصان لن وتر فأت ولن طالب بالرغم اقتدر
إذا الكرام ابتدوا الباع ابتدر داسي جناحيه من الطور قمر
تتقحي البازي إذا البازي كسر

وكان الوليد بن عبد الملك يعجب بهذه الأبيات ، ويقدمها على الأبيات التي مدحها العجاج بها ، حتى قال : « ما صنعت شيئاً أفوقت مدحك في عمر بن عبد الله بن معمر ، إذ قلت : (حول ابن غزاه ..) ، وتقول

(١) الأرجوزة ٧١/١ - ٧٥ .

في : (بين ابن مروان قريص الإنس ..) . فقال يا أمير المؤمنين ، إن لكل شاعر غريباً ، وإن غريبني ذهب في ابن معمر (١) .

ولم هذه المعاني التقليدية كان لابد لروح العصر أن تؤثر في مديح العجاج ، فتظهر فيه تلك المعاني التي جددت بعد ظهور الاسلام ، واتسعت وتنوعت في العصر الأموي ، بتأثير الصراع الديني والسياسي بين الأحزاب ، فقد رأيناه يمدح يزيد بن معاوية بعبان تقليدية ، إلا أنه لم يلبث أن مدحه بعبان إسلامية جديدة ، فهو يقوم الليل بالصلاة حين ينام الناس ، ويطلب من ثلاثة آيات القرآن وسوره ، ويقضي بين الناس بالعدل ، ويردهم إلى الحق رد (٢) :

خير الشباب وابن خير الكهول اقومه عند غفول الغفول
شرب باليسين والمفضل والمتاني من كتاب مئول
وفي الحقوق ذو فضل تلهته أضداد الغفول
بالعدل حتى يتجنوا للأعداء يقول مريض أمين يقول

ولا يقف مدح العجاج لبني أمية عند هذه المعاني الدينية المجردة ، وإنما يمدحهم أيضاً بعبان سياسية تعتمد على أسس دينية ، كانت الأموية يمثلها تحاول أن ترد على دعوة الأحزاب المناوئة من شيعة أو خوارج ، ولهذا كان دائماً يجعل الأمويين حياة الدين والاسلام في كل ما ينهض من ثورات مناوئة لهم ، فالخليفة يزيد لم يزل عن الدين الحنيف ، بل قاتل عنه ، وكان سيف الله في أعناق العادين على دين الله ، أو قل على حكم بني أمية (٣) :

(١) الموشح ٢١٥ - ٢١٦ .
(٢) الأرجوزة ١٢/١٢٤ - ١٣١ .
(٣) الأرجوزة ١٢/١٣٤ - ١٤٢ .

فقد رأى الراؤون غير البطول أنك يا يزيد يا ابن الأفضل
إذ زلزل الأقدام لم تزلزل عن دين موسى والرسول المرسل
إذ طار الناس قلوبهم الفكل قتلاً وإضراراً بمن لم يقتل
وكن سيف الله لم يقتل يفرح أحياناً وحيناً يختلي
سؤال العادين هذا العنصر

وعبد الملك بن مروان إمام بركة وفاء ، ذلك لأنه قد استمد ملكه من الله تعالى ، فكان خليفة عدل ، لا يظلم الناس ، ولا يكثر بأموالهم ، وما أعطاه الله ذلك إلا لأنه عماد للدين وابن عماد له (١) :

حتى اختصرنا بعد سيم حدس إمام رغنس في نصاب رغنس
ملكته الله بغير تحس خليفة ساس بغير فجنس
خبا ولا تكثر بالبخر رأس قوام الدين وابن رأس

وهذا المعنى كان من أبرز ما ينادي به الحزب الأموي ، فهم يزعمون أن سلطانهم من الله تعالى ، وما على الناس إلا إطاعة أولي الأمر منهم ، ولذا ما كان لهذا المعنى أن يفارق ألسنة الشعراء من الحزب الأموي ، وقد أكثر العجاج من ترديده في مدائحه للخلفاء والولاة والقادة معاً ، وكان يربطه شأن غيره من شعراء هذا الحزب ، بعبان أخرى كانت تنادي بها الأموية ، وتشجع عليها ، أمثال الاقرار بالقضاء والقدر ، وذلك لأن الأموية كانت ترى أنها تحكم الناس بقدر من الله تعالى ، ولا مرد لا قدره الله على الناس ، ولهذا رأى العجاج أن الله هو الذي قدر أن تكون أفضل دار هي دار الحجاج بواسطه ، والله تعالى هو الذي نصر الحجاج واختار أنصاره له (٢) :

(١) الأرجوزة ٤٣/٢٥ - ٢٩ ، ٣٢ .
(٢) الأرجوزة ٣٤/٦٤ - ٦٧ .

بَلْ قَدَّرَ الْمُقَدَّرُ الْأَقْدَارَ بِوَاسِطَةِ أَفْضَلِ دَلِيلٍ دَارَا
أَصْبَحَ نُورًا لِهَيْئَةِ أَسْدَارِ اللَّهِ تَسْمِيَةً بِصَرْفِهِ الْأَنْصَارِ
لَوْ أَنَّ هُوَ الَّذِي يَسُدُّ خَطَا الْعِجَالِ وَالِي الْأُمُورِ عَلَى الْعِرَاقِ ، وَالْعِجَالِ
فِي حَرْبِهِ مَعَ ابْنِ الْأَشْثَثِ ، لَا يَفْضِي أَمْرًا إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَسْتَشِيرَ اللَّهَ تَعَالَى
فِيهِ ، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يَرْشِدُهُ إِلَى الصَّوَابِ (١) :

فَمَا قَضَى أَمْرًا وَلَا أَحَارَا فِي الْحَرْبِ إِلَّا رَبَّهُ اسْتَحَارَا
وَيُظْهِرُ فِكْرَةَ الْقَدَرِ وَاضِحَةً جَلِيَّةً أَيْضًا فِي مَدِيحِ ابْنِ مَعْمَرٍ ، فَأَمْرُهُ
مُقَدَّرٌ فِي حَرْبِ الْحُرُورَةِ ، وَقَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ فِي الدُّرِّ الْمَحْفُوظِ ، وَالظُّفْرِ الْخَلِيفِ
ابْنِ مَعْمَرٍ أَيْنًا جُزَى ، ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ قَدَّرَ لَهُ خَلْفًا بَعِيثَهُ ، فَإِنَّمَا شَهَادَةُ
يُظْهِرُهُ اللَّهُ بِهَا مِنَ الذَّنْبِ ، وَإِنَّمَا وَقَعَتْ نَجَارٌ عَنِ الدِّينِ مَا لَحِقَ بِهِ الْخَوَارِجُ مِنْ
قَدَرٍ ، وَإِنَّمَا شَرَفَ يُسَيِّمُ نُورًا لِابْنِ مَعْمَرٍ تَامَ الْقَمَرُ فِي لَيْلَةِ الْبَدْرِ (٢) :

فَاعْلَمْ يَا ذَا الْجَلَالِ قَدْ قَدَّرَ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى الْبَلِيَّ كَيْفَ سَطَرَ
أَمْرَكَ هَذَا فَاحْتَقِظْ فِيهِ التَّسَرُّ وَفَتْرَةَ الْأَمْرِ وَمُومِنٌ مِنْ فَتْرَتِهِ
فَأَبْنَا جَرِيَّتَ أَطْلَيْتَ الظُّفْرَ شَهَادَةً فِيهَا ظُهُورٌ مِنْ طَهَرِهِ
أَوْ وَقَعَتْ تَجَلُّوْا عَنِ الدِّينِ الْقَدَّرَ أَوْ شَرَفًا يَتَمُّ نُورًا قَدْ زَهَرَ
كَاسِمٌ لَيْلَةَ الْبَدْرِ الْقَمَرِ

وفكرة القدر هذه وردت عند العجّاج في مواضع أخرى غير المديح ،
كما يسمع بالقول : إنه كان « جبريًا » ، يرى رأي الأمويين في « القدر » ،
ولم يكن يدينهم بما يريدون من آراء دون أن يكون معتقًا لهذه الآراء ، فإذا
حدثت فتنة البصرة بعد هرب واليها عبد الله بن زياد عقب وفاة يزيد بن

(١) الأرجوزة ٨٣/٣٤ - ٨٤ .
(٢) الأرجوزة ١٣٥/١ - ١٤٣ .

معارية ، لم يجد العجّاج في ذلك إلا « قدرًا » قدّر على الناس فالتبسهم
جميعاً (٣) . بل لو شهدت الناس إذا تكلموا « بِنَقْدَرِ حَسَمَ لَهُمْ » و« عَمُوا »
وإذا أوقع قومه يحيى من تبيلة يدعى عقيدة ، لم يجد في ذلك
أيضاً إلا « قدرًا » مكتوبًا قدّر على ذلك الحي من تبيلة (٤) :

لَقَدْ نَحْنَعُمُ تَجِدُنَا وَالتَّاجِي لِقَدَرٍ كَلَّ وَجَاهُ الْوَاخِي
بِشَرِّ مَتَدَاهُ جَهْرَةً الْفَضَّاحِ
ويلاحظ في هذين الموضعين أنه جاء بفكرة القدر في أوائل الأرجوزتين ،
كما يدل على اهتمامه بهذه الفكرة ، ومدى ما نفعه من تعلق بها . ولكنها قد
ترد أيضاً في أضعاف أرجوزته ، فإذا خافت عليه « سليم » أن يلقي بنفسه
إلى الممالك ، ردّ عليها بقوله : إنه يتجبد ويضي متغافلاً عن الأخطار ، لأنه
مؤمن بقضاء الله ، ولا حارس من قضاؤه ، ومهما تشدد الإنسان تخذراً ،
فالدهر غلاب لكل متشدد أو محاذر (٥) :

وَالْيَدُ مَضَاءٌ عَلَى التَّعَامُسِ مَا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ يَلِي مِنْ حَارِسِ
وَالدَّهْرُ غَلَابٌ يَدُ الْمُمَاكِسِ

فالعجّاج إذن قد آمن بنعْب الجبرية في نظره إلى القدر على الأقل ،
ولعله لم يتعد مع القائلين به ، في الانساع من الجدل ، والتفريع لمشكلاته ،
وما اتصل بهذه المشكلات من أفكار أخرى .
والذي جئنا أن مدحه الأهمية كان لا يقتصر على المعاني التقليدية ، ولما

(١) الأرجوزة ١/٣٥ - ٢ .
(٢) الأرجوزة ١/٣٧ - ٣ .
(٣) الأرجوزة ٧/٣٨ - ٩ .

جاء في مدحه بعبان أخرى كانت وليدة العصر الاسلامي والأموي . وبذلك كان المديح عند العجاج ذا أهداف متنوعة ، منها ما اتجه به إلى التكسب ، ومنها ما قصد به الشعر السياسي بأنواعه المختلفة ، وأغراضه الثابتة ، وكانت فيها جميعاً يمثل أكثر جوانب المديح في عصره ، ولكنه أضفى على بعضها شيئاً من ذاته وأخلاقه ولا سيما في مسألة التكسب .

الفخر والهجاء

كان الفخر عند العجاج من أبرز الموضوعات الرئيسية في رجزه ، ولم يكن موضوعاً جانبياً يمكن أن يرد في أضعاف قصائد المديح أو الهجاء فحسب ، كالذي كان عليه الأمر لدى أكثر شعراء الجاهلية ، أو شعراء النقائض بوجه عام ، وإنما أصبح عند العجاج يتفرّد بأراجيز ومقطعات خاصة به ، لا ينافسها فيها موضوع سواه^(١) ، وبذلك أسهم العجاج في اتساع ظهور المقطعة لهذا العصر ، ومال بالقصيدة إلى التخصص بموضوع واحد ، فكانت الأراجيز التي اختصت بموضوع الفخر لديه ، تقابل القصائد التي اختصت بموضوع الغزل لدى شعراء الجاهل ونجد ، وهذا التخصص ضمن إطار القصيدة الواحدة ، كان من سمات التجديد لعصر العجاج ، وهذه السمات تبدت لديه في أراجيز الفخر بوجه خاص .

وقفة نوع آخر من أراجيز الفخر عند العجاج ، إذ يبدأ فيها بمقدمات تقليدية من غزل وأطلال^(٢) ، أو غزل ووعظ^(٣) ، ثم ينتهي إلى الموضوع الرئيسي من الأرجوزة ، وهو الفخر بنفسه ، ذلك لأن الغزل لا يخلو من الفخر

(١) انظر الأراجيز ١٠ ، ١٨ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ٤١ .
(٢) انظر الأراجيز ١١ ، ١٩ ، ٣٣ .
(٣) انظر الأراجيز ١٤ ، ٢٤ .

بمغازلة الغواني ، وكذلك الحديث عن الليل والطريق والمفاوز المهيولة ، فما كان له أن يتحدث عن شيء منها ، لولا أنه يفخر بقطع الليل المظلم الخالك السواد ، ويحتاز المغازة المملوكة التي لامه فيها ولا أنيس ، ومن ثم يخرج إلى وصف مشاهد الصحراء ، بليلها ونهارها ، ومملها وسرابها ، ونبتها وحيوانها ، وفي ذلك متعة حقيقية لا تقع لها على نظير إلا في أشعار ذي الرمة ، فقد تخصص هو الآخر بوصف الصحراء ، وجاءه بصور رائعات لما فيها من طبيعة ومشاهد .

ومثل ذلك أيضاً حديثه عن مكارم أخلاقه ، فهذا لا يخلو من فخر ضمني بما يتصف به من ووع وتدين وحسن خلق ، وبذلك نجد هذه الأراجيز المطولة إنما تخضع لموضوع الفخر بوجه عام ، وإن خرجت في مقدمتها إلى موضوعات فرعية من وصف أو غزل أو وعظ أو ما يتصل بأمثال هذه الموضوعات .

ولعل موبد البصرة كان له أثر في توجيه العجاج إلى مثل هذه الأراجيز ، ذلك لأن العجاج لم يشترك في « لعبة النقائض » ، ولذا كان لا بد له من فن يقف به في الموبد ، فيجذب أنظار الجماهير ، ويثال منهم كل إعجاب واستحسان ، فكان يعرض من الهجاء وتغزيق الأعراس ، بفن يتناسب مع طبعه وذوقه ، فكان يبنى الأرجوزة بناء تقليدياً ، فيبدأ بالأطلال والغزل والوصف ، ثم يختم بفخر قومه من بني تميم ، وما يتصلون به من الحزب المضري أحياناً ، ومثال ذلك الأرجوزة (٣٣) ، فقد بدأت بالأطلال والغزل ، واحتل الوصف شطراً كبيراً منها ، ثم انتقل العجاج انتقالاً مقضباً بعد البيت المائة إلى تهنيج حسب ، والفخر بقبيله ، فقال :

دَعَا وَيْجَ حَسْبَا مُبْهَجَا فَتَحْنَا وَسَنَنْ مُنْطَلَقَا مُرُوجَا

لإننا إذا أخذنا كبرى الحروب أراجيزاً... الخ
 ثم مضى مبهتاً لحبه، مفتخراً بقيلته في (٤٧) بيتاً، وما ذلك إلا لأن الغاية من هذه الأبيات المطولة إنما هو الفن وحده، سواء في وصف الأطلال، أو التغزل بليل، أو الفخر بتألق القبة، فهذا الفن هو الذي كان يشده غالباً في المريد، وهو الذي كانت تطرب له قبائل تميم، حين تجتمع إليه.^(١)
 وهذا الجانب الفني جعل أرجوزة الفخر عند العجاج قصيدة ذات الطابع خاص، أضف إلى ذلك ما أفردته من الأراجيز أفراداً مطلقاً لموضوع الفخر، فكان بذلك من أهمهم في اتساع ظهور المقطعة، واختصاص القصيدة بموضوع واحد في عصر بني أمية.

والفخر في رجز العجاج يمتاز قارة بالطابع الفردي، وفردة أخرى بالطابع القبلي، إلا أن الجانب الفردي فيه من الاتساع والوضوح ما يجعل منه عنصراً من عناصر الجدة والتطوير أيضاً، فهذا الجانب قد عرفت له بعض الآثار في أشعار المجاهدين، إلا أنها كانت جد ضئيلة إذا ما قورنت بالفخر القبلي في أشعارهم، وأكثر ما كان يتبدى ذلك الطابع الفردي في أشعار جماعة من كانوا يتلون نظم القبيلة إياهم، أو عدم اعترافها بحريتهم أو أنسابهم وذلك أمثال طرفة بن العبد، وعنترة بن شداد.

أما عند العجاج ومعاصره فالأمر يختلف عما كان لدى أولئك الشعراء فالعجاج ليس بظالم ولا قائم على قبيلته، وإنما أصبح يشعر بكيانه الذاتي، إلى جانب الكيان الكلي للقبيلة، ذلك لأن الفرد بدأ يتحرر عن القبيلة بعد أن كان دائماً فيها، ومرد ذلك إلى أن القبيلة نفسها لم تعد وحدة مطلقة بسلطانها وأحكامها وتقسيمها كالذي كانت عليه قبل الإسلام، وإنما أصبحت

تخضع لأحكام الدولة، وتشارك مع القبائل الأخرى في الواجبات، ثم جعلت الحياة الحزبية تفرق أحياناً بين أفراد القبيلة الواحدة، ولا سيما القبائل التي انحاز بعض أفرادها إلى الخوارج أو الشيعة، إذ أصبح طبعياً بأن نجيبه أفراداً من القبيلة الواحدة يلتفون على السيف، بعضهم في صفوف الدولة، وبعضهم في صفوف الأخراب المناوئة، وخاصة في العراق وتبرادي نجد حيث كانت تعصف أقوى رياح الثورة الخارجية أو الشيعة.

ومن هنا كان لابد للفردية أن تظهر بجلاء في مجتمع العجاج، ونجد لنفسها بعض الأصداء في رجزه، أو في أشعار معاصريه، ولهذا كان العجاج يكثر من الفخر الذاتي بنفسه وشعره وقوافيه، فهو يفاخر دائماً بقطعه

المفازة المبررة وخاصة في ظلام الليل^(٢)
 إن قتال قيل لم أكن في القيل وأقطع الأنجل بعد الأنجل
 من حومة الليل بيادي تجلي ومنهل ودته عن منهل
 فتغرين هذا ثم ذالم يؤهل

والملوك وأصحاب السلطان من الصعب أن يدخل إليهم كل من أراد ذلك، أما العجاج فذو منزلة لديهم، ومما كان واحدهم من الكبراء والعظمة، فالعجاج يدخل إليه دون جناب أو استئذان^(٣) :
 فترم ذي مرادق تحجور نجم الغواشي حاضر المحضور
 أموس عن سفارة السقيير صرت إليه في أعالي السور
 دون صار الباب والصريير بيجاه لا تغل ولا مغمور
 وهو قري يقهر خصمه وبذله، ولولا أنه يخاف عذاب الله، وثار

(١) الأرجوزة ١٢/٩٩ - ١٠٣ .

(٢) الأرجوزة ١٩/٣٢ - ٣٨ .

جمع ، لعل خصومه انه شجاع لرؤوسهم ، يرضها ويخرج منها الدماغ ، وما ذلك إلا لأنه أثم الأنت بذايح متطاوول متفاخر بنفسه ، قد ارتفعت أنسابه إلى أشرف من الناس يتبذخون بالنهم من جد وكبرياء (١) :

تأله لولا أن تحش الطينح بيبي الصيم حين لا مستصرح
في دحل النار وقد تسكنوا لتعلم الجبال أني مفتتح
لهايمهم أرفضه وأنقح أم الصدى عن الصدى وأصمخ
أشم بذايح نشتني بذايح

والعجاج لا يفاخر بقرته أو قطعه للفاوز أو دخوله على الملوك فحسب ، ولما يفاخر دائماً بالتغلب على الشعراء ، فلو رآه الشعراء ذلوا وتضاغروا ، ولو قال لهم : تكلموا بالفارسية وغيرها ، لتكلموا وهم أدلة صاغرون ، بل إنه ليدوسهم كما تداس البقة الحفاه (٢) :

ولو رأي الشعراء دبحوا ولو أقول يرخوا لبرخوا
لما سر جيس وقد تخطتوا ودستهم كما بداس الفرغخ
بوكل ترات ومرا يشدخ

ورب شاعر قد أقسم بأشد الأيمان ، ليقطعن باطل العجاج وسد غضبه فكان في ظنه وأمانه أشبه بصي يوث قلاته أيام القطام (٣) :

وشاعره آلى بجهنم المقسم ليعضدن باطلي وأضمي
بالقول والظن له المرجع وبالأماني التي لم تزعم
كأمنني مايت في مقطم

- (١) الأرجوزة ١/٤١ - ٧ .
(٢) الأرجوزة ٢٤/٤١ - ٢٨ .
(٣) الأرجوزة ١٤٢/٢٤ - ١٤٧ .

وما زال الشاعر يتهم ويتوعد حتى التقى بالعجاج ، وإذا به يتحول إلى مفتحم لا يقدر على الكلام ، فيصفر منه اللون ، ويأخذ بالهذيان كأنه مصاب بمرض البرسام ، وذلك حين رأى داهية الدواهي دون العجاج ، ولم يستطع شيطانه أن يكف شيئاً من زجر العجاج وضربه أو رده بالقوافي التي إن وصحت خصمه أوجبت عليه ذلك (١) :

فل يزل بالقول والتكلم حتى التقنا وهو مثل المفتحم
واصفر حتى أض كالمبرم وقد رأى دوفي من تجهيمي
أم الربيع والوريق الأذنم فلم يكت شيطانك تشهيمي
صقعي وردي بالقوافي الحتم

والقوافي لا تغلق بابها دون العجاج ، ولما هي طوع أمره ، لا يظلمها حتى تقبل عليه ، كأنها هي سيل غزير (٢) :

لاني إذا ما عصبه أنابها ظالمة قد سرني سبابها
أصدفها التتم ولا أهابها حتى ثرى جاحرة كلابها
إذا القوافي حصرت أثوابها وجدتها مفتحة أبوابها
مقبلة يسيلها سحابها

وفي حديث الغوافي والغزل ، ربما فخر العجاج بمنطقه وحسن حديثه ، فله منطق أو ترفق به لحيات الجبال ، لحاءت إليه تسعى (٣) :

بمنطق لو أنني أسني حبات هضب جبن أولو آني
في خرعب أسود مستجن فيه كتهزيم نواحي الشن
أو ثقب الصنجر الرتجسن العن

- (١) الأرجوزة ١٤٨/٢٤ - ١٥٤ .
(٢) الأرجوزة ١٥/٣٩ - ٢١ .
(٣) الأرجوزة ٢٨/١٦ - ٣٢ .

وهكذا فالجانب الفردي من فخر العجاج واضح في أراجيزه ، وهو يرتكز على المفارقة بفرته ، وأدبه ، وقطعه للمفاوز ، ودخوله على الملوكة ، وما إلى ذلك من المعاني الفردية التي تتصل بذاته ونفسه ، ولعل وعي العجاج لما كان يفتن به في تقصيد الرجز ، هو الذي أملى عليه ذلك الفخر برجزه ، وإقامه لسائر الشعراء .

إلا أن الجوانب الفردية لا يمكن أن تستقل بفخر العجاج أو غيره من شعراء عصره ، ذلك لأن الفرد في هذا العصر قد تميز عن إطار القبيلة ، ولكنه لم يتصل من الارتباط الوثيق بها ، لأنها مازال تنظم شطراً كبيراً من شؤون حياته ، ولها مرة أجداده وأنسابه ومفاخره ، ولا سباً أن لتكوين الاجتماعي والسياسي كان مازال يقوم على أساس قبلي مطلق كما رأينا في التمهيد لهذه الدراسة .

ومن هنا كان فخر العجاج يتجه إلى الجانب القبلي أيضاً ، وفارة يتفرد به في أراجيزه الفخر ، وأحياناً يمزج بينه وبين الجانب الفردي ، وهذا الفخر القبلي يرتكز على المفارقة بقوة القبيلة وأجدادها وعزتها وكبرتها ومنعتها وما أشبه ذلك من المعاني المعروفة في أشعار الجاهليين والاسلاميين في هذا الموضوع .

فقوم العجاج ينفقون على الفقراء ، ويقسمون الغنائم ، ويصلحون ذات البين ، ويعطون فيجزلون العطاء^(١) :

إننا أناسٌ نحمل الأغنياء ونقسم الثَّبابَ والأنثالا
نكفي الشَّامِ ونُعظمُ الإجزالا ونكثيرُ الإنعامَ والإفضالا

(١) الأرجوزة ٣٨/١٤ - ٤١ .

وهم إلى ذلك يقومون ذا العوج إذا ما مال عن الحق ويجهولت الأبطال إذا ما أشترعت السيوف أيام الوقائع والحروب^(٢) :

نكتهزُ ذا الذرة إذا ما مالا في كلِّ يومٍ نُنَجِّرُ الأبطالالا
إذا السيوفُ انتخذتْ غللا وانتسجلَ الموتُ بها انسجلا
ولهم من المجد ما يشبه قترماً ، فإذا صال هذا القرم خافت منه سائر الفحول ، ورأت فيه فخلاً قوياً ضخماً مسّاً ، وهذا القرم العظيم يقطعون دابر من يشتد عليهم في الحصومة ، ويدلون من يحاول الحيلة عليهم^(٣) :

إننا قترماً إذا ما صالا عدو الصوى وأذرق الفحالا
يلقيّن منه قهيباً مجلالا نقتصِلُ اللئيمَ به اقتصلا
به ندوك المتوف المتصلا

وعزّم قد ثبت في الأرض كالطود ، وعلا كلَّ عزٍّ طويل ، وتعالى أن يدانيه عزٌّ آخر ، وهو ملائم لهم ما أقامت الجبال في الأرض^(٤) :

إن لنا عزّاً رساً وطلالا حالقتنا واقترع الطوالا
ما حالقت أرضها الجبالا

فهو في هذه الأرجوزة لا يتحدث عن نفسه ، وإنما يتحدث عن قومه ومالهم من صفاء أيام الحرب أو أيام السلم ، وهذه الصورة الأخيرة ، ولاسيما ذلك « القرم » الذي يخيف سائر الفحول ، قد أكثر العجاج من ذكرها في أراجيزه المختلفة ، وإذا كان في هذه الأرجوزة يصف بشيء من الاعتدال في نعت قومه ، فهو في بعض الأراجيز الأخرى ، لا يعرف للاعتدال معنى ،

- (١) الأرجوزة ٤٢/١٤ - ٤٥ .
(٢) الأرجوزة ٤٩/١٤ - ٥٣ .
(٣) الأرجوزة ٥٤/١٤ - ٥٦ .

ولما يثور في حديث عن قومه ، حتى لكانه رجل من صميم الجاهلية .
فاطروب إذا حاجت تضرس الناس ضرساً ، وتوقد الرعب في القلوب ،
وتزيع المايجبات في الصدور ، وإذا تحول الأمر إلى فتنة عارمة ، الفساد
فيها يستدعى بالفساد ، واختل أمر الناس ، فمن اختلس شيئاً مضى به دون
عقاب ، ومن كان ذا دين أو عهد أو تعويذة ، لم ينفعه ذلك ، لأن الحرب
تدور عليهم جميعاً .. إذا حدث غدا كله وجدت العجاج أعز الناس طراً ،
وأكثرهم عدداً ، ورأيت عزه متعالياً غليظاً شديداً ضخماً ، قد يش الحاسد
أن يعيه ، أو ينال منه ^(١) :

لئن إذا هاج الحروب ضررتنا شيئاً وأقسن الرماح القيسنا
أوانيساً مرأً ومراً عمننا وهاجسات حداث هيجنا
بالناس يستجري الأمور المؤسنا وأحرز الخالاس ما تخلصنا
ولم يهين حمسة لأحمسنا ولا أخا عقد ولا متجسنا

★ ★ ★

وتجدتني أعز من تنفسنا عند الكيظاظ حسباً ومقيسنا
وعدداً بختاً وعزاً أفعسنا غصباً عفرني جندبنا عيجسنا
قصدتكم الشافية حتى استيسنا من نحتيه وذاد من تجسنا
والرجل من قومه انما هو رجل غليظ ، إن أراد خلكاً عسراً أقره
الناس عليه وإن تكبر وتعتظم ، وإذا ما أراد أموراً معتمسة مارية عن
قصدها مظلمة ، أتى بها غير مبين لها ، وهو يحط من شأن القساء ، وإن
ريم غسفا أبى وقسا على من يريده بذلك ، وإذا لاقى صعباً أخذها بعنف

(١) الأرجوزة ٥٠/١١ - ٦٥٥٧ - ٧٠ .

- ٢٧٢ -

وشدة وجفاء ^(٢) :

فينا وجدت الرجل الكرونا إذا أراد خلكاً عفتسنا
أقره الناس وإن تنجسنا وإن أراد عمنسة تعمسنا
أعداؤه ذلوا وما قابسنا يهتخم القسا وإن ريم قسنا
غصباً وإن لاقى الصعاب عترسنا

وما زال يتحدث عن قوة هذا الرجل من قومه ، حتى جاء إلى ذكر
أجداده وكثرة قومه ، ثم مزج بين الفخر بنفسه والفخر بقومه معاً .

وقد لا يكتفي العجاج بالحديث عن عزه المنيع ، وسرعة قومه إلى
الحرب ، وبلاهم في القتال ، ولما يذكر بعض الأيام التي كانت لبني سعد ،
أو لبني قيس عامة ، فهم قد خربوا ملوك كندة يوم الكلاب ، وردوا من
لأفاهم بنعج ، وبالنباين ، ويوم التقوا بنعج تلك القبيلة اليمنية ^(٣) :

نحن ضربنا الملك الشويجا يوم الكلاب وردنا متوجسنا
وبالنباين ويوم مذجسنا

ثم مضى إلى تصوير هذه القبائل ، فقد جاءت إلى قيس عليها ملك متوج ،
وسادات خبروا القتال ، فأقبلوا يتدافعون في جيش لجب مثل الجراد ، أو
أكثر منه كثافة وعدداً ، فكان أن رأوا من قوم العجاج أشرافاً كثيراً ،
وفرساناً أشداء في القتال ، ولوعين بتعظيم الرؤوس ، فعرفوا أن ليس لهم
خروج حتى تكون الغلبة عليهم ^(٤) :

إذ طلوقوا أمرهم المهملسنا نقاباً ومقولاً متوجسنا

(١) الأرجوزة ٧١/١١ - ٧٧ .

(٢) الأرجوزة ١٢٠/٢٢ - ١٣٢ .

(٣) الأرجوزة ١٢٣/٢٣ - ١٣٨ و ١٤١ - ١٤٧ .

العجاج - ١٨

- ٢٧٢ -

لَا أَقْبِلُ إِزْجُرْنَ مِنْهُمْ مَنْ زَجَا بَلْجِبِ مِثْلَ الدُّبَا أَوْ أَوْجَا
مَوْجًا إِذَا لَمْ يَسْتَقِمْ تَمَوْجَا حَتَّى رَأَى رَأْسَهُمْ فَجَجَا
مِنَّا خَرَّاطِمٌ وَرَأْسًا عُلْجَا رَأْسًا يَنْهَضُ الرُّؤُوسَ مَنُجَا
يَزْدَادُ مِنْ طُولِ الْبَطَاحِ فُلْجَا فَتَعْرِفُوا أَلَّا يَلْقُوا تَحْزَجَا
أَوْ يَنْتَعُوا إِلَى السَّالِوِ دَرْجَا حَتَّى يَبِيعَ فُخْخًا مَنْ عَجَجَا
فَيُؤَدِّي الْمَوَدِّي وَيُسْجُو مَنْ نَجَا

وفي هذه الأراجيز وما إليها لاناظر ذكرًا لبني سعد قومه الأذنين ، ولما يتحدث بضائر الجمع فقط : « إِنَّا أَنَسَ لَحْمَ الْأَجْزَالِ » ، و « نحن ضربنا الملك المتوجا » ، و « إِن لَنَا قَوْمًا إِذَا مَا صَالَا » ، و « إِنَّا إِذَا هَاجَ الْحُرُوبُ ضَرْسًا » ، و « فِينَا وَجَدْتَ الرَّجُلَ الْكَرُوسَا » ، وهذا دأبه في سائر أراجيز الفخر ، إنه لا يذكر قبيلته بني سعد ، وإن كان يشير إلى أئام خاصة بها ، ولكننا يذكر هذه الأئام أحياناً ، وبهجته أحياناً أخرى ندرك أنه يريد بني سعد بالذات ، ولكنه في الغالب كان يتعداهم إلى الفخر بتميم ، أو بقبائل مضر كلها ، وذلك لأنه لم يترك في صراع مع شاعر قيمي آخر ، كالذي كان بين جرير والفردق ، مما جعل صكلاً منها يلود أحياناً باطراف من تميم لاتباعهم كلها ، ولذا ما كان العجاج ليفخر بقومه حتى يفخر بالقبيلة الكبرى التي ينتسب إليها بنو سعد ، وهي قبيلة تميم ، ثم يوسع من إطار هذا الفخر ليشمل القبائل المضرية كلها ، وذلك بدافع عصبي سياسي كان يوحّد بين هذه القبائل .

فهو يستدعي قبائل تميم ، وخزاعة ، وقيس عيلان ، فيجمع بذلك بين الحزب المضريّ كلّهُ إن صحَّ التعبير ، وفي الأرجوزة السابقة أبطال من الافتخار بقومه ، ثم مال إلى جمع القبائل المضرية من حوله ، وإذا به

يدعو سادات تميم ، والراس من خزيمه ، وقيس عيلان ومن ينتسب إليها ، وبذلك يجد العزّ لديهم قد ثبت وامتنع فيخس الناس حقهم ظالماً ، وغلب العدو حتى سكت ذلاً (١) :

وإِنْ دَعَوْنَا مِنْ تَمِيمٍ أَرْوَسَا وَالرَّاسَ مِنْ مُخْرِيمَةِ الْعَرَنَسَا
وَقَيْسَ عِيْلَانَ وَمَنْ تَقَنَسَا تَقَاعَسَ الْعِزُّ بِنَا فَنَاقَعَنَسَا
فَيَخْسُ النَّاسُ وَأَعْيَا الْبُخْسَا وَتَخَذَعَ الْعَدُوُّ حَتَّى اخْرَمَسَا
ذُلًّا وَأَعْطَى مِنْ حِمَاةِ الْمَكْسَا

وما هذا من العجاج إلا تعريض بقبائل ربيعة ، التي سخر منها في أراجيزه الأخرى ، وثال منها صراحة لاختفاء فيها ولا غموض ، ومن ذلك قوله (٢) :

عَشِيْرَتَيْهِمْ وَأَقْصَرِيْهِمْ قَصَرٌ وَأَبْسِي عَلَى مُلْكِكَ إِذَا مَسَى انْقَعَرُ
وَأَنْقَطَعَتْ مِنْهُ الرَّجَاةُ وَانْبَثَرُ

فالعجاج يفخر دائماً بالقبائل المضرية كلها ، لجعل منها حلقة على أعداء قومه ، وقد يمزج بين الفخر بقومه بني تميم ، والفخر بالحزب المضري ، ثم يدخل فيه آثاراً أخرى من المعاني المستجدة لهذا العصر ، وهي المعاني الدينية ، فيذكر أن إجازة الناس في الحج كانت لهم ، ويريد بذلك الفرع القرشي من قبائل مضر (٣) :

حَتَّى إِذَا مَا حَانَ فِطْرُ الصُّومِ أَجَازَ مِنَّا جَائِزٌ لَمْ يَوْقَمْ
لِقَصْفَةِ النَّاسِ مِنَ الْمُخْرَجِمْ

- (١) الأرجوزة ١١/٩٢ - ٩٩ .
(٢) الأرجوزة ١/١٥٩ - ١٦١ .
(٣) الأرجوزة ٢٤/٧٤ - ٧٦ .

وقريش تنتمي إلى قبائل خندف ، ولهذا قد لا يذكر قريشاً باسمها ، ولما يطلق عليها اسم « خندف » على التعميم ، ثم يقف عندها ، إذ يجد فيها فضلاً لا يبلغه غير القبائل الخضرية ، إذ أن قريشاً ، منهم نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم مستقر المصنف المرفق^(١) :

ثم رأى أهل الدَّيَّعِ الأعظمِ خندفَ والبَدَّ الحِصَمَ الميضمِ
وذروة الناس وأهل الجكمِ ومستقر المصحف المرفقِ
عند كرمهم مكرمِ معلمِ آبي الهدى معلمِ
مباركٍ للأنبياء تحاتر فخرهم هامة هذا العالمِ
قوم لهم فضل السَّما الأسمِ

ثم يعود بعد ذلك إلى جمع القبائل الخضرية على عادته ، فقد مدحهم وأعانهم ذلك العدد الكثير من قديم ، والسؤدد القديم غير الأزدل ، والجماعات الكثيرة العزيزة من خزيمة ، وإذا ما دعوا عنهم قيس عيلان لم يكن منه إبطاء عن نصرتهم والقتال إلى جانبهم^(٢) :

ومدنا فوق البقاع الأجمِ شفع قير بالحصي المضمِ
والسؤدد العادي غير الأقرمِ والرأس من شؤيمة العرمِ
ولن دعونا عمننا لم يسأر قيس بن عيلان ولم يكمهم
في يوم هيجا نجدت أو مغرمِ

ومن ثم يجد الطريق واسعاً إلى الغفر العريض بعزّه الوطيد ، وإيقاع قومه ببعض قبائل وائل بنبيعة .

(١) الأرجوزة ٨١/٢٤ - ٨٩ .

(٢) الأرجوزة ٩١/٢٤ - ٩٧ .

وبذلك نجد الغفر عند العجاج قد امتاز باللون السياسي ، وداخلته بعض المعاني الدينية المستجدة ، وكان فردياً حيناً ، قَبَلِيّاً حيناً آخر ، فجمع بذلك بين الجدة والتقليد في شكله ومضمونه معاً .

* * *

وفي ارتباط عند العجاج بين موضوع الغفر وموضوع الهجاء ، لأنه كثيراً ما يحاول الهجاء ثم ينقل الموضوع إلى الغفر ، ذلك لأنه إن فخر بنفسه أو بقيته أو بالعصبة الخضرية ، فكانت ينتقص من منزلة خصمه فرداً كان أم قبيلة أو عصبة معادية ، إلا أن الهجاء ناز إلى أبعد حدّ بنفسيّة العجاج وأخلاقه وطبعه ، وقد نقل ابن قتيبة أن سليمان بن عبد الملك قال للعجاج : « إنك لا تحسن الهجاء ! فقال : إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نطليم ، وأحساباً تمنعنا من أن نطلم ، وهل رأيت بابياً لا يحسن أن يدم^(١) » .

فالعجاج يرى أنه لم يضرب عن ذلك تقصيراً منه ، ولما أنفة وإقداراً ، وقد شاع قوله بين قدامى الرواة والقاد ، ومنهم من حاول مناقشته ، وجاء بأسباب أخرى لما رأوه من عدم وجود الهجاء في رجزه .

فابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ردّ ذلك إلى اختلاف الطبع عند الشعراء فقال : « والشعراء أيضاً في الطبع مختلفون : منهم من يهمل عليه المديح . ويحصر

(١) الشعر والشعراء ٥٧٢ . ونقل القرواني هذا الخبر بمسارعة مختلفة ، وجعل عبد الملك بن مروان هو الذي سأل العجاج عن ذلك ، انظر زهر الآداب للقرطبي ٥٢/٣ . ونقل كلام العجاج بنصه في عيون الأخبار لابن قتيبة ١٨٥/٢ ، واختلفت عبارته اختلافاً يسيراً في تاريخ ابن عساکر ٣٩٥/٧ ، وشرح شواهد الغني ١٨ ، والتبثيل والمحاضرة للشعالبي ١٨٦ ، وسيرد أيضاً في مصادر أخرى ناقشت قول العجاج .

عليه الهباء ، ومنهم من يقدر له المراتي ويتعلو عليه الغزل .
وقيل للعجاج : إنك لا تحسن الهباء ! فقال : إن لنا أحلاماً تمنعنا من
أن ننظم ، وأحباباً تمنعنا من أن ننظم ، وهل رأيت بانياً لا يحسن أن
يهدم ؟ !

وليس كما ذكر العجاج ، ولا المثل الذي ضربه للهباء والمدبح بشكل ،
لأن المدبح بناء ، والهباء بناء ، وليس كل بان يضرب بانياً بغيره ، ونحن
نجد هذا بعينه في أشعارهم كثيراً ، فهذا ذو الرمة ، أحسن الناس تشبيهاً ،
وأجودهم تشبيهاً ، وأوصفهم لرمل وهجرة وفلاة وماء وقتراد وجية ، فإذا
صار إلى المدبح والهباء خانه الطبع ، وذلك أختره عن الفحول ، فقالوا :
في شعره أبعاد غزلان ونقطة عروس . وكان الفرزدق زير نساء وصاحب
غزل ، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب . وكان جرير عفيفاً عن نساء^(١) عن
النساء ، وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيهاً . وكان الفرزدق يقول : ما
أحوجهم مع عفتي إلى صلابة شعري ، وما أحوجني إلى رقة شعره لما
تروى^(٢) .

وعرض الجاحظ (٢٥٥ هـ) لقول العجاج ، ثم قال : « وهذه الحجيح
التي ذكروها عن نصيب والكميت والعجاج ورؤية ، إنما ذكروها على وجه
الاحتجاج لهم ، وهذا منهم جهل إن كانت هذه الأخبار صادقة ، وقد يكون
الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام ، وتكون له طبيعة
في التجارة ، وليس له طبيعة في الفلاحة ، وتكون له طبيعة في الحدا

(١) الرّجل الموهبة : العارف عن الله والنساء .
(٢) الشعر والشعراء ٤٠ - ٤١ .

والتعبير^(١) ، أو القراءة أو الألفاظ ، وليس له طبيعة في الغناء^(٢) .
فالجاحظ يرى أيضاً أن المسألة تزد إلى طبع العجاج نفسه ، ذلك لأن
لكل إنسان طبيعة في الأدب وفي سائر الصناعات . إلا أنه رأى ثالثاً
يكاد يكون أكثر اعتدالاً ، هو رأي ابن رشيق القيرواني ، إذ قال :
« ومنهم من لا يهجو كسراً ولا غيره لما في الهجو من سوء الأثر وقبح السمعة
كالذي يحكى عن العجاج أنه قيل له : لم لا يهجو ، فقال : ولم أهجو ، إن
لنا أحباباً تمنعنا من أن ننظم ، وأحلاماً تمنعنا من أن ننظم ، وهل رأيت
بانياً لا يحسن أن يهدم ! ثم قال : أتعلّمون أنني أحسن أن أمدح ؟ فقالوا نعم .
قال : أفلا أحسن أن أجعل مكان أصلحك الله قبحك الله ، ومكان حيّاك
الله أخزأك الله^(٣) » .

ولا شك أن في كلام ابن رشيق تزيّداً على كلام العجاج أشبه ما يكون
بالشرح أو التفسير له ، والمهم أن ابن رشيق قد أشار بعد ذلك إلى ردّ ابن
قتيبة والجاحظ على ذلك ثم قال : « ومعنى قول الجاحظ وابن قتيبة واحد
ولأن اختلاف اللفظان والصواب ما قال ، إلا أن يعرف من الشاعر أنف عن
قدرة لا تدفع ، ويعد تجربة لا تستراب ، فحينئذ^(٤) » .
فإن رشيق لا يكاد يقرّ للجاحظ وابن قتيبة بما قال ، حتى يعود إلى

(١) نقل ابن منظور عن الأزهري قوله : « وقد سُمّوا ما يطربون فيه من
الشعر في ذكر الله تشبيهاً ، كأنهم إذا تناشدوه بالألحان طربوا فقصوا
وأرهبوا فسموا متشبيهاً لهذا المعنى » . انظر اللسان (غير) .
(٢) البيان والتبيين ٢٠٧/١ - ٢٠٨ . وتحدث الباقلي عن طباع
الشعراء أيضاً دون أن يشير إلى العجاج ، انظر أعجاز القرآن ٢٠ - ٢١ .
(٣) المعمد ٧١/١ .
(٤) المعمد ٧١/١ .

دقة الرأي ، فيرى أن الشاعر إن عرفت منه الأتفة والاقتدار ، فلا يبعد أن يكون قد تخطى عن الهجاء لا فيه من فحش أو إساءة أو قبح سمعة .
وتحديد السبب لعدم اتساع العجاج في موضوع الهجاء صعب جداً ، إذ ربما كان ذلك لطبع منه يباعده عن الهجاء ، وربما كان ذلك أنفة منه تتجاوز به عما عُرِف من افشاش لشعراء عصره ، وسواء كان ذلك لطبع أو لعفة ، فلا بد من وجود أسباب أخرى تخففي وراء « الطبع » أو « العفة » ، ذلك لأننا سوف نرى بعد قليل أن العجاج لم يضرب عن الهجاء اضرباً كاملاً ، وإنما جاء بأشواغ منه لاقتل إيلاماً عن الهجاء الذي عرفناه لدى شعراء النفاض مثلاً .

والذي يجعلنا نؤدد بيقيناً بوجود بعض الأسباب والدوافع الحقيقية لذلك ، هو أن العجاج لم يكن بعيداً عن مرئيد البصرة ، وإنما كان ينشد في بعض الأراجيز ، وربما تبارى مع غيره من الرّجّاز أمثال أبي النّجم العجلي ، وفي الأغاني أن العجاج « وقف بالمربد والناس مجتمعون ، فأنشدهم قوله :

قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الْإِلَهُ فَجَبَرَ

فذكر فيهما ربيعة وهجاء . فجاء رجل من بكر بن وائل إلى أبي النّجم ، وهو في بيته ، فقال له : أنت جالس ، وهذا العجاج يجوف بالمربد قد اجتمع عليه الناس ! .. فانطلق حتى أتى المربد .. ، وأنشد :

تَذَكَّرَ الْقَلْبُ وَجَهْلًا مَا ذَكَرُ

.. حتى إذا بلغ إلى قوله :

تَشِيطَانُهُ أَشَى وَشِيطَانِي ذَكَرُ

تعلّق الناس هذا البيت ، وهرب العجاج عنه ^(١) .

(١) الأغاني ١٥٢/١٠ - ١٥٣ (دار الكتب) . وانظر الشعر والشعراء ص ٥٨٤ - ٥٨٥ .

- ٢٨٠ -

ونقل ابن قتيبة في ترجمة أبي نخيلة الرّجّاز أنه : « كان يهاجي العجاج ، فلما تنافرا في شعرهما حضرهما الصبيان ، فذهب انسان يطردهم ، فقال العجاج : دعم فأنهم يُعَلِّبُونَ وَيُكَلِّبُونَ ^(١) » .

وكان العجاج إلى ذلك يحضر مجالس الهجاء بين الشعراء والرّجّاز ، إذ نقل الأصفهاني عن النابغة الجعدي أنه : « هاجى أوس بن مغيرة بحضرة الأعطل ، والعجاج ، وكعب بن جعيل ، فغلبه أوس ، وكان مُعَلِّباً ^(٢) » .

فالعجاج كان يحضر بعض مجالس الهجاء في المربد ، وكان يهاجي بعض الرّجّاز ، ولم يضرب اضرباً كاملاً - كما قلنا - عن الهجاء عامة ، ولم يكن طبعه بنأى به عن الهجاء جمّة ، وإنما كانت هناك أسباب تدفعه إلى عدم الاخذ بسبل ذلك الهجاء الذي عرف لعصره ، وفيه شُمُوزُ الأعراض ، وتنفذ المحسنات ، ويسوده الكذب والاختلاق ، وهذه الأسباب لا تخرج عن أمرين : الأول هو أخلاق العجاج وما عُرِف به من ورع وتقوى ، والثاني أن الرّجّز قد ينهض للهاجي مع رجز يائله أحياناً ، ولكنه لا يقوى على مصارعة القصيد في هذا الميدان .

أما أخلاق العجاج ، فانه هو نفسه قد أشار إلى أنها تحول بينه وبين شتم الناس ، أو التعرّض لإنسان شتمه أو نال منه بهجاء أو تعريض ، فالأرجوزة (٢١) كان الهجاء هو الغرض الرئيسي منها ، ومع ذلك فالعجاج قد تناول هذا الغرض بأسلوب طريف جداً ، إذ جاء بمقدمة غزلية تحدّث فيها عن خيال « تُكَنِّسُ » وخيال « تُكَنِّمَ » ، ثم لم يلبث أن تذكر

(١) الشعر والشعراء ص ٥٨٣ .

(٢) الأغاني ٨/٥ (دار الكتب) ، وانظر تفصيل ذلك في الأغاني ١٢/٥ (دار الكتب) .

« ليلي » وتحدثت عن بعض أوصافها ، ثم انتقلت الى الحديث عن أخلاقه وما آمن الله عليه من النعم ، فقال (١) :

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ أَنْعَمَنَا عَلَى أَبِي السَّعْدَانِ نَعْمَى ثُمَّ مَا
بَدَّلَهَا إِلَّا بِأَحْسَنِ كَيْفًا أُمُّ سَعْدٍ عَلَى مَنْ أَسْلَمَنَا
لَا أَشْتَمُ الْعَمْرَةَ الْكَرِيمَ الْمُسْلِمَا وَلَا أَرَى سِتْمَ الْبَرِيِّ مَغْتَنَسَا
وَلَا ابْنَ عَمِّي أَنْ أَرَاهُ مُفْتَحَسَا

وما زال يعدد من مكارم أخلاقه ، حتى بلغ غايته من الأرجوزة ، وهي الرد على توعده أحدهم ، أو قل على هجاء بعضهم لإنه (٢) :

وَقَدْ أَتَانِي أَنْ عَيْدًا أَكْشَمَنَا فِي عَدَدٍ يَحْسُرُ وَخَطْمُ أَكْزَمَنَا
يُرْعِدُنِي وَلَوْ رَأَى طَرْسَنَا وَتَدَّ لَحْيَتَهُ لِبَاسًا مُلَجَّجَنَا
تَضَرَّعَ الْقَعُودَ لَأَقْبَى الْمُقَرَّمَا تَوَى الْجِلَالَ تَحْتَهُ إِذَا تَمَنَا
مُخْتَضِعَاتٍ تَحْتَ جَسَدٍ أَحْوَمَا يَخْفَى مِنْهُ نَهْكَ وَأَضْمَنَا
وَحَدَّ نَابٍ لَمْ يَكُنْ مُخْبِتَنَا إِنَّ شُتَّ أَنْ تَعْلَمَ أَوْ تَعْلَمَنَا
أَيُّ الْحَصَانَيْنِ يَكُونُ الْأَيْهَمَا فَوَاعِدَ النَّاسِ أَمَارًا مَعْلَمَنَا
حَيْثُ يَبْنُو السَّابِقَ الْمَزَلَمَا وَيُنْبِجُ الْكَلْبُوبَ عَيْبًا مُسَلَمَنَا

وهذه الأبيات لا أثر فيها للشتم أو الهجاء المقذع ، فهو لا يعدو أن يصف خصمه بالعبد حقيراً له ، وبالأجدع أنفه ، والعبد البهيم ، ثم يتعالى عليه ، وإذا به لو رأى العجاج سكت وأطرق كأنه بلهيم قد سُدَّ فمه ، فهو ضارع له ، متذلل إليه ، تضرع القعود (٣) من الإبل ، للفعل

(١) الأرجوزة ١٧/٢١ - ٢٣ .

(٢) الأرجوزة ٢٩/٢١ - ٤٢ .

(٣) وهو الذي يمتنع ويركب .

قوي تخافه سائر الإبل وتخضع له ..

فالعجاج يقف عند هذه المعاني ، ولا يتجاوزها إلى الشتم وقذف الحصنات ، ولم يقدم بالأبيات التي تحدثت عن أخلاقه وإيمانه وخوفه من الله تعالى ، إلا ليقول إنني لتلك الأسباب لا أشتم الناس ، ولا أرى مغنا في التعرض إليهم ، فإن كان قد توعدني ذلك العبد الأكثم ، فحسبه أنني منه بمنزلة الفضل القوي من القعود المذلل .

وبذلك نجد العجاج قد التزم الجانب الخفي في رده وهجائه ، وكاد يخرج بالهجاء إلى موضوع الفض بنفسه ، لما في ذلك من انتقاص للخصم ، ووضع له في مكانة دون مكانة العجاج ومزله .

وهذا الجانب الأخلاقي نلاحظه بجلاء في هجاء العجاج ، حين يتحرّج في عبارته ، ويقدم العاذر قبل أن يشرع في حديثه عن الإيقاع بإحدى القبائل من وائل بن ربيعة ، فهو يقول قولاً لا لئيم فيه ، وقومه وعظما وائلا قبل الإيقاع بها ، وذلك اتقاء للائم ، وحذرا من الفضلاء ، ولكن وائلا أبت إلا أن تحرق آيابه الشر ، فكان لابد من حربها والقضاء عليها (١) :

بَلْ قُلْتُ بَعْضَ الْقَوْلِ غَيْرَ مُؤَثِّرٍ لِيَقْدَرْنَ خَابِرٌ إِلَى عَمِرٍ
يَمُنُّ عِلْمَانَهُ وَمَنْ لَمْ تَعْلَمْ مَسَاكِنَ الْبَنْدِ وَأَرْضَ الدَّيْلَمِ
يَحْضَرُ مَوْتَ أَوْ بِلَادِ الْأَعْجَمِ يَوْمَ رَدَيْنَا وَإِلَّا بِالصَّيْلَمِ
وَقَدْ وَعظْنَاها انْقَاءَ الْمَأْفَمِ وَحَذَرَ الْفِتْنَانِ مَا لَمْ تَطْلَمِ
تَقَرُّبًا وَالْأُمُورَ مُسَا يَفْقَمِ فَيَعْلَمُوا الْغَايَةَ حَرَقِ السَّارِمِ
وَاحْتَلَبُوا الْعَرَبَ وَلَمَّا تَصْرَمِ ثَوْرِي لَنَهُمْ كَيْلُ الْإِلَهِ الْأَعْظَمِ

(١) الأرجوزة ١١٣/٢٤ - ١٢٤ .

فاذا كانت الواقعة بين الفريقين ، كاد العجاج يقترب مما عُرِفَ بالمصقات في الأدب العربي اذ يجعل الحرب تدور بالموت من سيف كلا الفريقين ، ولا تولي قيلة وائل إلا بعد أن يدورح الناس سرايل من الدعاء^(١) :

دارت رحانا وترحام تترتبي بالموت من حدة الصفيح الأخضر
حتى إذا مافرو كل ملتحم وادورح الناس سرايل الدم
على الشهور كترشاش العندم ولوأ ومن يطلب بحررب يندم
كأنهم من فاضل مبرج أراح بعبد الغم والتغصم
مخشب تقاها دلف بحر مفعم

وبهذه المعاني كان يتجه دائماً إلى النيل من خصومه ، فهو لا يشتمهم ، وإنما يصور ما أصابهم من بلاء الحرب ، ومثله المزية ، ولا ينسى دائماً أن يردد أنهم هم الذين أرادوا ذلك ، وهم الذين أعدوا للحرب ، فكانت عليهم خزيًا وبلاء وشرف هزيمة ، وكثيراً ما يؤول به هذا التعريض أو الهجاء إلى الفخر بقوة تم وشجاعتها وجراتها وضربها من يناولها من القبائل الأخرى . إلا أنه يحرص دائماً على الجانب الأخلاقي في تقديم المعاذير ، والادعاء أن هذه القبائل هي التي توعدت ، ولا ذنب لتميم في اعداد الحرب لأنها قد فُرضت عليها فرضاً ، وما كان لها إلا أن تحارب وتنتصر .

ويبدو هذا الجانب الأخلاقي في خبر أورده الأصمغاني بسنده عن أبي عبيدة عن رؤية قال : « لما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة ، بعث في الحجاج مع أبي لثقاء .. فكان أول من أذن له من الشعراء أبي نمر ، فأقبل الوليد على جرير ، فقال : وبلك ألا تكون مثل هذا ، عقيد الشفاء عن

(١) الأرجوزة ١٣٠/٢٤ - ١٣٨ .

أعراض الناس ؟ ! فقال : لني أظلم ! فقال : اصبر . ثم لقينا بعد ذلك جرير ، فقال : يا بني أم العجاج ، والله لئن وضعت كل كلي عليك ما أغنت عنك مقطعاتك . فقلنا : لا والله ما بلغه عنا شيء ، ولكنه حسينا لما أذن لنا قبله واستشفنا قبله^(١) .

فالوليد بن عبد الملك يدرك أن العجاج قد كان أخلاقياً في رده على مناوئيه إذا أراد الهجاء ، حتى إنه عقد الشفاء عن أعراض الناس ، فلا شتم لديه ولا قذف ولا اتهام .

وهذا الجانب الأخلاقي هو الذي يفسر خوف العجاج على نفسه أن يهين بأبيات فاحشة يصيبها عليه شاعر هجاء أمثال معاصره جرير ، ولذلك كان يبتعد عن درج هذا الهجاء الخفيف ، فقد نقل صاحب الأغاني بسنده عن رجل يدعى روح الكلي ، قال : « كنت عند عبد الملك بن بشر بن مروان ، فدخل جرير ، فلما رأى العجاج أقبل عليه ثم قال له : والله لئن سهرت لك الليلة لتلقن عنك مقطعاتك هذه ! قال العجاج : يا أبا حوزة ، والله ما فعلت ما بلغك ، وجعل يعتذر إليه ويحلف ويخضع . فلما خرج قال رجل : لشد ما اعتذرت لجرير . قال : والله لو علمت أنه لا ينفعني إلا السلاح لسلحت^(٢) . »

ونقل جبير خيراً فيه أن جريراً : « قال العجاج وهو عند المهاجر باليامة ، وهو يخاصم الدهناء امرأته ، فاستنشد المهاجر العجاج قوله^(٣) :

تلف لولا أن يحش الطشح

(١) الأغاني ١٢٣/١٨ ، ٥٩/٢١ ، وتاريخ ابن عسك ٣٩٥/٧ .

(٢) الأغاني ١٢٤/١٨ ، ٦٠/٢١ .

(٣) الأرجوزة ١/٤٠ .

فلما بلغ إلى قوله :

ولو رأيته الشعراء دنتخوا

أي ذلوا ، وثب جرير ، فقال :

يا رب كَسَيْبٍ ماعِلنا تَمْبَحُ قد غَلَبَتْكَ فَبَلَتْ تَضْمَحُ
لَمَّا أَنتَ يا أُمَيْرُ تَضْرَحُ يَأْسَتْ حَبَارَى طَلَعَتْها الأَفْرَحُ

فاستعاذ العجاج بالمهاجر فكفته عنه (١) .

وما خوف العجاج هذا إلا لأن أخلاقه ما كانت لتأذن له بسماع الفاحش في أهل بيته ، وما كانت لتلقي على لسانه أمثال فواحش جرير ، التي كان يصها صبا على أقرانه من المناوئين .

وما عُرف عن العجاج من التخلي عن الهجاء المفحش ، عُرف أيضاً عن عبدة بن الطيب ، إذ نقل صاحب الأغاني بسنده عن أبي عبيدة عن يونس قال : « قال رجل لخالد بن صفوان : كان عبدة بن الطيب لا يجسن أن يجر . فقال : لا تقل ذلك ، فوالله ما أبى عن عي ، ولكنه كان يترفع عن الهجاء ، ويراه ضعة ، كما يرى تركه مروءة وشرفاً (٢) » .

وبذلك كان الجانب الأخلاقي من الأسباب البارزة في عزوف العجاج

(١) مشارف الأفارين ١٨٧ ، والأبيات الثلاثة الأولى من أبيات جرير في جمهرة اللغة ٢٨٧/١ ، ونص أنها لجرير . والأول والثاني من هذه الأبيات في اللسان (كسب) وأشار إلى أنها لجرير ، ورواها « كعب تَضْمَحُ » ، نسّم علّق عليها بقوله : « يعني بالكعب ليلى الأخيلية ، لأنها هاجت العجاج فغلبته » . وهذا غريب جداً لأننا لم نقف في أي من المصادر على ما يشير إلى مهاجمة بين العجاج وليلى الأخيلية ، وليس من الصحيح أبداً أن تكون هذه الأبيات في ليلى الأخيلية ، لأنها تذكرحادثة طلاق الدهناء بنت مسجل عند المهاجر والي اليمامة . وكسبيب : جد العجاج من قبل أمه .

(٢) الأغاني ١٦٣/١٨ .

عن الهجاء الذي عُرف لأكثر شعراء عصره . وفيه سبب آخر لا يقل خطورة وأهمية ، هو أن الرجز لا يقرى على منازلة القصيد في موضوع الهجاء ، ذلك لأن الغلبة في هذا الفن لا تكون إلا للأبيات التي لها سيرونة على ألسنة الناس ، وبقاء في ذاكرتهم ، وهذا لا يتنبأ إلا للأبيات التي تمتاز بسهولة في منبها ، ولطف مأخذ في معناها ، كالأبيات التي تُروى ويقال إنها أهجى أبيات قالها العرب ، وهذه السهولة تنافي ما أرادته العجاج لدرسة الرجز من أن تكون أغرابية البنية في ألفاظها ومعانيها ، حتى تنقل نسام الصحراء إلى أجواء الحضارة الجديدة ، فكان الغريب يتقل من أرياتها على اللسان والذاكرة معاً ، ولهذا كان الإغراب في الرجز يحد من قدرته على الهجوم في لعبة الهجاء ، سواء في جذها أو في هزلها .

وقد لاحظ الحصري شيئاً من هذا حين عرض ل رأي العجاج في تحليله عن الهجاء ، ثم قال : « وليس كما قال العجاج ، بل لكثير من الشعراء طبع قنبو عن الهجاء كالطائي وأضرابه ، وأصحاب الطبع أقدر عليه من أصحاب المصنوع ، إذ كان الهجاء كالأندرة ، التي إذا حدثت على سجيّة قائلها ، وقربت من يد متناولها ، وكان واسع العَطَن (١) ، كثير الفطن ، قريت القلب من اللسان ، والتهبت بنار الاحسان (٢) » .

فالحصري يؤكد أن الهجاء أشبه بالندرة ، التي تأتي على سجيّة قائلها دون تكلف أو تعمل ، ومعنى هذا أن الهجاء الجيد لا يخلو من سهولة وطرافة ، تعمل الذاكرة على التعلق به ، ودوايته بكثرة ، ومتى تم ذلك كان لا بد أن يحقّق الغلبة لصاحبه ، وهذا يمكن أن يتحقق للقصيد بوجه عام ، ولكن

(١) العطن : موطن الإبل وميركها حول الحوض .

(٢) زهر الآداب ٥٣/٣ .

من الصعب أن يتحقق الرجز في مدرسة العجاج ، ومن ثم كان القصيد أطوع للهجاء من الرجز في هذه المدرسة ، وأدعى إلى سيورة أبياته دون الرجز ، ولا سيما أن بيت الرجز قصير لا يستوعب من المعاني ما يتسع له بيت القصيد .

وتقصير الرجز عن القصيد في الهجاء يمكن أن نذكره في خير نقله ابن سلام بسنده عن المهاجاة بين ذي الرمة وهشام التمرّني جاء فيه : « .. وكان ذو الرمة مستعلياً هشاماً ، حتى لقي جرير هشاماً ، فقال : غلبك العبد ، يعني ذا الرمة . قال : فما أصنع يا أبا حذرة ، وأنا راجز وهو يقصد ، والرجز لا يقرم للقصيد في الهجاء ؟ ! فلو رفدتني ! »^(١) ، ثم يعطيه جرير أبياتاً من الشعر لأمير الرجز ، جعلت هشاماً يغلب على ذي الرمة .

وفي أبيات جرير أكثر من وسيلة لما فيها إلى الإيجاز على ذي الرمة ، وأهم ما فيها هو ذلك العلم الواسع بأنساب القبائل ومفاخرها وأبائها ، ثم اخراج تلك المعاني بأسلوب طريف سهل يمكن أن يضحك من جانب ، ويمكن أن يُحمل على كلّ لسان من جانب آخر ، إلا أن الذي يتوقفنا أيضاً هو أن ذا الرمة كان يصوغ الهجاء بأبيات من القصيد مع أن في وسعه أن يرجز لو أراد الرجز ، ثم ما ردت به هشام المروفي على جرير من أن الرجز لا يقوم للقصيد في الهجاء ، ذلك لأنه كان يدرك أن الرجز ليس في مقدوره أن يحمل المعاني على جناح من السهولة والطرافة واليسر ، على نحو ما يستطيع القصيد أن يحقق ذلك .

فهذه هي الأسباب الرئيسية لعدم اتخاذ العجاج من الهجاء موضوعاً رئيساً في رجزه ، ومن الصواب أن يُنظر إليها بعناية قبل أن يقال إن

(١) طبقات ابن سلام (٤٧) - ٤٧٥ .

المسألة ترد إلى اختلاف طباع الشعراء ، بل إننا لانفهم طبع العجاج مثلاً إلا من خلال تفاعل هذه الأسباب المختلفة في نفسه ، ثم إملأنا عليه أنجاء معيّن في رجزه ، إذ ليس الطبع في نظرنا إلا نتيجة حتمية لتفاعل القوى النفسية والعقلية والأخلاقية لدى الشاعر مع ما يقابلها من قيم واتجاهات مختلفة في بيئته وعصره ، فهذا التفاعل هو الذي يمل عليه قصداً أو عن غير قصد مانسبه « بالطبع » ، ولا شك أننا قد رجعنا إلى أهم المؤثرات التي تفاعلت فادت إلى مآجاء النقاد القدماء باسم « الطبع » .

على أن بعض قدامى النقاد كان يرى أن الشاعر لا يُحكم له بالتقدم إلا إذا تصرف في موضوعات الشعر كلها ، ومن ذلك ما قاله ابن رشي : « يجب للشاعر أن يكون متصرفاً في أنواع الشعر ، من جدّ وهزل ، وحلو وجزل ، وأن لا يكون في النسيب أبرع منه في الرثاء ، ولا في المديح أنفذ منه في الهجاء ، ولا في الافتخار أبلغ منه في الاعتذار ، ولا في الواحد بما ذكرت أبعد منه صوتاً في سائرهما ، فانه متى كان كذلك حكم له بالتقدم ، وحاز قصب السبق ، كما حازها بشار بن برد ، وأبو نواس بعده »^(٢) .

ومثل هذا الحكم لا ينطبق إلا على فئة يسيرة من شعراء الأدب العربي ، ولا سيما العصر الأموي ، إذ وجد في هذا العصر ما يشبه التخصص بين بعض الشعراء في موضوعات الشعر المختلفة^(٣) ، ولا نراه من الأحكام التقديرية التي ينبغي أن نقاضي بها كل الشعراء ، ذلك لأن الشاعر إن تصرف فيها جميعاً ، فلا شك أنه « حاز قصب السبق » ، وإن لم يتصرف فيها جميعاً ، فليس لنا أن نقول : « يجب عليه أن يكون متصرفاً في أنواع الشعر » فعبارة « يجب .. » ليس لها مكان رحب في النقد أو الأدب ، بعد ما رأيناه في

(١) العمدة ٨٣/٢ ، وانظر جبهة أشعار العرب ٧٦ - ٧٧ .

(٢) ارجع إلى الدكتور شوقي ضيف في التطور والتجديد ٥٧ وما بعدها .

التمهيد لهذا البحث من اختلاف في البيئات والظروف ، وتباين في معاش الناس وأحوالهم ، وانكاس لما يحدث من صراع سياسي أو عقلي أو نفسي أحياناً .

ومع ذلك فالعجاج قد تصرف في الهجاء على نحو يتفق مع طبعه وأخلاقه ، وإذا كان قد ابتعد بنفسه عن مهاترات عصره ، بما فيها من جد وهزل ، فقد حقق لابن رشيق ما رواه عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : « خير الهجاء ما تنشده العذراء في خلدها فلا يفتح بثلاثها »^(١) .

ذلك لأن العجاج قد وجد سبيلاً إلى الهجاء الصريح ، في مدائحه لابن الزبير والأمويين ، إذ كان يجد في ثورة بعض الأحزاب أو القبائل ، ما يور هجاءها ، ولا سيما أن ثورتها في نظره ، ما كانت إلا تزييفاً لدين الله ، وخروجاً على حماته . وهذا ما يأتين له هجائنا ، ليقيم مفارقات فنية رائعة بين معاني المديح لقوم ، ومعاني الهجاء لقوم آخرين ، ولا سيما أنه يتناول في هجائه المعاني السياسية والدينية معاً .

فإذا مدح ابن معمر لتغلبه على الحروب ، وقتله أبا فديك الخارجي ، كان لابد للعجاج أن يوجه سهام هجائه إلى الحروب لصورها خارجة على الدين ، مذمبة للفق ، كافرة كأنها هي تسعى في ليل مظلم أي ظلام^(٢) . فقد علا الماء الزمبي فلا غير واختار في الدين العروري البطر وأنزف الحق وأودى بمن كثر كانوا كما أظلم ليل فاستقر عن مدائح قاضي الدؤوب والسهر

وما زالت الحروب تكذب وتقلب من أمور الدين ، وتسير في أمر

يؤوي بها نحو الهلاك ، حتى تكشف الصبح لناظرها عن جيش ابن معمر^(٣) . في بئر لا حور سرى وما شعر . يافكيه حتى رأى الصبح جسر

عن ذي قداميس السهام لو دسر
وهؤلاء الخوارج قد بالغوا في أمرهم حتى تمرقوا من الدين ، وخالفوا الناس في ابتدعه ، وما زال أمرهم يتسع بهم بقياً ولحاداً ، حتى انتشر عليهم فأهلكهم^(٤) .

بمعمر بن معمر لا ممتظر بعد الذي عدا القوم فجزر
من أمر قوتهم خالفوا هذا البسر واستغروا في دينهم حتى استغروا
فاذا ما وثق الله ابن معمر إلى القضاء على أبي فديك وعصبته من الخوارج ، وقف العجاج جزاً بريعة ، ويسخر منها ، فهي ليست للحرب أهلاً ، ولها أن تقبل على رغبة الإبل ، وتبكي ملكاً قد انقطع من أصله ، ولم تعد منه رجاء ترجى ، بعد أن غدا شقاقهم أشبه بحداية أختت في وجهه ، فامطرت قليلاً ثم ذهبت^(٥) .

عشي زبيح واضرري فيمن قصرت وابكي على ملكك إذ أمتى انتعرت
وانقطعت منه الرجاء وانبتت واشتقت شوب الشقاق واستغرت
وأزلفت له الحة الغيت سحر

فهو لا يهجو الخوارج إلا بالمعاني الدينية والسياسية ، فإذا وقف من ربيعة ، وبينها وبين الحزب المخري خصومة أصلاً ، لم يجد إلا تكماً وسخرية يصبا عليها صياً ، وكذلك الأمر في تعريضه بالغالية من أصحاب المختار بن

(١) الأرجوزة ١/٤٠ - ٤٢ .

(٢) الأرجوزة ١/١٢٠ - ١٣٣ .

(٣) الأرجوزة ١/١٥٩ - ١٦٢ .

(١) المعجزة ٢/١٣٨ .

(٢) الأرجوزة ١/٢٣٧ - ٢٣٧ .

أبي عبد الله النقي ، فهو ينعتهم بالخشية ، ولعلمهم كانوا يُعرفون بذلك ، ولا يبعد أن يكون لهذه التسمية وقع ساخر بين عامة الناس آنئذ ، ثم ينعت المختار بأنه مُمَكِّدٌ فبا يدعيه ، سيئي من الغلاة ، ومُنْذِرٌ بقبل الرشوة . والمختار كان والياً لأبن الزبير ، ثم آمن بآراء الغالية ^(١) ، وخرج بهم محاول ملكاً عن طريقهم ^(٢) :

لقد وجدتم مضعاً مستضعباً حين رمى الأحزاب والمُعزُّباً
وتحسب الأعجم والمُعجَّباً والذئب ذا البنيان والمُدْرِباً
وابن أبي عبيد المكنَّباً والسبي والمراثي المذنباً
بياحيبي سبعين ألفاً مُعزَّباً

والمختار حين جد الأمر قد علم من الذي ماج كما يوج الصبان ، ورضي بالصغار والمذلة ، وكان قد حسب أن الله تعالى تاركه بغير عقوبة ، وأنى له بذلك ^(٣) :

قد علم المختار إذ جد الجبا وبلغ الماء حلاقيم الزمبي
من الذي عتيق تغنيق الصببا ويرمى الحسف الذي كان آتبي
إذ لم يزل يطاوع المستضعباً إذ حبيب الرحمن عنه مضرباً
كهانة وقد رأى مريباً

وهذا لم يفرق المعاني الدينية والسياسية في هجاء المختار وصحه ، إلا إلى شيء ما أصابه من خزي الهزيمة ، ومذلة الانكسار ، ولكن العجاج لا يعود بشيء آخر من المعاني المفضة التي كانت شائعة لعصره .

(١) الكامل للبرد ١٦٤/٢ - ١٦٥ .

(٢) الأرجوزة ١/٧ - ٧ .

(٣) الأرجوزة ٣٦/٧ - ٤٢ .

ولذا كان العجاج في هيجانه قد عزف عن فاحش القول ، فقد استعاض عن ذلك بما هو أطرف فثاً ، وأكثر إزداءً ، وأشد إيلاماً ، ذلك هو التهكم والسخرية ، ولهذا طرائق عند العجاج ، لا نظير لها إلا في أشعار الخطيئة وابن الرومي ودعبل الخزاعي ومن إليهم من هذه الطبقة التي جعلت من الهجاء فثاً يعتمد على الاضحاك والتهكم والسخرية .

ففي أرجوزة ابن معمر رأينا هجو الحروية ، وهجراً بريعة ، ثم لا يلبث أن يعود إليهم مرة أخرى بشيء من التهكم الموجه والسخرية اللاذعة ، فقد جاءوا مجاريون ، وفي ظنهم أن الحرب والغلبة هي مجرد ركض الخيل بين الحضرمات وهجر ، وهي مواضع باليامة ، ثم يعطيهم صورة أخرى تبث على الاضحاك والسخرية ، إذ جعلهم يأتون وقد علقوا طعاهم بكلايب ، فهم لاندي يحملونها على أكتافهم ، أم يعلقونها بالأقناب أو السروج ، فهم حريصون عليها ، مع أن الحرب تدعو إلى إبراز الأسنة والسيوف ، لا إلى إبراز ما أعدوه من طعام ^(١) :

لذ تحسبوا أن الجهاد والظفر
لمضاع بين الحضرمات وهجر
معلقين في الكلايب السفر

وزاد هذا التصوير المضحك ، حين جعلهم يحاولون النجاة وراء الحصون ، ولكن وراء أي حصون تحصنوا ، إنها مجرد خندق ، وحائط من الطرفاء ، ودخان من الحز ، وهي حصون تبث على السخرية والفضك ، ولكنه زادهم سخرية حين التفت بنا إلى جيش ابن معمر ، ولذا موج من الخيل يحار النظر إليه ، فإذا ماجت كتابه كان للبصر أن يوج لما فيها من عدد وكثرة ^(٢) :

(١) الأرجوزة ١٧٢/١ - ١٧٤ .

(٢) الأرجوزة ١٧٦/١ - ١٨٠ .

لَا تَحْسَبَنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ مِنَ الْقُرَىٰ وَتَرُفُهُمْ الْمُحَرَّمِينَ فِيهِمَا تَعْتَصِرُ
وَحَاطِطَ الْأَطْرَافِ مِثْلُ مَنْ يَنْظُرُ أَذَىٰ أَوْ رَادٍ يُخَفِّقَنَّ - النَّظَرُ
شَبَّهَ إِذَا مَا مَجَنَّ مَوْجِبَ الْبَصَرِ

فهو ساخر بارع إذا أراد النيل من الحوذية ، وهذه السخرية قد بلغت
غايها في هجائه لأصحاب ابن الأشعث حين أوقع الحجاج بهم . فالإبل من
عادتها إن أكلت الخلة أن تشبه الخلف ، وهذه الصورة البدوية أمكن
لحال العجاج أن ينقلها بسخرية لاذعة إلى أصحاب ابن الأشعث ، فهم قد
نقضوا العهد ، ونجموا للحرب ، واشتهوا القتال ، فكانوا كإبل أكلت خلة
ثم اشبهت أن تجد حمضا ، فجاءوا الحجاج ، يظنون به ذلك الخلف المرجى (١) :
وَرَهَبُوا النَّفْثَ فَلَا قُوَّةَ تَقْضَىٰ فَجَمَعُوا مِنْهُمْ قَضِيضًا قَضَا
جَاهُوا مُخْلِينَ فَلَا قُوَّةَ حَمْنًا

فإذا وجدوا لدى الحجاج ، أكان حمضا يشفي ما بهم من خلة ، لهم
وجدوا الحجاج يأبى أن يكسر ، وهو ثبت في الحرب ، لا يزل له قدم إذا
كان المقام زلقا ، وكثيرا ما هزم قبلهم من جيوش ، وهو الآن يكرم
وفادتهم ، ويسمى صوبحا لا كأى صوبح عرفوه ، إنه صوبح لاذع ،
يشربونه بالسيف والرماح لا بالكؤوس والقباب (٢) :

فَوَجَدُوا الْحِجَاجَ يَأْبَى الْهَضْمَ لَا فَايَا وَلَا حَدِيثًا غَضًّا
وَمَنْ صَرِيح الْأَكْرَمِينَ مَحَضًّا نَبْتًا إِذَا كَانَ الْمَقَامُ دَحَضًّا
وَلِلْجِيوشِ قَبْلَهُمْ مَهْضًا غَدَاةً يَسْقِيهِمْ تَصْبُوحًا مَضًّا
بِالْمَشْرِقَاتِ وَطَلْعًا وَخَضًّا يَمْضِي إِلَى عَاصِي الْعُرُوقِ السَّحَضَّا

(١) الأرجوزة ٦/٧ - ٩ .

(٢) الأرجوزة ٦/١٨ - ٢٥ .

ثم يشتد عليهم سخرية وتهكما ، حين يجعل ماقدومه من سوء ليس أكثر
من قرض أسفوه الحجاج ، وهو اليوم يجزيهم بدل كل قرض قدومه له ،
بقرض ينجم إياه ، بل ويسلّهم فوق ذلك فيعطهم هبات أخرى لا ترد ،
ولكنه لا يتقدم دراهم أو دنانير في قروضه وهباته ، ولذا يقدم إليهم ضربا
يقطعهم قطعا ، وطلعا يبلغ أجوافهم ، وضربا آخر إذا أصاب رؤوسهم
رض ماعليا من أطباق الخوذ (١) :

يَجْزِيهِمْ بِكُلِّ قَرْضٍ قَرَضَا وَتَارَةً يُسَلِّقُونَ قَرَضَا
حَتَّى تَقْضَى الْقَتْدَرُ الْمُقْضَى ضَرْبًا هَذَا ذِيكَ وَطَلْعًا وَخَضًّا
صَغَعًا إِذَا صَابَ الرُّؤُوسَ رَضَا أَعْلَى الْأَطْرَافَيْنِ وَطَلْعًا يَضًّا

وهذا الأسلوب من السخرية كان شديد الإيلام في هجائه السياسي وغير
السياسي ، والهجاء عنده كان يعتمد على أمرين بارزين : الأول تصوير ما يؤول
إليه الخصم من مذلة وجراح على أيدي قبيلة قيم ، أو على أيدي الخليفة أو
الأمير ، والثاني هو هذا اللون من السخرية اللاذعة والتهكم الموجه ، وبذلك
كان العجاج يتصرف بالهجاء على نحو يرضي طباعه وأخلاقه ، ولم يكن ممن
أضرب عن الهجاء إنشرايا كاملا .

الشعر الديني والحكمة

لأنك أن الشعر الديني قد عرفت له بعض الآثار في عصر ما قبل
الاسلام ، وذلك على يد بعض الشعراء من عُرِفَ بالتحف والتأله في ذلك
الحين ، من أمثال أمية بن أبي الصلت ، وزيد بن عمرو بن ثعل ، وورقة

(١) الأرجوزة ٦/٢٨ - ٣٣ .

ابن نوفل ، حتى قال الأصمعي : « وكل ما قيل في الزهد فقد غلب عليه أمية ابن أبي الصلت (١) » .

إلا أن هذا الموضوع كان محدوداً في الجاهلية ، وأكثر الأشعار التي وصلتنا عن جماعة الخلفاء ، مشكوك في صحتها ، أو منسوبة إطلاقاً ، ومع ذلك فمن المؤكد أن الشعر الديني قد عرفت له بعض الآثار في الشعر الجاهلي ، بتأثير بعض التجمعات الدينية المعروفة آنئذ ، وبدافع من التحنن وطلب الدين لدى عدد من الأفراد الذين عرفوا بالخلفاء أو الأحناف .

فلما كان العصر الأموي بدأ الشعر الديني يتخذ لنفسه طابعاً محدد المعالم ، واضح المثل ، وذلك بتأثير ما شب من صراع حزبي يعتمد على حجج يستمدّها من الدين الحنيف ، وينادي بها خطباء كل حزب وشعراؤه ، وبسبب ما ظهر في هذا العصر من تيارات فكرية وعقائدية مختلفة جعلت تبحث في مسائل القدر والايان وما أشبه ذلك ، وبدافع من قيام جماعة من الصحابة والتابعين يوضحون للناس أمور دينهم ، تفسيراً لكتاب الله ، أو رواية لحديث رسوله صلوات الله عليه ، أو تبيناً لأركان الفقه الإسلامي ، وكانوا جميعاً من الزهاد أو المبالغيين في الزهد ، وهذا كله قد أثر في الشعر الأموي فدخلت المعاني الدينية إلى موضوعاته كلها تقريباً ، وتفرّد موضوع الزهد أو الوعظ عند عدد من الشعراء ، واتخذ لنفسه مكاناً خاصاً إلى جانب الموضوعات الأخرى ، وإن كان ما يزال قاصراً بعض الشيء ، ولا بد له أن يبلغ العصر العباسي ، ليجد ما ينتفع من اتساع وانتشار .

وفي رجز العجاج كان طبعاً أن نجد للوعظ مكاناً خاصاً به ، ذلك لا

(١) تاريخ ابن مسافر ١٢٢/٣ .

عرف عن العجاج من ورع وتدين وإيمان (١) ، وقد مرّ بنا أنه اتصل بأبي هريرة ، وعرض عليه شيئاً من غزله ، يسأله هل يرى فيه حرجاً (٢) ، ثم عرض عليه شيئاً مما قاله في موضوع الوعظ ، فقال أبو هريرة : « أشهد أنك تؤمن بيوم الحساب (٣) » ، وما كان هذا إلا تعلقاً بالدين الحنيف ، وشغفاً بأدابه ، وحرصاً على معتقداته ، وبعداً عما يسيء إليه ، وتقرباً من نواب الله تعالى إيماناً واحتساباً .

وبهذه الآداب الإسلامية كان العجاج أشبه بالواعظ في بعض أراجيزه ، بل كان الشعر الديني يتفرد في عدد من الأراجيز لا ينازعه فيها موضوع آخر ، فإذا ألمّ الداء بالعجاج في ليلة قاسية ، وكاد الموت ينشب أظفاره فيه ، ثم فرّج الله عنه ، وغافاه عما نزل به من بلاد ، كان ذلك سبباً لإبداع أرجوزة رائعة في الوعظ ، قد امتازت بكثير من التنوع والصور (٤) :

الضمّدُ يَهْ الذي استقلّتْ	يا ذنِبَه السَّيِّءُ والطمأنينة
يا ذنِبَه الأرضُ وما تَعَتَّتْ	وتحى لها القرار فاستقرّتْ
وشدّها بالرايساتِ الثَّيْتِ	ربُّ البلادِ والعبادِ القمّتْ
والجائعِ الغنيتِ ثباتِ السَّيْتِ	والجامعِ الناسِ ليومِ المَرَقَتِ
بعدَ اللَّيْلِ وهو يَحْيِي المَوْتِ	يومَ تَرَى النَّفْسُ ما أَعَدَّتْ
من نَزُولِ : إذا الأمورُ غَبَّتْ	من سَعْيِ دُنْيَا طال ما قَدَّمَدَّتْ
حتى انتَقَى فضاؤها فَسَادَتْ	إلى الإلهِ خَلَقَتْ إذ طَلَمَتْ

(١) ارجع إلى بحثنا عن عقيدة العجاج وشخصيته .
(٢) انظر شرح الأصمعي للأرجوزة ١٦/٢١ ، وانظر العقد الفريد ٦٣٩/٦ ، واللسان (بخشد) و (درد) .
(٣) الأغاني ٥٨/٢١ ، والخزانة ٥٠٩/٣ (بولاق) .
(٤) الأرجوزة ١/٢٢ - ١٨ .

غَايِبَةُ النَّاسِ الَّتِي تَغْشَى يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ قَدْ حُقِّقَتْ .
 إِذَا رَأَى مَنْ السَّمَاءِ انْقَدَّتْ . تَوَحَّى إِلَهُهُ وَالْبِلَادَ رُجَّتْ .
 وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ تَسْتَمِدُّ كَثِيرًا مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَأَسْلُوبِهِ ،
 وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْعِجَاجَ قَدْ بَدَأَ بِلَفْظِ الْأَنْظَالِ إِلَى الطَّبِيعَةِ مِنْ سَمَاءٍ وَأَرْضٍ
 وَجِبَالٍ وَجَدْبٍ وَأَمْطَارٍ ، وَرَدَّ ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا مِنْ
 أَصَالِبِ الْقُرْآنِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ انْجَبَ إِلَى فِكْرَةِ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ ، فَالنَّاسُ
 يُعْنُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ، وَيَجْتَمِعُونَ يَوْمَ الْحِسَابِ ، وَهَنَّاكَ يَوْمَ جَزَاءِ مَا قَدَّمْتَهُ
 فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، وَلَا تَكْفِي هَذِهِ الصُّورُ عِنْدَ الْعِجَاجِ لِتُمْنِيلِ مَشَاعِرِ
 النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ ، وَلِذَا يُبَيِّرُ جَانِبًا نَفْسِيًّا وَفِكْرِيًّا آخَرَ ، حِينَ
 يَرَى أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مِمَّا طَالَتْ ، فَهَيَّأَتْهَا إِلَى الْمَوْتِ لَا مَحَالَةَ ، وَمِنْ ثَمَّ إِلَى
 يَوْمِ الْحِسَابِ ، فَيُورِى الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ أَنَّهُ حَقِيقَةُ لَامِرَاءَ فِيهَا وَلَا شَكَّ ، وَلَا سِيَّ
 حِينَ يَقَعُ الْبَصَرُ مِنْهُ عَلَى مَعْنَى السَّيِّئَةِ وَقَدْ تَشَقَّقَ ، وَعَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَقَدْ
 رُجَّتْ رُجْجًا . لَهَا صُورٌ مُتَنَوِّعَةٌ ، وَلَكِنَّهَا تَسْتَمِدُّ وَجُودَهَا مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ
 وَأَسَالِيبِهِ .

وإذا بلغ العجاج ذروة التأثير في النفس والفكر معاً ، عرض ما أصابه
 من بلاء في تلك الليلة القاسية ، فانه تعالى قد أنعم على المسلمين أجمع ، ولم
 يغب سبحانه عن العجاج في ليله وقد اشتدت عليه بذلك الداء ، ولولاه
 تعالى لضررت به وأهلكته ، فقد بات لما يقظان وهي جالسة عليه شديدة
 صعبة ، وإذا ما أرحمت وتناقلت ظن أنها قد كرت عليه من طولها ،
 وما كرت ولكنه كان مريضاً ^(١) :

(١) الأرجوزة ١٩/٢٢ - ٢٢

وَهُوَ الَّذِي أَنْعَمَ نِعْمَةً عَمَّتْ عَلَى الَّذِينَ أَسْلَمُوا وَسَمَتْ
 فَلَمْ يَغِيبْ عَنْ لَيْلِي وَلَيْلِي وَالْبَلَدِ الْآخَرِ الَّتِي اسْمُهُتْ
 وَلَيْلِي مِنَ اللَّيَالِي مَرَّتْ بِكَابِلِي كَابِدْتُنْهَا وَجَرَّتْ
 كُنْكَلَهَا لَوْلَا الْإِلَهُ ضَرَّتْ فِي ظَلَمِي أَوَّلْتُهَا فَرَلْتُ
 عَنِّي وَلَوْلَا اللَّهُ مَا قَجَلْتُ رَيْتُ لَهَا بَقْظَانَ تَوَافَسَاتُ
 إِذَا رَجَوْتُهُ أَنْ تُضِيءَ اسْوَدَّتْ دُونَ قَدَامِي الصَّبْحُ فَكَانَ جَعَلْتُ
 مِنْهَا تَجَاسَةً إِذَا مَا تَجَجَّتْ حَسِبْتُهَا وَلَمْ تَكُ كَرَّتْ

وَمَا زَالِ يَفْتَنُ يَوْصِفُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْمُتَأَنِّفَةَ الْمُتَطَاوِلَةَ ، حَتَّى عَادَ إِلَى وَصْفِ
 بِلَائِهِ ، ثُمَّ نَجَّاهُ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَجَعَلَ يَرَاوَحُ بَيْنَ هَذَا الْمَعْنَى وَذَلِكَ ،
 وَيَبْتَغِي فِي صُورِهِ ، وَيَلْوُنُ فِي تَنَاوُلِ هَذِهِ الْمَعَالِفِي وَالصُّورِ ، حَتَّى فُورُغَ
 مِنْ أَرْجُوْزَتِهِ وَقَدْ بَلَغَتْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ بَيْتًا ، وَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا الْحَدِيثُ الدِّينِي ،
 وَمَا رَافَقَهُ مِنْ حُكْمٍ ، أَوْ وَصَفَ لِأَهْوَالِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ .

وَفِي أَرْجُوْزَةٍ أُخْرَى خُصَّ بِهَا مَوْضِعُ الشُّعْرِ الدِّينِيِّ ، نَجَّدَ حَدِيثًا صَرَفًا
 عَنْ يَوْمِ الْحِسَابِ وَمَا فِيهِ مِنْ هَوْلٍ وَأَيِّ هَوْلٍ ، وَكُلَّ مَا وَرَدَ فِيهَا مِنْ مَعَانٍ
 كَانَ أَشْبَهَ بِنَقْلِ حَرْفِي أَجَانًا عَنْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ، وَقَدْ تَكَرَّرَتْ فِيهَا
 بَعْضُ الْمَعَالِفِي وَالصُّورِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْأَرْجُوْزَةِ السَّابِقَةِ ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ ^(٢) :

النَّاسُ يَوْمَ تَسْمَى الْغُرُوجَا أَغْظَمَ يَوْمَ رَجْعَةٍ رَجُوجَا
 يَوْمًا تَرَى مُرْضِعَةً تَخْلُوجَا وَكُلَّ أَنْثَى تَحْمِلَتْ حِدُوجَا
 وَكُلَّ صَاحِبٍ تَمِيلَ تَمُرُوجَا

وهذه الآيات تنقل معانيها من قوله تعالى في يوم القيامة : « ذَلِكَ

(١) الأرجوزة ١/٢١ - ٥

يوم الخروج^(١) ، وقوله عز وجل : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا^(٢) » ، وقوله جل وعلا : « يَوْمَ تَرَوْهَا تَدْحَلُ كُلُّ مَرْضَعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ^(٣) » .

وهذا يدل بوضوح على تشبّع العجاج بروح القرآن ومعانيه وأسلوبه ، ولذا كانت معاني الوعظ لديه غالباً ما تنصف بالطابع القرآني الاسلامي بوجه خاص . إلا أنه ربما خرج عن التقيد بإطار الآيات القرآنية إلى الحديث العام عن المعاني الدينية ، وغالباً ما يلجأ إلى أسلوب المناجاة ، فانت يارب ترزق الفقير ، وانت وهبت لي قطعة من الإبل عظيمة ، فيها أدم وبيض ، وهي من خيار الإبل وغزارها ، وليس في عطائك تكدير أو نقص أو قسطع أو تأخير ، كالذي في عطاء الناس للناس^(٤) :

يَارب أَنْتَ تَجْبِرُ الْكَسِيرَ وَتَرْزُقُ الْمُسْتَزِقَ الْفَقِيرَ
أَنْتَ وَهَبْتَ هَبْهَةً مَجْرُجُورًا أَدَمًا وَعَيْسًا مَعْصَا خُبُورًا
لَمْ تُعْطِ فِي عَطَايَا تَكْذِيرًا خَرَابِيَةً وَلَمْ يَكُنْ مَهْجُورًا
وَلَا كِرَاءً يَقْطَعُ الظُّهُورَا

ثم انطلق إلى وصف هذه القطعة العظيمة من الإبل ، وما نظن هذه الأرجوزة إلا خاصة بالشعر الديني ، ثم غلب الوصف على العجاج لتمكته من نفسه في كل أرجوزة من ديوانه .

- (١) سورة ق ٤٢/٥٠ .
(٢) سورة الواقعة ٤/٥٦ .
(٣) سورة الحج ٢/٢٢ .
(٤) الأرجوزة ١/٢٦ - ٧ .

إلا أن الشعر الديني لا يستقل دائماً بأراجيز خاصة به ، ولما قد يرد مع موضوعات أخرى في بعض الأراجيز ، وربما اتخذ لنفسه مكاناً في المقدمات التقليدية المطوّلة إلى جانب الاطلال والغزل ، على نحو ما نراه في الأرجوزة (٢٤) ، فما كاد العجاج يدعو نفسه إلى نسيان ما فات من وصل « ليلى » وأيامها ، حتى مال إلى الشعر الديني ، لما فيه من عزاء وسلوى ، فراح يحمّد الله تعالى ، ويعدد من صفاته ، وإذا بالهفة في أعماق قلبه ، وحسرة في أعماق نفسه ، تقابل إيماناً بجعله متعلقاً دائماً بالله العلي العظيم^(١) :

فَنَاسَ الَّذِي فَاتَ وَلَا تَتَذَكَّرُ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَعْظَمِ
ذِي الْعَبْرَاتِ وَالْجَلَالِ الْأَفْظَمِ وَعَالِمِ الْإِعْلَانِ وَالْمَكْتَمِ
وَرَبِّ كُلِّ كَافِرٍ وَمُسْلِمٍ وَالسَّكِينِ الْأَرْضِ بِأَمْرِ مُحْكَمِ
بَنَى السَّمَوَاتِ بِقَيْظِ مُلْكِهِ وَرَبِّ هَذَا الْبَلَدِ الْمُحَرَّمِ
وَالْقَائِلَاتِ اللَّيْلِ غَيْرَ الرَّبِّ أَوَّلَافاً مَكَّةَ مِنْ وَرَقِ الْحَمِي

ثم ينتهي إلى بعض القصص الديني ، فيشير إلى ما يقال من أن امرأة اسماعيل حين غسلت رأس إبراهيم عليها السلام ، وضع رجله على المقام ، فأثّرت في الحجر الصلب ، والعجاج يرى أن هذا الأثر المحسّن إن هو إلا تذكرة وتذكير لأمر محكم ، وهو الاسلام^(٢) :

وَرَبِّ هَذَا الْأَقْصَرِ الْمُقَسَّمِ مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا يُطْبَسَمِ
بِحَيْثُ أَفْسَى قَدَمًا لَمْ تَذْأَمِ وَهَوَّلَى عَطْفَ الْبِرَاقِ الْمُلْجَمِ
عَلَى عَمْرَأَةِ الْحَجَرِ الْمُتَعَلَّمِ فَهَوَّزَتْ مَتْنُ السَّلَامِ الْمُبْهَمِ
فَغَادَرَتْ مِنْهُ لَيْسَ لَمْ يُخْرَمِ ذِكْرًا وَتَتَذَكَّرُ الْأَمْرَ مُحْكَمِ

- (١) الأرجوزة ٣٨/٢٤ - ٤٧ .
(٢) الأرجوزة ٤٨/٢٤ - ٥٥ .

وما زال هذا الحديث حتى خرج إلى موضوع الفخر والتعريض ببعض قبائل ربيعة ، ومن هنا كان الشعر الديني في هذه الأرجوزة المطوّلة أشبه بتجسير نفسي لموضوعات الأرجوزة الرئيسية ، ولا يخفى ما في ذلك من جدّة في منهج العجاج وأسلوبه .

وقد يرد الشعر الديني في خاتمة الأرجوزة على نحو ما نراه في الأرجوزة (١٣) ، وفيها جاء بقدمة تقليدية ثم مدح يزيد بن معاوية بعدد من المعاني السياسية والدينية ، ثم ختم الأرجوزة بشيء من معاني الوعظ ، وكأنه يريد القول إنه صادق في مديحه ، ولا يريد أن يكون كاذباً ، لأنه ملأ يوم الحساب ما قدّم في الحياة الدنيا من أعمال ، ولأنه صائر إلى الموت في يوم من الأيام لامحالة (١) :

قَدَعَلَيْتُ لَو زَيْتًا مِنْ أَمَلِي أُنِي مَلَأْتُ ذَاتَ يَوْمٍ عَمَلِي
وَأَنْ يَوْمًا إِلَيْهِ تَجْعَلِي مَنِّي أَصْبَهُ أَرَدَ تَمَرْدِي أَوْ يَلِي
لَسْتُ بِمَغْضُوضٍ وَلَا مُؤَجَّلٍ وَرَاءَهُ عُمُرًا وَلَا مَعْجُلٍ
عُمُرًا خَلَا أَنْ الْبَلَاءُ تَبْتَلِي بِالنَّائِبَاتِ غَلَّةَ الْمَغْتَلِ

وفى أرجوزة متنازعة بين العجاج ودوّة ، وقد حلّ الموضوع الديني في المقدمة منها محلّ موضوع الأطلال والغزل في المنهج التقليدي ، فبدأت الأرجوزة بقوله (٢) :

يَا رَبِّ إِنِّي أَخْطَأْتُ أَوْ تَسَيَّيْتُ فَانْتَ لَا تَسْمَيَّ وَلَا تَسْمُوتُ
إِنَّ الْمَوْقَى مِثْلَ مَا وَقَّيْتُ أَنْفَعَلَنِي مِنْ خَوْفٍ مِمَّنْ خَشِيتُ
رَبِّي وَلَوْلَا دَفْعُهُ تَسَوَّيْتُ

(١) الأرجوزة ١٢/١٥٠ - ١٥٧ .
(٢) الأرجوزة ٤٢/١ - ٥ .

ثم استغل الشعر الديني والمناجاة بأكثر أبياتها ، وغلب على مدح مسامة ابن عبد الملك ، إذ لم يفارق أبيات المديح ، ولم يلبث أن ظهر عليها في نهاية الأرجوزة ، فانخذ لنفسه أكثر الأبيات . وهذه الأرجوزة وإن صحت للعجاج فهي تشير إلى تطوير في منهج القصيدة جعل الوعظ أو الحكمة يحتل مكان الأطلال والغزل ، وفي هذا سبق على شعراء بني العباس أمثال أبي تمام والمتنبي ومن إليهم .

فالشعر الديني في رجز العجاج ربما ورد مستقلاً في بعض الأراجيز ، وربما سلك مع غيره من الموضوعات في بعض الأراجيز الأخرى ، ولم تكن معانيه ذات طابع وظيفي لا تجدّد فيه ، وإنّا كانت تمتاز بشيء من التنوع ، إذ كان العجاج غارة يقف عند الجوانب الدينية ، وطوراً ينقل من آيات الكتاب ، وأحياناً يناجي ربه في خشوع ، فينطق بأحداث الحياة والموت ، والبعث والحساب ، والنعم والجحيم ..

وهذا الاتجاه الأخير أدخل ما يكون في موضوع الزهد ، إلا أن هذا الموضوع لم يجد من الانتعاش والتخصّص في هذا العصر ، ما وجدته في عصر بني العباس ، إذ أفردت له أبواب واسعة في دواوين بعض الشعراء كأبي نواس وأبي العتاهية وأمثالهما ، ممن جعلوا التوبة غاية ما يرجون من الحياة ، بعد أن أخذوا من كلّ معصية بطرف ، ثم راحوا يندفون الدنيا رغبة في الآخرة ، ويناجون ربّهم طلباً للغفران . ثم تطور هذا الفن على أيدي المتصوفة إلى أناشيد الحب الإلهي ، والزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، على نحو ما سجده عند رابعة العدوية (١٨٥ هـ) ، والخلاج (٣١٠ هـ) .

* * *

وموضوع الشعر الديني يرتبط به موضوع آخر عند العجاج ، هو موضوع الحكمة ، وذلك لأن أكثر الحكم التي تناوأت في رجزه ، كانت تستمد معانيها من الأفكار الدينية ، والتربية الإسلامية ، التي تأصلت في نفسه ، إلا أن ذلك لم يكن بالمصدر الوحيد لحكمة العجاج وإنما كان ثمة تأثير واسع لأحداث عصره ، وأدوار حياته ، وتجاربه المختلفة .

ومن هنا كانت حكم العجاج تمتاز بالعمق والتأثير والحيوية ، لأنها من نتاج ما انعكس في نفسه من أحداث سياسية واجتماعية خطيرة ، وما كان له من تجارب في أدوار حياته ، وما تأصل في نفسه من ثقافة إسلامية ، حتى كان العجاج لا يكتفي أن يجعل من الحكمة أقوالاً يطلقها بنفسه ، وإنما جعل يلقي هذه الحكمة في بحلة الثور كلما أراد له وصفاً .

فالثور حكيم إذا ما التقى بالكلاب ، متوّن إذا ما أراد الزوال ، ولهذا لا تنكاد الكلاب تتجبد في طلبه حتى يتجبد بالفرار ، ولكنه لا يجهد نفسه كل الجهد ، وإنما يقصد من ذلك إيقاعه على قوته ، أما الكلاب فلا تقصد من قوتها ، وإنما تجهد نفسها كل الجهد في وثبها دون إبطاء (١) :

وَسَمَوْتُ وَانْصَاعَ سَمَوِيٍّ أَلَى وَمَا فِي حَبِيرِهَا أَلِيٌّ
بِالشَّكِّ إِذْ زَوَّرْتُ بِهِ الرَّبِّيَّ

ثم لا يلبث الثور أن يكر عليها ، فيلقي بها أشلاء مضرجة بين قتيل وجريح ، وهذا يعني أن الثور حكيم كالعجاج الذي يسطفه ويحدد معالم شخصيته ، وما كان للعجاج أن يرسم للثور هذه الشخصية ، لولا أن الحكمة عميقة الجذور في نفسه ، ولم تكن مجرد معان عامة أو أفكار كلية يمكن أن تجتد في بعض قولب الألفاظ ، ولهذا كانت مؤثرة ، تنبض بالحياة

(١) الأرجوزة ١٥٢/٢٥ - ١٥٤ .

- ٣٠٤ -

والحركة ، ولا سيما حين يهد لها بآيات تجعل منها جزءاً طبيعياً من الأرجوزة ، إذ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسائر الآيات .

ومن ذلك مثلاً حديثه عن بعض قبائل وائل بن ربيعة ، إذ بين أن قومه قد وعظروا هذه القبائل انتقاء للإثم ، وحذروا من الفحشاء ، ولكنها أبته إلا الوعيد والتهديد ، فدارت الحرب بين الفريقين ، حتى إذا ما قرّ كل مدبرك ، وتسربل الناس بالدم ، وغدا فوق رؤوسهم كرشاش العندم ، ولثت قبائل وائل ونذمت ، وكذلك كل من طلب الحرب ، فهو نادم لأحائه (١) :

حَتَّى إِذَا مَا قَرَّ كُلُّ مُدْبِرٍ وَأَذْرَعَ النَّاسُ سَرَابِيلَ الدَّمِ
تَحَى الثُّجُورُ كَرَشَاشِ الْعَنْدَمِ وَلَوْ أَوْ مِنْ يَطْلُبُ رِيحَ بِنْدَمِ

فقد مهد لهذه الحكمة بتجربة الحرب كلها ، ثم ألقى بها تجميعاً لتلك التجربة ، ونتيجة حتمية لها ، ثم مضى بعد ذلك ليصور ما أصابهم في تلك الحرب ، وكأنه يفيض من جانب ، ويهني عن أمثال هذه الحروب من جانب آخر .

ولا شك أن هذه الحكمة في البيت الأخير ، كانت وليدة ما رآه العجاج بنفسه من ويلات الحرب وتجاربها ، وبذلك فقد تعمقت في نفسه قبل أن يطلقها حكماً عاماً في رجزه ، ولكن على الرغم مما نلاحظه من عمق الحكمة وتنوع مصادرها لديه ، فهي لا تمثل جانباً هاماً في موضوعات رجزه ، وإنما نجدها قليلة نسبياً ، ولا سيما إذا ما قورنت بالحكمة عند زهير ومن إليه .

وقد ترد حكمة العجاج في بداية الأرجوزة ، داخل المقدمة التقليدية ، إذ رما وجدناه يعاتب نفسه لبكائه على الأطلال ، وقد أصبح شيئاً طائفاً

(١) الأرجوزة ١٣٢/٢٤ - ١٣٥ .

- ٣٠٥ -

العجاج - ٢٠

ليس له أن يطرب أو يحزن لذكر الأحبة أو الوقوف على الديار ، ثم يجد في هذا الحدث دافعاً إلى عدد من الحكم ، يستمدعها من تجاربه في الحياة . فالصبي هو الذي يتصبو فيعذر لأنه لايس له ولا تجربة ، والده لا يقي الإنسان على حال من الأحوال ، وإنما يصرف به ويدور من حال إلى حال ، وقد أفنى القرون من الناس وما يزال مُلجأ شديداً^(١) :

بَكَيْتَ وَالْمُحْتَرَنُ الْبَكِيَّ وَلَيْسَ بِأَقْبَى الصَّبَا الصَّبِيَّ
أَطْرَبَا وَأَنْتَ قَسْرِي وَالْدَهْرُ بِالْإِنْسَانِ دَوَّارِي
أَفْنَى الْقُرُونِ وَهَوَّ قَسْرِي وَبِالدَّهَاءِ يُحْتَلُّ السَّذِيَّ
من أن "شجارك تطلق" عامي

فالحكمة قد وردت هنا في بداية الأرجوزة ، إلا أنها ساوت معاني المقدمة التقليدية ، ولم تحل مكانها كالذي تم على أيدي بعض شعراء بني العباس من أمثال أبي تمام والمتنبي ، ولكن وضع العجاج لها في مقدمة الأرجوزة ربما كان بداية لهذا التطور الشامل في منهج القصيدة الذي تم على أيدي بعض شعراء العصر العباسي ، وإذا كان العجاج لم يتخذ من الحكمة مقدمات خالصة لأرجوزته ، فقد أتى بالمطالع الديني واتخذ منها مقدمات لبعض الأراجيز ، وهي قريبة جداً من موضوع الحكمة الذي لجأ إليه المتنبي وأمثاله واتخذ منه بداية لأكثر قصائده ، وبذلك كان العجاج من أسهم في هذا التطوير لعصر بني أمية ، سواء في تقريب الحكمة من المقدمات ، أو الاختصار في المقدمات على المطالع الدينية والانتقال منها مباشرة إلى موضوع الأرجوزة كقوله مثلاً^(٢) :

(١) الأرجوزة ١/٢٥ - ٧ .

(٢) الأرجوزة ١/٤١ - ٥ .

لله لولا أن تحش الطبع في الجحيم حيث لا مستصرح
في دخل النار وقد تسلخرا لعلم الجهال أني مفتتح
لها ميم أرضه وأنفخ

وقد لازد الحكمة في بداية الأرجوزة ، وإنما ترد في أضعافها على ستة غيره من الشعراء ، وذلك لما يدعوه الموقف أحياناً من إطلاق بعض الأحكام العامة ، التي تشبه أن تكون نتيجة لذلك الموقف أو تفسيراً أو توضيحاً ، فإذا وقف على منازل إلى ، وقد عفت وتغيرت ، بعد أن بعدت وطال العهد بها ، وتقطعت أسباب الوصل دونها ، راح يطلق بعض المعاني الكليّة التي تصل بهذه التجربة النفسية ، فالإنسان إذا بعد انقاع رجائه في لقاء من يريد ، إلا أن يحضر حاجته بنفسه فلا ينقطع منه الرجاء ، وإذا عمل في أمر بغير إحكام ، أضواه ذلك وأنقصه ، ما دام ملتصقاً بين يديه غير توضيح^(١) :

من آل ليلس قد عفون حبيبا منازلاً هيجن من توجيها
والشخط قطاع رجاء من رجبا إلا احتضار الحاج من تحوجا
والأمر مارا مقته ملهوجا بضوئك ما لم تحي منه منضجيا

وقد تراقق الحكمة أحاديث العجاج عما بلغه من الهرم والضعف والكبر ، فإذا تحدث عما صار إليه من الضعف والهرم ، بعد أن كان قوياً صلب القادة ، نظر إلى تقلب الدهر بالإنسان ، وألقى رأي الشيخ المحروب ، فالدهر لا يستقيم على حال ، وبينما الفتي يسعى إلى أمانة من أمانيه ، وهو يظن أن الدهر يسير على طريقة واحدة لا تتغير فيها ، إذا بداعية تعرض له ، فعقله

(١) الأرجوزة ٢١/٣٣ - ٢٦ .

وتردّه عن هواه وأمانيه ^(١) :

نَيْتًا الْفَتَى يَسْغَى إِلَى أَمْنِيَةٍ يَحْسِبُ أَنَّ الدَّهْرَ شَرٌّ جَرِيهٌ
مَرَّتْ لَهُ دَاهِيَةٌ دَهْرِيَّةٌ فَأَعْتَقَلَتْهُ عَقْلَةٌ سَرَّيْرِيَّةٌ
لِقَاءَ عَنْ هَوَاهُ سَغَرِيَّةٌ

وبما تقدم نذكر أن الحكمة عند العجاج ربما وردت في بداية الأرجوزة، وربما وردت في أثنائه أحياناً ، ولا سيما إذا ما تحدث عن الهرم وقلوبه بما كان عليه أيام الشباب . وهي تعتمد اعتماداً كلياً على ثقافته الإسلامية ، وتجاربه في أدوار حياته ، وما أثر في نفسه من أحداث عصره ، ولكنها مع ذلك قليلة نسبياً ، لا تمثل موضوعاً رئيسياً في رجزه .

الوصف

إن الموضوعات السابقة مما يكن واحداً من الاتساع في رجز العجاج، فهو محدود إذا ما قيس بموضوع الوصف ، فهذا الموضوع كان العجاج يسعى إليه سعياً في أكثر الأراجيز ، حتى إننا قد لانجد في الأرجوزة على طولها أي هدف غير وصف مشاهد الصحراء ، وما فيها من نبات وحيوان ، وما يتم على رمالها من طراد لجمار أو ثور وحشي ، وليس من دافع إلى هذا الوصف الزائع المطول ، إلا حب العجاج للصحراء ، وتآلفه معها ، وحرصه على نقل مشاهدنا ^(٢) ، وربما كان للأرجوزة هدف معين كالديبع أو الفخر ، إلا أن موضوع الوصف كثيراً ما يغلب على أحياننا ^(٣) ، فلا يترك لمدرج الججاج مثلاً

- (١) الأرجوزة ١٢/٤٠ - ١٦ .
(٢) انظر الأراجيز ١٥ ، ٢٠ ، ٢٥ .
(٣) انظر الأراجيز ٣٦ ، ٤٤ .

إلا أقل الأبيات ^(١) ، وأما في سائر رجزه فالوصف يتغلغل في ثنايا كل موضوع مدججاً كان أم تعريضاً أو نسبياً أو ضمناً ، فهو لا يكاد يجد مناسبة للوصف حتى يتفلس من موضوعه ليخرج إلى أوصاف جانبية ، ثم يعود إلى موضوعه من جديد ، ولا يزال هذا دأبه حتى يستقل الوصف بأكثر أبيات الأرجوزة .

وأكثر ما نلاحظه في وصف العجاج ، ليس خاصاً به ، أو مقتصراً عليه ، وإنما هو شائع لدى أكثر شعراء عصره ، ومن تقدم عليهم من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ، ولهذا قال ابن رشي : « الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه ^(٢) » .

إلا أن ما يتفرد به العجاج هو ذلك التخصيص لأوصاف الصحراء ، وجعلها هدفاً وغاية لأكثر أراجيزه المطولة ، ولا يكاد يدانيه في ذلك إلا بعض شعراء هذيل لشغفهم بوصف مشاهد الصحراء ، وذو الرمة لأنه هو الآخر قد عاش حياة العجاج في الصحراء ، وكان راعياً للإبل ، ولذا اتقن أوصافها ، وجاء بصور رائعة لمشاهد الصحراء أيضاً ^(٣) .

ولهذا عُرف عن العجاج وابنه رؤبة ، أنهما أصحاب إبل في الوصف لا أصحاب خيل ، ومن ذلك ما قاله ابن سلام : « وقال يونس : كل الجعدي أوصف الناس لفرس ، أنشدت قوله رؤبة :

فَتَيْنَ صَدَقُوا قَالُوا أَجْوَادٌ مُجَرَّبٌ تَخْلِيَعٌ وَمِنْ تَخْيِرِ الْجِيَادِ تَخْلِيَعُهَا
قال رؤبة : ما كنت أرى الموهف إلا أسرع منها . ولم يكن

- (١) في الأرجوزة ٣٤ .
(٢) المعشدة ٢٢٦/٢ .
(٣) ارجع إلى التطور والتجديد في الشعر الأموي ٢٠٩ - ٢٣١ .

رؤية والعجاج صاحبيّ تَحِيلَ ولكن كانا صاحبيّ لإبل ونعتنا^(١) .
ومن المشهور أن رؤية قد أخطأ مرة^(٢) في وصف الخيل ، فقد نقل
الرزباني بسنده عن الأصمعي أن سلم بن قتيبة قال لرؤية : « أخطأت في
قولك :

يَمِينِ نَسِيٍّ وَيَقَعَنَّ وَفَعًا

قال الأصمعي : لأن الجياد لا تقع حوافرها معاً ، وإذا وقعتْ وفَعًا ،
فكانتْ يَضْبِرُ ليس يَسْبَحُ^(٣) » .

ونقل ابن قتيبة هذا الخبر فقال : « فقال له سلم : أخطأت في هذا
بأبأ الخفاف ، جعلته مُقَدِّداً . فقال رؤية : أدني من ذنب بعير^(٤) » .
يريد أنه وُصِفَ للإبل لا للخيل . وقيل شيء من هذا حول غلط أبي النجم
في بيت وصف فيه الخيل أيضاً^(٥) ، وهذا قد يشير إلى تلوُّوع الرجزاز
بوصف الصحراء والإبل بوجه خاص ، إلا أن ذلك لم يكن حائلاً دون وصفهم
للخيل ، فقد ورد في رجز العجاج أوصاف رائعة للخيل ، وليست بالقليلة
في ديوانه^(٦) ، وكذلك كانت أوصاف الخيل كثيرة في رجز رؤية ، وقد
أورد ابن قتيبة في باب أوصاف الخيل أمثلة من رجز العجاج^(٧) ، وأمثلة

(١) طبقات ابن سلام ١٠٧ ، ونقله الجاحظ في كتابه القول في البغال ٢٠ .
(٢) الموضح ٢١٩ .
(٣) الشعر والشعراء ٥٧٧ ، ومثله في العقد ١٣١/١ ، والأغاني ١٨/١٢٥ و ٢١/٦١ .
(٤) الشعر والشعراء ٥٨٦ ، والأغاني ١٦١/١٠ (دار الكتب) ،
والموازنة ٣٨ - ٣٩ ، والوساطة ١٧ ، والمعاني الكبير ٣٠/١ - ٣١ ، والعقد
الفريد ١٣١/١ و ٢٠٦/٦ .
(٥) انظر مثلاً الأراجيز ٥٦/١ - ٦٢ ، ١٤/١٣ ، ٢٦ - ١١٧/٢٣ - ١٢٥ ،
١٧/٣٦ - ١٢ ، ١٢/٣٧ - ٢٠ ، ١٤/٣٩ - ١٤ .
(٦) المعاني الكبير ٢٢/١ - ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٧٥ ، ١٣٤ ، ١٥٦ .

أخرى من رجز رؤية^(٨) ، وثلاثة من رجز أبي النجم^(٩) ، وثمة أراجيز
رائعة لأبي النجم في وصف الخيل ولا سيما داخل الحلبة^(١٠) .

فالعجاج قد وصف الخيل وأجاد ، وإن كانوا قد أخذوا على ولده رؤية
بعض الخطأ في بيت وصف فيه الخيل ، فهذا لا يعني أن العجاج أو رؤية
كانا يجهلان أوصاف الخيل ، لأن مجرد الخطأ في صورة أو معنى لا يعني الحكم
المطلق في ذلك ، فالبر النجم مثلاً وهو أعرابي راجز من صحافي الإبل ،
قد أخذوا عليه أنه أخطأ في بيت وصف فيه الإبل^(١١) ، ولا شك أن هذا
الماخذ لا يحيط من شأن أبي النجم ، ولا يخرج به من صحافي الإبل المجيدين .

ومن هنا يمكن أن نعود إلى قول ابن سلام : « ولم يكن رؤية
والعجاج صاحبيّ خيل ، ولكن صاحبيّ إبل ونعتها » ، ونفهم من هذا القول
أن العجاج ورؤية كانا إلى وصف الإبل أكثر انجذاباً منها إلى وصف الخيل .
فالإبل أوثق صلة بالأعرابي ، وأكثر ألفه فوق رمال الصحراء .

إلا أن أوصاف العجاج لم تقف عند وصف الإبل ، وإنما انجذبت إلى
كل ما كانت تقع عليه عينه في بدائه ، فقد وصف حيوان الصحراء ، فجاء
بولوحات حية للأسد ، والآرام ، والوعول ، والظلم ، والجراد ، والنسر ،
والبازي ، واليوم ، وبقر الوحش ، والحمار والأثني ، وما يجري من طراد
بينها وبين الصياد والكلاب . ثم أتى بولوحات مشرقة أيضاً لمشاهد الصحراء
نفسها في ليالها ونهارها ، وبردتها وقيلظها ، وصحرها وغشياها ، فتحدثت عن

(١) المعاني الكبير ٣١/١ - ٣٣ ، ٥٣ ، ٨٠ .
(٢) المعاني الكبير ٦/١ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٤٨ ، ٦٣ ،
٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٩١ .
(٣) انظر الشعر والشعراء ٥٨٧ - ٥٨٨ ، والعقد الفريد ١٢٥/١
و ١٣٠ - ١٣١ ، وديوان المعاني ١٠٩/٢ - ١١٠ .
(٤) الشعر والشعراء ٥٩٠ .

الأجعة ، والكناس ، والسراب ، والمطر ، والبرق ، والرعد ، والسيل ، والمسيل ، والمنيل ، ثم وصف الليل والنجوم ، وأكثر من وصف المفاوز الرائعة المَهْوَلَة ، ولم ينس أن يتحدث عن رحلته وما يصادفه فيها من عنت ومشقة ، وما يستوقفه من أطلال دريست ، فلم يبق فيها إلاّ مسارج للذكريات .

ولم تكن عين العجاج لتنتقل فقط مازاه في صحراء نجد ، وإنما كانت تنقل أيضاً مازاه في بيئة البهامة ، وهي تلتقي بأمواج الخليج العربي ، فهذه الأمواج تركت في رجزه بعض الصور للبحر والسفينة وما يتناقله الصيادون من أعاجيب البحر ، وكذلك كان لرحلة العجاج إلى العراق ، وإقامته بالبصرة ، أن زينت بعض أوصافه بصور النهر والسفينة أيضاً ، وفيه صور أخرى كانت وليدة الغزل أو الأحداث السياسية ، ومنها أوصاف المرأة والدموع ، أو للحرب وأدوات القتال .

وبذلك كانت موضوعات الوصف عند العجاج لا تنفك عند جانب من الطبيعة دون آخر ، فقد صور الطبيعة بعناصرها المتحركة ، وعناصرها الصامتة ، ولكن مشاهدته على اختلافها كانت لا تخلو من الروح والحركة ، حتى ولو كانت تصور الجماد الذي لا يتحرك . وهذه الصور على تنوعها صور موضوعية تراها عين العجاج ، أو تحس بها أذنه ، إلاّ أن عنده صوراً أخرى لا تنقل عنها فتناً ، وهي الصور الذاتية ، التي تمثل فيها مشاعر النفس الانسانية ، أو مال من خلالها إلى تجسيم هذه المشاعر في تصوير الحيوانات أو الطبيعة .

فالعجاج قد وصف المرأة أوصافاً موضوعية كثيرة ، وأتى بصور لشعرها ولباسها وقوامها وجيدها وما أشبه ذلك ، إلاّ أنه لم يغفل الجانب الذاتي

والنفس في أوصافه لها ، وللبسا صور ما يجتليج في أنفسهم من هواجس أو أفكار ، فاليوم قد تعهد الشيب ، ومالت به الأيام إلى ما يشبه الهرم ، فماذا يمكن للنساء أن ينظرن به إليه ، لهن معروضات عنه ، بعد أن كنّ مائلات إليه ^(١) :

مال الغواني معروضات مُدَّداً وقد أراهنّ إلينا مُنْشِداً
بالطُرفِ واللِّسَانِ مُخْزِراً قُشُوداً لَمَّا رَأَيْنَ الشَّيْبَ قد تَعَهَّداً

فهو بهذه المقاربات بين حاضر الغواني وقد تعهده الشيب ، وحالهن وقد كان في برد الشباب ، لا ينفك عند صور موضوعية لهذه المرأة أو تلك ، وإنما يدخل إلى ما يجتليج في نفوسهن من عواطف متناقضة بين اليوم والأمس ، ولا يكتفي بهذه المقابلة المؤثرة ، وإنما يعتمد أيضاً على وسيلة فنية أخرى ، تكشف عن هذا الجانب النفسي ، فيلجأ إلى ما يشبه الحوار أو المناجاة ، وإذا بلسانين ينطق بها في النفس من تساؤل بعد أن كفى العجاج عن اللهو ، فهن في حيرة من أمره ، أتراه أقصر عنهن وغدا مسناً كالعتود من الإبل ، أم أنه تجلّد وتصرّ بعد أن تعهده الشيب والكبر ^(٢) :

فَتَقَلَّنْ قد أَقْصَرَ أوقد عَرَّداً عن توصلنا العجاجُ أو تجلّداً

وفي هذا تصوير للواقع النفسي الذي حرص العجاج على تصويره ، ليبحث الحياة في الجوانب الموضوعية من صوره ، ولهذا ربما بدأ به في أوصافه للمرأة ، إذ كان يجالول دائماً لبراز ما في نفسها من أفكار ، وما يدور في خلدها من هاجسات ، فهي تفرص على العجاج ، وتخشى أن يقطع من دونها الأسباب ، فتتميل إلى ما يشبه الاغراء أو الاغراء ، والعجاج طلب بهذا كله ، ولذا ينقله

(١) الأرجوزة ١/٢٧ - ٤ .
(٢) الأرجوزة ١١/٢٧ - ١٢ .

في أوصافه لها ، قبل أن يعرض لأوصافها الموضوعية (١) :

وَأَسْقَدْتُ لِلنَّاسِ حَمَاءَ وَحَمًا قَامَتْ تَرْبُوكَ تَرْهَةً أَنْ تَصْرَمَا
سَاقًا يَتَخَذَانِ وَكَعْبًا أَدْرَمَا وَكَفَلًا وَغَمًا وَكَشْحًا أَهْضَمَا

والغريب أن العجاج في صوره الذاتية ، لم يتحدث عن النساء أو الإنسان فحسب ، وإنما يورع في تجسيم هواجس الحيوان ، وغالباً ما يتخذ منه وسيلة لتصوير ما في نفسه هو من أحزان أو أشواق أو احساسات ومشاعر خاصة ، فالقطا قد تَعَوَّدْنَا أَنْ نَجِدَهُ فِي أَوْصَافِ الصَّحْرَاءِ عِنْدَ الشَّعْرَاءِ ، وكذلك أوردته العجاج في رجزه ، ولكنه لا يصف القطا بالعطش والبعد عن الماء على عادتهم ، ولا يصفه بمجرد السواد ، فيقول إنه « جُوفِي » ويقف ، وإنما يحرك في أبياته بعض المشاعر الذاتية ، فبأني بصور نفسه هذا القطا ، وإذا بها وحيدة في ذلك الليل الموحش الذي يلفّ رمال الصحراء ، والوحشة قد أفترت في قلبها الملمّ والكأبة ، فإن مرّ العجاج بها وجدت فيه أنيباً يفرّج عنها ذلك الملمّ ، ويباعد عنها تلك الكأبة (٢) :

تَوَابِقُ الْجُوفِي بِالْإِتْلَافِ فَرَجَتْ نَحْمٌ لَيْلِيهَا الْغَدَافِ

وقد أكثر العجاج من تصوير التور ومعاركه مع الكلاب ، ونقل من ذلك لوحات حيّة تجعل تلك المشاهد ماثلة للعين ، شاخصة أمام الخيال ، إلا أنه لا يصف التور أو الكلاب وصفاً خارجياً فقط ، ولا ينتقل مع التور في رحلته بين الليل والنهار فحسب ، وإنما يصر دائماً على الدخول إلى نفس هذا التور ليصف هواجسه وخواطره وما يتاجي به نفسه ، حتى لكأن التور إنسان كالعجاج ، ولهذا يتعاطف معه ويصور خلجات نفسه ، فإذا لجأ التور

(١) الأرجوزة ١١/٢١ - ١٤ .

(٢) الأرجوزة ١٧/٨ - ١٨ .

في ليلة مطيرة باردة إلى تَرْبِيهِ ، بات وهو خائف قد تجتمع بعضه إلى بعض ، وذلك حذراً أن يفجأه ما يودي به إلى الموت والمهلك ، ولا يكساده يطلب النوم حتى تروعه هاجيات يفكر فيها ، فتسببه وتقع النوم عن أحفانه (١) :

فَبَاتَ حَيْثُ يَدْخُلُ الشُّوْرِي مُجْرَمًا وَلَيْلَهُ قَسِي
خَوْفُ التَّرْدِي وَالرَّدَى مَخْشِي إِذَا اسْتَنَامَ رَأْسُهُ النَّجِي
مِنْ عَازِفَاتِ هَوْنِهَا هَوْنِي وَمُسْهِدَاتِ رَوْعِهَا تَنْزِي
خَوْفًا كَمَا يُسْهِدُ الرَّقِي

فالعجاج قد دخل إلى نفس التور وراح يحلل ما فيها من خلجات وأحاسيس ، ليجعل من هذه المشاهد الذاتية تمهيداً نفسياً لما سيورده بعد قليل من صراع بين التور وكراب الصيد ، بل إنه ينظر إلى التور على أنه واحد من أعزّاب البادية ، أو فارس من فرسان بني بقم ، فهو متكبر لا يؤخذ قسراً ، وذو غفوة شديد الجلدة في حربه ، بل يجود بنفسه دفاعاً عن حرمة ، وحفاظاً على نخوته الأعزّابية (٢) :

لِلنَّقْسِرِ ذُو أَبْهَةِ حَصِي ذُو نَخْوَةٍ مَحَارِسُ عَوْضِي
أَلَيْسَ عَنْ حَوَائِلِهِ تَسْخِي

ومن الطريف أن يجعل التور يفكر بطرائق القتال فيراوغ عدوه ويجذعه ، ثم يرى رأيّ العجاج في عقيدة القضاء والقدر ، وهذه الصور الذاتية كلها قد أمكن للعجاج أن يصل إليها عن طريق المناجاة ، فالنور يتساجي نفسه ويجذبها بأوجه مختلفة من أمور قتاله مع الكلاب ، إذ أن الكلاب قد أفترت التور ، فأنصاع أمامها بجري ، يرعا أنه لا يريد قتلاً ، وقد أضمر

(١) الأرجوزة ١١١/٢٥ - ١١٧ .

(٢) الأرجوزة ١٧٣/٢٥ - ١٧٥ .

لما الشر والقتال ، فتارة يضي كأنه رجله قد شذت بهيجار ، وطوراً يور في جريه مُعذِّراً لا يجتهد ولا يبالغ ولا يجيد^(١) ، وهو ينظر من طرف ليعطف على الكلاب وينقض ، وما كاد يجري ميلين حتى بدأ يحزم أمره على القتال ، ويحدث نفسه : إني إن كرت اليوم فهو أدنى إلى الحياة ، وإلا فإني أقتل دون أن ألقى يدي ، ولعلني أقتل من يريد هلاكِي ، ثم كثر على الكلاب ، صابراً على القتال ، راضياً بما يريد القدر ، حاذقاً في الطعان غير ضجور^(٢) :

فَرَمَعْنَهُ وَالرَّوْعَ لِمَدْعُورٍ فَتَانْصَاعَ وَهُوَ ذَاخِرُ التَّسْكِينِ
مِنْ بَغْيِهِ مُقَارِبُ التَّهْجِيرِ وَتَارَةً يَمُورُ كَالسَّعْدِيرِ
نَسِجَ الشَّهَالِ حَذَبَ الْقَدِيرِ وَفِيهِ كَالْإِعْرَاضِ لِلْعُكُورِ
يَمْلِيْنِ ثُمَّ قَالَ فِي التَّسْكِينِ إِنَّ الْحَيَاةَ الْيَوْمَ فِي الْكُرُورِ
أَوْ اتَّزَدَى وَمَعِيَ تُوُورِي فَكَّرَ وَالنَّصْرُ مَعَ الصُّبُورِ
مُعْتَرِفًا لِلْقَدْرِ الْمَقْدُورِ بِوَقْعٍ لَا جَافٍ وَلَا ضَجُورِ

فالتور إذنت قد تقمص شخصية أعرابي يحسن القتال وبروتي فيه ، وما ذلك إلا لأن العجاج لم يكتف بالأوصاف الموضوعية له أو للقتال ، وإنما كان دائماً يُعرج على الجوانب النفسية ، ويبرزها بجذق ومهارة ، ويجعل منها وسيلة بارزة من وسائل التأثير وإحياء الصور بالدفء والحركة والواقعية . ومثل هذا التصوير الذاتي للتور يمكن أن تقع على شيء منه عند بعض شعراء هذيل ، ولكننا لا نقع عليه في أشعارهم بهذه الدقة والاتساع الذي نجده في رجز العجاج ، بل إننا لا نقع على دقة العجاج في هذا التصوير عند أمثال النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى ، وهما من أبرج وصافي الجاهلية ، ذلك لأن العجاج قد اختص بوصف الصحراء ، وراح يقدم الأراجيز الطوال

(١) الأرجوزة ١٢٥/١٦ - ١٣٦ .

وليس لها غابة أو هدف أحياناً إلا تدقن النظر في مشاهد الصحراء ، ونقلها في صور رائعة ، ولكن زهيراً أو النابغة كان القصيدة عندهما هدف آخر غير التركيز على مشاهد الصحراء ، ولهذا ضمرت مشاهد التور في أشعار زهير وكادت تختفي من أشعار النابغة .

زهير وصف التور في إحدى قصائده ، ونقل صوراً لرحلته مع بقرة ، ثم إقامته في تلك الليلة المطيرة ، ثم سار به مع الصباح إلى الصراع بينه وبين كلاب الصيد ، ولكنه لم يتغلغل إلى نفسه التور وهو ينتظر الصبح ، ولم يدخل إلى ذاته وهو يصارع الكلاب ، وإنما كان حديثه موجزاً جداً ، حتى إن مشهد القتال نفسه لم يدم أكثر من بيتين^(١) ، وفي قصيدة أخرى أتى بلهجة خاطفة من هذه المشاهد ، حين شبه فرسه بثور رأى كلاب الصيادين بعيد^(٢) ، وفي قصيدة ثالثة شبه ناقته بثور وحشي ثم جعله ينتقل بسرعة إلى كلاب الصيد ويتصر عليها ، ولم يعط هذه المشاهد كلها أكثر من خمسة أبيات فقط^(٣) ، وهذا كل ماورد في ديوانه حول هذا الموضوع ، وإن كان قد تحدث بإيجاز أيضاً عن الحمار الوحشي والأتن في موضعين آخرين^(٤) .

وأما النابغة الذبياني فلم نجد في ديوانه إلا موضعاً واحداً فقط تحدث فيه عن التور ، فكان حديثاً موجزاً ، لا ينفذ إلى تصوير ذاتي له ، ولا يطيل في تحليل هوائيه ، وإنما يجعله يلتقي بكلاب الصيد ثم يتصر عليها ،

(١) انظر ديوان زهير ٤٢ - ٤٨ .

(٢) ديوانه ٢٦٤ .

(٣) ديوانه ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٤) انظر ديوانه ٦٥ - ٧٢ و ٣٧٢ - ٣٧٨ . وفي موضع آخر تحدث عن بقرة غفلت عن ولدها فأكله الوحش ، ثم ألقها الرماة ، فنجت منهم بسرعة الجري : ديوانه ٢٢٥ - ٢٣٠ .

ولا تمتد هذه المشاهد كلها إلّا في نطاق ثمانية أبيات فقط (١).

فالعجاج كان مختصاً بأوصاف الصحراء ، بارئاً في نقل مشاهدتها ، حاذقاً في تصويره الذاتي لجوانبها الموضوعية ، من أمثال الثور ، وما يتم من عراك بينه وبين عبوة من كلاب القانص أو الصياد .

ولا يقف التصوير الذاتي لديه عند هذه الجوانب فحسب ، وإنما يمتد أيضاً إلى تعاطف العجاج مع الموصوف ، والاندماج معه في شخصية واحدة ، وذلك حين يصور العجاج ذاته وعواطفه وأشواقه وحبّه للأسفار من خلال وصفه لبعيره « مسحول » .

فالعجاج قد حنّ إلى السفر ، ولكنه لا يقول ذلك صراحة ، وإنما يجعل بعيره هو الذي يحنّ إلى ذلك ، فقد أُنِيخَ مسحول مع الإبل المحبوسة عن الرحيل ، فغداً يملّ مكانه كما يملّ الأسير في أسره ، وإذا جاءه الليل قضى ليله كله بالزفير والحزن والدموع ، وذلك شوقاً إلى الأسفار ، وانتظاراً للعجاج أن يركبه ويضي عليه (٢) :

أُنِيخَ مسحول مع الصَّبَّارِ مَلالَةَ السَّائِرِ لِإِسْمارِ
يُفني تَجَمُّعَ اللَّيْلِ بِالتَّزَقُّارِ وَعَبْرَاتِ الشُّوقِ بِالْإِدْمارِ
نَظَّارِ أَنْ أَرْكَبَهُ نَظَّارِ وَلَوْ يَقيّرُ كَلْتِ ذَا قِطارِ
صَبابةً في أَتْرِ السَّفارِ

فهو لا يصف بعيره كما يراه ، وإنما يصف خواطر هذا البعير ، ليجعل منها صورة لما في نفسه هو من هواجس وخواطر وأفكار . ومثل هذا

(١) ديوان المديحة ١٩ - ٢٠ . وفي موضع آخر شبه ناقته بحمار الوحش فوصفه مع الآن في خمسة أبيات ، ولم يتحدث من القانص أو الصياد : ديوانه ٥٨ - ٥٩ .
(٢) الأرجوزة ١/٤ - ٧ .

التصوير تجده أيضاً في وصفه لبعيره وقد خرج من دمشق يريد نجداً ، فمحول قد أصبح يعاني ضجراً ومشقة لإقامته بدمشق ، ويقامي ذباباً أزوق مؤلماً يزيد ملامه على ملامه (٣) :

أَصْبَحَ مسحولٌ بِوَازِي شَقٍّ مَلالَةَ بَمَلِّها وَأَزَقّا
وبادِياتٍ من ذبابٍ زُرُقّا

وهذه الملامه في الواقع لم تكن عند محمول ، وإنما كانت عند صاحبه العجاج ، يدل على ذلك فرحته وبشراه حين أُنَجِدَ جملهُ ، وخرج من عمق دمشق ، ونظر إلى العراق ، فأبصر برقاً يلعب من ناحية سهل (٤) :

أَقولُ إِذْ أُنَجِدَ من دِمَشقّا حين رَمَى بِحاجِبِيهِ الشَّرِقا
وَاسْتَنافَ من نَسْوَ سَهيلٍ بَرَقّا - يا بَشْرَتا إِنَّ كانَ هذا حَقّا...
إذا السَّرابُ الرِّقِّقُ انْعَقّا

وفي هذه الصورة التي رسمها لبعيره ، قد توفرت كثير من من العناصر الفنية المرحية ، فقد أطلعنا على خليجات نفسه ، ثم زاد من ملامته بذكر الذباب ، ولم ينس أن يلبّث الذباب لتزداد الصورة وضوحاً وتأثيراً ، ومن ثم حرك جملهُ ، وإذا به يخرج من دمشق ، ثم يتجه إلى بلاده في العراق أو نجد ، وهنا برزت نفس العجاج ، فبدت عليه فرحة وراحة نفسية بقاءه البادية حين رأى برقاً يلوح من قبّل سهل ، وسراباً يترقّق أمام عينيه مؤذناً بعودته إلى صحرائه أو إلى بلده في البصرة .

والمهم أن العجاج في أوصافه لبعيره ، ربما تعاطف معه ، وصوّر

(١) الأرجوزة ١/٢ - ٣ .
(٢) الأرجوزة ٦/٣ - ١٠ .

من خلاله ما يجده في نفسه هو من عواطف وأفكار خاصة ، وهذا يشير إلى أنه لم يكن وصافاً دائماً ، دون أن يشرك إحساسه وعاطفته في هذا الوصف. ورجز العجاج لم يقف عند التصوير الذاتي فحسب ، وإنما جاء بلوحات رائقة من التصوير الموضوعي ، ولا سيما حياة الصحراء وما فيها من طبيعة وحيوات ، إذ لم يغفل شيئاً يمكن أن تقع عليه العين في جنباتها ، بل كان مصوراً حاذقاً لكل ما وقعت عليه عينه من صور أو مشاهد .

والعجاج لا يتجه إلى الصور بعينه فحسب ، وإنما يتجه إليها بسمعه وكلّ حواسه ، لينقل منها كلّ جانب يوحي بالحياة والحركة فيها ، فإذا وصف الأسد مثلاً أتى بصور متنوعة له ، لا تزال تتكامل حتى تجعل منه حقيقة ماثلة أمام العين تحيا وتتحرك ضمن إطار طبيعي واقعي ، قال العجاج يحذق النظر إلى الأسد ، وإذا به خضيب الصدر من الدماء ، وجلده مرقش موشع فوق جسده ، وأشفاد واسعة تنذر بالرعب ، وهذه العناصر كلها ترحي بسائر الجزئيات من صور الأسد ، ذلك لأنها تبرز أمّ الخطوط والألوان في هذه الصور الهيبة ، فالدم فوق صدره ، والأشفاد واسعة ، والجلد مرقش ، ولكن العجاج يتناول جانباً آخر يؤكد عنصر الرعب والخوف ، فيؤذي بوصف ذاتي له ، حين يراه غليظاً شديداً جريئاً ، يغيّر على الأهلين من الناس ، ويقطع الطريق ويهلك أبناء السبيل ، وهذه الصور المتنوعة ترحي بلا رب إنحاء متكاملة بصورة الأسد الرعب ، ولكن الخيال حتى الآن لم يستطع أن يتصّر إطاراً طبيعياً لهذا الأسد المتخوف ، ولذلك تابع العجاج رسم المشهد ، فجعل الأسد بين صفتين من الشجر الكثيف الملتف داخل أجمة كثيرة الشجر ، ولم ينس أن يبعث الحياة في هذه الأجمة ، إذ أسمع فيها أصواتاً مختلطة من ذلك البعوض والذباب الأحمر (١) :

(١) الأرجوزة ١١٣/١٢ - ١١٩ .
- ٢٢٠ -

وكلّ رنبال خضيب الكنككل كائنه في جلد مرقش
منهزبت الأشفاق غصيب مؤكل في الآهين واخترام السبل
بين سماطي غيطلر وغيطلر من التمتي شجرة ذات أزمّل
من البعوض والذباب الأشكل

فالصورة في هذه الأبيات ، قد اعتمدت على جوانب فنية متنوعة ، ذلك لأن العجاج لم يكتف بالصور البصرية ، وإنما أتبعها بصور ذاتية ، وأخرى سمعية ، فتكاملت بها تلك العناصر المرحية ، وأمكن لها أن تبرز أمام العين ذلك المشهد ماثلاً بكل ما فيه من ألوان وخطوط وجزئيات ورعب وحركة ، ثم ما كادت تبرز صورة الأسد ، حتى عادت إلى إبراز الإطار الطبيعي له بكل ما فيه من خطوط وأصوات وجزئيات موحية ، وإذا بالأسد بين صفتين من الأشجار في غابة كثيفة ، وأصوات الذباب والبعوض في جنباتها ، يضيف عليها شيئاً من الحياة والحركة .

ومثل هذا المشهد كثير جداً في رجز العجاج ، بل يمكن القول إن أوصافه كلها كانت تمتاز بهذا التنوع ، وذلك لكلفة الشديد بالألوان والخطوط والأصوات على حد سواء ، ومهما تضاعف العنصر الصوتي في الصورة ، فأذن العجاج. الموهبة تنبّه إليه ، وتجعل منه عنصراً فنياً بارزاً في بعث الحيوية والحركة داخل الصورة ، ولهذا وجدناه لا يغفل حتى عن صوت المساء في أجواف الإبل ، وقد شربته وهي عطاش ، وهنا نجد أنفسنا أمام مشهد فني متكامل أيضاً ، فهو يسائر الإبل بعينه ، فيراها تتراحم وكان بعضها يثب بعضاً ، حتى تبلغ الشقيير من الكنديد ، وهو المكان الغليظ من الأرض ، ثم تسرع السير ، وإذا بعينها تلح الماء من بعيد ، ثم تأتيه صباحاً لتجد فيه ماء غزيراً صافياً ، لا ركود فيه ولا تغير في طعمه أو لونه ، ولكن شدة

العطش جعلتها لا ترد بمنهل ، ولذا تتراحم تراحمًا يُطير الأوبار من أجسادها ، وتجرع الماء جرعًا يُسمع له خورير في أجوافها^(١) :

واحتتْ ممجَّشَاتُهَا الصدُورَا حَتَّى إِذَا مَا عَلَتِ الشَّعِيرَا
من الكنديد وتغالت زُورَا وعَايَنَتْ أَعْيُنُهَا ثَمُورَا
وباكرتْ ذا جُمَّةٍ نَمِيرَا لَا آجِنَ الْمَاءِ وَلَا مَأْطُورَا
جاءتْ بِمِزْجَمٍ يَزَحُمُ الْمَدْحُورَا تُطِيرُ عَنْ أَكْثَافِهِ الْقَتِيرَا
تَسْمَعُ الْمَاءَ إِذَا اسْتَجِيرَا لِلْجُرْعِ فِي أَجْوَافِهَا تَخْرِيرَا

فهو هنا ينظر إلى الإبل ثم يأتي بعدد من الصور المتنوعة لها ، ففي الطريق يسايرها وينقل معها من مكان إلى آخر ، فإذا جاء ورود الماء ، نقل صوراً أخرى لكثرة الماء ولونه وجريانه ، ثم نظر إلى الإبل فتقل صورة لتراحم الشديد ، وما ذلك إلا ليجدد مدى العطش المتحكم بها ، ثم سلط سمعه الريف لينقل صوت الماء في أجوافها ، وبهذا التنوع أمكن له أن يبعث المشهد حياً متحركاً ، وذلك بعد أن انجبه إليه بعينه وأذنه وكل حواسه .

ومثل هذا التنوع نراه أيضاً في مشهد الصراع بين الثور وكلاب الصيد ، وهو مشهد مطول لا نجد من السائق أن نقف عنده بأكمله على مافيه من إثارة وتصوير بارع ، إلا أن الوقوف عند بعض جوانبه المثيرة قد يكفي لبيان التنوع المذاق في صور العجاج ، فقد أطل في وصف القتال بين الثور والكلاب ، وقبل أن يبلغ نهاية هذا الصراع الدامي ، جعل مجدق في قرن الثور ، لأنه آلة الحرب البارزة في الميدان ، فهذا القرن حاد جداً وكأنه رمح من الرماح ، وهذه صورة بصرية ، وقد أنجها فرياً بصورة صوتية ،

(١) الأرجوزة ١٩/٢٦ - ٢٨ .

تجعلنا ندخل الميدان بأنفسنا لئلا نرى ما يحدث ، وإذا بالقرن يشتبك مع الكلاب ، وإذا بها تعوي وتصورت حين تصاب بجده ، ومن هذه الصورة الصوتية يعود إلى الصور البصرية من جديد ، فالثور يطعن فيصيب الكلب في كليتيه ، والكلب يصرخ فيموت ، ثم يطعن في صدور الكلاب ، فيتروك فيها أباراً تغلي بالدم ، وأنفاقاً تهدد بسيل من الدم الغالي ، يتدفق من أجوافها^(٢) :

يَفْتَسِرُ أَنْ يَشْتَبَهُ الدَّمِي كَمَا يَسْتَبْهُ النَّيْزُ الْخَطِيءُ
لَسَنُهُ فِي شِبَابَةِ صَبِيءٍ إِذَا اكْتَسَحَ وَقَسَحِمَ السَّكَلِيءُ
وفي الجأشيش لها ركيء تغلي وأنفاق لها وهي
لها إذا ما هدرت أني وردد من الجوف وبجواني

ولو تابعنا هذا المشهد لوجدنا عجباً من آيات هذه الدقة في التنوع والتصوير ، فقد رأينا قرن الثور ومدى حدته ، ثم سمعنا صوت الكلاب الصرعى ، ثم أمكن لنا أن نجد أنواعاً من الصور الفنية تمثل ما عليها من جراحات ، فأبار الدم الأحمر في صدورها ، وأنفاق تهدد بسيل ورد من أجوافها ، وطعن كان يسدد إلى كلالها ، ولا شك أننا قد سمعنا غليان الدم ، وهدير السيل ، وذلك حين قال « تغلي » و « هدرت » ، فهذه الألفاظ صوّت ما يراه البصر ، وأوحى بما تسمعه الآذان ، وهاتان جواً يتمثل جزئيات كثيرة من تلك الصور المتلاحقة . وبهذا التنوع الفني أمكن للعجاج أن يجيي ذلك المشهد المثير أمام أعيننا بكل مافيه من خطوط وألوان وأصوات وحركة .

ومن هنا نلاحظ أن العجاج كان يعي دائماً هذه العناصر الفنية في خلق

(٢) الأرجوزة ١٨٥/٢٥ - ١٩٢ .

الصورة الأدبية ، فهو كلف بتحديد الإطار المكاني والزمني للصورة ، ثم التيقن بما فيها من ألوان وجزيئات موجية ، ولا يبقى الصورة بلا روح أو حياة ، ولما بيعث فيها الدفء والحركة ، لتكون صورة واقعية لا ترتاب فيها عين أو خيال .

ومن ثم كانت الصورة الفنية في رجزه تطالعنا دائماً بالروعة والجمال والحيوية ، لما فيها من تكامل في أركانها الفنية المختلفة ، ولو انجمناً مثلانحو الإطار الزمني ، لوجدنا الألوان والحلوط وسائل الجزئيات تتغير في الصورة تبعاً له ، فإذا نظر إلى المشهد في الليل ، صوره بشكل يختلف اختلافاً يتيماً عن تصويره في وضوح النهار ، وهذا يعني أن العجاج لا ينقل الصورة نقلاً تقليدياً ، وإنما ينصب على الموصوف عينا وأذناً وقلباً ونفساً وروحاً ، لنقل ما يراه بعينه ، وما يسمعه بأذنيه ، وما يتصوره بخياله ، فيجعل الآيات القليلة لاتعدو أن تكون قطعة من تلك الصحراء ، أو ذلك المنيل ، أو ما أشبه ذلك من تلك المشاهد الزاخرة في رجزه .

فإذا أراد الخمار والأذن أن ترد المنيل مع الصبح أو في أواخر الليل ، كان لابد أن يدقق النظر في جزئيات هذا المشهد ليلاً ، ويختار من اللقطات المناسبة ما يوحى هذا الواقع الزمني نفسه . فما كاد الصبح يخاط الظلام بشيء من ضيائه ، حتى رأى الخمار شيئاً من الحرارة في الأفق يتصل بصفرة من سواد الليل ، اتصال السلسلة البيضاء من اللجام بالسيور الأسود الذي يقع على خد الفرس ، ولما أبصر الخمار ذلك ، كان الآن أن تنزل إلى الماء لتشرب ، وهنا بدأ العجاج يرسم صورة هذا الماء في ذلك الحين من الليل ، فلما ذو أعراف وخرير يتعالى منه أصوات الضفادع ، والآن تضربه بقوائها لتزبل الطحلب وتشرب ، والنجوم ساجحات فيه كأنها السالك في صفحة

الماء (١) :

حتى إذا ما مدق الأسحار أفره يندو مظليماً قتياراً
وقد رأى في الأفق اشقاراً وفي تباحي ليلٍ اصفراراً
وصلتك بالسلسلة العذارا تعرضت ذات حذب جرجاراً
أملتس إلا الضفدع الثعساراً تركض من غمره الطراراً
تخال فيه الكوكب الزمعداراً للؤلؤة في المساء أو مستاراً
فهنا عني غاية بالغة بالألوان والأصوات واختار الجوانب الموجية ، التي تبرز في ذلك الوقت من الليل ، فالليل أسود قتيار ، والصبح أبيض أغر ، وفي الأفق حرة من الشفق ، وفي سواد الليل حفرة من اختلاطه بالفجر ، والجدول تير الريح عليه بعض التباعيد ، وخريره يتردد كاصوات البعير ، والضفدع تقتر فيه وتصوت ، وهذا رسم ذلك المشهد من الليل وفي الجدول والخمار والأذن ، فلوته بالوان الطبيعة ، ثم حركه وأسمع أصواتاً من أركانه المختلفة ، ثم تناول كل ركن بصور سريعة تبرزه في مخيلة السامع على أروع ما يريد له من تصوير . ولم يكتف بهذه الجوانب ، ولما دقق النظر في الجدول نفسه ليبرز في الصورة جانب الواقعة الحيوية ، ولهذا أدخل الآن إلى الماء لضرب الطحلب بأيديها فتبعده وتشرب ، وجعل النجوم تظهر في صفحة الماء بما فيها من بريق وتلاؤ وتوقد ، وبذلك استكمل هذا الشريط المتحرك من الصور المتلاحقة ليرسم مشهد الآن وهي ترد المساء قبيل الفجر بقليل ، وما نظن شيئاً يمكن أن يضاف إلى هذا المشهد ليكمل ما فيه من روعة وجمال .

وإذا كان في المشهد السابق لم يذكر من دقائق المنيل إلا تحذب الماء

(١) الأرجوزة ٤٦/٣٤ - ٥٥ .

وأعراؤه ، فذلك لأنه وصف ذلك المنهل في الليل ، ولولا بعض النور الخافت من أضواء النجوم ، لما أمكن للعجاج أن يذكر حتى ذلك الحدّ من الماء ، إلا أنه إذا ما أراد أن يصف المنهل في النهار ، جعل بصوره على نحو جديد ، يبرز فيه مآزاه العين بدقة واستقصاء من صور وجزئيات .

فالعجاج يغير بربود المناهل الحالية في البوادي والقفار ، ولذا كلّف الإطّار العام لصورة المنهل هنا أنه منهل بعيد عن الناس يخلو من الواردن ، وضمن هذا الإطار المحدّد سبّيز الجزئيات المرحية بهذا المنهل ، فالحمام قد أطمأن ، حتى ألقى قواده وويش ، فكان هذا الريش أشبه بنبال ورقاه منشأبة قد سقطت عنها نصالها ، والطجل قد جلل مائه الطامي المرقّع ، وغدا لطول الخباس الماء أشبه بما يبقى من الشحم بعد إذابته ، والأغصان قد تدلت حول الماء وعليها من نسج العنكبوت ما يشبه الأثواب الرقيقة من الكتان ، والمنهل نفسه قد اندفنت بعض أجزائه لما سفته عليه الريح من التراب والرمال ، وماؤه قد اصفر لونه ، واختلطت به أبعاد الجر والآرام وما إليها ، لتفردّه وبعده عن السابية (١) :

وَمَنْهَلٌ وَدَّكَه عَنْ مَنْهَلٍ قَفَرَيْنِ هَذَا تَمَّ ذَا لَمْ يُؤْهَلِ
كَانَ أَرْبَاشَ الْجَاهِ النَّهْلِ عَلَيْهِ وَرَقَانِ الْغِرَانِ النَّهْلِ
فَتَوَيْقُ طَامِي مَائِهِ السَّجَلِ مُجْفَاةُ الْأَجْنَرِ كَسَمِ الْجَمَلِ
كَانَ نَسِجَ الْعَنْكَبُوتِ الْمَرْمَلِ عَلَى دُرَى قَلَاهِمِ الْمَهْدَلِ
مُسُوبٌ كَتَّانٌ بِأَيْدِي الْغَزَلِ دَهْنٌ وَمُصَفَّرُ الْجَاهِ مُمُؤَلِ (٢)

فبنا قد حدد كثيراً من الجزئيات المرئية في هذا المنهل البعيد ، ولعلنا

نلاحظ بسهولة أنه لم يحرك أي صوت في جنباته ، فلا صوت للماء ، ولا حركة للحم ، ولا خفيف للأغصان ، وما ذلك إلا قدرة فنية من العجاج ، لأنه يريد الصمت والسكون المطلق لهذا المنهل القفر النائي عن الناس ، وذلك ليضيف إليه شيئاً من الرهبة ، التي لا يشعر بها إلا ذلك الإنسان المتفرد في قفر أو فلاة .

وبذلك نجد العجاج مصوراً حادفاً ، ينقل المشهد براقية فنية ، لانتصع فيها ولا تكتف ، وهذه الواقعية كانت تدفع به إلى اتخاذ كل عنصر يمكن أن يبرزها في صورته أو مشاهدته القصصية المختلفة ، ومن أوضح هذه العناصر ما تجده من تركيز على الحوار ، فالعجاج لا يكتفي مثلاً برسم ما حدث لوالي البلمة مع الخليفة ، وإنما ينقل ما دار من حوار ، فيجعل الصور نحيماً مع الواقع تماماً ، ولا يتعد عنه أبداً (٣) :

قَالَ لِإِمَامٍ هَذَا قَبْلِي بِذِي غَيٍّ أَمْلِي أَصْفَى مَا كَلِي
قَالَ لِإِمَامٍ : مَا تَجَعَلْتَنِي لِي ؟ فَقَالَ لِوَاهِمٍ : عَذْرَ الْمُؤْتَلِي
أَمَّا وَعَهْدُ اللَّهِ إِنَّ لَمْ أَغْفَلْ ..

ولا يقتصر الحوار على الإنسان ، وإنما قد نجد بين الصاد والكلاب ، فالصايد مخاطبها ، ويكشف عما في نفسه من قهر إلى الشواء (٤) :

قَالَ لَهَا وَقَوْلُهُ مَوْعِي وَكُلُّ ذَلِكَ يَفْعَلُ الْوَصِي
إِنَّ الشَّوَاءَ خَيْرُهُ الْطَوِي

وقد أكثر العجاج من الحوار والمناجاة ، واتخذ من ذلك وسيلة للكشف عن الصور الذاتية النفسية ، كما لاحظنا منذ قليل ، إلا أن هذا الحوار كان

(١) الأرجوزة ١٢/١٠٢ - ١١١ .

(٢) دُفن وموأل : صفحة لـ « منهل » في البيت الأول .

(٣) الأرجوزة ١٤٩/٢٥ - ١٥١ .

يساعد على الواقعية أيضاً في صوره ومشاهده ولا سيما القصص منها .

ومن صور الواقعية أيضاً ما غنّده من ولع عند العجاج بذكر أسماء البعير أو الناقة أو الكلاب ، ففي بعض الأراجيز يذكر اسم جملة « مسجول » ، وفي أراجيز أخرى يذكر اسم فلقته « الشعلاء » ، فإذا وصف هذه الناقة أو ذلك الجمل ، أصبح الوصف أقرب ما يكون إلى الواقعية ، ومثل ذلك حديثه عن الصباد والكلاب ، فالثور مثلاً يرى صياداً معه كلاب يدعو منها « عطافاً » وأخا « عطاف » (١) :

حتى رأى من حالك الأسدافِ ذا أكليب نواهر خفافِ
يدعو عطافاً وأخا عطافِ

فهذا جانب من دقة العجاج ، لإضفاء الواقعية على صوره ، إذ كانت ينجح دائماً إلى الدقة في صوره ، ويختار لها من الدقائق الفنية ما يجعلها في غاية الجمال والإتقان الفني ، فإذا شبه الجيش بسيل من الجراد ، لم يكتف بأنه جراد يسد الأفق أو تدعوه خضرة فيجد في طلبها ، وإنما دقق في الصورة فأضاف إليها عنصراً جديداً يوحى بتحفّز هذا الجراد واندفاعه في سيره ، فهو غرض بكائه صجراً منه ينتظر شروق الشمس ليندفع ويتشر (٢) :

سيلُ الجرادِ السُّبُورِ تَدُ الْغُصْنِ آوَاهُ لَيْلٌ غَرَضاً نَمِ الْبُسُكُ
وقنّأت عنه ضُحَى الشُّرُقِ الْغُصْنِ فَمَدَّ أَغْرَافَ الْعِجَاجِ وَانْتَبَسَرُ

وإذا أراد وصف بعيده بالسرعة ، جعله كالثور الوحشي على عادة الشعراء ،

(١) الأرجوزة ٢٣/٨ - ٣٥ .
(٢) الأرجوزة ١٥٤/١ - ١٥٧ .

ثم دقق في صوره فاختار للثور أن يكون مطوراً ، لأنه إذا مطير اشتد عدوه (١) :

بل خيلتُ أعلاقي وجلبَ الكُورِ على سراق رائسح تمطُورِ
وإذا ما أراد تشبيه الثور بالبرق في سرعته ، رأيناه يستعني من ذلك « لون البرق » ، وما هذه الدقة إلا لأن الثور الوحشي فيه خطوط سود ، والعجاج لا يريد الوهم لصورته ، فيظن أنه يريد مجرد التشابه في اللون (٢) :

على سراق فاسيط خطاطِ بمقلب الطرف يبغي أراطِ
كالبرق إلا لونه ميساطِ

وإذا ما تحدث عن الحرة ، وأشار إلى مزجها بالماء ، دقق في صورة هذا الماء وأراد أن يكون في غاية الرقة والصفاء ، ولهذا جعل الشراب يمزج بماء سال من رصف (٣) ، حتى اجتمع في صباريج من صفاء وحجارة ، وذلك لأنه أصفى له وأرق (٤) :

فشنّ في الإبريق منها زوقاً من رصف فازع سيلاً رصفاً
حتى تناهى في صهاريج الصفا

وبذلك لا تخلو صور العجاج من الدقة في تناول الجزئيات الموحية من الموصوف ، ولا سيما أن جلّ اعناده في وسائل التصوير كان ينتجه إلى اختيار هذه الجزئيات الموحية ، وتناول اللقطات المرفقة البارة من المشهد ، فإذا أراد مثلاً أن يسكن الأطلال نعاماً أو بقرأ وحشياً ، لم يتخيل بقرّة الوحش دون أن يختار لها لقطة توظف الخيال ، وتنبّه الأحاسيس ، لا فيها

(١) الأرجوزة ٨٢/١٩ - ٨٣ ، وانظر الصبحاح ١/٣٧٠ .
(٢) الأرجوزة ١٩/٢٠ - ٢١ .
(٣) الرصف : حجارة مرصوفة متصلة .
(٤) الأرجوزة ٢١/٤٤ - ٢٣ .

من ملامح موجية مؤثرة في النفس الانسانية ، فقد اختار لهذه البقرة أن يكون لها ولد صغير تدفعه قليلاً قليلاً ونهشه للشيء ، ثم زاد من تزيين هذا المشهد حين دق النظر في هذا الطفل ، ونقل ما يرى في قوائمه عادة من لون السواد ، فعمله كأنه يلبس خيفاً من الأرندج ، وهو ذلك الجلد الأسود الذي تصنع منه الخفاف^(١) :

وكل عينا ترجي بخرجا كأنه مسرول أرندجا

ولا يقف العجاج عند الدقة واختيار اللقطات المناسبة ، وإنما يعتمد غالباً إلى شيء من المفارقات في رسم صوره ، وذلك للتوداد وضوحاً وإشراقاً ، ويتم لها ما يرتضيه من الابداع الفني ، فإذا تحدث مثلاً عن فتان قريش في جيش عمر بن عبد الله بن معمر ، رأيناه يرسم مفارقة فنية سريعة لفق قريش ، فهذا القوي حلو في تساهله ، إلا أنه مر في عدائه^(٢) :

ومن قريش كل مشبوب أعر ملحو المساهة وإن عادى أمر

وإذا تحدث عن الغواني رسم مفارقة أيضاً بين حاله وقد أمسى الشيب في رأسه ، وحالهن ألام كان في برء الشباب ، فمن اليوم معروضات عنه ، وقد كن بالأس مالات إليه بالعيون والأعناق^(٣) :

ما لاغواني معروضات صددا وقد أراهن إلينا عندا

بالطرف واللبثات خوراً مقودا لما رأين الشيب قد تعهدا

وإذا عاتب ولده رؤية لجأ إلى مثل هذه المفارقات في رسم بعض الصور الذاتية المؤثرة ، فالعجاج قد كبر وأرعشت أطرافه ، وكان ينبغي أن يراه

- (١) الأرجوزة ٩/٢٣ - ١٠ .
(٢) الأرجوزة ٨٤/١ - ٨٥ .
(٣) الأرجوزة ١/٢٧ - ٤ .

رؤية على هذه الحال ، فيرق له ويعطف عليه ، ولكن هذا لم يحدث ، وإنما حدث شيء يفارقه ، إنه يستعجل الموت لأبيه ، ويرجو أن يكون الخلاص منه سريعاً^(١) :

واستعجل الموت وفيه كتاب يستعزم الإلف عن الآلاف
لما رأي أرعشت أطراف

وهذه المفارقة الفنية تبنياً في أنفسنا شيء من التعاطف مع العجاج ، ولكنه لم يلبث أن أكد هذا التعاطف بمفارقة فنية أخرى ، إذ عرض لرؤية أباه كان صغيراً في حاجة إلى حنان أبيه وعطفه وإعائه ، فكان العجاج يحنو عليه ويعوله ويحسن غذاه ، حتى إذا ما قوي واشتد ، لم يتجزأ أباه إحساناً بإحسان ، أو عطفاً بعطف ، وإنما جعل يتكرر له ، يريد أن يصطفي ماله قسراً^(٢) :

سرعته ما شئت من سرعاف حتى إذا ما آض ذا أعراف

كالكوذن المشدود بالإكاف قال الذي جمعت لي صراف

فالمفارقات الفنية من أبرز وسائل العجاج في تحقيق ما يريد له صورته من تأثير نفسي ، أو كمال فني ، أما وسائله في رسم الصورة نفسها ، فكانت جل اعتماده فيها على معاني الألفاظ والمجاني ، دون الاعتماد الكلي على التشبيه والاستعارة وما إلى ذلك ، فإذا وصف الجيش وقت رسم صوراً ومشاهد من واقع الجيش ، وذلك بالألفاظ المعبرة عن تلك الصور والمشاهد ، دون أن يلجأ إلى التشبيه في كل صورة ، كالذي نجد مثلاً في معلقة امرئ القيس أو معلقة طرفة بن العبد ، فالجيش ذو قداميس وهي الكتائب المتقدمة ،

- (١) الأرجوزة ٥١/٨ - ٥٣ .
(٢) الأرجوزة ٥٦/٨ - ٦٢ .

وهو لَهَا "لاير بشيء إلا ابتلعه والتهمة ، وهو قوي كثير لو اندفع فوق جبل فدمه وقلعه من أصله ، وهو كثير العدد والعدد ، ثقل البير ، لا يرى له أثر على الأرض كما يرى أثر الجيش القليل السريع ، بل إنه لا يور بالفلفاف الصعبة من الأرض ، حتى يدقها ويُسبها ، ولا يور بالسهول أو اليد حتى يحفرها حفراً ويؤثر فيها تأثيراً (١) :

يُفَكِّه حَتَّى رَأَى الصَّبْحَ جَشَرَ عَنْ ذِي قَدَامَيْسَ لَهَا لَوْدَسَرُ
بِرْ كَيْهِ أَرْكَانَ دَمَغَرٍ لَانْقَعَرُ أَرْعَنَ تَجْرَانِ إِذَا تَجَرُ الْأَثَرُ
دَوَّتْ صَعِبَاتُ الْقَفَافِ وَانْبَسَّاتُ بِالسَّهْلِ مَدْعَاً وَبِالْيَدِ الثَّقَرُ

فالجيش هنا قد برزت له صور متعددة لأشأن التشبيه فيها ، وإنما جاءت كلها عن طريق الألفاظ المعيرة عنها ، والموجبة بها ، إلا أن التشبيه يظهر بعد ذلك ليكون حلية أو وسيلة لنقل الوصف إلى موضوع جديد مادام العجاج كلها تنقل كل مافي وسعه من مشاهد الطبيعة أو الصحراء ، ولهذا يرى من المناسب أن يتحدث عن كثرة هذا الجيش فيجعله كالليل ، وعن جلبيته فيجعله كالطر ، وإلحق أنه ما أراد من هذا التشبيه إلا أن يصل به إلى ذكر المطر ، ومن ثم ينهي مهمة التشبيه ، ويبدأ وصفاً للمطر بالألفاظ نفسها ، دون استعانة غالباً بأي وسيلة أخرى (٢) :

كَأَنَّمَا نُهَاهُ لَيْسَ تَجَرُ لَيْلٌ ، وَرَزْهُ وَغَرَّهِ إِذَا وَغَرَّ
سَارِ سَرَى مِنْ قَبْلِ الْعَيْنِ وَتَجَرُ عِطَةُ السَّحَابِ وَالْمَرَابِيعِ الْكُبَرُ
وَزَفَرَتْ فِيهِ السَّوَابِي وَزَفَرَتْ بَغْرَةَ نَجْمٍ هَاجَ لَيْسَ لَهَا فَعَرُ
مَاءٌ نَسَاخَ حَلَبَتْ مِنْهُ فَدَرُ حَذَاوَاهُ تَحْدُوهُ إِذَا الْوَيْلُ انْقَشَرَ

(١) الأرجوزة ٤١/١ - ٤٦ .
(٢) الأرجوزة ٤٧/١ - ٥٤ .

فالألفاظ هنا هي التي تنقل مشاهد المطر والسحاب ، ولا تكاد تميز إلا بعض الاستعارات الطريفة والقليلة ، حين جعل الرياح تحمى السحاب وتسوقه ، ثم تحلب منه الوَيْلُ والمطر .

وما رأيناه في الأبيات السابقة يمكن أن نراه أيضاً في وصف العجاج لبعيره ، فقد نقل بعض الصور الذاتية لما يقاومه بعيره مسجول من ملاحظة الإقامة والانقطاع عن السفر ، ثم أتى ببعض الصور الموسومة له ، فكانت الألفاظ بمعانيها وإيجازها هي التي ترسم هذه الصور ، فقد ذاب بنجاح كله ، إذ السمين ، وتعرى وتسطه من اللحم ، وانضمت ثنايا بر العجاج كله ، إذ وغدا كالجبل المقتول من الهزال ، وإذا سار رده ، أما جل اعناده فقد كان برأس طويل السَّحِينِ يعتمد على السَّفَارِ ، رعتها بمعاني الألفاظ وإيجازها ، وأشبهها بموم السَّدِيفِ الواري عَنْ تَجَرٍ بِحَاجَةٍ إِلَى مَقْدَرَةٍ فَنِيَةٍ وانضم كَشْحَاهُ مِنَ الْمِضْمَارِ وَأَخْضَ بِمِثْلِ تَشْبِيهِ فِي صَوْرِهِ ، ذلك يَشْقَى دَوَّحَ الْجَوَارِ وَالصَّنَّارِ بِسَكَنِهِمْ يَحْمِلُ كَيْفَ مِنْ زَمَانٍ فالألفاظ بمعانيها وإيجازها ، هي التي نقلت صوراً مختلفة لهذا البعير الغريب أما التشبيه فكان دوره ثانوياً ، ولم يرد إلا ليكون حلية بين هذه الصور المتعددة ، ولم يلبث العجاج أن اعتمد على التشبيه لنقل الوصف إلى موضوع آخر ، فشبه بعيره بسفينة تجري في دجلة ، ثم انطلق إلى وصف هذه السفينة ، فعاد إلى الاعناد على معاني الألفاظ ، لأن دور التشبيه قد انتهى بمجرد انتقال موضوع الوصف من البعير إلى السفينة (٣) :

(١) الأرجوزة ٨/٤ - ١٣ .
(٢) الأرجوزة ١٤/٤ - ٢٠ .

كَانَتْ إِذْ ضَعَفَهُ أُمْرَايَ مَوْفُورٌ سَاجِدٌ فِي دُجَيْلٍ جَارٍ
مُنْزَوْطًا جَاءَ مِنَ الْأَطْرَافِ دَانَتْهُ تَضْيِيبٌ وَعَضُّ قَنَازٍ
مِنْ خَشَبِ النَّجَارِ وَالنَّجَارِ قَوَتْ الْعِرَاقُ ضَامِنَ السَّقَارِ
وَلَا حَ خَوْءٌ مِنْ سَهْلٍ سَارٍ

فهو هنا لا يصور السفينة بغير الألفاظ المعبرة الموحية ، فهي من خشب
نار ، وتجري في دجلة ، وتسرع قادمة من نواحي البلاد ، وقد صنعتها
بروكسريد بعد تضبيب وسمر بالمسامير أو الألياف ، وهي تقطع العراق
دبت صعبات العبد الحري في دجلة لئلا وقد لاح ضوء من نجم سهيل .
فالجيش هنا قد برزت له بتركز على الألفاظ نفسها لا على التشبيه ،
جاءت كلها عن طريق الألفاظ بكون وسيلة الانتقال بالوصف من موضوع
يظهر بعد ذلك ليكون حلية بعض الصور القليلة لتكون حلية وزينة بين
العجاج كلها ينقل كل مافي قوله يدح ابن معمر^(١) :

من المناسب أن يتطقت الظنقر شهادة فيها ظهور من ظهر
فيجعل كالمطبخا عن الدمين القنتر أو شرقا ميم نوراً قد زهر
كما ميم ليلته البدر القمر

فالصورة الأخيرة قد اعتمدت على التشبيه ، فكانت أشبه بجلية تزين
الصور السابقة لها . ومثل هذا أيضاً قوله يتغزل بامرأتى إيزيس العشي^(٢) :

ديار إيزيس العشي تخوزل غراء لم تلتج يلبوس الشكل
لم تغل في بوس ولم تتكل ولم تنبت بالجراو المحتل
ولم تضامر وصبا فتسلل ركاضة للإبرير والمرحل

(١) الأرجوزة ١/ ١٣٩ - ١٤٣ .

(٢) الأرجوزة ١٢/ ٢٩ - ٤٠ .

بِقَصَبِ قَتَمِ الْعِظَامِ خُصِّلَ رِيَانٌ لَا تَعَشُّ وَلَا مُهْبِلٌ
فِي صَلْبٍ لَدَيْنِ وَمَشْيٍ هَوَّجِلٌ تَدَافُعُ الْبَدَوَلِ إِثْرُ الْبَدَوَلِ
فِي أَنْعَابِ السَّجُونِ الْمُرْسَلِ مِثَالَةٌ عَلَى الْكَيْلِ الْمُحْتَلِ
فهذه الصور كلها تعتمد على الألفاظ المعبرة ، وأما صورة تدافع الجدول
لإثر الجدول ، فقد جاءت تعتمد على التشبيه ليكون حلية وزينة في الأبيات ،
ولا شك أن هذه الصورة قد جملت ما ورد قبلها من صورة المشي المستوي
لذلك المראה .

وما رأينا في هذه الأمثلة يمكن أن يطالعنا في رجز العجاج كله ، إذ
لا يخرج التشبيه عنده عن أن يكون أداة انتقال في الوصف من موضوع إلى آخر
أو أن يكون حلية سريعة داخل أوصافه وصوره ، أما جعل اعناده فقد كان
على اختيار اللفظ الموقفة من الوصف ، والتعبير عنها بمعاني الألفاظ وإيجازها ،
وفي هذا طور هام في التصوير الفني ، لأن الشاعر بحاجة إلى مقدرة فنية
واسعة ، حتى يمكن له التخلي عن الاعناد الكلي على التشبيه في صورته ، ذلك
لأن تتبع الجزئيات ورسمها بدقة واستقصاء مع تحديد لأركانها من زمان
ومكان والأوان وما إلى ذلك يحتاج إلى مهارة فنية ، لا يدعو إليها التشبيه
في أكثر الاحيان .

وقد تكون الاستعارة طورا متأخرا عن التشبيه ، لما فيها من إيجاز لبعض
تفصيلاته ، وتخفف من بعض أركانه ، وربما كانت مرحلة فنية جأ إليها الذوق
الفني قبل أن يتخلى عن الاعناد الكلي على التشبيه في الوصف والتصوير ، ولا
سبأ أن الاستعارة في وسعها أن تجعل المشهد تجميلا فنيا لا يقوى عليه التشبيه ،
لأن التشبيه يوزع الخيال بين صورتين متقابلتين ، دون أن يركز الخيال على
الصورة الموصوفة نفسها .

ومن هنا كان الاستعارة سلطان أوسع من التشبيه في رجز العجاج ،
فالسيف السريجية تحطف الأعناق ، وتوقد الشرر في حديد البئس فوق
الرؤوس^(١) :

وبالسريجات يخطفن البصر وفي طرايق البئس يوقدن الشرر^(٢)
والشقائق سحابة تنشر ولا تجري على القصد ، ثم ينهب بها صوب^(٣)
المطر فيهلكها ، وذلك حين أمطرت الأيدي بالضرب والطعن ، وانخذلت
من السيوف صواعق تنصب بالوت والهلاك^(٤) :

واشتق شؤوب الشقاق واشفت^(٥) وأزلفت^(٦) لجة الغيث سحر^(٧)
إذ أمطرت فيه الأيدي ومطر^(٨) يصاعقات الموت يكشفين العسر^(٩)
والحرب نار يمكن أن توقد فتشعر وتأخذ كل شيء بالحر والوهج ،
ويمكن أن تكون دابة غريبة تلبس ثيلا فيه بياض وحرارة من لطم الدماء^(١٠) :
إننا إذا مدي الحروب أوجعا منها سعارا واشتطات^(١١) وهجا
وليسست^(١٢) للموت مجلا أخرجا^(١٣)

وأمثال هذه الصور كثيرة في أوصاف العجاج ، مما يشير إلى أنه قد
يعتمد على الاستعارة في ترين صوره أكثر منه على التشبيه .

وبذلك فالعجاج في أوصافه يعتمد إلى التصوير بالألفاظ المعبرة الموحية
ثم بالاستعارة ، ولكنه لا يأتى بالتشبيه إلا حين الانتقال من وصف موضوع
إلى وصف موضوع آخر ، أو حين يريد منه أن يكون حلية سريعة لبعض
الجزئيات في صورته الفنية .

- (١) الأرجوزة ١١٦/١ - ١١٧ .
(٢) الأرجوزة ١٦٢/١ - ١٦٥ .
(٣) الأرجوزة ١٠٣/٣٣ - ١٠٥ .

- ٢٣٦ -

وما تقدم كله ندوك أن الإصف كان من أبرز موضوعات العجاج ، إذ
غلب على أكثر الموضوعات ، واختص نفسه بأكثر الأراجيز المطولة ،
ولكن العجاج قد اهتم بأكثر موضوعات الشعر العربي آنثذ ، فتناول في
رجزه موضوعات التسبب ، والمدبح ، والفخر ، والتعريض ، والوعظ ،
والحكمة ، وما يتفرع عن هذه الموضوعات من أغراض ومعان مختلفة .

* * *

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الرَّحْمَنِيُّ
مُسْلِمُ الدِّينِ الرَّحْمَنُ الرَّحْمَنُ

الفصل الخامس
الخصائص الفنية في رجزه

لأنك أننا في دراسة موضوعات العجاج ، قد عرضنا لبعض الخصائص الفنية في رجزه ، ولا سيما حين تناولنا موضوع الوصف ، وبيننا طرائق العجاج الفنية في التصوير . وهنا سنخص هذا الفصل بدراسة الخصائص المعنوية ، ثم الخصائص اللفظية ، وبذلك تتكامل لدينا شيئاً فشيئاً صورة جلية للخصائص الفنية في رجز العجاج .

١ - الخصائص المعنوية

لأن أول ما يبرز لنا في معاني العجاج أنها ترجع بين الرضوخ والغموض ، كثرة تبرز المعاني واضحة لا غموض فيها مطلقاً ، وطوراً تبدو جلية لا يشوب إلا بعض الألفاظ الغريبة ، وأحياناً تظهر غامضة لأسباب كثيرة جداً . أما الرضوخ المطلق فهو قليل نسبياً في أراجيزه ، وأكثر ما نصادفه في وعظه أو غزله أو بعض المقطعات القصيرة ، ومثال ذلك قوله في الوعظ^(١) :
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَعْظَمِ .
ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْجَلَالِ الْأَفْخَمِ .

(١) الأرجوزة ٣٩/٢٤ - ٤٤ .

وعالم الإعلان والسكتم . ورب كل كافر ومسلم .
والساكن الأرض بأمر ممكتم . تبي السموات بغير مسلم .
وفي هذه الآيات لا إغراب في الألفاظ ، ولا غموض في المعاني ، ذلك لأنها لا تستمد المعاني والأخيلة من نفحات الصحراء ، وإنما تستمدّها من الدين الخفيف ، فتأتي سهلة واضحة كأنها تقرب من أساليب النثر الفني .
ومثل هذه الآيات قل أن نصادفه في أراجيزه ، ذلك لأن من خصائص مدونة الرجز - كما سنرى - الإغراب في الألفاظ اللغة ، ولهذا غالباً ما نجد وضوح المعاني رغمًا بهم الألفاظ اللغوية الغريبة في آيات العجاج ، وربما قلت هذه الألفاظ فلم نحوج إلى كبير عناء ، كقوله^(٢) :

يَا ذِكْرَهُ ذَكَرْتُ لَيْلِي بعدما جَالُ الْفَوَاحِ جَبُولُهُ واستهزمتُ
واستبدلتُ لَيْلِي سَمَاءً وَتَحَا قَامَتْ تَرْبِكَ تَحْشِيَةً أَنْ تُصَرِّمَهَا
سَاقًا بَحْنَدًا وَكَعْبًا أَدْرَمَهَا وَكَفَلًا وَغَمًا وَكَشْحًا أَهْضَمَهَا
ولما تكثر الألفاظ الغريبة في الآيات ، فلا يفهم المعنى إلا بعد تَربُّتٍ وإبطاء ، وتعود إلى معاجم اللغة ، وسؤال عن معاني الألفاظ واحدة بعد أخرى ، ومن ذلك قوله^(٣) :

وَبَلَدُهُ يَسَاطِيهَا نَطِيئُهُ قِيَّ تَنَاصِيهَا بِلَادُهُ قِيَّ
الْخَمْسُ وَالْخَمْسُ بِهَا جِلْدِي نَقَطَعَهَا وَقَدْ وَتَى الْعَطِيَّ
رَكُضَ الْمَنَازِكِ وَأَتَمَّى الْحَوِيَّ وَمُضْطَرُ الْأَبْصَارِ أَنْخَرِيَّ
حَوْمَ عُدَافٍ تَهْدُبُ حَبِيبِي لُجَّ كَأَنَّ فَنِيَّ مَنِيَّ
ومهما كثرت الغريب في هذه الألفاظ ، فالمعاني واضحة جلية ، إذ لا نجد

(١) الأرجوزة ٩/٢١ - ١٤ .

(٢) الأرجوزة ٥١/٢٥ - ٥٨ .

غرضاً من وقفنا على معاني الألفاظ الغريبة ، وهذا ما نضاده غالباً في رجز العجاج ، إلا أن هذا الرجز ربما وجدنا فيه الغموض في المعاني لأسباب كثيرة ، وأبرزها ما اتخذته لنفسه من تصرف واسع في اللغة والتراكيب وبناء العبارة بوجه غام . فإذا أجابت معالجه اللغة إلى معاني الألفاظ الغريبة في رجزه ، فالمعنى واضح لاغموض فيه ولا إلهام ، ولكنها ربما أحججت أحياناً ، فلم نجد فيها شرحاً لهذه الكلمة أو تلك ، وبذلك نجد أنفسنا أمام مشكلة غامضة لا يتيسر فهمها في غالب الأحيان ، وقد كان هذا شأن الأصمعي نفسه في شرحه للديوان ، فقد أثنى هذا البيت ^(١) :

هَشَمَكْ تَحَوَّلِي الْهَيْدِ أَرَكَا

ثم قال : « ويروي : الراتكا ... والراتكْ أَرَتْ تَقَارِبَ الْبَطُونِ وتسرع المتشئ . قال الأصمعي : وأما قوله : الهيد الراتكا ، فإن هذا لا أدري ما هو » . وأشدّه ابن قتيبة بالرواية الثانية ثم أشار إلى الأصمعي ، فقال : « وقال : لا أدري ما الهيد الراتكا ، غير أن الراتك مقاربة الخطو . وقال بعضهم : إن الخطل يؤخذ فيلقى فيه في حوض ويصب عليه الماء مراراً ، ثم يوطأ بالأرجل ويدلك ذلكاً شديداً ، فإذا طاب الماء ، أخرج وجففت ثم جئت فطبخ به واتخذ منه السوق . يريد بالراتك المروك فيه » ^(٢) .

فالمعنى في البيت غامض لأن العجاج أتى بلغة غير معروفة على ما يبدو حتى بالنسبة للأصمعي نفسه ، وهذا ما يحدث أيضاً إذا ما أتى بلغة تحتل أكثر من وجه واحد ، ومن أمثلة ذلك قوله ^(٣) :

(١) الأرجوزة ٧/٥ .

(٢) المعاني الكبير ٩٨٦/٢ .

(٣) الأرجوزة ٣٣/٣٧ - ٤٠ .

أُزْمَانٌ أَبْدَتْ وَاضِحاً مُفْلِحاً . أَغْرَ بَرَأْفًا وَطَرَفًا أَبْرَجِبَا
وَمُفْلَكَةً وَحَاجِبًا مُزَجِّجًا وَفَاحًا وَمَرْسِيًا مُسْتَرْجِبًا
فترصفه للهنس ، وهو الألف ، بأنه مُسْتَرْج ، غير واضح قائماً ، لأنه يحتل أكثر من وجه واحد ، حتى قال الخطيب القزويني : « إنه لم يُعرف ما أراد بقوله مسترجاً ، حتى اختلف في تحريكه ، فقبل : هو من قولهم للسيوف سرجية منسوبة إلى قين يقال له : سريج ، يريد أنه في الاستواء والدقة كالسيف السرجي . وقيل : من السراج ، يريد أنه في البريق كالسراج » ^(١) .

ومن ثم كان بعضهم يجعل « السرج » في البيت بمعنى المُحَسَّن ^(٢) ، وبعضهم يجعله بمعنى الاستواء والدقة ، أو يشير إلى الاختلاف في معناه ^(٣) . والمهم أن الأصمعي لم يسمع بهذا الوصف إلا في رجز العجاج ، وما عرف معناه إلا بسؤاله أعرابياً عنه ، قال ابن دويد : « وأنت مسترج : دقيق ، قال الأصمعي : ما كنت أعرف المسترج ولم أسمع إلا في بيت العجاج : (البيت) ، فسألت أعرابياً عنها ، فقال : أعرف السرجيات ، يعني السيوف ؟ قلت : نعم ! قال : ذاك . أراد أن الألف دقيق كالسيف السرجي ، وهو منسوب إلى قين يسمى سريجاً . وقال آخرون : مسترجاً ، أراد منبراً . كلون السراج » ^(٤) .

(١) شرح الايضاح ١١/١ .

(٢) انظر المخصص ١٥٤/٢ ، والازمنة والامكنة ٣٢٥/٢ ، وسمرات البلاغة ٣٠ ، والمفردات في غريب القرآن ٢٢٩ ، والمقاصد النحوية ٣٥/١ ، وشرح

شواهد المعاني ٢٦٩ .

(٣) انظر جوهرة اللغة ٣٣٨/٢ ، والصحاح ٣٢٢/١ ، وصحح الأعمش ٢٠٥/٢ ، ومختصر المعاني للفتاوي ٩ ، ومتن التلخيص ٥ ، واللسان (سرج) .

(٤) جوهرة اللغة ٧٦/٢ .

فالغموض قد يترتب إذن على لغة العجاج نفسه ، ولكنه لا يقتصر عليها ولذا يتعداها إلى ولوع العجاج بالقلب المعنوي ، ومن أمثلة ذلك ما نقله الرزباني ، فقال : « أخبرني الصوفي قال حدثنا القاسم بن اسماعيل قال حدثنا محمد بن سلام قال : سمعت يونس يقول : كان رؤبة عندي ، فقال له وجل مامعنى قول العجاج :

وتحبس الناس الأمور الحبسا

فقال له رؤبة : قلبه توبلتك^(١) .

فالمرنى قد استغلغل في البيت بهذه الرواية لما فيه من قلب معنوي ، وأصله « تحبس الأمور الناس » ، وأمثلة هذا القلب كثيرة في رجز العجاج ، وهي غالباً ما تثير الغموض في أبياته .

ومن أسباب الغموض أيضاً طريقة العجاج في بناء بعض التراكيب بناء يكثر فيه الحذف ، أو التقديم والتأخير ، وما أشبه ذلك . فإذا أكثر من الحذف ، أصبح المعنى غامضاً جداً ، لا يفهم إلا بعد كد وعناء في التأويل والتقدير ، ومن ذلك قوله^(٢) :

وقد لبسني جنهني جني في غيطلات من مجنا الدجني
يمتطيقي لو أنشئ أنشئ تحيات هضبي جني أولي أني
في خرعرب أسود مستجني

فقد حذف متعلق « في خرعرب » في البيت الأخير ، والتقدير : « أو لو أني أنفخ في خرعرب » ، ولولا هذا التقدير لما فهم البيت ، ولا سيما أن

(١) الموشح ٢١٨ - ٢١٩ ، والبيت من الأرجوزة ٦٤/١١ ، ورواية الديوان « وحابس الناس » وقال الأصمعي في شرحه : « يقول : حبسوها وحبستهم » .

(٢) الأرجوزة ٢٦/١٦ - ٢٠ .

الخرعرب لم تشرح من قبل الأصمعي ولا وجود لها في المعاجم ، أضف إلى ذلك أن المعنى في الأبيات الأولى جاءت فيه مسحة من التأنق مبعداً من العجاج عن المعاني الصريحة في مثل هذا الموضوع .

وقد يجتمع الحذف في تراكيبه مع احتمالات أخرى ، فلا يزداد المعنى إلا غموضاً ، ومن ذلك قوله في حمار الوحش والأثن^(١) :

كأنه لو لم يكن حمارا يهن ثالي النجم حين غارا

فقوله « يهن » أصله « بطردهن » ، فأسقط منه المضاف ، فأدى إلى شيء من الغموض في المعنى ، وعلى هذا التقدير جاء شرح الأصمعي للبيت ، ولكن الرزباني رأى فيه شيئاً آخر ، فقال : « ويجوز أن يكون المراد بقوله (يهن) بطردهن فحذف المضاف ، ويجوز أن يريد بالجماع معين ويكون في الباء تقديران : أحدهما أن يكون العامل فيه ما في كان من معنى الفعل أي يشبه العير تطرده الأثن ثالي النجم . والآخر أن تعلقه بكان أي لو لم يكن حمارا بطردهن أو بالاجتماع معين ، والمعنى أن كونه حمارا يمنع أن يكون كثنالي النجم على الحقيقة ولأن كان كونه خلفها تكون الدبران خلف الثور^(٢) » .

فالحذف في مثل هذه المواضع يجعل في المعاني غموضاً لا يفهم بشيء من البسر والسهولة ، وكذلك الأمر إذا ما عاظم في عبارته فقدم على هواء في بنية البيت ، ومن ذلك قوله في وصف الثور^(٣) :

كأن من سائب السباط كثنائها أو سدر أتمساطر
عليه مجلاً باقي السباط غنير الشوى وموضيع العلاط
والقطم عند تحقير الإسماطر

(١) الأرجوزة ٦٢/٢٤ - ٦٣ .

(٢) الأرملة والامكنة ٣١٩/٢ .

(٣) الأرجوزة ٢٢/٢٠ - ٢٦ .

فهذه الأبيات لا تقوم بسهولة قبل إعادة النظر إليها ، بتقديم ما تأخر ، وتأخير ما تقدم ، ذلك لأن تقدير الكلام : « كان عليه جلا من سائب الخياط غير الشوى .. » ، يريد عليه جلا أرض غير مواضع من جسده يرى فيها سواد .

وهذا الغموض يتوكل في رجز العجاج ، حين يتصرف بالألفاظ ، ويخرج على بنيتها في اللغة ، ويأتي بصيغ لم تسمع إلا في رجزه ، ومن الصعوبة يمكن أن يغلط المرء أحيانا إلى أصولها في اللغة ، ومن ذلك قوله معترضاً بالختار التقفي^(١) :

قد علم المختار إذ تجد الجبا وبلغ الماء حلاقيم الزمير
من الذي غيبت غيب الصبا

ومن أين لنا أن ندرك بسهولة أن « الصبا » هنا يريد بها « الصبيان » . وقال الأصمعي في شرحه : « يقول : من الذي عاج كما يوج الصبان ولم يقر أمره » . ومن ذلك أيضا قوله يقتض بالفرد من أبناء قبيلة^(٢) :

أعداؤه ذلوا وما تأثسا يفتضم القسا ولأن ريم قسا

و « القسا » لم يشرحها الأصمعي ، ولا وجود لها في اللغة ، لأنها نتيجة تصرف من العجاج أبعدا عن أصل بنائها اللغوي ، وكيف لنا أن نفهم البيت ، قبل أن نكد الذهن لورد الكلمة إلى أقرب أصل يمكن أن تعود إليه ، ولذلك لا بد من الإيغال في التقدير حتى نصل بها إلى « القساة » أو « القسا » جمعاً لـ « قاس »^(٣) .

(١) الأرجوزة ٣٦/٧ - ٣٨ .
(٢) الأرجوزة ٧٥/١١ - ٧٦ .
(٣) انظر تعليقنا على البيت في شرح الديوان .

وأمثال هذا التصرف في رجزه كثير جداً ، وغالباً ما يبعث على الغموض في معاني الأبيات ، ومنه ما أتى الأصمعي بشرح أو تقدير له ، ومنه ما تخلى عنه دون أن يدل برأي فيه .

وما تقدم نذكر أن الغموض له سلطان لا يخفى في رجز العجاج ، ولا ندري إذا كان للطبيعة أثر في إيجاد بعض الأسباب الداعية إليه ، ذلك لأن من الأخبار ما يدل على أن العجاج قد كان ينظم الأرجوزة المطولة أحياناً في لية واحدة ، ومن ذلك ما قاله ابن قتيبة : « ولما سمي العجاج بقوله :
حتى يعرج عندها من عججعا^(١) »

قال : « قلت هذه الأرجوزة في لية واحدة وانتالت علي أنشالا »^(٢) . وقال الجاحظ : « قال العجاج : لقد قلت أرجوزتي التي أولها^(٣) :

بكيت والمختزن البكيه وإنما تأتي الصبا الصبيه
أطرباً وأنت قيسري والدهر بالإنسان دويري
وأنا بالرحل في لية واحدة ، وانتالت قوافيا أنشالا ، ولني لأريد اليوم دونها في الأيام الكثيرة فما أقدر عليه^(٤) » .

وإذا صحت هذه الأقوال ، فذلك يعني أن العجاج ربما نظم بعض أرجوزته المطولة ، دون إبطاء أو روية ، ومن ثم كان لا بد أن تظهر بعض سمات الغموض في المعاني ، أو تبرز بعض ملامح التصرف الواسع في الألفاظ ، ولكن هذا قد يفسر جزءاً من رجز العجاج ، إلا أنه لا يكفي لتفسير

(١) الأرجوزة ١٤٦/٢٣ ، ورواية الديوان : « حتى يعرج تخنا » .
(٢) الشعر والشعراء ٥٧٣ .
(٣) الأرجوزة ١/٢٥ - ٤ .
(٤) البيان والتبيين ٢٠٩/١ ، وأشار إلى ذلك السيوطي في شرح شواهد المتن ١٨ .

الظواهر العامة في رجزه كله ، ولا نعتقد أن الطبع وحده كان وراء تلك الأراجيز الممتنة التي يطالعنا بها ديوانه ، وأغلب الظن أن الأسباب الداعية إلى الغموض في رجزه ، لم تكن نتيجة لإرسال الشعر دون تنقيف ، وإنما كانت تصدر عن إيمان العجاج بأنه صاحب اللغة وله أن يتصرف بها كيف أراد ، بل ربما كان يتعمد ذلك ليعرض من صور الاغراب ما وسعه إلى ذلك من سبيل ، وليقلل من نساخ الصحراء ما يعجز عنه الشعراء أجمع ولا سيما أرب قصور الخلافة والأماردة ، ويجالس القبائل في المريد ، كانت كلها تؤيد هذا اللون الجديد من الشعر ، وترى فيه صورة لماضيها ، وأنفاساً لبدايتها ، ومعرضاً لألفاظ لغاتها أو لهجاتها ، وهذا أدعى إلى الصنعة منه إلى الطبع .

فرجز العجاج لا يخالو من صنعة وتنقيف ، إلا أن الصنعة لعصر العجاج كانت شبه امتداد لما كانت عليه في عصر ما قبل الإسلام ، وبذلك كانت تختلف اختلافاً جذرياً عنها لدى المولدين من شعراء بني العباس ، من أمثال مسلم بن الوليد ، وابن المعتز ، وأبي تمام ، ومن سار على نهجهم من الشعراء . وقد بين ابن رشيق منعب الصنعة لعصر الجاهلية وما تبعه من العصر الإسلامي ، فقال : « ومن الشعر مطبوع ومضروع ، فالطبيوع هو الأصل الذي وضع أولاً وعليه المدار ، والمضروع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين ، ولكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمول ، لكن بطباع القدم عفواً ، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتنقيف ، فكان يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقيب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك . والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن

تجس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظه أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزائته ، وبسط المعنى ولوازمه وإلتقان بنية الشعر وإحكام القوافي وتلاحم الكلام ببعضه بعضاً^(١) .

فالصنعة في عصر العجاج كانت تنسج إلى العناية بالألفاظ فصاحة وجزالة ، والعناية بالمعاني بسطاً ولوازمياً ، مع إلتقان لبنية الشعر وإحكام لقوافيه ، وبذلك لا تخرج صنعة الشاعر عن التنقيف والتجويد الذي عرف لشعراء الجاهلية ، وهذا ما يتضح من قول الدكتور شوقي ضيف : « على كل حال لم ينتقل العصر الإسلامي بالشعر العربي إلى منهج جديد في صنع غاذجه ، إنما نرى المنعبد القديم ، منعب الصنعة الذي رأيناه في العصر الجاهلي وبعده خير رعاية ، فقد أقبل صناع الشعر ببالغون في الاهتمام بحرفتهم ، ويوفرون لما كل ما يمكن من تجويد وتحجير^(٢) » .

ولهذا كانت المعاني في رجز العجاج لا تخالو من تجويد أو تحجير ، رغم أن الطبع كان من الخصائص البارزة في رجزه ، ولا شك أن من آثار هذا التجويد ما لمسه من خصائص فنية في رسم صوره ، والتقاط مشاعده ، ومن ذلك ما نلاحظه في معانيه من تأنيق وتحجير لما يروق ويعجب ، فإذا وصف الحرة تأنيق في وصفها ، وابتعد عن شيء من أوصاف أصحابها ، فلم ير منها كأساً أو فقاعة أو نشوة ، وإنما وقف عند جوانب أخرى ، فتناولها بأسلوب جديد في عرضه واستقصائه^(٣) :

كأنّ ذا قدامةً منقطفاً قطعت من أعنابه ما قطفاً
فغمها تحولتين ثم استودقنا صهباء خروماً عتقاراً فرفقتنا

(١) المعصدة ٨٣/١ .
(٢) الفن وملاحقه في الشعر العربي ٢١ .
(٣) الأرجوزة ١٧/٤٤ - ٢٣ .

فَتَنُّ فِي الْإِيرَيْنِ مِنْهَا بِزَفَا. مِنْ رَصْفِ بَزَعِ سَبَلِ رَصْفَا
 حَتَّى تَنَاسَى فِي صَهَابِجِ الصَّغْبَا
 إنه يُخَيَّرُ مِنَ الْمَعَانِي مَا يَنْبَغُ فِي الْخِيَالِ صَوْرًا مُتَلَاحِقَةً ، تَنْتَقِلُ بِهِ
 مِنَ الْحَقُولِ بِقَطْعَتَيْ الْأَعْنَابِ ، إِلَى حَانَةِ الْحُتَارِ عَصْرًا وَتَقْطِيرًا ، وَتَجَنُّقًا ،
 إِلَى مَزْجِ تِلْكَ الْحَمْرَةِ بِمَاءِ صَافٍ لَا يَكْثُرُ فِيهِ ، وَقَدْ تَنَاقَتْ فِي وَصْفِ الْحَمْرَةِ ،
 فَيَجْعَلُهَا صَبَاءً خُرْطُومًا قَرَقَفًا ، وَتَنَاقَتْ فِي رَسْمِ صَفَاءِ الْمَاءِ ، فَيَجْعَلُهُ مِنْ سَيْلٍ لَمْ
 يَتَجَدَّدْ عَلَى رِمَالٍ أَوْ أُنُوبَةٍ ، وَلِذَا جَرَى مِنْ رَصْفِهِ إِلَى رَصْفٍ حَتَّى اجْتَمَعَ
 فِي حِيَاضٍ مِنَ الْحِمَارَةِ ، وَهَذَا أَصْفَى مَا يَكُونُ لَهُ وَأَوْقُ ، وَكَانَ الْمَعْرِي
 يَعْجَبُ بِهَذِهِ الْمَعَانِي عِنْدَ الْعِجَاجِ^(١) ، وَمَا تَزَادَ بِهِ لِعِجَابِهَا أَنَّهُ لَا تَنَاقُفَ مَا عُرِفَ
 عَنِ الْعِجَاجِ مِنْ عَزُوفٍ عَنِ الْحَمْرَةِ أَصْلًا ، لِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ وَرَعٍ وَلِيَّامَانٍ
 لِإِسْلَامِي خَالِصٍ .

وَتَشْيِيرُ الْمَعَانِي لَا يَقْصُرُ عَلَى شَاهِدٍ فَرْدٍ فِي رَجَزِ الْعِجَاجِ ، وَلِذَا هُوَ سَمِيحٌ
 يُمْكِنُ أَنْ تَلْقَاهَا فِي كُلِّ أَرْجُوزَةٍ لَهُ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِنْ آثَارِ الصَّنْعَةِ وَالتَّجْوِيدِ ،
 وَلِئِنْ كَانَ كَثِيرٌ تَمَيُّزًا الْمَدْرَسَةِ الْأُوسِيَّةِ ، قَدْ عَنِيَ بِأَسَالِيبِ أَسَاتِذِهِ زَهْرٍ بِنِ
 أَبِي سَلَمَى ، فَكَانَ « يَعْجَبُ كَزَهْرٍ بِالْصُّورِ الْبَيَانَةِ ، وَكَانَ يَطْلُبُ فِيهَا أَنْ
 يَقَعَ عَلَى الْغَرَائِبِ وَالطَّرَائِفِ حَتَّى يَسْتَوِي عَلَى إِذْعَانِ النَّاسِ وَعَقُولِهِمْ »^(٢) ، فَقَدْ
 كَانَ الْعِجَاجُ إِضًا مِنْ أَحَبِّ هَذِهِ الصُّورِ ، وَاجْتَمَعَ إِلَى أَسَالِيبِ الْمَدْرَسَةِ
 الْأُوسِيَّةِ ، إِذْ لَمْ تَكُنْ خُصَائِصُ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ وَقَفًا عَلَى الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَمْ تَكُنْ
 كَذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَإِذَا كَانَ الدُّكْتُورُ طَه حَسِينَ قَدْ صَنَّفَ هَذِهِ الْخُصَائِصَ
 وَرَأَاهَا تَبَرَّزَتْ فِي أَشْعَارِ جَمَاعَةٍ بَعْضُهَا مِنْ شُعْرَاءِ مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدِهِ^(٣) ، فَهَذَا

(١) رسالة النفران ٢٤ - ٢٥ .
 (٢) التي وملاحيقه في الشعر العربي ٢٢ .
 (٣) انظر كتابه الأدب الجاهلي ٣٣٦ .
 - ٣٤٨ -

لَا يَعْنِي أَنَّ تِلْكَ الْخُصَائِصَ لَمْ تَكُنْ فِي أَشْعَارِ غَيْرِهِمْ مِنْ مُعَاَصِرِهِمْ ، بَلْ نَرَى
 أَنَّ هَذِهِ الْخُصَائِصَ كَانَتْ سَمَةً غَامَةً تَمَيُّزًا أَشْعَارَ الْفُجُولِ جَمِيعًا مِنْ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ
 وَالْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ .

وَهَذَا كَانَ ابْنُ مَعْمَرٍ عِنْدَ الْعِجَاجِ أَشْبَهَ بِطَائِفٍ يَضُمُّ جَنَاحِيَّةً ، ثُمَّ يَنْقُصُ
 مُسَرِّعًا مِنَ الشَّامِ إِلَى الْحُرُورَةِ بِالْإِلَامَةِ^(١) :
 دَانَسَى جَنَاحِيَّهِ مِنَ الطُّورِ فَمَرَّ تَقْطُصِي الْبَارِي إِذَا الْبَارِي كَسَّرَ
 وَغَدَا لِلصَّبْحِ أَعْنَاقُ تَعَالَوْ فِي أَعْجَازِ اللَّيْلِ^(٢) :
 حَتَّى تَتَرَى أَعْنَاقَ تَحْبِيحِ الْبَلَجَا تَسْهُورُ فِي أَعْجَازِ لَيْلٍ أَدْعَبَا
 كَأَرَأَيْتَ اللَّيْلَ الْمُؤَجَّجَا

وَقَدْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَوَّلَ الصَّبْحِ وَمَاخِرَ اللَّيْلِ ، فَيَجْعَلُ بَرِاضَ الصَّبْحِ
 وَحِمْرَتَهُ يَبْدُو فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ أَشْبَهَ بِالْأَلْهِبِ الْمُتَوَقِّدِ ، وَهِيَ صُورَةٌ حَسِيَّةٌ
 لَا تَخْلُو مِنْ رُوعَةٍ وَطَرِاقَةٍ .

بَلْ لَنْ الصَّبْحِ رُبَّمَا أَصْبَحَ حَادِيًا يَجِدُو ظِلَامَ اللَّيْلِ^(٣) :
 حَتَّى إِذَا مَامَتْ قَدَ الْإِسْحَارَا أَغْرَهُ بِحَدُوِّ مُطْلِمًا قِيَّارَا
 وَقَدْ رَأَى فِي الْأَفْقِ اسْتِغْرَارَا وَفِي جَنَاحِي لَيْلِهِ أَصْفِرَارَا
 وَهَذِهِ صُورَةٌ أُخْرَى ذَهَبَتْ إِلَى الطَّرِيقَةِ كُلِّ مُنْعَبٍ ، فَقَدْ جَعَلَ ظِلَامَ
 اللَّيْلِ أَشْبَهَ بِالْإِبِلِ بِسُوقِهَا ذَلِكَ الصَّبْحِ إِلَى نَهَايَةِ لَيْلٍ مِنْهَا ، بَلْ زَادَهَا تَانَقًا
 حِينَ جَعَلَ اللَّيْلَ طَائِرًا أَسْوَدَ ، يَبْدُو عَلَى أَجْنَحِهِ صَفْرَةٌ مِنْ ضِيَاءِ الشَّفَقِ .
 فَالْيَلِ ثَلَاثَةٌ لَهُ أَعْجَازٌ ، وَطَوْرًا لَهُ أَجْنَحَةٌ ، وَحِينَ لَا رَدَاءَ يُلْبِسُ بِهِ

(١) الأرجوزة ١/٢٤ - ٧٥ .
 (٢) الأرجوزة ٢٢/٦٤ - ٦٦ .
 (٣) الأرجوزة ٢٤/٤٦ - ٤٩ .

كل شيء^(١) :

وَمَهْمَا هَالِكٌ مِنْ تَعَرُّجًا هَائِلَةٍ أَهْوَالُهُ مِنْ أَدَلِّجَا
إِذَا رَدَاةً لَيْلَهُ تَدَجَّدَجَا

وإذا تحدث العجاج عن ألم صباه ، جعل للصبأ ثوباً يمكن أن يلى
ويتعرق ، وقد لبس وشي هذا الثوب ، وتحسن به بين الناس دهرأ من
شبابه^(٢) :

فَإِنْ يَكُنْ ثُوبُ الصَّبَا تَصْرَجَا فَقَدْ لَيْسَنَا وَشَيْتُهُ الْعَبْرَجَا
عَصْرًا وَمُخَضَّنَا تَيْشَتْهُ الْمُعَذَّلَجَا

فالعجاج كان يسمى إلى تجويد معانيه ، وإذا كنا قد رأيناه كلفنا
بالتصوير عن طريق الألفاظ المريحة المعبرة ، فانه لم يغفل - كما رأينا - حلية
الصور البيانية ، التي عرفت في أسلوب زهير وأصحاب مدرسته . وهذه الصور
في أشعار الجاهلين والاسلاميين ، ولا سيما أصحاب المدرسة الأوسية ، كانت
تتفرع من البيئة الحسية المادية ، ذلك لانهم كانوا يستمدون معانيهم من هذه
البيئة الحسية التي يحيطون فيها ، ويتأثرون بها ، ولهذا جاء التشبيه لديهم حسيأ
ماديا منتزعا من البيئة المادية نفسها^(٣) .

وكل ما رأيناه من أمثلة الصور البيانية عند العجاج ، كان يستمد التشبيه
من بيئته المادية ، ثم يبنيه بناء حسيأ ، يمكن أن يمثل للعين أو لأي حاسة
أخرى ، ولا ينبغي منه أحيانا غير الوضوح وحسن التمثيل لما يطلبه من
معان أو صور في رجزه ، فإذا أراد مثلا أن يتحدث عن الحروبة مال إلى

(١) الأرجوزة ٥٨/٣٣ - ٦٠ .

(٢) الأرجوزة ٥٥/٣٣ - ٥٧ .

(٣) انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ٢٢٠ وما بعدها .

التشبيه الحسي ، فجعلهم كالساري في ظلام الليل ، فهم يقاسون دأبا وسهرا
وظلامأ ، ثم لا يدرون أنهم إلى مهلكة سائون^(١) :

كَلُوا كَمَا أَظْلَمَ لَيْلٌ فَاسْتَعْرَ عَنْ مَدْلِجِ قَامِسِ الدُّؤُوبِ وَالسَّهَرِ
وَتَخَذَرُ اللَّيْلُ فَيَجْتَابُ الصَّدْرُ وَغَبْرًا فَشَمًا فَيَجْتَابُ الْغَبْرُ
فِي بَشَرٍ لَأُخَوِّرَ سَرَى وَمَا شَعَرُ

فهذا الظلام لا يريد به العجاج غير ضلالة الحروبة وما اتخذوه لأنفسهم
من خروج على عامة المسلمين ، إلا أنه جاء بهذا المعنى في إطار حسي مادي ،
وذلك ليقربه من الأفهام ، ويجعله أمراً مسلماً به ، إذ أن المدلج قد تفل
به الطريق ، مادام يسري في ظلام دامس .

فالتشبيه الحسي ، على قلته نسبياً في معاني العجاج كانت له أغراض
لاتغنى في رجزه ، فهو إما أن يكون الوسيلة المفضلة لنقل الوصف من
موضوع إلى آخر ، وإما أن يتجه إلى توضيح المعاني ، أو تحسين الصور .

وحرص العجاج على توضيح معانيه ، وتقريبها من الأفهام ، ولإثباتها في
الأذهان ، كان دافعأ قوياً إلى الاكثار من ضرب الأمثال الحسية في معانيه ،
ذلك لأن الأمثال تجعل المعنى أقرب إلى الفهم ، وأثبت في الذهن ، وأدعى
إلى الأخذ به ، والاقتناع بما جاء فيه ، وربما أورد من الأمثال ما عرفته العرب
قبله ، وربما صاغ من المعاني ما يصبح أمثالا على ألسنة الناس من بعده .

فإذا أراد العجاج أن يتحدث عما أصاب الناس من بلاء الحوارج ،
ألبس معناه ثوبأ حسيأ ، وأخرجه في إطار من الأمثال ، فقال^(٢) :

فَقَدْ عَلَا الْمَاءَ الزَّمْبَى فَلَا غَيْرَ وَاخْتَارَ فِي الدَّيْنِ الْعَرُورِي الْبَطْرَ

(١) الأرجوزة ٣٦/١ - ٤٠ .

(٢) الأرجوزة ٣٣/١ - ٣٤ .

وقد جاء هذا المعنى من قول العرب : « قد علا الماء الرطب » ،
فضربه مثلاً للأمر إذا تجاوز حده ، وبلغ غايته وأقصاه^(١) .

ولذا عاد إلى الجواز ليقول : إنهم قد بالغوا في أمرهم ، حتى انتشر
عليهم ، فظالموا الناس أجمع ، أخرج هذا المعنى أيضاً في لبوس الأمثال ،
فقال^(٢) :

يا عمر بن معمر لا تنتظروا
بعيد الذي عدا القرموص فحزروا
من أمر قوم خالفوا هذا البشر

وقد أتى هذا المعنى من قول العرب : « عدا القارص فحزرو » ،
يضيرونه مثلاً للأمر إذا تقادم^(٣) .

فهذه الأمثال وما إليها قد استمدتها العجاجة من التراث العربي القديم ،
ولكنه ربما صاغ بعض المعاني في إطار المثل الحسي ، وأطلقها لتكون أمثالاً
على ألسنة الناس من بعده ، فإن أراد حثاً لابن معمر حتى يوقع بالضرورة
في هجر حاضرة البامة ، قال له^(٤) :

لا قدح إن لم تُؤور ناراً بهجر ذات سنا يوقدها من افتر

وقد ذهب هذا مثلاً ، فقال الأصمعي في شرح البيت : « ويقال للرجل
إذا أخرج : وتيت بك زنادي بهجر » ، وأنشد الميداني البيت الأول ،
ثم قال : « هذا للعجاجة يخاطب عمر بن معمر ، يقول : إن قدحت في كل

(١) انظر الكامل للمبرد ١٨/١ ، واضداد الأصمعي ٥٥ ، واضداد
السجستاني ٢٠٦ ، والقصور والمدود لابن ولاد ٥١ ، والخزانة ٤٩٨/٢
(يولات) .

(٢) الأرجوزة ١٢٠/١ - ١٣٢ .
(٣) انظر مجمع الأمثال ٢١/٢ ، والمعاني الكبير ٨٥٦/٢ ، ١١٣٩ ،
وجمهرة اللغة ١٣٠/٢ ، واللسان (قرص) . والقارص : اللبث يتحدر
اللسان . والحازر : الحامض جدا .
(٤) الأرجوزة ١٢٧/١ - ١٢٨ .

موضع ، فليس بشيء حتى تُؤري بهجر . يُضرب لمن ترك ما يلزمه في
طلب حاجته^(١) .

ولذا أراد التحكم بأصحاب ابن الأشعث ، قال عنهم^(٢) :

جاؤوا مخيلين فلاقوا حمضاً طائغين لا يترجمو بعض بعضاً

وقد تحول البيت الأول إلى مثل ، فذكر القاضي أن أبا بكر ابن دويد قال :

« هذا البيت يضرب مثلاً لكل من أتى متهدداً فصادف ما يقمع تهده . قال :

والعرب تقول : أنت مختل قضمض »^(٣) . وقال البكري : « يعني أن

الإبل بأكل الخلة تشبه اخض ، فضربه مثلاً ، يقول : جاهوا يشتمون

القتال فلاقوا من يقاتلهم ويشفيهم »^(٤) .

فالحرص على جعل المعاني قريبة المأخذ ، سهلة المتناول ، هو الذي حدا
بالعجاجة إلى الإكثار من الأمثال في رجزه ، وهذا يتفق تماماً مع الطابع
الحسي المادي للتشبيه في معانيه ، وهذا الطابع الحسي لم يكن غريباً عن
العجاجة ، لأنه رغم انتقاله إلى بيئة البصرة ، ورحلته إلى بيئات الحجاز والشام ،
فقد بقي على صلة وثيقة جداً بروح الصحراء ، ولم يستطع أن يتخل عن تأثير
البادية في طبعه أو رجزه ، ولم يتمثل كل ما وجده من مظاهر الحضارة الجديدة ،
أو ما دقّ عند الفقهاء من المفاهيم حول بعض المعاني في العقيدة الإسلامية .
ولهذا كان يؤخذ على العجاجة بعض المعاني التي تتنافى مع ثقافته البدوية
أو طبعه الأعراي ، ومن ذلك قوله^(٥) :

(١) مجمع الأمثال ٢٣٠/٢ .
(٢) الأرجوزة ٩/٦ - ١٠ .
(٣) أناني القاضي ١٩١/١ .
(٤) سبط الألابي ٧٤ .
(٥) الأرجوزة ٥٢/١٩ - ٥٧ .

كَانَ عَيْنِي مِنَ الْغُورِ بَعْدَ الْإِنْسِ وَغَرَّقَ الْغُورُ
فَلَمَّا فِي لِحْدَتِي صَفَا مَنْقُورُ أَذَاكَ أَمْ حَوْجَتَا قَسَارِ
عَثَرَتَا بِالتَّضَرُّعِ وَالتَّضَرُّعِ تَلَاوِيلَ الزَّيْتِ إِلَى الشُّطُورِ
فَجَعَلَ الزَّجَاجُ يَنْضَحُ وَيَرْشَحُ فَكَانَ هَذَا مِنَ الْمَأْخُذِ عَلَيْهِ عِنْدَ عِدَّةٍ مِنَ
النُّقَادِ^(١) ، وَمَا أَخْطَأَ فِيهِ إِلَّا أَنَّ الزَّجَاجَ لَيْسَ مِنَ الْمَظَاهِرِ الَّتِي تَعُودُهَا عَيْنُهُ
فِي بَيْدَاهُ .

وَمَا أَخَذَ عَلَيْهِ أَيْضًا ، قَوْلُهُ يَصِفُ ثَوْرًا^(٢) :

كَأَنَّهُ سَبِطٌ مِنَ الْأَسْبَاطِ

وَقَالَ فِيهِ ابْنُ دُرَيْدٍ : « وَالسَّبِطُ وَاحِدُ الْأَسْبَاطِ ، وَهِيَ أَوْلَادُ إِسْرَائِيلَ
إِنَّمَا عَشْرُ سَبِطَاتٍ ، كُلُّ سَبِطٍ قَبِيلَةٌ ، هَكَذَا فُسرَ فِي التَّنْزِيلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَغَلَطَ
الْعَجَّاجُ أَوْ رُؤْيَةُ فَقَالَ : (الْبَيْتُ) ، أَرَادَ رَجُلًا وَهَذَا غَلَطٌ »^(٣) . وَغَلَطَ
الْعَجَّاجُ يَرْتَدُّ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ بَدَقَّةَ مَعْنَى « الْأَسْبَاطِ » الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ^(٤) .

وَقَدْ زِلْتُ قَدَمَ الْعَجَّاجِ أَيْضًا فِي مَعَانٍ أُخْرَى ، لَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ جَفَاءِ
أَعْرَابِي ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ^(٥) :

يَارَبِّ لَا أَدْرِي وَأَنْتَ الدَّارِي

وَقَدْ أَخَذَ هَذَا عَلَى الْعَجَّاجِ لِعَدَمِ عِلْمِهِ بِمَا يُطْلَقُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ

- (١) الشَّعْرُ وَالشَّعْرَاءُ ٥٧٤ ، وَالْعَقْدُ الْفَرِيدُ ٢٠٤/٦ - ٢٠٥ ، وَكِتَابُ
الصَّنَاعَتَيْنِ ٦٧ .
- (٢) الْأَرْجُوزَةُ ٣٣/٢٠ .
- (٣) جُمُورَةُ اللَّفَّةِ ٢٨٤/١ ، وَقَالَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي جُمُورَةِ اللَّفَّةِ ٥٠٤/٢ ،
وَالْإِسْتِغْنَاءُ ١٢٢ .
- (٤) سُورَةُ الْبَقَرَةِ ١٣٦/٢ ، ١٤٠ ، وَأَلْ عَمْرَانُ ٨٤/٣ ، وَالتَّوْبَةُ ١٦٣/٤ ،
وَالْأَعْرَافُ ١٦٠/٧ .
- (٥) الْأَرْجُوزَةُ ٢٥/٤ .

- ٣٥٤ -

الصفات ، قَالَ أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ : « وَأُسْنَدُ الْعِلْمِ اللَّهُ وَالِدَارِيَّةُ لِلنَّفْسِ ،
لَمَّا فِي الدَّارِيَّةِ مِنْ مَعْنَى الْقَتْلِ وَالْحَيَاةِ ، وَلِذَا وَصَفَ اللَّهُ بِالْعَالِمِ وَلَا يوصفُ
بِالدَّارِي ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : (الْبَيْتُ) ، فَقَوْلُ عَرَبِيٍّ جَلْفٍ جَاهِلِيٍّ جَاهِلٍ بِمَا يُطْلَقُ
عَلَى اللَّهِ مِنَ الصِّفَاتِ وَمَا يَجُوزُ مِنْهَا وَمَا يَتَنَعَّ ^(١) . وَقَالَ الرَّائِغُ الْأَصْفَهَانِيُّ :
« وَالِدَارِيَّةُ لَا تَسْتَعْمَلُ فِي اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَوْلُ الشَّاعِرِ : (الْبَيْتُ) ، فَمَنْ تَعَجَّرَ
أَجْلَافَ الْعَرَبِ »^(٢) . وَجَعَلَ ابْنُ سِيدَةَ هَذَا الْمَعْنَى غَيْرَ جَائِزٍ عَلَى الْعَالِمِ بِنَفْسِهِ ،
وَذَهَبَ بِالْبَيْتِ إِلَى أَنَّهُ مِنْ غَلَطِ الْأَعْرَابِ^(٣) .

وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُهُ أَيْضًا^(٤) :

فَارْتَأَحَ رَبِّي وَأَرَادَ رَحْمَتِي

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ فِي شَرْحِهِ : « وَلَا يَقَالُ : اللَّهُ ارْتَأَحَ ، وَلَكِنَّهُ أَعْرَابِيٌّ يَحْتَوِنُ
جَلْفَ جَافٍ » . وَقَالَ ابْنُ سِيدَةَ : « وَزُلْتُ بِهِ بِلَّةٌ فَارْتَأَحَ اللَّهُ لَهُ بِرَحْمَتِهِ فَانْقَدَتْ مِنْهَا ،
وَقَالَ الْعَجَّاجُ : (الْبَيْتُ) ، أَيِ نَظَرٍ إِلَيَّ وَرَحْمَتِي ، فَأَمَّا الْفَارَسِيُّ فَجَعَلَ هَذَا
الْبَيْتَ مِنْ جَفَاءِ الْأَعْرَابِ »^(٥) . وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ : « قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : قَوْلُ
رُؤْيَةِ^(٦) فِي فِعْلِ الْخَاطِئِ ، قَالَهُ بِأَعْرَابِيَّتِهِ ، قَالَ : وَنَحْنُ نَسْتَوْحِشُ مِنْ هَذَا
الْفِعْلِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا يوصفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
ذَكَرَهُ ، هَذَا بَفَضْلِهِ لَتَمَجَّيْدُهُ وَحْدَهُ بِصِفَاتِهِ الَّتِي أُنْزِلُهَا فِي كِتَابِهِ ، مَا كُنَّا
لِنَتَّهَدِي لَهَا أَوْ نَحْتَرِئُ عَلَيْهَا »^(٧) .

- (١) تَفْسِيرُ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ ١٩٤/٧ .
- (٢) الْمَغْرَدَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ ١٦٦ .
- (٣) الْمَخْصَصُ ٣١/٣ .
- (٤) الْأَرْجُوزَةُ ٥٥/٢٢ .
- (٥) الْمَخْصَصُ ٤/٣ ، وَانْظُرْ مَقَابِيسَ اللَّفَّةِ ٤٥٧/٢ .
- (٦) لِأَنَّ الْأَزْهَرِيَّ نَسَبَ الْبَيْتَ لِرُؤْيَةِ وَهَمًّا مِنْهُ .
- (٧) اللَّسَّانُ (رُوح) .

- ٣٥٥ -

ومن هذا أيضاً قوله (١) :

لَمَّا أَرَادَ تَوْبَةَ الرَّحْمَنِ مِثْلَ بَيْنِ النَّاسِ أَشَى يَغْتَمِي
وقد ورد في شرح الديوان بجاشية الأصل : « كان أعرابياً جلفاً جافياً ،
فقال ميثل بين الناس ، وكذب لا يُمِثِّلُ اللهُ لأنه خائف كل شيء ، والعالم
به قبل أن يخلفه ، ولِغَا يُمِثِّلُ الناسُ » . وما هذا إلا لأن التمثيل بين
الشئين يفيد الترجيح بينهما ، وإذا مِثِلَ الرجل بين هذا وذاك فهو شاك ،
ولا يستقيم ذلك مع الله تعالى .

وهذا فالعجاج بقي مشدوداً إلى طباع البادية ، ولم يقو على فتح بعض
مظاهر الحياة الجديدة فبرزت في أراجيزه بعض المعاني ، التي ما كان لها أن تجد
قبولاً حسناً عند أنواق المتأخرين عن عصره بقليل ، ولكن هذا لم يكن
وأسعاً في معانيه ، ولا تكاد تجد منه إلا " أمثلة قليلة في ديوانه ، وهي لا تعدو
أن تكون مجرد أعلام ودلائل تشير إلى ارتباط وثيق بينه وبين البادية ،
ولا تبلغ بنا أكثر من الأمثلة السابقة إلا قليلاً .

وهذا الارتباط مع البادية ، كان يجمل في أضعافه بعض المعاني الجاهلية ،
على ما فيها من تعارض مع الإسلام وتعاليمه . فزجر الطير ، والاستقام بالأزلام ،
أمر أبطلها الإسلام ، وما كان ينبغي لشاعر إسلامي أن يصدر عنها في
معانيه ، ومع ذلك فالعجاج لا ينسى تطيره بالبرح من الطير أمام الجاهلية ،
ولا تقلب الأزلام من " مَعَكَيَّ " و " مَنِيح " ، فيجمل من فرسه
بارحاً سريعاً سرعة تقلب تلك الأزلام (٢) :

وَنَارَةً يَمْشُرُ فِي الْبُرُوجِ عَطَفَ الْمَعَلَى مَكَّ بِالْمَنِيحِ

- (١) الأرجوزة ٧٩/٢٤ - ٨٠ .
(٢) الأرجوزة ٢٥/١٣ - ٢٦ .

- ٣٥٦ -

والميسر عادة جاهلية أبطلها الإسلام أصلاً ، وجعلها من عمل الشيطان ،
فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَالْمِيسِرَ وَالْأَنْصَابَ وَالْأَزْلَامَ رَجَسَ
من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (١) » ، ومع ذلك فالعجاج لا يتناسى
تلك العادة الجاهلية ، ولِغَا يقول مادحاً معاوية بن أبي سفيان (٢) :

الَّتِي ابْنُ حَرْبٍ لَا تَجِدُهُ كَالْبَرْبِ لَا عَاجِزَ السَّهْوِ وَلَا تَجْعَلُ الْقَدَمَ
وقال الأصمعي في شرحه : « والبَرْبُ : الذي يضيق فلا يدخل الميسر ،
ولا يدخل فيه مع القوم والجمع أبرام (٣) . فابن حرب إذن جواد كريم ،
وليس بصاحب مجل ينأى به عن الدخول مع القوم في الميسر ، ولا سيما أن
الميسر كان من مظاهر الجود والكرم في الجاهلية ، وهذا لم يورح غيلة
العجاج بعد .

والعطاس كان مما يتطير منه العرب في الجاهلية ، فأبطل النبي صلى
الله عليه وسلم ، تطيرتهم منه ، ومع ذلك بقي معنى التشائم ملازماً للعطاس
عند العجاج (٤) :

قَالَتْ سَلَيْمَى لِي مَعَ الضَّوَارِسِ يَا أَيُّهَا الرَّاجِمُ رَجَمَ السَّادِسِ
بِالسُّفْسِ بَيْنَ الشُّجَرِ الْعَوَارِطِ

وقال الأصمعي في شرحه : « وقوله : الشُّجَرِ الْعَوَارِطِ ، هذا
تمثيل . يقول : كانوا في الجاهلية ينطشرون من العطاس ، إذا عطس العطاس
قالوا : قد أَلْجَمَهُ ، كأنه يُلْجِمُهُ عن حاجته (٥) » .

- (١) سورة المائدة ٩٣/٥ ، وانظر المائدة ٩٤/٥ ، والبقرة ٢١٦/٢ .
(٢) الأرجوزة ١٧/٢٣ - ١٨ .
(٣) وانظر اللسان (برم) .
(٤) الأرجوزة ٢٨/١ - ٣ ، ومثله أيضاً في الأرجوزة ٣٢/١١ .
(٥) ومثل هذا في المعاني الكبير ٢٧١/١ و ١١٨٥/٣ ، وانظر اللسان
(لجم) و (عطس) .

- ٣٥٧ -

ولذا وصف الحرب جاء بعدد من المعاني الجاهلية الحالية ، فهم لا يعالجون الأمور الفاسدة إلا بقاد مثلها ، والحرب لا تدع للشخص من قريش أي حرمة ، ولا ترى اخا عهد ، أو إنساناً يعلّق على نفسه أشياء متنتة ، يتخذ منها عودة ، كيلا يصيبه البلاء^(١) :

بِالْمَأْسِ تَسْتَجِرِي الْأُمُورَ الْمُؤْتَا وَأُحْزِرَ الْخَلَّاسُ مَا تَخَلَّسَا
وَلَمْ يَبَيِّنْ مَجْنَةً لِأَحْتَا وَلَا أَخَا عَهْدٍ وَلَا مُنْجَسَا
وهذه كلها أمور جاهلية ، فالصُّمَّة دِرْن لقريش في الجاهلية ، والتجنيس عادة من عادات بعض العرب في الجاهلية أيضاً^(٢) ، ومع ذلك فالعجاج ما يزال يلج عليها بخياله ، ويستمد منها بعض معانيه .
ومن هذه العادات أيضاً ما يبرز في قوله^(٣) :

فَقَدْ أَكُونُ لِلْعَوَاتِي مَصِيدَا مَمْلُوءَةً كَانَ قَرَفِي جَلِيدَا
وقال فيه ابن دريد : « والجلد : يجلد محواري مُسَلِّخَ فَيَلْبَسُ محواري آخر تشمه أم المسوخ فتراه .. وهذا شيء كالت من فعل الجاهلية^(٤) » .

فالمعاني الجاهلية قد استمرت في أخيلة العجاج ومعانيه ، ولكن هذا لا يعني أن الإسلام لم يبدّل شيئاً من التطوير في معاني رجزه ، بل نجد لديه كثيراً من المعاني الإسلامية ، ولا سيما أن عقيدته كانت من العوامل البارزة في تكوين شخصيته وأخلاقه وطباعه ، ولهذا كانت المعاني الإسلامية تبرز

(١) الأرجوزة ٥٤/١١ - ٥٧ .

(٢) انظر شرح الأصمعي للآيات ثم انظر اللسان (حمس) و (نجس) .

(٣) الأرجوزة ٩/٢٧ - ١٠ ، وذكر الجدل أيضاً في الأرجوزة ١١٤/١٢ .

(٤) جهمرة اللغة ٦٨/٢ .

بوضوح في أكثر موضوعات رجزه ، وربما أخذ بعضها بنواحي بعض في آيات متلاحقة ، أو في أراجيز مستقلة لتؤلف موضوعاً خاصاً بالوعظ ، ولما فهي تنتشر في موضوعاته المختلفة ، لتستكون دليلاً على ما حدث من تطوير في معاني الشعر وألفاظه في العصر الإسلامي ، وقد رأينا ذلك في حديثنا عن عقيدة العجاج ، ثم في حديثنا عن أغراض رجزه .

فالمعاني ربما اتخذت لنفسها طابعاً إسلامياً ، فيه شيء من الجدة لعصر بني أمية ، ولكن هذا ليس وفقاً على العجاج ، ولما هو ظاهرة أدبية عرفت في أشعار غيره بتأثير البيئة الإسلامية الجديدة ، أما سائر معانيه فكانت تمد يد إلى التراث الأدبي ، فتأخذ منه حيناً ، وتجرّد فيه أحياناً ، وذلك شأن غيره من شعراء الأدب العربي القديم .

ومن أمثلة ذلك أن العرب ربما شُبهت بحيف العدو ، لأن كان شديداً ، بحيف النار المتوقدة في السعف أو نبات العرفج أو ما إليه ، ولهذا قال امرؤ القيس يصف فوساً :

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ وَثَابَةً جَوَادَ الْحَيَّةِ وَالْعُرْوَةَ
تَجُوحاً مَرُوحاً وَلِحْضَارَةً كَمَعْنَعَةِ السَّعْفِ الْمُوقَدِ

فجئني هذه الفرس له حفيف من سعته كحيف النار المتوقدة في السعف ، ومثل هذا قول أوس بن حجر :

إِذَا اجْتَهَدَا شِدَا حَسِبْتَ عَلَيْهَا عَرِبَ شَاعِلَتِهِ النَّارُ فَبُحِرَتْهُ

ومنه أيضاً قول طفيل الغنوي :

كَأَنَّ عَلِيَّ أَعْرَافِهِ وَجَلَامِهِ سَنَاءَ قَرْنٍ مِنْ عَرَفَجٍ مُتَكَلِّبٍ

فهذا المعنى متداول بين الشعراء ، وكل منهم يجعل للفرس حقيقاً في جوبه يشبه حفيف النار المتوقدة في سعف النخل أو عريشه أو نبات العرفج ،

وقد أخذ العجاج هذا المعنى ، فقال يصف الأفان وحمار الوحش (١) :
 تسفراء من خفاة تباري مغلجاً كأنما يستخبر من العرف حفاً
 فهذا المعنى قد استمد من التراث الأدبي لمن تقدمه من الشعراء ، وأمثله
 ذلك كثيرة في رجزه ، ومنها ما أخذه من طرفة بن العبد ، إذ قال طرفة (٢) :
 كنبات المخمر يمدان كما أنبت الصيف ساليح الخضرة
 فشبه النساء بالساليح ، وهي مالان واخضر من قضبان الشجر والكرم
 أول ما ينبت ، وهذا المعنى أخذه العجاج ، فقال (٣) :
 وفاجماً ومرسناً مسرجاً وبطن أئير وقواماً مغلجاً
 فجعل قوام المرأة كالغسلوج أيضاً .
 ومن أمثال هذا ما أخذه من بشر بن أبي خازم ، إذ قال بشر (٤) :
 عطفتناهم عطف الضروس على الملا يشبهه لا يأتي الضراء رقيبها
 فهذه الكناية من القوة بحيث لا يتوارى رقيبها ، ولا يمشي في الضراء ،
 وهو ما وارك من شجر ونحوه ، وهذا المعنى أخذه العجاج ، فقال يصف
 جيش ابن معمر (٥) :
 في لايح العقبان لا يأتي الخمر يوبج الأرض ويستاق الشجر
 فجعل الجيش لا يأتي مستتراً ، ولا يسير في الخمر ، وهو ما وارك من
 شجر ونحوه .

- (١) الأرجوزة ٨٩/٣٣ - ٩٠ .
 (٢) ديوان طرفة ٥٣ .
 (٣) الأرجوزة ٤٠/٣٣ - ٤١ .
 (٤) ديوان بشر ١٥ ، واللسان (ضرا) و (غرس) و (ملا) .
 (٥) الأرجوزة ٦٨/١ - ٦٩ .

ومن هذه المعاني ما أخذه العجاج عن معتمر بن حماد البازي ، إذ
 قال معمر (١) :
 توى زهدم تحت العباب طالجياً كما انقضى باز أقسم الریش كاسر
 فجعل انقضاء زهدم هذا كانقضاء البازي إذا ضم جناحيه للانقضاء ،
 وهذا المعنى أخذه العجاج فقال واصفاً سرعة ابن معمر في سيره من الشام إلى
 البصرة طرب الحوارج (٢) :
 دانى جناحيه من الطيور فمر تقضي البازي إذا البازي كسر
 وأمثله هذه المعاني كثيرة جداً ، ومن التعت أن تغف لتعرض
 طائفة كبيرة منها ، إلا أن العجاج ربما أخذ المعنى المتداول بين الشعراء
 فأضاف إليه ما يجتده ويجعل منه معنى خاصاً به دون سواه ، ومن ذلك قول
 الحارث بن حازم (٣) :
 وفعلتنا بهم كما علم الله وما لبت للخائين دماء
 فلم يفسح عما أوقعوه بقية تغلب من دماء وجراحات ، وذلك ليكون
 أوقع أثراً في النفس ، وأبلغ في التعبير عما أراد لها من كثرة واتساع ،
 فعبر عن ذلك كله بقوله « كما علم الله » . ومثل هذا قول كعب بن زهير
 يمدح الرسول عليه السلام (٤) :
 تحمله الناقة الأذماء معتنجراً بالبرد كالبدر جلي ليل الظلم
 وفي عطافيه أو أنشاء ربطته ما يعلم الله من دين ومن كرم

- (١) شرح الأصمعي للأرجوزة ٧٥/١ .
 (٢) الأرجوزة ٧٤/١ - ٧٥ .
 (٣) شرح المعلقات السبع للروزي ١٦٨ .
 (٤) النعمدة ١٠٩/٢ ، وقال ابن رشيق : « والجهال يروون البيت الأول
 لابي دهل الجمحي » .

فجعل في أتوبه من الدين والكرم ما يعلم الله ، وذلك كثيراً وتعظيماً له . وهذا المعنى أخذ العجاج أيضاً ، ولكنه افقن فيه فقال^(١) :
يُحْمِلُنْ كُلُّ سُوْدَةٍ يَحْمِلُنْ مَانْدُرِي وَمَا لَا تَدْرِي
فجعل الركاب لا يحمل من المكالم ما يجهد العجاج ، وإنما توسع في المعنى فجعلها تحمل من المكالم ما أحاط العجاج به علماً ، وما خرج عن درأبه وعلمه ، لأنها أوسع وأكثر من أن يحيط بها إنسان خبراً . وهذا فقد دقق في المعنى ، وافقن فيه ، وأخرجه في صورة تكاد تبرز شخصيته ، وتختص به دون سواه .

فالعجاج قد استمد بعض المعاني من الشعراء ، وربما وجدنا في ذلك ما يمكن أن يسمى بالسرقات الشعرية ، إلا أن ذلك في رأي الأحمدي « باب ما يعرى منه أحد من الشعراء إلا القليل »^(٢) ، بل إن هذا الباب لا ينبغي منه شاعر ، لأن طبيعة الأدب العربي تدعو الشاعر إلى الزود بثقافة أدبية واسعة وعدم الإخلال إلى الموهبة الطبيعية فحسب ، إذ لا بد له « قبل أن يأخذ في الإنجاء الشعري ، أن يغمس نفسه في حومة الموروث الشعري ، وأن يتعرف مافيه من أهداف ومنازع ، وأن يحكم أساليب فنه حسباً انتقلت من جيل إلى جيل »^(٣) .

إلا أن العجاج لم يتكسب على المعاني المتداولة بين الشعراء فحسب ، وإنما كان يأتي بكثير من المعاني التي فيها شيء من الجدة والإبداع ، ولا سيما حين يولد المعنى بصورة تخالف ما تعارف الناس عليه من قبل ، ومن ذلك

(١) العمدة ١٠٩/٢ ، وانظر ملحقات الديوان .

(٢) الموازنة ١١٥ .

(٣) دراسات في الأدب العربي لفؤسثاف فون فريشوفم ٤٧ .

قوله مثلاً^(١) :

عَاتِنْ حَيْثَا كَالْعَرَارِجِ نَعَمَهُ
يَكُونُ أَقْصَى سَلْبٍ مَحْرُوتِجَمُهُ
وقال أبو علي الفاي في شرحه : « والمعنى أن الناس إذا فرجوا بالغارة طردوا إبلهم ، وقامواهم بقائنون ، فإذا انهموا كانوا قد نجوا بها ، يقول : فهؤلاء من عزم ومنعهم لا يطردونها ، ولكن يكون أقصى طردهم أن ينخوها في مباركها ثم يقاتلوا عنها »^(٢) .

ولا شك أن العجاج قد خالف سائر الشعراء في تناوله لهذا المعنى ، فجاء جديداً لا يتخلو من طرافة ولإبداع ، وهذه الجدة أمثلة كثيرة في رجزه ، إذ كان له أن يستمد من التراث القديم ، والمعاني المتداولة بين الشعراء ، إلا أنه كثيراً ما يفتن في بعض المعاني فيخرج بشيء من الجدة والإبداع ، ولهذا نجد كثيراً من معانيه قد سارت على ألسنة عدد من الرجاز والشعراء ، وما ذلك إلا لشهرة رجزه ، والجدّة في معانيه .

فالشعراء قد وصفوا الثور والفرس ، ودققوا في تصوير جريه ، وشبهوا ذلك بالسباحة أحياناً ، ولكن العجاج قد زاد من الدقة ، حين نظر إلى سرعة الثور ، فلم يقل إنه يسبح سباحة ، وإنما دقق فقال : إنه إذا ما عرض له رمل متعقد طفا عليه ، كما يطفو الشيء فوق الماء^(٣) ، وذلك لأن قوائمه لا تسبح في الرمل إذا ما عدا^(٤) :

كَلْبَرَقَرِ يَبْتَنَانُ أَمِيلًا أَعْرِفَتَا
إِذَا تَلَقَّتْهُ الْعَقَائِلُ طَفَا

(١) الأوجوزة ١٤/٣٦ - ١٥ .

(٢) الأمانى للقبالي ٦٦/١ .

(٣) قارن بالتبريزي في تهذيب إصلاح المنطق ٦/٢ .

(٤) الأوجوزة ٧٨/٤٤ - ٧٩ .

فالتور يطفو فوق « العقاقيل » ، أو فوق « الجرائيم »^(١) ، وكلاهما الرمل المتعقد ، وهذا المعنى فيه جدّة ودقة في التصوير ، ولهذا أخذته ذو الرمة ، فقال بصف توراً^(٢) :

ذو سَعْفَةٍ كَشَّابٍ الْقَذْفِ مُنْصَكِّتٍ

يَطْفُو إِذَا مَا تَلَقَّيْتُهُ الْجَرَائِيمَ
وقد نبّه الأصمعي على أخذته هذا المعنى عن بيت العجاج^(٣) . ونقل الأصفهاني بسنده أن العجاج قد أخذته بدوره من قول علقمة بن عبدة^(٤) :

يطفو إذا ما تَلَقَّيْتُهُ الْعَقَائِلُ

وإذا صح هذا البيت لعلقمة ، فذلك يعني أن العجاج قد أعجب بهذه الصورة ، ثم نقلها في رجزه ، ومن ثمّ أخذها ذو الرمة ، ولا سيما أن ذا الرمة قد أخذ عدداً من المعاني الأخرى عن العجاج ، ومن ذلك قول العجاج يصف الكناس^(٥) :

كَانَ رِيحَ جَوْفِي الْمَرْبُورِ فِي الْخُشْبِ تَحْتَ الْهَدَبِ الْيَخْضُورِ
مُتَوَاةٌ عَطَلَارِينَ بِالْعُطُورِ أَهْضَامَهَا وَالْمَسْكُ وَالْكَافُورِ
فجعل لکناس البقر رائحة زكية أيام الربيع تشبه رائحة هذه العطور لدى العطار ، وهذا المعنى أشار الأصمعي إلى أن ذا الرمة قد أخذته عن العجاج ، فقال^(٦) :

- (١) في رواية أخرى للبيت وردت في الشعر والشعراء ٥١٦ ، والمصاح ٧٥/٢ ، والمختص ١١٤/٧ ، والمعاني الكبير ٧٢٨/٢ .
(٢) المعاني الكبير ٧٢٨/٢ ، الشعر والشعراء ٥١٦ .
(٣) الألفاسي ١١٢/٢١ .
(٤) الأرجوزة ٩٦/١٦ - ٩٩ .
(٥) الشعر والشعراء ٥١٧ .
(٦) الشعر والشعراء ٣٦٤ -

إِذَا اسْتَهْلَيْتُ عَلَيْهِ عَيْبَةَ أَرْجَتِ مَوَابِضُ الْعَيْنِ حَتَّى يَأْرَجَ الْخُشْبُ
وقال العجاج يصف الثور أيضاً^(١) :

حَتَّى غَدَاً وَاقْتَادَهُ الْكَتْرِيُّ وَشَرَّهَتْهُ وَقَسَوَتْ نَضْرِي
فجعل هذه النباتات تستدعي الثور وتقاذه إليها ، فجاء ذو الرمة وأخذ هذا المعنى ، إذ جعل رائحة الثور تستدعي الأسد إليه ليأكله^(٢) :

أَمْسَى بِبُيُوتَيْنِ مُجْتَازًا لَطِيبَةٍ مِنْ ذِي فَتَوَارِسٍ يَدْعُو أَنْفَهُ الرُّيْتَبُ
وقال العجاج في مدح الحجاج يصف أصحاب ابن الأشعث^(٣) :

وَلِنْ عُلُوتٍ مِنْ بَعْدِ أَرْضِ أَرْضَا حَسْبَتَهُمْ زَادُوا عَلَيَّا عَرْضَا
وقال الأصمعي في شرحه : « يقول : إذا علوا من بعد أرض أرضا حسبهم زادوا على الأرض عرضا . والعرض : الحبل تشبه بالجلل . قال^(٤) :

كُنْتُ إِذَا قُدْتُ لِقَوْمِ عَرْضَا لَمْ نُسْبِقْ مِنْ بَغْيِ الْأَعَادِي عَضَا
والعوض : الرجل الشديد اللسان الشديد العارضة . يقال : إنه لعوض . قال ذو الرمة :

كَأَنَّ تَدَهْدِي مِنَ الْعَرْضِ الْجَلَامِيدُ

وكلاهما سرق من العجاج^(٥) .

فالشاعر ذو الرمة قد أعجب بهاني العجاج ، وأدخل بعضها في أشعاره ، وذلك لطرافة أو إبداع أو جدة كانت تمتاز بها على غيرها من

- (١) الأرجوزة ١٤١/٢٥ - ١٤٢ .
(٢) المعاني الكبير ٧٥٤/٢ .
(٣) الأرجوزة ١٢/٦ - ١٤ .
(٤) البيتان لرؤبة في الأمالي ١١٨/١ ، والمصاح ١٠٨٣/٣ ، واللسان (عروض) .
(٥) شرح الأرجوزة ١٣/٦ - ١٤ .

المعاني التي جاء بها الشعراء في أوصاف هذه المروضات ، ولم يكن ذو الرمة بالشاعر الوحيد الذي تأثر بمعاني العجاج ، وإنما كان لهذه المعاني أن وجدت لنفسها كل سبيل إلى عدد من الرجاز والشعراء ، ومنهم أبو النجم العجلي ، فقد أخذ عن العجاج بعض المعاني ، ومن ذلك قول العجاج في وإلى الهامة^(١) :
تَبْرِي لَه مِن أَيْمَنٍ وَأَشْمَلٍ خَوَالِجٍ مِن أَسْعَدٍ أَنْ أَقْبَلِ
فجعل الخوالج تعرض له عن يمين وشمال^(٢) ، وهذا المعنى أخذه أبو النجم ، فقال^(٣) :

تَبْرِي لَهَا مِن أَيْمَنٍ وَأَشْمَلٍ ذَوِ خَوَالِجٍ مَلْسٍ وَشَخْصٍ مَذَلٍ
ومنهم الراعي النميري ، فقد أخذ عن راجز بني سعد بعض المعاني ، ومن ذلك قول العجاج^(٤) :

تَسْمَعُ لِلنَّاءِ إِذَا اسْتَحْيَا لَلْجَرَعِ فِي أَجْوَاهِا خَرِيرَا
فجعل الإبل ترد الماء عطشا ، فإذا شربت سمعت الماء صوتا في أجواها ، وهذا المعنى أخذه الراعي ، فقال في وصف الإبل أيضا^(٥) :
فَسَقَرَا صَوَادِي يَسْمَعُونَ عَشِيَّةَ لِلنَّاءِ فِي أَجْوَاهِينَ صَلِيلَا
ومنهم عبد الله بن قيس الرقيات ، إذ قال العجاج^(٦) :

(١) الأروزة ٢٧/١٧ - ٢٨ .
(٢) انظر المعنى بدقة في الصحاح ٢٢٢١/٦ ، وتحصيل عين الذهب ١١٢/١ .

(٣) نوادر اللغة لأبي زيد ١٦٥ ، واللسان (يمين) ، والأول مشهورة نسبته لأبي النجم ، وهو في الكامل للمبرد ١٢٣١ و ٧٦ ، ومقاييس اللغة ٢١٦/٣ ، والصحاح ٢٢٢١/٦ ، والمخصص ٣/٢ ، ١٩٠/١٦ ، ١٢/١٧ ، والخصائص ١٣٠/٢ ، وكتاب سيبويه ١١٣/١ ، ٤٧/٢ ، ١٩٥/٢ ، والإنصاف ٤٠٦/١ ، وشرح الواحدي على المتنبي ٧١٩/٢ ، والخزانة ١٣٢/٣ (بولاق) ، واللسان (شمل) .

(٤) الأروزة ٢٧/٢٦ - ٢٨ .
(٥) الانتصاب ٤٥٥ .
(٦) انظر الملحقات (٤٥) ، والضغاط : الزحام .

- ٣٦٦ -

لِنْ النَّدَى حَيْثُ تَرَى الضُّعَاطَا وَالْجَاءَ الْإِفْدَامَ وَالشُّنَاطَا
فجعل الندى في المكان الذي يكثر فيه الزحام ، فأخذ ابن قيس الرقيات هذا المعنى وافقن فيه ، فقال :

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَشِرُ الْحَسْبُ وَتُغْفَى مَنَازِلُ الْكَرَمَاءِ
وقد نبّه الخالدين على أنه أخذ هذا المعنى عن العجاج^(١) .

ومنهم حكيم بن معية^(٢) ، فقد قال العجاج^(٣) :

لَقَدْ كَفَى فَرَضِي بَيْنَكَ الْعَسْرَا

وقال ابن قتيلة في شرحه : « أي أن تعسر عليهم الأيدي بالسياط فيضربوا^(٤) » ، وهذا المعنى أخذه حكيم بن معية ، فأشار إلى رفع الأيدي عند الحصومة ، فقال^(٥) :

لَوْ لِي إِذَا مَا طَارَتْ الرُّقَابِيرُ وَلَقَعَتْ أَيْدِيهَا عَوَاسِرُ
ومن أخذ عن العجاج أيضا القطامي ، إذ قال العجاج في وصف القتال^(٦) :

حَتَّى إِذَا مَا مَرَّ جُلُ الْقَوْمِ أَفْرَ بِالْقَلْبِ أَحْمَمُوهُ وَأَخْبَوهُ التَّيْرُ
فجعلهم ييجون قارة ويسكنون قارة أخرى عند غلبان القتال ، وهذا المعنى أخذه القطامي ، فقال^(٧) :

- (١) المختار من شعر بشر ٩٥ .
(٢) راجز إسلامي كان يناصر العجاج ، انظر الأغاني ٤٤/٧ ، والخزانة ٣١١/٢ .
(٣) ملحقات الديوان (٢٦) .
(٤) المعاني الكبير ٨١٩/٢ .
(٥) المعاني الكبير ٨١٩/٢ .
(٦) الأروزة ١١٤/١ - ١١٥ .
(٧) ديوانه ٣٤ ، واللسان (سوع) .

- ٣٦٧ -

وكنّا كالجرير أصاب غالباً فيخربو ساعة ويهب ساعاً
ومهم دكين الرجز ، فقد قال العجاج (١) :
شدّ الشطية الجندل المظرباً في رُسْعٍ لا يتشكى الحوشب
فجعل الحافر صلباً شديداً لا يشكو ذلك الحوشب ، وهو عظيم في
باطن الحافر يصل بالرسغ ، وهذا المعنى أخذه دكين ، فقال (٢) :
في حافره لا يتشكى حوشبهُ مصلب الصفا يفتض عنه أصلبهُ
وقال العجاج يصف سرعة الفرس (٣) :
يكاد يرمي القتيبان المُرَجَبَا لولا الأبا زيم وأنّ المنسجبا
فأهن عن الذئبة أن تغرّجها لأفهم الفارس عنه زعجبا
فجعل من السرعة حتى لكانه يلقي بالسرّج أو بالفارس عن ظهره لولا
الأبا زيم وما في السرّج من فجرة تمسك بظهر الفرس ، وهذا المعنى أخذه دكين
أيضاً فقال (٤) :
لولا جزأماه ولولا لبئبه لتفهم الفارس لولا قتيبه
والسرّج حتى قدّ وهى مضربه
ومن أخذ عن العجاج أيضاً حميد الأرقط ، إذ قال العجاج في وصف
المسازة (٥) :
وبلدة تبيدو التباط مبهولة تتعالي خطو الخياط

تأوت حين هبته الوطواط - يذات لوت ضخمه الميلاط
فجعل المسازة لبعدها كأنها تناط بفازة أخرى لا تكاد تنقطع ، وهي لبعدها
وسعتها كأنها تقاتل المني اغتالا ، فلا يستين فيها السير مها طال وأمتد به
الأمد ، وهذا المعنى أخذه حميد الأرقط ، فقال (١) :
وبلدة مروهنة التباط تتعالي خطو الخياط
منا سوب وعنه الرهاط - وردت قيل مدفة الخطاط
وأما المعاني التي أخذها رؤبة عن أبيه العجاج فهي كثيرة جداً ، وليس
لنا إلا أن نعرض منها بعض الأمثلة فحسب ، ومنها قول العجاج (٢) :
نجل حصان نجلها لم يعظم غرؤه مسقاباً لفتحل سرطس
فجعلها غرؤه مسقاباً ، أي مذكراً تلد السقب ، وهو الذكر من
ولد الناقة . وهذا المعنى أخذه رؤبة فقال (٣) :
وكانت العرس التي تتجبا غرؤه مسقاباً لفتحل أسقبا
وقال العجاج في وصف الجيش (٤) :
شهب إذا ما محين مورجن البصر بيدي إياذين إذا عده اعتكر
فجعل هذه الكتاب الشهب في جيش إذا ما أراد الإنسان له عدداً ،
وآه يعتكر ، أي يرجع بعضه على بعض ، يوج وينعطف ، فلا يقدر
على عده ، وهذا المعنى أخذه رؤبة ، فقال (٥) :

- (١) انظر ملحقات الديوان ١٣/٢ - ١٤ .
(٢) كتاب الخيل لأبي صبيدة ٨٧ .
(٣) الأرجوزة ١٢٥/٣٣ - ١٢٨ .
(٤) اللسان (قيب) .
(٥) الأرجوزة ١/٢٠ - ٢ ، ٨ - ٩ .

- ٣٦٨ -

- (١) سمط الآلي ٨٨٦ .
(٢) الأرجوزة ١٠٩/٢٤ - ١١٠ .
(٣) اللسان (سقب) .
(٤) الأرجوزة ١٨٠/١ - ١٨١ .
(٥) اللسان (عكر) .

- ٣٦٩ -

إذا أرادوا أن يعدوه اعتكروا

وقال العجاج في وصف المغارة (١) :

وبلده تستخسر الأرسالا
من القطا وتبهط الشمالا
فجعلها من البعد والانساع ما يشق على ربح الشمال ويميزها ، وهذا
المعنى أخذه رؤبة في وصف المغارة أيضاً ، فجعل الريح تكل إذا مامرت
بها ، وذلك بعد المغارة وانساعها ، فقال (٢) :

وقايم الأعقاب خاوي المخترق
مشتبه الأعلام لناع الخفق
يكل وقد الرعير من حيث انخرق

وقال العجاج (٣) :

بليت والميسار جون حنتم (٤)
تمضي الدواهي حوله ويسلم
فجعل الجبل أسود أخضر . ونقل ابن قتيبة عن الأصمعي (٥) ، أن
رؤبة أخذ هذا المعنى عن أبيه العجاج ، فقال :

والسد مادام ينادا أرومته
حديده وقطره ورصمه
وعاد بعد النحت جونا حنتم

وفي شرح ديوان رؤبة جاء في البيت الأخير : « حنتمه : هذا
سرقه عن أبيه ، قال : ومعناه عاد أخضر أسود (٦) » .

وقال العجاج (١) :

وبلده تبعيدت الشياط
مجهولة تغتال خطو العاطي
فجعل المغارة كأنها تغتال الخطو لانساعها ، إذ لا يستين فيها الشيء ،
بل يسير الإنسان فيها ويطل الدأب ولا يصل منها إلى غاية . ونقل ابن قتيبة
عن الأصمعي (٢) ، أن رؤبة أخذ هذا المعنى عن أبيه العجاج ، فقال :

وبلده تغتال خطو المختطي
بغايل الغول عريض البسط
وفي شرح ديوان رؤبة جاء عن الأصمعي في البيت الأول : « قال أبو
سعيد : فسرقها رؤبة عن أبيه العجاج ، قال أبوه :

وبلده يغتال خطو الخاطي (٣)

قال : وحدثنا مسلمة بن عياش قال : قال رؤبة : الفحول هم الرواة .
قال : يريد أنهم يسرقون (٤) » .

وقال العجاج (٥) :

ورب هذا البلد المخرم
والقائبات البيت خبير الرقيم
أولنا مكة من ورق الحمي
فأقسم بالطمأن المقيم في مكة آمناً لا يبرحها ، وهذا المعنى أخذه رؤبة

(١) الأرجوزة ١٨/١٤ - ١٩ .

(٢) ديوانه المخطوط النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ١ ، والنسخة (٥١٩ أدب) ص ٦٠ ، والنسخة (٤٩٩ أدب ش) ص ٦٦ .

(٣) ملحقات الديوان ١/٦٦ - ٢ .

(٤) المسمار : جبل . والجون : الأسود . والحنتم : خضرة قريبة من السواد .

(٥) الشعر والشعراء ٥٧٨ .

(٦) النسخة (٥١٩ أدب) ص ٣٠٨ ، والنسخة (٤٩٩ أدب ش) ص ٣٣٦ .

(١) الأرجوزة ١/٢٠ - ٢ .

(٢) الشعر والشعراء ٥٧٨ .

(٣) بهذه الرواية أتشدده ابن قتيبة أيضاً ، وهي تختلف قليلاً عن روايته في الديوان .

(٤) ديوان رؤبة النسخة (٥١٩ أدب) ص ٢١٣ ، والنسخة (٤٩٩ أدب ش) ص ٢٢٧ ، ونعمة إشارة إلى هذا في النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ١٥٤ .

(٥) الأرجوزة ٤٥/٢٤ - ٤٧ .

أيضاً فقال (١) :

فلا توب الآسنة القطر ما آيب سرلك إلا سرني
ولم تقف معاني العجاج عند التأثير في معاصره من رجاز وشعواء ،
بل امتدت إلى عصور أدبية أخرى ، فكانت تظهر في أشعار بعض الشعراء ،
أو في كلام بعض الناس ، بما يدل على شهرة هذه المعاني ، وحياة ذلك
الرجز على ألسنة الناس جيلاً بعد جيل . ومن هذه المعاني قول العجاج في
عتاب ولده رؤبة (٢) :

واستعجل الموت وفيه كفاف (٣)
تخترم الإلف عن الآلاف
لما رأني أريعت أطرافي

فروية يستعجل موت أبيه ، وفي الموت ما يكفيه مؤونة استعجل ذلك ،
لأنه قد تعود اخترام الناس ، والعجاج يوسك أن يضي إليه ، وهذا المعنى
أخذه أبو دهل في حديثه عن صروف الدهر ، فقال (٤) :

ولو تركونا لا هدى الله أمرهم فلم يلجموا قولاً من الشر ينسج
لأوسك صرف الدهر تغريق يديننا وهل يستقيم الدهر والدهر أغوج
ثم أخذه فيما بعد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، فقال (٥) :

إلى كم يكون العتب في كل ساعة وكم لا تملين القطيعة والهجرة
رؤيدك لئن الدهر فيه كفاية لتفريق ذات البين فانتظري دهرها

- (١) ديوانه المخطوط النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ٢٢ ، والنسخة (٥١٦ أدب) ص ٢٥٣ ، والنسخة (٤٩ أدب ش) ص ٢٧١ .
(٢) الأجزاء ٨/٥١ - ٥٢ .
(٣) وجاءت رواية هذا البيت في بعض المصادر : « واستعجل الدهر وفيه كاف » .
(٤) أمالي المرتضى ٨١/١ .
(٥) أمالي المرتضى ٨١/١ .

فهذا المعنى قد سار عن العجاج إلى أبي دهل ، ثم إلى ابن طاهر ،
وشبه به معنى آخر كان العجاج قد أخذه عن معمر بن حمار الباقلي ، ثم
أفمن فيه ، وأخرجه ضمن إطار جديد ، فقال (١) :

دانس جناحيه من الطور فمر تقضي البازي إذا البازي كسر
فالبارقي شبه الانقراض بانقراض البازي إذا كسر جناحيه ، أما العجاج
فزاد على هذه الصورة ما وضعه لابن معمر من أجنحة بدانيها وبضمها في
انقضاضه السريع من الشام إلى اليمامة ، وربما كانت هذه الأجنحة هي الجيش
الذي أنهضه إلى ما أراد ، كما ينهض العقاب بجناحيه ، وهذا المعنى الأخير
أخذه أبو الطيب المتنبي ، فقال (٢) :

ين الجيش حولك جابتيه كما تنحفت جناحيها العقب
فهذا المعنى قد تأثر فيه المتنبي بالعجاج ، ومثله أيضاً ما تأثر به القاضي
التنوشي ، إذ قال العجاج في وصف ليلة شديدة مرت به (٣) :

بت لها يقظان واقفان إذا رجوت أن تضي أسودت
دون قدامي الصبح فلو جعتت منها عجاساً إذا ما التفتت
حسينها ولم تكرر كرتت
فالليلة شديدة قد ثقلت عليه وتطاوت ، حتى ظنها قد كرت ، أي
تعطلت وارتدت إليها ماضى منها ، وهذا المعنى أخذه القاضي التنوشي ،
فقال (٤) :

- (١) الأجزاء ١/٧٤ - ٧٥ .
(٢) الاقتضاب ٤١٢ .
(٣) الأجزاء ٢٢/٢٧ - ٣٢ .
(٤) المختار من شعر بشر ١٧ .

وكم ليالٍ قد لقيت هولتها بهيمة فتوق الساء كالسما
طالت دياجيا فخلنا أنهما تعلقن منهن علينا ما مضى
وقد ذكر الحاديان أن البيت الأخير قد أخذ من بيت العجاج
السابق (١). ومن أشهر معاني العجاج قوله في مطلع رائيته (٢) :

قد جبر الدين الاله فجبّر وعورّ الرحمن من ولّى العور

فجعل انتصار ابن معمر على الحوارج جبراً للدين بما ألمّ به من تصدع
على أيديهم ، وهذا المعنى طاولت شهرته حتى وجدناه إلم المعصم يستقذروها
بعد أن وقعت بين السيف والقطع ، ففي خبر جميل بن نعيم السدوسي أنه
خرج على المعصم ، ثم جيء به إلى القطع والسيف لتضرب عنقه بين يدي
أمير المؤمنين ، فلما استنطقه المعصم ، كان ما قاله : « يا أمير المؤمنين !
جبر الله بك صدع الدين ، ولم يك شعث الإسلام والمسلمين ، وأخذ بك
شهاب الباطل ، وأثار بك سيل الحق (٣) » . وهذا كله قد استمدّه ابن نعيم
من معاني العجاج في مطلع أرجوزته ، وفي عدد من أبياتها .

وهذا إذا يشير إلى مدى شهرة رجز العجاج ومعانيه خلال عصورنا
الأدبية المختلفة . فالعجاج قد استمد بعض معانيه من التراث الأدبي لن
تقدمه من الشعراء ، إلا أنه قد طور بعض المعاني ، ووجد في معاني أخرى
فأمدّها بها التراث الأدبي لن عاصره ولن جاء بعده من الشعراء ، وكلّ ما
رأيناه في معانيه من خصائص كان يصدر عن ذلك الارتباط الوثيق بين رجزه
والشعراء ، وهذا الارتباط هو ما يفسّر كذلك معظم الخصائص اللفظية

(١) المختار من شعر بشار ١٨ .

(٢) الأرجوزة ١/١ - ٢ .

(٣) للمستجاد من فعاتل الأجواد ١١٧ ، وانظر حل العقال ١٠٣ (ضمن
مجموعة تفريغ الموج بتلويح الفرج) .

في رجزه .

٢ - الخصائص اللفظية

إن أول ما تنقف عليه في الخصائص اللفظية هو شكل الأرجوزة ، وما
نلاحظه من تجديد في منج القصيدة القديمة أحياناً ، إذ نخل العجاج عن تلك
المقدمات التقليدية في كثير من أرجوزته ، إلا أنه لم يضرب قائماً عن المنهج
القديم للقصيدة ولما بنى بعض الأرجوز بناء القصيدة القديمة في منجها وتعاقب
موضوعاتها ، ومن ذلك مثلاً أرجوزته في عتاب ولده رؤبة (١) :

وتلندة لسماعة الأكشاف قلوب غاشيا على انحراف

فقدّم لعتاب بالحديث عن المفازة ، وما فيها من مشاهد ، ثم انتقل
إلى وصف بعيده القوي ، وما لبث أن شبه بالثور الوحشي ، ومن ثم شرع
في وصف هذا الثور والتقاءه مع الصياد والكلاب ، فأتى بمشاهد رائعة للصراع
بين الكلاب والثور ، حتى إذا ما انتصر الثور كانت نهاية هذه المقدمة التقليدية ،
بعد أن اعتدت ستة وأربعين بيتاً ، ومن ثم انتقل العجاج إلى عتاب
ولده رؤبة .

ومن أمثال ذلك أيضاً أرجوزته في مدح يزيد بن معاوية (٢) :

مابال جاربي دمعك المهلل والشوق شاجر الحشون الحذل
إذ قدّم لمديح يزيد بالوقوف على الأطلال ، والتغزل عن كانت فيها
قبل الترحل عنها ، ثم انطلق إلى وصف الرحلة إلى يزيد ، فأتى بأوصاف

(١) الأرجوزة ١/٨ - ٢ .

(٢) الأرجوزة ١/١٢ - ٢ .

للإبل والمغازة والتفاز وما فيها من مشاهد ، ثم انتقل بعد ذلك كله انتقالاً موفقاً إلى موضوع المدح ، بعد أن امتدت تلك المقدمة التقليدية زهاء مائة وعشرين بيتاً ، أفرد بعض أربابنا للمديح ، خلال حديثه عن غرض الرحلة ، وهو الوصول إلى يزيد بن معاوية طلباً لثوابه وكرمه .

فالمقدمات التقليدية ربما طالت في بعض الأراجيز ، وذلك لتنفل كل ما اعتادت المقدمات الجاهلية أن تنقله من أوصاف أو موضوعات ، لأن العجاج في تقصيد الرجز كان لابد له أن يسير المنهج القديم للتضاد ، ولهذا كانت بعض الأراجيز تمتد فيها المقدمات وتطول ، فتذكر الأطلال والغزل وأوصاف البعير والصحراء خلال تلك الرحلة الطويلة ، ولا سيما أن مثل هذه الموضوعات كان للعجاج بها ولوع خاص ، باعتبار أنها وليدة البادية ، وكل ما كان له بالبادية اتصال ، كان للعجاج به شغف وميل إلى نقله وتصويره . إلا أن هذه المقدمات ربما جاءت سريعة جداً ، حتى ليدوا واضحاً أنها ماوردت إلا تقليداً لسنة متبعة ومنهج مرسوم في القصيدة التقليدية ، ومن ذلك أرجوزته في مدح عبد العزيز بن مروان^(١) :

قلت لعنن قد ومنت طليح عوجاه من تتابع التطوير
فالمقدمة هنا لم تتجاوز ثمانية أبيات ، تحدثت فيها عن فاقته ، وطلب إليها أن تصبر على ما أصابها من دأب وجهه في الطريق إلى المدح ، ولا ندرى إذا كان ضمير المقدمة يرد إلى قصر الأرجوزة نسياً ، إذ لا تريد الأرجوزة كلها عن سبعة وعشرين بيتاً .

والمهم أن العجاج قد التزم المنهج التقليدي في بعض الأراجيز ، ولكنه

(١) الأرجوزة ١/١٣ - ٢ .

أغفل هذا المنهج في بعض الأراجيز الأخرى ، فأهمل المقدمات التقليدية ، وجأ إلى منهج جديد للقصيدة ، فبدلاً من تلك المقدمات التقليدية أصبح العجاج يبدأ الأرجوزة بالموضوعات الدينية ، أو بشيء من الحكمة التي تتناسب وموضوع الأرجوزة ، ومن ذلك أرجوزته في مدح عمر بن عبد الله ابن معمر^(٢) :

قد تجر الدين الإله فجبر وعور الرحمن من ولئ العور
فالمتمدن به الذي أعطى الجبر موالي الحق إن المولى شكر

ففي هذه الأرجوزة لم يبدأ بمقدمات تقليدية ، بل قدّم للمديح بالحديث عن جبر الدين بعد أن صعدته الحزونة ، وسجد الله على ماتم من انتصار عليهم ، ثم عرض لعدد من المعاني الإسلامية ، فأشار إلى موقف الرسول عليه السلام وأصحابه بالحذبية ، وعرض لبيعة الرضوان ، وما أوداه الله لنبئه من إظهار الدين الخفيف على يديه ، ومهد بكل هذه المقدمة الدينية التي امتدت ستة عشر بيتاً ، ليقول : لقد ظهر الدين على يد محمد صلوات الله عليه ، فجاه هؤلاء الحزونة ليطمسوا معالمه بأهوائهم ، فكان هذا الوقت بالذات هو أوان الجد لابن معمر ، للقضاء عليهم وإنقاذ الدين من إفسادهم .

وبذلك كانت مقدمة هذه الأرجوزة لا تستمد معانيها وأساليبها من المناهج التقليدية ، وإنما تستمدّها من الجانب الفكري والسياسي لعصر العجاج ، وهذا أبلغ وأشد تأثيراً من المقدمات القديمة .

ومثل ذلك أيضاً ما قدّم به لموضوع الفخر في قوله^(٣) :

(١) الأرجوزة ١/١ - ٤ .

(٢) الأرجوزة ١/١٠ - ٦ .

بَارَبَ رَبُّ الْبَيْتِ وَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبَاتِ كُلِّ سَهْبٍ تَمَلُّقِ
إِتَالَهُ أَدْعَى فَتَقْبَلُ مَلَقِي فَتَاغِيرُ خَطَابِي وَتَمُزُّ وَرِي
إِنَّا إِذَا حَرَبَ غَدَتِ لَا تَنْقِي دِينًا وَلَا مُسْتَأْخِرًا لَمْ يَلْحَقْ
ففي هذه الأرجوزة لم يقدم إلا بأربعة أبيات من المعاني
الدينية الإسلامية ، ثم انتقل بعدها إلى موضوع الفخر بقبيلة ومالها من أيام
على القبائل الأخرى أمثال قبائل بكر بن وائل ، وقبائل عامر بن صعصعة
من قبائل كنانة .

وربما تغلغل العجاج حتى عن أمثال هذه المقدمات ، وفضل عليها اختيار
المطالع القوية ، والدخول مباشرة إلى الموضوع ، فإذا مدح مروان بن الحكم
راجياً أن يفلح أحفاده سبحانه « عاصم وميمية » ، بدأ بالمدح مباشرة ،
واختار قوة الاستهلال وتأثيره ، فقال ^(١) :

مَا لِنْ عَلِمْنَا وَافِيَا مِنَ الْبَشَرِ مِنْ أَهْلِ أَمْصَارٍ وَلَا مِنْ أَهْلِ بَرْ
وَلَا عَلَى عِدَانٍ مَلِكٍ مُخْتَصِرٍ أَوْفَى مِنَ الْمُتَجِي حَيًّا بِالْقَدَرِ
وَعَاصِيَا سَلَمَهُ مِنَ الْغَدَرِ مِنْ بَعْدِ لُزْهَانٍ بِصَمَاءِ الْغَيْرِ
وإذا مدح العجاج لإفلقه بآبن الأشعث ، لم يبدأ بالمقدمات التقليدية أو
بغيرها ، وإنما بدأ بالمدح مباشرة ، واختار الدخول إليه باستفهام يثير الانتباه
ويوجه الأسجاع إليه ، ويشر من حوله شيئاً من الرهبة والقوة ^(٢) :

أَلَمْ يَكُنْ أَشَدَّ قَوْمٍ رَحْفَتَا سَرَّاهُمْ وَالْأَحْيَيْنِ رَكْنَا
إِذْ رَكَنْتُمَا وَالْأَضْعَفِينَ قَبْضَا حِينَ أَطَالُوا فِي الْأُمُورِ الْبَخْسَا

(١) الأرجوزة ١/٢ - ٦ .
(٢) الأرجوزة ١/٦ - ٤ .

وليس من السانغ أن نذهب إلى احتمال ضياع المقدمات من هذه الأراجيز
وأمثالها ، ذلك لأن هذا الاحتمال قد يصدق في الأراجيز التي نجد أحياناً للعجاج
بأوزانها وقوافيها في مصادرنا المختلفة ، ولا وجود لها في الديوان ، فهذا يوحى
باحتمال أن تكون هذه الأبيات جزءاً منها في الأصل ، كان مقدمة لها ثم
سقط من رواية الديوان لسبب من الأسباب ، وذلك مثل أرجوزته في مدح مصعب
ابن الزبير ^(١) :

لَقَدْ وَجَدْتُمْ مُصَعَّبًا مُسْتَضْعَبًا حِينَ رَمَى الْأَحْزَابَ وَالْمُجَوِّبَا
الآ - أن الأراجيز الأخرى لا نجد فيها مسوغاً لمثل ذلك الاحتمال ، ولا
سبباً أن هنالك أراجيز كاملة بمقدماتها ، وهي تشير إلى عدم التزام العجاج بالمنهج
التقليدي القصيدة ، وإنما قد يلجأ إلى مقدمات أخرى يستمد منها من يشبهه ويغضبه ،
وإذا كان قد طوّر في المنهج التقليدي نفسه ، فليس مانع أن يكون قد
أحدث تطويراً أبعد ، فأسقط المقدمات كلها في بعض الأراجيز ، واعتد بها
اعتاداً كلياً على براعة الاستهلال وقوة المطالع ، وهذا ما عاهد إليه بعض الشعراء
لعهد بني العباس ، فأسقطوا المقدمات التقليدية ، وجعلوا من الحكمة فاتحة
لقصائدهم ، ومن المطالع القوية البارة بدايات لها .

ولم يبق عند هذا التجديد فحسب ، بل أسهم أيضاً في تطوير شكل القصيدة ،
وجعلها تختص بموضوع واحد أحياناً ، فإذا كان شعراء الحجاز قد خصصوا
قصائدهم للغزل ، وشعراء الخوارج قد أفردوا قصائدهم للنشال السياسي ، فكذلك
نجد العجاج قد أسهم في هذه الظاهرة الجديدة للعصر الأموي ، إذ أفرد بعض
أراجيزه لأوصاف الصحراء فقط ، أمثال أرجوزته المطولة ^(٢) :

(١) الأرجوزة ١/٧ - ٢ .
(٢) الأرجوزة ١/١٩ - ٢ .

جاري لا تستنكري عذيري سيري ولستأقي على بعيري
وأفرد لهواظ بعض الأراجيز أيضاً ، مثل أرجوزته (١) :

الحمْدُ لله الذي استَقَلَّتْ بِإِذْنِهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضَانِ
وخصَّ الفخر بأراجيز مستقلة أيضاً ، ومنها أرجوزته (٢) :

ياربُّ ربِّ البيتِ والمُشرقِ والمُرقَّاتِ كلَّ سَهْبٍ تَمَلِّقُ
ولديه أرجوزة خاصة بالغزل ، أولها (٣) :

إنَّ الغَوَافِي قد غَتَّيْنَ عَنِّي وفُكِّنَ لي عَلَيْكَ بالتَّعَتِّي

فالتخصص في موضوع القصيدة عند بعض الشعراء في العصر الأموي ، ولا سيما شعراء الحجاز ومجد وشعراء بعض الأحزاب السياسية كالخوارج ، قد وجد في رجز العجاج بعض الأصداء ، مما يشير إلى أن العجاج لم يكن يتلمس المناهج القديمة دون التأثر بالأساليب الجديدة .

ومن هنا نجد قد أسهم أيضاً في تطوير آخر بالنسبة إلى شكل القصيدة ، إذ أكثر نسبياً من نظم الأراجيز القصيرة التي تعنى بموضوع مستقل غالباً . وانتشار المقطعة يرتد إلى العصر الإسلامي الأول وما جد فيه من أحداث متسارعة ، كانت تستدعي قول الشعر تابعا دون إبطاء أو روية ، ثم أيلها العصر الأموي ، إما لتخصص الشعراء أحيانا بنوع واحد من الشعر ، ولما بسبب الأحداث السياسية المتزايدة ، والصراع السياسي الذي ماكانت تهدأ له نامة خلال حكم بني أمية كله .

وهذه الظاهرة الجديدة في الشعر الإسلامي والأموي ظهرت لها بعض

(١) الأرجوزة ١/٢٢ - ٢ .

(٢) الأرجوزة ١/١٠ - ٢ .

(٣) الأرجوزة ١/١٦ - ٢ .

الأثار في رجز العجاج ، فرأينا ينظم المقطعات في موضوعات مختلفة . فثمة مقطعات وصف فيها بعيره ، وتحدث عن شوقه إلى الرحيل والسير ، ومنها أرجوزته (١) :

أصبحَ مَسْجُولٌ بِوِازِي شَقَا مَلَالَةٍ يَمَلِّهَا وَأَرْقَا
ومنها أيضاً أرجوزته (٢) :

أَبْنَحَ مَسْجُولٌ مَعَ الصَّبَارِ مَلَالَةَ الْمَأْثُورِ لِلْإِسَارِ
وأفرد بعض المقطعات لوصف الإبل ، كأرجوزته (٣) :

مَا كَانَ مِنْ تَرْكٍ وَلَا إِيْنٍ أَنْ تَوَاءَ شَدَّ لُجْمٍ وَأَبْدَانُ

وخص بعض المقطعات بالفخر بالفر أو الرغل أو الغزل أو التعريض ، ومن مقطعات الفخر أرجوزته (٤) :

لِنَا مُجْعِلًا لِنَحْمِجَ جَبَلًا وَمُعْقِلًا إِذَا أَرَادُوا مُعْقِلًا
ومن مقطعات الوعظ أرجوزته (٥) :

أَلَيْسَ يَوْمٌ مُسَمًّى الشُّرُوجَا أَغْظَمَ يَوْمَ رَجْعَةٍ رُجُوجَا
ومن مقطعات الغزل أرجوزته (٦) :

مَا لَغَوَانِي مُمَرِّضَاتٍ مُدَّدا وَقَدْ أَرَاهَنَ لِنِسَا عُنْدَا
ومن مقطعات التعريض أرجوزته (٧) :

(١) الأرجوزة ١/٣ - ٢ .

(٢) الأرجوزة ١/٤ - ٢ .

(٣) الأرجوزة (٢٢) وتتألف من (٩) أبيات .

(٤) الأرجوزة (٢٨) وتتألف من (٧) أبيات .

(٥) الأرجوزة (٣١) وتتألف من (١٧) بيتا .

(٦) الأرجوزة (٢٧) وتتألف من (٢١) بيتا .

(٧) الأرجوزة (٢٠) وتتألف من (٩) أبيات .

لم تَرَعِبِ الشَّعْرَاءُ أَنْ تُنَاصَا تَدْعُو حُرَيْشًا وَابْنَهُ وَقَتَا صَا
وبما تقدم نذكر أن العجاج لم يتخلف عن التطوير العام للقصيدة الأموية ،
فقد ألمّ بهج القصيدة وشكلها في العصر الأموي ، وكان لديه الأساس أحياناً
لما ظهر من تطور في شكل القصيدة أيام دولة بني العباس ، إذ حاول أن
يتخفف أحياناً من المقدمات التقليدية ، وعمد أحياناً أخرى إلى تخصيص
الأرجوزة لموضوع واحد فحسب ، أو قصرها على أبيات قليلة لا تخرج عن
حدود ما عرف بالمقطعات .

ولم يقف تجديد العجاج عند الإسهام في تطوير شكل القصيدة فحسب ،
بل وأبناء بطور شكل الرجز نفسه ، إذ كان له الحظ الأوفى في تقصيده
وإطالته بعد الأغلب العجلي ، ولهذا كان الرجز يكاد يكون الوزن الوحيد
الذي أنشأ عليه قصائده ، إلا ما كان يخرج إليه أحياناً من بعض أوزان
مشطور السريع ، وهي ما يحتلظ بأوزان الرجز ، أو يمكن أن تعتبر من
أوزانه نفسها^(١) ، ولهذا عرف ديوانه بأنه ليس فيه سوى الأراجيز^(٢) ،
ولا نجاد نجد للعجاج أوزاناً أخرى ، غير خمسة أبيات نسبت إليه في بعض
المصادر ، إذ نسب إليه الراغب الأصفهاني بيتين من الطويل ، وهما^(٣) :
تَري راحةً في كَثْرَةِ المَالِ رَبُّهُ وَكَثْرَةُ المَالِ المَرَّةَ للمَرَّةِ مُتَعَبٌ
إِذَا قُلَّ مَالُ المَرْءِ قَلَّتْ مَعْمُومُهُ وَتَشَعَّبَ الأُمُوالُ حِينَ تَشَعَّبَ
ونسب إليه البهري بيتاً من الكامل ، وهو^(٤) :

- (١) انظر الخزائن ٥١٢/٤ (بولاق) ، والمقاصد النحوية ٥١٤/٤ ، ومن ذلك
الأرجوزة (٢٥) من الديوان .
- (٢) وفيات الأعيان ٦٣/٢ ، وكشف الظنون ٧٩٠/١ ، والمقاصد النحوية
٢٦/١ .
- (٣) محاضرات الأدباء ٢٤٧/١ .
- (٤) حياة الحيوان ١٨٥/١ ، وأنشده ابن منظور في اللسان (ص ٦٨) عن
ابن الأعرابي دون نسبة .

أَلِفَ الصُّغُورِ فَلَا يَزَالُ كَانَهُ يَمَّا يَقُومُ عَلَى التَّلَاحِ كَسِيرَا
ونسب إليه ابن منظور بيتين من الكامل أيضاً ، وهما^(١) :
اللهُ يَعْلَمُ بِالمَغْبِيرةِ أَنَّنِي قَدِ اسْتَهْذَأْتُ مِنَ الحَيَوانِ المَرْسَلِ
وَأَخَذْتُهَا أَخَذَ المَقْصَبِ شَانَهُ عَجَلَانِ يَذَّيْبُهَا لِقَوْنِي نَزَلِ
وهذه الأبيات إن صح الشك في الثلاثة الأولى منها ، فاحتمال الشك
ضعف في البيتين الأخيرين ، وذلك لارتباطها بمجادة معينة من حياة العجاج ،
وهي ما رأينا من طلاقه لزوجته عقرب ، ولذا يمكن أن يكونا دليلًا على
خروج العجاج أحياناً بسيرة إلى غير الرجز من الأوزان الشعرية الأخرى ،
إلا أنه مع ذلك لم يُعَرَفْ بغير الرجز ، ولم يُنْقَلْ إلينا في ديوانه غير
الأراجيز ، وهذا مادفع به إلى شيء من الرَجُوب وعدم التنويع في الجرس
الموسيقي للأرجوزة ، وذلك لأن الشطر الواحد كان يؤلف بيتاً مستقلاً بعروضه
وضربه^(٢) ، ولا يسمح بامتداد الأمواج الموسيقية كالذي يحدث في أبيات
القصيد ، ولهذا ربما وجدنا أوصاف ذي الرمة أكثر حيوية من أوصاف
العجاج ، لما تمتاز به من إجماع موسيقي ، وجرس تصويري ، لا يمكن للرجز
أن يعوض منه ، ولا سيما أن الرجز قد اتخذ لنفسه خصائص الإغراب في
اللفظ والأبنية والصيغ من نحو وصرف .
ومع ذلك فقد عني العجاج بالجانب الموسيقي ، وحاول أن يُخْرِجَ

- (١) اللسان (فتح) ، وأنشدهما الجاحظ دون نسبة في البيان ٣٥١/٢ ،
والحيوان ٥٦/٣ .
- (٢) ولهذا كانوا يعدون أبيات الأرجوزة باعتبار الأشطار ، وهذا ما فعلناه
في شرح الديوان ، انظر حديث الممرى عن ذلك في رسالة الملائكة ١٩٥ - ١٩٦ ،
وانظر أيضاً العمدة ٥٦/١ ، والأغاني ١٢٤/١٨ ، و٦٠/٢١ ، والمزه ٤٨٤/٢ ،
والخزائن ٣٩/٤ .

الرجز إلى شيء من الحيرية ، فعمد إلى تكرار الألفاظ بكثرة داخل الأبيات ، ليخلق شيئاً من التجاوب الموسيقي بين أمواج البيت الواحد ، ومن أمثلة ذلك قوله (١) :

وَنَفَرْتُ فِيهِ السَّوَادِي وَزَفَرْتُ بَغْرَةً نَجْمٌ هَاجَ لَيْلًا فَبَقَرْتُ
مَاءَ تَشَاوٍ حَلَبْتُ مِنْهُ قَدَرْتُ تَحْدُوهُ تَحْدُوهُ إِذَا الْوَيْلُ انْتَشَرْتُ
وَلِنْ أَصَابَ كَدْرًا مَدَّ الْكَدْرُ

فقد كرر بعض الأفعال والأسماء داخل الأبيات ، لينشأ عنها تجاوب موسيقي في الأمواج الداخلية للبيت . ومن أمثال هذا أيضاً قوله في عاصم وحيي (٢) :

فَأَصْبَحْنَا بِنَجْوَةٍ تَعْدُ ضَرَرُ مُسَلِّمِينَ مِنْ لَسَانٍ وَأَمْرُ
وَمِنْهُ أَيْضاً قَوْلُهُ فِي الْهَجَا (٣) :

فَانْقَضَ بِالْهَوَسِ حِينَ انْقَضَا وَرَهَبُوا التَّقْصُ فَلَاقُوا تَقْصَا
فَجَمَعُوا مِنْهُمْ قَضِيضاً قَضَا جَاءُوا مَجْلِينَ فَلَاقُوا حَضَا
طَائِفِينَ لَا تَزِيرُ بَعْضُ بَعْضَا

ومنه أيضاً قوله في مصعب بن الزبير (٤) :

لَقَدْ وَجَدْتُمْ مُصْعَبًا مُسْتَضْعَبًا حِينَ رَمَى الْأَحْزَابَ وَالْمُحْرَبَا
وَحَبْتَنِي الْأَعْجَمَ وَالْمُخَضَّبَا وَالذُّرْبَ ذَا الْبَيْتَانِ وَالْمُدْرَبَا

وأمثال هذا كثير جداً في رجز العجاج ، حتى يمكن أن نعتبره إحدى الخصائص البارزة في أسلوبه ، ولم يكن يجري على لسانه مصادقة أو

دون وعي منه ، وإنما كان يقصد إليه قصداً ، ويجري إليه جرياً ، بل كان يطلق عليه اسماً بعينه ، فيسميه بـ « عطف الرجز » ، وقد مرّ بنا أن ابن رشيق قال في باب التجنيس : « ولم تكن القدماء تعرف هذا القلب ، أعني التجنيس ، يدلك على ذلك ما حكى عن رؤية بن العجاج وأبيه ، وذلك أنه قال له يوماً : أنا أشعر منك . قال : وكيف تكون أشعر مني ، وأنا علمتك عطف الرجز ؟ قال : وما عطف الرجز ؟ قال :

عاصم يا عاصم لو اعتصم (١)

قال : يا أبت أنا شاعر ، وأنت شاعر ابن أمعجم ، فقله . فانت ترى كيف سمّاه عطفاً ، ولم يسمّه تجانساً ، اللهم إلاّ بأن ينحسب بالعطف إلى معنى الالتفات فنعلم (٢) .

وسواء أراد به معنى « التجنيس » أو « الالتفات » ، فالهم أنه كان يعي هذا الجانب الموسيقي في رجزه ويسعى جهده إلى تجويده والإكثار منه ، حتى يخرج بالرجز من الثبات إلى التنوع الموسيقي ، وربما زاد على ذلك شيئاً من التناقض في تقسيم البيت إلى أمواج موسيقية نشبه أن تكون فواصل ثابتة داخل البيت الواحد ، فينشأ عن ذلك تنوع رائع لا يخرج من التنوع والحيوية داخل كل بيت ، ومن ذلك قوله (٣) :

وَأَحْتَضِرُ الْبُتْسَ إِذَا الْبُاسُ حَضِرُ بِمَجْمَعِ الرُّوحِ إِذَا الْحَامِي انْتَبَهَرُ
بُكْرُ السَّيْفِ إِذَا الرُّمْحُ انْطَاطَرُ فِي هَامَةِ اللَّيْلِ إِذَا مَا اللَّيْلُ تَهَرُ
كَجَمَلِ الْبَحْرِ إِذَا خَاضَ جَمْرُ غَوَارِبِ اللَّيْلِ إِذَا الْيَمُّ هَدَرُ

- (١) الأرجوزة ٣٩/٢٣ ، ورواية الديوان : « وعاصم ما عاصم لو اعتصم » .
(٢) الممددة ٢٢٧/١ - ٢٢٨ .
(٣) الأرجوزة ٩٤/١ - ٩٦ .

- (١) الأرجوزة ٥١/١ - ٥٥ .
(٢) الأرجوزة ١١/٢ - ١٢ .
(٣) الأرجوزة ٦/٦ - ١٠ .
(٤) الأرجوزة ١/٧ - ٤ .

فكل بيت ينقسم إلى موجتين من الموسيقى ، تنتهي الأولى قبل « إذا » ، وتبدأ الثانية بها ، وبهذا يتحول البيت إلى ما يشبه القرار والجواب في الموسيقى ، ثم لا تلبث بعض هذه الأمواج المتجاوبة أن تتلون بتكرار بعض الألفاظ بين الأولى والثانية ، فتعطي بذلك جرساً وأمواجاً جانبية ، ومن تعاقب هذه الأمواج وتلك في أبيات متوالية ، تتحول الأبيات إلى ما يشبه اللحن الأخاذ ، وهذا اللحن قد لا يُفسد من روعته إلا بعض الألفاظ الغريبة ، وحتى غرابة هذه الألفاظ قد لا تمنع الأذان من الترنم بتلك الأبيات لما فيها من تلوين موسيقي ، وتنوع في الأمواج الموسيقية المتعددة .

وعناية العجاج بالجانب الموسيقي في رجزه ، ربما حملته على شيء من الالتزام في قوافيه ، وذلك حرصاً منه على دقة الإيقاع الموسيقي ، وانسجام الجرس من بيت لآخر ، ولهذا أزم نفسه بالفتح أبداً قبل الراء المقيدة في أرجوزته^(١) :

فقد جَبَرَ الدِّينَ الإلهُ فَجَبَرُ وَعَوَّرَ الرَّحْمَنُ مِن وَلَّى الْعَوَّرُ

وكان لهذا الالتزام وقع مستحب لدى قدامى النقاد ، فابن جني يقول في هذه الرأية : « .. وذلك أنه التزم الفتح قبل رويها للبتة . ولعمري إن هذا مشروط في القوافي ، غير أنك فلما نجد قافية مقيدة إلا وأنت الحركات قبل رويها مختلفة ، ولنا المستحسن من هذه الرأية سلامتها بما لا يكاد يسلم منه غيرها^(٢) » .

وكانوا يطلقون على اختلاف الحركات قبل الروي المقيد اسم « التوجيه » وأشار إليه العسكري وأثنى على العجاج لاحتوائه منه ، فقال : « والتوجيه في المقيد ان يكون ما قبل حرف الروي مختلف الحركات . ومن أهل

(١) الأرجوزة ١/١ - ٢ .
(٢) الخصائص ٢/٢٦٠ .

القوافي من يميزه على قبح ، وهو الأخفش ، ويقول : قد كثر من فصحاء العرب . والخليل يميز الضمة مع الكسرة ، ثم قالوا : ألا يكون مسع الفتحة غيرها ، فإن كان مع الفتحة ضمة أو كسرة فهو « سناد » . . . ، ولم يفتن للاحتراس من هذا أحد من الشعراء كما فطن إليه العجاج في قصيدته :

قد جبر الدين الإله فيجبر

فلم يُخل بيت واحد ، ولم يلزم التوجيه فيها^(١) . . .

ومثل هذا الالتزام لتجويد الجانب الموسيقي في الشعر كان ثمناً لمنهوب الصنعة في عصر العجاج إذ نجد التزاماً آخر عند معاصريه من أمثال كثير ، وفي هذا يقول الدكتور شوقي ضيف : « وكثير يصور لنا نمو منمنمة الصنعة عنده من جانب آخر هو الجانب الموسيقي ، فقد كان يُعجب على نفسه ، إذ يضيق على نفسه المرات التي يسلكها إلى شعره ، كما صنع في قصيدته :

خليلي هذا رسم عزمة فاعقلا فتلو صيكنها ثم ابكيها حيث حلت

فقد التزم اللام المتددة في القصيدة كلها ، وبذلك كان من أوائل من وضعوا أسس الطريقة التي طبقها أبو العلاء في لزومياته^(٢) » .

وعلى الرغم من عناية العجاج بالجانب الموسيقي ، فإن طبيعة الرجز تدعو إلى شيء من الثبات أو الجمود لا نجد غالباً في أبيات القصيد ، ولهذا ربما فضلنا أبياتاً من شعر ذي الرمة في وصف الصجراء ، على أبيات في الموضوع

(١) شرح مايفع فيه التصحيح ٢٨٦ - ٢٨٧ .
(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٢٢ .

نفسه من أراجيز العجاج ، رغم كل ما أُنْباء في هذا الرجز من روعة في التصوير ، ودقة في المعاني .

ولم يعن العجاج بشكل الأرجوزة أو بالجانب الموسيقي فحسب ، وإنما أراد لمدرسته خصائص أخرى ، يمكن أن تندرج ضمن الخصائص اللفظية ، ولكننا أفردناها في فصل خاص بها ، ليكون من السهل تبويبها وبسط شيء من أمرها ، وهي الخصائص اللغوية والنحوية .

★ ★ ★

الفصل السادس

الخصائص اللغوية والنحوية

عبد الرحمن بن أبي ربيعة
الجزيرة

إن الخصائص اللغوية والنحوية جد متشعبة في رجز العجاج ، ولكنها يمكن أن ترتد إلى عدد من الظواهر العامة في رجزه ، وهي إغراب العجاج في ألفاظ اللغة ، وحفاظه على كثير من نوادر الألفاظ والأبنية ، ثم توليده في أبنية اللغة وألفاظها ، وتصرفه الواسع في هذه الأبنية ، ثم تصرفه في القواعد المألوفة للغة . وهذه الظواهر يمكن من خلالها أن نحدد السمات اللغوية والنحوية العامة في رجزه .

١ - الإغراب في اللغة

لاشك أن الإغراب في ألفاظ اللغة ، كان من أبرز ما أراد العجاج لمدرسة الرجز من خصائص ، وهذا الإغراب يذهب عند قدامى النقاد إلى ضربين اثنين ، الأول منها ما يحتاج فهمه إلى بحث وتنقيب وكشف في كتب اللغة ، والثاني ما يحتاج إلى تدقيق النظر وتخريج اللفظ على وجه بعيد لاحتماله عدة وجوه في المعنى مع أن الكلمة مألوفة ليست بوحشية ، قال الخطيب التزويني : « والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيحتاج في معرفته إلى أن يُستقر عنها في كتب اللغة المبسوطة ، كما روي عن عيسى بن عمر

التجوي أنه سقط عن حمار ، فاجتمع عليه الناس فقال : ما لكم تكسّونكم على تكسّونكم على ذي جُنّة ، افرقعوها عني . اي اجتمعتم تنصّوا . او يُخرج لها معنى بعيد كما في قول العجاج^(١) :

وفاجحاً ومرسباً مسرجاً

فإنه لم يُعرّف ما أراد بقوله « مسرجاً » ، حتى اختلف في تخرجه ، فقليل : هو من قولهم لسيوف مسرجية ، منسوبة إلى قين يقال له مسرج ، يريد أنه في الاستواء والدقة كالسيف السريجي ، وقيل : من السراج ، يريد أنه في البريق كالسراج ، وهذا يقرب من قولهم : مسرج وجهه بكسر الراء ، أي حسنه ، وسرج الله وجهه أي بهجه وحسنه^(٢) . وقال التفنيدني : « ثم الغريب على ضربين : الضرب الأول ما يعاب استعماله مطلقاً ، وهو ما يحتاج في فهمه إلى بحث وتنقيب ، وكشف في كتب اللغة ، كقول ابن جندر :

حلقتُ بما أرقلتُ تحولتُ
وما سبقتُ من تنويفتُ

ثم قال بعد شرح الغريب في هذه الأبيات : « الضرب الثاني : ما يحتاج إلى تدقيق النظر في التصريف وتخرج اللفظ على وجه بعيد كلفظ « مسرج » في قول العجاج :

ومقةً وحاجباً مزججاً وفاجحاً ومرسباً مسرجاً

(١) الأرجوزة ٤٠/٣٣ .

(٢) الإيضاح ٩/١ - ١٢ ، ونقله السيوطي في الزهر ١/١٨٦ ، وانظر متن التلخيص للخطيب القزويني ٤ - ٥ ، ومختصر المعاني للتفازاني ٩ .

(٣) صبح الأعشى ٢/٢٠٤ .

فاللفة شحمة العين ، والحاجب معروف ، والمزجج المعقوس مع طول ودقة في طرفه ، والفاحم الشعر الأسود الذي لونه كالون الفحم ، والمرسن الالف ، ووصفه بكونه مسرجاً ، إما أنه كالسيف السريجي في الدقة والاستواء ، والسريجي نسبة إلى قين يسمى سريجاً نسب إليه السيوف ، وإما أنه كالسراج في البريق والدلعان ، أو من قولهم سرج الله وجهه إذا بهجه وحسنه ، فهذا ومثله ما لا يقف على معناه إلا من عرف التصريف وأنقسه^(١) .

والنوع الأول من الغريب قد رأيناه بكثرة في كل ما مر بنا من رجزه ، ذلك لأنه لا يكاد يفارق موضوعاً من الموضوعات ، فالعجاج يغرب في ألفاظه حتى في موضوعات الغزل نفسها ، مع أنها أوسع ما تكونت إلى اللفظ المألوف ، حتى لا يتلاشى وراء الإغراب ما فيها من توفد العواطف ، أو رقة المعاني ، فإذا عدنا إلى بعض أبياته في الغزل كان لا بد أن نشغل بالتنقيب عن معاني الألفاظ أولاً ، ثم نمضي إلى فهم الأبيات وما فيها من تصوير لعواطف ومشاعره ، ومن أمثلة ذلك قوله في ليلى^(٢) :

فهي كزعرور الكتيب الأفيتم
موضوعة المساء في مستعظم
في كفتل يستحضره مملكم
وعنت كاركان النعقة المبرتن
إلى سواء قطن مؤمكم
رباً العظام قنعة المخذم
في حليب مثل العنان المؤتم
ليس بجعشوش ولا بجعشم
تجلو بعود الإسجل المقصم
غروب لا ساس ولا مثلم
فالعجاج في هذه الأبيات يرسم عدداً من الصور الحسية لتلك المرأة التي

(١) صبح الأعشى ٢/٢٠٥ .

(٢) الأرجوزة ٢٤/٢٥ - ٣٤ .

يتغزل بها ، ولكن صورة « ليل » لا تكاد تظهر امام نواظرنا ، إلا بعد لأي وعناء في التقيب عن معاني الألفاظ الغريبة ، التي تتراحم داخل الأبيات .

ومثل هذا نجده أيضاً في قوله يتغزل بامرأة أخرى^(١) :

فقد تسبّني غير ما تحذير مرمارة مثل النقا المرمور
براقة كقطب البرير قسي كعسي الوحيل المبهور
على حنّدي قصب ممكور كعنقرات الحائر المسكور
غراء تسبي نظرت النطشور بفاحم يمتد أو منشور
كالكرم إذ نادی من الكافور في غمّشادي حرّة التهور

ولا تكاد نستبين شيئاً من أوصاف هذه المرامرة ، وهي المرأة الشابة الناعمة ، إلا بعد الوقوف طويلاً على معاجم اللغة ، نائلها عن جمرة من الألفاظ الغريبة التي استعملها العجّاج في أبياته .

ومثل هذا أيضاً قوله يتغزل بامرأة أخرى^(٢) :

كلما عظامها بردي سقاء ريتاً حائر روي
بالمسار حتى هو يمدودي في أيكه فلا هو الضحي
ولا بلوح نبته الشبي لاث به الأشاء والعبري
فتم من قوامها قومي قعم تناء قصب تعمي
معدّلج بيض قفاخري وكفل يرتج رجراجي
كلما تحس أعلى ثري ميري

فهذه أبيات في الغزل ، وكان ينبغي ألا يزدحم فيها هذا الحشد من الغريب ، إلا أن مذهب العجّاج هو الإغراب في اللغة ، ولا فرق عنده بين الغزل

(١) الأرجوزة ١٩/١٩ - ٢٨
(٢) الأرجوزة ٢٥/٢٧ - ٣٧

أو غيره من الموضوعات ، وكلنا يتخذ من رجزه ميداناً لعرض هذه الألفاظ الغريبة ، يستمدّها من حياته في البداية ، ثم يعرضها على الناس في الحواضر الجديدة ، في البصرة أو في واسط أو في دمشق .

ولم يقتصر على هذا الضرب من الإغراب ، وإنما اتجه إلى النوع الثاني ، وهو ما يحتاج إلى تدقيق النظر في الألفاظ لاحتلالها عدّة وجوه في المعنى ، ومن هنا كان الخلاف واسعاً في شرح بعض أبياته ، ومن أمثلة ذلك ما رأيناه منذ حين في قوله^(١) :

ومقلّة وحاجباً مزججاً وفاحاً ومرسناً ممرّجاً

فوضّفه الأئمة بأنه «مسرّج» ليس بالكلام الغريب الوحشي ، ولكن فيه يحتاج إلى دقّة وبُعْد في تخريج الكلمة وردّها إلى الأصل الذي اشتقت منه ، فربما شبه الأئمة بالسيف السريجي في دقته واستوائه ، وربما ذهب به إلى معنى يريق السراج ولمعانه فأراد بالمرسج معنى المحسن أو المنير ، ومن ثم اختلف الناس في تفسيره ، بعضهم أشار إلى هذا المعنى وذلك ولم يجزم بواحد منها^(٢) ، وبعضهم ذهب إلى المعنى الأول دون إشارة إلى غيره^(٣) ، وجماعة وقفت عند المعنى الثاني ولم تشر إلى الأول مطلقاً^(٤) .

ومن هذا قوله في مطلع الرائية^(٥) :

(١) الأرجوزة ٣٣/٣٩ - ٤٠ . والمترنسين : الأئمة .
(٢) جمهرة اللغة ٢/٧٦ ، ٣٣٨ ، والمزهر ١/١٨٦ ، وصبح الأعشى ٢/٢٠٥ ، ومختصر المعاني ٩ ، والإيضاح ١/١٢ ، ومتمن التلخيص ٥ .
(٣) أمالي القاضي ٢/٢٣٨ ، والضحاح ١/٣٢٢ .
(٤) مقاييس اللغة ٣/١٥٦ ، والمختص ٢/١٥٤ ، ومختصر تهذيب الألفاظ ١٢٧ ، وكنز الحفاظ ٢/٢٠٧ ، والأزمّة والأمكنة ٢/٣٢٥ ، والمفردات في غريب القرآن ٢٢٩ ، وأسرار البلاغة ٣٠ ، والمقاصد النحوية ١/٣٥ ، وشرح شواهد المتن ٢٦٩ .
(٥) الأرجوزة ١/١ - ٢ .

قد جَبَر الدَّيْنُ الإِلَهَ جَبَرٌ وَعَوْرُ الرَّحْمَنِ مِنْ وَلَّى الْعَوْرَ

فالْعَوْرُ من الكلام المألوف ، إلا أن الإغراب فيه يبرز في تحصيل المعنى الذي أرادَه العجّاج بدقّة ، ومن ثم كان الخلاف حول تفسير البيت ، فالأصمعي قال في شرحه : « يقول : أفند الرحمن من ولّاه العور ، أي جعله وليّاً للعور . والعور : قبح الأمر وفساده » ، وتابع الأصمعي على هذا الرأي كثيرون^(١) ، إلا أن البيت لم يقف عندهما التفسير ، ولما كان هدفاً لكثير من التأويل والاختلاف ، فهاجعة جعلت « العور » هنا بمعنى « الحق » ، وفسروه بقولهم : « أي وحقق الله قولَ مَنْ ولّاه الحق^(٢) » . وآخرون جعلوه بمعنى « ترك الحق » ، فقال أبو عبيدة « والأعور : الذي قد عور فلم يقض حاجته ولم يصب ما يطلب ، قال العجّاج : (البيت) ، وليس هو من عور العين^(٣) » . وردّ ابن فارس ذلك كله ، فجعل « العور » هنا من عور العين نفسه ، فقال : « قولهم : إن العور ترك الحق ، وإنشادهم قول العجّاج (البيت) ، فالقياس غير مقتض للفظ الذي ذكر من ترك الحق ، ولما أراد العور الذي هو عور العين ، يضربه مثلاً لمن عمي عن الحق فلم يبتد إليه^(٤) » .

وما هذا الاختلاف إلا لأن الكلمة تحتاج إلى تلمظ وبعد نظر في تأويلها وتخرج معناها ، ومن ذلك أيضاً قوله يذكر تقدم السن به^(٥) :

- (١) ابن قتيبة في المعاني الكبير ٧٦٩/٢ ، ٨٦٥ ، والجواليقي في شرح أدب الكاتب ٣١٧ ، والنجدي في الصحاح ٧٦٢/٢ ، وابن القطّاع في الأفعال ٣٨٨/٢ ، والبغدادي في الخزانة ٤٠/٤ .
(٢) نقل ذلك ابن القطّاع في الأفعال ٣٨٨/٢ ، وقال به ابن الأثيري في في الأضداد ٢٨ .
(٣) مجاز القرآن ٢٠٥/٢ ، وانظر اللسان (عور) .
(٤) مثانييس اللغة ١٨٦/٤ .
(٥) المحققات ١/١٧ .

لَمَّا تَرَى نَبِيَّ أَمَلِ الْقَعَادَا

ف قوله « القعادا » ليس بالرشحي الغرب ، ولكنه مع ذلك آثار خلافاً حول شرح البيت ، فالعسكري نقل أن الأصمعي أنشد هذه الأبيات « فقال له ابن الأعرابي : ما القعاد ؟ فقال : يصح أن يكون مَنْ قَعَدَ من الرجال عن طلب الغزل للكبير ، أو من النساء مثل ذلك . فقال ابن الأعرابي : هذا للرجال فاما النساء فيجمعن قواعد ، كما قال عز وجل^(١) ، فضحك الأصمعي ، وأنشد للقطامي :

أَبْصَارُهُنَّ عَنِ الشَّيْخَانِ مَائِلَةٌ وَقَدْ أَرَاهُنَّ عَنِّي غَيْرَ صُدَادٍ
فَكَتَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ ، فلم يجر جواباً^(٢) .

فالأصمعي لم يقطع في شرح البيت ، ولم يجد إن كان المعنى خاصاً بالرجال أو النساء ، ولهذا وجدنا ابن قتيبة يحضه بالنساء ، فيشرح البيت بقوله : « القعاد جمع قاعد من النساء ، وهي التي قعدت عن الحيض والولد ، يقول : صرت شيخاً لا أزور الشوايب من أجل أن تبدلت^(٣) » ، ثم نجد التبريزي يحضه بالرجال على ما يبدو من قوله : « قعاد جمع قاعد ، ولما يصلهم ويكون معهم لكبره وضعفه ، ولا يكون مع من يتصرف^(٤) » .

ومثل هذا قول العجّاج يصف الثور^(٥) :

يَبْتَعِنُ ذَيْلًا مُوسَى هَبْرَجًا

وقال الأصمعي في شرحه : « والهبرج : الذي يحاط في مشيته ، يتبختر .

- (١) في قوله تعالى : « والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً » ، سورة النور ٦٠/٢٤ .
(٢) شرح مايفع فيه التصحيح ١٥٤ .
(٣) المعاني الكبير ١٢٢٤/٣ .
(٤) تهذيب اصطلاح المنطق ١٦٤/١ .
(٥) الأروادة ١٣/٢٢ .

قال ولم أسمع إلا في هذا البيت . ومثل ذلك ما أورده صاحب اللسان في شرح البيت ، فقال : « قال أبو نصر : سألت الأصمعي مرة : أي شيء هيرج ؟ قال : يجلس في مشبه . الأصمعي أيضاً : الهيرج الخيال »^(١) ، فلا يصح لم يجدد المعنى ، وإنما تركه بين أمرين : الذي يجلس في مشبه ، أو الذي يجلس ويتختر . واقتصر ابن قتيبة على المعنى الأخير فقال في شرح البيت : « هيرج : يتختر »^(٢) ، وقال ابن السيد في شرحه أيضاً : « والهيرج : المتختر في مشبه »^(٣) . إلا أن ابن دريد لم يذهب في شرح البيت إلى هذا المعنى أو ذلك ، وإنما قال : « يعني ثوراً طويلاً الذنب ، والهيرج : السريع ، ويقال : المسن »^(٤) ، وما هذا الخلاف إلا لأن العجاج قد تفرّد في وصف الثور بـ « الهيرج » ، ولها معان متعددة ، ومن ثم كان لا بد من دقة وبعد نظر في تحديد معناها داخل البيت .

ومن هذا أيضاً قوله في وصف المثلث^(٥) :

يُكشِفُ عن جماعته دلو الدال

فكلمة « الدالي » ليست بوحشية ولا غريبة ، ولكن استعمالها في بيت العجاج يحتاج فهمه إلى تدقيق النظر ، والبعد في تخريج المعنى المراد ، ففي اللغة يقال : دلا الدلو إذا جنبها ، وأخرجها من البئر ، فهو دال ، وأدلى الدلو إذا ألقاها في البئر ليستقي ، فهو مدلول . ومن هنا ذهب ابن قتيبة إلى أن الدالي في البيت بمعنى الدلي فقال : « فإن الدالي هو الجاذب للدلو ليخرجها ، يقال دلا يدلو ، والدالي هو المستقي ، يقال أدلى دلوه إذا ألقاها

في الماء ليستقي ، ولو قال العجاج « الدلي » لكان أشبه بما أراد ، ولكنه أراد القافية ، وعلم أن الدالي والدلي يجوز أن يوصف بها المستقي بالدلو ، قال : فأراد : يكشف عن الماء دلو المستقي^(١) . واتجه الجوهري إلى هذا الرأي ، فقال : « وقد جاء في الشعر الدالي بمعنى الدلي ، وهو في قول العجاج بصف ماء : (البيت) ، يعني الدلي »^(٢) .

ورد علي بن حمزة على هذا الرأي ، ورآه غلطاً من ذهب إليه في تفسير بيت العجاج ، ثم قال : « وإنما المعنى فيه أنه لما كثر المدلي إذا أدلى دلوه عاد فدلّاه أي أخرجها قال دلو الدال ، كما قال النابغة :

مثل الإمام الغواني تحصيل السرّ

ولما تحملها عند الرواح ، فلما كثر إذا غدوت رحن ، قال : مثل الإمام الغواني^(٣) .

ولم يفت الخلاف عند رأي ابن حمزة ، وإنما امتد إلى رأي ثالث جاء به أبو منصور الجواليقي ، إذ حملها على النسب ، فقال في شرح البيت : « والدالي : الجاذب للدلو ليخرجها ، ويقال : الدالي صاحب الدلو كاللأين والتسامر »^(٤) .

ولا شك أن الكلمة لو أفردت عن بيت العجاج لما كان فيها شيء من الأشكال أو الغرابة ، ولكنها في بيت العجاج احوجت إلى بعد في التأويل ، واختلفت في الرأي ، لأن استعمالها على هذا النحو لا يفهم إلا بتدقيق النظر ، والبعد في تخريج المعنى المراد .

(١) أدب الكاتب ٦٣٦ .

(٢) الصحاح ٦/٢٣٣٩ .

(٣) اللسان (دلا) .

(٤) شرح أدب الكاتب ٤١٠ .

(١) اللسان (هيرج) .

(٢) المعاني الكبير ٢/٧٦٧ .

(٣) الاقتضاب ٤٢١ .

(٤) جمهرة اللغة ١/١٨٠ .

(٥) ملحقات الديوان ٢٦/٦٤ .

وهذا النوع من الإغراب توجد كذلك عند رؤبة ، ومن أمثله قوله (١) :

أو مجنّ عنه عرّيت أعراؤه

وقال فيه ابن جني : « فيجوز أن يكون جمع عراؤه ، ويجوز أن يكون جمع عرّيت ، ويجوز أن يكون جمع عراؤه ، من قومهم : نزل بعرّاه أي نأجته » (٢) .

وأما هذا نصادفه بكثرة في رجز العجاج ، لأن الإغراب هو المذهب الذي أرادته لرجزه ، سواء كان هذا الإغراب في استعمال ألفاظ وحشية غير مألوفة ، أو في استعمال ألفاظ مألوفة ولكنها غير واضحة الدلالة بدقة وتحديد ، ودعا انجيه إلى نوع ثالث من الإغراب وهو استعمال الألفاظ الأعجمية ، وقد تبنّيه القدامى إلى هذه الظاهرة من الأغراب عند الشعراء ، ورأوا فيها شيئا من التطرف فقال ابن رشيق : « ولشعراء ألفاظ معروفة ، وأمثلة مألوفة ، لا ينبغي للشاعر أن يدعوها ولا أن يستعمل غيرها .. إلا أن يريد شاعر أن يتطوّر باستعمال لفظ أعجمي ، فيستعمله في الندوة وعلى سبيل الخطرة كما فعل الأعشى قديما وأبو نواس حديثا ، فلا بأس بذلك » (٣) .

وأشار الجرجاني إلى مثل ذلك ، فقال : « وقد استعمل العجاج في قولاني جيمته ألفاظا منه ، فقال (كما رأيت في الملاء البردجا) يريد الرقيق ، وهو بالفارسية (برّدة) ، وقال (كالخيشي الثقب أو تسبجيا) يريد لبس القميص ، وإنما هو بالفارسية (شبي) فعرّبه بسبجية ثم صرف منه فعلا في أبيات غيرها ، فليس يحظور على الشاعر الاقتداء بهم في أمثال ذلك

(١) من أرجوزة في ديوانه المخطوط : النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ١٥٧ ، والنسخة (٥١٩ أدب) ، والنسخة (٤٩٦ أدب) ٢٢١ .
(٢) الخصائص ٢/٢٢٢ ، ونقله ابن منظور في اللسان (عرا) ، وانظر الخصائص ٢/٢١١ .
(٣) العمدة ١/٨٢ .

إذا احتاج إليه (١) .

فاستعمل العجاج بعض الألفاظ الأعجمية كان حجة عند بعض النقاد لتسويغ نظائرها عند غيره من الشعراء ، إلا أن دخولها في رجزه ، لم يكن لجرد الحاجة والضرورة دائما ، وإنما كان ، على ما يبدو ، لما فيها من ظرف وإغراب ، كان العجاج حريصا عليه في أرجوزته ، ولا سيما أن العرب قد تحدثت بها ، ولم يكن هو أول من أدخلها إلى اللغة .

وأكثر ما وردت هذه الألفاظ في أرجوزته الجيمية ، ومنها قوله (٢) :

كالخيشي الثقب أو تسبجيا

والسبيج أو السبيجة قميص ليس له كتمان ، وهو بالفارسية (شبي) ، واشتق العجاج منه فعل « تسبج » بمعنى لبس القميص (٣) .
ومنها قوله أيضا (٤) :

كأنه مسرول أرندجيا

والأرندج واليرندج أصله بالفارسية (رندة) ، وهو جلد أسود تعمل منه الخفاف (٥) .

ومنها قوله (٦) :

كما رايت في الملاء البردجيا

(١) الوساطة ٣٤٨ .

(٢) الأرجوزة ٧/٢٣٣ .

(٣) انظر شرح الأصمعي للبيت ، وجمهرة اللغة ١/٢١٠ ، ٤٩٩/٣ ، والمعاني الكبير ١/٣٣٠ ، وأدب الكاتب ٥٢٩ ، وشرح أدب الكاتب ٣٤٠ ، والمغرب ١٨٢ ، والخصص ١٤/٤٢ ، والمزهر ١/٢٨٩ .

(٤) الأرجوزة ١٠/٢٣٣ .

(٥) انظر شرح الأصمعي للبيت ، ثم جمهرة اللغة ٣/٥٠٠ ، والمعاني الكبير ٢/٧٣٦ ، والمغرب ١٦ .

(٦) الأرجوزة ١٢/٢٣٣ .

والبرّج أصله بالفارسية (برّج) ، وهو السبي^(١) .
ومنها قوله^(٢) :

عَكَفَ التَّسْبِيطُ يَلْعَبُونَ الْفَتْرَجَا يَوْمَ خَرَجَ يُخْرِجُ السَّمَرَجَا
وَالْفَتْرَجُ رَقَصٌ لِلْفَرَسِ يأخذ بعضهم فيه يد بعض ويرقصون ، ويعرف
بالْبَتْرَجَانِ أو الدَّسْتَبَنْدِ^(٣) . والسَّمَرَجُ هو الخراج ، وأصله بالفارسية
(سِهَ مَرَه) أي ثلاث مرات يؤدي ، وهذا أصله عند الفرس ، وقد استعملته
العرب في الخراج كله^(٤) .
ومنها قوله^(٥) :

مَيْاحَةً تَمِيعُ مَشِيّاً رَهْوَجَا
وَالرَّهْوَجُ أصله بالفارسية (رَهْوَا) ، وهو المشي اللين السهل^(٦) .
ومنها قوله^(٧) :

وَكأنَّ مَا اهْتَضَّ الْجِيحَافُ يَهْرَجَا

- (١) انظر جمهرة اللغة ٥٠٠/٣ ، وأدب الكاتب ٥٢٩ ، والمعاني الكبير
٧٣٦/٢ ، والافتضاب ٤٢١ ، والمغرب ١٠ ، ٤٨ ، والصحاح ٢٩٩/١ ،
واللسان (يردج) .
(٢) الأرجوزة ١٦/٣٣ - ١٧ .
(٣) انظر جمهرة اللغة ٥٠٠/٣ ، ٣٥٤/٣ ، ومقاييس اللغة ٥١٥/٤ ،
وأدب الكاتب ٥٢٩ ، وشرح أدب الكاتب ٣٤١ ، والمغرب ٢٣٧ ، والصحاح
٣٣٦/١ ، والمخصص ٤٢/١٤ ، واللسان (فتزج) .
(٤) انظر جمهرة اللغة ٥٠٠/٣ ، وأدب الكاتب ٥٢٩ ، والافتضاب ٤٢١ ،
والمغرب ١٨٤ ، والصحاح ٣٢٢/١ ، والمخصص ٤٢/١٤ ، واللسان (سمرج)
و (شمرج) .
(٥) الأرجوزة ٤٥/٣٣ .
(٦) انظر جمهرة اللغة ٥٠٠/٣ ، وأدب الكاتب ٥٢٩ ، والمغرب ١٥٧ ،
والصحاح ٢١٨/١ ، والمخصص ٤٢/١٤ ، واللسان (رهج) ، وفي المخصص
٩٩/٣ ورد أن أصله في الفارسية (رهوه) .
(٧) الأرجوزة ١١١/٣٣ .

- ٤٠٠ -

والبهرج أصله بالفارسية (نَبَهَرَه) ، وهو الباطل ، يقال : درهم
بهرج ، إذا كان يرد ولا يؤخذ^(١) .
وفق ألفاظ أعجمية أخرى وردت في غير هذه الأرجوزة ، ومنها ما ورد
في قوله^(٢) :

كَأَلِ الْخَصِّ إِذَا تَجَلَّهَ الْبَارِي
وَالْبَارِي بالفارسية (بَورِيَه) ، وهو الحَصِيرُ^(٣) .
ومنها أيضاً قوله^(٤) :

كَمِيرَجَلِ الصَّبَاغِ جَائِثَ بَقْمَه
وَالْبَقْمُ صَيْغَ أَحْمَرٍ ، وهو فارسي معرّب^(٥) .
ومنها قوله^(٦) :

وَلَوْ نَقُولُ دَرْيَخَرَا لَدَرْيَخَرَا
وَدَرْيَخَ كلمة فارسية أو مريانية ، بمعنى التذلل والإصغاء إلى الأمر^(٧) .
ومنها قوله أيضاً^(٨) :

- (١) انظر جمهرة اللغة ٥٠٠/٣ ، وأدب الكاتب ٥٢٩ ، والمخصص ٤٢/١٤ ،
والمغرب ٤٨ ، والمزهر ٢٩٠/١ ، واللسان (بهرج) .
(٢) الأرجوزة ١٢٠/٢٥ .
(٣) انظر جمهرة اللغة ٥٠٢/٣ ، والصحاح ٥٩٨/٢ ، والمخصص ٧٩/١٦ ،
والمغرب ٤٦ ، وأمالى القالي ١٢٤/٢ ، وأدب الكاتب ٤٠٢ ، ٥٢٩ ، وشرح
أدب الكاتب ٣٤٠ .
(٤) الأرجوزة ٣٠/٣٦ .
(٥) انظر جمهرة اللغة ٢٢٢/١ ، ٢٥٣/٣ ، والمغرب ٥٩ ، ومقاييس
اللغة ٢٧٦/١ ، والصحاح ١٨٧٣/٥ ، واللسان والقاموس ، مادة (بقم) .
(٦) الأرجوزة ٢١/٤١ .
(٧) انظر شرح الأسمي للبيت ، وجمهرة اللغة ٣٠١/٣ ، والصحاح
٤٢٠/١ .
(٨) الأرجوزة ٢٥/٤١ .

- ٤٠١ -

المعاج - ٢٦

ولو أقول بَرَحُوا لَبَرَحُوا

والْبَرَحُ من أصل عبراني أو سرياني ، وهو البركة واليهاء^(١) .
والألفاظ الأعجمية وجدت طريقها إلى رجز رؤبة بن العجاج^(٢) ، وأبي
النجم العجلي^(٣) ، وفيه أراجوزة متنازعة بين رؤبة والعجاج^(٤) ، فإن صحت لرؤبة ،
فهذا يعني أنه كان كأيدي لا يدخل الأعجمي في رجزه فحسب ، وإنما يشتق
منه لإجراء له مجرى اللفظ العربي الأصل ، فقد تحدث ابن جني عن الأسماء
الأعجمية التي استعملها العرب استعمالاً أسمىها العربية ، ثم قال : « ويدل
على أنهم أجروها مجرى العربي ، أنهم استقوا منها كما يشقون من العربي ،
قال رؤبة^(٥) :

هل يُنَجِّسُنِي حَلِيفٌ سَخِيتٌ أو فَضَةٌ أو ذَهَبٌ كَبِيرٌ

قال : فسخت من السخت ، وهو الشديد ، بمنزلة زحليل من
زحل^(٦) .

والألفاظ الأعجمية لم يأت بها العجاج ليجرد الحاجة فقط ، وإنما لضرب

(١) جمهرة اللغة ٢٢٢/١ ، والمغرب ٨١ ، واللسان (برخ) .

(٢) انظر جمهرة اللغة ٩٣/١ ، ١٦/٢ ، ٢٩٥/٣ ، ٢٧٤ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،
ومقاييس اللغة ٢٦٢/٢ ، وأدب الكاتب ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، والمغرب ١٠٤ ،
٢٩٠ ، ١٤٢ .

(٣) انظر الألفاني ١٣٥/٢١ ، والمغرب ١١٥ ، والمخصص ١٩٥/١١ - ١٩٦ .
(٤) هي الأراجوزة (٤٢) من ديوان العجاج ، انظر بحث الاضطراب في
رجس العجاج .

(٥) الأراجوزة ٥٦/٤٢ - ٥٧ من ديوان العجاج .

(٦) شرح نصريف المازني ١٣٢/١ - ١٣٣ ، وأشد ابن جني بيت رؤبة
ونقل شبيهها بكلامه هذا عن أبي علي الفارسي في الخصائص ٣٥٨/١ ، وقال
السكاكي ما يشبه ذلك أيضاً في مفتاح العلوم ٧٩ ، وابن سيده في المخصص
٩/٥ ، والجواليقي في المغرب ١٧٩ - ١٨٠ . وانظر مختصر تهذيب الألفاظ
لابن السكيت ١٦٠ ، وكنز الحفاظ للبريزي ٣٦٠ ، والمخصص ٨٨/٣ ،
والصحاح ٢٥٢/١ ، واللسان (سخت) .

من النظر ، أو لا فيها من إغراب قد أصر عليه في رجزه ، سواء كان
باستعمال الألفاظ غير المألوفة ، أو باستعمال ألفاظ تخرج إلى التدقيق وتقليب
أوجه الرأي لمعرفة المعاني المقصودة منها ، أو باستعمال شيء من الألفاظ
الأعجمية التي تكلمت بها العرب ، وهي من أصل فارسي أو عبراني أو سرياني أو
ما إلى ذلك .

فالعجاج قد اتخذ من الرجز وسيلة لنقل أجواء الصحراء إلى الحياة الجديدة
في بعض الأصناف ، ولهذا كان لا بد أن يأتي بغرائب الألفاظ يعرضها
عرضاً في أبيات الرجز ، لما فيها من تفحات صحراوية بدوية ، حتى لكان
أراجيزه قد تحولت إلى لوحات من الغريب في اللغة والألفاظ ، ولعل بما
ثبته على هذا الاتجاه ، هو ما كان يلقاه من إقبال الخلفاء والأمراء وسائر
الناس على أراجيزه ، وتقديره في الإنشاء على أمثال جرير وغيره^(١) ، لأن
أراجيزه على ما يبدو ، كانت تلتقي عند حنين النفوس إلى حياتها الفطرية الأولى
فوق رمال الصحاري في جزيرة العرب .

ومن هنا كانت أراجيز العجاج تجمع تلقائياً غرائب اللغة ونواذرها ،
ونبيء منها مادة وفيرة لعصر التدوين في القرن الهجري الثاني ، فلما كان هذا
العصر ونشط العلماء في تدوين متن اللغة بدقة واستقصاء ، كان رؤبة بن
العجاج يقدم لهم ما يطلون ، بل ربما كان رؤبة قد صنع كثيراً من رجزه
ليعد حاجة علماء عصره من الغريب والنوادر ، حتى كان رجزه أشبه بمتون
لغوية^(٢) ، تطوي على غرائب الألفاظ والأبنية والأساليب .

والمهم أن العجاج كان يأتي بهذا الغريب عن طبع دون تكلف أو

(١) الألفاني ١٢٣/١٨ ، ٥٩/٢١ ، وتاريخ ابن عساكر ٣٥٥/٧ .

(٢) أرجع إلى الفصل الذي كتبه الدكتور شوقي ضيف بعنوان « متون
رؤبة » في التطور والتجديد ٢٧٥ - ٢٨٧ .

تعمل ، فتقع الألفاظ في مواضعها ، وتعبّر بدقة عن معانيها ، ولا تتنافر فيها بينها ، وذلك لأنها قد عاشت في نفسه ، وأحس بها في صجرائه ، قبل أن يبرزها في معارض رجزه ، ولهذا قصّر عنه من حاول أن يجاريه في الغريب من معاصره أو غير معاصره .

فقد حاول الكميت والطرماح أن يجارياه في الغريب ، فأخفقا دون ذلك ، وسبب هذا الاخفاق قد يشته العجاج نفسه ، فقال : « كانا يسألاني عن الغريب فأخبرهما به ، ثم أراء في شعرهما وقد وضعاه في غير مواضعه . فقل له : ولم ذاك ؟ قال : لأنها قرويان يصفان ما لم يروا ، فيضعانه في غير موضعه ، وأنا بدوي أصف ما رأيت فأضعه في موضعه »^(١) .

وقد اشتهر هذا التعليل من الكميت ، فقال الأحمدي : « وأما الكميت ابن زيد فهو مكثر جداً ، كان يتعمّل لإدخال الغريب في شعره »^(٢) ، وهذا يعني أن مدرسة العجاج في الإغراب قد أحدثت أصداء في أشعار معاصريها ، ومن جاء بعدهم ، إذ أصبح بعض الشعراء يتعمّد إدخال الغريب إلى أشعاره ، ليثبت أن له قدماً وسابقة ، حتى كان بعضهم يدخل الغريب إلى شعره ، وهو لا يعرف معناه فتقع الألفاظ في غير مواضعها ، كالذي كان من أمر الكميت والطرماح .

ومثل ذلك أيضاً ما نقله صاحب اللسان ، فقال : « قيل لثيب : ما التّشكّال ؟ في بيت قاله . فقال : لا أدري سمعته يقال ، فكانه »^(٣) ، ومثله أيضاً ما نقله صاحب الأغاني بسنده ، فقال : « قال أبو الغيثية لابن

(١) الأغاني ١٧/٢ (دار الكتب) ، وفي الشعر والشعراء ٥٦٧ ، والموشح ١٩٢ ، ٢٠٩ ، أن الكميت والطرماح كانا يسألان رؤيّة عن الغريب ثم يجده في أشعارهما .
(٢) الموشح والمختلف ١٧٠ .
(٣) اللسان (شال) .

مناذر : شعرك مهجن لا يلحق بالفحول وأنت خارج عن طبقة المحدثين ، فإن كنت تشبهت بالعجاج ورؤيّة فما لحقتها ولا أنت في طريقتها ، ولئن كنت تنهّب مذهب المحدثين فما صنعت شيئاً ، أخبرني عن قولك :

ومن عاداك لاقتى التمرّس ريساً

أخبرني عن المرمريس ماهو ؟ قال : فضيل ابن مناذر وما راجعه حرفاً^(١) .

فإن مناذر ونصيب والكميت والطرماح يتكلفون جميعاً إدخال الغريب في أشعارهم جرياً وراء العجاج وتقليداً لمنهجه ، مع أنهم ربما ضلوا فهم بعض الألفاظ الغريبة ، فأنزلوها في غير مواضعها ، وبذلك كانت الغلبة للعجاج ورؤيّة في هذا الميدان ، وخوفاً من هذه الغلبة وجدنا ذا الرمة يتخلّى عن الرجز إلى القصيد ، إذ نقل المزياني بسنده عن ابن سلام ، قال : « أخبرني عبد الملك الباهلي قال : قال ذو الرمة قلت الرجز ، فلما رأيتني لا أقع من الرجلين أخذت في القصيد وتركته . يعني العجاج ورؤيّة »^(٢) . ونقل المزياني هذا الحديث أيضاً بسنده عن أبي عبيدة^(٣) .

فالعجاج قد أوجد منهجاً خاصاً هو الإغراب في الشعر ، ولهذا جعل الرواة يصفون أصحاب الغريب على درجات ، ومن ذلك ما نقله أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري (٣٨٢ هـ) بسنده عن الإصمعي أنه قال : « تقول الرواة والعلماء : من أراد الغريب فعليه بشعر هذيل ورجز ورؤيّة والعجاج ، وهؤلاء يجتمع في شعرهم الغريب والمعاني . ومن أراد الغريب في

(١) الأغاني ٩٠/٤ - ٩١ (دار الكتب) ، وانظر أيضاً الموازنة ٣٤٥ ، والموشح ٢١٥ - ٢٩٦ ، ٣٦٩ .
(٢) الموشح ١٧٣ - ١٧٤ .
(٣) الموشح ١٧٤ .

الشعر المحدث ففي أشعار ذي الرمة ، ومن أراد الغريب الشديد الثقة ففي شعر ابن مقبل ، وابن جرير ، وحيد بن تميم الهلالي ، والراعي ، ومزاحم العجلي^(١) .

وهذا المذهب اشهر إلى ما بعد القرن المجري الثاني ، فأولع به أبو تمام الطائي ، ولكن التقاد كالأمدى والمرزباني ، كثروا بمقتون ذلك منه ، ويرون فيه تكلفاً وتضعافاً^(٢) خلافاً للغريب عند العجاج ، وذلك لأن الغريب في رجزه كان يلي رغبة الناس فيه ، وحرصهم على ما يثقل من ماض قريب ، وهو في ذلك لا ينبو عن طماع عصره ، ولا سيما بعد أن أفرد له لون خاص من الشعر في اراجيز العجاج وبعض معاصريه من أمثال رؤبة وأبي النجم .

٢ - الحفاظ على اللغة

ولم يقف العجاج بالخصائص اللفظية للرجز عند الإغراب ، وإنما كات للرجز عنده خصائص لغوية أخرى ، منها المحافظة على بعض الصيغ النادرة ، أو توليد النغمة ، أو التصرف في أبنية الألفاظ دون أي قاعدة منطقية في ذلك .

وسبب هذا كله يرتد إلى قدرة العجاج في اللغة ، وهذه القدرة تبدو لنا مثلاً في رأيته المشهورة :

قد جبر الدين الاله فجيبر وعور الرحمن من ولى العور
فهي موقوفة مقيدة ، ولو أطلقت قوافها وساعد فيها الوزن لكانت

(١) اللصون في الأدب العسكري ١٧٣ .

(٢) انظر الموازنة للأمدى ٢٤٥ ، والموشح للمزباني ٢١ ، ٢١٩ .

كلها منصوبة ، وهذا ما جعل القدماء أمثال يونس النحوي ، يعلون من قدرة العجاج في اللغة^(١) ، لأن دون هذه القدرة لا يقوى على التزام أمرين في هذه الأرجوزة المطولة ، وهذا التزام الفتح قبل الروي المقيد ، ثم التزام الفتح في حال اطلاق الروي .

وهذه القدرة أمكن أن يحافظ على أبنية اللغة حيناً ، ويولد فيها طورا ، ويتصرف بها أحياناً ، فهو مقتدر على ذلك كله ، شاعر أنه أبو اللغة ، يتصرف بها كيف أراد ، ومن هنا كات رجزه يحافظ على أصول كثيرة لبعض الصيغ العربية ، وربما كان بعضها لا وجود له في غير أراجيزه ، ومن أمثلة ذلك محافظته على وزن « فَعْلُول » ، في قوله^(٢) :

من آل صَعْفُوقِ وَأَنْبَاعِ أَخَرِ

ولم يرد في العربية على وزن « فَعْلُول » بفتح الفاء إلا صَعْفُوقِ في بيت العجاج ، وإنما يرد نظائره في العربية على وزن « فَعْلُول » بضم الفاء ، قال ابن قتيبة : « وقال سيبويه : وليس في الكلام فَعْلُول ، بفتح الفاء وتسكين العين ، وإنما يجيء على فَعْلُول ، نحو هَذُلُولِ وزَمْشُورِ وعَصْفُورِ ، وفي الصفة حُمْكُوكِ^(٣) ، أو على وزن فَعْلُول بفتح العين » نحو بَلْصُورِ وبَعْكُوكِ^(٤) . وقال غيره : قد جاء فَعْلُول في حرف واحد نادر ، قالوا : بنو صَعْفُوقِ يَحْوِلُ بالجملة ، قال العجاج :

(١) انظر العمدة ٥٦/١ ، والأغانى ١٢٤/١٨ ، ٦٠/٢١ ، والمزهري ٤٨٤/٢ ، وشرح التبريزي على ديوان أبي تمام ٢٨٢/٢ .

(٢) الأرجوزة ٢١/١ .

(٣) الحالك والحلوك بمعنى ، وهو الشديد السواد .

(٤) البلصوص : طائر . والبمكوك : يفتحان ، لم يرد في اللسان والقاموس ، وإنما ورد في اللسان « بمكوك » بضم الباء وسكون العين ، وهو شدة الحر .

« البيت »^(١) ،

ومنهم من ذهب إلى أنه اسم أعجمي ورد في قول العجاج كان درستوه ،
لأن قال السيوطي : « ليس في كلامهم » فعُلُول « بفتح الفاء الـصَّغْفُوق
بلا خلاف ، وهو من موالى بني عامر ، وزُرْنُوق بخلاف ، وذلك في لغة
حكاها أبو زيد والحياتي في نوادره ، والشامي المشهور فيه الضم^(٢) ،
والزُرْنُوقات : العمودان يُنْصَب عليهما البكرة .. وقال ابن درستوه في
شرح الفصح : .. إن « فعُلُولا » ليس من أبنية كلام العرب ، ولا في
المعرب كلمة إلا واحدة أعجمية معربة في قول العجاج : (البيت) وهو
اسم معرفة بنزلة إبراهيم وإسماعيل ونحوهما من الأسماء الأعجمية التي ليست
على أبنية العربية ،^(٣)

ولكن أكثرهم على أن « صَعْفُوق » عربي الأصل ، ومن نوادر الأبنية
في العربية ، ولم يسمع إلا في بيت العجاج ، ومن ذلك قول ابن دريد :
« والصَّعْفُوق تضاؤل الجسيم ومنه اشتقاق صَعْفُوق اسم ، وليس في كلامهم
فعُلُول بفتح الفاء إلا صَعْفُوق » قال الراجز العجاج : (البيت) ، وهم
قوم من أهل الحجاز^(٤) .

فالعجاج قد حافظ في رجزه على هذا البناء النادر في العربية ، ومن
هذا أيضاً محافظته على صيغة « تَبَخَّ » بالتشديد ، في قوله^(٥) :

- (١) أدب الكاتب ٦١٤ - ٦١٥ ، وانظر الانصاف ٨٠٠/٢ ، ومعجم
ما استعجم ٨٣٣/٢ واللسان (بعل) و (صغفق) .
(٢) الكوفيون يقولون « زرنوق » بالفتح ، والبصريون على الضم ، انظر
الزهر ٥٨/٢ ، واللسان (زرنوق) .
(٣) الزهر ٥٧/٢ - ٥٨ ، وذكر الجواليقي أن « صَعْفُوق » أعجمي تكلمت
به العرب انظر المغرب ٢١٩ .
(٤) جوهرة اللثة ٣٤٥/٣ ، وانظر أدب الكاتب ٦١٥ ، والزهر ٥٧/٢ ،
وشرح شواهد فصح الشافعية للبغدادي ٤ .
(٥) الأرجوزة ٦٧/١١ .

- ٤٠٨ -

وَعَدَدًا تَبَخَّا وَعِزًّا أَفْعَسَا

وكلمة « بَخ » بالتخفيف والتثوين ، أو بالتخفيف وتثني آخرها ، كلمة
تقال عند تعظيم الإنسان ، أو عند التعجب من الشيء ، أو عند المدح والرضا
به ، وتكرر للبالغة . وبيت العجاج دليل عند سيدييه وابن جني على أن
أصلها هو التشديد ، إذ قال سيدييه : « وكذلك بَخ الحقيقَة بذلك على ذلك
قول العجاج (البيت) ، فرده إلى أصل حيث اضطر^(١) » ، وعقب عليه الأعلام
بقوله : « الشاهد فيه تشديد بَخ ، والاستدلال على أن بَخ الخففة مخنوقة
من المضاعفة المشددة ، فإذا أُسِمِي بها وَحَقِّرَتْ مُدَّتْ لامها المخنوقة ، فقال :
بُخَّيْخَ^(٢) » ، وقال ابن جني : « قالوا : بَخ بَخ . ويدل على أن أصله التثني
قول العجاج : (البيت)^(٣) » .

ولا شك أن بيت العجاج قد حافظ على أصل البناء في اللغة ، وبذلك أمكن
لسيدييه وابن جني أن يبقوا على حقيقة صيغة « بَخ » الثنائية في ظاهرها ،
الخففة عن أصل ثلاثي في واقع أمرها .
ومن هذا أيضاً قوله^(٤) :

حَتَّى إِذَا مَا أَمْسَجَتْ وَأَمْسَجَا

يرد : أَمَسَتْ وأَمَسَى ، فأبدل الباء جيماً كما سنرى في موضع لاحق ،
إلا أن قوله « أَمْسَجَتْ » إذا مُدَّت الجيم إلى الباء أصبح « أَمْسَجَتْ » ،
ولهذا أنشد ابن جني بيت العجاج دليلاً على ما يراه من أصل قولهم : رَمَتْ
وَعَثَرَتْ وما إليها فقال : « وهذا أحد ما يدل على ما ندعيه من أن أصل

(١) كتاب سيديويه ١٢٣/٢ .

(٢) تحصيل عين الذهب ١٢٣/٢ .

(٣) التصريف اللوحي لابن جني ٤٥ .

(٤) ملحقات الديوان ٢/١٣ .

رَمَتْ : رَمَيْتَ ، وَغَرَّتْ : غَرَرْتُ ، وَأَعْطَتْ : أَعْطَيْتَ ،
وَأَسْقَطَتْ : اسْتَقْصَيْتَ ، وَأَمْسَتْ : أَمْسَيْتَ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا
أَبْدَلَ الْهَاءَ مِنْ أَمْسَيْتَ جِئًا ، وَالْجِمْ حَرْفٌ صَحِيحٌ يَحْتَمِلُ الْحُرُكَاتَ ، وَلَا
يَلْحَقُ الْإِنْقِلَابَ الَّذِي يَلْحَقُ الْيَاءَ وَالْوَاوَ ، صَحَّحَهَا كَمَا يَجِبُ فِي الْجِمْ ، فَدَلَّ
« أَمْسَيْتَ » عَلَى أَنَّ أَوَّلَ أَمْسَتْ : أَمْسَيْتَ ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَيْضًا :
أَمْسَيْتَ ، فَبَدَلَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ أَمْسَى : أَمْسَى ، وَأَنَّ أَوَّلَ رَمَى :
رَمَى ، وَأَوَّلَ غَرَا : غَرَرَا ، وَأَوَّلَ دَعَا : دَعَرَا ، وَدَلَّ ذَلِكَ أَيْضًا عَلَى
أَنَّ أَوَّلَ عَصَا : عَصَرَا ، وَأَوَّلَ قَطَا وَقَفَا وَحَصَى وَفَى : قَطَطُوا ، وَقَتَفُوا ،
وَحَصَوِي ، وَفَتَى^(١) ، فَيَعْلَمُ ابْنُ جَنِّي بَيْتَ الْعِجَاجِ دَلِيلًا عَلَى أَصُولِ نَظَائِرِهِ
فِي الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَفْعَالٍ وَأَسْمَاءٍ ، ثُمَّ تَابِعَ يَقُولُ : « فِيهِذَا وَغَوْرُهُ اسْتَدَلَّ أَهْلُ
التَّحْرِيفِ عَلَى أَصُولِ الْأَشْيَاءِ الْمَغْيُورَةِ ، كَمَا اسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ عَزَّ اسْمُهُ : « اسْتَحْوِذْ
عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ »^(٢) عَلَى أَنَّ أَوَّلَ اسْتَقَامَ : اسْتَقَوَمَ ، وَأَوَّلَ اسْتَبَاعَ : اسْتَبَيْعَ ،
وَلَوْلَا مَا ظَهَرَ مِنْ هَذَا وَغَوْرُهُ لَمَا أَقْدَمُوا عَلَى الْقَضَاءِ بِأَصُولِ الْأَشْيَاءِ وَلَمَّا أَجَازَ ادِّعَاؤُهُمْ
لِإِلَهِائِهِمَا^(٣) .

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْعِجَاجَ قَدْ حَافِظٌ عَلَى بِنَاءِ هَامٍ فِي هَذَا الْبَيْتِ ، إِذْ
كَانَ دَلِيلًا يَرُدُّ إِلَى أَصْلِ بِنَاءِ ذَوَاتِ الْيَاءِ أَوْ الْوَاوِ الْمُنْطَرِفَةِ مِنْ أَفْعَالٍ وَأَسْمَاءٍ ،
وَلَوْلَا هَذَا الْبَيْتُ وَنَظَائِرُهُ مَا اسْتَدَلَّ عُلَمَاءُ الصَّرْفِ عَلَى أَصُولِ الْإِبْنِيَّةِ الْمُتَغْيِرَةِ
فِي الْعَرَبِيَّةِ .
وَأَمَّا هَذَا كَثِيرٌ فِي رَجَزِ الْعِجَاجِ ، وَكَذَلِكَ فِي رَجَزِ رُؤْيَا ، وَمِنْ
أَمَثَلِهِ عِنْدَ رُؤْيَا مَحَافِظَتُهُ عَلَى وَزْنِ « قَيْعَل » فِي الْمَعْتَلِ ، قَالَ السِّيُوطِيُّ :

- (١) سر صناعة الاعراب ١٩٤ - ١٩٥ .
- (٢) سورة المجادلة ١٩/٥٨ .
- (٣) سر الصناعة ١٩٥ .

= ٤١٠ =

« قَالَ سَبِيوهُ : وَلَمْ يَأْتِ (قَيْعَل) إِلَّا فِي الْمَعْتَلِ ، نَحْوُ سَبِيهِ وَنَمِيتَ غَيْرَ
حَرْفٍ وَاحِدٍ جَاءَ نَائِرًا قَالَ رُؤْيَا^(١) :
مَا يَأْتِي عَيْنِي كَالشَّعِيبِ الْعَيْنِ .

فَجَاءَ بِهِ عَلَى (قَيْعَل) ، وَهَذَا فِي الْمَعْتَلِ شَاذٌ^(٢) .

وَعَلَى الْأَعْلَمِ عَلَى الْبَيْتِ بِقَوْلِهِ : « الشَّاهِدُ فِيهِ بِنَاءُ « الْعَيْنِ » عَلَى
« قَيْعَل » بِالْفَتْحِ ، وَهُوَ شَاذٌ فِي الْمَعْتَلِ لَمْ يُسَمَعْ إِلَّا فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ ،
وَكَانَ قِيَاسًا أَنْ تَكْسُرَ الْعَيْنُ فَيُقَالُ « عَيْنٌ » كَمَا قِيلَ سَبِيْدٌ وَهَيْنٌ وَلَيْلٌ
وَنَحْوُ ذَلِكَ وَهُوَ بِنَاءٌ يَخْتَصُّ بِهِ الْمَعْتَلُ وَلَا يَكُونُ فِي الصَّحِيحِ ، كَمَا يَخْتَصُّ
الصَّحِيحُ بِـ « قَيْعَل » مَفْتُوحَةِ الْعَيْنِ ، نَحْوُ صَبْرٍ وَحَيْدَرٍ وَهُوَ كَثِيرٌ .
وَالشَّعِيبُ : الْقَرْبَةُ ، وَالْعَيْنُ : الْخَلَّتِي الْبَالِيَةُ . شَبَّهَ عَيْنَ لَيْلَانَ جَمْعَهَا بِالْقَرْبَةِ
الْخَلَّتِي فِي سَيْلَانٍ مَاثِمًا مِنْ بَيْنِ خَرْزِهَا لِإِلَاحَا وَقَعْمِهَا^(٣) .

وَلَمْ يَحَافِظِ الْعِجَاجُ فِي رَجَزِهِ عَلَى بَعْضِ الْإِبْنِيَّةِ فَجَسِبَ ، وَلَوْ أَنَّ حَافِظَ
أَيْضًا عَلَى جَهْرَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ ، مَا كَانَ لَهَا أَنْ تَعْرِفَ لَوْلَا اسْتِعْجَالُهُ إِيَّاهَا
وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ لَمْ تَنْدَرِجْ فِي بَابِ الْغَرَبِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْهُ ، وَلَقَدْ هَمِيَ مِنْ
بَابِ النُّوَادِرِ ، ذَلِكَ لِأَنَّهَا لَا تَعْرِفُ إِلَّا فِي رَجَزِ الْعِجَاجِ ، وَلِذَا هَمِيَ أَدْخَلَ
فِي نِطَاقِ مَحَافِظَتِهِ عَلَى أَصُولِ اللِّغَةِ مِنْهَا فِي نِطَاقِ الْإِغْرَابِ الَّذِي رَأَيْنَاهُ مِنْهُ
حِينَ ، وَمِنْ أَمَثَلِ ذَلِكَ كَلِمَةُ « هَبْرَجَا » فِي قَوْلِهِ^(٤) :

يَتَبَيَّنُ دَلِيلًا لِمَوْسَى مَجْرَجَا

- (١) من أرجوزة في ديوان رؤْيَا المخطوط : النسخة (٥١٦) - أدب الورقة ٢٢ ، والنسخة (٥١٩) أدب (٢٥٢) ، والنسخة (٤٩١) أدب (٢٧١) .
- (٢) الموهب ٥٦/٢ ، وانظر كتاب سبِيوهِ ٣٧٢/٢ ، وأدب الكتاب ٦٢٢ ، وشرح شواهد شرح الشافية للبغدادي ٦١ - ٦٢ و ٥٠٥ .
- (٣) تحصيل عين الذهب ٣٧٢/٢ .
- (٤) الأرجوزة ١٢/٢٣ .

- ٤١١ -

وقال الأصمعي في شرحه : « واليهُجُج : الذي يخلط في بشيته ، ينخثر ، قال : ولم أسمع إلا في هذا البيت » .
ومن هذا أيضاً كلمة « مَسْرُجاً » ، في قوله (١) :

وفأرجحاً وموسناً مسرجاً

وقد رأينا في هذه الكلمة ضرباً من الاغراب عند العجاج ، وقال ابن دريد : « قال الأصمعي : ما كنت أعرف المَسْرَجَ ، ولم أسمع إلا في بيت العجاج : (البيت) ، فسألت أعرابياً عنها ... » (٢) .
ومنه أيضاً كلمة « تَسْرَجاً » ، في قوله (٣) :

فراح يحدوها وراحت تَسْرَجاً

وقال الأصمعي في شرحه : « والتَسْرَجُ : الربيع الخفيفة . قال : ولم أسمع به في غير هذا » .

ومنه أيضاً كلمة « بَهَج » ، في قوله (٤) :

دَعْ ذا وبهَجٍ حسباً مبهجاً

وقال ابن منظور في شرحه : « قال ابن سيده : لم أسمع ببهج إلا هنا ومعناه حسنٌ وجَمَلٌ » (٥) .

وأما هذا كثير في رجز العجاج ، وله نظائر كثيرة أيضاً في رجز رؤبة ، ومن أمثله في رجز رؤبة ما جاء في قول ابن دريد : « الظَّبْطاب :

هو من قولهم رجل ليس به ظَبْطاب ، أي ليس به داء . وسألت أبا حاتم عن الظَّبْطاب ، فلم يعرف فيه حجة جاهلية ، إلا أنه قال فيه بيت بشار ، وليس بجدة ، وأشد :

بَيْتِي ليس بها ظَبْطاب

قال أبو بكر (أي ابن دريد) : ثم وقع لي بعد ذلك بيت لرؤبة ابن العجاج (١) :

كان في سلا وما من ظَبْطاب بي والبلى أنكرت الأوصاب (٢) ،
وبذلك كان رجز رؤبة حافظاً لهذا اللفظ النادر ، وما أكثر نظائره لديه ، وقد أشهد ابن دريد عدداً من أبياته في أبواب نادر الألفاظ (٣) ،
ومن هذا أيضاً قول رؤبة (٤) :

فنعم دامي الراح المستاذن أبي إذا استغلق باب الصيدين

وقد أشده ابن قتيبة ، ثم قال في شرحه : « الصيدين : المَلِكُ ..
قال الأصمعي : لم أسمع الصيدين الملك ، إلا في هذا البيت (٥) » .

ومن صور الحفاظ على اللغة ، ما نجده في رجز العجاج من آلال لهجة قومه بني تميم ، إذ حافظ على شيء من خصائصها في ابنة الألفاظ ومعانيها ،

(١) من أرجوزة وردت في ديوانه المخطوط : النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ٢٨٦ ، ولم ترد في النسخ الأخرى .
(٢) جمهرة ألفة ١٢٧/١ .
(٣) انظر جمهرة ألفة ٥٧/٣ ، ٤٦١ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٣ .
(٤) من أرجوزة في ديوانه المخطوط : النسخة (٥١٦ أدب) الورقة ٢٣ ، والنسخة (٥١٩ أدب) ٢٥٣ ، والنسخة (٤٩ أدب) ٢٧١ .
(٥) المعاني الكبير ٤٧٨/١ .

(١) الأرجوزة ٤٠/٢٢ .
(٢) جمهرة ألفة ٧٦/٢ .
(٣) الأرجوزة ٨٨/٢٢ .
(٤) الأرجوزة ١٠١/٢٢ .
(٥) اللسان (بهج) .

ومن ذلك قوله (١) :

فَتَضِدُّ هَامَةً هَذَا الْعَالَمُ

ومنه من أنشد « العالم » دون همز ، وجعله من مأخذ العلماء على العجاج ، لا فيه من تأسيس يخالف سائر أبيات الأرجوزة (٢) ، ومنهم من رواه بالهمز ، ونص على أن في لغة تميم « العالم » و « الحاتم » و « الباز » بدلا من العالم والحاتم والباز (٣) ، فقال ابن رشيق : « ويقال إن لغته الهمز ، فإذا همز لم يكن تأسيسا (٤) » ، ونقل المزياني بسنده عن أبي زيد أنه قال : « سمعت رؤبة يقول : أنا أشعر أم أبي ؟ قلنا له : أنت أشعر من أبيك ، أبوك الذي يقول :

يا دار سلمى يا سلمى ثم اسلمي

ثم قال :

فَتَضِدُّ هَامَةً هَذَا الْعَالَمُ

قال : انه كان في لغة أبي العالم والحاتم مهموزان (٥) . وقال ابن جني : « فاما قول العجاج :

يا دار سلمى يا سلمى ثم اسلمي

ثم قال :

(١) الأرجوزة ٨٨/٢٤ .

(٢) انظر جمهرة اللغة ٢٦٦/٢ ، وطبقات ابن سلام ٦٤ ، والموشح ١٥ - ١٦ ، ٢١٧ ، والعمدة ١١١/١ .

(٣) انظر الموشح ٢١٨ ، والإبدال لابن الطيب اللقوي ٥٤٧/٢ ، والعمدة ١١١/١ ، والمفصل ٣٦١ ، وشرح المفصل ١٣٦٠/٣ ، وشرح الشافعية ٢٢٨/١ ، ٢٢٨/٣ ، وشرح شواهد شرح الشافعية للبغدادي ٤٢٨ ، واللسان (علم) .

(٤) العمدة ١١١/١ .

(٥) الموشح ٢١٨ .

فَتَضِدُّ هَامَةً هَذَا الْعَالَمُ

فقد روي أن العجاج كان همز « العالم » و « الحاتم » ، فهمزة « العالم » و « الحاتم » من قلب الألف همزة . وحكى اللحياني عنهم « باز » بالهمز ، وهذا أيضا من ذلك الباب (١) .

فالعجاج في هذا البيت قد حافظ على تحقيق الهمز في لهجة قومه بني تميم ، وكنا نود أن نعرض على شواهد أخرى في رجزه ، ذلك لأن تحقيق الهمز صفة تميز لهجة بني تميم عن اللهجة القرشية (٢) ، وقد وردت في لغة رؤبة بن العجاج أيضا ، فقال ابن منظور : « الأصمعي : سبب القوس : ما عطفت من طرفيها .. وكان رؤبة بن العجاج همز سبب القوس وسائر العرب لا همزونها (٣) » . ولكننا مع ذلك لم نلتفت عند العجاج بغير قوله أيضا قبل البيت السابق (٤) :

مِمَّا تَرَكُ لِلْأَنْبِيَاءِ خِصَامَهُمْ

وهو شبه بالبيت المتقدم .

ولعل من أسباب هذه الظاهرة أن الشاعر لم يكن يلتزم عادة باللهجة قومه ، وإنما يجاد إلى اللغة الأدبية المتألفة ، ولهذا رأينا العجاج ، لا يبالى بتسهيل الهمز أحيانا حين تلجئه القافية إلى ذلك ، ولو أدى الأمر إلى شيء

(١) سر صناعة الأعراب ١٠١ - ١٠٢ ، ونقله أبو الطيب عن ابن جني في الإبدال ٥٤٧/٢ ، وقال بذلك أيضا ابن جني في شرح تصريف المازني ١٠٦/١ و ١٤٩/١ - ١٥٠ ، والزمخشري في المفصل ٣٦١ ، وابن يعيش في شرح المفصل ١٢٦٠/٣ ، والرشدي في شرح الشافعية ٢٢٨/١ ، ٢٠٤/٣ ، والبغدادي في شرح شواهد شرح الشافعية ٤٢٨ ، وابن منظور في اللسان (علم) .

(٢) انظر دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح ٧١ .

(٣) اللسان (سبب) .

(٤) الأرجوزة ٨٧/٢٤ .

من اللبس أو الغموض ، ومن هذا ما نقله العسكري فقال : « وأخبرنا علي بن سليمان ، حدثنا أحمد بن يحيى ، حدثنا سلمة بن عاصم قال : قال الفراء : الجبى ما حول البئر ، والجبى : ما جمعه من الماء وأنشد^(١) :

حتى إذا أشرف في جوف جبى

أنشده بإضافة جوف إلى جبى ، وقد عاب عليه بإضافة جوف إلى « جبا » جماعة من العلماء منهم المفضل بن سلمة وغيره ، وظن الفراء أن « جبا » الذي في البيت هو ما ذكر من حول البئر ، وأنه اسم ، وإفنا هو :

حتى إذا أشرف في جوف جبى

وهو فعل من جبا يَجْبى ، فترك الهمز ، أي جبن ورجع ، يعني الحمار ، ومنه يقال : رجل جبى ، أي جبان .

وأخبرني أحمد بن الحسن التميمي البجلي ، حدثنا محمد بن سلام ، سمعت يونس يقول : جبى من خوف الأسد ، أي جبن ، وأنشد للعجاج :

حتى إذا أشرف في جوف جبى

وقال : ترك الهمز^(٢) .

فالعجاج لا يلتزم التزاماً مطلقاً بخصائص اللهجة التميمية ، بل ربما اضطر إلى استعمال لغات أخرى ، ومن ذلك قوله^(٣) :

ورب هدي كالحبي مودم

- (١) ملحقات الديوان ٤٩/٢ .
(٢) شرح مايق فيه التصحيح ١٣٢ - ١٣٣ .
(٣) الأرجوزة ٦٥/٢٤ .

وقال ابن منظور : « قال ثعلب : البدئ بالتخفيف ، لغة أهمل الحجاز ، والهدري ، بالتثنية على فعل لغة بني تميم وسقلى قيس^(١) . »

إلا أنه رغم ذلك قد حفظ لنا شيئاً من سمات اللهجة التميمية سواه في أبية الألفاظ أو معانيها ، وقد رأيناها يحافظ على تحقيق الهمز في بعض أبياته ، وهو من خصائص لهجة بني تميم .

وبما حافظ فيه على بعض خصائص هذه اللهجة قوله^(٢) :

ومهم هالك من نعرجا

فالأصمعي جعل تقدير البيت « هالك المتعرجين فيه » ، من أهلكه الله أهلاكاً ، كقولك : هذا رجل حسن الوجه ، فوضع (من) في البيت موضع الألف واللام^(٣) . - إلا أن جماعة ككافي عبيدة جعلوا « هالك » في البيت بمعنى « مهلك » من هلكته يهلكه هلكاً ، فقال ابن قتيبة : « هلكت الشيء وأهلكته » ، قال العجاج : (البيت) ، معنى مهلك ، هذا قول أبي عبيدة ، وقال غيره : أي هالك المتعرجين ، أي من تعرج فيه واحتبس هلك^(٤) ، « واكتفى ابن دريد بما قاله أبو عبيدة فأنشد البيت ثم قال : « أراد مهلك من تعرجا^(٥) » ، وقال ابن جني : « وهلك الشيء وهلكته » ، قال العجاج : (البيت) ، فيه قولان : أحدهما أن « هالكاً » بمعنى مهلك ، أي مهلك من تعرج فيه . والآخر : ومهم هالك المتعرجين فيه ، كقولك : هذا رجل حسن الوجه ، فوضع (من) موضع

- (١) اللسان (هدى) .
(٢) الأرجوزة ٥٨/٢٣ .
(٣) انظر شرح الأصمعي للبيت .
(٤) أدب الكاتب ٤٦٧ ، وانظر شرح أدب الكاتب ٣١٠ - ٣١١ ، والافتضاب ٤٠٣ .
(٥) جمهرة اللسان ١٧١/٣ .

«الألف واللام»^(١).

ومنه من ذكر أن «هلكة» لغة بني تميم، فقال الجوهري: «وقال أبو عبيد: تميم تقول هلكة يهلكه هلكا، بمعنى أهلكته. وأنشد للعجاج: (البيت)، يريد مهلك، كما يقال ليل غاض بمعنى مغض. ويقال: أراد هالك المترجين، أي من تهرج فيه هلك»^(٢)، وقال ابن سيده: «غير واحد: أهلكته القدر». أبو عبيد: وهلكته، وأنشد: (البيت)، أي مهلك، لغة بني تميم»^(٣)، وأورد الميداني هذا المثل: «أهلك» من ثمرات السبائس. ثم قال في شرحه: «فذكر أبو عبيد أنه مثل من أمثال بني تميم، وذلك أن لغتهم أرت يقولوا: هلكت الشيء، بمعنى أهلكته، بدل على ذلك قول العجاج وهو تميمي: (البيت)، أي مهلك من تهرج»^(٤).

ولا شك أن وجود «هلك» في لغة بني تميم، يرجح أن يكون العجاج قد حافظ عليها ولتق منها «هالك» بزنة «فاعل»، وبذلك تكون من السهات التي حافظ عليها العجاج من لهجة قومه بني تميم. ومن هذا قوله أيضاً^(٥):

بَلَيْتَ أَبَا الصَّبَا رَوَاجِعًا

فصب بـ «لئت» المبتدأ والخبر معاً، وقال ابن سلام: «وهي لغة لهم. سمعت أبا العون الحرمازي يقول: لئت أباك منطلقاً، وليت

- (١) الخصائص ٢/٢١٠ - ٢١١.
- (٢) الصحاح ٤/١٦٦.
- (٣) المخصص ٦/١٢٧.
- (٤) مجمع الأمثال ٢/٤٠٨.
- (٥) ملحقات الديوان ٤٦.

زبدًا قاعدًا. وأخبرني أبو يعلى أن منشأ بلاد العجاج فأخذها عنهم»^(١). وبعض النجاة أقوال في هذا البيت لا يعيننا أن نعرض لها الآن^(٢)، والمهم ما نقله ابن سلام من أنها لغة لبني تميم، وقد حافظ عليها العجاج في هذا البيت. ومن هذا أيضاً قوله - إن صح - له هذا البيت^(٣):

لَقَدْ رَأَيْتُ حَبِيبًا مِمَّنْ أَمْسَا عِجَازًا مِثْلَ السَّعَالِي خَمَسًا

لأن بعض بني تميم يعبرون «أمس» ويعنونها من الصرف، خلافاً لأهل الحجاز فهي غدم مبدية على الكسر مطلقاً^(٤)، فإذا صح البيت للعجاج، فهذا يعني أنه حافظ على لهجة بعض بني تميم. ومن هذا قوله^(٥):

فَأَصْبَحْتُ عَنْ وَصْلِيكَ كَأَنَّ لِمَ تَعْلَمُ بِهِ آوَتَهُ وَتَعْلَمُ

فقد ضبط البيت في أصل الديوان «تَعْلَمُ» بفتح فاء المضارعة وكسرها في الموضعين، وكسر حرف المضارعة حكاية ابن جني في تكتلثة بهراء، فقال: «ولما نالت بهراء، فليهنهم يقولون: تَعْلَمُون، وتفعلون،

- (١) طبقات ابن سلام ٦٤ - ٦٥، ونقله عن ابن سلام المرزباني في الموشح ٢١٧، والسيوطي في شرح شواهد المتن ٢٣٦.
- (٢) انظر الصحاح ١/٢٦٥، والمفصل ٢٨، ٣٠٢، وشرح المفصل ١١٣٩/٢، وجمع التوامع ١/١٣٤، ومفني اللبيب ١/٢٢٢، ولغ الألفية في أصول النحو للأنباري ٨٢، وتوجيه الرمان ٩٧، والخزانة ٤/٢٩٠ (بولاق)، وحاشية الخفري ١/١٥٥.
- (٣) ملحقات الديوان ١/٢٤ - ٢.
- (٤) انظر كتاب سيبويه ٤٤/٢، والمفصل ١٧٢، وشرح المفصل ٥٥٧/٢، وشرح شذور الذهب ٩٩، وأسرار العربية ٢٢، والخزانة ٢/٢١٩ - ٢٢٢ (بولاق)، والمقاصد النحوية ٤/٣٥٧ - ٣٥٨، وجاء البيت فيها جميعاً شاعداً على إعراب «أمس» ومنعها من الصرف على لغة بعض بني تميم.
- (٥) الأرجوزة ٢٤/٣٦ - ٣٧.

ويتصنعون ، بكسر أوائل الحروف^(١) ، ولكن كسر حرف المضارعة لا يقتصر على ذلك ، ولأنها لغة لأكثر العرب من غير أهل الحجاز ، يدل على هذا قول ابن منظور : « وتعلّم ، بالكسر : لغة قيس وقيم وأسد وربيعة وعامة العرب ، وأما أهل الحجاز وقوم من أبنجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل فيقولون تعلّم ، والقرآن عليها ، قال : وزعم الأخفش أن كل من ورد علينا من الأعراب لم يقل إلاّ تعلّم ، بالكسر ، قال : نقلته من نوادر أبي زيد^(٢) » .

ولذا صحّ البيت عن العجاج بكسر حرف المضارعة ، فهو ما حافظ فيه العجاج على لغة قومه ، وإذا كنا لا ننظر بشواهد أخرى حول الكسر في أوائل « أفعال المضارعة » فذلك لأن اللغة الأديبة لم تكن تكسر هذه الحروف ، ولأننا نساير فيها لهجة قريش ، ولا يبعد أن يكون الرواة أو النسخ قد تصرفوا في ضبط هذه الحروف إن ورد بعضها عن العجاج بالكسر . وفي الأمثلة السابقة رأينا صورة لمحافظة العجاج على شيء من خصائص اللهجة التميمية صرفاً أو غوراً ، ولكنه ربما حافظ أيضاً على معاني الألفاظ في لهجته التميمية ، ومن ذلك قوله^(٣) :

وَأَطْعُنُ اللَّيْلَ إِذَا مَا أَسْدَفَا

وَأَسْدَفَ هنا بمعنى أظلم ، وقال ابن السكيت : « أبو زيد : السدفة في لغة بني قيس الظلمة ، وفي لغة قيس الضوء^(٤) » ، وكلام أبي زيد نقله

- (١) الخصائص ١١/٢ ، وسر صناعة الأعراب ٢٣٥ .
(٢) اللسان (وني) .
(٣) الأرجوزة ٣١/٤٤ .
(٤) أشتاد ابن السكيت ١٨٩ .

جماعة غير ابن السكيت^(١) ، بما يشير إلى محافظة العجاج على معنى الكلمة في لهجة بني قيم .

ومن هنا أيضاً قوله^(٢) :

مَعَقَّ الْمَطَالِي تَجَفَّجًا فَجَفَّجًا

ونقل ابن منظور عن الفراء أنه قال : « لفظة أهل الحجاز معيق ، وبني قيم يقولون معيق^(٣) » ، ولهذا فالعجاج قد حافظ على معنى الكلمة في لغة قومه ، وأمثلة هذا كثير في رجزه ، ذلك لأن العجاج قد حفظ لنا في أراجيزه كثيراً من الصيغ العربية سواء كانت هذه الصيغ من لغة بني قيم أو من لغات العرب الأخرى .

٣ - توليد اللفظة

ولذا كان رجز العجاج قد تقرّر بكثير من الصيغ أو الألفاظ ، فلا يبعد أن يكون هو نفسه قد ولّد بعض هذه الصيغ ، وأخافنا إلى العربية ، ما دام يؤمن بأنه أبو اللغة يصنع فيها ما يشاء ، ويضيف إليها ما يريد ، وقد تنبّه ابن جني إلى هذه الظاهرة في باب مائة « باب في الشيء يسمع من العربي الفصح لا يسمع من غيره » ، فقال : « وذلك ما جاء به ابن أحر في تلك الحروف المحفوظة عنده . قال أحمد بن يحيى : حدثني بعض أصحابي عن الأصمعي أنه ذكر حروفاً من الغرب ، فقال : لا أعلم أحداً أتى بها

- (١) القالي في أماليه ١٢٢/٢ ، وابن سيده في المخصص ٤١/٦ ، وابن منظور في اللسان (سدف) ، إلا أن ابن سيده وهم إذ جعل السدفة في لغة تميم الضوء ، وفي لغة قيس الظلمة . وانظر أشتاد الأصمعي ٣٥ ، وتكر الحفائظ ٤٠٩ ، ومختصر تهذيب الألفاظ ٢٤٤ والصحاح ١٢٧٢/٤ .
(٢) الأرجوزة ٤١/٤٤ .
(٣) اللسان (معق) .

«الآ» ابن أحر الباهلي^(١) .

ثم أورد ابن جني هذه الألفاظ التي تفرّد بها ابن أحر مع أبياتها ، ثم قال : « والقول في هذه الكلم المندم ذكرها وجوب قبولها ، وذلك لما ثبتت به المتاعدة من فصاحة ابن أحر . فلما أن يكون شيئاً أخذ من ينطق بلغة قديمة لم يشارك في سماع ذلك منه ، على حد ما قلناه فيمن خالف الجماعة وهو فصيح ، كقوله في الذّخيرة : الذّخيرة ، ونحو ذلك ، ولمّا أن يكون شيئاً ارتجله ابن أحر ، فإن الاعراب إذا قويت فصاحته ، وسميت طبيعته ، تصرّف وارتجل ما لم يبقه أحد قبله به ، ففقد حكي عن رؤبة وأبيه أنّهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سبقا إليها . وعلى هذا النحو قال أبو عثمان^(٢) : ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب^(٣) » .

فإن جني يلاحظ أن ما تفرّد به ابن أحر من الأبيّة والألفاظ يمكن أن يرتد إلى تفرّده في سماع بعضها ، أو ارتجاله وتوليد بعضها الآخر ، ولا يرى ابن جني خيراً في ارتجال ابن أحر ما دام على فصاحة مشهود بها ، ولا سيما أن العجاج ودوّبة قد كانا يرتجلان في اللغة ، وهما قدوة لابن أحر في هذا الارتجال .

وما قاله ابن جني حول تفرّد ابن أحر ، بجده طبعاً عند العجاج ، قسمة صيغ وألفاظ حافظ عليها رجزه ، أو رجز ابنه رؤبة ، وقد رأينا أمثلة لها في بحث سابق ، وفيه صيغ وألفاظ قد ارتجلها العجاج ارتجالاً ، وأضافها إلى اللغة إضافة ، وبذلك لم نسمع «الآ» في رجزه ، ومن ذلك كلمة الأصعل ، في قوله^(٤) :

(١) الخصائص ٢/٢١ .

(٢) يريد أبا عثمان المازني .

(٣) الخصائص ٢/٢٤ - ٢٥ .

(٤) الأرجوزة ١٢/٢٨ .

قد أفقرت غير الظليم الأصعل

وقال الأصمعي في شرحه : « والأصعل : الخفيف الرأس والعتق .. قال أبو سعيد : ولم أسمع (الأصعل) إلا ههنا ، و (الصعل) هو الكلام » .

ومن ذلك أيضاً كلمة « القنصري » ، في قوله^(١) :

أطرباً وأنت قنصري

وقال ابن سيده : « والقنصري : الكبير المن . قال أبو علي : ولم أسمع بالقنصري إلا في شعر العجاج^(٢) » ، وقال الأعمى الشنوي : « والقنصري : الشيخ ، وهو غير معروف في اللغة ، ولم يسمع إلا في هذا البيت وحده^(٣) » ، وقال ابن منظور في القنصري : « وقيل : لم يسمع إلا في بيت العجاج^(٤) » .

وعدم معرفة القنصري إلا في بيت العجاج ربما كانت بسبب توليد العجاج نفسه لبناء هذه الكلمة ، فقد زاد الباء تركيداً للبالغة في نسبة « القنصر » إلى نفسه كما قالوا في الأعمى أعجمي ، والأحر أحري ، والباء فيها جميعاً قد زيدت لتوكيد المبالغة في الوصفية ، ومن هنا سار بيت العجاج شاهداً في كتب اللغة والنحو على زيادة الباء تركيداً للبالغة في الوصفية^(٥) .

ولم يقتصر الأمر على بيت أو أبيات قليلة أورد فيها مثل هذه البنية ،

(١) الأرجوزة ٢٥/٣ .

(٢) المخصص ١/٤٥ .

(٣) تحصيل عين الذهب ١/١٧٠ ، ونقل البغدادي قوله في الخزائن ٤/٥١١ (بولاق) .

(٤) اللسان (قسر) .

(٥) انظر شرح الحاشية للتبريزي ٤/١٥٥ ، وشرح المفصل ١/٥٦١ ، وغريب القرآن للسجستاني ١٦ ، وخزانة بولاق ٢/١٤٧ ، والوافي بالوفيات ١/٢١٠ .

ولما أكثر منها ولا سيما في الأرجوزة (٢٥) ، حتى كالت الأصمعي يشير إليها أحياناً ، ويهمل النص عليها أحياناً أخرى لما تكررتها ، ولما جلاها أصلها ، ومن ذلك مثلاً قوله (١) :

والدهرُ بالإنسانِ دَوَّارِي

ففسب « دَوَّارٍ » إلى نفسه (٢) . وقال فيه ابن جني : « ولما معناه (: دَوَّارٍ) فالحقه بآيٍ الأضافة (٣) » . وقال ابن جني أيضاً : « أي دوار ، فزاد ياء الأضافة توكيداً لمعنى الصفة (٤) » .
ومنه أيضاً قوله (٥) :

مع الشبابِ فهوَ قُضْفَاضِي نَعْمَهُ فهوَ خَيْرٌ نَجِي

والأصل « قُضْفَاضِي » و « خَيْرٌ نَجِي » وهو الناعم الحسن التام . ومثله أيضاً (٦) :

بالمأدِ حتى مَوَّ بِمَوْدِي

وأصله « مَوَّود » ثم نسب إلى نفسه بزيادة الياء .

ومثله أيضاً (٧) :

غُضْفًا طَوَاهَا الْأَمْسَ كَلَّافِي

ورجل كَلَّابٌ وكَلَّابٌ : صاحب كلاب ، مثل تأمر ولابين ، وأما

« كَلَّابِي » فزاد العجاج الياء لتوكيد الوصفية . وقد تحدث ابن جني عن بيت مشابه ، فقال : « ألحقه ياء الأضافة توكيداً لمعنى الصفة كقول العجاج : (البيت) ، وقد تقدّم القول فيه (١) » .

ونقل ابن جني أن أبا علي الفارسي قال : « وهذا كثير في كلامهم (٢) » ، وكذلك فهو كثير في رجز العجاج ، لأنه لا يقف عند الأبنية المعروفة للألفاظ ، ولما قد يولد أبنية جديدة حسب حاجته ، وما يكلف به من ولوع بالإغراب في الألفاظ والأبنية على حد سواء ، ولعل من أوضح صور التوليد في الأبنية قوله (٣) :

لَأَيُّهَا بَنَاتِيهَا عَنَ الْجَوُّورِ

وقال الأصمعي في شرحه : « والجوور : يريد الجنود » ، وفي هذا إشارة إلى أن « الجوور » لم يُسمع في اللغة ، ولما هو بنه جديد للعجاج ، ولم يرد كذلك في اللسان أو القاموس ، وقال البغدادي في شرح البيت : « والجوور : مصدر جار إذا عدل عن القصد ، وهو مصدر جماعي جاء على فُعُول بالضم ، لكن هز عينه على مقتضى القاعدة ، ولم أر من نسبته على هذا المصدر غير ابن السيرافي في شرح شواهد اصلاح المنطق وابن السيد البطليوسي في شرح شواهد أدب الكاتب ، وكلاهما نها عليه في هذا البيت ، وكذلك الجواليقي في شرح أدب الكاتب أيضاً (٤) » .

ومن هذا أيضاً قوله (٥) :

مُسْتَشْعِرًا خَوْفًا عَلَى وَقُورِ

(١) التمام في تفسير أشعار هذيل ٢٢١ .

(٢) شرح تصريف المازني ١٧٩/٢ .

(٣) الأرجوزة ٧٢/١٩ .

(٤) الخزائن ١٥٩/١ .

(٥) الأرجوزة ١٠٦/١٩ .

- ٤٢٥ -

(١) الأرجوزة ٤/٢٥ .

(٢) انظر الخزائن ٥١٢/٤ .

(٣) شرح تصريف المازني ١٧٩/٢ .

(٤) التمام في تفسير أشعار هذيل لابن جني ١٢١ .

(٥) الأرجوزة ٢٤/٢٥ - ٢٥ .

(٦) الأرجوزة ٢٩/٢٥ .

(٧) الأرجوزة ١٤٥/٢٥ .

- ٤٢٤ -

وقال الأصمعي في شرحه : « ووقُشِرَ : وقُتِرَ » ، ولم يرد الوقُشُرُ مصدراً مرادفاً للوقار في كتب اللغة ، ذلك لأن العجاج جاء به قياساً على أفعال أخرى من باب فعله مثل قولهم : وثب يشب وثوباً ، ووجد يجسد وجوداً ، فقياس على هذه الأفعال وأمثالها قوله : وقُتِرَ يَقِرُّ وقُشُوراً ، والأصل في اللغة أن يقال : وقُتِرَ يَقِرُّ وقُتِلُوا .
ومثل هذا قوله (١) :

فَقَدَرْتُ كَفَى اللَّهِ غِيَالَ الشُّوَلِ

والذي في اللغة « غَالَهُ يَقُولُهُ غَوَالٌ » ، إلا أن العجاج بنى منه مصدراً على وزن « فَعَال » فقال « غِيَال » ، وذلك قياساً على قولهم : قام قياماً وصام صياماً ، وأصله « غِيَال » بالواو ، ثم قلبت الواو ياء لوقوعها حشواً بين كسرة وألف في مصدر أجوف قد أعلت عين فعله .
ومنه أيضاً كلمة « ابن أجلى » في قوله (٢) :

لَا قَتْرَ أَبِى التَّجَّاجِ وَالْإِصْحَارَا بِهِ ابْنُ أَجْلَى وَافَقَى الْإِسْفَارَا

والعرب تقول « ابن تجلى » بمعنى الصبح ، ولم يُسمع « ابن أجلى » إلا في هذا البيت ، إذ قال ابن دريد : « وقال الأصمعي : لم أسمع بابن أجلى إلا في هذا البيت ، يعني الصبح » (٣) ، وشغل كلام الأصمعي هذا في عدد من المصادر (٤) .

فالعجاج يتوعد لنا وكأنه أبو اللغة ، يغرب فيها حيناً ، ويرلُد فيها

(١) الأرجوزة ٣٨/١٧ .

(٢) الأرجوزة ٨١/٢٤ - ٨٢ .

(٣) جيمع اللغة ٢٢٨/٣ .

(٤) الاشتقاق لابن دريد ٣١٤ ، والإمامي ٢٤٤/١ ، والمزهر ٢٥٢/١ ، والخزانة ٢٢٤/١ .

أحياناً ، وما ذلك إلا لأنه قد ملك ناصيتها ، وأقن إنقائاً طبعياً طرائقها في التثنية والاشتقاق ، ولهذا كانت ألفاظه لا تنبر عن الذوق اللغوي في بنائها ، أو التناسب الصوفي بين حروفها ، وذلك لأنها تصدر عن طبع وأصالة لغوية لإشك فيها ولا مواء ، فإن فُتِدَتْ هذه الأصالة كان لابد من الاختلال بكل ذلك ، ومن هنا يمكن أن ندرك سبباً رئيسياً لإخفاق من حاول القياس على أبنية العجاج من المولدين ، ومن أمثلة هذا الإخفاق ما نقله الأصمعي عن الخليل من أن رجلاً أنشده :

تَرَاهُ الْعِزُّ يَنْتَا فَارَقَتْهَا

فقال الخليل : هذا لا يجوز . فقال الرجل : كيف جاز للعجاج أن يقول :

تَقَامَسَ الْعِزُّ يَنْتَا فَارَقَتْهَا

ولا يجوز لي (١) ؟

وقد ردّ على ذلك أبو الفتح عثمان بن جني ، بأن الخليل لم يمنع القياس على لغة العجاج مطلقاً ، وإنما أنكر ذلك لأن الرجل « بناءً بما لاهمه عريف حاقى ، والعرب لم تكن هذا المثال بما لاهمه أحد حروف الحلق ، إنما هو بما لاهمه حرف فوي » ، وذلك مثل اقطنس .. فلما قال الرجل للخليل (فارقتُها) أنكر ذلك من حيث أربنا (٢) .

فالطبع والأصالة لم تنبأ لهذا المولّد ، كما تنبأت للعجاج ، ولهذا أخفق في القياس على أبنيته ولفته ، وهذه الأصالة جعلت رؤية بن العجاج ،

(١) الأرجوزة ٩٦/١١ .

(٢) الشعر والشعراء ٢٢ - ٢٣ ، والموشح ٣٧ ، والخصائص

٣٦٢/١ - ٣٦٦ .

(٣) الخصائص ٣٦٢/١ .

لا يقصر عن أبيه في ارتجال بعض الأبنية أو الألفاظ ، ومن أمثلة ذلك عند رؤية ما قاله ابن دويد : « وأما المقم فلا أصل له ، فأما قول الراجز رؤية ^(١) :

ولم يزل عزه تميم مدمعاً كالبحر يدعو هيقاً وهيقاً
فأما هو حكاية صوت البحر ^(٢) .

فأنت رؤية « هيقاً » من صوت البحر ، ومثله قول ابن سيده :
« والبيرت في شعر رؤية ^(٣) :

يشتق عنه الخرق والبيرت

اسم اشتق من البرية ، فكأنما سكن الباء فصارت الماء تاء ، وجعله اسماً للبرية والصحراء ، وصارت التاء كأنها أصلية في التصريف ^(٤) .
فالعجاج وابنه رؤية قد أضافا إلى اللغة ألفاظاً مرغلة لم تسمع إلا في أراجيزهما ، واشتقا أبنية لم يسبقا إليها ، وما ذلك إلا لأن كانا عليه من أصالة لغوية ، وفصاحة أعراية ، وطبع لا تكلف فيه ولا تعمل .

٤ - التصريف في أبنية اللغة

والأصالة اللغوية عند العجاج دفعت به إلى أمور أخرى تميزت بها الخصائص اللغوية لرجزه ، وأبرزها التصريف في أبنية اللغة ، دون مبدأ ثابت

(١) من أرجوزة في ديوانه المخطوط : النسخة (٥١٩ هـ / ١١٢٦ م) ص ٢٨٩ ، والنسخة (٤٩٩ هـ / ١١٠٨ م) ص ٢١٣ ، ولم ترد في النسخة الثالثة . ورواية الديوان : « للناس يدعو هيقاً » .

(٢) جمهرة اللغة ١٦٧/٣ .

(٣) من أرجوزة متنازعة بين رؤية والعجاج ، وهي الأرجوزة (٤٢) من ديوان العجاج ، ورواية الديوان : « عني الحزن والبيرت » .

(٤) المخصص ١١٦/١٠ .

- ٤٢٨ -

أو قاعدة محددة ، وكان إحساسه البدوي الأعراي بأنه صاحب اللغة ، قد جعله يتصرف فيها كيف أراد ، بل ربما كان لزمانه يبدأ الاغراب هو أحد الدوافع الرئيسية إلى هذا التصرف الواسع في اللغة ، يضاف إلى ذلك ما كان يريده لرجزه من تحمل نفحات الصحراء بكل ما فيها من جفاء وخشونة ، وهذا يمكن أن توجي به كلمة شاردة عن مألوف مبنها ، أو صيغة تتجافى عن مألوف اللغة وقواعدها .

وأيسر هذه التصرفات ما يقف عند حدود معروفة في قواعد الصرف أو العروض ، من أمثال القلب ، أو الإبدال ، أو فك الإدغام ، أو تحريك الساكن ، أو تسكين المتحرك ، أو استعمال الجمع بدل المفرد ، أو الجمع بدل المثنى ، أو المثنى بدل المفرد . فبذه كلها يمكن أن نصادفها في أشعار القدماء ، ولكنها تميز في رجز العجاج بالكثرة والوضوح ، وكأنها ترد عن قصد وتعمد ، لا يريده العجاج من إغراب في اللفظ ، أو ندرة في الأبنية .

ومن أمثلة القلب قوله في وصف الجيش ^(١) :

بات يقاسي أمره أميرته أعصمه أمر السجيل أعصمه

ف « يقاسي » أراد العجاج بها « يقاسي » بمعنى يميز ، فأحدث قلباً بين العين واللام . وقال ابن جني : « وأما قيس ، فنقول من قاس الشيء بالشيء يقسه قيساً . وأما قول العجاج : (البيت) ، فإنه أراد « يقاسي » أي يميز ، فقلب ^(٢) » .

ومن ذلك أيضاً قوله في وصف أيك كثير الشجر ^(٣) :

(١) الأرجوزة ١١/٢٦ - ١٢ .

(٢) المجمع لابن جني ١٦ ، ونقله التبريزي في شرح الحماسة ٣١/١ ، ٨٨/٣ .

(٣) الأرجوزة ٣٢/٢٥ .

- ٤٢٩ -

لا ت به الأشاء والعبري

وهذا البيت أشده سيبويه شاهداً على القلب ، فقال : « إنا أراد
لا ت ، ولكنه أخطأ الواو وقدّم التاء »^(١) . وقال المازني : « وكان الخليل
يقول : هو مقلوب ، كما قالوا : شاك ، و :

لا ت به الأشاء والعبري

يريد : شاكاً ولائياً^(٢) .

وذهب إلى رأي الخليل وسيبويه جماعة من اللغويين والنحاة^(٣) ، إلا
أن أبا عبيدة لم يذهب بالكلمة إلى القلب ، وإنما جعلها محذوفة العين ، فقال :
« وهار : مجازة هائر ، والعرب تنزع هذه الياء من فاعل ، قال العجاج :
(البيت) ، أي لا ت ، ويقال : كَيْدٌ خاب ، أي خائب^(٤) » ،
وتبعه ابن جني على هذا الرأي ، فأثد البيت في باب غلبة الزائد للأصلي ،
ثم قال : « حذفت عين فاعل وأقررت ألفه ، إذ كانت دليلاً على اسم
الفاعل »^(٥) .

وقال ابن جني أيضاً : « وحكي أنهم يقولون « شاك » ، ولا ت » ،
بحذف العين أصلاً وأثد :

لا ت به الأشاء والعبري

- (١) كتاب سيبويه ١٢٩/٢ ، وقال يمثل ذلك في الكتاب أيضاً ٣٧٨/٢ .
- (٢) شرح تصريف المازني ٥٢/٢ ، وانظر أيضاً ٦٦/٣ .
- (٣) كتاب سيبويه في المخصص ٢٢٢/١٠ ، وابن السكيت في الاقتصاب ٢٣٨ ،
وابن القوطية في كتاب الأفعال ٩٥ ، والرضي في شرح الشافية ١٢٩/٣ ،
والبنفاددي في شرح شواهد شرح الشافية ٣٦٩ .
- (٤) محاج القرآن ٢٦٩/١ .
- (٥) الخصائص ٤٧٧/٢ ، ومثله في الخصائص ١٢٩/٢ ، ٢٨٩ .

وجه هذا : أنهم لما قالوا في الماضي « شاك » ، ولا ت » وسكنت العين
باعتبارها ألفاً ، وجاءت ألف فاعل ، التفت ألفان ، فحذف الثانية حذفاً ،
ولم يجر كما حتى تنقلب همزة ، كما فعل من يقول : قائم ، وبائع^(١) .

فاليت حل عند سيبويه والخليل ومن رأى رأياً على القلب ، وذهب
عند أبي عبيدة وابن جني إلى الحذف ، وفي الحالين لا يخرج فيه التصرف عن
وجه معروف في العربية ، وله نظائر عند غير العجاج .

ومن أمثلة القلب أيضاً قوله في وصف القوس^(٢) :

ثُرْنٌ في الكَفِّ إذا ما أَنْضَبَا لِرَنْتَانٍ مَحْزُونٍ إذا تَحَوَّيَا

و « أنضب » ، أراد بها العجاج « أَنْضَبَ » بمعنى جذب وتولقوس
للتصوت ، ولعل هذا القلب هو الذي دفع إلى اعتبار « أنضب » لغة في
« أنبض » عند من أثد بيت العجاج شاهداً على ذلك^(٣) .

فالقلب ظاهرة واضحة في أبيية العجاج ، وله نظائر في أشعار غيره ،
ومن أمثله عند القطامي ، ما قاله ابن جني : « ومن المقلوب بيت القطامي :
ما اعتادَ مُحِبٌّ سَلَمَتِي حينَ مُعْتَارٍ ولا تَقْصِي بَرَأني دَيْنُهَا الطَّائِدِي
هو مقلوب عن الواطد ، وهو الفاعل من وَطَدَ يَطْدُ ، أي بُت ،
فقلب عن (فاعل) إلى (عالف)^(٤) » .

وقال ابن منظور في بيت القطامي أيضاً : « والطاوي : الشابت من
وَطَدَ يَطْدُ فقلب من فاعل إلى عالف ، قال القطامي : (البيت) ، قال

- (١) شرح تصريف المازني ٥٤/٢ .
- (٢) ملحقات الديوان ٥٨/٢ - ٥٩ .
- (٣) انظر جوهرة اللغة ٤٣١/٣ ، ومقاييس اللغة ٢٨٠/٢ ، واللسان (نضب) .
- (٤) الخصائص ٧٨/٢ .

لهجة بعض بني سعد ، وإنما أقرب ما يكون إلى باب الضرورة والحاجة ، ولهذا لم تقف في رجزه على شاهد آخر يدل فيه الجيم من الياء المشددة على لغة بعض قومه ، ولا سيما أنها لغة لا يشترك فيها قومهم جميعاً ، وإنما هي خاصة بناس منهم كما ذكر سيويه .
ومن أمثلة الإبدال قوله (١) :

فإن يكن أمسى البلى تيقوري

و « تيقور » هنا أصله « ويَقُور » ، فأبدل فيه من الواو تاء ، فهو فيقول من الوفاء ، وقال سيويه : « وربما أبدلوا التاء مكان الواو في نحو ما ذكرت لك إذا كانت أولاً مضمومة ، لأن التاء من حروف الزيادة والبدل كما أن الهزة كذلك .. وقد دخلت على المفتوحة كما دخلت الهزة عليها وذلك في قولهم تيقور ، وزعم الخليل أنها من الوفاء . كأنه حيث قال العجاج : (البيت) ، أراد فإن يكن أمسى البلى وفاري ، وهو فيقول (٢) .
وتحدث المازني عن قلب الواو تاء أول الكلمة في « تولتج » ، كيلا يمتنع وإوان في أولها ، ثم قال : « وقال الخليل : ومثل ذلك قوله :

فإن يكن أمسى البلى تيقوري

إنما هو « فيقول » من الوفاء ، وسألت الأصمعي عن ذلك فقال :

وشرح الفصل ١٣٩/٣ ، وشرح شواهد شرح الشافعية للبغدادي ٤٨٥ ، والضحاح ١٦٢١/٤ ، واللسان (أجل) .
وجاء البيت برواية « قرون الإبل » على الأصل في جمهرة اللغة ٧١/٣ ، وتهذيب إصلاح اللطق ١٤٨/١ ، ومقاييس اللغة ١٥٩/١ ، و٢١١/٤ ، والمخصص ١٢٥/١٦ ، وتفسير البحر المحيط ٣٦٨/٨ ، واللسان (أول) .
(١) الأجزاء ٢٩/١٩ .
(٢) كتاب سيويه ٣٥٥/٢ - ٣٥٦ .

كذلك قول الأشياخ . وجعلوا التاء تابعة للواو في هذا ليكون ذلك عوضاً للواو في كثرة دخول التاء عليها (١) .

ونعوب إلى رأي الخليل وسيويه كل من ابن قتيبة (٢) ، وابن يعيش (٣) ، وأبي الطيب اللغوي (٤) ، والجوهري (٥) ، وأضاف ابن سيده : « وبعضهم يجعل وزنه تفعول (٦) » . ولكن أكثرهم على أن العجاج قد أبدل فيه التاء من الواو .

ومن هذا أيضاً قوله (٧) :

بعده الإنسى وعرق الغرور

وقال الأصمعي في شرحه : « ويقال الإنسى ههنا : الإعياء » . والإنسى : إدراك الشيء وبلوغه غايته ، أما إذا كان يعنى الإعياء في بيت العجاج ، فهو مبدل عنده من الإنسى . والوقت : الضعف والفتور والهلاك والإعياء (٨) ، وهذا يكون العجاج قد أبدل من الواو همزة دون ضرورة أو حاجة إلى ذلك .

ومن هذا أيضاً قوله (٩) :

غير ثلاث في المجلل صميم

- (١) شرح تصريف المازني ٢٢٧/١ ، وانظر أيضاً ٣٩/٣ .
- (٢) المعاني الكبير ١٢٢٣/٣ .
- (٣) شرح المفصل ١٢٨١/٣ .
- (٤) الإبدال ١٥٠/١ .
- (٥) الضحاح ٨٤٩/٢ .
- (٦) المخصص ١٩٣/١٢ .
- (٧) الأجزاء ٥٣/١٩ .
- (٨) انظر اللسان ، والقاموس (أنى) و (وتي) .
- (٩) الأجزاء ٨/٢٤ .

وقال المرزباني : « أخبرنا أبو بكر الجرجاني قال حدثنا أبو العلاء ، قال سئل الأصمعي عن بيت العجاج : (البيت) وأصله الواو ، قال حدثني عيسى بن عمر قال : سألت رؤبة عن هذا فقال : تبه به في المتيهين ، هو مصوم^(١) » .

فروبة رده إلى الواو ، أما صاحب القاموس فأورد جمعه بالواو والياء « مصوم ومصيم » ، إلا أن قول المرزباني بسنده القوي يكاد يقطع بأن الواو هي الأصل ، وأن الياء قد أبدلها العجاج لإبدالاً من الواو^(٢) . ومن ذلك أيضاً قوله - إن صح له هذا البيت^(٣) .

بحسب الجاهل ما لم يعلم

وقال نعلب : « الأصل : لم يعلم ، فلما أطلق الميم ردها إلى فتحة اللام ، وأهل البصرة يقولون : أراد يعلم ، فجعل موضع النون الحقيقه ألفاً^(٤) » ، ولذا أخذنا برأي البصريين ، وجدنا العجاج قد أبدل من النون الحقيقه ألفاً لتصح له قافية البيت .

وظاهرة الإبدال عند العجاج لها نظائر أيضاً في رجز رؤبة ، بل إن رؤبة قد تجاوز الإبدال المعتاد إلى مالا يبدل عادة من الحروف ، إذ قال ابن جني : « ولا تكون الهاء بدلاً ولا زائدة أبداً إلا فيا شذعتهم^(٥) » . ثم أنشد شاهداً على هذا الشذوذ قول رؤبة :

غمر الأجارى كريم السنج أبلج لم يولد ينجيم السج

(١) الموشح ٢١٨ .

(٢) انظر شرح تصريف المازني ٢/٢ - ٣ .

(٣) المحققات ١٣/٧٠ .

(٤) مجالس نعلب ٦٢٠ ، وانظر المقاصد النحوية ٣٢٩/٤ ، وشرح

شواهد الغنى ٣٢٩ .

(٥) سر صناعة الاعراب ١٩٦ .

ثم قال : « يريد : السينخ » بالخاء المعجمة^(١) . والفاية حملت العجاج على الإكثار من فك الإدغام في رجزه ، ومن ذلك قوله^(٢) .

زحف الدنيا إنز الدنيا منذلتعيا

وقال الأصمعي في شرحه : « مذاعيا : أراد مذاعباً ، وهو المتتابع ، فأظهر الياء المدغمة للحاجة » .

ومن هذا قوله^(٣) :

تشكو الزجى من أظنك وأظنك وتطول إنملا وتظهر ممكك

وقال الأصمعي في شرح الأول : « والأظنك : ماتحت المنسيم . والزجى : المنقى . ولما هو « الأظنك » ولكنه أظهر التضعيف^(٤) » ، ومثل ذلك « ظهر ممكك » فاصله « مل » ولكنه فك الإدغام للحاجة^(٥) .

ومن ذلك أيضاً قول العجاج^(٦) :

ولأمير معنين غلر من حرمت الله مالم يجلر

و « يجلر » أصله « يجل » ولكنه فك الإدغام للضرورة .

ومن هذا أيضاً قوله^(٧) :

فإن يوضح الصبب الأفلر يرخصوا ويسوا خفرت التزول

(١) سر صناعة الاعراب ١٩٧ .

(٢) الأرجوزة ٣٢/٧ .

(٣) الأرجوزة ٨٨/١٢ - ٨٩ .

(٤) ومثل ذلك في الخصائص ١/١٦١ ، وشرح تصريف المازني ٣٣٩/١ ، وكتاب الصناعاتين ١١٣ ، ومقاييس اللغة ٤٦٢/٣ ، والصحاح ١٧٥٦/٥ ، واللسان (ظلل) .

(٥) انظر اللسان (ملل) .

(٦) الأرجوزة ١١٨/١٧ - ١١٩ .

(٧) الأرجوزة ١٢١/١٧ - ١٢٢ .

فـ « الأقل » أصله « الأقل » ، ولكنه فك الادغام للضرورة .
ومثله أيضاً قوله (١) :

فَرَّقَ الْجَلَّادِيَّ إِذَا مَا أَمَجَّجَا
وجهه في شرحه : « قال أبو حاتم : كان الوجه أن يقول : أمججاً ،
ولكنه أراد الوزن فحرك الجيم » .

وما هذه إلا أمثلة يسيرة جداً من فك الادغام في رجز العجاج ، حتى
إن الأصمعي لم يأخذ نفسه بالتنبيه عليها دائماً ، وذلك لكتوبتها ، أو لجلاء
أصلها في بعض الأحيان .

وقد حل ابن جني فك الادغام على الضرورة والحاجة (٢) ، ومن أمثله
عند غير العجاج ، قول قَتَعْتَبِ العُطْفَانِي :

مَهْلًا أَعَاذِلْ قَدْ جَرَّبْتَ مِنْ خُلُقِي أَنِّي أَيْوَدُ لِأَقْوَامٍ وَإِنْ تَضَيَّنُوا
يريد « ضننوا » فأظهر التضعيف للحاجة (٣) .

ومنه أيضاً قول أبي النجم :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَجَلِّ

يريد « الأجل » فأظهر التضعيف للحاجة (٤) .

ولم يغف العجاج بالضرر عند فك الادغام ، ولنا انجبه إلى تحريك

الساكن ، أو تسكين المتحرك ، ومن أمثلة الأول قوله (١) :

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَى الشَّيْبَرَ

ومنهم من جعل « الشَّيْبَرَ » لغة في « الشَّيْبَر » ، وهو السرو (٢) ،
ومنهم من جعل تحريك الأول ضرورة عند العجاج (٣) ، وأما من رواه « الذي
أعطى الشَّيْبَرَ » ، فأكفروهم ذهب إلى أن أصله « الشَّيْبَر » ، ولكن العجاج
حركه لإقامة الشعر (٤) .

ومن هذا أيضاً قوله (٥) :

فَأَصْبَحَا يَنْتَجُوْنَ يَغْدُوَ فَرَارٌ مُسْتَسْتَعِينَ مِنْ لِسَانٍ وَأَمْرٍ

وقال الأصمعي في شرحه : « ولنا يقال : إِسَارٌ وَأَسْرٌ ، فأحاج
إليه فحركه » .

ومن هذا أيضاً قوله (٦) :

وَيَسْتَرِلْتُ دُرَّتَ الْيَعْتَبِيرِ

وقال ابن قتيبة في شرحه : « وَيَسْرُ مَكْنَةُ الْيَنْ ، فحركه
ضرورة (٧) » :

ومن هذا أيضاً قوله (٨) :

- (١) الأرجوزة ٣/١ .
- (٢) المخصص ١٣٤/١٢ ، واللسان (حبر) .
- (٣) الصحاح ٦٢١/٢ ، ٦٦٢ .
- (٤) تهذيب أصلاح المطلق ١٦٩/١ ، وإمالي القاني ١٣٤/١ ، وجمهرة
اللغة ٢٥٧/١ ، ومجالس نعلب ٥٣٣ ، والمخصص ٨٠/١٥ ، وانظر اللسان
(شبير) .
- (٥) الأرجوزة ١١/٢ - ١٢ .
- (٦) الأرجوزة ١٩/١٤٢ .
- (٧) المعاني الكبير ٧٦٩/٢ ، وانظر اللسان (يسر) .
- (٨) الأرجوزة ٦٠/٤٤ .

- (١) الأرجوزة ٩١/٣٣ .
- (٢) انظر شرح تصريف المازني ٣٢٨/١ ، والمخصص ٣٧٤/٢ .
- (٣) انظر كتاب سيبويه ١١/١ ، وشرح تصريف المازني ٣٣٩/١ ، ٦٩/٢ ، ٣٠٢ ، والمخصص ١٦٠/١ ، ٢٥٧ ، واللسان (ضنن) .
- (٤) انظر شرح تصريف المازني ٣٣٩/١ ، والمخصص ٣٤٧/٢ ، وشرح
ابن مقبل ٣٥٢/٣ ، وجمع الفواص ١٥٧/٢ ، والإيضاح ١٣/١ - ١٤ ، ومتن
التلخيص ٥ ، ومختصر المعاني ٩ ، والصحاح ١٦٦/٤ ، وحسن التوسل ١٧ ،
وشرح شواهد شرح الشافية للبغدادي ٣١٢ ، ٤٩١ .

مِنْهُ عَتَائِسِينَ تَرَامِي خَدَفًا

والخَدَف : بالنسبة رميك بجصاة تأخذها بين البابية والإيهام ،
وحركة الحاجة (١) .

ومن هذا أيضاً قوله (٢) :

يَشْرَبْنَ بَرْدَ الْمَاءِ شَرْبًا ذَاتِجًا لَا يَتَعَيَّنُ الْأَجْسَادُ الْمَآجِيَا

والمَآجِيَا : بالنسبة الماء المالح أو المر ، وحركة العجاج للحاجة (٣) .

ومثل هذا أيضاً قوله (٤) :

كَأَنَّ أَصْوَاتَ كِلَابٍ تَهْتَرِشُ هَانَتْ بِبُولِوَالٍ وَلَجَتْ فِي حَرَشِ

وَحَرَشُهُ حَرَشًا : خَدَشَهُ ، وحركة العجاج للحاجة (٥) .

وتحريك الساكن في هذه الأمثلة وما إليها إما جاء على سبيل الضرورة والحاجة ، ولم يُسَمَّع في اللغة بالتحريك ، ولكن هنالك ألفاظاً في اللغة وردت بالخالين ، مثل « نَشْرُ ونَشْرُ ، وَشَبَّ وَشَبَّ ، وَمَعَزَّ وَمَعَزَّ ، وَشَعَرَّ وَشَعَرَّ ، وَشَمَعَّ وَشَمَعَّ » ، وهذه الألفاظ جمعت ساكنة ومتحركة ، وهي عند البصريين لغات مختلفة لا يقاس عليها ، وأما الكوفيون فيقيسون بعضاً منها دون بعض ، وقد لخص ابن جني آراهم ، فقال : « ولما الكوفيون يقيسون ، فَيُقَسَّمُونَ ما جاء وليس ثابته حرفاً حلقياً كما سمع ، ولا يقيسون فيه شيئاً ، فحو « نَشْرُ ونَشْرُ » ، فأما ما كان ثابته حرفاً من حروف الحلق ، فلأنهم يقيسونه ، ويقولون : إن شئت فحركه ، وإن

(١) انظر اللسان ، والقاموس (خذف) .

(٢) ملحقات الديوان ٣/١٢ - ٤ .

(٣) ملحقات الديوان ٣/١٢ - ٤ .

(٤) الملحقات ١/٣٧ - ٢ .

(٥) انظر اللسان ، والقاموس (حرش) .

شئت فسكتين ، ويجعلون الامر في ذلك مردوداً إلى المتكلم .. وقالوا البرقة
سَجَرٌ وَسَجَرٌ ، وَتَهَرٌ وَتَهَرٌ ، وَصَخَرٌ وَصَخَرٌ ، وَفَسَحٌ وَفَسَحٌ ، وَبَعْرٌ
وَبَعْرٌ ، وهذه كلها لغات عند أصحابتنا (١) ، كذلك قال أبو عمر (٢) ،
والقياس يوجب ما قال ، لأنها سمعت ساكنة ومتحركة ، كما سمع غيرها بما
لا حرف حلق فيه ساكنة ومتحركة ، ويحتاج من فصل بينها إلى دليل (٣) .
والخلاف بين البصريين والكوفيين لا يقوم إلا حول الألفاظ التي جمعت
بالتحريك والتسكين ، وإن قاس الكوفيون بعضها ، فحجة البصريين واضحة
في رد ذلك . وأما ما ورد من ألفاظ غيرها ، فهو من باب الضرورات (٤) ،
كأنني وردت في أمثلة العجاج المتقدمة ، ولها نظائر في أشعار غيره ، كقول
أبي النجم :

لِنْ يَلِكُرْ حَدَدًا لَا يُحْتَقَرُ وَجَبَلًا تَالًا مَعْدَدًا فَاشْمَخْتَرُ

أشْمَخْتَرُ لَا يَسْتَطِيعُهُ النَّاسُ الدَّهْرُ

يريد : الدهر ، فحركه الهاء للضرورة (٥) .

ومنها أيضاً قول رؤبة :

وَقَاتِمِ الْأَعْمَاقِ خَاوِي الْمَخْتَرِ مُمْتَشِّبِهِ الْأَعْلَامِ لِمَاعِ الْخَفَقِ
وقال فيه ابن جني : « فحرك الخفتي ، وهو يريد الخفتي ، للضرورة (٦) » .

(١) يريد البصريين .

(٢) يريد أبا عمر الجرمي ، وهو من أسانيد أبي عثمان المازني .

(٣) شرح تصريف المازني ٣٠٦/٢ ، وانظر الخصائص ٩/٢ - ١٠ .

(٤) انظر شرح تصريف المازني ٣٠٧/٢ ، والخصائص ٣٣٣/٢ - ٣٣٩ ،

وسر صناعة الأعراب ١٢٨ .

(٥) انظر شرح تصريف المازني ٣٠٦/٢ ، والخصائص ٩/٢ - ١٠ .

(٦) شرح تصريف المازني ٣٠٨/٢ ، والخصائص ٣٣٢/٢ .

ولم يُضِعْهَا بَيْنَ فِرْكَهِ وَعَشَقِ
وقال فيه المازني : « ولَمَّا هُوَ عَشَقَ ، فَاحْتَاجَ فَبْنَاهُ عَلَى فَعَلٍ ^(١) » .
ومنها قول رؤبة أيضاً :

يريد « الفك » ، فسهّل الإدغام وحرك الساكن ، وقال فيه المازني :
 « فإنما احتاج إلى تحريكه فيناه على فَعَلَ^(٢) » .

فتجريك الساكن في رجز العجاج ضرب من الضرورات ، ومثله تسكين المتحرك ، ومن أمثله قوله (٣) :

وخرس : مصدر وصف به وسكن ثأله الحاجة ، فكانه قال : الأسد
بعضهم مُقْلَصَمٌ ، وبعضهم خرسٌ ، أي أخرسٌ ، يقال : خرس
يخرس خرساً⁽⁴⁾ .

ومن هذا قوله أيضاً (٥) :

وجاءت رواية البيت في كتب اللغة « فجاء مُنْتَصِباً » ، وقال ابن

(١) شرح تصريف المازني ٣٠٧/٢ ، وانظر أيضا ٩١/٣ .
 (٢) شرح تصريف المازني ٣٠٧/٢ ، وانظر ٩١/٣ . ولتحريك الساكن
 صور أخرى في تعاملهم لا تخرج عن باب الفروقات ، انظر شرح تصريف
 المازني ٣٠٧/٢ ، ٣٠٩ ، والخصائص ٢٥٨/١ ، ٣٦٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٨ ،
 ٩٢/٤ ، ٣٥٤ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
 (٣) الأروجة ٥٧/٤٣ .
 (٤) انظر اللسان ، والقاموس (خرس) .
 (٥) الأروجة ٤٤/١١ .

- १११ -

ومثل هذا أيضاً ما أنشده ابن جني للعجاج (٣) :

بِسَبْحَلِ الدَّفِينِ عَيْسَجُورِ

وقال فيه ابن جني : « وقالوا في قول العجاج : (البيت) : أراد
سبحل ، فأسكن الباء وحرك الحاء وغيّر حركة السين ^(٤) » .

ومن هذا أيضاً قوله في وصف الليل^(٥) :

حَوْمٌ غُدَافٌ هَيْدَبٌ حُبْشِيٌّ

وقال الأعمشي في شرحه : « والعُشْبِيُّ : الأسود ، منسوب إلى العُشْبِ » . ولم يرد « العُشْبُ » بضم فسكون في اللسان أو القاموس (٦) ، وإنما ورد العُشْبُ ، والعُشْبَانُ ، والأعْشَبُ ، والعَيْشُ ، وكان العجاج قد بناء من « العُشْبِ » وبفتحتين ، فضم أوله بعد إسكان ثانيه للحاجة ، ثم نسه إلى نفسه بإضافة الاء زيادة في تركيد وصفه بالواد .

ومن أمثلة التسكين عند غير العجماء قول ابن جني : « فأمّا قول

(١) الخصائص ٢/٢٥٤ ، ومثله في الخصائص ٢/٣٢٨ ، وشرح الشافية ٥١/٥ .
 (٢) اللسان (نصب) ، ورواه « منتخب » أيضا في (نصي) و(كرديس) .
 (٣) المباحث ٣٢ .
 (٤) الخصائص ٢/٣٣٩ .
 (٥) الأروجة ٢٥/٥٧ .
 (٦) اللسان ، والقاموس (حبش) .

القطامي :

وَنُفِخُوا عَنْ مَدَائِنِهِمْ قَطَارُوا

وقول أبي النجم :

لَوْ مَحْضَرٌ مِنْهُ الْبَاقُ وَالْمَسْكُ الْغَضَرُ

فانما أريد به « نُفِخُوا » و« عُصِرَ » ، ولكنه خُفِّفَ بِحَذَفِ الكسرة (١) .

وذكر سيويه في باب « ما يسكن استغفاً وهو في الأصل عند متحرك » ، أن بكر بن وائل وأتباعاً كثيراً من بني قيس يكرهون الكسرة أو الضمة بعد الفتحة ، فيقولون « فَخَذَ وَكَبَدَ وَغَضَدَ » بدلاً من « فَخَذَ وَكَبَدَ وَغَضَدَ » ، ويكرهون الكسرة بعد الضمة ، فيقولون « فَصَدَ وَغَضَرَ » بدلاً من « فَصَدَ وَغَضَرَ » ، ويكرهون نواي الضمتين ، فيقولون « رُمِّلَ وَطُنَّبَ وَغُنَّتْ » بدلاً من « رُمِّلَ وَطُنَّبَ وَغُنَّتْ » ، وكذلك تولي الكسرتين ، فيقولون « إِبِلَ » بدلاً من « إِبِلَ » ، وأما ما تواتر فيه الفتحان فانهم لا يسكنون منه لأن الفتح أخف عليهم من الضم والكسر (٢) . وكلام سيويه يمكن أن يفسر ما ورد في قول القطامي « نُفِخُوا » ، وقول أبي النجم « عُصِرَ » على أساس لهجة قبائل بكر بن وائل وكثير من بني قيس ، ولكن إذا عدنا إلى ما أورده سيويه لنعارضه بالأمثلة السابقة من رجز العجاج ، وجدنا أن العجاج يسكن في تولي الفتحين مع أن هذا ليس

(١) شرح تصنيف المازني ٢٤/١ ، وانظر المخصص ٢٢٠/١٤ .
(٢) كتاب سيويه ٢٥٧/٢ - ٢٥٨ . وانظر سوريا لتسكين المتحرك في المخصص ١٢٨/١ - ١٢٩ ، ٢١٦/٢ - ٢١٧ ، ٢٣٨ - ٢٣٩ ، ٢٤٢ - ٢٤٣ ، والنظام في تفسير أشعار هذيل ٤٢ - ٤٣ ، ١٨٠ . وشرح تصنيف المازني ١٢٤/٢ .

من لهجة بكر أو نعيم ، ويسكن كذلك مع تصرف في أبنية الألفاظ ، وهذا لاقاعدة له في لهجة قومه ، أو في اللغة بوجه عام ، وإنما هو تصرف خاص به ، لا ينضج لقاعدة ثابتة ، أو لأسس محددة .

ولئن فالعجاج يتصرف بالألفاظ حسب حاجته ، وما تقتضيه الضرائر ، فله أن يقلب في أصوات الكلمة ، أو يبدلها بغيرها ، أو يترك المدغم منها ، أو يسكن المتحرك ، أو يحرك الساكن ، وذلك لأنه قد اتخذ لنفسه مبدأ التصرف في اللغة دون أن يجد في ذلك أدنى حرج .

وهذا المبدأ دفع العجاج إلى تصرف آخر في أبنية اللغة ، إذ نجده يستعمل المثنى بدلاً من المفرد ، أو المفرد بدلاً من المثنى ، وربما جاوز ذلك فاستعمل الجمع بدلاً من المفرد ، أو الجمع بدلاً من المثنى ، وهذا ما يجعل الآيات بحاجة إلى الدقة والخلو أحياناً لفهم المعاني دون وهم أو ذلل .

ومن أمثلة المثنى بدل الواحد قوله (١) :

لَا تَحْسَبَنَّ الْعَتِدَقَيْنِ وَالْحَقَرِ

وقد أشده ابن سلام شاهداً لهذا الاستعمال ، ثم قال : « وهو خندق واحد » (٢) .

ومن أمثلة المفرد بدل المثنى قوله (٣) :

حَسَىٰ إِذَا الصُّبْحُ لَهُ تَنَقَّسَا غَدَاً بِأَعْلَىٰ سَحَرٍ وَأَجْرَسَا

وقال ابن سيده : « .. وَلَقِيَتْهُ بِسُحْرَةٍ وَسُحْرَةٍ وَبِأَعْلَىٰ سَحَرَيْنِ وَأَعْلَىٰ السَّحَرَيْنِ » ، فلما قول العجاج : (البيت) ، فهو خطأ ،

(١) الأرجوزة ١٧٦/١ .
(٢) طبقات ابن سلام ١٥٠ .
(٣) الأرجوزة ٤٦/١١ - ٤٧ .

كان ينبغي له أن يقول : بأعلى سحرَيْن ، لأنه أول تنفس الصباح ، ثم الصباح ، كقوله :

مرث بأعلى سحرَيْن تذال

أي تسرع^(١) .

ومن أمثلة الجمع بدل المفرد قوله^(٢) :

كان في فيه إذا ما شججاً موعوداً ذوين اللهوات مولجاً
فجعل للجار الوحشي للهوات ، ولما له للهاة وإحدة^(٣) .

ومن هذا قوله^(٤) :

تسمع للحنين إذا ما سوسا والنج في أجيادها وأجرسا
فجعل للمرأة « أجياداً » ولما لها جيد واحد .

ومن هذا أيضاً قوله^(٥) :

أوحيت كان الولجات ولجاً

والولجة بالافراد موضع بالزل من شق بني قم ، وقد جمعه العجاج
با حوله ، فقال : الولجات^(٦) .

ومن هذا أيضاً قوله^(٧) :

بمنهل محتق المناطر صغر الصرى ناه عن القراط

(١) المخصص ٤٧/٩ ، ومثله في اللسان (سحر) .

(٢) الأرجوزة ٨٠/٢٢ - ٨١ .

(٣) المخصص ٢٣٤/١٣ .

(٤) الأرجوزة ٢٠/١١ - ٢١ .

(٥) الأرجوزة ٢٩/٢٢ .

(٦) معجم ما استعجم ١٠٨٢/٣ ، ١٣٨٣/٤ ، وانظر شرح الأصمعي للبيت .

(٧) الأرجوزة ١٥/٢٠ - ١٦ .

والصرى : الماء الذي قد أطيل حبه فتير ، وأراد أن المنل « أصغر الصرى ناه عن القراط » فاستعمل الجمع « صغر » بدلاً من المفرد « أصغر^(١) » .

ومن هذا أيضاً قوله^(٢) :

وبالحجور وثنى الولج

وقد أشده أبو الطيب اللغوي ، وابن سيدة ، شاهداً على استخدام الجمع بدل المفرد ، فقال أبو الطيب : « والحجور موضع يقال له حجير بجير ، فجمعه با حوله^(٣) » ، وقال ابن سيدة : « الحجور موضع يقال له حجير بجير^(٤) » .

ومن هذا أيضاً قوله^(٥) :

يمعجن بالدوية الأماليس

وكان ينبغي أن يقول ، بالدوية المكسر ، على معنى الفتق لأن المكسر مذكر ، أو بالدوية المساء على حقيقة لفظها ، ولكن وصف بالجمع بدل المفرد ، فاستعمل « الأماليس » بدل المكسر أو المساء^(٦) .

ومن أمثلة الجمع بدل المثنى قوله^(٧) :

جناد له بالدبلر الوسمي من باكر الاضطراب اشراطه
وقال الأصمعي في شرحه : « وباكر الاضطراب : يريد نوه الشرطين » .

(١) انظر شرح الأصمعي للبيت .

(٢) الأرجوزة ٩٢/٢٥ .

(٣) المثنى لأبي الطيب ٧٣ .

(٤) المخصص ٢٣٥/١٣ ، وانظر معجم ما استعجم ٥٤٢/٢ ، واللسان (حجر) ، وشرح البيت في حاشية الديوان .

(٥) الأرجوزة ١٢/٢٨ .

(٦) انظر شرح الأصمعي للبيت ، وتعلقنا عليه .

(٧) الأرجوزة ٨٧/٢٥ - ٨٨ .

فجعل الأشراف جمعاً أريد به المثنى ، ومثل هذا ما تجده عند ابن سيده ، والسيوطي ، إذ أنشدا البيت شاهداً لما جاء مجزئاً ولما هو اثنان في الأصل^(١) . وشأن الجوهري فقال : « التشرطت : تَجَمَّان من التَّحَمُّل ، وهما قرانه ، وإلى جانب الشالي منها كوكب صغير ، ومن العرب من بعده معها ، فيقول : هو ثلاثة كواكب بسمها الأشراف^(٢) » .
ومن هذا أيضاً قوله^(٣) :

على كراسي عبي ومرفقته

والكُرسُوعُ : رأس وحشي الذراع بما يلي الحصر ، فقال « كراسي » ولما له كرسعان . ولهذا أنشد ابن سيده ، والسيوطي ، وأبو الطيب اللغوي ، هذا البيت شاهداً للألفاظ التي وردت بصيغة الجمع والمعنى بها واحد أو اثنان^(٤) .

وهذا الخروج على أبنية الألفاظ من حيث الأفراد والتثنية والجمع ، له نظائر في أشعار العرب ، حلت على أفراد فصول خاصة بها في بعض المصادر^(٥) . ومن أمثلة استعمال الجمع بدل المفرد ، قول عبيد :

أفقر من أهلي محبوب فالفطيشات فالبُتوب

وقال ابن جني فيه : « وأما الفطيشة ماء واحد معروف^(٦) » ، وقال ابن منظور : « والفطيشة : ماء بعبه ، فأمّا قول عبيد : (البيت) ،

(١) المزهري ١٩٢/٢ ، والمخصص ٢٣٥/١٣ .

(٢) الصحاح ١١٣٦/٣ ، وانظر اللسان (شرط) .

(٣) الأرجوزة ٦/٤٠ .

(٤) المخصص ٢٣٥/١٣ ، والمزهري ١٩٢/٢ ، وكتاب المثنى لأبي الطيب ٦٦ .

(٥) انظر « باب مجاء مجموعاً وأما هو اثنان أو واحد في الأصل » في الجزء ١٣ من المخصص ، والجزء الثاني من المزهري .

(٦) الخصائص ٤٢٠/٢ .

لما أراد الفطيشة هذا الماء ، فجمعه بما حوله^(١) » .

ومنه أيضاً قول الفرزدق :

ولذا ذكرت أباك أو أهلك أخراك حيث تقبل الأبحار

وقال فيه ابن جني : « يريد الصَّجَر ، فإنه جعل كل ناحية حجراً ، ألا ترى أنك لو مسست كل ناحية منه ، لجاز أن تقول : مسست الحجر .. وهذا عندي سبب لإقحام لفظ الجماعة على معنى الواحد^(٢) » .

ومن أمثلة استعمال المفرد بدل الجمع ، ما قاله ابن جني : « وقال شاعر بني قريظ :

تأبط سواة وحملت شرّاً لعلك أن تكون من العصاب

أي الذين يصابون ، ذهب بالعصاب إلى الجنس ، كقوله أنشدناه أبو علي ، وقرأته على محمد بن الحسن بن أحمد بن يحيى :

إن تَحْتَكِي يامي أو تَحْتَكِي أو تُصَبِّحِي في الظلّعين العُزْزِي

يريد : في الظاعين المولتين . وأنشد ابن الأعرابي :

ياحبذا تَصَحَّكُ بالمشافر وبالعنانين وبالعنساير

على رؤوس كروؤوس الطائر

يريد : الطير^(٣) » .

ومن أمثلة المثنى بدل المفرد قول جرير :

بان الخليل براتين فردعوا أو كلما ظعنوا لبين أجزع

(١) اللسان (قطب) .

(٢) الخصائص ٤٢٢/٢ ، وانظر أمثلة أخرى في التمام لابن جني ١٦٥ .

(٣) التمام لابن جني ١٣٧ ، وانظر سر صناعة الأعراب ٤٩٠/٢ .

وقال ابن جني : « ولما أراد رامة ، أرض واحدة معروفة ^(١) » .
 فالخروج عند العجاج على أبنية الألفاظ من حيث الافراد والتنشئة والجمع ،
 له نظائر في أشعار العرب ، وكذلك الأمر في كل ما رأيناه من صور التصرف
 في أبنية اللغة لديه ، إلا أننا ربما وجدنا شاهداً عند هذا ، وآخر عند ذاك ،
 ولكننا لا نوفق إلى وجود هذه الأنواع جميعاً لدى واحد منهم بعينه ، ومن
 هنا يمكن أن نحدد الفوارق بين العجاج وغيره من نجد لديه بعض التصرف
 اللغوي ، فالعجاج قد ركّز على هذا الاتجاه ، وجعله مبدأ له في رجزه ،
 واتخذ منه ما يشبه الحلية في إغرابه ، وإذا أراد هذه « الحلية » فلا عليه إذا
 ما عمد إلى تزويق الألفاظ على هواه ، فأسقط من هذه الكلمة ما أراد ، وبني
 تلك الكلمة على ما شاء ، لأن ذلك كله قد يبعث على الغموض والإبهام في
 فهم معناها ، ولكنه مع ذلك يحقق الإغراب في اللغة ، والندرة في الأبنية ،
 وهذا ما يتغنيه العجاج لافاظ رجزه .
 فالليل يقتلع أشجار « الزيتون » ، ولكن العجاج يختصر هذه الكلمة
 فلا يبقى منها إلا « الزيت » ، فيقول ^(٢) :
 وَيَقْلَعُ النَّخْلَ الرُّطَابَ الرُّطَاباً وَالزَّيْتَ لَمْ يَرُطِبْ وَزَيْتًا أَرُطِبًا .
 وقال الأصمعي في شرحه : « يرصد بالزيت الزيتون ، أي يقلّص
 الزيتون » .
 و « الصيّبان » جمع معروف لـ « صبي » ، إلا أن العجاج
 يسقط منه النون والياء ، فلا يبقى منه على غير « الصب » ، فيقول ^(٣) :

- (١) الخصائص ٤٢٠/٢ ، وانظر اللسان (روم) .
 (٢) الأرجوزة ٢٠/٧ - ٢١ .
 (٣) الأرجوزة ٣٦/٧ - ٣٨ .

قَدْ عَلِمَ الْمُخْتَارُ إِذْ جَدَّ الْجِيَا وَبَلَغَ الْمَاءَ حِلَافِي الزَّيْتِ
 مِنَ الَّذِي غَيَّقَ تَغْيِيقَ الصَّبَا
 وقال الأصمعي في شرحه : « يقول : من الذي ماح كما يروح الصبيان
 ولم يبق أمره » .
 وجمع « تارك » تارات ، ولكن العجاج حذف التاء ، فصار الجمع
 « تارا » ، فقال ^(١) :

وَيَرْتَمِي تَاراً وَمَا يُجَافِي عَنْ الْكَلَسِ وَمَوْضِعِ الْجَافِي
 ومثل هذا تماماً تصرف في كلمة « الترات » جمع « المرأة » ،
 إذ أسقط منها التاء ، فقال ^(٢) :
 وَقَدْ عَلِمْنَا مَعْتَرَا أَغْمَارَا فَقَدْ أَكْبَادَهُمُ السَّرَارَا
 وقال الأصمعي في شرحه : « يقول : أحرق أكبادهم من الغيط ،
 ففقت مراراتهم ، انشقت بما احتشت به من الغيط » .
 و « القساء » يحذف العجاج منها التاء ويعوض منها بالثديس ،
 فتصبح « القسا » فيقول ^(٣) :
 أَعْدَاؤُهُ ذَلُّوا وَمَا تَأَيَّسَا يَهْتَضِمُ الْقَسَا وَلَنْ رِمَ قَسَا
 وقد تكون « القسا » في البيت أصلها « القساء » جمع قاس على
 فُعَال ، ثم قصر الممدود ضرورة ، وبذلك يكون قد جاء بجمع نادر ، لأن
 « فُعَال » أصله أن يكون جمعاً أصفة صحيحة اللام على زنة « فاعل »

- (١) الأرجوزة ٤٠/٨ - ٤١ .
 (٢) الأرجوزة ٧٢/٣٤ - ٧٤ .
 (٣) الأرجوزة ٧٥/١١ - ٧٦ .

مثل : صائم ومُصَوِّم ، وكاتب وكُتِّاب ، وتندر بجثه من معتل اللام مثل : غائر وغُرَّاء . ثم تصرف تصرفاً آخر بهذا الجمع النادر ، إذ قصره ففعض أصله ، وأحوج إلى تعدد أوجه التأويل في فهمه .

و « التَّوَاتِي » تصبح عند العجاج « التَّوَاتِي » ، إذ احتاج إلى تشديد النون ضرورة ، فحذف الألف كيلا يجتمع ساكنان ، فقال (١) :

وَبُرْهَانُهُ مِنْ دَهْرِكَ الْمُغْتَنِي مَعَ الْهَوَى وَقَلْبُهُ التَّوَاتِي
وتصرف العجاج بكلمة « الحِصَان » ، فشد النون ثم حذف الألف كيلا يجتمع ساكنان فأصبحت « الحِصَن » ، وتصرف كذلك بكلمة « العِشَّة » وهي العِشَل من الصوف أو الشعر ، فأسقط منها بعض الأحرف وغير في حركات الأحرف الأخرى ، ففدت « العِشَن » ، فقال (٢) :

مِنْ قَلْبٍ قَتَوْدٍ الْقَرَسِ الْعِشَنُ جَارِيَةٌ لَيْسَتْ مِنَ الْوَحْشَنُ
لَا تَلْبَسُ الْعِشَنُ بِالْعِشَنُ
وتصرف أيضاً بكلمة « الذهب » ، فسكتن ثانية ثم أضاف النون الثقيلة ، فأصبحت « الذَّهَبَن » ، وتصرف تصرفاً واسعاً في كلمة « المؤدِن » لغة في « المودن » وهو القصير ، فتحوّلت على يده إلى « الأدَن » ، فقال (٣) :

كَانَ قَرِطِينَا مِنَ الذَّهَبَنُ نَيْطًا بِيَجِيدٍ لَيْسَ بِالْأَدَنُ
وبقال رجل أرمل وامرأة أرملّة : محتاجة ، والجمع أرملّة

(١) الأرجوزة ١٦/١٥ - ١٦ .
(٢) الأرجوزة ١٦/٣٦ - ٣٨ .
(٣) الأرجوزة ١٦/٤٢ - ٤٣ .

وأرايل ، واصكن العجاج تصرف في هذا الجمع فأسقط التاء من الأولى ، أو أسقط الألف من الثانية ، فقال بدمج والي اليلمة (١) :

مُسْتَجْمِعُ الْأَمْرِ جَمِيعُ الْأَرْمَلِ

وأراد بـ « الأرمَل » : الأرملّة أو الأرايل ، وهم جماعة المحتاجين من رجال أو نساء ، وقوله « جميع الأرمَل » ، يريد أنه يجتمع إليه أصحاب الحاجات والمعوزون .

وتصرف أيضاً في كلمة « السّراة » وهي الظهر ، فأسقط التاء للحاجة ففدت « السّرا » ، فقال (٢) :

قَرِي لَصِيرَانِ الْمَا الْمُسْرَوَلِ وَفِي سَوِي نَحْتِ سَرًا مُجَلَّلِ
 واحتاج في كلمة « السّراويل » الى حذف الياء فأبقاها على « سراويِل » ، فقال في وصف الثور (٣) :

يَعْمِشِي كَمَشِي الْمَرْحِ الْفَيْخِيرِ مُرَوَلٍ فِي سَرَاوِلِ الصُّغُورِ
و « الماقل » البعيد ، وتصرف العجاج فيها فأسقط الهزئة للحاجة ، فقال (٤) :

سَحْنِي تَنَاحٍ بَعْدَ رِخْسٍ مَاطٍ
وقال الأصمعي في شرحه : « والماط : البعيد ، وإنما يريد الماظر » .
وتصرف كذلك في كلمة « هَنَّا » لغة في « هُنَّا » ظرف المكان ، فقلب الألف هاء للوقف ، فأصبحت « هَهْ » ، ثم قلب الهاء تاء حين أجرى

(١) الأرجوزة ١٧/٢٦ .
(٢) الأرجوزة ١٧/٦٢ - ٦٣ .
(٣) الأرجوزة ١٩/١١٤ - ١١٥ .
(٤) الأرجوزة ٢٠/١٤ .

الفاية فقال « هُت » ، لأن الهاء تصير تاء في الوصل ، ثم عاملها في القطع معاملة إياها في الوصل ، فقال ^(١) :

وَكَاثَرَتِ الْحَيَاةُ حَيْثُ مَحَبَّتٍ وَذَكَرُهَا تَهْتَتْ وَلَاتْ تَهْتَتْ
وتصرف أيضاً في كلمة « الحَمَام » فأسقط منها ، وغيّر في بنائها ، فأصبحت « الحمّمي » ، فقال ^(٢) :

وَالْقَائِمَاتِ الْبَيْتَ غَيَّرَ الرَّيْمُ أَوَّلَهَا مَكَّةَ مِنْ مَوْقَرِ الْحَمِي
وقد تباينت الآراء في تعليل هذا التصرف ، وسار البيت شاهداً في كتب اللغة ^(٣) ، وذلك لكثرة ما أوجدوا حوله من أوجه للتأويل ، ولعل أيسرها قول الأعمى : « يريد الحَمَام » فغيرها إلى الحمّمي ، وفي ذلك أوجه أحسنها عندي وأشبهها بالمستعمل من كلام العرب ، أن يكون اقتطع بعض الكلمة للضرورة ، وأبقى بعضها دلالة المبقى على المحذوف منها ، وبنائها بناءً بـ ودم ، وجبرها بالإضافة ، وألحقها الياء في اللفظ لوصل الفاية ^(٤) .. .

وتصرف أيضاً في « الأَنْفِيَّة » ، واحدة الأثافي ، وهي الحجر توضع عليه القدر ، فأسقط منها التاء للحاجة ، أو تصرف تصرفاً واسعاً في جمعها ، فقال ^(٥) :

رَوَائِمٌ لَوْ تَرَأَمُ الْأَنْفِيَّةُ

(١) الأرجوزة ٢٢/٦٤ - ٦٥ .

(٢) الأرجوزة ٢٤/٤٦ - ٤٧ .

(٣) انظر كتاب سيبويه ٨/١ ، والخصائص ٤٧٣/٢ ، والعمدة ٢٠٨/٢ ، وتأويل مشكل القرآن ٢٣٧ ، والمقاصد النحوية ٥٥٦/٣ ، ٢٨٥/٤ ، وجمع الهوامع ١٨١/١ ، ١٥٧/٢ ، وحاشية الخفري ٣٢/٢ ، والصحاح ١٩٠٦/٥ ، والمخصص ١٧/١٧ ، واللسان (الف) و (حم) .

(٤) تحصيل عين الذهب ٨/١ .

(٥) الأرجوزة ٢٥/١٤ .

ومثل هذا تصرفه في كلمة « القُومِيَّة » ، إذ قال ^(١) :

قَتَمٌ مِنْ قَتَامِهَا قُومِيٌّ

وقوام الرجل : قامته وحسن طوله ، والقومية مثله ، إلا أنه حذف التاء للحاجة ، فقال « قُومِي » أراد قَتَمٌ لما من قَتَامِهَا قَتَامٌ حَسَنٌ .

ومثل هذا أيضاً إسقاطه التاء من « رُويَّة » ، وتحويلها إلى « رُوي » ، في قوله ^(٢) :

حَتَّى نَبَاهَا حِينَ لَا رُوي

وهذه الأمتة وما إليها تشير إلى أن تصرف العجّاج في أبنية اللغة ليس له حدود ، فهو يَسْقِطُ من الكلمة ، أو يزيد عليها ، أو يغيّر من بنائها . وربما وجدنا في أشعار العرب نظائر لبعض هذه التصرفات اللغوية ^(٣) ، كقول رؤبة مثلاً في الخلف :

حَتَّى إِذَا بَلَّتْ حَلَاقِيمَ الْحُلُقِ

أراد « الحُلُقُ » ، فأسقط الواو للحاجة ^(٤) .

ومنه أيضاً قول رؤبة :

وَصَافِي الْعَجَّاجُ يَا وَصِينِي

(١) الأرجوزة ٢٥/٣٣ .

(٢) الأرجوزة ٢٥/١٨١ .

(٣) انظر الخصائص ٨٠/١ - ٨١ ، ١٩٥ ، ٢٨٢ ، ٢٩٢/٢ - ٢٩٣ ، ٣١٦ - ٣١٧ ، ٣٦١ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، وشرح تصريف المازني ٣٤٨/١ - ٣٤٩ ، ٤٩/٢ - ٥٠ ، وصر صناعة الإعراب ٢٩ ، ٣٠ ، ١٢٨ ، ١٦٣ - ١٦٤ ، وتأويل مشكل القرآن ٢٣٨ ، ولباب التأويل ٢٠/١ ، وأنوار التنزيل ٣٧/١ ، وتفسير البحر المحيط ٣٥/١ ، واللسان : (سب) ، (صهب) ، (هضب) ، (وذب) ، (بيض) ، (أنف) ، (صرف) ، (أثل) ، (آدم) ، (أجسن) ، (شان) ، (مني) .

(٤) شرح تصريف المازني ٣٤٨/١ ، والعمدة ٢١٠/٢ .

أراد « فإِ وَصَافِي ، ، فَاسْطَطَ الْأَلْفَ لِلْحَاجَةِ (١) .

ومنه أيضاً قول جندل بن المثنى الطهري :

وَكَحَلَّ الْعَيْنَيْنِ بِالْعَوَاوِيرِ

أراد « العَوَاوِيرِ » جمع عَوَارٍ ، فحذف الياء للحاجة ، ولم يجر الزاير لأنها دلالة على الياء المحذوفة ، وتثبت للمعنى المراد مع الياء (٢) .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما قاله ابن جني : « وقد يحذفون بعض الكلام استخفافاً ، جذفاً جَلَّ بالبقية ، ويعرض لها الشبه ، ألا ترى إلى قول علقمة :

كَأَنَّ لِمَرْيَقَتِهِمْ ظِلِّي عَلَى تَرْفٍ مُقَدَّمٍ يَسْبِتَا الْكَتَانِ مَلْشُومٌ

أراد : بسائب . وقول ليبي :

دَوَسَ الْمَتَا يَمْتَالِعُ فَأَبَانَ

أراد : المنازل . وقول الآخر (٣) :

حِينَ الْفَتَى بِقَبَاهِ بَرَّكَهَا وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي عَمْدِ الْأَشْلَى

يريد : عبد الأشهل من الأنصار . وقول أبي دؤاد :

يَذَرِينَ جَنْدَلَ حَائِرٍ لِحَنُوبِهَا فَكَأَنَّمَا تَدْرِي سَنَابِكُهَا الْعَبَا

أي تصيب بالحصى في جريها جنوبها ، وأراد : الحجاب . وقال الأخطل :

أَمَسَتْ مَنَاكَا بِأَرْضٍ مَا يَلْفُهَا بِصَاحِبِ الْبَهْمِ إِلَّا الْجَنْسِرَةُ الْأَجْدُ

(١) الخصائص ٢/٢٩٢ ، ٣١٦ .

(٢) كتاب سيبويه ٢/٣٧٤ ، والخصائص ١/١٩٥ ، وشرح تصريف المازني

٤٩/٢ ، ٥٠/٣ .

(٣) هو عبد الله بن الزبيري كما في اللسان (برك) ، ورواية اللسان :

« حين حككت » .

قالوا : يريد منازلها ، ويجوز أن يكون معناها : قصدها (١) .

فهذه الأمثلة وما إليها تشير إلى وجود نظائر لبعض تصرفات العجاج في أبنية اللغة ، ولكنها محدودة في أشعار غيره ، إذ لا نجد عند شاعر واحد هذا الحشد الزاخر من التصرف الجريء في ألفاظ اللغة وأبنياتها ، كالذي رأيناه عند العجاج ، فشاعرهم قد يخرج على الأبنية المألوفة في بيت أو أبيات قليلة ، ولكنه لا يجعل من ذلك منهجاً يلتزمه في أشعاره ، أما العجاج فقد اتخذ من ذلك مبدأ عمل به ، والتزم جانبها ، لا وفر في نفسه من شغف الناس بغرائب الألفاظ ونوادر الأبنية .

هـ - التصرف في قواعد النحو

ولم يقف العجاج عند التصرف في بنية الألفاظ أو معانيها ، وإنما تجاوز ذلك إلى بعض الروابط النحوية المألوفة في اللغة ، بما جعل من رجزه أحياناً مادة للخلاف الواسع بين النحاة ، ولا سيما بين مدرستي الكوفة والبصرة ، فالصيرين لا يلتفتون إلى كل مسومع ، ولا يقيسون على الشاذ ، وإذا ما عرض لهم ذهبوا به إلى تأويلات بعيدة حتى لا يخالف الأصول ، أما الكوفيون فيقفون على الشاذ أو النادر ، ولو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبرّوا عليه ، وهذا كله مخالف للبصريين (٢) ، ومن هنا كان خروج العجاج على مألوف القواعد النحوية أحياناً يؤدي إلى الخلاف بين المدرستين واتساع التأويل في أبيات رجزه .

(١) الخصائص ١/٨٠ - ٨١ ، وانظر فصلاً لابن جني سماه « فصل في التحريف » أورد فيه بعض هذه الأمثلة أيضاً : الخصائص ٢/٤٣٦ - ٤٣٨ .

(٢) الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي ، ١٠٠ ، ١٠٢ .

ومن أمثلة خروجه على مألوف القواعد النحوية ، إدخاله « الكاف » على الضمير في قوله ^(١) :

خَتَّى الثَّغَابَاتِ شِمَالًا كَتَبَا وَأُمُّ أَوْعَالٍ كَتَبَا أَوْفَرَبَا
ودخول الكاف على الضمير شاذ في الاستعمال لا في القياس ، إذ القياس ان تدخل على الاسم ظاهراً أو مضمرأ ، ولكنهم استغنوا عنها بـ « مثل » في الدخول على الضمير ، فقالوا « مثلاً » بدلاً من « كما » ، ولهذا جعل النداء بيت العجاج شاذاً ، وحملوه على الضرورة ^(٢) .

وشبه بهذا ادخاله « عن » على الكاف في قوله ^(٣) :

يَضْحَكُنَّ عَيْنُ كَالْبَرِّ الْمُنْتَهَمِ*

وذهب النحاة في هذا البيت إلى أن الكاف اسمية بمعنى « مثل » ، ولولا ذلك لم يدخل عليها حرف الجر « عن » ، ثم اختلفوا فيه ، فمنهم من أجاز اسمية الكاف في الكلام والشعر ، ومنهم من خصص ذلك بالشعر حملاً على الضرورة ^(٤) .

ومن ذلك أيضاً تقديمه جزءاً من صلة « أن » عليها ، في قوله ^(٥) :

(١) الملحقات ٤٢/٢ - ٤٣ .

(٢) انظر كتاب سيبويه ٣٩٢/١ ، والمفصل ٢٨٩ ، وشرح المفصل ١١٠/٣ ، وواضح المسالك ١٢٤/٢ ، وشرح الشافية ٣٤٥/٤ ، وشرح ابن عقيل ٩/٢ ، والخزانة ٢٧٧/٤ (بولاق) ، والمقاصد ٢٥٣/٣ ، وشرح المقامات للشريشي ١٤٥/٢ ، ومفتاح العلوم ٥٢ .

(٣) الملحقات ٤٦/٩ .

(٤) انظر أسرار العربية ٢٥٨ ، والمفصل ٢٨٩ ، وواضح المسالك ١٤٧/٢ ، ومفاتيح اللبيب ١٥٤/١ ، وشرح شواهد المفاتيح ١٧١ ، والمقاصد النحوية ٢٩٥/٣ ، وخزانة بولاق ٢٦٢/٤ .

(٥) الملحقات ١/١٦ - ٣ .

ربيشه حتى إذا تَمَعَّدَا وَأَصَّ تَهْدَا كَالْحَصَانِ أَجْرَدَا
كان جزأني بالعصا أن أجلدا

فالفراء جعل البيت الأخير شاهداً على جواز تقديم معمول « أت » المصدرية عليها ، لأن قوله « بالعصا » متعلق بـ « أجلدا » و « أجسد » معمول « أن » . وأنكر البصريون ذلك ورأوا أن معمول الصلة من تمام الصلة ، وإذا كان لا يجوز تقديم الصلة على « أن » ، فكذلك لا يجوز أن يتقدم عليها جزء من الصلة ، وأجلوا عن بيت العجاج بأنه نادر ، وأن قوله « بالعصا » متعلق بأجلد مقدراً ، أي « كان جزأني أت أجلد بالعصا أن أجلد » ثم اختصر ^(١) . وبهذا فقد شجر الخلاف بين علماء الكوفة والبصرة حول هذا البيت ، ومن ثم كثرت التأويلات حوله عند النحاة ^(٢) .

ومن هذا أيضاً حذف حرف النداء من النكرة ، في قوله ^(٣) :

جَارِي لَا تَسْتَكْبِرِي عَفِيرِي

أراد « بإجارية » ، فوهم يسقط التاء ، وحذف حرف النداء مع أن « جارية » نكرة لا تعرف إلا بالنداء ، ولذا يطرد الحذف من المعارف ، ولهذا حملوا بيت العجاج على الشذوذ والضرورة ^(٤) .

ومن ذلك أيضاً ردء كلمة « الفم » إلى الأهل من غير إضافة ، في قوله ^(٥) :

خَالِطَ مَنْ سَلَمَسَى خَيْاشِيمَ وَفَا

(١) خزانة الأدب ٥٦٢/٣ (بولاق) .

(٢) انظر الخزانة ٥٦٣/٣ - ٥٦٤ (بولاق) .

(٣) الأرجوزة ١/١٩ .

(٤) انظر كتاب سيبويه ٣٢٥/١ ، والمفصل ٤٤ - ٤٥ ، وشرح المفصل ١٨٠/١ ، والوساطة ٣٥١ ، والمقاصد النحوية ٢٧٩/٤ ، والخزانة ١٠٨/٢ .

(٥) الأرجوزة ٢٤/٤٤ .

فأصل الفم « فَنَوَهَ » ، فحذف منه الهاء وأبدل من الواو ميم ليصح تحريكها في الإعراب ، فإذا أضفناه رددته إلى الأصل فقلت : فاه ، وفوه ، وفيه ، حسب موقعه من الكلام ، وأما قول العجاج « وفا » دون إضافة ، فقد اختلفت فيه الآراء ، من النجاة من قال : إنه شاذ وفيه ضرورة ، ومنهم من قال : إنه حذف المضاف للعلم به ، ومنهم من قال أيضاً : إبت ألف « فا » هي عين الفعل ، ومنهم من جعل حكمها أن تكون بدلاً من التنوين والمنقلة من العين سقطت لالتقاء الساكنين لأنها هي الساكن الأول^(١) .

ومن أمثلة ذلك أيضاً تقديمه المستثنى أول الكلام ، في قوله^(٢) :

وتشفقةً ليس بها طورِي ولا خلا الجن بها لئسيه
وهذا البيت قد احتج به الكوفيون على جواز تقديم المستثنى أول الكلام ، ونصّ على جواز ذلك الكسائي ، وأبو اسحق الزجاج في بعض المواضع ، ونهّب البصريون إلى أن ذلك لا يجوز ، وقالوا في تقدير هذا البيت : وبادة ليس بها طورِي ولا لئسي خلا الجن ، فحذف « لئسي » وأضر المستثنى منه ، وما أظهره تفسيره لا أخره^(٣) .

ومن ذلك إتياءه الحرف حركة الحرف الجاور ، في قوله ببسج والي الهمزة^(٤) :

- (١) انظر الصحاح ٢٢٤٤/٦ ، والمخصص ١٣٦/١ - ١٣٨ ، ٩٦/١٤ ، وأوضح المسالك ٢٨/١ ، والمقاصد ١٥٢/١ - ١٥٤ ، والخزانة ٤٠٥/٣ - ٤٠٦ ، ٣٢٣/٤ ، وخزانة بولاق ١٣٥/٣ ، واللسان (فم) و (فوه) .
(٢) الأرجوزة ٦٥/٢٥ - ٦٦ .
(٣) انظر الانصاف ٢٧٣/١ ، وجمع النوامع ٢٢٦/١ ، والخزانة ٢٨٤/٣ .
(٤) الأرجوزة ٤٤/١٧ - ٤٦ .

سام إلى المعلّاة غَيْرُ حَبِيلٍ كَرَرٌ ولا مُزَلٍّ كَوْنُكَ
وَصَالٍ إِخْوَانِ التَّدْيِ مُوَصِّلٌ

فقوله « وصال » بالكسر ، كان حقه أن يقال « وصال » بالضم ، لأنه خبر ثالث على تقدير : « هو سام غَيْرُ حَبِيلٍ وَصَالٍ إِخْوَانِ » ، أو خبر عن محذوف على تقدير : « هو وصال » ، ولا يجوز أن يتبع حركة الصفات السابقة عليه لأنها واقعة في حيز النفي ، والنفي لا يجوز عليه من حيث المعنى ، ولهذا كان لابد أن يكون « وصال » بالضم ، إلا أن العجاج أتبع اللام حركة المفعلة بعدها ، ثم أتبع « موصل » لفظ « وصال » ، وبذلك استقام له العروض ، وإلا فالبيت كان ينبغي أن يكون :

وَصَالٍ إِخْوَانِ التَّدْيِ مُوَصِّلٌ
على الاقواء .

ومن هذا أيضاً استعماله المبتدأ مكان المنفي في قوله^(١) :

والتَّيْنَاتِ يُسَاقِطَنَّ الشَّعْرُ

وقال الأصمعي في شرحه : « ليس أحد يقول : يُسَاقِطَنَّ الشَّعْرُ ، ولا تَطْرَحَتْ شَعْرَةٌ » ، إما يقال : ناقة ما حملت شَعْرَةً فَطَرَتْ ، وما قرأت سقاً قط ، ولم يكن في بطنها ذلك » . وقال ابن سيدة : « قال ابن السكيت : ما حملت الناقة شَعْرَةً » ، أي تَلْقُوْحاً ، حكاه في النفي ، قال : واستعمله العجاج في غير الجحد فقال : (البيت) «^(٢) . فالعجاج لم يأنز نفسه بالنفي المألوف مع هذه العبارة ، ولما استعملها دون نفي ، ولهذا قال الأصمعي في شرحه أيضاً : « وقد علم أن الناس يعلمون ما أراد العجاج

- (١) الأرجوزة ٦٣/١ .
(٢) المخصص ١٩/٧ ، وانظر الصحاح ٨٣٢/٢ ، واللسان (نمر) .

هنا ، فجعله على المعنى ، فقال : يباظن النعر .

ومن هذا أيضاً وصفه بجملة إنشائية - إن صح له هذا البيت (١) :

تجافوا بيمدني نعل رأيت الذئب قط

والجملة التي تقع نعتاً ، شرطها أن تكون خبرية ، ولهذا جعلوا جملة « هل رأيت الذئب قط » الاستفهامية ، نعتاً لـ « مدق » على تقدير القول ، أي جاءوا بمدق يقول من رآه : هل رأيت الذئب قط (٢) .

وهذه الأمثلة وما إليها ، إن صح التأويل فيها صناعة ، فهي لا تخرج عن الضرورة الشعرية ، ولئن كان بعض قدامى النقاد يأخذون على الشعراء خروجهم على قواعد اللغة (٣) ، فهذا حكم لا يمكن أن يجري على العجاج ، ذلك لأن مبدأه في التصرف اللغوي ، جعله يتساهل في بعض الروابط النحوية ، فيخرج عن قواعدها المألوفة ، وبذلك ترك النجاة في خلاف واسع حول مشكلاتها .

والاشكال في رجز العجاج قد لا يتأتى عن مخالفته بعض قواعد اللغة ، ولئن لاحظناه أساليب الحذف ، أو الجمل على المعنى ، أو القلب المعنوي ، أو التصرف في الضائر ، أو التصرف في الجموع ، وهذا مايجوز إلى تأويل البيت أو الخلاف بين النجاة أحياناً .

(١) ملحقات الديوان ٦/٤٦ .

(٢) انظر الانصاف ١١٥/١ ، ووضح المسالك ٨/٣ ، والمغني ١٩٩/١ ، وشرح شواهد المغني ٢١٤ ، والكشاف ٣٧٣/١ ، والخزانة ٩٣/٢ - ٩٦ ، ٣٦/٣ ، وخزانة بولاق ٤٨٢/٢ ، ٢٩٥/٤ ، والقاصد النحوية ٦١/٤ .

(٣) انظر ذم الخطأ في الشعر لابن فارس ٣٠ - ٣١ ، والموازنة ٢٧ ، واعلام الكلام ٢٧ - ٣٨ .

ومن أمثلة الحذف قوله (١) :

تحت الذي اختار له الله الشجر

يريد « من الشجر » ، فحذف حرف الجر (٢) .

ومن هذا أيضاً حذفه الفاعل من فعلين متتاليين دون قرينة واضحة ، في قوله (٣) :

واستعرت سموق الضراب واستعرت منه همادي إذا حررت وحر

وقال الأصمعي في شرحه : « وقوله (حررت وحر) ، يقول : حررت المهادي وحر القتال » ، اشتد حرها واستعرت .

ومن هذا أيضاً حذفه الصلة في قوله (٤) :

بعد اللثي واللثي والشي إذا علتها أنفس تردت

فقد أشد سيوبه البيت الأول شاهداً على حذف صلة التي (٥) ، وعلت الأعم عليه بقوله : « الشاعر فيه حذف صلة التي اختصاراً لعلم السامع بما أراد ، هذا تقدير سيوبه ، وبعده :

إذا علتها أنفس تردت

وهذا يكون صلة التي ، فيما أن يكون سيوبه لم يرو هذا بعده ، ولما أن يكون قد رواه فجعله صلة للتي وحدها ، وحذف صلة اللثي فيكون الشاعر في ذلك ، وحسن حذف صلة « اللثي » لتصغيرها الدال على شاعها ،

(١) الأرجوزة ١٢/١ .

(٢) انظر مجاز القرآن ٢٢٩/١ ، وتأويل مشكل القرآن ١٧٧ ، وكتاب

الصناعتين ١٣٩ ، واللسان (خير) .

(٣) الأرجوزة ١١٢/١ - ١١٣ .

(٤) الأرجوزة ٥٣/٢٢ - ٥٤ .

(٥) كتاب سيوبه ٣٧٦/١ .

لأنهم قد بصغرتون الشيء على معنى التعظيم والتشيع^(١) .

ومن ذلك أيضاً حذف الموصوف بشكل غامض ، في قوله^(٢) :

يرمونَ حدةَ اليومِ ذي السَّجَمِ وَلِجَبَّةِ الظَّلَمِ بالثَّجَمِ
بِأَعْيُنٍ سَاهِمَةٍ وَهُمْ

فقوله « سَهْم » ليس من نعت « أعين » ، وإنما هو نعت لحذوف ،
فكانه قال : « بأعين ساهمة ولإيل سهم » . وحذف الموصوف على هذا
النحو يوقع في شيء من الغموض واللبس ، لأنه ليس من قرينة تشير إليه
في الكلام .

ومن هذا أيضاً حذف (قد) ، في قوله^(٣) :

لَمْ يَكُ يَنْشَأُ فَأَمْسَى انْشَادَا

وقال الجوهري : « أي قد أنشأ ، فجعل الماضي حالاً باضمار (قد) ،
كقوله تعالى^(٤) : « أَوْ جَاؤُكُمْ تَحْصِرْتُمْ صدورهم^(٥) » . وهذا رأى البصرين
ماعدا الأخفش ، فهم يرون أن « قد » يجب دخولها على الماضي الواقع حالاً
إما ظاهرة أو مقدرة ، وخالفهم الكوفيون والأخفش فقالوا : لا تحتاج لذلك
لكثرة وقوعه حالاً دون « قد » والأصل عدم التقدير ولاسيا في ما كثر
استعماله^(٦) .

ومن أمثلة الحذف على المعنى لاعلى اللفظ قوله^(٧) :

- (١) تحصيل عين الذهب ٣٧٦/١ ، وانظر كتاب سيبويه ١٤٠/٢ ،
والغني ١٦٦/٢ .
(٢) الأوجوزة ٥٩/٢٤ - ٦١ .
(٣) ملحقات الديوان ٤/١٧ .
(٤) سورة النساء ٨٩/٤ .
(٥) الصحاح ٤٢٩/١ .
(٦) انظر معني اللبيب ١٤٩/١ .
(٧) ملحقات الديوان ٦/٢٥ .

- ٤٦٤ -

ينعَيْنَ في تَجْدٍ وَغَوْرًا غَاثِرَا

فقد نصب « غَوْرًا » حملا على موضع « تَجْدٍ » ، لأن معنى
« ينهبون في نجد » و « يسكنن نجدا » واحد ، فكانه قال : يسكنن
نجداً وغوراً غائرا^(١) .

ومن هذا أيضاً قوله^(٢) :

كَشَحًا طَوَى مِنْ بَلَدٍ مُخْتَارَا مِنْ بَأْسَةِ الْيَائِسِ أَوْ حَذَارَا
فقد نصب « حَذَارَا » حملا على موضع « بَأْسَةِ » ، لأن قوله « طوى
كشحا من بأسِ اليائس » يعني « طواه بأسِ اليائس » ، فكانه قال :
طوى كشحا بأسِ اليائس أَوْ حَذَارَا^(٣) . والمفعول لأجله يجوز جره بحرف
جرّ دال على التعليل ولو استوفى شروط النصب .

ومن أمثلة القلب المعنوي قوله^(٤) :

مَحْمَلَيْنِ فِي الْأَرْثَمَاتِ النَّشْرُ

والأرثمات : تجميع الأزيمة ، والأزيمة جمع زَمَام . وقال الأصمعي
في شرحه : « وقوله (في الأرثمات النخر) ، والنخرة : نخرة الأنف ،
وهي طرف الأنف ، فجعل الأزيمة فيها » ، ثم قال : « يقول : فهم معلقون
في الأرثمات النخر ، جعلوا أزيمة الإبل في منازعها وسافروا » ، وهذا يعني
أن في البيت قلباً معنوياً ، لأنه أراد : تحتلن الأزيمة في الأنوف ، لأن

- (١) تحصيل عين الذهب ٤٩/١ ، وانظر كتاب سيبويه ٤٩/١ ،
والخصائص ٤٢٢/٢ ، وشرح شذور الذهب ٣٢٢ .
(٢) الأوجوزة ٣/٣٤ - ٤ .
(٣) انظر كتاب سيبويه ٣٣/١ - ٣٥ ، وتحصيل عين الذهب ٣٥/١ ،
والانصاف ٣٢٢/١ .
(٤) الأوجوزة ٨٢/١ .

الصباح - ٣٠

- ٤٦٥ -

الأَنُوف هي التي تحمل الأَوزمة ، وقد خُتمن « حجابين » معنى « واضعين » ،
ولذلك عداها بـ « في » .

ومن هذا أيضاً قوله ^(١) :

نَعَصَا بِكُلِّ شَيْءٍ يَخْفَى مُمْطَرِدِ الْقَدِّ رُفَاقِ الرُّؤُوفِ
يَشْفَى بِأَمِّ الرُّؤُسِ وَالْمُطَرِّقِ

وقال الأصمعي في شرحه : « ومطرد : يعني السيف ، إذا هزّ انطرد
هزّه ، لا يهزّ بعض دون بعض ، وأمّ الرأس : جلدة رقيقة على الدماغ .
والمطروق : العنق ، وإلّا أراد موضع الطوق ، وذا مقلوب ، والمعنى أن
الرأس والعنق يشقيان بالسيف » .

ومن هذا قوله أيضاً ^(٢) :

وَحَابَسَ النَّاسُ الْأُمُورَ الْحَبَسَا

وأَنشد المزياني برواية قوية السند : « وَحَبَسَ النَّاسُ » ، فقال :
« أَخْبَرَنِي الصَّوْلِي قَالَ حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ قَالَ
سَمِعْتُ يونسَ ، يَقُولُ : كَانَ رُوَيْبَةُ عِنْدِي ، فَقَالَ رَجُلٌ مَامَعْنِي قَوْلَ الْعَجَّاجِ :

وَحَبَسَ النَّاسُ الْأُمُورَ الْحَبَسَا

فَقَالَ لَهُ رُوَيْبَةُ : فَلَسَبَّ وَبَكَ ^(٣) » .

ومن هذا أيضاً قوله ^(٤) :

فَلَنْ يَكُنْ نَاهِي الصَّبَا مِنْ سَنِي

(١) الأرجوزة ١٤/١٠ - ١٦ .

(٢) الأرجوزة ٦٤/١١ .

(٣) الموضح ٢١٨ - ٢١٩ .

(٤) الأرجوزة ١٧/١٦ .

وقال الأصمعي في شرحه : « قوله (فَلَنْ يَكُنْ نَاهِي) » ، يقول :
« كَفَّ سَنِي مِنَ الصَّبَا » . ومن الواضح أن الأصمعي يشير إلى ما فيه من قلب
معنوي ، لأن تقدّم السنّ هو الذي يكفّ من الصبا والشباب .

ومن أمثلة التصرف في الضمائر قوله ^(١) :

غَرَاهُ مِسْقَابٌ لِقَحْلٍ سَرَطَمٍ قِرَاسِيَاتٍ شَأْنُهُنَّ ضَيْغَمٍ
مُسْتَهْبَرَاتٍ الْأَشْدَاقِ غَضَبٍ ضَمَضَمٍ

والقِرَاسِيَات : الضخام الهام . والشؤون : قبائل الرأس ، وهي أربع ،
كلّ قبيلة شأن . وقوله « قِرَاسِيَاتٍ شَأْنُهُنَّ » ، أراد « قِرَاسِيَاتٍ شُؤُونُهُنَّ » ،
فجعل الشأن بمعنى الجنس لاجتماع المفرد ، ثم ردّ ضمير « شَأْنُهُنَّ » إلى « غَرَاهُ »
و « فعل » ، فنعته بضخامة الرأس ، ثم عاد إلى نعت الفصل بمفرده ،
فقال : « ضَيْغَمٌ .. منهوت » ، وبذلك تصرف بضمائر البيت حسب حاجته ،
فأداة يردها إلى الجمع وطوراً إلى المفرد ، وهذا يوقع في إيهام وغموض ،
ويجوج إلى دقة ودوية في التأويل .

ومن هذا أيضاً قوله في وصف الأتافي ^(٢) :

كِرَافِمٌ لَوْ تَسَرَّافِمٌ الْأَنْفِيهِ كَدَّافِمٌ أَوْ تَرَامِمٌ الْحَرِيهِ
طَلَسَ الرَّمَادِ اسْتَرْفِمٌ الطَّلَسِيهِ

شبه تَعَطَّفَ الأتافي على الرماد بالإبل تَعَطَّفَ على البرّ . وقد
سبق القول إلى أن « الْأَنْفِيَّ » هنا أصله « الْأَثْفِيَّة » فأسقط العجاج الناء
للحاجة ، وقد عامل الأثفية بالتأنيث على حقيقة معناها فقال « لَوْ تَرَامِمٌ » ،

(١) الأرجوزة ٢٤/١١٠ - ١١٢ .

(٢) الأرجوزة ١٤/٢٥ - ١٦ .

ثم عاملها بالتذكير على معنى الحبر فقال « كذّانه » فردّ إليها ضمير الغائب بدلاً من ضمير غائبة مفردة ، ولا شك أن هذا يحتاج إلى أداة وتجرّ حتى يُفهم المعنى بدقة ، ولا سيما أنه لا ضرورة في البيت ، إذ يمكن أن يقول « كذّانها » ، ولكن منعه في الأغراب جعله يتبع كل وسيلة تؤدي به إلى هذا الغرض الذي أرادته لرجزه .

ومن أمثلة التصرف في الجموع ، قوله في وصف الصياد^(١) :
 ذِي نَبْعَةٍ صَفَرَاءَ ذَاتِ أَرْسَلٍ وَسُلَيْمَاتٍ ذِي بَاتِ الْأَنْصَلِ
 وَالسَّلَاجِمِ : السهم الطويل العريض ، وتجمعهُ سَلَاجِمُ^(٢) ، إلّا أن العجاج خرج على ما لوف جمعه في اللغة ، فجمعه جمع سلامة المؤنث .
 ومن هذا أيضاً قوله في وصف كلاب الصيد^(٣) :
 وَشَتْنٌ فِي الْغُبَارِ كَالْأَخْطَاطِ

أراد أن الكلاب دخلن في الغبار كاتهن خطوط ، وقال ابن منظور : « الخطط الطريقة المستقيمة في الشيء ، والجمع خطوط ، وقد جمعه العجاج على أخطاط فقال : (البيت)^(٤) » : وهذا يشير إلى تفرّد العجاج في هذا الجمع ، ولعله من تصرفاته في اللغة ، وقد يكون هو السبب لادخال هذا الجمع إلى بعض المعاجم ، إذ قال صاحب القاموس : « الخطط الطريقة المستقيمة في الشيء أو الطريق الخفيف في السهل جمع خطوط وأخطاط^(٥) » .
 ومن هذا قوله في وصف القرّقور ، وهو السفينة^(٦) :

- (١) الأرجوزة ٢٧/١٥ — ٢٨ .
 (٢) انظر اللسان ، والقاموس (سلجم) .
 (٣) الأرجوزة ٤٥/٢٠ .
 (٤) اللسان (خطط) .
 (٥) القاموس المحيط (خطط) .
 (٦) الأرجوزة ٧٦/٢٥ .

— ٤٦٨ —

ورفع من جلاله الداري^(١)
 وأراد بـ « جلاله » جمع البعل وهو الشراع ، والبعل بمعنى الشراع
 إلّا يجمع على بعلول وأجبال ، إلّا أن العجاج جمعه على « جلال » جمع
 البعل الذي يلبس للدابة لتسان به ، وهذا يجمع على جلال وأجبال^(٢) .
 ومن هذا أيضاً قوله^(٣) :

إِذَا أَنَا قَيْنَانُ أَنَاغِي الْكُعْبَابِ
 وَالكَاعِبُ : الجارية إذا نهت تدنّيتها ، والجمع كواعب وكعاب^(٤) ،
 وهو القياس لأنها صفة للمؤنث على وزن « فاعل » ، ولكن العجاج جمعها
 جمعاً قياسياً آخر على كعب ، مثل صائم ومصوم ، وراكب وركع ،
 ولم ينظر إلى صفة التأنيث فيها .
 ومن هذا أيضاً قوله^(٥) :

مِنْ مَنَزَلَاتٍ أَصْبَحَتْ دَعَايَا
 ودعوات كل شيء : مفعولته ، والدعوات : الحوض المهدّم ، والجمع
 دعائير . وقال ابن منظور بعد البيت : « أراد دعائيراً فحذف للضرورة^(٦) » .
 فهذا الأسلوب من الحذف أو الحذف على المعنى أو القلب المعنوي أو
 التصرف في الضمائر أو الجمل ، كان له أن زاد من الإشكال النحوي في
 رجز العجاج ، ودعا إلى شيء من التأويل والغموض أحياناً ، وبذلك كانت
 العجاج لا يخرج على القواعد النحوية المألوفة فقط ، ولئلا يلبأ إلى بعض الأساليب
 الأخرى ، لئلا يبا يحقق له نوعاً من الإغراب لا يفت عند الألفاظ أو

- (١) انظر اللسان ، والقاموس (جلال) .
 (٢) ملحقات الديوان ١٢/٢ .
 (٣) انظر اللسان ، والقاموس (كعب) .
 (٤) ملحقات الديوان ١/٢٥ .
 (٥) اللسان (دعتير) .

— ٤٦٩ —

أبنتها ، ولذا يتجاوز ذلك إلى أساليب العبارة وما فيها من روابط نحوية خاصة .

ومع مواضع من رجزه قد أثارت إشكالات وخلافات بين النحاة ، لا لأنها خرجت على قواعد اللغة ، أو اعتمدت على أساليب الحذف أو الحذف على المعنى أو ما إلى ذلك ، ولذا لأنها فهّمت بوجود متباينة ، ومن ذلك مثلاً قوله ^(١) :

في بئر لاجور سري وما شعر

فاكثر علماء اللغة والنحو جعلوا « لا » زائدة في البيت ، وذلك لأنهم ذهبوا بكلمة « حور » إلى نقصان أو الهلاك ، فأصبح المعنى لديهم : في نقصان أو هلاك سري الحاروي وما شعر ^(٢) ، وخالف الفراء وابن الأعرابي ذلك ، فذهب الفراء « إلى أن (لا) في البيت نافية وليست بزيادة ، لأن المعنى في بئر ماء لا يغير عليه شيئاً ، كأنك قلت إلى غير رشد توجه وما دى ، ووقع على مالا يتبين فيه عمله ، فهو جسد محض ^(٣) » ، وقال ابن الأعرابي : « أراد : حور ، أي بئر « لاجور » ، لاجور ، قال : فأسكنت الأولى وحذفت لسكونها وسكون الثانية بعدها ^(٤) » .

فخلافهم حول زيادة « لا » أو عدم زيادتها ، إنما نشأ بسبب خلافهم حول المعنى المراد من كلمة « حور » في البيت ، فلها من الوجوه ما يؤيد

(١) الأرجوزة ٤٠/١ .

(٢) انظر شرح الأصمعي للبيت ، ومجاز القرآن ٢٥/١ ، وجمهرة اللغة ١٤٦/٢ ، وتاويل مشكل القرآن ١٩١ ، والوساطة ٣٥٨ ، والمفصل ٣١٢ ، والصحاح ٦٣٩/٢ ، ٦٣٩/٦ ، والمجمل ٢٤٠/١ ، والصحاح ١٣٨ ، وشرح التبيين ١٥٢/٢ .

(٣) خزائن بولاق ٤٩٠/٤ ، وانظر طبعة السلفية ٣٨/٤ - ٣٩ .

(٤) الخصائص ٤٧٧/٢ ، وانظر مجمع الأمثال ١٩٥/١ ، واللسان (حور) .

زيادة « لا » ، ولها من الوجوه أيضاً ما يؤيد عدم الزيادة .

وقريب من هذا ما يجده من خلاف حول قوله ^(١) :

فأج طواه الأئين طيّا وتجنفاً طيّا الليالي زلفاً فزلفاً
سماوة الهلال تحنى الحفوف

فقد ذكر الرماني أن نصب « سماوة » فيه وجهان ، وأسند الوجه الأول لسيبويه ، فقال : « أما سيبويه فإنه ينصب بفعل دلّ عليه الكلام ، وهو أنه لما قال : (فأج طواه الأئين) ، دلّ على (أخيره) ، فكأنه قال : أضمره حتى صار مثل سماوة الهلال ^(٢) » .

ثم أسند الوجه الثاني للمازني ، فقال : « وقال أبو عثان المازني : ينتصب سماوة الهلال لأنه عندي مفعول . قال : لأن المعنى طواه الأئين طيّا الليالي ^(٣) » ، فنصب سماوة بهذا الظاهر الذي في البيت ، كما تقول : ضربت زيداً ضرباً . فعلى هذا يكون الطي مصدراً ، والليالي فاعله ، وسماوة الهلال مفعول ، وهو قول أبي علي والجزمي ^(٤) » .

ومن ثم جعل الرماني يدافع عن رأي سيبويه بكلام نحوي كأنه لا يدري بضروب المجاز عند العرب ، مع أن رأي المازني قد ذهب إليه أيضاً كل من المبرد ، والأعلم الشنمري ^(٥) .

وليس يعني أن نقاض الآن بين آراء النحاة ، ولذا حسبنا تبيان ما ينهم من خلاف حول رجز العجاج ، وهو خلاف قد تنوعت أسبابه ،

(١) الأرجوزة ٣٨/٤٤ - ٤٠ .

(٢) توجيه اعراب أبيات ملفرة الاعراب ٢٠٩ ، وقارن بكتاب سيبويه ١٨٠/١ .

(٣) أراد : طواه الأئين طيّا الليالي سماوة الهلال . ف « سماوة » مفعول بـ « طيّا » المصدر .

(٤) توجيه الرماني ٢٠٩ ، وانظر التمام لابن جني ١٤٥ .

(٥) انظر الكامل للمبرد ١٢٠ ، وتحصيل عين الذهب للأعلم ١٨٠/١ .

فكان منها مجرد الخلاف حول فهم هذا الرجز ، وكان منها أيضاً خروج العجاج أحياناً على مألوف قواعد اللغة بما حل أكثر النشأة على البعد في التقدير ، والاختلاف في وجوه التأويل ، والمعارضة تبعاً للمذهب كل منهم في بناء القواعد النحوية في اللغة .

وما رأيناه من شذوذ نحوي في رجز العجاج ، يمكن أن نصادف له نظائر في أشعار غيره ، مما يقتضي في كتب النحو والصرف ، وإذا كنا لم نأت بأمثله لها ، فذلك لأن كل قاعدة تقريباً لا تخلو من أبيات تشذ عنها قليلاً أو كثيراً ، ولكن هذه الأبيات الشاذة لا نجد منها جمهرة صغيرة لدى شاعر بعينه كالذي نجده في رجز العجاج ، وإنما يمكن أن نجدها مجتمعة في كتاب سيبويه مثلاً ، شاهدنا لهذا الشاعر ، وآخر لذلك ، أما هذا الإصرار من العجاج على التصرف في قواعد النحو واللغة ، فهو ظاهرة واضحة في كل مأمور بنا من خصائص لغوية أو نحوية ، سواء في ذلك الإغراب في ألفاظ اللغة ، أو التصرف في أبنيتها ، أو الخروج على قواعد النحوية المألوفة ، وهذه الظاهرة تشير بوضوح إلى ما أراده العجاج من سمات لمدرسة الرجز ، تتركز حول الإغراب في ألفاظ اللغة وأبنيتها ودوابطها النحوية ، ولا نكاد نجد هذه السمات إلا في مدرسة العجاج نفسها ، ولا سيما في رجزه ورجز ولده رؤبة .

٦ - موقف أبي العلاء من الرجز

وما تقدمه كالم خلال الفصول الخامس والسادس ، أصبح جلياً أن العجاج قد عني بالجوانب اللفظية لرجزه عنانيه بالجوانب المعنوية ، وكانت عنايته اللفظية تصرف إلى شكل الأرجوزة ، وجوهاً موسيقي ، وألفاظها اللغوية ، ولعل

ابرز هذه الخصائص الملساء من تعمد وإصرار على الإغراب في اللغة ، حتى كان لهذا الإغراب في رجزه ضروب وألوان مختلفة ، تارة يغرب في معنى الكلمة ، وطوراً في استعمالها ، وحيناً في بنيتها ، ثم لا يغفل شيئاً من شوارد الأبنية أو نوادرها ، وما ذلك كله إلا لشغف الناس بما يعرض عليهم ، إذ كان بعضهم يسعى وراء الكلمة الشاردة ، وبعضهم كان يرتاح إلى هذه التفحات الصحرابية التي تحيي في نفسه ذكريات الأمل القريب .

وهذه الخصائص على تنوعها ، تجعل من الواجب أن ينظر إلى هذا الرجز من زاوية خاصة ، وألا يطرح للمقارنة بينه وبين القصيد^(١) ، إذ أن لكل منها هدفاً وغاية ربما كانت تختلف اختلافاً جوهرياً في بعض الاتجاهات ، ولهذا لا نجد مسوغاً لأبي العلاء المعري في اعتبار الرجز من « سفاسف القريض » ، وجعل منازل أصحابه في الجنة أقل ارتفاعاً من منازل غيرهم ، إذ يقول : « وير بأبيات ليس لها مسموح أبيت الجنة ، فيسأل عنها ، فيقال : هذه جنة الرجز » ، يكون فيها أغلب بني عجل ، والعجاج ، ورؤبة ، وأبو النجم ، وحديد الأرقط ، وعذافر بن أوس ، وأبو نضلة ، وكل من غفر له من الرجز ، فيقول : تبارك العزيز الوهاب ، لقد صدق الحديث المروي : « وإن الله يحب معالي الأمور وبكره سفاهة » ، وإن الرجز لمن سفاسف القريض ، فصرتم أيها النفر فقصر بكم^(٢) .

فمثل هذا الموقف من الرجز يغفل الهدف الرئيسي منه خلال القرون الهجرية الأولى ، إذ كان الرجز لا يريد مجرد التظم ونقل المعاني ، ولكنه بالإضافة إلى ذلك كان يعني بعدد من الخصائص اللفظية ، التي تجعله يتعاطف

(١) كالذي نجده عند ابن رشيقي في العمدة ١/١٢٣ - ١٢٤ .
(٢) رسالة الفجران ٢٩٧ .

مع أبناء عصره ، ويلي رغبة الخنين إلى الماضي القريب ، وما لبث الأمر أن تحول على يد رؤية ، فهدت بعض أراجيزه أشبه بعمود تنظم ألفاظ اللغة وغرائبها ، لتقدم في القرن الثاني مادة وفيرة لأبناء عصره من علماء اللغة والنحو.

وهذه الخصائص لم تستمر إلى ما بعد رؤية بن العجاج ، لأن التوافع التي أوجدتها في القرن الأول ، بدأت تخبو رويدا رويدا ، ولأن إرراجيز بدأ يتعد عن الأصالة التي عرفت مثلاً للعجاج وابنه رؤية ، وقد أدرك أبو عمرو ابن العلاء هذه الحقيقة ، فجعل وفاة رؤية (١٤٥ هـ) نهاية للمدرسة العجاج ، فقال : « ختم الشعر بنبي الرمة ، والرجز برؤية بن العجاج »^(١) .

فأبو عمرو لم ينظر إلى رجز من جاء بعد رؤية ، لأن هذا الرجز بدأ يختلف اختلافاً جذرياً عن مدرسة العجاج ، ولم يعد أكثر من نظم على هذا الوزن ، وقد حاول بعض أصحابه أن يقرّبه من هذه المدرسة بشيء مسن الغريب أحياناً ، وبعض منهم لم يفلح إلى هذا مطلقاً ، ولذا كان يكفيه أن يرسل أبياته على شكل أشطار من الرجز أو ما يقاربه ، فكان ذلك كله أبعد ما يكون عن الخصائص التي أرادها العجاج للرجز ، وبكفي أن نقارن أبياتاً من أرجوزة بشار الدالية المشهورة^(٢) ، أو أبياتاً من الرجز لأبي نواس^(٣) ، أو أبي تمام^(٤) ، أو ابن المعتز^(٥) ، أو ابن الرومي^(٦) ، أو المتني^(٧) .

- (١) المعمد ٥٦/١ ، والمزهر ٤٨٤/٢ ، والمقاصد النحوية ٢٦/١ .
- (٢) ديوان بشار بن برد ٢١٨/٢ - ٢٤٢ .
- (٣) انظر باب الطرد في ديوانه ٦٢٥ - ٦٧٢ ، وانظر بعض أراجيزه في نقد الشعر ٨٣ ، والوازنة ٧٩ ، ومجموعة الماني ٢٠٢ - ٢٠٥ .
- (٤) انظر كتاب الصناعتين ٢٣ ، ومجموعة الماني ١٨٦ .
- (٥) انظر نثر الأزهري ٦٩ .
- (٦) انظر زهر الآداب ١/٢ - ١٠ ، وكتاب الأوزار ٨٥ .
- (٧) انظر ديوانه بشرح الواحدي ٢٠١/١ .

— ٤٧٤ —

فالعجاج قد بن الرجز بخصائص معنوية ولفظية خاصة . وأسهم معه في ذلك بعض معاصريه من أمثال أبي النجم ورؤية ، وكان لهذه الخصائص أن تنهي بوقاة رؤية ، لأن تلك الأراجيز التي كثرت من بعده ، لم يكن لها من الرجز إلا "الوزن والشكل فحسب" ، ولعلها هي المسؤولة عما آل إليه الرجز من ضعة فيما بعد ، ولا سيما حين تحول إلى ما عرف بالمزدوج ، فعاد شعراً لا روح فيه ولا حياة^(٨) ، وخاصة بعد أن غدا وسيلة لنظم التاريخ أو ما صعب من العلوم^(٩) .

وهذا كله يمكن أن يدرس في بحث خاص بتاريخ الرجز ، ولا مجال هنا إلى بحثه واستقصائه ، والذي يهمنا أن أبا العلاء المعري لم ينصف هذه الطبقة من الرجز ، ولو نظر إلى مدرسة الرجز التي انتهت بوقاة رؤية ، وما فيها من خصائص تفرد بها عن سائر الشعراء ، وتتميز بها عن أراجيز ما بعد القرن الهجري الثاني ، لكانت منازلها لا تقل عن منازل أهل الجنة في رسالة الغفران .

- (١) انظر بعض المزدوجات لابن المعتز في كتاب اللطائف والظرائف للشعالبي ٨٢ ، ومزدوجة لآبي فراس في بنية الدهر ٥٨/١ - ٦١ ، وشمسة مزدوجات كثيرة متناثرة في هذا الكتاب .
- (٢) من أمثلة ذلك مزدوجات إبان اللاحي في التاريخ أو في ترجمة كلية ودمنة ، انظر الأوزار للصولي ٤٦ - ٥٢ ، ومزدوجة حمدان بن إبان في وصف الحب وأهله ، انظر الأوزار ٥٧ - ٦٢ ، ومزدوجات البهاء العاملي في الواعظ ، انظر الكنز ٢٨ ، و٧١ . ومزدوجات المتون مشهورة كثيرة ، وأشهرها مزدوجة ابن مالك في النحو المعروفة بالآلفية ، وله مزدوجة أخرى تعرف باسم « الأعلام بمثلث الكلام » ، نظم فيها مثلث الكلام في العربية .

— ٤٧٥ —

خاتمة

أردت هذه الدراسة لتكون مآكة تُعرفنا العجاج ، حياته ودوانه وخصائص رجزه ، وبما أن العجاج قد تأثر بواقعه ، وغدت بعض الجوانب من حياته أو أدبه ، لا تفهم إلا من خلال ما عاصره من أحداث سياسية أو ظواهر اجتماعية أو اتجاهات فكرية ، فذلك كان لابد من تمهيد حول الإطار السياسي والاجتماعي والفكري لعصره ، فبدأنا الحديث عن المشكلات السياسية التي عاصرها وامتدت منذ حروب الردة بوجه خاص حتى أواخر القرن الهجري الأول ، ثم تحدثنا عن الظواهر الاجتماعية المختلفة ، التي برزت لعصره وأثرت في رجزه أو في أشعار معاصريه ، ومن ثم تحدثنا عن الاتجاهات الفكرية والعقلية وما أثرت به في أشعار تلك الفترة ، ولاسيما تلك الفرق المتباينة كالجبورية والقدرية والمرجئة وبادر فرقة المعتزلة .

ولما تسم لنا رسم هذه الاتجاهات المختلفة ، التي أثرت في شخصية العجاج أو في أدبه ، كان لنا أن نبدأ الحديث عن العجاج نفسه ، فطارت الفصل الأول خاصاً بدراسة حياته ، وبدأناه بالحديث عن نسبه وعشيرته ، فرائضه ينتمي إلى بني سعد من قديم ، وهي قبيلة عرفت بقول الرجز ، وإذا كنا لم نظفر بأخبار مفصلة حول أسرته ، فقد أمكن التعرف بعدد من أفرادها ولاسيما بعض أولاده وأحفاده ، وكان منهم من حمل لواء الرجز من بعده أمثال ولده رؤبة ، وحفيده عقبه بن رؤبة .

ثم انتقل بنا الحديث إلى نشأته وعمره ورحلاته ، فرائضه من المعمرين ،

لأن ولد في الجاهلية ، وتوفي أيام الوليد بن عبد الملك ، وخلافة الوليد امتدت بين (٨٦ - ٥٩٦) ، ورجحنا أنه لم يبق حتى خلافة سليمان ، ولكن هذا الترجيح يحتاج إلى مناقشة أخرى في الطبعة القادمة لهذا الكتاب إن شاء الله ، ذلك لأننا تنبها إلى بيت كان قد سقط من الأصول حين إعداد هذه الدراسة ، وهو البيت (١٤٤) من الأرجوزة (١٧) ، وفيه يقول : « إلى سليمان العَقُولِ المَعْقِلِ » ، وهذا قد يرجع أنه بقي إلى أوائل خلافة سليمان ، لأن ثبت أنه يريد سليمان بن عبد الملك بالذات ، ولكنه مع ذلك لا يؤيد أن يكون العجاج قد ارتحل إليه وهو خليفة كما زعم بعض الأخبار التي وقفنا عندها ، لأنه على الأرجح كان قد كبر وأقنع في هذه الفترة من حياته . وفي حديثنا عن نشأة العجاج ، رأينا أنه نشأ في حاضرة اليمامة ، وبها كانت إقامته أيضاً ، ولكنه جعل يتردد بينها وبين البصرة ، ويرتحل ثلثة إلى الشام ، وطوراً إلى الحجاز ، وبذلك تأثر بالجوانب المختلفة في بيئته وعصره ، وكانت الصلة وثيقة بينه وبين من عاصروهم من خلفاء وأمرأه أو شعراء ورجاز ، ولا سيما أنه قد أسهم في حياة المربد الأدبية ، ولكن على نحو يتلأم مع طبعه وأخلاقه .

ثم وقفنا عند عقيدة العجاج ، لنناقش الأب لويس شيخو ، حول رأيه في سلك العجاج بين شعراء النصارية ، فلم نجد من راجزنا إلا تقياً ورعاً ، قد تعمق الايمان الإسلامي في نفسه ، حتى كان له أثر واضح في بناء شخصيته وأخلاقه ومعانيه وأساليبه .

ثم عملنا على تحديد شيء من معالم شخصية العجاج ، فرائضه رجلاً أعرابياً قد تبدت أعرابيته في ألفاظه ومعانيه ، ولئن تحدث أحياناً عن شيء من لمر الشباب ، فهو لا يصرح بالجنون السافر ، ولا يقص أخباراً مع هذه أو تلك ،

وما ذلك إلا لأن الجانب الديني كان هو الغالب على أخلاقه ، ولهذا طبعت أخلاقه على الخير ، وابتعدت عن الشر أو الإفساد بين الناس ، وكان ثمة عناصر متعددة قد تضافرت لتكوين الإطار العام لشخصيته ، منها بيته وأسرته وعشيرته ، ومنها رحلاته إلى بعض أنحاء الجزيرة وإلى الشام والعراق ، ومنها الحياة الاجتماعية والسياسة التي عاصرها ، ولكن الحضارة الجديدة في العراق والشام والحجاز ، لم تُغيّر كثيراً من ثقافته الأعرابية ، ولهذا ربما أخطأ التعبير أحياناً عن بعض مظاهر هذه الحضارة ، التي لا تمت بصلة إلى حياة الأعراب ، ومن هنا كانت ثقافته شديدة الصلة بالصحراء ، منها يستمد فصاحته لتكون مضرب الأمثال ، ومنها يستمد معارفه بأمورها وأحوالها وما تقتضيه الحياة فيها ، ولكن هذه الثقافة الأعرابية قد تأثرت إلى حد ما بما عاصرها من تيارات سياسية أو فكرية أو دينية .

وبعد أن رسمنا هذه الصورة للعجاج ، حاولنا أن ننقل صورة أخرى لديوانه ومصادر رجزه ، فأفردنا لذلك الفصل الثاني ، ورأينا أن الديوان قد صنعه كل من الأصمعي وأبي عمرو الشيباني ، ولكنه لم يبق لنا غير ديوانه برواية الأصمعي وشرحه ، وقد ترددت الإشادات إليه في عدد من المصادر ، وحفظ لنا ابن خنير سنداً متصلاً لروايته عن الأصمعي ، وأهم ما في هذا السند أن الديوان تروى عن أبي علي البغدادي عن أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن رؤية ابن العجاج عن أبيه العجاج ، وهذا السند يعوض مانجده من نقص في نسخة الأصل ، لأن الناسخ صرح بأنها من رواية الأصمعي ولكنه أغفل سبب روايتها عنه ، ولكن في النسخة من العبارات ما يؤكد أنها من رواية أحد تلامذة أبي حاتم السجستاني عن أبي حاتم عن الأصمعي .

ثم لاحظنا أن رجز العجاج لم يُنقل عن الأصمعي من طريق أبي حاتم

فخصب ، ولما نُقل عنه من طرق أخرى أيضاً ، منها رواية عبد الرحمن بن أنسي الأصمعي ، وأبي الفضل العباس بن الفرج الرضائي ، وأبي إسحق إبراهيم ابن مقيان الزبدي ، وقد حفظت لنا بعض رواياتهم فيها ورد من إضافات على جواشي نسخة الأصل من قبل مجهول حاول أن يقابل بين هذه النسخة وبين نسخ أخرى من رواية هؤلاء ، ولا سيما النسخة التي جاءت برواية عبد الرحمن عن عمه ، وكلت يمكن أن تضاف هذه الزيادة إلى الأصل باعتبارها منقولاً عن الأصمعي نفسه ، لولا أن هذا المقابل خلط بها بعض الجواشي من كتب اللغة ، وليس من المهيّن دائماً التمييز بين هذه وتلك .

وبعد هذا التحقيق كان لابد من دراسة موجزة للأصمعي راوية الديوان وشارحه ، فرأينا شيئاً من ملامح ثقافته وعلمه وأخلاقه ، لتكون عوناً على فهم خصائص شرحه ، وكان أبرز ما أردنا أن نصل إليه ، هو الصلة الوثيقة بينه وبين الرجز ، والثقة الكاملة التي عرفت بها روايته .

ومن ثم انتقلنا إلى الحديث عن شرح ديوان العجاج ، فأكسدتنا نسبة هذا الشرح للأصمعي ، ثم فصلنا بين العبارات التي أضافها أبو حاتم إلى شرح أستاذه وبين أصل الشرح نفسه ، وبذلك نقينا كل شك يمكن أن يساور الباحث حول نسبة هذا الشرح ، ومن هنا مضينا إلى البحث عن خصائص شرح الأصمعي ، وكان أول ما لاحظناه هو ذلك الاهتمام بالشرح اللغوي والاستطراد فيه ، واعيناه في ذلك على شواهد من القرآن والشعر القديم ، بل ربما شرح هذه الشواهد فزاد من ظاهرة الاستطراد في شرحه ، ولكنه في رجز العجاج قد لا يقف عند شرح الألفاظ فقط ، وإنما قد يشرح بعض معاني الأبيات بلهجات ، وربما عرض للكشف عما فيها من أمثال ، ولكن الأمور النحوية لا تزد في حديثه إلا نادراً ، وأسلوب الأصمعي أسلوب الرجل العالم ، فإن لم يكن على ثقة كلمة بما يقول ، مرض العبارة ، ولم يطلقها دون

حيلة أو حذر ، وعنايته باللغة ربما حملته على نقد أستاذه أبي عمرو بن العلاء في شرح بعض الألفاظ ، وربما دفعته إلى الكشف عما بين الهجات من اختلاف في بنية بعض الألفاظ أو معناها ، أو الإشارة أحياناً إلى الأصول الأعجمية إن وجدت ، وربما أتى بأحكام تتصل بالنقد أو بضرائف الشعر ، وقد يورد أخباراً موجزة تفسر المناسبة لبعض الأراجيز ، وصلة الأعجمي بالأعراب والنوادر كانت تتبدى في نقده عن أعراب البادية أو سرده للطوائف والنوادر كلها وجد إلى ذلك من سبيل ، ولم يكن ينقل الأراجيز دون وعي أو تمحيص ، ولهذا تنبه إلى ظاهرتين هامتين ، الأولى ظاهرة الانتحال في الرجز ، والثانية ظاهرة الاضطراب في نسبة بعض الأراجيز إلى العجاج وإلى غيره من الشعراء أو الرجّاز .

وانتقل بنا الحديث إلى رواية رجزه والحفاظ عليه قبل عصر التدوين في القرن المجري الثاني ، فرأينا أن أسره العجاج وقيلته كان لها النصيب الأوفى في حمل رجزه والحفاظ عليه ، ولاحظنا أن العجاج ربما كان يحسن الكتابة فدوّن بذلك شيئاً من أراجيزه ، وكان من الأدلة ما يشير إلى وجود كتاب لبني قيم ، وآخر لبني سعد ، وهذا يعني أن رجز العجاج كان مكتوباً كله أو بعضه قبل أن يصل إلى أيدي الرواة العلماء في عصر التدوين ، وقبل أن يصنفه الأعجمي ، ولا شك أن ما فيه من شواهد لا تحصى في معاني اللغة وأبنية الألفاظ وطرائق الاشتقاق وغرائب الاستعمال ، قد حملت هذه الطبقة من الرواة على الكلف به والرفع من شأنه .

ثم وقفنا عند أنواع المصادر التي عنيت بهذا الرجز ، فرتبناها حسب كثرة ما أوردته من أبياته ، فكان في مقدمتها تلك الكتب التي عنيت بجمع اللغة ، أو تناولت بالتصنيف مشكلات اللغة وظواهرها من فقه واشتقاق وغريب ونوادر

وما أشبه ذلك ، ثم تلتها كتب التفسير وما يتعل بها من كتب صُنفت في غريب القرآن أو مشكله أو مجازه ، ثم جاءت كتب النحو والصرف على اختلافها ، ثم كتب الأدب والنقد والمعاني ، ثم المصادر التي تناولت شرح بعض الدواوين أو المختارات ، أو اعتمدت بجمع الأمثال ، أو صُنفت على شكل رسائل في موضوع من الموضوعات ، أو تعرضت لطبائع الحيوان ، أو ألقت في أسماء المواضع والبلدان ، ولاحظنا أن كتب البلاغة على اختلافها لم تورد غير بيت واحد للعجاج لأنه من شواهد البلاغيين على نوع خاص من الغريب ، وفيه مصادر أخرى لم تتعرض لرجز العجاج مطلقاً أمثال كتب التاريخ والسيرة والديانات والفرق والقضاء والقدر وما إليها ، وبذلك نكون قد ساءلنا المكتبة العربية بكسل ما فيها من أنواع المصادر عن رجز العجاج ، فوجدنا أكثرها رواية له ، ثم تدوّجنا بها في ذلك ، حتى وقفنا على مصادر لم تورد منه قليلاً ولا كثيراً .

ولمّا تمّ لنا الحديث عن ديوانه ومصادر رجزه ، كان لا بد من توثيق هذا الرجز ، وتحديد ما للعجاج منه ، وما هو غريب عنه ، أو منسوب إليه وإلى غيره من الشعراء أو الرجّاز ، ولهذا كان الفصل الثالث خاصاً بتوثيق رجز العجاج ، وعملنا من خلاله على تتبع ظاهرة الانتحال في أراجيزه ، ثم الفصل إلى حدّ ما في أمر بعض الأراجيز أو القطع المنسوبة إليه وإلى غيره ، وقد لاحظنا أن الانتحال قليل في رجز العجاج لبعده نسبياً عما ضحّ في ذلك العصر من صراع حزبي أو قبلي ، ولصعوبة السير على سنّته من قبل الوُضّاع ، ولهذا لم نجد غير موضعين من رجزه أشار فيها الأعجمي إلى شيء من الانهزام أو الانتحال ، وكذلك رجحنا وجود الانتحال في بعض الرجز المضطرب بينه وبين عدد من الرجّاز ، ونذهب بنا الترجيح إلى أن بعض هذا الرجز ربما كان من صنع الرواة أو متصيدي الشواهد ، وأمّا الاضطراب في نسبة الرجز إليه وإلى غيره من الشعراء أو الرجّاز ، فكان واسعاً جداً ، وقد عملنا على مناقشته كلّ

رغم اتساعه ، وحاولنا قدر الإمكان أن نخل به إلى العجاج أو إلى غيره إن وجدنا من الأدلة ما نعتمد عليه ، وإلا وقفنا تشير إلى الاضطراب ولا نقطع برأي مادام الدليل في أيدينا قاصراً أو مفقوداً .

ولا نتم لنا توثيق أراجيز العجاج كان من السهل أن ننقل الحديث إلى موضوعات رجزه في الفصل الرابع ، وهنا وقفنا قليلاً عند موضوعات الرجز قبل العجاج ، لتكشف عن دوره في تطوير هذه الموضوعات ، فرأينا أن الرجز في الجاهلية لم يكن من طابعه أن يطول إلى أبيات متعددة ، وإنما كانت مقطعاته بسيطة الأبيات ، بسيطة الموضوعات ، وغالباً ما نجد لها في ثنايا الأخبار التي تتحدث عن وقائع القوم وأيامهم ، أو تنقل شيئاً عن الأعمال الجماعية التي كانوا يقومون بها ، وأما أراجيز العجاج فهي تتناول موضوعات القصيدة نفسها ، وربما طالت الأرجوزة فقلبت المائتين من الأبيات ، وهي تنتهج سبيل الشعراء في تعدد الموضوعات ضمن الأرجوزة الواحدة ، وكثيراً ما تنقف مواقفهم من الأطلال والبكاء عليها وتذكر أيام الشباب الحاليات ، وقد لاحظنا أن هذا الاختلاف بين العجاج وما كان عليه الرجز في الجاهلية ، لم يحدث إلا بعد أن مرت الأرجوزة بأطوار متعددة ، ورأينا أن مرحلة التطوير الأولى قد قام بها الأغلب العجلي ، إذ كان أول من أطال الرجز ونوع في أغراضه وموضوعاته وحدد له بعض الخصائص التي لم تكن له من قبل ، ومحاولة الأغلب هذه قد لقيت بعض الأصداء في الجزيرة العربية ، قبل أن يصل الأمر إلى العجاج ، إذ بدأ الرجز يطول قليلاً على ألسنة بعض الشعراء ، وجعلت أغراضه تختلف اختلافاً يسيراً عما كانت عليه ، فلما وصل الرجز إلى العجاج ، لم يقف به عند الحدود التي رسمها الأغلب ، ولم يكتف بجود إطالة الأبيات ، وإنما سار بالتطوير إلى أبعد من ذلك ، فجعل من الأرجوزة ما يشبه القصيدة تماماً في بنائها وموضوعاتها ، ثم حدد لقصيدة الرجز بعض الخصائص التي تميزها من

القصيد برجه عام .

وبعد أن رسمنا معالم التطوير الذي أدخله العجاج إلى موضوعات الرجز ، ألقينا بنظره إلى موضوعات رجزه ، فكانت متنوعة ، فيها النسيب والمديح ، والفخر والتعريض ، والوعظ والحكمة ، والوصف . ووقفنا على موضوع النسيب ، فلاحظنا أن موضع الغزل من الأرجوزة قد استمر على ما كان عليه في القصيدة التقليدية ، ولكنه لم يكن تقليدياً كله في مضمونه ومعانيه ، وإنما فيه ألوان من التنويع تبرز في معاني الأبيات وعواطفها ، فتارة تنقف على غزل تقليدي لا أثر فيه لعاطفة العجاج ، وطوراً يطالعنا غزل لا يتخلو من تباريح الهوى أو ذكريات الشباب ، وأحياناً يطل علينا غزل الحب والصابية ، والبعد والفراق ، وهنا يتمثل حب العجاج الحقيقي ، وتظهر تجربة له مع ولي ، والذي يبدو أنها فارقت ، وتزوجت من غيره ، فقوت حسرة لاتبوح ، وآلاماً لا تريم .

ووقفنا عند المديح فرأينا أن مدح الأمويين ، خلفاءهم وأمرائهم وولاتهم وقادتهم ، ومدح آل الزبير أيام غلبتهم على العراق والحجاز ، ولم يهدف في مديحه إلى التكسب دائماً ، بل كان التكسب ضامراً لا يكاد يظهر إلا في مواضع قليلة جداً ، ولا ينم عن إرفاق ماء وجه ، أو ازدهاء بأنفة أو بكرامة ، ولعل الأغراض السياسية كانت أكثر وضوحاً في مديحه من الأغراض الأخرى ، ولهذا كان يعتمد في المديح على المعاني السياسية ، والمعاني الدينية ، إلى جانب المعاني التقليدية ، وبذلك لم يغفل ما جسد في عصره من معان أو تيارات سياسية مختلفة .

ثم انتقلنا إلى موضوع الفخر ، فرأينا بعض عناصر التجديد في أرجوزة الفخر ، بما يسير حركة التطوير والتجديد لعصر بني أمية ، وقد كان فخره

يتناز ثارة بالطابع الفردي ، وثارة أخرى بالطابع القلبي ، وهو في ذلك يخضع للمؤثرات الاجتماعية الجديدة لعصره ، إذ أن تميز الفرد من القبيلة كان دافعاً قوياً إلى إبراز الجانب الفردي في رجزه ، فكان يفضي بنفسه وقوافيسه ، وبفاخر دائماً بدأبه وقطعه للمفاوز المهولة في ظلام الليل ودخوله على الملوك وقهره لحصومه وغلبته على الشعراء ، ولكن الفرد هذا العصر لم يتحلل من الارتباط الوثيق بالقبيلة رغم تميزه منها ، ذلك لأنها مازال تنتظم شطراً كبيراً من شؤون حياته ، وإليها ما يزال مردّ أمجادها وأنسائها ومفاخره ، ومن هنا كان لزاماً على العجاج أن يتجه بفضه إلى الجانب القلبي أيضاً ، فكان ثارة يخصّه ببعض الأراجيز ، وأحياناً يمزج بينه وبين الجانب الفردي ، والفخر القلبي لديه لا يخرج عن المفاخر بقرة القبيلة وأجنادها وعزتها وكثرتها ومنعتها وما إلى ذلك من المعاني التقليدية المعروفة في أشعار الجاهليين والاسلاميين .

ثم عرضنا بعد ذلك إلى موضوع الهجاء ، فرأيناه يصرّح بتخليّته عنه ترفّعاً وألفة ، ومن ثم كان للنقاد آراء مختلفة حول ذلك ، منهم من ذهب بتخليّته عن الهجاء إلى الطبع عند الشعراء ، ومنهم من ذهب إلى الترفّع والألفة ، ومهما يكن فقد لاحظنا أن العجاج لم يضرب عن الهجاء علامة ، ولم يكن طبعه ينأى به عن الهجاء جملة ، وإنما كانت هنالك أسباب تدفعه إلى عدم الأخذ بببل ذلك الهجاء الذي عُرِف لعصره ، وفيه تخرق الأعراض ، وتُقتلِف الحصنات ، ويسوده الكذب والاختلاق ، وهذه الأسباب لا تنفج عن أمرين : الأول هو أخلاق العجاج وما عُرِف به من ورع وتقوى ، والثاني أن الرجز قد ينهض للتهاجي مع رجز يمانه أحياناً ، ولكنه لا يقوى على مصارعة القصيد في هذا الميدان .

ومع ذلك فالعجاج قد تصرف في الهجاء على نحو يتفق مع طبعه وأخلاقه ، وإذا كان قد ابتعد بنفسه عن مميزات عصره ، بما فيها من جد أو هزل ،

— ٤٨٤ —

فقد وجد سبيلاً إلى التعريض ، وخاصة خلال مدائحهم لابن الزبير والأمويين ، إذ كان يجد في ثورة بعض الأحزاب أو القبائل ، ما يبرز هجاءها ، ولا سيما أن ثورتها في نظره ، ما كانت إلا "قريباً لدين الله وخروجاً على حماته ، ولهذا عمد في هجائه إلى المعاني الدينية والسياسية بوجه خاص ، واستعاض من فاحش القول بما هو أطرف فناً وأكثر ازراء ، وأشد إيلاماً ، وذلك هو أسلوب التهكم والسخرية ، وهذا الأسلوب كان شديداً الإلزام في هجائه السياسي وغير السياسي . ثم انتقل الحديث إلى موضوع الوعظ والحكمة ، فرأينا موضوع الوعظ قد تأثر بعقيدته وشخصيته ، وكان الوعظ والشعر الديني يتفرّد أحياناً ببعض الأراجيز ، وأحياناً أخرى كان يرد ضمن موضوعاته المختلفة ، فيأتي في مقدمة الأرجوزة أو أثنائها أو خاتمتها ، وفي الخاتمة كان العجاج يعتمد على معاني القرآن وأسلوبه ، حتى رأيناه في بعض الأحيان ينقل نقلاً شبه حرفي عن آيات الكتاب المبين ، فإن خرج عن هذا النقل الحرفي ، جاء بهجان دينية عامة ، وربما لجأ إلى أسلوب المناجاة أو الدعاء ، أو إلى بعض القصص الدينية ، كالذي أورده من قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

ولا مربة أن الحكمة لها صلة وثيقة بالشعر الديني ، ولكنها قليلة نسبياً في رجز العجاج ، وهي على قلتها تمتاز بالعمق والتأثير والحليوية ، لأنها من نتاج ما انعكس في نفسه من أحداث سياسية واجتماعية خطيرة ، وما كان له من تجارب في أدوار حياته ، وما تأصل في نفسه من ثقافة بدوية أو اسلامية ، وربما جاءت الحكمة في بداية الأرجوزة ضمن المقدمة التقليدية ، دون أن تحل محل هذه المقدمة كالذي تمّ على أيدي بعض شعراء بني العباس ، إلا أن تقرب الحكمة من المقدمات والمطالع فيه شيء من التطوير لا ينكر للعجاج ، وقد ترد الحكمة في أضعاف الأرجوزة على ستة غلبه من الشعراء ، وكثيراً ما تراقت أحاديثه عما بلغه من المرم والضعف والكبر .

— ٤٨٥ —

ثم وقفنا طويلاً عند موضوع الوصف ، فربأناه أوسع الموضوعات جميعاً في رجز العجاج ، حتى كانت بعض الأراجيز على طولها ، ليس لها أي هدف غير وصف مشاهد الصحراء ، وما فيها من نبات وحيوان ، وما يتم على رملها من طراد لعير أو تور وحشي ، وليس من دافع إلى هذا الوصف الرائع المطول إلا حب الصحراء ، وتألفه معها ، وجرحه على نقل صور لمشاهدنا .

ولهذا كانت موضوعات الوصف عند العجاج لا تنف على جانب من الطبيعة دون آخر فقد صور الطبيعة بعناصرها المتحركة ، وعناصرها الصامتة ، وجاء بصور موضوعية ، كانت تراها عينه ، ونحس بها أذنه ، وأنى بصور ذاتية ، مثل فيها مشاعر النفس الانسانية ، او مال من خلالها إلى تجسيم هذه المشاعر في تصوير الحيوان أو الطبيعة .

وامتازت صوره الموضوعية بلوحات رائعة ، ولا سيما حياة الصحراء وما فيها من طبيعة وحيوان ، وهو لا يتجه إلى الصورة بعينه فحسب ، وإنما يتجه إليها بسمعته وكل حواسه ، ومن هنا كانت الصورة الفنية لديه تمتاز بالتنوع والكلف بالألوان والخطوط والأصوات على حد سواء ، ثم إبراز العناصر التي يمكن لها أن توحى عادة بسائر أركان الصورة أو المشهد ، ولا ينسى أن يعنى بتحديد الإطار المكاني والزمني للصورة ، ثم التدقيق بما فيها من ألوان وجزئيات موحية تبعاً لذلك ، ولا يبقى الصورة بلا روح أو حياة ، وإنما يبعث فيها الدفء والحركة ، لتكون صورة واقعية لا تنتاب فيها عين أو خيال ، ولهذا كان لا يترك وسيلة تدعو إلى الواقعية إلا اعتمد عليها في صورته ، ولذلك رأيناه يعتمد على الحوار في رسم صوره أحياناً ، بل ربما جعل الحوار بين الإنسان والحيوان ، على نحو ما صورته من حوار بين الصياد والكلاب ليكشف عما يجول في نفسه من فرم إلى الشراء ، وهذه الواقعية

دفعته أيضاً إلى ذكر أسماء فاته أو يعبره أو أسماء كلاب الصياد خلال تصويره لها ، لأن ذلك أدعى إلى تقرب الصورة من الواقع ، وبعضها حية أمام العين أو الخيال ، وهو في ذلك كله لا يرسل الصورة دون دقة أو استقصاء ، وإنما يندقق دائماً في عناصرها ويختار لها من الدقائق الفنية والجزئيات الموحية ما يجعلها في غاية الجمال والإتقان الفني ، وربما عمد إلى شيء من المفارقات الفنية ، وذلك لزيادة الصورة وضوحاً وإشراقاً .

وأما وسائله في رسم الصورة نفسها ، فكان جل اعتماده فيها على معاني الألفاظ وإيجائها ، دون الاعتماد الكلي على التشبيه أو الاستعارة ، إذ أن دور التشبيه لديه لا يعدو أن يكون وسيلة لانتقال الوصف من موضوع إلى موضوع آخر ، وربما وردت منه بعض الصور القليلة لتكون حلية وزينة بالنسبة إلى الصور الأخرى ، وفي هذا طور هام في التصوير الفني ، لأن الشاعر بحاجة إلى مقدرة فنية واسعة ، حتى يمكن له التخلي عن الاعتماد الكلي على التشبيه في صوره ، ذلك لأن تتبع الجزئيات ورسمها بدقة واستقصاء مع تحديد لأركانها من زمان ومكان وألوان وما إلى ذلك ، يحتاج إلى مهارة فنية ، لا بدعو إليها التشبيه في أكثر الأحيان ، وقد تكون الاستعارة طوراً متأخراً عن التشبيه ، لا فيها من إيجاز لبعض تفصيلاته ، وتخفف من بعض أركانها ، وهي لاتعدو أن تكون وصفاً بعمان مجازية للألفاظ ، ولهذا كانت أقرب ما تكون إلى التصوير بمعاني الألفاظ وإيجائها ، ومن هنا كان للاستعارة سلطان أوسع من التشبيه في رجز العجاج .

ولا شك أن الحديث عن موضوع الوصف كان أدخل ما يكون في الخصائص الفنية لرجز العجاج ، ولكنه باعتبار موضوعات الرجز كان لابد أن يُسلك في الفصل الخاص بالموضوعات لأن الخصائص الفنية لها سمات أخرى متعددة

الجواب ، ولهذا كان الفصل الخامس مجالاً لدراستها واستقصائها .

وفي هذا الفصل قمنا بدراسة الخصائص المعنوية في رجزه ثم الخصائص اللفظية ، وكان أول ما استوقفنا في معانيه هو الترتيب بين الوضوح والغموض ، فتارة تبرز المعاني واضحة لاغموض فيها مطلقاً ، وهذا قليل نسبياً في رجزه ، وطوراً تبدو جلية لايشوبها إلا بعض الألفاظ الغريبة ، وهذا ماضافه بكثرة في أراجيزه ، وأحياناً تظهر المعاني غامضة لأسباب كثيرة ، منها استعماله ألفاظاً غير معروفة أصلاً ، أو ألفاظاً تحتل أكثر من وجه واحد في المعنى ، أو لاعتمادها على القلب المعنوي ، أو لأساليبه في بناء التراكيب بناء يكثر فيه الحذف أو التقديم والتأخير ، أو لتصرفه بالألفاظ إذ يخرج على بنيتها في اللغة ، ويأتي بها في صيغ لم تسمع إلا في رجزه ، ومن الصعوبة أن يظن المرء أحياناً إلى أصولها في اللغة . وهذه الأسباب وما إليها كانت تبعث غالباً على الغموض في معاني أبياته ، ومنها ما أتى الأصمعي بشرح أو تقدير له ، ومنها ما تخلى عنه دون أن يدلي برأيه فيه .

ثم لاحظنا أن رجز العجاج لا يتخلو من صنعة وتثقيف ، إلا أن الصنعة لعصر العجاج كانت شبه امتداد لما كانت عليه في عصر ما قبل الإسلام ، ولم يتجه إلى غير العناية بالألفاظ فصاحة وجزالة ، والعناية بالمعاني بسطاً وإبرازاً ، مع إلتفات لبنية الشعر وإحكام قوافيه ، ولهذا كانت المعاني في رجز العجاج لا تخلو من التجويد أو التجبير ، رغم أن الطبع كان من الخصائص البارزة في رجزه ، ومن ثم كانت عنايته بتخير المعاني وللتأنق فيها ، وكذلك إعجابه بالصور الحسية المادية المنزعة من البيئة التي عاشها بعينه وقليه وكل إحساسه ، ولا سيما أن هذه الصور الحسية ربما ساعدت على توضيح المعنى بالإضافة إلى وظيفتها الجمالية في التصوير .

وحرص العجاج على توضيح معانيه ، وتقريبها من الأفهام ، ولإثباتها في الأذهان ، كان دافعاً قوياً إلى الإكثار من ضرب الأمثال الحسية في معانيه ، ذلك لأن الأمثال تجعل المعنى أقرب إلى الفهم ، وأثبت في الذهن ، وأدعى إلى الأخذ به ، والاعتناء بها جاء فيه ، وربما أورد من الأمثال ما عرفت في العرب قبله ، وربما صاغ من المعاني ما يصبح أمثلاً على ألسنة الناس من بعده .

وهذا الطابع الحسي لم يكن غريباً من العجاج ، لأنه رغم انتقاله إلى بيئة البصرة ، ورحلته إلى بيئات الحجاز والشام ، فقد بقي على صلة وثيقة جداً بروح الصحراء ، ولم يستطع أن يتخلى عن تأثير البادية في طبعه أو في معاني رجزه ، ولم يتمثل ما وجدته من مظاهر الحضارة الجديدة ، أو ما دق عند الفقهاء من المفاهيم حول بعض المعاني في العقيدة الإسلامية ، ولهذا كان يؤخذ عليه بعض المعاني التي تتنافى مع ثقافته البدوية أو طبعه الأعرواني ، ولكن هذه المعاني لم تكن كثيرة في رجزه ، ولا نجد منها غير أمثلة يسيرة ، لاتعدو أن تكون مجرد أعلام ودلائل تشير إلى ارتباط وثيق بينه وبين البادية .

وهذا الارتباط بالبادية كان يحمل في أضعافه بعض المعاني الجاهلية ، على ما فيها من تعارض مع الإسلام وتعاليمه ، ولهذا رأينا يستعمل أحياناً من المعاني ماله صلة بزجر الطير ، أو التشاؤم بالعطاس ، أو الاستقسام بالأزلام ، أو عادة الميسر وما يتصل بها من معاني الكرم في الجاهلية ، فهذه العادات الجاهلية بقيت لها أثر في رجز العجاج ، ولكن هذا لا يعني أن الإسلام لم يدخل شيئاً من التطوير في معانيه ، بل نجد المعاني الإسلامية تبرز بوضوح في أكثر موضوعاته ، وربما خص الشعر الديني بأراجيز مستقلة ، أو بأكثر الأبيات في بعض الأراجيز الأخرى .

وقد اعتمد العجاج في معانيه على التراث الأدبي ، فكان يأخذ منه حياً ، ويجرد فيه أحياناً ، وذلك شأن غيره من شعراء الأدب العربي القديم ، ولهذا وجدنا العجاج يستمد بعض المعاني من تقدمه من الشعراء ، إلا أنه لم ينسج على المعاني المتداولة بين الشعراء فحسب ، وإنما كان يأتي بكثير من المعاني التي لا تخلو من جدة وإبداع ، ولا سيما حين يولد المعنى بصورة تختلف عما تعارف الناس عليه من قبل ، ولهذا وجدنا كثيراً من معانيه قد انتقلت إلى أشعار معاصريه من رجاى وشعراء ، ثم امتدت إلى عصور أدبية أخرى ، فكانت تظهر في أبيات بعض الشعراء ، أو كلام بعض الفصحاء ، خلال عصر بني العباس بما يدل على شهرة هذه المعاني ، وحياء ذلك الرجز على ألسنة الناس جيلاً بعد جيل .

وأول ما لاحظناه في الخصائص اللفظية أن العجاج قد أحدث شيئاً من التطوير في شكل القصيدة ، فقد التزم المنهج التقليدي في بعض الأراجيز وأغفل هذا المنهج في بعض الأراجيز الأخرى ، فأهمل المقدمات التقليدية ، ولجأ إلى منهج جديد للقصيدة ربما كان هو الأساس الذي بنى عليه بعض الشعراء لعمد بني العباس طريقتهم في المنهج الجديد ، فبدلاً من تلك المقدمات التقليدية أصبح العجاج يبدأ بالموضوعات الدينية التي تتناسب وموضوع الأرجوزة ، وربما تغلغل عن هذا وفضل عليه اختيار المطالع القوية والدخول مباشرة إلى الموضوع .

ولم يقف العجاج عند هذا فحسب ، وإنما أسهم أيضاً في تطوير آخر بالنسبة إلى شكل القصيدة ، إذ جعلها تختص بموضوع واحد أحياناً ، فإذا كان شعراء الحجاز قد خصصوا قصائدهم للغزل ، وشعراء الخوارج قد أفردوا قصائدهم للنضال السياسي ، فكذلك وجدنا العجاج قد أسهم في هذه الظاهرة

الجديدة لعصر الأموي ، فأفرد بعض الأراجيز لأوصاف الصحراء ، وأخرى للمواظ ، وغيرها للفخر أو للغزل ، وهذا يشير إلى أن العجاج لم يكن ينسج المناهج القديمة دون التأثير بالأساليب الجديدة .

ولهذا رأينا أن يتأثر بظاهرة جديدة أخرى في الشعر الاسلامي ، وهي انتشار المقطعات القصيرة ، فوجدنا لديه عدداً من هذه المقطعات ، أفرد بعضها للحديث عن بغيره ، وخص بعضها بوصف الإبل ، أو بالحديث عن الفخر أو الغزل أو المواظ أو التعريض .

ولا شك أن الرجز لا يخلو من رتب في جرسه الموسيقي ، ولهذا حاول العجاج الانتقال من هذا الرتب إلى شيء من الحيوية ، فعمد إلى تكرار الألفاظ بكثرة داخل الأبيات لينقل شيئاً من التجارب الموسيقي بين أمواج البيت الواحد ، وربما زاد على ذلك شيئاً من التناقض في تقسيم البيت إلى أمواج موسيقية تشبه أن تكون فواصل ثابتة داخل البيت الواحد ، فنبشاً عن ذلك ترتيب رائع لا يخلو من التنوع والحيوية داخل كل بيت .

وعنايت بالجانب الموسيقي ربما حملته على شيء من الالتزام في قوافيه ، وذلك حرصاً منه على دفعة الإيقاع الموسيقي ، وانسجام الجرس من بيت لآخر ، وكان هذا الالتزام وقع مستحب لدى قدامى النقاد ، ومثل هذا الالتزام لتجويد الجانب الموسيقي في الشعر كان نغماً للمذهب الصنعة في عصره ، إذ نجد التزاماً آخر عند معاصريه من أمثال كثير ، وبذلك كانت للعصر الأموي أن وضع بواحد الأسس التي بنى عليها أبو العلاء طريقتهم في اللزوميات .

ولم يمن العجاج بشكل الأرجوزة أو الجانب الموسيقي فقط ، وإنما أراد لدروسته خصائص أخرى ، يمكن أن تدرج ضمن الخصائص اللفظية ، ولكننا أفردناها في الفصل السادس ، ليكون من السهل تبويبها وبسط شيء

من أمرها ، وهي الحاصل اللغوية والنحوية ، وكان أول ما وقفنا عنده هو الإغراب في اللغة ، فلاحظنا أن العجاج يذهب في الإغراب إلى ضروب متنوعة ، منها ما يحتاج فهمه إلى بحث وتنقيب وكشف في كتب اللغة ، ومنها ما يحتاج إلى تدقيق النظر وتخريج اللفظ على وجه بعيد لاحتماله عدة وجوه في المعنى مع أن الكلمة ليست بوحشية ، ومنها أحياناً ما هو ذو أصل أعجمي يأتي به العجاج لما فيه من طرافة وإغراب .

فالعجاج قد اتخذ من الرجز وسيلة لنقل أجواء الصحراء إلى بعض الأمصار الجديدة ، ولهذا كان لابد أن يأتي بغرائب الألفاظ يعرضها عرضاً في أبيات الرجز ، لما فيها من نفحات صحراوية بدوية ، حتى لكان أراجيزه قد تحولت إلى لوحات من الغريب في اللغة والألفاظ ، ولعل بما ثبته على هذا الانحياز ، ما كان يلقاه من اقبال الخلفاء والأمراء وسائر الناس على أراجيزه ، وتقديره في الانشاد على أمثال جرير وغيره ، لأن أراجيزه على ما يبدو ، كانت تلتقي عند حنين النفوس إلى حياتها الفطرية الأولى ، فوق رمال الصحارى في جزيرة العرب .

ومن هنا كانت أراجيز العجاج تجمع تلقائياً غرائب اللغة ونواذرها ، ونهيء منها مادة وفيرة لعصر التدوين في القرن الهجري الثاني ، فلما كان هذا العصر ونشط العلماء في تدوين متن اللغة بدقة واستقصاء ، كان رؤية بن العجاج يقدم لهم ما يطلبون ، بل ربما كان رؤية قد صنع كثيراً من رجزه ليمد حاجة علماء عصره من الغريب والنوادر ، حتى كان رجزه أشبه بجنون لغوية ، تطوي على غرائب الألفاظ والأبنية والأساليب .

والمهم أن العجاج كان يأتي بهذا الغريب عن طبع دوت تكلّف أو تعمل ، فتقع الألفاظ في مواضعها ، وتعبّر بدقة عن معانيها ، ولا تتنافر

فيها بينها ، ذلك لأنها قد عاشت في نفسه ، وأحس بها في صحرائه ، قبل أن يبرزها في معارض رجزه ، ولهذا قصر عنه من حاول أن يجاريه من معاصريه وغير معاصريه ، من أمثال الكميت والطرماس ونصيب وابن مناذر ، والسبب في ذلك أنهم كانوا يتكلمون لإدخال الغريب في أشعارهم جبراً وراء العجاج وتقليداً لمذهبه ، مع أنهم ربما ضلّوا فهم بعض الألفاظ الغريبة ، فأنزلوها في غير مواضعها .

وكانت للعجاج قدرة لغوية لاحدود لها ، وهذه القدرة أمكن له أن يحافظ على أبنية اللغة حيناً ، ويركّز فيها طويلاً ، ويتصرف بها أحياناً ، فهو مقتدر على ذلك كله ، شاعر أنه أبو اللغة ، يتصرّف بها كيف أراد ، ولهذا كان رجزه يحافظ على أصول كثيرة لبعض الصيغ العربية ، وربما كان بعضها لا وجود له في غير أراجيزه ، ومن ثمّ حافظ في رجزه على عدد من خصائص لهجة قومه بني تميم ، سواء في أبنية الألفاظ أو في معانيها ، ولا يبعد أن يكون العجاج قد ولد بعض الأبنية وأضافها إلى العربية ، ولذلك كان يفرّد في بعض الصيغ فلا تُعرّف إلا في رجزه ، وإذا ما ولد أو خلق بعض هذه الصيغ أو الأبنية ، فذلك لا يصدر إلا عن طبع وأصالة لغوية لديه ، فلا ينبز عن الذوق القوي ، ولا يبدو عليه شيء من التصنع أو التكلّف .

وقد وقفنا طويلاً عند تصرف العجاج في أبنية اللغة ، فكان أبسر صوره ما لاحظناه من أمثال القلب ، والابدال ، وفك المدغم ، وتحريك الساكن ، وتسكين المتحرك ، أو استعمال الجمع بدل المفرد ، أو الجمع بدل المثنى ، أو المثنى بدل المفرد ، أو المفرد بدل المثنى ، وهذه كلها يمكن أن نصادفها في أشعار القدماء ولكنها تتميز في رجز العجاج بالكثرة والوضوح ، وكأنها تزد عن قصد وتعمد ، لما يريد العجاج من إغراب في اللفظ ، أو نادرة

في المعاني .

ثم رأينا لديه تصرفاً أوسع في ألفاظ اللغة ، لا يفتقد عند قاعدته معروفة ، أو حدود مألوفة ، وذلك حين يلجأ إلى تزيين الألفاظ على هواه ، ثم بناؤها على قدر حاجته ، فيسقط من هذه الكلمة ما يريد ، ويبني تلك الكلمة على ما يشاء ، لأن هذا قد يبعث على الغموض والإيهام في فهم معناها ، ولكنه مع ذلك يحقق الإغراب في اللغة ، والندرة في الأبنية ، وهذا ما كلف به العجاج ، وكان غاية ما ينتخبه لألفاظ رجزه .

ولا حظنا أن العجاج قد جاوز التصرف في أبنية اللغة ، إلى التصرف في بعض الروابط النحوية المألوفة ، بما جعل من رجزه أحياناً مادة للخلاف بين النحاة ، ولا سيما بين مدرستي الكوفة والبصرة ، وقد وقفنا عند صور متعددة لخروجه على مألوف القواعد النحوية ، ورأيناها مما يثير الإشكال أحياناً حول رجزه ، ولكن هذا الإشكال ربما كان أيضاً لاعتماد العجاج على أساليب الحذف في تراكيبه ، أو الحمل على المعنى ، أو القلب المعنوي ، أو التصرف في الضائر ، أو التصرف في الجموع ، وقد أتينا بأمثلة متعددة لهذه الأساليب ، ورأينا أنها جميعاً مما يخرج إلى البعد في تأويل البيت حيناً ، أو الخلاف بين النحاة أحياناً .

وآخر ما لاحظناه أن الرجز أصبحت له خصائص تميزه من الشعر في مدونة العجاج ، وهذه الخصائص تجعل من الواجب أن ينظر إليه من زاوية خاصة ، وألا يطرح للمقارنة بينه وبين القصيد ، إذ أن لكل منها هدفاً وغاية ربما كانت تختلف اختلافاً جوهرياً في بعض الاتجاهات ، ولهذا لم نجد مسوغاً للمعري في اعتبار الرجز من « سفاسف الفريش » ، لأن مثل هذا الموقف من الرجز يغفل الهدف الرئيسي منه خلال القرن الهجري الأول ،

لأن كان الرجز لا يريد مجرد النظم ونقل المعاني ، ولكنه بالإضافة إلى ذلك يعنى بعدد من الخصائص اللفظية ، التي تجعله يتعاطف مع أبناء عصره ، ويولي رغبة الحنين إلى الماضي القريب ، ولو أن أبا العلاء كان قد نظر إلى مدونة الرجز من هذه الزاوية لما حطّ من قيمة الرجز أو الرّجاز .

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فهرس الموضوعات
عبد الرحمن النجدي
المعلم الدين (المؤرخ)

مقدمة : (٢ - ٨) .

تمهيد : الإطار السياسي والاجتماعي والفكري لعصر العجاج
(٢ - ٥٤) :

الإطار السياسي (٤ - ٢٠) : الأحداث الإسلامية الأولى وأثرها في
الشعر ٤ - مشكلة الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ٥ - مشكلة
الردة ٧ - مشكلة الخلافة بعد عمر بن الخطاب وفترة عثمان ٩ - تنازل
الحسن بن علي عن الخلافة وتفرد معاوية وما تسبب ذلك من أحداث
حتى قضاء عبد الملك على ابن الزبير ١٥ - الأحزاب السياسية : حزب ابن
الزبير ١٧ - حزب الخوارج ١٨ - حزب الشيعة ٢١ - الحرب الأموي ٢٧ .

الإطار الاجتماعي (٣٠ - ٤٢) : الفوضى في حياة الناس الاجتماعية ٣١ -
النفاق الاجتماعي ٣١ - العصية القبلية ٣٢ - الطبقات الاجتماعية والتمييز بين
العرب والموالي ٣٥ - اختلاف البيئات الاجتماعية باختلاف الأقاليم : البيئة
الاجتماعية في الحجاز ٣٧ - البيئة الاجتماعية في نجد ٣٩ - البيئة الاجتماعية
في العراق ٤٠ - البيئة الاجتماعية في الشام ٤١ .

الإطار الفكري (٤٢ - ٥٤) : الاتجاهات الفكرية التي عُنيت بتوضيح
أمور الدين الإسلامي ٤٢ - الجدل بين مدرستي الحجاز والعراق في الفقه ٤٣ -

دخول السياسة إلى التفكير العقلي ٤٥ - فرقة الجبرية وآراءها ٤٦ - فرقة القندية وآراءها ٤٧ - فرقة المرجئة وآراءها ٤٨ - فرقة المعتزلة وآراءها ٥٠ - الجدل بين الفرق وأثره في الشعراء ٥٣ .

الفصل الأول : حياة العجاج (١٠٠ - ٥٥) :

١ - نسبه وعشيرته (٥٥ - ٦٣) : نسب العجاج ٥٥ - لقبه وكنته ٥٦ - والده وهل عرف بقول الرجز ٥٧ - قومه بنو سعد واشتهر بهم بالرجز ٥٨ - جده لأمه كسبب ٥٩ - أخوه العباس ٥٩ - زوجته : عقرب والدهاء ٦٠ - أولاده : رؤبة وحزمة ٦٣ - أحفاده : عبد الله ، وعقبة ٦٣ .

٢ - نشأته وعمره ورحلته (٦٣ - ٧٦) : أخبار نشأته قليلة جداً في المصادر المختلفة ٦٣ - فقه كتاب ضائع ألفه الجلودى في أخبار العجاج ٦٤ - رأي الأوردت في تحديد الفترة التي عاشها العجاج والرد عليه ٦٤ - تحديد الموزاني لذلك ٦٤ - لم يذكره السجستاني في المعمرين ٦٥ - فترة حياته على وجه التقريب ٦٥ - فقه أدلة تشير إلى أنه 'عمر طويلاً ٦٥ - موطن العجاج في حاضرة البصرة ٦٧ - إقامته بالبصرة أو تردده عليها ٦٨ - رحلته إلى العراق والشام ٧٠ - رحلته إلى مدوحيه ٧١ - رحلته إلى الحجاز ٧٢ - صلته بشعراء عصره ٧٤ .

٣ - عقيدته (٧٦ - ٨٧) : رأي الأب لويس شيخو في عقيدة العجاج ٧٧ - مناقشته والرد عليه ٧٨ - أخلاقه الإسلامية وتفاؤه أبا هريرة ٨١ - الآثار الإسلامية الزاخرة في رجوه دليل على عمق الإسلام في نفسه ٨٣ .

٤ - شخصيته (٨٧ - ٩٩) : الجانب الأعراي في شخصيته وأثره في

- ٤٩٨ -

ألفاظه ومعانيه ٨٨ - الجانب الأخلاقي وأثره في أساليبه ومعانيه وموضوعاته ٨٩ - الصناعة ونائثره بأخلاق عصره ٩٢ - فقره كان من أسباب التكسب أحياناً ٩٣ - العناصر المكونة لشخصيته وثقافته ٩٣ - الحضارة الجديدة لم تغير كثيراً من ثقافته الأعراية ٩٣ - فصاحة العجاج وامتدادها إلى أبنائه ٩٤ - مظاهر ثقافته الأعراية ٩٥ - ربما كان العجاج يحسن الكتابة ٩٨ .

الفصل الثاني : مصادر رجز العجاج (١٠٠ - ١٤٨) :

١ - ديوان العجاج ١٠٠ - ١١٧ : فقه أشارات الى ديوانه منذ أواخر القرن الثالث إلى القرن الحادي عشر الهجري في كتب اللغة والأدب والتراجم ١٠٠ - ابن النديم أشار الى تصنيف الديوان على يد كل من الأصمعي وافي عمرو الشيباني ١٠١ - ابن خبير حفظ لنا سنداً متصلاً لرواية الأصمعي حتى القرن السادس ١٠١ - فقه نسخة لرواية الأصمعي في مكتبة فانتس ترقى إلى القرن السادس الهجري ١٠٢ - دلائل فيها تؤكد أنها من رواية أبي حاتم عن الأصمعي ، وتلتقي بذلك مع السند الذي أورده ابن خبير ١٠٣ - إشارات في بعض المصادر إلى قرأة أبي حاتم رجز العجاج على الأصمعي ١٠٤ - دلائل في جملة اللغة تؤكد رواية ابن دريد لرجز العجاج وشترحيه عن أبي حاتم عن الأصمعي ١٠٥ - فقه تلامذة آخرون للأصمعي نقلوا عنه ديوان العجاج ، وأبرزهم : عبد الرحمن بن أخي الأصمعي ، وأبو الفضل العباس بن الفرج الزبائني ، وأبو اسحق الزبائدي ١٠٦ - ترجمة الأصمعي راوي الديوان : اسمه ونسبه ١١١ ، ورده وأخلاقه ١١١ ، توثيق روايته ١١٢ ، نقله عن الأعراب ١١٣ ، فصاحته ١١٤ ، ذاكرته وحفظه ١١٤ ، شغفه بالرجز ١١٤ ، اتساع باعه في اللغة والغريب والناوادر والأخبار والأمثال ١١٦ ، وفاته ١١٧ .

٢ - شرح الديوان ١١٧ - ١٢٥ : نسبة الشرح إلى الأصمعي ١١٧ - وجود

- ٤٩٩ -

عبارات كثيرة نُقلت عنه في عدد من المصادر وعُزِّيت للأصمعي ١١٨ - زبادات أبي حاتم على شُرح الأصمعي ١٢٢ - فقه خمس عبارات أخرى يبدو أنها مزودة على الأصل ، بعضها من قِبَل أبي حاتم ، وبعضها من قِبَل الشَّيْخ ١٢٥ - خصائص شرح الأصمعي : الشرح اللغوي والاضطراب فيه ١٢٦ - الشواهد من القرآن والحديث والشعر القديم ١٢٦ - شرح الشواهد أحياناً ١٢٧ - شرح معاني الآيات بإيجاز ١٢٧ - الأمثال ١٢٨ - تعرُّضه أحياناً قليلة لبعض الأمور النحوية ١٢٩ - دقة عبارته وتقرُّبها إن لم يكن على ثقة تامة بما يقول ١٢٩ - الإشارة إلى الأصول الأعجمية لبعض الألفاظ ١٣٠ - الكشف عن الاختلاف بين اللهجات العربية في بنية بعض الألفاظ أو معناها ١٣٠ - ربما نقد أستاذة أبا عمرو بن العلاء في شرح بعض الألفاظ ١٣١ - وربما أتى بأحكام تتصل بالنقد أو بضرائر الشعر ١٣١ - وربما أورد أخباراً موجزة تقسم المناسبة لبعض الأراجيز ١٣١ - نقله عن أعراب البادية ١٣٢ - عنايته بالطرائف وال نوادر ١٣٢ - تنبّه الأصمعي إلى ظاهري : الانتحال ، والاضطراب ، في رجز العجاج ١٣٤ .

٢ - مصادر مختلفة ١٢٥ - ١٤٨ : دور أسرة العجاج في حمل رجزه من القرن الأول إلى عصر التدوين في القرن الثاني ١٣٦ - دور قبيلته في ذلك ١٣٩ - ربما كان العجاج يحسن الكتابة ، وهذا يعني أنه دون شيئاً من رجزه فساعد الرواة الأقربين منه على الأقل ١٤٠ - ولأراجيز العجاج ربما دُوِّنت كلها أو بعضها في كتاب بني سعد أو كتاب بني تميم قَبْلَ زمن الأصمعي ١٤٠ - الرواية والكتابة تضافرت على نقل رجزه إلى طبقة الرواة العلماء في القرن الثاني فاهتمت هذه الطبقة بروايته وشرحه ١٤٢ - ثم اهتم به خلال القرون المتعاقبة طبقات اللغويين والنحاة لما فيه من شواهد لاختصاص

- ٥٠٠ -

١٤٤ - لهذا كانت أهم مصادر رجزه هي المعاجم وكتب اللغة من فقه واشتقاق وغريب ونوادر ١٤٥ - ثم تلتها كتب التفسير والكتب التي صُنِّفت في غريب القرآن ، أو مشكله أو مجازيه ، أو ما أشبه ذلك ١٤٥ - ثم تلتها كتب النحو والصرف ١٤٦ - ثم كتب الأدب والنقد والمعاين ١٤٦ - ثم الكتب التي تناولت شرح الدواوين أو المختارات ، أو جمعت الأمثال أو أعلام البلدان أو صُنِّفت على شكل رسائل في موضوع من الموضوعات ، أو تعرَّضت لطائعات الحيوان ١٤٦ - وفيه أنواع من المصادر لا أثر فيها لرجز العجاج ١٤٧ - مصادر العجاج موثقة بوجه عام ١٤٧ .

الفصل الثالث : توثيق رجز العجاج (١٤٩ - ٢١١) :

١ - الانتحال في رجزه ١٤٩ - ١٥٥ : ظاهرة الانتحال في القرن الهجري الأول ١٤٩ - قلّة الانتحال في رجزه وأسباب ذلك ١٥٠ - اتهام الأصمعي لبنت من رائية العجاج ومناقشة ذلك ١٥٠ - اتهام الأصمعي للأرجوزة الخامسة ومن المرجح أنها منخولة فعلاً ١٥١ - الانتحال في الملققات الديوان وأسبابه ١٥٣ - ترجيح الانتحال في المقطعة (٣٤) من الملققات ١٥٣ - ترجيح الانتحال في المقطعة (٤٦) من الملققات ١٥٤ .

٢ - الاضطراب في رواية رجزه ١٥٥ - ٢١١ : الاضطراب ظاهرة معروفة في أدبنا القديم وأسباب ذلك ١٥٦ - الاضطراب في رجز العجاج يمكن أن يُصنّف في أربعة أقسام تبعاً للأسباب التي حملت عليه ١٥٦ - القسم الأول : الاضطراب مع أفراد أسرته : رؤبة ، وعبد الله بن رؤبة ١٥٦ - القسم الثاني : الاضطراب بسبب تشابه الأراجيز بينه وبين عدد من الرّجّاز أو من عُرف بقول الرجز ١٨٤ - القسم الثالث : الاضطراب بسبب وهم الرواة وخلطهم في نسبة الرجز إليه وإلى غيره من الشعراء ١٩٤ - القسم

- ٥٠١ -

الرابع : ما أشيد للعجاج وليس له ٢١٠ .

الفصل الرابع : موضوعات رجزه (٢١٢ - ٢٢٧) :

١ - موضوعات الرجز قبل العجاج ٢١٢ - ٢٢٤ : قدم الرجز عند العرب ٢١٢ - خصائص الرجز في الجاهلية ٢١٣ - الاختلاف بين رجز العجاج ورجز الجاهلية ٢١٥ - هذا الاختلاف لم يتر " إلا بعد أدوار من التطور ٢١٥ - القدماء لاحظوا أن الأغلب العجلى كان أول من أطال الرجز ونوع في موضوعاته ٢١٦ - تجديد الأغلب كان له أصداء في تطويل الرجز عند بعض معاصريه قبل أن يصل الأمر إلى العجاج ٢٢٠ - مناقشة الجاحظ في قول له يعزو فيه الرجز إلى امرئ القيس وطرفة بن العبد وليد ٢٢٢ - دور العجاج في تطوير موضوعات الرجز وبناء خصائصه بوجه عام ٢٢٤ .

٢ - موضوعات الرجز عند العجاج ٢٢٨ - ٣٠٧ :

أ - النسب والمديح ٢٢٩ - ٢٦٤ : غزل العجاج يتنازع مكانته التقليدي من منجز القصيدة القديمة ٢٢٩ - لديه أرجوزة واحدة أفردتها للغزل ٢٢٩ - في غزله تنوع يبرز في معاني الأبيات وعواطفها ٢٢٩ - غزل تقليدي مطلق في معانيه وعواطفه ٢٣٠ - غزل وجداني يكثر فيه من ذكر أيام الشباب ٢٣٣ - كاد بلامس غزل ابن أبي ربيعة في جعل نفسه معشوقاً لا عاشقاً ٢٣٦ - لكنه في أكثر غزله كان عاشقاً مدللًا خلافاً لابن أبي ربيعة ٢٣٦ - مشكلة تعدد الأسماء في غزله ٢٣٧ - غزله بليلى أوضح الغزل الوجداني، وفيه تبرز تجربة العجاج ومشاعره الإنسانية ٢٣٩ .

مدحه خلفاء الأمويين وأمرائهم وقادتهم ٢٤٢ - مدحه لمصعب بن الزبير ٢٤٥ - طبيعة التكسب في مديحه ٢٤٥ - الأغراض السياسية في أراجيز

- ٥٠٢ -

المديح ٢٤٩ - المعاني التقليدية في مديحه ٢٥٧ - المعاني الإسلامية الجديدة في مديحه ٢٦٠ - المعاني السليبية في مديحه ٢٦٠ .

ب - الفخر والهجاء ٢٦٤ - ٢٩٥ : التجديد في فخر العجاج شكلاً ومنهجاً ٢٦٤ - أثر المريد في تكوين أراجيز الفخر لديه ٢٦٥ - اتساع الجانب الفردي في فخره ٢٦٦ - أسباب ذلك ٢٦٦ - المعاني الفردية في هذا النوع من الفخر ٢٦٧ - الجانب القبلي كان لا بد منه في فخره أيضاً ٢٧٠ - أسباب ذلك ٢٧٠ - المعاني التي تناولها في هذا النوع من الفخر ٢٧٠ - الاتجاهات العصبية في فخره القبلي ٢٧٤ .

رأي العجاج في تحفّيه عن الهجاء ٢٧٧ - آراء القدماء في ذلك ٢٧٧ - الأسباب الحقيقية لتغلبه عن الهجاء ٢٨٠ - العجاج لم يتخلّ تماماً عن الهجاء ولما أوجد لنفسه نوعاً خاصاً يخلو من الفحش والمجازات يجدها وهزلاً ٢٩٠ - اعتاده على المعاني السياسية والنكح والسخرية والمفارقات المضحكة ٢٩٠ .

ج - الشعر الديني والحكمة ٢٩٥ - ٣٠٨ : الشعر الديني بين الجاهلية وعصر بني أمية ٢٩٥ - تأثير الشعر الديني بعقيدة العجاج وشخصيته ٢٩٦ - تفرّد الشعر الديني ببعض الأراجيز ٢٩٧ - اعتاده على معاني القرآن وأسلوبه ٢٩٨ - أسلوب المناجاة والمعاني الدينية بوجه عام ٣٠٠ - قد يرد الوعظ ضمن موضوعات المقدمة التقليدية في بعض الأراجيز ٣٠١ - القصص الديني ٣٠١ - وقد يرد في خاتمة الأرجوزة ٣٠٢ - أرجوزة متنازعة بين العجاج ورؤية وفيها حلّ الشعر الديني محلّ الأطلال والغزل في المنهج التقليدي ٣٠٢ .

مصادر الحكمة عند العجاج ٣٠٤ - حكمته تمتاز بالعمق والتأثير والحيوية ولكنها قليلة نسبياً ٣٠٤ - قد ترد الحكمة داخل المقدمات التقليدية

- ٥٠٣ -

٣٠٥ - وقد يسقط المقدمة التقليدية ويحل المطالع الدينية محلها ٣٠٦ - وقد ترد الحكمة في أذعاف الأرجوزة على سثة غيره من الشعراء ٣٠٧ - كثيراً ما تافق الحكمة أحاديث العجاج عما بلغه من الهرم والضعف والكبر ٣٠٧ .

د - الوصف ٣٠٨ - ٣٣٧ : اتساع الوصف في رجز العجاج ٣٠٨ - هذا الانساع يشبه أن يكون عالماً لدى شعراء عصره ومن تقدمهم ٣٠٩ - تفرّد العجاج في التخصص لأوصاف الصحراء ٣٠٩ - شهرته في وصف الإبل ٣٠٩ - خطأ رؤية وأبي النجم في وصف الحبل ٣١٠ - ولع الرّجّاز بأوصاف الإبل لم يحلّ دون وصف الحبل والإجادة فيه ٣١٠ - موضوعات الوصف عند العجاج : مشاهد الصحراء ، حيوان الصحراء ، مشاهد البحر والأنهار ، أوصاف المرأة ، أوصاف الحرب وأدوات القتال ٣١١ - الصور عند العجاج تنقسم إلى ذاتية وموضوعية ٣١٢ - الصور الذاتية النفسية : المفارقات في رسم هذه الصور ١١٣ ، الحوار أو المناجاة ١١٣ ، تصوير الواقع النفسي تصويراً مباشر ٣١٣ ، تصوير هواجس الطيوان ٣١٤ ، استخدام المناجاة في تصوير نفسية التور ٣١٥ - دقة العجاج في هذا التصوير لانجدها عند شعراء هذيل أو النابغة الذبياني أو زهير بن أبي سلمى ٣١٦ - تعاطف العجاج مع الموصوف وانتمائه معه في شخصية واحدة أحياناً ٣١٨ - الصور الخارجية الموضوعية : التوزيع والاستقصاء في رسم صوره ، الصور البصرية والسمعية ، الأركلن الفنية للصورة الأدبية في رجزه ٣٢٠ - الواقعية والحوار ٣٢٧ - الواقعية في ذكره أسماء البعير والناقة والباد والكلاب ٣٢٨ - الدقة في صوره واختيار الجزئيات الموحية والقطرات الموقفة ٣٢٨ - المفارقات الفنية ٣٣٠ - اعتاده على معاني الألفاظ ولإيجازها دون الاعتداد كلياً على التشبيه أو الاستعارة ٣٣١ - دور التشبيه في رجزه يقتصر على نقل الوصف من موضوع إلى آخر ،

- ٥٠٤ -

أو تزين الصور داخل المشهد الواحد ٣٣٤ - الاستعارة أوسع سلطاناً من التشبيه في رجزه لأنها أقرب إلى طبيعة التصوير بالألفاظ المعبرة ٣٣٦ .

الفصل الخامس : الخصائص الفنية في رجزه (٢٢٨ - ٢٨٨) :

١ - الخصائص المعنوية ٢٢٨ - ٢٧٤ : الوضوح المطلق قليل نسبياً في معانيه ٢٣٨ - قد تكون المعاني واضحة لايشوبها إلا غرابة الألفاظ ٢٣٩ - وقد تكون غامضة لأسباب كثيرة : الغموض بسبب استعمال لغات غريبة ٢٤٠ ، الغموض بسبب استعمال ألفاظ مألوقة ولكنها تختمل في البيت أكثر من وجه واحد ٢٤١ ، الغموض بسبب القالب المعنوي ٢٤٢ ، الغموض بسبب الحذف ٢٤٢ ، الغموض بسبب التقديم والتأخير ٢٤٣ ، الغموض بسبب تصرفه في أبنية الألفاظ ٢٤٤ - دور الطبيعة والصنعة في تصرف العجاج وغموض معانيه ٢٤٥ - طبيعة الصنعة في عصر العجاج ٢٤٦ - صنعة العجاج كانت تنصرف إلى التجويد والتائق في المعاني ٢٤٧ - المعاني الحسية في رجزه ٢٤٨ - الامثال الحسية المأدبة في معانيه ٢٥١ - المعاني التي أخذت عليه لأنها تتنافى مع ثقافته البدوية وطبعه الأعراي ٢٥٣ - سبب ذلك هو الارتباط الوثيق بين العجاج والبادية ٣٥٦ - وهذا كلف سبباً لظهور بعض المعاني الجاهلية في رجزه رغم أنها تتنافى مع تعاليم الإسلام ٣٥٦ - إلا أن المعاني الإسلامية كانت كثيرة جداً في رجزه ٣٥٨ - المعاني التي استمدتها من التراث الأدبي أو من شعراء بعينهم ٣٥٩ - تجويده في بعض المعاني المتداولة بين الشعراء ٣٦١ - تجويده في بعض المعاني ٣٦٢ - المعاني التي أخذها عنه عدد من الرّجّاز والشعراء لما فيها من جدة ولما كان لها من شهرة ٣٦٣ .

٢ - الخصائص اللفظية ٢٧٥ - ٢٨٨ : المتبحر الذي اتبعه في بناء الأرجوزة - ٥٠٥ -

٣٧٥ - اعتاده على المقدمات التقليدية في بعض الأراجيز ٣٧٥ - الجدة في اعتاده على مقدمات دينية سياسية لا أثر فيها للمعاني التقليدية ٣٧٧ - الجدة في اعتاده على المظالم القوية واسقاط المقدمات جميعاً ٣٧٨ - لاسموع لاحتمال ضياع المقدمات من هذه الأراجيز ٣٧٩ - اسهام العجاج في تطوير شكل القصيدة وجعلها تختص بموضوع واحد أحياناً ٣٧٩ - اسهامه في انتاع ظهور المقطعات لهذا العصر ٣٨٠ - لم يخرج عن وزن الرجز إلا نادراً جداً ٣٨٢ - الرجز يمتاز موسيقياً بالرتوب ٣٨٣ - عنابة العجاج بالجانب الموسيقي تخلصاً مما أمكن من رتوب الرجز ٣٨٣ - تكرار الألفاظ داخل البيت الواحد ٣٨٤ - التجنيس أو ما كان يسمى العجاج بـ « عطف الرجز » ٣٨٥ - تقسم البيت إلى فواصل موسيقية ٣٨٥ - التزام العجاج أحياناً في القوافي ما لا يلزمه سائر الشعراء ٣٨٦ - هذا الالتزام غو للذهب الصنعة في عصره ٣٨٧ .

الفصل السادس : الخصائص اللغوية والنحوية (٣٨٩ - ٤٧٥) :

١ - الإغراب في اللغة ٣٨٩ - ٤٠٦ : أنواع الغريب في رجزه ٣١٩ - تحديد القدماء لأنواع الغريب ٣٨٩ - الغريب الذي يحتاج إلى معالجات اللغة في رجزه ٣٩١ - الغريب الذي يحتاج إلى تدقيق النظر لاحتماله عدة وجود في المعنى ٣٩٣ - الإغراب في استعماله الألفاظ الأعجمية ٣٩٨ - أراجيزه أشبه بعراض لغريب اللغة ٤٠٣ - الغريب عند العجاج كان يصدر عن طبع فيقع في مواضعه ٤٠٣ - بعضهم حاول مجاراته فتكلف إدخال الغريب في شعره وهو يجهل معناه فقصر بذلك عن العجاج ، ومن هؤلاء : الكميث ، والظرماع ، ونصيب ، وابن مناذر ٤٠٤ - ذو الرمة تخطى عن الرجز خوفاً من غلبة العجاج ورؤبة ٤٠٥ - الرواة يصنفون الشعراء من اصحاب الغريب

- ٥٠٦ -

على درجات ٤٠٥ - أولع بهذا المذهب أبو تمام فكان من المآخذ عليه عند العلماء ٤٠٦ .

٢ - الحفاظ على اللغة ٤٠٦ - ٤٢١ : قدرته القوية ٤٠٦ - محافظته على أصول كثيرة لبعض الصيغ العربية ٤٠٧ - محافظته على جمهرة من نادر الألفاظ ٤١١ - محافظته على شيء من خصائص لهجة قومه بني تميم ٤١٣ .

٣ - توليد اللغزة ٤٢١ - ٤٢٨ : رأي ابن جني في تفرد ابن أحمر والعجاج ورؤبة بالألفاظ لم تسمع إلا في أشعارهم ٤٢١ - ارتجال العجاج لبعض الأبيات اللغوية ٤٢٢ - توليده في اللغة كان لا ينبو عن الذوق القوي لأنه يصدر عن أصالة وطبع لا تكلف فيه ٤٢٧ - اخفاق من حاول القياس على أبيته لافتقاره إلى الطبع والأصالة ٤٢٧ .

٤ - التصرف في إثنية اللغة ٤٢٨ - ٤٥٧ : تصرفات تقف عند حدود معروفة في قواعد الصرف أو العروض : القلب ٤٢٩ ، الإبدال ٤٣٢ ، فك الادغام ٤٣٧ ، تحريك الساكن ٤٣٩ ، تكسين المتحرك ٤٤٢ ، استعمال المثنى بدل المفرد ٤٤٥ ، أو المفرد بدل المثنى ٤٤٥ ، أو الجمع بدل المفرد ٤٤٦ ، أو الجمع بدل المثنى ٤٤٧ - تصرفات أخرى في إثنية الألفاظ تجعله يترك الكلمة ثم يبينها على هواه ٤٥٠ .

٥ - التصرف في قواعد النحو ٤٥٧ - ٤٧٢ : تصرفه في الروابط النحوية المألوفة في اللغة تحمل على الخلاف بين النحاة ولا سيما بين مدرستي الكوفة والبصرة ٤٥٧ - أمثلة لخروجه عن مالوف القواعد النحوية ٤٥٨ - قد بنشأ الإشكال في رجزه لاعتاده : أساليب الخلف ٤٦٣ ، أو الحذف على المعنى ٤٦٤ ، أو القلب المعنوي ٤٦٥ ، أو التصرف في الضمائر ٤٦٧ ،

- ٥٠٧ -

تصویب

الخطأ	الاصواب	الصفحة	السطر
الحسين	الطعن	١٥	١٦
لاذمة	لاذمة لهم	٣٢	١٥
رثافة	رتوب	٤٢	٢
أحدهما	لأحدهما	٤٢	٨
تَمَرٌ	تَمَرٌ	٨٤	٦
كالبرم	كالبرم	٩٨	١٦
خمسة	خمس	١٢٥	١٢
فازدردوا	فازدردوا	١٢٩	١
عمر	عرو	١٣٥	١٩
البند التاريخ	البند والتاريخ	١٤٨	١٠
يَفْرُجُ	يَفْرُجُ	١٥١	١٩
وأجزأ	وأجز	١٦٣	٧
مُحَرِّشًا	مُحَرِّشًا	١٧٦	١٠
مترجحين	مترجحون	١٨٠	١
عزاهما	عزاهما	١٨٠	٨
مترجمة	مترجمة	١٨٣	١٦
مَلَكًا	مَلَكًا	١٩٣	٤

- 0.9 -

او التصرف في المجموع ٤٦٨ - الخلاف بين النحاة لاختلافهم. أحياناً في فهم بعض آياته ٤٧٠ .

٦ - موقف أبي العلاء المغربي من الرجز ٤٧٢ - ٤٧٥ : سجّل أبو العلاء الرجز من سفاسف القريض ٤٧٣ - مناقشة ذلك والرد عليه ٤٧٣ - دور الرجز خلال القرنين الأول والثاني وتمييزه من الرجز في العصور التالية بمخاصصه والدوافع إليه ٤٧٤ .

• خاتمة : ٤٧٦ - ٤٩٥

فهرس الموضوعات : ٤٩٦ - ٥٠٨ .

- 0.4 -

الخط	الصواب	الصفحة	السطر
١٧	كثا .. فيها	١٩٦	١٧
٣	لعمرو	٢٠١	٣
٥	القيسي	٢٠٩	٥
١٠	لأنها	٢١٠	١٠
١٩	عمرو	٢٢٦	١٩
١٣	زفرقة	٢٣١	١٣
٢	معجيات	٢٣٤	٢
٥	توهم	٢٤٠	٥
٢٠	موزة	٢٤٦	٢٠
١٨	فالأسد بين	٢٥٨	١٨
٢	أحياناً	٢٦٧	٢
١٦	صفات	٢٧١	١٦
١٦	يحيي الموت	٢٩٧	١٦
٩	رتب	٣٠٣	٩
٢	أزرق	٣١٩	٢
١٤ ، ١٣	صور ، الصور	٣٢٠	١٤ ، ١٣
١٣	قال الإمام	٣٢٧	١٣
٢٠	رخصة	٣٣٤	٢٠
١٦	وريت	٣٥٢	١٦
٢٠١	معتق	٣٦١	٢٠١
٤	يضم	٣٦٢	٤
١٥	عبد الله بن قيس الرقيات	٣٦٦	١٥

الخط	الصواب	الصفحة	السطر
٢	ابن الرقيات	٣٦٧	٢
٨	الأبازيم	٣٦٨	٨
٢	معتق	٣٧٣	٢
١٤	وما	٣٨٠	١٤
١٨	العنان	٣٩١	١٨
٢١	ملحقات الديوان (٣) انظر اللسان والقاموس	٤٤٠	٢١
١٠	فالأسد بين	٤٤٢	١٠
١٦	سقاها	٤٧٣	١٦

رفع

عبد الرحمن النجدي
السنة النبوية والفقه